تفسير السمرقندي

المسمى

بحر العلوم

لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن ابراهيم السمرقندي
المتوفى سنة ٣٧٥ هـ

تحقيق وتعليق

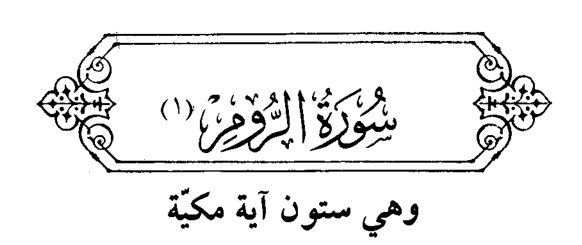
الشيخ علي محمد معوض
الشيخ عادل أحمد عبد الموجود
الدكتور زكريا عبد المجيد النوتي
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

الجزء الثالث

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٠٠/١٢١٢/٤٧٨١٣٧٣



وهي ستون آية مكيّة

بِسۡمِ اللَّهِ الرَّحۡمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى الۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ الۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ الۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ اللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ الۡعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ اللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ اللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ النَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾

قول الله سبحانه وتعالى ﴿الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ يعني: قهرت الروم ﴿فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ مما يلي فارس يعني: أرض الأردن وفلسطين ﴿وَهُمْ﴾ يعني: أهل الروم ﴿مِنْ بعد غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ أهل فارس وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتب إلى قيصر ملك الروم يدعوه إلى الإسلام فقرأ كتابه وقبله ووضعه على عينيه، وختامه بخاتمه، ثم أوثقه على صدره، ثم كتب جواب كتابه أنا نشهد أنك نبي ولكنا لا نستطيع أن نترك الدين القديم الذي اصطفى الله لعيسى فعجب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: قد ثبت الله ملكهم إلى يوم القيامة إلى أدنى الأرض منها بفتح الله عز وجل على المسلمين وكتب إلى كسرى ملك فارس فمزق كتابه ورجع الرسول بعدما أراد قتله فأخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد مزق الله ملكهم فلا ملك لهم أبداً إذا مات كسرى فلا كسرى بعده فلما ظهرت فارس على الروم اغتم المسلمون لذلك[٢] فنزل قوله تعالى: (الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومَ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ) وقال في رواية الكلبي إن مشركي قريش شتموا حين غلب المشركون أهل الكتاب فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه لم تشتمون فوالله ليظهرن الروم عليهم فقال أبي بن خلف

---

(١) أول أغراض هذه السورة سبب نزولها على ما سر المشركين من تغلب الفرس على الروم فقمع الله تعالى تطاول المشركين به وتحداهم بأن العاقبة للروم في الغلب على الفرس بعد سنين قليلة. ثم تطرق من ذلك إلى تجهيل المشركين بأنهم لا تغوص أفهامهم في الاعتبار بالأحداث ولا في أسباب نهوض وانحدار الأمم من الجانب الرباني ومن ذلك إهمالهم النظر في الحياة الثانية ولم يتعظوا بهلاك الأمم السالفة المماثلة لهم في الإشراك بالله وانتقل من ذلك إلى ذكر البعث. واستدل لذلك ولوحدانيته تعالى بدلائل من آيات الله في تكوين نظام العالم ونظام حياة الإنسان. ثم حض النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين على التمسك بهذا الدين وأثنى عليه. ونظر بين الفضائل التي يدعو إليها الإسلام وبين حال المشركين ورذائلهم. وضرب أمثالاً لإحياء مختلف الأموات بعد زوال الحياة عنها ولإحياء الأمم بعد يأس الناس منها وأمثالاً لحدوث القوة بعد الضعف وبعكس ذلك. وختم ذلك بالعود إلى إثبات البعث ثم بتثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووعده بالنصر.

ومن أعظم ما اشتملت عليه التصريح بأن الإسلام دين فطر الله الناس عليه وأن من ابتغى غيره ديناً فقد حاول تبديل ما خلق الله وأنى له ذلك انظر التحرير ٢١/٤٠، ٤١.

(٢) الحديث أخرج البخاري جزءاً منه ٨/١٢٦ كتاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى كسرى (٤٤٢٤)، وأحمد في المسند ٣/٤٤٢، ٢/٢٥٦ ـ ٤٣٧ ـ ٤٧٣.

والله لا يكون ذلك أبداً فتبايعا أبو بكر وأبي بن خلف لتظهرن الروم على أهل فارس إلى ثلاث سنين على تسع ذود فرجع أبو بكر إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبره بالأمر فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنطلق فزده في الخطر ومده في الأجل[١] فرجع أبو بكر إلى أبي بن خلف فقال أنا أبايعك إلى سبع سنين على عشر ذود فبايعه فلما خشي أبي بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة إلى المدينة مهاجراً أتاه فلزمه فكفل له عبد الرحمن بن أبي بكر فلما أراد أبي بن خلف أن يخرج إلى أحد أتاه محمد بن أبي بكر فلزمه فأعطاه كفيلاً ثم خرج إلى أحد فظهرت الروم على فارس عام الحديبية وذلك عند رأس سبع سنين فذلك قوله (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ) وروى أسباط عن السدي عن أصحابه قال اقتتلت فارس والروم فغلبتهم فارس ففخر أبو سفيان بن حرب على المسلمين وقال الذين ليس لهم كتاب غلبوا على الذين لهم كتاب فشق ذلك على المسلمين فلقي أبو بكر رضي الله عنه أبا سفيان فقامره على ثلاثة أبكار على أن الروم ستغلب فارس إلى ثلاث سنين ثم أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره فقال له انطلق فزد في الجعل وزد في السنين فزايده إلى سبع سنين على سبعة أبكار فالتقى الروم وفارس فغلبتهم الروم وظهر عليهم هرقل فجاءه جبريل عليه السلام بهزيمة فارس وظهور الروم عليهم ووافق ذلك يوم بدر وظهور النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المشركين[٢] ففرح المؤمنون بظهورهم على المشركين وظهور أهل الكتاب على أهل الشرك ويقال إن أهل الروم كانوا أهل كتاب وكان المسلمون يرجون إسلامهم وأهل فارس كانوا مجوساً فكان المسلمون لا يرجون إسلامهم وكانوا يحزنون لغلبة فارس عليهم فنزل الۤمۤ غلبت الروم في أدنى الأرض أي أقرب الأرض إلى أرض فارس وهم من بعد غلبهم سيغلبون روي عن الفراء أنه قال: يعني من بعد غلبتهم ولكن عند الإضافة سقطت الهاء كما قال وأقام الصلاة ولم يقل وإقامة الصلاة، وقال الزجاج: هذا غلط وإنما يجوز ذلك في المعتل خاصة والغلب والغلبة كلاهما مصدر وسيغلبون ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ يعني: إلى خمس سنين ويقال إلى سبع سنين روي عن أبي عبيدة أنه قال البضع من واحد إلى أربعة، وقال القتبي: البضع ما فوق الثلاثة إلى دون العشرة وقال مجاهد: البضع ما بين الثلاث إلى التسع[٣]، ويقال من بعد غلبهم، وهذا اللفظ يكون للغالبين وللمغلوبين كقولهم من بعد قتلهم ثم قال عز وجل: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ يعني: لله الأمر حين غلبت الروم فارس ومن بعدُ يعني حين غلبت الروم فارس ولفظ القبل والبعد إذا كان في آخر الكلام يكون رفعاً على معنى الإضافة للغاية ولو كان إضافة إلى شيء يكون خفضاً كقولك من بعدهم ومن قبلهم ثم قال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لما يرجون من إسلامهم، ويقال يفرح أبو بكر رضي الله عنه خاصة ويقال يفرح المؤمنون بتصديق وعد الله تعالى، وروي عن الشعبي أنه قال: كان ذلك عام الحديبية فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فبايعوه مبايعة الرضوان ووعد لهم غنائم خيبر، وظهرت الروم على فارس وكان تصديقاً لهذه الآية ويومئذ يفرح المؤمنون وإنما جازت مخاطرة أبي بكر رضي الله عنه لأن المخاطرة كانت مباحة في ذلك الوقت ثم حرمت بقوله: (إنما الخمر والميسر) الآية ثم قال: ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ يعني: بفتح الله ﴿يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: نصر الله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين حين نصرهم قوله عز وجل: ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ نصب الوعد لأنه مصدر ومعناه وعد الله وعداً يعني انتصروا وعد الله ثم قال: ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ حيث وعد لهم غلبة الروم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

---

(١) انظر معالم التنزيل للبغوي ٣/٤٧٦، تفسير القرطبي ١٤/٤.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور مرفوعاً ٥/١٥٢ وعزاه للطبراني في الأوسط عن نيار بن مكرم قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ البضع... فذكره.

يعني: الكفار لا يعلمون أن الله عز وجل لا يخلف وعده ويقال لا يعلمون الآخرة.

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: يعلمون حرفتهم وأمر معايشهم ومتى يدرك زرعهم ويقال في أمر التجارة[1] كانوا أكيس الناس وقال الحسن كان الرجل منهم يأخذ درهماً ويقول وزنة كذا ولا

---

(١) اعلم أنه يجب على كل مسلم في هذا الزمان: أن يتدبر آية الروم هذه تدبراً كثيراً ويبين ما دلت عليه لكل من استطاع بيانه له من الناس. وإيضاح ذلك أن من أعظم فتن آخر الزمان التي ابتلى الله بها ضعاف العقول من المسلمين شدة إتقان الإفرنج لأعمال الحياة الدنيا ومهارتهم فيها على كثرتها واختلاف أنواعها مع عجز المسلمين عن ذلك فظنوا أن من قدر على تلك الأعمال أنه على الحق وأن من عجز عنها متخلف وليس على الحق، وهذا جهل فاحش وغلط فادح. وفي هذه الآية الكريمة إيضاح لهذه الفتنة وتخفيف لشأنها أنزله الله في كتابه قبل وقوعها بأزمان كثيرة فسبحان الحكيم الخبير ما أعلمه وما أعظمه وما أحسن تعليمه. فقد أوضح جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن أكثر الناس لا يعلمون ويدخل فيهم أصحاب هذه العلوم الدنيوية دخولاً أولياً فقد نفى عنهم جل وعلا اسم العلم بمعناه الصحيح الكامل، لأنهم لا يعلمون شيئاً عمن خلقهم فأبرزهم من العدم إلى الوجود ورزقهم وسوف يميتهم ثم يجازيهم على أعمالهم ولم يعلموا شيئاً عن مصيرهم الأخير الذي يقيمون فيه إقامة أبدية في عذاب فظيع دائم: ومن غفل عن جميع هذا فليس معدوداً من جنس من يعلم كما دلت عليه الآيات القرآنية المذكورة ثم لما نفى عنهم جل وعلا إسم العلم بمعناه الصحيح الكامل أثبت لهم نوعاً من العلم غاية الحقارة بالنسبة إلى غيره. وعاب ذلك النوع المذكور من العلم بعيبين عظيمين:

أحدهما: قلته وضيق مجاله لأنه لا يجاوز ظاهراً من الحياة الدنيا والعلم المقصور على ظاهر من الحياة الدنيا في غاية الحقارة وضيق المجال بالنسبة إلى العلم بخالق السماوات والأرض جل وعلا والعلم بأوامره ونواهيه وبما يقرب عبده منه وما يبعده منه وما يخلد في النعيم الأبدي والعذاب الأبدي من أعمال الخير والشر.

والثاني منهما: هو دناءة هدف ذلك العلم وعدم نيل غايته لأنه لا يتجاوز الحياة الدنيا وهي سريعة الانقطاع والزوال ويكفيك من تحقير هذا العلم الدنيوي أن أجود أوجه الإعراب في قوله ﴿يعلمون ظاهراً﴾ أنه بدل من قوله قبله لا يعلمون فهذا العلم كلا علم لحقارته.

قال الزمخشري في الكشاف وقوله: يعلمون بدل من قوله: لا يعلمون وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسده ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا. وقوله ﴿ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعيم بملاذها وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة وفي تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من ظواهرها. وهم الثانية يجوز أن يكون مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبر هم الأولى وأن يكون تكريراً للأولى وغافلون: خبر الأولى وأية كانت فذكرها مناد على أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرها ومحلها وأنها منهم تتبع وإليهم ترجع انتهى كلام صاحب الكشاف. وقال غيره: وفي =

يخطىء[1] ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بها ويقال عن أمر الآخرة وما وعدوا فيها من الهول والعذاب هم غافلون ثم وعظهم فقال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فيعتبروا في خلق السموات والأرض وروى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال تفكر ساعة خير من قيام ليلة ثم قال: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يعني: للحق[2] ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني: السموات والأرض لهن أجل ووقت معلوم ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ

= تنكير قوله: ظاهراً تقليل لمعلومهم وتقليله بقربه من النفي حتى يطابق المبدل منه أ هـ ووجهه ظاهر. واعلم أن المسلمين يجب عليهم تعلم هذه العلوم الدنيوية وهذه العلوم الدنيوية التي بينا حقارتها بالنسبة إلى ما غفل عنه أصحابها الكفار إذا تعلمها المسلمون وكان كل من تعليمها واستعمالها مطابقاً لما أمر الله به على لسان نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ: كانت من أشرف العلوم وأنفعها لأنها يستعان بها على إعلاء كلمة الله ومرضاته جل وعلا وإصلاح الدنيا والآخرة فلا عيب فيها إذن كما قال تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ فالعمل في إعداد المستطاع من القوة امتثالاً لأمر الله تعالى وسعياً في مرضاته وإعلاء كلمته ليس من جنس علم الكفار الغافلين عن الآخرة كما ترى والآيات بمثل ذلك كثيرة. والعلم عند الله تعالى. انظر أضواء البيان ٤٧٧/٦ ـ ٤٧٨ ـ ٤٧٩.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٥٢/٥ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وعن الحسن بنحوه.

(٢) الحق هنا هو ما يحق أن يكون حكمة لخلق السموات والأرض وعلة له وحق كل ماهية ونوع هو ما يحق أن يتصرف به من الكمال في خصائصه وأنه به حقيق كما يقول الأب لابنه القائم ببره: أنت ابني حقاً ألا ترى أنهم جعلوا تعريف النكرة بلام الجنس دالاً على معنى الكمال في نحو: أنت الحبيب لأن اسم الجنس في المقام الخطابي يؤذن بكماله في صفاته وإنما يعرف حق كل نوع بالصفات التي بها قابليته ومن ينظر في القابليات التي أودعها الله تعالى في أنواع المخلوقات يجد كل الأنواع مخلوقة على حدود خاصة بها إذا هي بلغتها لا تقبل أكثر منها فالفرس والبقرة والكلب الكائنات في العصور الخالية وإلى زمن آدم لا تتجاوز المتأخرة من أمثالها حدودها التي كانت عليها فهي في ذلك سواء. دلت على ذلك تجارب الناس الحاضرين لأجيالها الحاضرة وأخبار الناس الماضين عن الأجيال المعاصرة لها وقياس ما كان قبل أزمان التاريخ على الأجيال التي انقرضت قبلها حاشا نوع الإنسان فإن الله فطره بقابلية للزيادة في كمالات غير محدودة على حسب أحوال تجدد الأجيال في الكمال والارتقاء وجعله السلطان على هذا العالم والمتصرف في أنواع مخلوقات عالمه كما قال: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ وذلك بما أودع فيه من العقل. ودلت المشاهدة على تفاوت أفراد نوع الإنسان في كمال ما يصلح له تفاوتاً مترامي الأطراف كما قال البحتري:

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً ... لدى الفضل حتى عد ألف بواحد

فدلت التجربة في المشاهدة كما دلت الأخبار عن الماضي وقياس ما قبل التاريخ على ما بعده كل ذلك دل على هذا المعنى، ولأجل هذا التفاوت كلف الإنسان خالقه بقوانين ليبلغ مرتقى الكمال القابل له في زمانه مع مراعاة ما يحيط به من أحوال زمانه، وليتجنب إفساد نفسه وإفساد بني نوعه وقد كان ما أعطيه نوع الإنسان من شعب العقل مخولاً إياه أن يفعل على حسب إرادته وشهوته وأن يتوخى الصواب أو أن لا يتوخاه فلما كلفه خالقه باتباع قوانين شرائعه ارتكب واجتنب فالتحق تارة بمراقي كماله وقصر تارة عنها قصوراً متفاوتاً فكان من الحكمة أن لا يهمل مسترسلاً في خطوات القصور والفساد وذلك إما بتسليط قوة ملجئة عليه تستأصل المفسد وتستبقي المصلح وإما ما راضته على فعل الصلاح حتى يصير منساقاً إلى الصلاح باختياره المحمود إلا أن حكمة أخرى ربانية اقتضت بقاء عمران العالم وعدم استئصاله وبذلك تعطل استعمال القوة المستأصلة فتعين استعمال إراضته على الصلاح فجمع الله بين الحكمتين بأن جعل ثواباً للصالحين على قدر صلاحهم وعقاباً للمفسدين بمقدار عملهم واقعاً ذلك كله في عالم غير هذا العالم وأبلغ ذلك إليهم على ألسنة رسله وأنبيائه وإزالة للوصمة وتنبيهاً على الحكمة فخاف فريق ورجا فارتكب واجتنب وأعرض فريق ونأى فاجترح واكتسب وكان من حق آثار هاته الحكم أن لا يحرم الصالح من ثوابه وأن لا يفوت المفسد بما به ليظهر حق أهل الكمال ومن دونهم من المراتب فجعل الله بقاء أفراد النوع في هذا العالم محدوداً بآجال معينة وجعل لبقاء هذا العالم كله أجلاً معيناً حتى إذا انتهت جميع الآجال جاء يوم الجزاء على الأعمال وتميز أهل النقص من أهل الكمال فكان جعل الآجال لبقاء المخلوقات من جملة الحق الذي خلقت ملابسة له ولذلك نبه عليه بخصوصه اهتماماً بشأنه وتنبيهاً على مكانه وإظهاراً أنه المقصود بكيانه فعطفه على الحق للاهتمام به كما عطف ضده على الباطل في قوله ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا =

النّاس بِلقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ يعني: جاحدون للبعث ثم خوفهم فقال عـز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: الأمم الخالية كان عاقبتهم الهلاك ثم أخبر عنهم فقال ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ﴾ قال مقاتل يعني ملكوا الأرض وقال الكلبي يعني: حرثوها ويقال أثاروا الأرض إذا قلبوها للزراعة ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ يعني: عمروا الأرض ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ يعني: أهل مكة، ويقال: عاشوا فيها أكثر مما عاش أهل مكة ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: بالحجج الواضحات فكذبوهم فأهلكهم الله عز وجل: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: ليعذبهم بغير ذنب ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالمعاصي قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءوا﴾ يعني: آخر أمر الذين أشركوا ﴿السُّوأَىٰ﴾ يعني: العذاب فيجوز أن تكـون ثم على معنى التأخير ويجوز أن يكون معناه ثم مع هذا كان عاقبة الذين قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو عاقبة بالضم وقرأ الباقون بالنصب (فمن قرأ بالضم جعله اسم كان[١] وجعل السوء خبر كان ومـن قرأ بالنصب جعل العاقبة خبر كان) والسوء اسم كان ومعنى القراءتين يرجع إلى شيء واحد يعني ثم كان عاقبة الكافرين النار لتكذيبهم بآيات الله عز وجل والسوء ها هنا جهنم كما أن الحسنى الجنة ثم قال: ﴿أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: عاقبة جهنم لأنهم كذبوا بآيات الله ما جاءت بها الرسل ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعني: بآيات الله ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني: يحييهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة قرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر يرجعون بالياء على معنى الإخبار عنهم وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة.

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يعني: واذكر يوم تقوم الساعة ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني: ييأس المشركون من كل خير ويقال أيسوا من إقامة الحجة، ويقال: يبلس المجرمون يعني: يندمون قـال الزجـاج: المبلس[٢] الساكت المنقطع الحجة الآيس من أن يهتدي إليها ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ يعني: من الملائكة ومن الأصنام ﴿وَكَانُوا بِشركَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يعني: تبرأت الملائكة عليهم السلام منهم وتبرأت الأصنام عنهم ثم قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ يعني: بعد الحساب يتفرقون فريق في الجنة وفريق في النار ثم أخبر عن مرجع كل فريق فقال ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: الذين صدقوا بالله ورسوله وأدوا الفرائض والسنن ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ قال مقاتل يعني: بستان يكرمـون وينعمون[٣] وقـال السدي

= ترجعون﴾ فقال: ﴿أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾. انظر التحرير ٢١/٥٢، ٥٣، ٥٤.

(١) انظر حجة القراءات ٥٥٦، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٥٤.

(٢) قال ابن منظور: أبلس الرجل: قطع به. وأبلس: سكت. وأبلس من رحمة الله أي يئس وندم. انظر لسان العرب ١/٣٤٣.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٥٣ وعزاه لابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس.

يحبرون أي يفرحون ويكرمون وقال مجاهد يحبرون يعني: ينعمون[1] وقال القتبي يحبرون يعني: يسيرون وينعمون والحبرة السرور ومنه يقال مع كل حبرة عبرة وقال الزجاج يحبرون يعني: يحسنون إليهم يقال للعالم حبر وللمداد حبر لأنه يحسن به الكتابة ويقال يحبرون أي يسمعون أصوات المغنيات قوله عز وجل: ﴿**وأَمَّا**[2] **الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا**﴾ يعني: بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿**وَلِقَاءِ الآخِرَةِ**﴾ يعني: البعث بعد الموت ﴿**فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ**﴾ يعني: مقرنين ويقال يجتمعون هم وآلهتهم.

فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾

قوله عز وجل: ﴿**فَسُبْحَانَ اللَّهِ**﴾ يعني: صلوا لله ﴿**حِينَ تُمْسُونَ**﴾ يعني: صلاة المغرب والعشاء ﴿**وَحِينَ تُصْبِحُونَ**﴾ يعني: صلاة الفجر وعشياً يعني صلاة العصر وحين تظهرون على معنى التقديم والتأخير أي صلاة الظهر ﴿**وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ**﴾ يعني: يحمده أهل السموات وأهل الأرض ويقال له الألوهية في السموات والأرض كقوله عز وجل (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وفي الأَرْضِ إِلَهٌ) يقال وله الحمد يعني الحمد على أهل السموات وأهل الأرض لأنهم في نعمته فالحمد واجب علينا ﴿**يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ**﴾ يعني: الدجاجة من البيضة والإنسان من النطفة والمؤمن من الكافر ﴿**ويخرج الميت من الحي**﴾ يعني: البيضة من الدجاجة والكافر من المؤمن ﴿**ويحيي الأرض بعد موتها**﴾ يعني: ينبت النبات من الأرض بعد يبسها وقحطها بالمطر ﴿**وكذلك تخرجون**﴾ يعني: يحييكم بالمطر الذي يمطر من البحر المسجور كالمني فتحيون به وقال مقاتل يرسل الله عز وجل يوم القيامة ماء الحيوان من السماء السابعة من البحر المسجور على الأرض بين النفختين فينتشر عظام الموتى فذلك قوله وكذلك تخرجون، قرأ حمزة والكسائي تخرجون بفتح التاء والباقون برفع التاء يعني:

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٥٣ وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد.
(٢) سقط في ظ.

تخرجون من قبوركم يوم القيامة قوله عز وجل ﴿وَمِنْ آيَتِهِ﴾ قال مقاتل يعني: ومن علامات الرب أنه واحد وإن لم يروه وعرفوه توحيده بصنعه ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَاب﴾ يعني: خلق آدم من تراب وأنتم ولده ﴿ثُمَّ ذا أَنْتُمْ﴾ ذريته من بعده ﴿بَشَرٌ تَنْتَشِرَون﴾ يعني: تبسطون كقوله وينشر رحمته يعني ويبسط ويقال ومن آياته يعني من العلامات التي تدل على أن الله عز وجل واحد لا مثل له ظهور القدوة التي يعجز عنها المخلوقون أن خلقكم من تراب يعني: آدم عليه السلام ثم إذا أنتم بشر منتشرون على وجه الأرض[١] ثم قال عز وجل ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ يعني: من علامات وحدانيته ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني: من جنسكم ﴿أَزْوَاجاً﴾ لأنه لو كان من غير جنسه لكان لا يستأنس بها ويقال من أنفسكم يعني: خلقها من آدم ويقال من بعضكم بعضاً ﴿لِتَسْكُنوا إِلَيْهَا﴾ يعني: لتستقر قلوبكم عندها لأن الرجل إذا طاف البلدان لا يستقر قلبه فإذا رجع إلى أهله اطمأن واستقر، ويقال لتسكنوا إليها يعني: لتوافقوها ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مودَّةً وَرَحْمَةً﴾ يعني: الحب بين الزوج والمرأة ولم يكن بينهما قرابة ويحب كل واحد منهما صاحبه ويقال وجعل بينكم مودة للصغير على الكبير ورحمة للكبير على الصغير ويقال وجعل بينكم مودة ورحمة يعني الولدان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ يعني: فيما ذكر لعلامات لوحدانيته ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أني خالق قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ وأنتم تعلمون ذلك لأنهم مقرون أن الله عز وجل خالقهم وهو خالق الأشياء ﴿واخْتِلَاف أَلسِنَتِكُمْ﴾ أي عربي وعجمي ونبطي ﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾ أي أحمر وأبيض وأسود وأسمر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ يعنى: لعلامات في خلق السموات والأرض واختلاف الألسن والألوان لعلامات ﴿للعالمين﴾ فيعتبرون قرأ عاصم في رواية حفص (للعالمين) بكسر اللام يعني جميع العلماء يعني إن في ذلك علامة للعقلاء وقرأ الباقون بنصب اللام يعني علامة لجميع خلق الأنس والجن قوله عز وجل: ﴿وِمِنْ آياتِهِ منامكم بالَّليل والنهار﴾ منامكم نومكم فهو مصدر يقال نام نوماً ومناماً بالليل والنهار على معنى التقديم يعني منامكم بالليل ﴿وابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالنهار. يعني: طلبكم الرزق بالنهار والمعيشة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ يعني: لعلامات على وحدانيتي ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ المواعظ ويعتبرون قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً﴾ من الصواعق إذا كنتم بأرض قفر ﴿وَطَمَعاً﴾ للمطر خوفاً وطمعاً منصوبان على المفعول له المعنى يريكم للخوف والطمع خوفاً للمسافر وطمعاً للمقيم ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني المطر ﴿فَيُحِيِي بِهِ الأَرْضَ﴾ أي: بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ أي: لعلامات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله عز وجل فيوحدونه قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ﴾ يعني: فوق رؤوسكم بغير عمد لا يناله شيء وتقوم الأرض على الماء تحت أقدامكم ﴿وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أي بقدرته ﴿ثُمَّ إِذَادَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ﴾ يعني: إسرافيل عليه السلام يدعوكم على صخرة بيت المقدس في الصور دعوة من الأرض ﴿إِذَا أَنْتُم تَخْرُجُونَ﴾ وقال بعضهم في الآية تقديم ومعناه ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض يعني من قبوركم فإذا أنتم تخرجون قرأ حمزة والكسائي تخرجون بنصب التاء وضم الراء وقرأ الباقون بضم التاء ونصب الراء[٢] ثم قال عز وجل ﴿وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ من الخلق ﴿كُلٌ لَهُ قَانِتُون﴾ يعني: مقربين بالعبودية يعلمون أن الله عز وجل ربهم ويقال قانتون أي خاضعون له لا يقدرون أن يغيروا أنفسهم عما خلقهم، ويقال: معناه في كل شيء دليل ربوبيته وهذا أيضاً من آياته ولكنه لم يذكر لأنه قد سبق ذكره مرات فكأنه يقول ومن آياته أن له من في السموات والأرض كل له قانتون.

---

(١) سقط في أ.

(٢) حجة من قرأ بفتح الثاء قوله تعالى: ﴿يخرجون من الأجداث﴾ وقوله ﴿إلى ربهم ينسلون﴾. وحجة الباقين قوله تعالى: ﴿تخرج الموتى﴾. انظر حجة القراءات ٥٥٧.

وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: خلق آدم فبدأ خلقهم ولم يكونوا شيئاً ثم يعيده يعني: يبعثهم في الآخرة أحياء ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ يعني: في المثل عندكم لأن ابداء الشيء أشد من إعادته ويقال إن ابتداءه كان نطفة ثم جعله علقة ثم جعله مضغة ثم لحماً ثم عظاماً وفي الآخرة حال واحد وذلك (هو أهون عليه) من هذا، وقال القتبي: عن أبي عبيدة وهو أهون عليه يعني: هين عليه كما يقال الله أكبر أي الكبير، ويقال: الإعادة أهون عليه من البداية والبداية عليه هين ثم قال: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ يعني: الصفات العلى بأنه واحد لا شريك له ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره ثم قال عز وجل: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً﴾ (نزلت في كفار قريش كانوا يعبدون الآلهة ويقولون في إحرامهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك قال الله تعالى ضرب لكم مثلاً أي)[1] وصف لكم شبهاً ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَل لَّكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعني: من العبيد ﴿من شركاء فيما رزقناكم﴾ من الأموال ﴿فأنتم﴾ وعبيدكم ﴿فيه سواءٌ﴾ في الرزق فيما أعطيناكم من الأموال والملك ثم قال: ﴿تخافُونَهُمْ كَخيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال مقاتل: يعني أتخافون عبيدكم أن يرثوكم بعد الموت كما تخافون أن يرثكم الأحرار فقالوا: لا، فقال: أترضون لله الشركة في ملكه وتكرهون لأنفسكم قال الكلبي: هل لكم مما ملكت أيمانكم شركاء فيما رزقناكم من أموالكم من عبيدكم وإماتكم فأنتم وهم فيه سواء تخافوهم كخيفتكم أنفسكم يقول: كما يخاف الرجل ابنه وعمه وأقاربه قالوا: لا قال: فأنتم لا ترضون هذا لأنفسكم أن يكونوا فيما تملكون يشاركونكم في أموالكم فكيف ترضون لله ما لا ترضون به لأنفسكم، وقال السدي: ضرب لكم مثلاً هذا مثل ضربه الله عز وجل في الميراث للآلهة يقول هل لكم مماليك شركاء في الميراث الذي ترثونه من آبائكم وأنتم تخافون أن يدخل معكم مملوككم في ذلك الميراث كما تدخلون أنتم فيه فكما لا يكون للملوك أن يدخل في مواريثكم فكذلك لا يكون لهذا الوثن الذي تعبدونه من دون الله عز وجل أن يدخل في ملكي وإنما خلقي وعبيدي قال أبو الليث رحمه الله عز وجل: وفي الآية دليل أن العبد لا ملك له لأنه أخبر أن لا مشاركة للعبيد فيما رزقنا الله عز وجل من الأموال ثم قال عز وجل: ﴿كذلك نُفَصِّلُ الآياتِ﴾ يعني: نبين العلامات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الأمثال فيوحدونه ثم قال عز وجل: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني: اتبع الذين كفروا أهواءهم بعبادة الأوثان ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني: بغير حجة ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ يعني: فمن يهدي إلى توحيد الله من أضله الله وخذله وطرده ويقال فمن يرشد إلى الحق من خذله الله عز وجل: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يعني: مانعين من عذاب الله.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ

(١) سقط في ظ.

ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾

قوله عز وجل: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً**﴾ أي: أخلص دينك الإسلام للدين حنيفاً يعني: للتوحيد مخلصاً ويقال: يذكر الوجه ويراد به هو فكأنه يقول: فأقم الدين مخلصاً ويقال: معناه فاقبل بوجهك إلى الدين وأقم عليه حنيفاً أي مخلصاً مائلاً إليه ويقال: أخلص دينك وعملك لله تعالى وكن مخلصاً ثم قال ﴿**فطرة الله**﴾ يعني: اتبع دين الله ويقال اتبع ملة الله ويقال الفطرة الخلقة يعني خلقة الله ﴿**الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ أي خلق البشر عليها كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة هل تحسبون فيها من جدعاء»[1] وروي عن أبي هريرة أنه قال: «اقرأوا إن شئتم (فطرة الله الذي فطر الناس عليها)» يعني خلق الناس عليها[2] وفي الخبر أنه قال (كل مولود يولد على الفطرة لأنه شهد يوم الميثاق)[3] ثم قال: ﴿**لا تبديل لخلق الله**﴾ يعني: لا تغيير لدين الله ويقال لا تبديل لخلق الله عندما خلق الله الخلق لم يكن لأحد أن يغير خلقته ثم قال: ﴿**ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾ يعني: التوحيد هو الدين المستقيم ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ يعني: كفار مكة لا يعلمون بتوحيد الله. قوله عز وجل: ﴿**مُنِيبِين إِلَيْهِ**﴾ انصرف إلى قوله (فَأَقِمْ وَجْهَكَ) يعني: فأقبل بوجهك منيباً إليه ويجوز أن يخاطب الرئيس بلفظ الجماعة لأن له أتباعاً وإنما يراد به هو وأتباعه كما قال (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ) منيبين إليه يعني: راجعين إليه من الكفر إلى التوحيد ﴿**وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾ يعني: وأتموا الصلوات الخمس ﴿**وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ على دينهم ﴿**مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ**﴾ يعني: تركوا دين الإسلام الذي أمروا به ﴿**وَكَانُوا شِيَعاً**﴾ فجعلوه أدياناً يعني: تركوا دينهم وصاروا فرقاً اليهود والنصارى والمجوس قرأ حمزة والكسائي

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ٢٩٠ كتاب الجنائز باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣٨٥) وأبو داود (٤٧١٤) والترمذي (٢١٣٨) وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٣، ٢٧٥، ٢٨٢.

اختلف السلف في المراد بالفطرة في هذا الحديث على أقوال كثيرة وحكى أبو عبيد أنه سأل محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة عن ذلك فقال: كان هذا في أول الإسلام قبل أن تنزل الفرائض وقبل الأمر بالجهاد قال أبو عبيد: كأنه عنى أنه لو كان يولد على الإسلام فمات قبل أن يهوده أبواه مثلاً لم يرثاه والواقع في الحكم أنهما يرثانه فدل على تغير الحكم. وقد تعقبه ابن عبد البر وغيره وسبب الاشتباه أنه حمله على أحكام الدنيا فلذلك ادعى فيه النسخ والحق أنه إخبار من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما وقع في نفس الأمر ولم يرد به إثبات أحكام الدنيا. وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام قال ابن عبد البر: وهو المعروف عند عامة السلف وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها**﴾ الإسلام واحتجوا بقول أبي هريرة في آخر حديث الباب: اقرأوا إن شئتم ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها**﴾ وبحديث عياض بن حمار عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يرويه عن ربه (إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين عن دينهم) الحديث. وقد رواه غيره فزاد فيه (حنفاء مسلمين) ورجحه بعض المتأخرين بقوله تعالى: ﴿**فطرة الله**﴾ لأنها إضافة مدح وقد أمر نبيه بلزومها فعلم أنها الإسلام وقال ابن جرير: قوله: ﴿**فأقم وجهك للدين**﴾ أي سدد لطاعته ﴿**حنيفاً**﴾ أي مستقيماً ﴿**فطرة الله**﴾ أي صبغة الله. انظر فتح الباري ٣/ ٢٩٢، ٢٩٣.

(٢) انظر الدر المنثور ٥/ ١٥٥.

(٣) أخرجه أبو داود ٤/ ٢٣٠ كتاب السنة (٤٧١٦).

فارقوا بالألف وقرأ الباقون فرقوا بغير ألف فمن قرأ فارقوا يعني: تركوا دينهم، ومن قرأ فرقوا دينهم يعني: افترقت اليهود إحدى وسبعين فرقة، والنصارى اثنين وسبعين فرقة، والمسلمون ثلاثة وسبعين فرقة ﴿**كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾ يعني: كل أهل دين بما عندهم من الدين راضون قوله عز وجل: ﴿**وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ**﴾ يعني: إذا أصاب الكفار شدة ﴿**دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ**﴾ يعني: منقلبين إليه بالدعاء عند الشدة والقحط ﴿**ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً**﴾ يعني: إذا أصابهم من الله نعمة وهي السعة في الرزق والخصب ﴿**إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ**﴾ يعني: تركوا توحيد ربهم في الرخاء وقد وحدوه في الضراء قوله عز وجل: ﴿**لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُم**﴾ قال مقاتل تقول: أذاقهم رحمة لئلا يكفروا بالذي أعطاهم من الخير ويقال كانت النعمة سبيلاً للكفر فكأنه أعطاهم لذلك كما قال: (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَونَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحُزناً) وقرىء في الشاذ يشركون ليكفروا بجزم اللام فيكون أمراً على وجه الوعيد والتهديد ثم قال: ﴿**فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ يعني: فتمتعوا قليلاً إلى آجالكم فسوف تعلمون ما يفعل بكم يوم القيامة ثم قال عز وجل: ﴿**أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً**﴾ يعني: كتاباً من السماء ﴿**فَهُوَ يَتَكَلَّمُ**﴾ يعني: ينطق ﴿**بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ**﴾ يعني: بما كانوا يقولون من الشرك، اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به النفي يعني: لم ينزل عليهم حجة بذلك وقال القتبي: فهو يتكلم فهو من المجاز ومعناه أنزلنا عليهم برهاناً يستدلون به فهو يدلهم على الشرك ويقال: أم أنزلنا عليهم عذراً بذلك.

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿**وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا**﴾ يعني: المطر والسعة ﴿**وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ**﴾ يعني: الجوع والشدة ﴿**بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ يعني: جزاء لذنوبهم ﴿**إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ**﴾ يعني: آيسين من الرزق قرأ أبو عمرو الكسائي يقنطون بكسر النون وقرأ الباقون بالنصب وهما لغتان ومعناهما واحد ، ثم وعظهم ليعتبروا ويطمئنوا بالرزق فقال عز وجل: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ يعني: يوسع وكان يرى صلاح العبد في ذلك ﴿**وَيَقْدِرُ**﴾ يعني: يضيق العيش ويكون صلاحه في ذلك من البسط والتقتير ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ**﴾ يعني: في البسط والتقتير ﴿**لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ يعني: يصدقون قوله عز وجل: ﴿**فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ**﴾ يعني: فأعط ذا القربى حقه وحق القرابة هو الصلة ﴿**وَالْمِسْكِينَ**﴾ يعني: أعطي السائل حقه وحقه أن يتصدق عليه بشيء ﴿**وَابْنَ السَّبِيلِ**﴾ يعني: الضيف النازل وحقه أن تحسن إليه ﴿**ذَلِكَ خَيْرٌ**﴾ يعني: الذي وصف من صلة القرابة والمسكين وابن السبيل ذلك خير ﴿**لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ**﴾ يعني: أي يريدون بذلك رضاء الله خير من الإمساك عندهم ﴿**وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ يعني: الناجون ويقال: الباقون في النعمة ويسمى السحور فلاحاً لأنه يبقي للصائم قوة ﴿**وَمَا آتَيْتُم مِن رِباً**﴾ يعني: ما أعطيتم من عطية ﴿**لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ**﴾ يعني: ليزدادوا في أموال ومعناه ما أعطيتم من

عطية لتلتمسوا بها الزيادة ﴿فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: فلا تضاعف تلك العطية عند الله عز وجل ما أعطيتم عند الله ولا يأثم فيه وروى معمر عن قتادة عن ابن عباس قال هي هبة يريد أن يثاب أفضل منها فذلك الذي لا يربو عند الله ولا يؤجر فيه صاحبه ولا إثم عليه ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ﴾ قال هي الصدقة[١] ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله[٢] وقال عكرمة الربا ربوان ربا حلال وربا حرام فأما الحلال فهو هبة الرجل يريد أن يثاب ما هو أفضل منها وأما الحرام (فزيادة خالية عن العوض في عقد المعاوضة وهو نوعان ربا الفضل وربا النساء عرف ذلك في كتب الفقه[٣] قرأ ابن كثير وما أتيتم بغير مد يعني ما جئتم وقرأ الباقون بالمد يعني ما أعطيتم واتفقوا في الثاني أنه بالمد[٤] وقرأ نافع لتربو بالتاء والضم والباقون)[٥] بالياء والنصب[٦] فمن قرأ بالنصب فمعناه لتستزيدوا أنتم زيادة في المال يعني: لتكثروا أموالكم بما أعطيتم ومن قرأ ليربو بالياء معناه ليربو المعطي فيكثر حتى يرد ما هو أكثر منه، ثم بين ما يربو فيه فقال: «وما أتيتم من زكاة» يعني: ما أعطيتم من صدقة تريدون وجه الله يعني رضا الله ففيه الإضعاف فأولئك هم المضعفون للواحد عشرة فصاعداً، ويقال: المضعفون أي الواجدين من الضعف كما يقال أكذبته إذا وجدته كاذباً ثم أخبر عن صنعه ليعرف توحيده فقال عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ ولم تكونوا شيئاً ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ يعني: أطعمكم ما عشتم في الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث بعد الموت لينبئكم بما عملتم في الدنيا ويجازيكم ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ يعني: يفعل كفعله ثم نزه نفسه فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٧] (وقد ذكرناه ويقال: الله الذي خلقكم وطلب منكم العبادة ثم رزقكم وطلب الطمأنينة ثم يميتكم وطلب منكم الاستعداد للموت ثم يحييكم وطلب منكم الحجة والبرهان)[٨].

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٥٦/٥ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/وعزاه للفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) الربا في اللغة الفضل والزيادة يقال ربا الشيء يربو رباً وربواً أي زاد.

وفي الشرع هو فضل أحد المتجانسين على الآخر من مال بلا عوض. وفي الصحاح: والربا في البيع ويثنى ربوان وربيان وقد أربى الرجل والرُّبْيَة مخففة لغة في الربا وكان القياس رُبْوَة. النَّساء: بالمد لا غير: التأخير يقال بعته بنَسَاء ونسيء ونسيئة بمعنى، كذا في المغرب وفي الصحاح: ونسأت الشيء نسأ: أخرته وكذلك أنسأته فعلت وأفعلت بمعنى.

والنساء بالضم: التأخير وكذلك النسيئة على فعيلة وبعته بنساءة وبعته بكلأة وبعته بنسيئة أي بأخِرَةٍ وقال الأخفش: أنسأته الدّين: إذا جعلته له مؤخراً ونسأته دينه إذا أخرته نساء بالمد وكذلك النساء في العمر ممدود ومنه قوله: من سره النساء ولا نساء فليخفف الرداء وليباكر الغداء وليقل غشيان النساء. انظر أنيس الفقهاء ٢١٤ - ٢١٥. وانظر الصحاح ٦/٢٣٥٠، المغرب ٣١٨/١ تبين الحقائق ٨٥/٤ حاشية ابن عابدين ١٦٨/٥ طلبة الطلبة ١١٠.

(٤) انظر حجة القراءات ٥٥٩.

(٥) سقط في ظ.

(٦) حجة من قرأ بالتاء أنها كتبت في المصاحف بالألف بعد الواو وحجة الباقين الذي بعده وهو قوله تعالى: ﴿فلا يربو عند الله﴾ ولم يقل: فلا تربون. المصدر السابق وانظر النشر في القراءات العشر ٣٤٤/٢.

(٧) قرأ حمزة والكسائي: ﴿سبحانه وتعالى عما تشركون﴾ بالتاء وحجتهما في ذلك أن ذلك أتى عقيب الخطاب في قوله: ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم﴾ فجرى ما بعد ذلك على لفظ ما تقدمه من الخطاب. وقرأ الباقون: بالياء. جعلوا الكلام (خبراً) عن أهل الشرك. انظر حجة القراءات ٥٥٩ - ٥٦٠.

(٨) سقط في ظ.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يعني: قحط المطر ونقص الثمار للناس والدواب يعني: نقص النبات في البر للدواب والوحوش وفي البحر يعني القرى والأرضين ينقصان الثمار والزرع سمى القرى والمدائن بحراً لما يجري فيها من الأنهار، ويقال البحر نفسه لأنه إذا لم يكن مطر فإنه لا يخرج منه اللؤلؤ ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي: بما عملوا من المعاصي، ويقال: من أذنب ذنباً فجميع الخلق من الإنس والجن والدواب والوحوش والطير والذر خصماؤه يوم القيامة لأنه يمنع المطر بالمعصية فيضر بأهل البر والبحر، وروي عن ثقيف الزاهد[1] أنه قال من أكل الحرام فقد خان جميع الناس حيث لا يستجاب دعاؤه، ويقال: ظهر الفساد في البر والبحر يعني: ظهرت المعاصي في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس يعني: بكسب الناس، فأول فساد البر كان من قابيل حيث قتل أخاه هابيل، وأول فساد البحر كان من جلندا حيث كان يأخذ كل سفينة غصباً وقال عطية العوفي ظهور الفساد: قحوط المطر، قيل له هذا فساد البر، فما فساد البحر؟ قال: إذا قل المطر قل الغوص وقال قتادة: ظهر الفساد في البر والبحر يعني امتلأت الضلالة والظلم في الأرض وروي عن أبي العالية أنه قال: البر الأعضاء والبحر القلوب يعني ظهر الفساد في الناس في الأعضاء وفي القلوب ثم قال: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ يعني: يعذبهم ببعض ذنوبهم في الدنيا ويدخر البعض في الآخرة والذوق إنما هو كناية عن التعذيب فكأنه يقول يعذبهم بالجوع والقحط في الدنيا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لكي يرجعوا عن الكفر قرأ ابن كثير لنذيقهم بالنون أي لنذيقهم نحن وقرأ الباقون بالياء يعني: ليذيقهم الله عز وجل[2] ثم خوفهم فقال عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي سافروا فيها ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ يعني: كيف كان آخر أمر من كان قبلهم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ فيعتبروا بذلك والنظر على وجهين: يقال نظر إليه إذا نظر بعينه، ونظر فيه إذا تفكر بقلبه، وها هنا قال فانظروا ولم يقل فيه ولا إليه فهو على الأمرين جميعاً ثم قال عز وجل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ يعني: أخلص دينك الإسلام القيم يعني: المستقيم، ويقال أقبل بوجهك إليه ويقال اثبت عليه ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني: يوم القيامة لا يقدر أحد أن يرد ذلك اليوم من الله، ويقال يعني: ذلك اليوم من الله ويقال لا خلف لذلك الوعد من الله ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ يعني: يتصدعون فأدغم التاء في الصاد وشدد يعني: يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير ثم قال عز وجل: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ يعني: جزاء كفره وعقوبته ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً﴾ يعني: وحده وعمل بالطاعة بعد التوحيد ﴿فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ قال مقاتل: أي يقدمون وقال مجاهد: يعني لأنفسهم يفرشون في القبر[3] ويقال في

---

(١) شقيق بن سلمة أبو وائل الكوفي الأسدي إمام كبير أدرك زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يره توفي زمن الحجاج بعد الجماجم سنة ٨٢ طبقات القراء ١/٣٢٨.

(٢) انظر حجة القراءات ٥٦٠، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٥.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٥٧ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي نعيم في الحلية والبيهقي في عذاب القبر بنحوه.

الجنة، ويقال فلأنفسهم يعملون ويستعدون قوله عز وجل: ﴿لِيجْزيَ الّذِينَ آمَنُوا﴾ ينصرف إلى قوله يصدعون يعني: يتفرقون لكي يجزي الذين آمنوا ﴿وَعمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني: من رزقه ويقال من ثوابه ويقال بفضله ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ بتوحيد الله عز وجل ويقال لا يرضى دين الكافرين.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَمِن آيَاتِهِ أن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ﴾ يعني: ومن علامات وحدانيته أن يعرفوا توحيده بصنعه أن يرسل الرياح ﴿مُبشِّرَاتٍ﴾ بالمطر ويقال يستبشر بها الناس ويقال فإذا كان الاستبشار به ينسب الفعل إليه ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني: ليصيبكم من نعمته وهو المطر ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ يعني: السفن تجري في البحر بالرياح بأمره ﴿وَلِتَبْتَغوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني: لتطلبوا في البحر من رزقه كل هذا بالرياح ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ رب هذه النعم فتوحدوه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالأمر والنهي فكذبوهم كما كذب قومك ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ بالعذاب يعني: من الذين كفروا ﴿وَكَانَ حَقاً عَلَيْنَا﴾ يعني: واجباً علينا ﴿نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنجاة مع رسولهم وإنما هو وجوب الكرم لا وجوب اللزوم ثم أخبر عن صنعه ليعتبروا فقال الله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً﴾ يعني: تدفعه وتهيجه يقال ثار الغبار إذا ارتفع ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ يعني كيف يشاء الله عز وجل إن شاء بسطه مسيرة يوم أو أكثر ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً﴾ يعني: قطعاً ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ يعني: المطر يخرج من خلاله من وسط السحاب ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ يعني: بالمطر ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يعني: يفرحون بنزول المطر عليهم قرأ ابن عامر كسفاً بالجزم وقرأ الباقون بالنصب ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِيْنَ﴾ أي: من قبل نزول المطر عليهم لمبلسين يعني: آيسين من المطر، وقال الأخفش: تكرير قبل للتأكيد، وقال قطرب: الأول للتنزيل والثاني للمطر ثم قال: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ يعني: ألوان النبات من أثر المطر منه الأخضر والأحمر والأصفر قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص وابن عامر إلى آثار رحمة الله بلفظ الجماعة قرأ الباقون أثر بلفظ الوحدان لأن الوحدان يغني عن الجمع [1] ثم قال: ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ حين لم يكن فيها نبات ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ يعني: هذا الذي فعل ﴿لَمُحْيِي الْمَوتى﴾ في الآخرة ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً﴾ يعني: الزرع متغيراً بعد خضرته ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ يعني:

(١) كما قال الله تعالى: ﴿هم أولاء على أثري﴾ ولم يقل: آثاري. انظر حجة القراءات ٥٦١، النشر في القراءات العشر ٢/ ٣٤٥.

لصاروا وأصله العمل بالنهار ويستعمل في موضع صار كقوله أصبح وأمسى يوضع موضع صار من بعده يكفرون أي من بعد اصفراره يكفرون النعم يقول لو فعلت ذلك لفعلوا هكذا، ويقال: قوله فرأوه إشارة إلى النبات لأن الريح مؤنثه وإنما أراد ما ينبت بالمطر، ويقال: معناه أنهم يستبشرون إذا رأوا الغيث ويكفرون إذا انقطع عنهم النبات ثم ضرب لهم مثلاً آخر فقال:

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ فشبه الكفار بالموتى فكما لا يسمع الموتى النداء فكذلك لا يجيب ولا يسمع الكفار الدعاء إذا دعوا إلى الإيمان ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ يعني: أن الأصم إذا كان مقبلاً لا يسمع فكيف إذا ولى مدبراً فكذلك الكافر لا يسمع إذا كان يتصامم عند القراءة والقراءة ذكرناها في سورة النمل[1] ثم

---

(١) هي قراءة ابن كثير (ولا يسمع) بالياء وفتحها (والصمُّ) بالرفع أي ورده البيضاوي على تسليم ذلك بأن فرضها بالمدينة لا ينافي تشريعها بمكة على غير إيجاب. والأغراض التي اشتملت عليها هذه السورة تتصل بسبب نزولها الذي تقدم ذكره أن المشركين سألوا عن قصة لقمان وابنه وإذا جمعنا بين هذا وبين ما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ من أن المراد به النضر بن الحارث إذ كان يسافر إلى بلاد الفرس فيقتني كتب قصة أسفنديار ورستم وبهرام وكان يقرؤها على قريش. ويقول: يخبركم محمد عن عاد وثمود وأحدثكم أنا عن رستم واسفنديار وبهرام فصدّرت هذه السورة بالتنويه بهَدْي القرآن ليعلم الناس أنه لا يشتمل إلا على ما فيه هدى وإرشاد للخير ومُثل الكمال النفساني فلا التفات فيه إلى أخبار الجبابرة وأهل الضلال إلا في مقام التحذير مما هم فيه ومن عواقبه فكان صدر هذه السورة تمهيداً لقصة لقمان وقد تقدم الإلماع إلى هذا في قوله تعالى في أول سورة يوسف ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ ونبهت عليه في المقدمة السابعة بهذا التفسير.

وانتقل من ذلك إلى تسفيه النضر بن الحارث وقصصه الباطلة. وابتدىء ذكر لقمان بالتنويه بأن آتاه الله الحكمة وأمره بشكر النعمة وأطيل الكلام في وصايا لقمان وما اشتملت عليه: من التحذير من الإشراك ومن الأمر ببر الوالدين ومن مراقبة الله لأنه عليم بخفيات الأمور وإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر والتحذير من الكبر والعجب والأمر بالاتسام بسمات المتواضعين في المشي والكلام. لا ينقادون للحق لعنادهم كما لا يسمع الأصم مايقال له. وقرأ الباقون ﴿لا تُسْمِعُ﴾ بالتاء (الصمَّ) بالنصب خطاب لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحجتهم قوله تعالى: ﴿فإنك لا تُسْمِع الموتى﴾ فأسند الفعل إلى المخاطب فكذلك

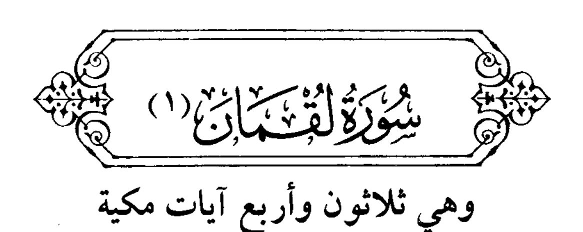
قال عز وجل: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ﴾ إلى الإيمان ﴿عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ يعني: لا تقدر أن توفقه وهو لا يرغب عن طاعتي في طلب الحق ﴿إِنْ تُسْمِعُ﴾ يعني: ما تسمع ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ يعني: بالقرآن ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يعني: مخلصون ثم أخبرهم عن خلق أنفسهم ليعتبروا ويتفكروا فيه فقال عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ يعني: من نطفة ويقال صغيراً لا يعقل ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ يعني: شدة بتمام خلقه ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً﴾ يعني: بعد الشباب الهرم ﴿وَشَيْبَةً﴾ أي شمطاً[١] قرأ عاصم في رواية حفص وحمزة من ضعف بنصب الضاد وقرأ الباقون من ضعف بالضم وهما لغتان ومعناهما واحد[٢] ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يحول الخلق كما يشاء من الصورة ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ العليم بتحويل الخلق القدير يعني: القادر على ذلك قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني: يحلف المشركون ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ في الدنيا يقول الله عز وجل كذلك كانوا يكذبون بالبعث كما أنهم كذبوا حيث قالوا ما لبثوا يعني في القبور غير ساعة ويقال: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ لأنهم يقولون مرة (إن لَبِثْتُمْ إلَّا عَشراً) ومرة يقولون (لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) ومرة يقولون (ما لبثنا غير ساعة) فيقول الله تعالى هكذا كانوا في الدنيا ثم قال عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيْمَانَ﴾ يعني: أكرموا بالعلم والإيمان ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في علم الله، ويقال: فيما كتب الله عز وجل وقال مقاتل: في الآية تقديم يعني: وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله والإيمان وهو ملك الموت لقد لبثتم في كتاب الله ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ ويقال الذين أوتوا العلم بالكتاب وأوتوا الإيمان وهم العلماء ثم قال: ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: لا تصدقون بهذا اليوم في الدنيا ثم قال عز وجل: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: أشركوا ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر ولا تنفع بالتاء بلفظ التأنيث لأن لفظ المعذرة مؤنثة وقرأ الباقون بالياء[٣] فينصرف إلى المعنى يعني عذرهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يقال عتب يعتب إذا غضب عليه وأعتب يعتب إذا رجع عن ذنبه واستعتب إذا طلب منه الرجوع يعني: أنه لا يطلب منهم الرجوع في ذلك اليوم ليرجعوا ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ يعني: وصفنا وبينا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: شبه ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ﴾ كما سألوا ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: المشركون من أهل مكة ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ يعني: يقولون ما أنت إلا كاذب وليس هذا من الله عز وجل كما كذبوا بانشقاق القمر يقال أبطل الرجل إذا جاء بالباطل وأكذب إذا جاء بالكذب، فقال: إن أنتم إلا مبطلون يعني: كاذبون ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ يعني يختم الله عز وجل ﴿عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: لا يصدقون بالقرآن وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فيما وعد لكم من النصر على عدوكم وإظهار دين الإسلام حق، ويقال: فاصبر إن وعد الله حق يعني: صدق في العذاب ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ يعني: يستنزلنك عن البعث ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي لا يصدقون ويقال لا يستخفنك يعني: لا يحملنك تكذيبهم على الخفة يعني: كن حليماً صبوراً وقوراً، ويقال: لا يستخفنك فتدعو عليهم بتعجيل العذاب فيهلك الذين لا يوقنون بالعذاب والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

= تسند إليه ما بعد ليكون الكلام على نظام واحد. انظر حجة القراءات ٥٦١.

(١) قال ابن منظور الشمط في الشعر: اختلافه بلونين من سواد وبياض... والشمط في الرجل شيب اللحية ويقال للرجل أشيب والشمط بياض شعر الرأس يخالط سواده. انظر لسان العرب ٤/٢٣٢٧.

(٢) انظر المصدر السابق، وإتحاف فضلاء البشر ٢/٣٥٩، والنشر في القراءات العشر ٢/٣٤٥.

(٣) انظر حجة القراءات الموضع السابق.



سُورَةُ لُقْمَانَ (١)

وهي ثلاثون وأربع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

قول الله تبارك وتعالى ﴿الٓمٓ تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ﴾ يعني هذه آيات القرآن المحكم من الباطل، ويقال: أحكم حلاله وحرامه، ويقال: محكم لا يرد عليه التناقض ﴿هُدًى﴾ يعني بياناً من الضلالة، ويقال هادياً ﴿وَرَحْمَةً﴾ من العذاب ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يحسنون العمل، وهم المؤمنون، لأن كل مؤمن محسن قرأ حمزة هدى ورحمة بالضم والباقون بالنصب،[٢] فمن قرأ بالضم فعلى الإضمار، ومعناه هو هدى ورحمة على معنى تلك هدى ورحمة، ومن نصب فهو على الحال المعنى تلك آيات في حال الهداية والرحمة ثم نعت المحسنين فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يعني يقرون بها ويتمونها قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يعني يقرون بها ويؤدونها ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ﴾ يعني بالبعث الذي فيه جزاء أعمالهم ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بأنها كائنة ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني أهل هذه الصفة ﴿عَلَى هُدًى مِن رَّبِّهِمْ﴾ يعني بيان من ربهم بيّن لهم طريقهم ووفقهم لذلك ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ يعني الفائزون بالخير.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ

---

(١) هي مكية كلها عند ابن عباس في أشهر قوليه وعليه إطلاق جمهور المفسرين وعن ابن عباس من رواية النحاس استثناء ثلاث آيات من قوله تعالى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ إلى قوله ﴿بما تعملون خبير﴾ وعن قتادة إلا آيتين إلى قوله ﴿إن الله سميع بصير﴾ وفي تفسير الكواشي حكاية قول إنها مكية عدا آية نزلت بالمدينة وهي ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ قائلاً لأن الصلاة والزكاة فرضت بالمدينة.

وسلكت السورة أفانين ذات مناسبات لما تضمنته وصية لقمان لابنه وأدمج في ذلك تذكير المشركين بدلائل وحدانية الله تعالى و بنعمه عليهم وكيف أعرضوا عن هديه وتمسكوا بما ألفَوْا عليه آباءهم. وذكرت مزية دين الإسلام وتسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتمسك المسلمين بالعروة الوثقى وأنه لا يحزنه كفر من كفروا. وانتظم في هذه السورة الرد على المعارضين للقرآن في قوله ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ وما بعدها وختمت بالتحذير من دعوة الشيطان والتنبيه إلى بطلان ادعاء الكهان على الغيب. انظر التحرير ٢١/١٣٧ ـ ١٣٨ ـ ١٣٩.

(٢) انظر حجة القراءات ٥٦٣، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٦١.

حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ يعني من الناس ناس يشترون أباطيل الحديث وهو النضر بن الحارث كان يخرج إلى أرض فارس تاجراً ويشتري من هنالك من أحاديثهم ويحمله إلى مكة، ويقول لهم: إن محمداً يحدثكم بالأحاديث طرفاً منها، وأنا أحدثكم بالحديث تاماً ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ﴾ يعني يصرف الناس عن دين ﴿اللَّهِ﴾ عز وجل ويقال: يشتري جواري مغنيات قال أبو الليث رحمه الله: حدثني الثقة بإسناده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا التجارة فيهن وأكل أثمانهن حرام[1] وفيه أنزل الله عز وجل هذه الآية (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ) وروى مجاهد عن إبن عباس رضي الله عنه في قوله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ) قال: شراء المغنية ويقال: لهو الحديث هاهنا الشرك يعني يختار الشرك على الإيمان ليضل عن سبيل الله عز وجل يعني ليصرف الناس بذلك عن سبيل الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني بغير حجة ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً﴾ يعني سبيل الله عز وجل لأن السبيل مؤنث كقوله تعالى (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي) ويقال ويتخذها هزواً يعني آيات القرآن التي ذكرفي أول السورة استهزاء بها حيث جعلها بمنزلة حديث رستم واسفنديا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضل بنصب الياء وقرأ الباقون بالضم[2] فمن قرأ بالنصب فمعناه ليضل بذلك عن سبيل الله يعني بترك [دين][3] الإسلام ومن قرأ بالضم يعني بصرف الناس عن دين الإسلام ويصرف نفسه أيضاً، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص (ويتخذها) بنصب الذال وقرأ الباقون بالضم[4] فمن نصبها ردها على قوله ليضل يعني لكي يضل ولكي يتخذها هزواً ومن قرأ بالضم ردها على قوله ومن الناس من يشتري لهو الحديث ويتخذها وقال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يهانون به قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ يعني إذا قرىء عليه القرآن ﴿وَلَّى مُسْتَكْبِراً﴾ يعني أعرض مستكبراً عن الإيمان والقرآن ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يعني كأن لم يسمع ما في القرآن من الدلائل والعجائب ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾ أي ثقلاً فلا يسمع القرآن يعني يتصامم ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فلما ذكر عقوبة الكافر ذكر على أثر ذلك ثواب المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ في الآخرة ﴿خَالِدِينَ﴾ يعني دائمين ﴿فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أوجبه الله عز وجل لأهل هذه الصفة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ حكم بالعذاب للكافرين والنعيم للمؤمنين ثم بين علامة وحدانيته فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي خلقها بغير عمد ترونها بأعينكم، ويقال: معناه بغير عمد ترونها أنتم يعني لها عمد ولكن لا ترونها والعمد جماعة العماد ثم قال: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ يعني الجبال الثوابت ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يعني لكيلا تزول بكم الأرض ثم قال: ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ يعني وخلق فيها في الأرض ويقال وبسط فيها ﴿مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن ٦/١٥ كتاب البيوع باب ما جاء في بيع المغنيات والطبراني في الكبير ٨/٢٣٣ وبلفظ نهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخرجه ابن ماجه ٢/٧٣٣ كتاب التجارات (٢١٦٨).

(٢) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٦٤٦.

(٣) سقط في أ.

(٤) انظر حجة القراءات ٥٦٣، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٦.

السَّماءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ وقد ذكرناه ثم قال: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ يقول هذا الذي خلقت أنا ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الذين تدعونه إلهاً من دونه يعني الأصنام، ويقال هذا خلق الله يعني مخلوق الله، ويقال: هذا صنع الله ثم قال: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي الكافرون في خطأ بين لا يعتبرون ولا يتفكرون فيما خلق الله عز وجل فيعبدونه ويقال في ضلال مبين يعني في خسران بين قوله عز وجل:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ وقال مجاهد يعني أعطينا لقمان العقل والفقه والإصابة في غير نبوة، ويقال أيضاً الحكمة العقل والإصابة في القول وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال ما زهد عبد في الدنيا إلا أثبت الله تعالى الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه وبصره عيوب الدنيا وعيوب نفسه، وإذا رأيتم أخاكم قد زهد في الدنيا فاقتربوا إليه فاستمعوا منه فإنه يلقى الحكمة[1] وقال السدي: ولقد آتينا لقمان الحكمة يعني: النبوة، وعن عكرمة قال: كان لقمان نبياً وعن وهب بن منبه قال: كان لقمان رجلاً حكيماً ولم يكن نبياً[2] وروي عن ابن عباس قال: كان لقمان عبداً

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٢/١٣٧٣ من حديث أبي خلاد قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهداً في الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة وقال في الزوائد ٢٦٨/٣ لم يخرج ابن ماجه لأبي خلاد سوى هذا الحديث وليس له رواية في شيء من الخمسة الأصول. قال المزي في الأطراف: قال البخاري وقال أحمد بن إبراهيم: حدثنا يحيى بن سعيد بن أبان بن سعيد بن العاص أخو عنبسة سمع أبا فروة الجزري عن أبي مريم عن أبي خلاد عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال وهذا أصح. انظر الزوائد ٢٦٨/٣.

(٢) اختلف السلف في أن لقمان المذكور في القرآن كان حكيماً أو نبياً. فالجمهور قالوا: كان حكيماً صالحاً واعتمد مالك في الموطأ على الثاني فذكره في جامع الموطأ مرتين بوصف لقمان الحكيم وذلك يقتضي أنه اشتهر بذلك من بين علماء المدينة وذكر ابن عطية: أن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول (لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً كثير التفكر حسن =

حبشياً، ويقال: إن أول ما ظهرت حكمته أن مولاه قال له يوماً: إذبح لنا هذه الشاة فذبحها، ثم قال: أخرج أطيب مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب، ثم مكث ما شاء الله، ثم قال: له اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، فقال: أخرج لنا أخبث مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب فسأله عن ذلك: فقال لقمان إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا وذكر عن وهب بن منبه أن لقمان خُيِّرَ بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة قال فبينما كان يعظ الناس يوماً وهم مجتمعون عليه إذ مر به عظيم من عظماء بني إسرائيل، فقال: ما هذه الجماعة؟ فقيل له؟ جماعة اجتمعت على لقمان الحكيم فأقبل إليه، فقال له: ألست عبد بني فلان؟ فقال: نعم، فقال فما الذي بلغ بك ما أرى؟ فقال: صدق الحديث وأداء الأمانة وتركي مالا يعنيني فانصرف عنه متعجباً وتركه ثم قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ يعني حكماً من أحكام الله أن اشكر لله، ويقال: معناه ولقد آتينا لقمان الحكمة وقلنا له اشكر لله بما أعطاك من الحكمة ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ يعني ثواب الشكر لنفسه ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي جحد فلا يوحد ربه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن خلقه وعن شكرهم ﴿حَمِيدٌ﴾ في فعاله ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ﴾ قال مقاتل كان اسم ابنه أنعم ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ ويقال: معناه قال لابنه واعظاً ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ يعني ذنب عظيم لا يغفر أبداً وكان ابنه وامرأته كافرين فما زال بهما حتى أسلما وقال مقاتل زعموا أنه كان ابن خالة أيوب وذكر القاسم بن عباد بإسناده عن عبد الله بن دينار أن لقمان قدم من سفر فلقيه غلامه قال: ما فعل أبي؟ قال: مات، فقال: ملكت أمري، قال: وما فعلت أمي؟ قال: قد ماتت قال: فذهب همي، قال: فما فعلت أختي؟ قال: ماتت فقال: سترت عورتي، قال: فما فعلت امرأتي؟ قال: قد ماتت فقال: جدد فراشي، قال: فما فعل أخي؟ قال: مات قال: انقطع ظهري، وفي رواية أخرى قال ما فعل أخي؟ قال مات فقال انكسر جناحي. ثم قال فما فعل ابني؟ قال: مات فقال: انصدع قلبي وقال وهب بن منبه: كان لقمان عبداً حبشياً لرجل من بني إسرائيل في زمن داود ـ عليه السلام ـ فاشتراه فأعتقه وكان حبشياً أسود غليظ الشفتين والمنخرين غليظ العضدين والساقين وكان رجلاً صالحاً أبيض القلب وليس يصطفي الله عز وجل عباده على الحسن والجمال وإنما يصطفيهم على ما يعلم من غائب أمرهم[1] قرأ عامر في رواية حفص وابن كثير في إحدى الروايتين يا بني بالنصب وقرأ الباقون بالكسر وقد ذكرناه ثم قال عز وجل ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ﴾ فكأنه يقول آمركم بما أمر به لقمان لابنه بأن لا تشركوا بالله شيئاً وآمركم بأن تحسنوا إلى الوالدين فذلك قوله عز وجل: (ووصينا الإنسان) يعني: أمرناه بالإحسان ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ ثم ذكر حق الأم وما لقيت من أمر الولد من الشدة فقال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ﴾ يعني ضعفاً على ضعف لأن الحمل في الابتداء أيسر عليها فكلما ازداد الحمل يزيدها ضعفاً على ضعف ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ يعني فطامه بعد سنتين من وقت الولادة ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ يعني:

= اليقين أحب الله تعالى فأحبه فمنَّ عليه بالحكمة) ويظهر من الآيات المذكورة في قصته هذه أنه لم يكن نبياً لأنه لم يمتن عليه بوحي ولا بكلام الملائكة والاقتصار على أنه أوتي الحكمة يومي إلى أنه ألهم الحكمة ونطق بها ولأنه لما ذكر تعليمه لابنه قال تعالى: ﴿وهو يعظه﴾ وذلك مؤذن بأنه تعليم لا تبليغ تشريع وذهب عكرمة والشعبي: أن لقمان نبي ولفظ الحكمة يسمح بهذا القول لأن الحكمة أطلقت على النبوءة في كثير من القرآن كقوله في داود ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ وقد فسرت الحكمة في قوله تعالى ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ بما يشمل النبوءة. وإن الحكمة (معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه) وأعلاها النبوءة لأنها علم بالحقائق مأمون من أن يكون مخالفاً لما هي عليه في نفس الأمر إذ النبوءة متلقاة من الله الذي لا يعزب عن علمه شيء وسيأتي أن إيراد قوله تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ في أثناء كلام لقمان يساعد هذا القول). انظر التحرير ٢١/١٤٩ ـ ١٥٠. وانظر تفسير القرطبي ١٤/٤١.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٦١ وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد.

وصيناه وأمرناه بأن اشكر لي بما هديتك للإسلام واشكر لوالديك بما فعله إليك ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ فأجازيك بعملك ثم قال عز وجل: ﴿وإِنْ جَاهَدَاكَ﴾ يعني: وإن قاتلاك يعني أن حرمة الوالدين وإن كانت عظيمة فلا يجوز للولد أن يطيعهما في المعصية فقال: وإن جاهداك يعني وإن قاتلاك ويقال: وإن أراداك ﴿عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يعني: ما ليس لك به حجة بأن معي شريكاً ﴿فلا تُطِعْهُمَا﴾ في الشرك ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ يعني: عاشرهما في الدنيا معروفاً بالإحسان وإنما سمي الإحسان معروفاً لأنه يعرفه كل واحد قال: وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: حسن المصاحبة أن يطعمهما إذا جاعا وأن يكسوهما إذا عريا[1] ثم قال: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يعني: اتبع دين من أقبل إلي بالطاعة ثم استأنف فقال ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ [في الآخرة وقال بعضهم: إنما أتم الكلام عند قوله: واتبع سبيل من أناب إلي يعني دين من أقبل على الطاعة ثم استأنف الكلام فقال: ثم إلي مرجعكم][2] تكراراً على وجه التأكيد ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: فأجازيكم بها ثم رجع إلى حديث لقمان فقال: ﴿يا بُنَيَّ إِنَّهَا﴾ يعني الخطيئة ﴿إِنْ تَكُ﴾ قال مقاتل: وذلك أن ابن لقمان قال لأبيه يا أبتاه إن عملت بالخطيئة حيث لا يراني أحد فكيف يعلمها الله سبحانه وتعالى فرد عليه لقمان وقال: يا بني إنها إن تك يعني الخطيئة إن تك ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ يعني وزن خردلة ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْـرَةٍ﴾ أي الصخرة التي هي أسفل الأرضين وقال بعضهم: أراد بها كل صخرة لأنه قال بلفظ النكرة يعني ما في جوف الصخرة الصماء وقال مقاتل: هي الصخرة التي في أسفل الأرض وهي خضراء مجوفة ثم قال: ﴿أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ يعني يجازي بها الله أي يعطيه ثوابها ويقال: يأت بها الله عند الميزان فيجازيه بها، ويقال: هذا مثل لأعمال العباد يأت بها الله يعني يعطيه ثوابها عز وجل كقوله: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ) يعني يرى ثوابه قرأ نافع مثقال بضم اللام وقرأ الباقون بالنصب[3] فمن قرأه بالضم جعله اسم يكن ومن قرأ بالنصب جعله خبراً، والاسم فيه مضمر ومعناه إن تكن صغيرة قدر مثقال حبة، وإنما قال إن تكن بلفظ التأنيث لأن المثقال أضيف إلى الحبة فكان المعنى للحبة، وقيل: أراد به الخطيئة ومن قرأ بالضم جعله اسم تكن ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ يعني لطيف باستخراج تلك الحبة خبير بمكانها وقال أهل اللغة: اللطيف في اللغة يعبر به عن أشياء يقال للشيء الرقيق وللشيء الحسن لطيف وللشيء الصغير لطيف ويقال للمشفق لطيف ثم قال عز وجل: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ يعني أتم الصلاة ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني التوحيد ويقال: أظهر العدل ﴿وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو كل ما لا يعرف في شريعة ولا سنة ولا معروف في العقل ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ يعني إذا أمرت بالمعروف أو نهيت عن المنكر فأصابك من ذلك ذل أو هوان أو شدة فاصبر على ذلك فـ ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ يعني من حق الأمور ويقال: من واجب الأمور وصارت هذه الآية بياناً لهذه الأمة وإذناً لهم أن من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ينبغي أن يصبر على ما يصيبه في ذلك إذا كان أمره ونهيه لوجه الله تعالى لأنه قد أصاب ذلك في ذات الله عز وجل ثم قال تعالى ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم ولا تصعر بالتشديد بغير ألف وقرأ الباقون ولا تصاعر بالألف والتخفيف وهما لغتان،[4] ومعناهما واحد، يقال: صعر خده وصاعره ومعناهما الاعراض على جهة الكبر يعني لا تعرض بوجهك عن الناس متكبراً، وقال مقاتل: لا تعرض وجهك عن فقراء المسلمين وهكذا قال الكلبي وقال العتبي: أصله الميل ويقال: رجل أصعر إذا كان

---

(١) انظر البر والصلة لابن الجوزي ٩ ـ ٣٣ تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود.

(٢) سقط في أ.

(٣) انظر حجة القراءات ٥٦٥.

(٤) قال سيبويه: صعر وصاعر بمعنى واحد كما تقول: ضعف وضاعف. انظر حجة القراءات ٥٦٥.

به داء فيميل رأسه وعنقه من ذلك إلى أحد الجانبين، ويقال: معناه لا تكلم أحداً وأنت معرض عنه فإن ذلك من **الجفاء والإذاء ثم قال:** ﴿**وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً**﴾ يعني لا تمشي بالخيلاء والمرح والبطر والأشر كله واحد وهو أن يعظم نفسه في النعم ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ يعني مختالاً في مشيته فخوراً في نعم الله عز وجل ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ**﴾ يعني تواضع لله تعالى في المشي ولا تختل في مشيتك، ويقال: أسرع في مشيتك لأن الإبطاء في المشي يكون من الخيلاء ﴿**وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ**﴾ يعني: اخفض ومن صلة في الكلام اخفض كلامك **ولا تكن سفيهاً ثم ضرب للصوت الوضيع مثلاً فقال:** ﴿**إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ**﴾ **يعني أقبح الأصوات** ﴿**لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾ لشدة أصواتها وإنما ذكر صوت الحمير لأن صوت الحمار كان هو المعروف عند العرب وسائر الناس بالقبح، وإن كان قد يكون ما سواه أقبح منه في بعض الحيوان وإنما ضرب الله المثل بما هو المعروف عند الناس قوله عز وجل ﴿**ألم تروا أن الله سخر لكم**﴾ يعني قل يا محمد لأهل مكة ألم تروا أن الله **ذلل لكم** ﴿**مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾كل ذلك من الله تعالى يعني: ومن قدرة الله ورحمته وحده لا شريك له ﴿**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾ فالظاهرة التي يراها الناس والباطنة ما غاب **عن** الناس. ويقال: **النعم الظاهرة شهادة أن لا إله إلا الله، وأما الباطنة فالمعروفة بالقلب.** وقال مقاتل: الظاهرة تسوية الخلق والرزق والباطنة تستر عن العيون، عن ابن عباس قال سألت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قوله وأسبغ عليكم **نعمه ظاهرة وباطنة فقال: الظاهرة الإسلام والباطنة ما ستر سوأتك**[١] **قرأ نافع** وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص نعمه بنصب العين وميم وضم الهاء وقرأ الباقون نعمه بجزم العين ونصب الهاء والميم[٢] فمن قرأ نعمه بالجزم فهي نعمة واحدة وهي ما أعطاه الله من توحيده ومن قرأ نعمه فهو على معنى جميع ما أنعم الله عز وجل عليهم ثم قال ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ**﴾ يعني يخاصم في دين الله عز وجل ﴿**بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ يعني بغير حجة وهو النضر بن الحارث ﴿**وَلَا هُدًى**﴾ أي بغير بيان من الله عز وجل ﴿**ولا كتاب منير**﴾ أي: مضيا فيه حجة.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

قوله عز وجل: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ**﴾ يعني لكفار مكة ﴿**اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ**﴾ على نبيه من القرآن فآمنوا به وأحلوا

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٤/ ٥٠ وفيه والباطنة ما ستر عليك من سيء عملك.

(٢) حجتهم أن النعم الظاهرة غير النعم الباطنة فهي حينئذ جماعة إذا كانت منوعة قال تعالى: ﴿**شاكراً لأنعمه**﴾ فلم يكتف بالواحدة من الجميع فلما كانت نعم الله مختلفة بعضها في الدين وبعضها في الأرزاق وبعضها في العوافي وغير ذلك من الأحوال قروؤا بلفظ الجمع لكثرتها واختلاف الأحوال بها، وحجة من قرأ بالنصب صحة الخبر عن ابن عباس أنه قال: هي الإسلام وذلك أن نعمة الإسلام تجمع كل الخير. انظر حجة القراءات ٥٦٥ ـ ٥٦٦. النشر في القراءات العشر ٢/ ٣٤٧.

حلاله وحرموا حرامه ﴿قالوا بَلْ نَتْبعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءَنا﴾ يقول الله عز وجل: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ﴾ يعني أوليس الشيطان ﴿يَدْعُوهُمْ إِلى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ يعني يدعوهم إلى تقليد آبائهم بغير حجة فيصيروا إلى عذاب السعير قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلى اللَّهِ﴾ أي يخلص دينه ويقال يخلص عمله لله ﴿وهو مُحْسِنٌ﴾ يعني موحد ويقال: ذكر الوجه وأراد به هو يعني ومن أخلص نفسه لله عز وجل بالتوحيد وبأعمال نفسه وهو محسن في عمله قرأ عبد الرحمن المسلمي ومن يسلم بنصب السين وتشديد اللام من سلم يسلم وقراءة العامة ومن يسلم بجزم السين وتخفيف اللام من سلم يسلم[1] ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾ يعني قد أخذ بالثقة ﴿وَإِلى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ يعني إليه مرجع وعواقب الأمور ويقال: العباد إليه فيجازيهم بأعمالهم قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾ وذلك أنهم لما كذبوا بالقرآن وقالوا إنه يقول من تلقاء نفسه شق ذلك على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل: (ومن كفر فلا يحزنـك كفره) بالقرآن ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ يعني إلينا مصيرهم ﴿فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ يعني نجازيهم بجحودهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ بما في قلبك من الحزن مما قالوا وقال الكلبي: إن الله عليم بذات الصدور من خير أو شر ثم قال عز وجل: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ يعني يسيراً في الدنيا فكل ما هو فان فهو قليل ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ يعـني نلجئهم ﴿إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ يعني شديد لا يفترعنهم قوله عز وجل: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ يعني الكفار ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إقراركم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني لا يصـدقون.

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من الخلق ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الغَنِيُّ﴾ عن عبادة خلقه ﴿الحَمِيدُ﴾ في فعاله ويقال حميد أي محمود يعني يحمد ويشكر قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا في الأَرْضِ مِن شجرةٍ أَقْلَامٌ﴾ الآية قال قتادة ذلك أن المشركين قالوا: هذا كلام يوشك أن ينفد وينقطع فنزل قوله تعالى «ولو أن ما في الأرض» الآية قال ابن عباس في روايـة أبي صالح: إن اليهود أعداء الله سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الروح فنزل (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) قالوا: كيف تقول هذا وأنت تزعم أن من أُوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً فكيف يجتمع علم قليل وخير كثير[2]؟ فنزل (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) يقول: لو أن الشجر تبرى وتجعل أقلاماً

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٤/٥٠، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٦٣.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/٢٥٥، والطبري في التفسير ١٥/١٠٤ انظر معالم التنزيل للبغوي ٣/١٣٤.

﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ تكون كلها مداداً يكتب بها علم الله عز وجل لانكسرت الأقلام ولنفذ المداد ولم ينفذ علم الله تعالى فما أعطاكم الله من العلم قليل فيما عنده من العلم قرأ أبو عمرو والبحر يمده بنصب الراء وقرأ الباقون بالضم[1] فمن قرأ بالنصب نصبه لأن معناه ولو أن ما في الأرض وأن البحر **يمده** ومن قرأ بالضم فهو على **الاستئناف** والبحر يمده يعني أمد إلى كل بحر مثله ما نفذت ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ يعني علمه وعجائبه ويقال: معاني كلمات الله لأن لكل آية ولكل كلمة من المعاني ما لا يدرك **ولا يحصى**، ويقال: ما نفذت كلمات الله لأن كلمات الله لا تدرك ما تكلم به في الأزل سبحانه وتعالى ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيز بالنعمة على الكافر حكيم حكم أنه ليس لعلمه غاية وأن العلم للخلق غاية ثم قال عز وجل ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ **قال مقاتل**: نزلت في أبي بن خلف وابني أسد منبه ونبيه كلاهما ابني أسد قالوا: إن الله عز وجل خلقنا أطواراً نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم يقول إنه بعث في ساعة واحدة فقال الله عز وجل: ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة أيها الناس جميعاً يقال هاهنا مضمر فكأنه يقول: إلا كخلق نفس واحدة وكبعث نفس واحدة ويقال: معناه قدرته على بعث الخلق أجمعين وعلى خلق الخلق أجمعين كقدرته على خلق نفس واحدة ويقال: كنفس واحدة أي إلا كخلق آدم ـ عليه السلام ـ ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لمقالتهم ﴿بَصِيرٌ﴾ بهم قوله عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ يعني **انتقاص** كل واحد منها بصاحبه ويقال: يدخل الليل في النهار والنهار في الليل ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ يعني ذللهما لبني آدم ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني يجريان في السماء إلى يوم القيامة وهو الأجل المسمى، ويقال: يجري كل واحد منهما إلى أجله في الغروب حتى ينتهي إلى وقت نهايته ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ روي عن أبي عمرو في إحدى الروايتين أنه قرأ يعملون بالياء بلفظ المغايبة وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة **ثم قال عز وجل**: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني هذا الذي ذكر من صنع الله عز وجل بالنهار والليل والشمس والقمر ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ يعني ليعلموا أن الله هو الحق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ يعني من الآلهة لا يقدرون على شيء من ذلك يعني لا تنفعهم عبادتها، قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص وإنما يدعون بالياء على معنى الخبر عنهم وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة[2] لهم ثم عظم نفسه فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ يعني ليعلموا أن الله هو الرفيع الكبير يعني العظيم وهو الذي يعظم ويحمد ثم بين قدرته فقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ﴾ يعني السفن ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ أي برحمة الله لمنفعة الخلق ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ يعني من علامات وحدانيته ويقال من عجائبه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني إن الذي ترون في البحر ﴿لَآيَاتٍ﴾ يعني لعبرات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ على أمر الله عز وجل عند البلاء، ويقال: الذي يصبر في الأحوال كلها شكوراً لله عز وجل في نعمه، **ويقال**: **لكل صبار شكور يعني**: لكل مؤمن موحد، وإنما وصفه بأفضل خصلتين في المؤمن لأن أفضل خصال المؤمن الصبر والشكر، والصبار هو للمبالغة في الصبر والشكور على ميزان فعول هو للمبالغة في الشكر، وروي عن قتادة أنه قال: **إن أحب العباد إلى الله من إذا أعطي** شكر وإذا ابتلي صبر فأعلم الله عز وجل أن المتفكر المعتبر في خلق السموات والأرض هو الصبار والشكور قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ يعني أتاهم موج كما يقال: من غشي سدد السلطان يجلس ويقم ويقال: علاهم ويقال: غطاهم موج كالظلل يعني كالسحاب ويقال: كالجبال وهو جمع ظلة يعني يأتيهم الموج بعضه فوق بعض وله سواد لكثرته ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني أخلصوا له بالدعوة ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ يعني إلى القرار ﴿فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ يعني فمنهم من يؤمن ومنهم من يكفر ولا يؤمن ثم ذكر المشرك الذي ينقض العهد فقال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ يعني

---

(١) انظر حجة القراءات ٥٦٦، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٧.

(٢) انظر حجة القراءات ٥٦٦، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٦٤.

لا يترك العهد ﴿إلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ يعني غدار بالعهد كفور لله عز وجل في نعمه وقال العتبي: الختر أقبح الغدر كفور على ميزان فعول وإنما يذكر هذا اللفظ إذا صار عادة له كما يقال: ظلوم وقد ذكر الكافر بأقبح خصلتين فيه كما ذكر المؤمن بأحسن خصلتين فيه وهو قوله (صَبَّارٍ شَكُورٍ).

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)

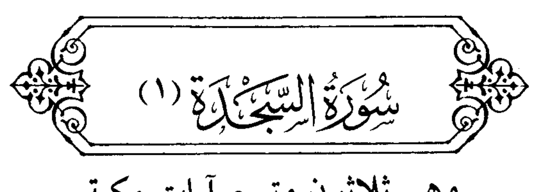
قوله عز وجل: ﴿يَاأَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ يعني وحدوه وأطيعوه ﴿وَاخْشَوا﴾ يعني واخشوا عذاب يوم ﴿يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ يعني هو جاز عن والده شيئاً ولا ينفع والد عن ولده ويقال: لا يقضي والد عن ولده ما عليه ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِه شَيْئاً﴾ يعني لا يقدر الولد أن ينفع والده شيئاً وهذا في الكفار خاصة وأما المؤمن فإنه ينفع كما قال في آية أخرى: (أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) ثم قال: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني البعث بعد الموت كائن ولا خلف فيه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يعني لا يغرنكم ما في الدنيا من زينتها وزهوتها فتركنوا إليها وتطمئنوا بها وتتركوا الآخرة والعمل لها ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ يعني لا يغرنكم الشيطان عن طاعة الله عز وجل ويقال: كل مضل هو شيطان وقال أهل اللغة: الغرور بنصب الغين هو الشيطان وبالضم أباطيل الدنيا قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ قال مقاتل: نزلت في رجل يقال له: الوليد بن عمرو من أهل البادية أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: إن أرضنا أجدبت فمتى ينزل الغيث؟ وتركت امرأتي حبلى فماذا تلد؟ وقد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت؟ وقد علمت ما عملت اليوم فماذا أنا عامل غداً؟ ومتى الساعة؟ فنزل: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ)[١] يعني علم القيامة لا يعلمه غيره ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ يعني وهو الذي ينزل الغيث متى شاء ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ من ذكر وأنثى ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ في سهل أو جبل وروي عن ابن عمر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله فقرأ إن الله عنده علم الساعة الآية[٢] وقال ابن مسعود كل شيء أوتي نبيكم إلا مفاتيح الغيب الخمس إن الله عنده علم الساعة[٣] إلى آخر السورة وقالت عائشة رضي الله عنها: من حدثكم بأنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) يعني بأي مكان تموت وبأي قدم تؤخذ وبأي نفس ينقضي أجله وروى شهر بن حوشب قال: دخل ملك الموت على سليمان بن داود - عليه السلام - فقال رجل من جلسائه لسليمان: من هذا؟ فقال: ملك الموت فقال: لقد رأيته ينظر إلي كأنه يريدني فأريد أن تحملني على الريح حتى تلقيني بالهند ففعل ثم أتى ملك الموت إلى سليمان فسأله عن نظره ذلك فقال: إني كنت أعجب أني كنت أمرت أقبض روحه في أرض الهند في آخر النهار وهو عندك ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ يعني بهذه الأشياء التي ذكرها.

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٤/٥٥ ونسبه للقشيري والماوردي.

(٢) أخرجه البخاري ٨/٢٩١ كتاب التفسير باب (وعنده مفتاتح الغيب لا يعلمها إلا هو).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٦٩ وعزاه لأحمد وأبي يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود.



وهي ثلاثون وتسع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ يعني: المنزل من الله عز وجل القرآن على معنى التقديم يعني أن هذا الكتاب تنزيل من الله عز وجل والكتاب وهو التنزيل ويقال: معناه نزل به جبريل عليه السلام بهذا التنزيل الكتاب يعني القرآن ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يعني لا شك فيه أنه ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فلما نزله جبريل جحده قريش وقالوا: إنما يقوله من تلقاء نفسه فنزل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعني: أيقولون اختلقه من ذات نفسه وقال أهل اللغة: فرى يفري إذا قطعه للإصلاح وأفرى يفري إذا قطعه للاستهلاك فأكذبهم الله عز وجل فقال ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: القرآن ولو لم يكن من الله عز وجل لم يكن حقاً وكان باطلاً ويقال: بل هو الحق من ربك يعني: نزل من عند ربك ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً﴾ يعني: كفار قريش ﴿مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني: لم يأتهم في عصرك ولكن أتاهم من قبل لأن الأنبياء المتقدمين عليهم السلام ما كانوا إلى جميع الناس ويقال: معناه لم يشاهدوا نذيراً قبلك وإنما الإنذار قد كان سبق لأنه قال: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) وقد سبق الرسل ويقال ما آتاهم من نذير من قبلك يعني: من قومهم من قريش ثم قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعني يهتدون من الضلالة وأصل الإنذار هو الإسلام يقال: أنذر العدو إذا أعلمه ثم دل على نفسه بصفة فقال عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من السحاب والرياح وغيره ﴿فِي سِتَةِ أَيَّامٍ﴾ ولو شاء خلقها في ساعة واحدة لفعل ولكنه خلقها في ستة أيام ليدل على التأني ويقال: خلقها في ستة أيام لتكون الأيام أصلاً عند الناس ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ فيها تقديم يعني: خلق العرش قبل السموات ويقال: على فوق العرش من غير أن يوصف بالاستقرار على العرش ويقال: استوى أمره على بريته فوق

(١) في إطلاق أكثر المفسرين وإحدى روايتين عن ابن عباس وفي رواية أخرى عنه استثناء ثلاث آيات مدنية وهي ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً﴾ إلى ﴿لعلهم يرجعون﴾ قيل نزلت يوم بدر في علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة وسيأتي إبطاله. وزاد بعضهم آيتين ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ إلى ﴿بما كانوا يعملون﴾ لما روي في سبب نزولها وهو ضعيف. والذي نعول عليه أن السورة كلها مكية وأن ما خالف ذلك إن هو إلا تأويل أو إلحاق خاص بعام. انظر التحرير ٢١/٢٠٣، ٢٠٤.

عرشه كما استوى أمره وسلطانه وعظمته دون عرشه وسمائه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يعني من قريب ينفعكم في الآخرة ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ من الملائكة ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: أفلا تتعظون فيما ذكره من صفة فتوحدونه ثم قال عز وجل: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يقول: يقضي القضاء ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ يعني يبعث الملائكة من السماء إلى الأرض ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ يعني يصعد إليه.

قال أبو الليث رحمه الله: حدثنا عمرو بن محمد[1] بإسناده عن الأعمش عن عمرو بن مرة[2] عن عبد الرحمن بن سابط قال: يدبر أمر الدنيا أربعة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل أما جبريل فموكل بالرياح والجنود وأما ميكائيل فموكل بالنبات والقطر وأما ملك الموت فموكل بقبض الأرواح وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمور عليهم فذلك قوله عز وجل: «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ» ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ﴾ يعني في يوم واحد من أيام الدنيا كان مقدار ذلك اليوم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أنتم وقال القتبي: معناه يقضي في السماء وينزله مع الملائكة إلى الأرض فتوقعه الملائكة عليهم السلام في الأرض ثم يعرج إلى السماء فيكون نزولها ورجوعها في يوم واحد مقدار المسير على قدر سيرنا ألف سنة لأن بعد ما بين السماء والأرض خمسمائة عام فيكون نزوله وصعوده ألف عام في يوم واحد وروى جويبر عن الضحاك في يوم كان مقداره ألف سنة قال: يصعد الملك إلى السماء مسيرة خمسمائة عام ويهبط مسيرة خمسمائة عام في كل يوم من أيامكم وهو مسيرة ألف سنة[3].

﴿ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٩) وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠)﴾

ثم قال عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ يعني ذلك الذي يفعل هذا هو عالم الغيب ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ يعني ما غاب من العباد وما شاهدوه ويقال: عالم بما كان وبما يكون ويقال: عالم السر والعلانية ويقال: عالم بأمر الآخرة وأمر الدنيا ﴿الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بخلقه قوله عز وجل: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر خلقه بجزم اللام وقرأ الباقون بالنصب[4] فمن قرأ بالجزم فمعناه الذي أحسن كل شيء وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: الإنسان في خلقه حسن والخنزير في خلقه حسن وكل شيء في خلقه حسن ومن قرأ بالنصب فعلى فعل الماضي يعني: خلق كل شيء على إرادته وخلق الإنسان في أحسن تقويم ويقال: الذي علم خلق كل شيء خلقه يعني علم كيف خلق ويقال: هل تحسن شيئاً يعني: تعلم ومعناه الذي علم خلق كل شيء خلقه ويقال:

---

(١) عمرو بن محمد العَنْقزي القرشي مولاهم أبو سعيد الكوفي قال العجلي. ثقة جائز الحديث توفي سنة تسع وتسعين ومائة. التهذيب ٨/٩٨ - ٩٩.

(٢) عمرو بن مرة بن عبد الله بن طارق بن الحارث بن سلمة بن كعب بن وائل أبو عبد الله الكوفي الأعمى ثقة عابد كان لا يدلس ورمي بالإرجاء مات سنة ثمان عشرة ومائة. التقريب ٢/٧٨.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٧٢ وعزاه لابن جرير عن قتادة بنحوه.

(٤) انظر حجة القراءات ٥٦٧، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٧، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٦٦.

الحسن عبارة عن الزينة يعني الذي زين كل شيء خلقه **وأتقنه كما قال**: (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ). ثم قال ﴿وَبَدأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ يعني خلق آدم عليه السلام من طين من أديم الأرض ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ﴾ أي خلق ذريته من سلالة من النطفة التي تنسَل من الإنسان وقال أهل اللغة كل شيء على ميزان **فعالة** فهو ما فضل من شيء يقال: نشارة ونخالة ونحاتة ثم رجع إلى آدم عليه السلام فقال عز وجل ﴿مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ يعني سوى خلقه ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ ثم رجع إلى ذريته فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ﴾ ويقال هذا كله في صفة الذرية يعني ثم ﴿جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مُهِينٍ﴾ يعني: من نطفة ضعيفة ثم سواه يعني: جمع خلقه في رحم أمه ونفخ فيه من روحه يعني: جعل فيه الروح بأمره وجعل لكم السمع والأبصار ﴿والأفئدة﴾ ثم قال: ﴿قليلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ يعني لا تشكرون رب هذه النعم على حسن خلقكم فتوحدوه فلا تستعملوا سمعكم وأفئدتكم إلا في **طاعتي ويقال: ما هاهنا صلة فكأنه يقول**: تشكرونه قليلاً ويقال: **ما بمعنى الذي فكأنه قال**: فقليل الذي تشكرون وقد يكون الكلام بعضه بلفظ المغايبة ثم قال: وجعل لكم السمع بلفظ المخاطب فكما قال هاهنا ثم جعل نسله ثم **سواه ونفخ فيه من روحه بلفظ المغايبة ثم قال**: وجعل لكم بلفظ المخاطبة[1] ثم قال عز وجل: ﴿وقالوا أئذا ضَلَلْنَا في الأَرْضِ﴾ يعني: هلكنا وصرنا تراباً ﴿أئنا لفي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعني انبعث بعد الموت واصله ضل الماء في اللبن إذا غاب وهلك وروي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قرىء آئذا صَللنا بالصاد وتفسيره **النتن يقال**: صل اللحم إذا انتن وقراءة العامة بالضاد المعجمة أي هلكنا وقرأ ابن عامر وقالوا إذا ضللنا إذا بغير استفهام أئنا لفي خلق جديد على **وجه الاستفهام**[2] قال: **لأنهم كانوا يقرون بالموت ويشاهدونه وإنما أنكروا البعث ويكون الاستفهام في البعث دون الموت** ثم قال عز وجل: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ يعني بالبعث جاحدون فلا يؤمنون به قوله عز وجل:

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٣ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾

﴿قل يتوفاكم﴾ يعني: يقبض أرواحكم ﴿ملك الموت﴾ واسمه عزرائيل وروي في الخبر أن له وجوهاً أربعة فوجه من نار يقبض به أرواح الكفار ووجه من ظلمة يقبض به أرواح المنافقين ووجه من رحمة يقبض به أرواح المؤمنين ووجه من نور يقبض به أرواح الأنبياء والصديقين عليهم السلام والدنيا بين يديه كالكف وله أعوان من ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فإذا قبض روح المؤمن دفعها إلى ملائكة الرحمة وإذا قبض روح الكافر دفعها إلى ملائكة العذاب وروى جابر بن زيد أن ملك الموت كان يقبض الأرواح بغير وجه فأقبل الناس يسبونه ويلعنونه فشكى إلى ربه عز وجل فوضع الله عز وجل الأمراض والأوجاع فقالوا: مات فلان بكذا[3] وكذا ثم قال تعالى: ﴿الذي وُكِّلَ بِكُمْ

(١) سقط في أ.
(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٦٦.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٧٣ وعزاه لابن أبي الدنيا والمروزي في الجنائز وأبي الشيخ.

﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت أحياء فيجازيكم بأعمالكم ثم قال عز وجل: **﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾** يعني: المشركون **﴿نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾** استحياء من ربهم بأعمالهم يقولون **﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا﴾** الهدى **﴿وَسَمِعْنَا﴾** **الإيمان ويقال**: أبصرنا يوم القيامة بالمعاينة وسمعنا يعني أيقنوا حين لم ينفعهم يقينهم **﴿فَارْجِعْنَا﴾** إلى الدنيا **﴿نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾** يعني: أيقنا بالقيامة ويقال: إنا موقنون يعني قد آمنا ولكن لا ينفعهم وقد حذف الجواب لأن في الكلام دليلاً ومعناه ولو ترى يا محمد ذلك لرأيت ما تعتبر به غاية الاعتبار يقول الله تعالى: **﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا﴾** يعني: لأعطينا **﴿كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾** يعني: وجب العذاب مني ويقال: ولكن سبق القول بالعذاب وهو قوله: **﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾** من كفار الإنس ومن كفار الجن أجمعين فيقول لهم الخزنة **﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ﴾** يعني: ذوقوا العذاب بما تركتم **﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾** يعني: تركتم العمل بحضور يومكم هذا قال القتبي: النسيان ضد الحفظ والنسيان ـ الترك فقوله: (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) أي تركتم الإيمان بلقاء هذا اليوم **﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾** يعني: تركناكم في العذاب ويقال: نجازيكم بنسيانكم كما قال الله عز وجل: (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) **﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾** الذي لا ينقطع أبداً **﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** من الكفر.

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

ثم قال الله عز وجل: **﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾** يعني: يصدق بآياتنا يعني بالعذاب **﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾** يعني وعظوا بها يعني: بآيات الله عز وجل **﴿خَرُّوا سُجَّداً﴾** على وجوههم **﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾** يقول: وذكروا الله عز وجل بأمره **﴿وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾** عن السجود كفعل الكفار ويقال: الذين إذا ذكروا يعني دعوا إلى الصلوات الخمس أتوها فصلوها ولا يستكبرون عنها قوله عز وجل: **﴿تَتَجافَى جُنُوبُهُمْ﴾** قال مقاتل: نزلت في الأنصار كانت منازلهم بعيدة من المسجد فإذا صلوا المغرب كرهوا أن ينصرفوا مخافة أن تفوتهم صلاة العشاء في الجماعة فكانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء ويقال: الذي يصلي العشاء والفجر بجماعة وقال أنس بن مالك: الذي يصلي ما بين المغرب والعشاء وهو صلاة[1] الليل كما جاء في الخبر (قال النبي ـ **صلى الله عليه وسلم** ـ: ركعة في الليل خير من ألف ركعة في النهار)[2] قال أبو الليث رحمه الله: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا السراج قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم (قال حدثنا أبو معاوية عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن إسحاق)[3] عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد العبسية عن رسول

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٧٥ وعزاه لابن أبي شيبة وأبي داود ومحمد بن نصر وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه.

(٢) سقط في أ.

(٣) سقط في ظ.

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: يحشر الناس يوم القيامة في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينقدهم البصر ثم ينادي مناد: سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم فأين الذين يحمدون الله عز وجل على كل حال؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ثم ينادي مناد: أين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ثم ينادي مناد: أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يؤمر لسائر الناس فيحاسبون[١] فذلك قوله عز وجل: (تتجافى جنوبهم) ﴿عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ يعني: يصلون بالليل ويقومون عن فرشهم ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يعني: يتصدقون من أموالهم يعني: صدقة التطوع لأنه قرنه بصلاة التطوع ويقال: يعني الزكاة المفروضة والأول أراد به العشاء والفجر ثم بين ثوابهم فقال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ﴾ يعني: ما أعد لهم ﴿مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ يعني: من الثواب في الجنة ويقال: من طيبة النفس وروى أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: يقول الله عز وجل: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[٢] قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ)[٣] قال مقاتل: قيل لابن عباس ما الذي أخفي لهم؟ قال: في جنة عدن ما لم يكن في جناتهم قرأ حمزة ما أخفي بسكون الياء وقرأ الباقون بنصبها[٤]فمن قرأ بالسكون فهو على معنى الخبرعن نفسه فكأنه قال: فلا تعلم نفس ما أخفي لهم (ومن قرأ بالنصب فهو على فعل ما لم يسم فاعله على معنى أفعل وقرىء في الشاذ وما أخفى يعني: وما أخفى الله عز وجل لهم)[٥] ثم قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: جزاء لأعمالهم قوله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ﴾ يعني: لا يستوون عند الله عز وجل في الفضل نزلت الآية في علي بن أبي طالب رضي الله عنه والوليد بن عقبة بن أبي معيط وذلك أنه جرى بينهما كلام فقال الوليد لعلي: بأي شيء تفاخرني؟ أنا والله أحد منك سناناً وأبسط منك لساناً وأملا منك في الكتيبة عيناً يعني أكون أملأ مكاناً في العسكر، فقال له علي رضي الله عنه: اسكت فإنك فاسق[٦] فنزل (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ) وقال الزجاج: نزلت في عقبة بن أبي معيط قال ويجوز في اللغة لا يستويان ولم يقرأ والقراءة لا يستوون ومعناهما لا يستوي المؤمنون والكافرون ثم بين مصير كلا الفريقين فقال تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي أقروا بالله ورسوله والقرآن ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني الطاعات ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً﴾ يعني: يأوي إليها المؤمنون ويقال: يأوي إليها أرواح الشهداء وهو أصح في اللغة ثم قال: (نزلا) يعني: رزقاً والنزل في اللغة هو الرزق ويقال: نزلاً يعني: منزلاً ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: بأعمالهم ثم بين مصير الفاسقين فقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ يعني: عصوا ولم يتوبوا ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ فسقوا يعنى نافقوا وهو الوليد بن عتبة ومن كان مثل

(١) ذكره الحافظ في ابن كثير في التفسير ٣٦٦/٦ بإسناد ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه البخاري ٣١٨/٦ كتاب بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم ٢١٧٤/٤ كتاب الجنة (٢ ـ ٢٨٢٤).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٧٦/٥ وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد وهناد كلاهما في الزهد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن الأنباري.

(٤) حجة من قرأ بسكون الباء ما يتصل بالحرف وهو قوله قبله ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ ويقوي هذا قراءة عبد الله بن مسعود ﴿ما نخفي لهم﴾ بالنون ويقوي بناء الفعل للمفعول له في القراءة الأخرى قوله تعالى: ﴿فلهم جنات المأوى﴾ فأبهم ذلك كما أبهم قوله ﴿أخفي لهم﴾ ولم يسند إلى فاعل بعينه كما أشار المصنف. انظر حجة القراءات ٥٦٩، والنشر في القراءات العشر ٣٤٧/٢.

(٥) سقط في ظ.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٧٧/٥ ـ ١٧٨ وعزاه لأبي الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني والواحدي وابن عدي وابن مردويه والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس.

حاله فمأواهم النار يعني: مصيرهم إلى النار ومرجعهم إليها ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ يعني: من النار ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ ويقال: إن جهنم إذا جأشت ألقتهم في أعلى الباب فطمعوا في الخروج منها فتلقاهم الخزنة بمقامع فتضربهم فتهوي بهم إلى قعرها ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ وقال في آية أخرى ـ: (ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) بلفظ التأنيث لأنه أراد به النار وهي مؤنثة وهاهنا قال: الذي كنتم به تكذبون بلفظ التذكير لأنه أراد به العذاب وهو مذكر.

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى﴾ وهو المصيبات والقتل والجوع ﴿دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ﴾ وهو عذاب النار يعني: إن لم يتوبوا ويقال: العذاب الأدنى هو السحر للفاسقين والعذاب الأكبر النار إن لم يتوبوا ويقال: العذاب الأدنى[١] عذاب القبر وقال إبراهيم: يعني: سنين جدب أصابتهم وقال أبو العالية مصيبات في الدنيا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعني: يتوبون قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ يعني: وعظ بآيات ربه القرآن ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ يعني: عن الإيمان بها فلم يؤمن بها ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ بالعذاب يعني منتصرون ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: أعطينا موسى التوراة ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِن لِقَائِهِ﴾ قال مقاتل: يعني: فلا تكن في شك من لقاء موسى التوراة فإن الله عز وجل ألقى عليه الكتاب وقال في رواية الكلبي: فلا تكن في مرية من لقاء موسى عليه السلام فلقيه ليلة أسري به في بيت المقدس يعني لقي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ موسى هناك ويقال: لقيه في السماء وذكر الخبر المعروف أنه فرض على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خمسون صلاة فقال له موسى عليه السلام: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فلم يزل يرجع حتى حط الله عز وجل إلى الخمس[٢] ويقال: فلا تكن في مرية من لقائه يعني من لقاء الله عز وجل وهو البعث بعد الموت ويقال: فلا تكن في مرية من لقائه يعني لا تشكن أنك تلقى موسى يوم القيامة ثم قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني جعلنا التوراة بياناً لهم وهدى من الضلالة ويقال: وجعلناه هدى يعني جعلنا موسى هادياً لبني إسرائيل يدعوهم ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ يعني وجعلنا من بني إسرائيل قادة في الخير ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يعني: يدعون الناس إلى أمر الله عز وجل ﴿لِمَا صَبَرُوا﴾ بكسر اللام والتخفيف وقرأ الباقون بالنصب والتشديد فمن قرأ بالتشديد (لَمَّا صَبَرُوا) أي: حين صبروا ويقال: هو حكاية المجازات يعني لما صبروا[٣] جعلنا منهم أئمة ومن قرأ بالتخفيف لما صبروا أي بما صبروا وتشهد لها قراءة ابن مسعود كان يقرأ بما صبروا ويقال: معناه كما صبروا عن الدنيا وصبروا على دينهم

---

(١) سقط في أ.

(٢) تقدم تخريجه من حديث ابن شهاب الزهري.

(٣) سقط في أ.

ولم يرجعوا عنه ويقال: معناه وجعلناهم أئمة بصبرهم ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ يعني: يصدقون بالعلامات التي أعطي موسى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠)﴾

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: يقضي بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين ثم خوف كفار مكة فقال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ يعني أو لم يبين لهم الله تعالى وقرىء في الشاذ أو لم نهد لهم بالنون وقرأ العامة بالياء ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ يعني: أو لم نبين لهم الهلاك ﴿مِن قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ يعني: قوم لوط وصالح وهود ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ يعني: يمرون في منازلهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ يعني: في إهلاكهم لآيات لعبرات ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي أفلا يسمعون المواعظ فيعتبرون بها ثم قال عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ يعني اليابسة الملساء التي ليس فيها نبات يقال: أرض جرز أي أرض جدب لا نبات فيها يقال: جرزت الجراد إذا أكلت وتركت الأرض جرزاً ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً﴾ يعني: نخرج بالماء النبات ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ أي من الكلأ والعشب والتبن ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ من الحبوب والثمار ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ هذه العجائب فيوحدوا ربهم قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ قال مقاتل: أي متى هذا القضاء وهو البعث وقال قتادة: الفتح القضاء[٢] وقال مجاهد: الفتح يوم القيامة[١] ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تكذيباً منهم يعنون به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال عز وجل ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ قال في رواية الكلبي) إن أصحابَ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا يتذاكرون فيما بينهم وهم بمكة قبل فتح مكة لهم وكان ناس من بني خزيمة كانوا إذا سمعوا ذلك منهم يستهزئون بهم ويقولون لهم متى فتحكم هذا الذي كنتم تزعمون ويقولون: فنزل يعني: بني خزيمة (متى هذا الفتح) يا أصحاب محمد (إن كنتم صادقين) قل يا محمد يوم الفتح أي فتح مكة لا ينفع الذين كفروا إيمانهم من القتل ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ حتى يقتلوا وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما فتح مكة بعث خالد بن الوليد إلى بني خزيمة وقد كانت بينه وبينهم إحنة في الجاهلية يعني الحقد فقالوا: قد أسلمنا فقال لهم: انزلوا فنزلوا فوضع فيهم السلاح فقتل منهم وأسر فبلغ ذلك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد فبعث إليهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالدية من غنائم خيبر[٣] فذلك قوله تعالى:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٧٦ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٧٦ وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

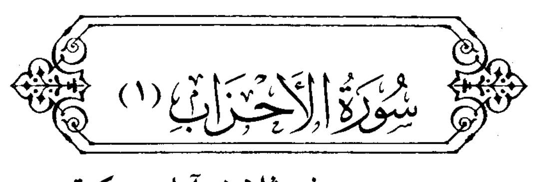
(٣) أخرجه البخاري ١٣/١٩٣ كتاب الأحكام (٧١٨٩) والنسائي ٨/٢٣٧ وأحمد في المسند ٢/١٥١ والبيهقي في السنن ٩/١١٥ وعبد الرزاق (٩٤٣٥ ـ ١٨٧٢١).

قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم من القتل **ولا هم ينظرون يعني يؤجلون ثم قال عز وجل**: **﴿فأعْرِضْ عَنْهُمْ﴾** يا محمد **﴿وَانْتَظِرْ﴾ لهم فتح مكة ويقال**: العذاب **﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾** بهلاكك وروى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان لا ينام حتى يقرأ الٓمٓ تنزيل وتبارك الذي بيده الملك[١] وروى أبي بن كعب عن النبي ـ **صلى الله** عليه وسلم ـ **أنه قال**: من قرأ الٓمٓ السجدة وتبارك الذي بيده الملك فكأنما **أحيى** ليلة القدر[٢] والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٤٦/١٤ بترتيب الساعاتي والترمذي (٢٨٩٤) والدارمي ٤٥٥/٢ وابن السني (٦٦٩) وفيه ليث بن أبي سليم وقد تقدم الكلام عليه وفيه عنعنه ابن الزبير.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٧٠/٥ وعزاه لابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما ويشبه هذا أن يكون من الأحاديث الموضوعة في فضائل السور.



وهي سبعون وثلاث آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ قال مقاتل: وذلك أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا المدينة بعد أحد وبعد الهدنة فمروا على عبد الله بن أبي المنافق فقام معهم عبد الله بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق فجاؤوا إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا له: اترك ذكر آلهتنا وقل إن لها شفاعة في الآخرة ومنفعة لمن عبدها وندعك وربك فشق ذلك على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال عمر رضي الله عنه: ائذن لي في قتلهم فقال: قد أعطيتهم الأمان فلم يأذن له بالقتل وأمره بأن يخرجهم من المدينة فقال لهم عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه[٢] فنزل: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) وقال مقاتل: في رواية الكلبي قدموا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة فنزلوا على عبد الله بن أبي ومعتب بن قشير وجد بن قيس فتكلموا فيما بينهم فلما اجتمعوا في أمر فيما بينهم أتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعونه إلى أمرهم وعرضوا عليه أشياء

(١) أهم أغراض هذه السورة الرد على المنافقين قولهم لما تزوج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة فقالوا: تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عن ذلك فأنزل الله تعالى إبطال التبني. وأن الحق في أحكام الله لأنه الخبير بالأعمال وهو الذي يقول الحق. وأن ولاية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمؤمنين أقوى ولاية ولأزواجه حرمة الأمهات لهم وتلك ولاية من جعل الله فهي أقوى وأشد من ولاية الأرحام. وتحريض المؤمنين على التمسك بما شرع الله لهم لأنه أخذ العهد بذلك على جميع النبيين. والاعتبار بما أظهره الله من عنايته بنصر المؤمنين على أحزاب أعدائهم من الكفرة والمنافقين في وقعة الأحزاب ودفع كيد المنافقين. والثناء على صدق المؤمنين وثباتهم في الدفاع عن الدين. ونعمة الله عليهم بأن أعطاهم بلاد أهل الكتاب الذين ظاهروا الأحزاب. وانتقل من ذلك إلى أحكام في معاشرة أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكر فضلهن وفضل آل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفضائل أهل الخير من المسلمين والمسلمات. وتشريع في عدة المطلقة قبل البناء، وما يسوغ لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأزواج وحكم حجاب أمهات المؤمنين ولبسه المؤمنات إذا خرجن. وتهديد المنافقين على الإرجاف بالأخبار الكاذبة. وختمت السورة بالتنويه بالشرائع الإلهية فكان ختامها من رد العجز على الصدر لقوله في أولها: ﴿واتبع ما يوحى إليك من ربك﴾ وتخلل ذلك مستطردات من الأمر بالاتساء بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتحريض المؤمنين على ذكر الله وتنزيهه شكراً له على هديه وتعظيم قدر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند الله وفي الملأ الأعلى والأمر بالصلاة عليه السلام. ووعيد المنافقين الذين يأتون بما يؤذي الله ورسوله والمؤمنين. والتحذير من التورط في ذلك كيلا يقعوا فيما وقع فيه الذين آذوا موسى عليه السلام انظر التحرير ٢١/٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٢) انظر تفسير البغوي ٣/٥٠٥، تفسير القرطبي ١٤/٧٧.

فكرهها منهم فهم بهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون أن يقتلوهم فنزل (يَا أَيُّها النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) ولا تنقض العهد الذي بينك وبينهم إلى المدة (وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ) من أهل مكة ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ من أهل المدينة فيما دعوك إليه ويقال: إن المسلمين أرادوا أن ينقضوا العهد فأراد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأذن لهم فنزل: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) في نقض العهد وإنما ذكر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأراده هو وأصحابه ألا ترى أنه قال في سياق الآية: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً﴾ بما اجتمعوا عليه ﴿حَكِيماً﴾ حيث نهاك عن نقض العهد وحكم بالوفاء قوله عز وجل: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني ما في القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ من وفاء العهد ونقضه ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يعني: ثق بالله وفوض أمرك إلى الله تعالى ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ يعني: حافظاً وناصراً قرأ أبو عمرو بما يعملون بالياء على معنى الخبر عنهم وقرأ الباقون بالتاء[1] على معنى المخاطبة يعني: النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه.

مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ قال مقاتل: نزلت في جميل بن معمر ويكنى أبا معمر وكان حافظاً بما يسمع وأهدى الناس للطريق يعني طريق البلدان وكان مبغضاً للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان يقول: إن لي قلبين أحدهما أعقل من قلب محمد فنزل: (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ) وكان الناس يظنون أنه صادق في ذلك حتى كان يوم بدر فانهزم وهو آخذ بإحدى نعليه في أصبعه والأخرى في رجله حتى أدركه أبو سفيان بن حرب وكان لا يعلم بذلك حتى أخبر أن إحدى نعليه في أصبعه والأخرى في رجله فعرفوا أنه ليس له قلبان ويقال: إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سهى في صلاته فقال المنافقون: لو أن له قلبين أحدهما في صلاته والآخر مع أصحابه فنزل: (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ) وروى معمر عن قتادة قال: كان رجل لا يسمع شيئاً إلا وعاه فقال الناس: ما يعي هذا إلا أن له قلبين وكان يسمى ذا القلبين فنزلت هذه الآية وروى معمر عن الزهري قال: بلغنا أن ذلك في شأن زيد بن حارثة ضرب الله له مثلاً يقول ليس ابن رجل آخر ابنك كما لا يكون

---

(١) حجة أبي عمرو أن هذا الحرف قرب من ذكر الكافرين والمنافقين في الحرف الأول فختم الآية بالخبر عنهم إذ كان ذلك في سياقه عنهم ومن قرأ بالتاء حجته أن افتتاح الآية جرى بلفظ المخاطبة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا شك أن من بحضرتـه من المسلمين داخلون معه فيما أُمر به من أمر الله ونُهِيَ عنه في هذه فهم حينئذ مخاطبـون معه ما خوطب به من أمر الله ونهيه ونظير قوله ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً﴾ فخاطب خاصته في الظاهر ثم قال: ﴿منيبين إليه﴾ فأخرج الحال عنه وعمن هو على شريعته فكذلك خاطبه في أول هذه الآية خاصة ثم ختمها بمخاطبته ومخاطبة من هو على سبيله إذ كانوا يَشْركون في الأمر والنهي. انظر حجة القراءات ٥٧٠.

(٢) قال مجاهد: نزلت في رجل من قريش كان يدعى ذا القلبين من دهائه وكان يقول: إن لي في جوفي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد. انظر تفسير القرطبي ٧٨/١٤.

لرجل آخر من قلبين[1] وذكر عن الشافعي أنه احتج على محمد بن الحسن قال: (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ) يعني: ما جعل الله لرجل من أبوين في الإسلام يعني لا يجوز أن يثبت نسب صبي واحد من أبوين ولكن هذا التفسير لم يذعن به أحد من المتقدمين فلو أراد به على وجه القياس لا يصح لأنه ليس بينهما جامع يجمع بينهما وذكر عن عمر وعلي رضي الله تعالى عنهما أن جارية كانت بين رجلين جاءت بولد فادعياه، فقالا: إنه ابنهما يرثهما ويرثانه ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ قرأ عاصم تظاهرون بضم التاء وكسر الهاء والألف وقرأ ابن عامر تظاهرون بنصب التاء والهاء وتشديد الظاء وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو تظهرون بنصب التاء والهاء بغير ألف والتشديد وقرأ حمزة والكسائي تظاهرون بنصب التاء والتخفيف مع الألف وهذه كلها لغات[2] يقال: ظاهر من امرأته وتظاهر وتظهر بمعنى واحد وهو أن يقول لها: أنت علي كظهر أمي فمن قرأ تظهرون بالتشديد فالأصل تظهرون فأدغم إحدى التائين في الظاء وشددت ومن قرأ تظاهرون فالأصل يتظاهرون فأدغمت إحدى التائين ومن قرأ بالتخفيف حذف إحدى التائين ولم يشدد للتخفيف كقوله: (تسألون) والأصل تتساءلون والآية نزلت في شأن أوس بن الصامت حين ظاهر من امرأته وذكر حكم الظهار في سورة المجادلة. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ نزلت في شأن زيد بن حارثة حين تبناه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: فكما لا يجوز أن يكون لرجل واحد قلبان فكذلك لا يجوز أن تكون امرأته أمه ولا ابن غيره يكون ابنه ثم قال: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ يعني: قولكم الذي قلتم زيد بن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنتم قلتموه بألسنتكم ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ يعني: يبين الحق ويأمركم به كي لا تنسبوا إليه غير النسبة ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ يعني: يدل على طريق الحق يقال: يدل على الصواب بأن تدعوهم إلى آبائهم وروى أبو بكر بن عياش عن الكلبي قال: كان زيد بن حارثة مملوكاً لخديجة بنت خويلد فوهبته خديجة من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعتقه وتبناه فكانوا يقولون زيد بن محمد فنزل قوله[3]: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ يعني انسبوهم لآبائهم فقالوا: زيد بن حارثة ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني اعدل عند الله عز وجل ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ يعني إن لم تعلموا لهم آباء تنسبونهم إليهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي قولوا ابن عبد الله وابن عبد الرحمن ﴿وَمَوَالِيكُمْ﴾ يعني قولوا مولى فلان وكان أبو حذيفة أعتق عبداً يقال له: سالم وتبناه فكانوا يسمونه سالم بن أبي حذيفة فلما نزلت هذه الآية سموه سالماً مولى أبي حذيفة ثم قال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ يعني: أن تنسبوهم إلى غير آبائهم قبل النهي ويقال: ما جرى على لسانهم بعد النهي لأن ألسنتهم قد تعودت بذلك ﴿وَلَكِنْ﴾ الجناح فيما ﴿مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ يعني: قصدت قلوبكم بعد النهي وروي عن عطاء بن أبي رباح عن عبيد بن عمرو عن عبد الله بن عباس عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «تجاوز الله عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[4] وروي عن سعد بن أبي وقاص أنه حلف باللات والعزى ناسياً فذكر ذلك للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمره أن ينفث عن يساره ثلاثاً وأن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ يعني: غفوراً لمن أخطأ ثم رجع رحيماً بهم.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٨١ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير.

(٢) انظر حجة القراءات ٥٧١ ـ ٥٧٢، والنشر في القراءات العشر ٢/٣٤٧.

(٣) أخرجه البخاري ٨/٣٧٧ كتاب التفسير (٤٧٨٢) وانظر معالم التنزيل للبغوي ٣/٥٠٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه ١/٦٥٩ كتاب الطلاق (٢٠٤٥) والبيهقي في السنن ٧/٣٥٦ ـ ٣٥٧ كتاب الخلع وقال ابن كثير في تحفة الطالب (٢٧١) إسناده جيد.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني: ما يرى لهم رأياً فذلك أولى وأحسن لهم من رأيهم ويقال: معناه: النبي أرحم بالمؤمنين من أنفسهم ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ يعني: كأمهاتهم في الحرمة وذكر عن أبي أنه كان يقرأ (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) وهو أب لهم[1] وأزواجه أمهاتهم ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ قال في رواية الكلبي: إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ آخا بين الناس فكان يؤاخي بين الرجلين فإذا مات أحدهما ورثه الباقي منهما دون عصبته وأهله فمكثوا في ذلك ما شاء الله حتى نزلت هذه الآية[2] (وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ) ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ الذين آخى بينهم فصارت المواريث بالقرابات وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: أنا ولي كل مسلم فمن ترك مالاً فلورثته ومن ترك دينا فإلى الله وإلى رسوله[3] فأمر بصرف الميراث إلى العصبة ثم قال تعالى: ﴿إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً﴾ يعني: إلا أن يوصي له بثلث ماله وقال مقاتل: كان المهاجرون والأنصار يرثون بعضهم من بعض بالقرابة ولا يرث من لم يهاجر إلا أن يوصي للذي لم يهاجر ثم نسخ بما في آخر سورة الأنفال ثم قال: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ يعني: هكذا كان مكتوباً في التوراة ويقال في اللوح المحفوظ ويقال: في القرآن قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ وهو الوحي الذي أوحى إليهم أن يدعوا الخلق إلى عبادة الله عز وجل وأن يصدق بعضهم بعضاً ويقال: الميثاق الذي أخذ عليهم من ظهورهم ويقال: كل نبي أمر بأن يأمر من بعده بأن يخبروا ببعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى ينتهي إليه ثم قال: ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ في هذا تفضيل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه قد ذكر جملة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ثم خصه بالذكر قبلهم وكان آخرهم خروجاً ثم ذكر نوحاً لأنه كان أولهم ثم ذكر إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم صلوات الله عليهم لأن كل واحد منهم كان على أثر بعض فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ ثم قال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ يعني: عهداً وثيقاً أن يعبدوا الله تعالى ويدعوا الخلق إلى عبادة الله عز وجل وأن يبشروا كل واحد منهم بمن بعده ثم قال عز وجل: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ يعني: أخذ عليهم الميثاق لكي يسأل الصادقين عن صدقهم يعني: يسأل المرسلين عن تبليغ الرسالة ويسأل الوفيين عن وفائهم وروي في الخبر أنه يسأل القلم يوم القيامة فيقول له ما فعلت بأمانتي فيقول يا رب سلمتها إلى اللوح ثم جعل القلم يرتعد مخافة أن لا يصدقه اللوح فيسأل اللوح فيقر بأن القلم قد أدى الأمانة وأنه قد سلم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٨٣ وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم دون قوله وأزواجه أمهاتهم.

(٢) انظر تفسير البغوي ٣/٥٠٧ ـ ٥٠٨، تفسير القرطبي ١٤/٨٣.

(٣) أخرجه البخاري ١٢/٩ كتاب الفرائض (٦٧٣١) ومسلم ٣/١٢٣٧ كتاب الفرائض (١٤ ـ ١٦١٩).

إلى إسرافيل فيقول لإسرافيل ما فعلت بأمانتي التي سلمها إليك اللوح فيقول سلمتها إلى جبريل فيقول لجبريل عليه السلام: ما فعلت بأمانتي فيقول: سلمتها إلى أنبيائك فيسأل الأنبياء عليهم السلام فيقولون: قد سلمناها إلى خلقك فذلك قوله تعالى: (لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ) ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ يعني: الذين كذبوا الرسل قوله عز وجل:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: احفظوا منة الله عليكم بالنصرة ﴿إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني: الأحزاب وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما قدم المدينة صالح بني قريظة وبني النضير على أن لا يكونوا عليه ولا معه فنقضت بنو النضير عهودهم وأجلاهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها[1] وذكر قصتهم في سورة الحشر ثم إن بني قريظة جددوا العهد مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم إن حيي بن أخطب ركب وخرج إلى مكة فقال لأبي سفيان بن حرب إن قومي مع بني قريظة وهم سبعمائة وخمسون مقاتلاً فحثه على الخروج إلى قتال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم خرج من مكة إلى غطفان وحثهم على ذلك ثم خرج إلى كنانة وحثهم على ذلك فخرج أبو سفيان مع جماعة من أهل مكة وخرج غطفان وبنو كنانة حتى نزلوا قريباً من المدينة مع مقدار خمسة عشر ألف رجل ويقال ثمانية عشر ألف رجل ثم جاء حيي بن أخطب إلى بني قريظة فجاء إلى باب كعب بن الأشرف وهو رئيس بني قريظة فاستأذن عليه فقال لجاريته انظري من هذا؟ فعرفته الجارية فقالت هذا حيي بن أخطب فقال لا تأذني له علي فإنه مسؤوم إنه قد سأم قومه يريد أن يسأمنا زيادة فقالت له الجارية ليس ها هنا فقال حيي بن أخطب بلى هو ثم ولكن عنده قدر جيش لا يحب أن يشركه فيها أحد فقال كعب احفظني أخزاه الله يعني أغضبني ائذني له في الدخول فدخل عليه فقال له يجيئك مليكك قد جئتك بعارض برد جئتك بقريش بأجمعها وكنانة بأجمعها وغطفان بأجمعها لا يذهب هذا الفوز حتى يقتل محمد فانقض الحلف بينك وبين محمد فقال له كعب بن الأشرف إن العارض ليسبب بنفحاته شيئاً ثم يرجع وأنا في بحر لجي لا أقدر على أن أريم داري ومالي والله ما رأينا جاراً قط خيراً من محمد ما خفر لنا بذمة ولا هتك لنا ستراً ولا آذانا وإنما أخشى أن لا يقتل محمد وترجع أنت وأقتل أنا فقال لكم ما في التوراة إن لم يقتل محمداً في هذا الغور لأدخلن معكم حصنكم فيصيبني ما أصابكم فنقض الحلف وشق الصحيفة فقدم نعيم بن مسعود المدينة وكان تاجراً يقدم من مكة فقال يا محمد شعرت أن بني قريظة نقضوا الحلف الذي كان بينك وبينهم فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلنا نحن أمرناهم بذلك فقال عمر إن كنت أمرتهم بذلك وإن كنت لم تأمرهم بذلك فقتالهم علينا هين فقال ما أنا بكذاب ولكن الحرب خدعة ونعيم لم يسلم ذلك اليوم فبعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سعد بن معاذ وأسيد بن خضير وسعد بن عبادة إلى كعب بن الأشرف يناشدوه الله الحلف الذي كان بينهم وأن يرجعوا إلى ما كانوا عليه من قبل فأبى كعب بن الأشرف وجرى بينهم كلام وسب سعد بن معاذ فقال أسيد بن حضير أتسب سيدك معاذاً يا عدو الله ما هو لك بكفؤ فقال سعد بن معاذ اللهم لا تميتني حتى أشفي نفسي منهم فرجعوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحدثوه

(١) انظر تفسير البغوي ٣/٥٠٩.

الحديث فانطلق نعيم بن مسعود إلى أبي سفيان فقال يا أبا سفيان والله ما كذب محمد قط كذبة أخبرني بأنه أمر بنقض الحلف بينه وبين بني قريظة فقال سلمان الفارسي إنا كنا يا رسول الله بأرض فارس إذا تخوفنا الجنود خندقنا على أنفسنا فهل لك أن تخندق خندقاً فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أهل المدينة وخندق وأخذ المعول بيده فضرب لكي يقتدي الناس فضرب ضربة فأبرق برقة حتى ظهر ضوء بضربته ثم ضرب ضربة أخرى فأبرق برقة ثم ضرب الثالثة فقال سلمان لقد رأيت أمراً عجيباً فقال لقد رأيت ذلك قال نعم فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقد رأيت بالأولى قصور الشام وبالثانية قصور كسرى وبالثالثة قصور اليمن فهذه فتوح يفتح الله عليكم فقال ناس من المنافقين يعدنا أن تفتح الشام وأرض فارس واليمن وما يستطيع أحد منا أن يذهب إلى الخلاء ما يعدنا إلا غروراً فمكث الجنود حول المدينة بضعة عشر ليلة فأرسل عيينة بن حسن الفزاري والحارث بن عوف إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنك إن أعطيتنا تمر المدينة هذه السنة نرجع عنك بغطفان وكنانة ونخلي بينك وبين قومك فتقاتلهم فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا فقال فنصف ذلك التمر قال نعم وكان عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سعد بن معاذ وهو سيد الأوس وسعد بن عبادة وهو سيد الخزرج فقال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عيينة والحارث بن عوف لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اكتب لنا كتاباً فدعى بصحيفة ليكتب بينهم فقال سعد بن معاذ وسعد بن عبادة يا رسول الله أوحي إليك في هذا شيء؟ فقال لا ولكنني رأيت العرب رمتكم من قوس واحدة فقلت أرد هؤلاء وأقاتل هؤلاء فقالا ما رجون بهذا منها في الجاهلية قط أن يأخذوا منا تمرة واحدة إلا بشراء وقراء فحين زادنا الله بك وأمدنا بك وأكرمنا بك نعطيهم الدنية لا نعطيهم شيئاً إلا بالسيف فشق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصحيفة وقال اذهبوا فلا نعطيكم شيئاً إلا بالسيف فلما كان يوم الجمعة أرسل أبو سفيان إلى حيي بن أخطب أن استعد غداً إلى القتال فقد طال المقام ها هنا وقل لقومك يعدوا فلما جاء بني قريظة الرسول فقالوا غداً يوم السبت لا نقاتل فيه فقال أبو سفيان نحن نؤخر القتال إلى يوم الأحد هاتوا لنا رهوناً أبناءكم نثلج إليهم أي نطمئن بذلك فجاء رسول أبي سفيان إلى بني قريظة وقد أمسوا فقالوا هذه الليلة لا يدخل علينا أحد ولا يخرج من عندنا أحد فوقع في نفس أبي سفيان من قول نعيم بن مسعود أنه خوان حق وأن نقض العهد كان مكراً منهم فلما كانت تلك الليلة ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه عند الخندق فصلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلث الليل ثم قال من رجل ينظر ما يفعل القوم أدخله الله الجنة فما تحرك منهم أحد ثم صلى الثلث الثاني فقال من رجل ينظر ما يفعل القوم فما تحرك منهم أحد ثم صلى ساعة ثم هتف مرة أخرى فما تحرك منهم إنسان فقال يا حذيفة فجاء حذيفة فقال أما سمعت كلامي منذ الليلة قال بلى ولكن بي من الجوع والقر يعني البرد لم أقدر على أن أجيبك قال اذهب فانظر ما فعل القوم ولا ترمي بسهم ولا بحجر ولا تطعن برمح ولا تضرب بسيف فقال يا رسول الله إني لا أخشى أن يقتلوني إني لميت ولكن أخشى أن يمثلوا بي فقال ليس عليك بأس فلما قال هذا قال حذيفة آمنت وعرفت أنه لا بأس علي فلما ولى حذيفة قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته فدخل حذيفة رضي الله عنه في عسكر قريش فإذا هم يصطلون يعني : مجتمعين على نار لهم فجلس حذيفة في حلقة منهم فقال أتدرون ما يريد الناس غداً قالوا ماذا يريدون قال يقولون يعني : أهل العساكر أين قريش أين سادات الناس وقادتهم؟ فتجيؤن فيطرحونكم في نحور العدو فتقتلوا أو تفروا فما زال ذلك الحديث يفشوا في العسكر ثم دخل عسكر بني كنانة فقال : أتدرون ماذا يريد الناس غداً؟ قالوا ماذا يريدون؟ قالوا يقولون أين بنـو كنانة أين ذروة العرب أين رماة الخندق فتجيبون فيطرحونكم في نحور العدو فتقتلوا أو تفروا ثم دخل عسكر غطفان فقال أتدرون ماذا يريد الناس غداً؟ قولوا ماذا يريدون؟ قال يقولون أين غطفان

أين بنو فزارة بن حلاس الخيول؟ فتجيبون فيطرحونكم في نحور العدو فتقتلوا أو تفروا قال فبعث الله تعالى عليهم ريحاً شديدة فلم تترك لهم[١] خباء إلا قلعته ولا إناء إلا أكفاته وقلعت أوتاد خيولهم وجالت الخيول بعضها في بعض فقالوا فيما بينهم لقد بدا محمد بالسر فالنجاة النجاة فركب أبو سفيان جمله معقولاً فما حل عقاله إلا بعد أن انبعث قال حذيفة ولو شئت أن أضربه بسيفي أو أطعنه برمحي لفعلت ولكن نهاني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فترحلوا كلهم وذهبوا فرجع حذيفة إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحدثه عن العساكر وما فعل الله عز وجل بها فنزل (يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ) في الدفع عنكم (إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ) من المشركين ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً**﴾ شديدة ﴿**وَجُنُوداً لم تَرَوْهَا**﴾ من الملائكة وذلك كبرت حوالي العسكر حتى انهزموا حين هبت بهم الريح وهي ريح الصبا وروي عن ابن عباس عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور[٢] ثم قال تعالى ﴿**وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً**﴾ في أمر الخندق.

إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

قوله عز وجل: ﴿**إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ**﴾ يعني: أتاكم المشركون من فوق الوادي يعني: طلحة بن خويلد الأسدي ﴿**وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ**﴾ من قبل المغرب وهو أبو الأعور السلمي ويقال من فوقكم أي من قبل المشرق مالك بن عوف وعيينة بن حصن الفزاري ويهود بني قريظة ومن أسفل منكم أبو سفيان فلما رأى ذلك قالوا ﴿**وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ**﴾ يعني: شخصت الأبصار فرقاً يعني أبصار المنافقين لأنهم أشد خوفاً كأنهم خشب مسندة ﴿**وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ**﴾ خوفاً هذا على وجه المثل ويقال اضطراب القلب يبلغ الحناجر ويقال إذا خاف الإنسان تنتفخ الرئة وإذا انتفخت الرئة يبلغ القلب الحنجرة ويقال للجبان منتفخ الرئة ﴿**وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**﴾ يعني: الإياس من النصرة يعني: ظننتم أن لن ينصر الله عز وجل محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ ابن كثير والكسائي وعاصم في رواية حفص الظنون بالألف عند الوقف ويطرحونها عند الوصل[٣] وكذلك في قوله (وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا) (وَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا) وقرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر بالألف في حال الوصل والوقف وقرأ أبو عمرو وحمزة بغير

(١) الخباء بيت من وبر أو شعر أو صوف يكون على عمودين أو ثلاثة وفي الحديث أنه أتى خباء فاطمة. انظر المعجم الوسيط ١/٢١٢.
(٢) أخرجه البخاري ٢/٥٢٠ كتاب الاستسقاء (١٠٣٥) ومسلم ٢/٦١٧ كتاب صلاة الاستسقاء (١٧ ـ ٩٠٠).
(٣) حجة من أثبت الألف في الوصل والوقف هي أن من العرب من يقف على المنصوب الذي فيه الألف واللام بألف فيقولون (ضربت =

ألف في الحالين جميعاً فمن قرأ بالألف في الحالين فلاتباع الخط لأن في مصحف الإمام وفي سائر المصاحف بالألف ومن قرأ بغير ألف فلأن[1] الألف غير أصلية وإنما يستعمل هذه الألف الشعراء في القوافي وقال أبو عبيدة أحب إلي في هذه الحروف أن يتعمد الوقف عليها بالألف ليكون متبعاً للمصحف واللغة ثم قال عز وجل: ﴿هُنَا لِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: عند ذلك اختبر المؤمنون يعني: أمروا بالقتال والحضور وكان في ذلك اختباراً لهم ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ أي: حركوا تحريكاً شديداً واجتهدوا اجتهاداً شديداً ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾ وهم لم يقولوا رسول الله وإنما قالوا باسمه ولكن الله عز وجل ذكره بهذا اللفظ قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ يعني: جماعة من المنافقين ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يعني: يا أهل المدينة وكان اسم المدينة يثرب فسماها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ قرأ عاصم في رواية حفص بضم الميم وقرأ الباقون بالنصب[2] فمن قرأ بالضم فمعناه لا إقامة لكم ومن قرأ بالنصب فهو بالمكان أي لا مكان لكم تقومون فيه والجمع المقامات وكان أبو عبيدة يقرأ بالنصب لأنه يحتمل المقام والمكان جميعاً يعني أن المنافقين قالوا خوفاً ورعباً منهم لا مقام لكم عند القتال ﴿فَارْجِعُوا﴾ يعني: فانصرفوا إلى المدينة ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ وهم بنـو حارثة وبنو سلمة وذلك أن بيوتهم كانت في ناحية المدينة ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ يعني: ضائعة نخشى عليها السراق ويقال معناه أن بيوتنا مما يلي العدو وإنا لا نأمن على أهالينا وقال القتبي أصل العورة ما ذهب عنه الستر والحفظ وكان الرجال ستراً وحفظاً للبيوت فقالوا إن بيوتنا عورة يعني: خالية والعرب تقول أعور منزلك أي إذا سقط جداره يقول الله تعالى ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ لأن الله عز وجل يحفظها يعني: وما هي بخالية ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً﴾ أي ما يريدون إلا فراراً من القتال ثم قال: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِنْ أَقْطَارِهَا﴾ يعني: لو دخل العسكر من نواحي المدينة ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ يعني: دعوهم إلى الشرك ﴿لَآتَوْهَا﴾ قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر لأتوها بالهمزة بغير مد وقرأ الباقون بالهمز والمد[3] فمن قرأ بالمد (لآتوها) يعني:لأعطوها ومن قرأ بغير مد معناه صاروا إليها وجاؤوها وكلاهما يرجع إلى معنى واحد يعني لو دعوا إلى الشرك لأجابوا سريعاً ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً﴾ أي وما تحسبوا بالشرك إلا قليلاً يعني يجيبوا سريعاً ويقال لو فعلوا ذلك لم يلبثوا بالمدينة إلا قليلاً.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: من قبل قتال الخندق حين كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة خرج سبعون رجلاً من المدينة إلى مكة فخرج إليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة

= الرجلا) وفي الخفض (مررت بالرجلى) وأخرى أنهن رؤوس آيات فحسن إثبات الألف لأن رأس آية في موضع سكت وقطع للفصل بينها وبين الآية التي بعدها وللتوفيق بين رؤوس الآي، قال الشاعر:

أقلي اللـوم عـاذلُ والعتـابا

والحجة الثالثة: اتباع المصحف كما سيذكر المصنف قال أبو عبيد: رأيت في الذي يقال إنه (الإمام مصحف عثمان) الألف مثبتة في ثلاثتهن ومن حذف الألف في الوصل وأثبتها في الوقف قال: (جمعت قياس العربية في ألا تكون (ألف) في اسم فيه الألف واللام واتباع المصحف في إثبات الألف فاجتمع لي الأمران. ومن حذف الألف في الوصل والوقف احتج بأن التنوين لا يدخل مع الألف واللام فلما لم يدخل التنوين لم تدخل الألف لأن الألف مبدلة من التنوين قال اليزيدي: وليس أحد يقول: (دخلت الدارا).
انظر حجة القراءات ٥٧٣ ـ ٥٧٤، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٧ ـ ٣٤٨، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٧١.

(١) انظر المصادر السابقة في القراءات.

(٢) انظر حجة القراءات ٥٧٤، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٨.

(٣) حجتهم قوله تعالى: ﴿ثم سئلوا الفتنة﴾ فالإعطاء مع السؤال حسن أي لو قيل لهم كونوا على المسلمين مع المشركين لفعلوا ذلك وقال الحسن لودعوا إلى الشرك لأجابوا وأعطوها. انظر حجة القراءات ٥٧٥، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٨.

العقبة إلى السبعين فبايعهم وبايعوه فقالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً واشترط لنفسي أن تمنعوني مما منعتم به أنفسكم وأولادكم فقالو قد فعلنا ذلك (فمالنا قال عليه السلام[1] لكم النصرة في الدنيا والجنة في الآخرة قالوا قد فعلنا ذلك فذلك قوله)[2] ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ منهزمين ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولًا﴾ يعني يسأل في الآخرة من ينقض العهد قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَنْ يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُم مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا تؤجلون إلا يسيراً لأن الدنيا كلها قليلة ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني: يمنعكم من قضاء الله وعذابه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً﴾ يعني: القتل ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي عافية ويقال سوءاً يعني: الهزيمة أو أراد بكم رحمة يعني: خيراً وهو النصر يعني من يقدر على دفع السوء عنكم وجر الخير إليكم ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾ يعني: قريباً ومانعاً.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)﴾

قوله عز وجل: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ يعني: يرى المثبطين منكم المانعين من القتال منكم وهم المنافقون ﴿وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ﴾ يعني: لأوليائهم وأصدقائهم ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ يعني: ارجعوا إلينا إلى المدينة وهذا بلغة أهل المدينة يقولون للواحد وللاثنين والجماعة هلم وسائر العرب تقول للجماعة هلموا ثم قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ وذلك أن المنافقين كانوا يقولون إن لنا شغلاً فيرجعون إلى المدينة فإذا لقيهم أحد بالمدينة من المؤمنين يقولون دخلنا لشغل ونريد أن نرجع وإذا لقوا أحداً من المنافقين يقولون أي شيء تصنعون هناك ارجعوا إلينا ولا يأتون البأس يعني: ولا يحضرون القتال إلا قليلاً رياء وسمعة ولو كان ذلك لله لكان كثيراً وهذا كقوله (وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً).

ثم قال عز وجل: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ يعني: أشفقة عليكم حباً لكم حتى يعوقكم يا معشر المسلمين ويقال: يعني: بخلاء في النفقة عليكم ويقال فيه تقديم فكأنه يقول ولا يأتون البأس شفقة عليكم أي لم يحضروا شفقة عليكم إلا قليلاً يعني: لا قليلاً ولا كثيراً ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾ يعني: خوف القتال ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ من الخوف ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ يعني: تدور أعينهم كدوران الذي هو في غشيان الموت

(١) انظر تفسير البغوي ٣/٥١٧.
(٢) سقط في أ.

ونزعاته جبناً وخوفاً ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وجاءت قسمة الغنيمة ﴿سَلَقُوكُمْ﴾ يعني: رموكم ويقال: طعنوا فيكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ يعني: سلاط باسطة بالشر ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ يعني: حرصاً على الغنيمة ويقال بخلاً على الغنيمة ﴿أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ يعني: لم يصدقوا حق التصديق ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾[١] يعني: أبطل الله ثواب أعمالهم ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ يعني: إبطال أعمالهم ويقال عذابهم في الآخرة على الله هين ثم قال عز وجل: ﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ يعني: يظنون أن الجنود لم يـذهبوا من الخـوف والرعب ﴿وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ﴾ مرة أخرى ويقال: حكاية عن الماضي ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ﴾ يعني: تمنوا أنهم خارجون في البادية مع الأعراب ﴿يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ يعني: عن أخباركم وأحاديثكم ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ﴾ يعني: معكم في القتال ﴿مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾ رياء وسمعة من غير حسبة وقرىء في الشاذ يسألون بتشديد السين وأصله يتساءلون أي يسأل بعضهم بعضاً وقراءة العامة يسألون لأنهم يسألون القادمين ولا يسأل بعضهم بعضاً قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قرأ عاصم أسوة بضم الألف وقرأ الباقون بالكسر وهما لغتان[٢] ومعناهما واحد يعني لقد كان لكم اقتداء بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقدوة حسنة وسنة صالحة لأنه كان أسبقهم في الحرب وكسرت رباعيته يوم أحد وَوَاسَاكُمْ بنفسه في مواطن الحرب ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾ يعني: يخاف الله عز وجل: ﴿وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ باللسان ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ﴾ يعني: الجنود يوم الخندق والقتال ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ في سورة البقرة وهو قوله عز وجل (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُم) الآية ويقال إنه قد أخبرهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه نازل ذلك الأمر فلما رأوه (قالوا هَـذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ) ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ يعني: لم يزدهم الجهد والبلاء إلا تصديقاً لقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجرأة وتسليماً يعني: تواضعاً لأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم نعت المؤمنين.

مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا

---

(١) إحباط الأعمال: إبطال الاعتداد بالأعمال المقصود بها القربة والمظنون بها أنها أعمال صالحة لمانع منع من الاعتداد بها في الدين.
وقد صار لفظ الحبط والحبوط من الألفاظ الشرعية الاصطلاحية بين علماء الفقه والكلام فأطلق على عدم الاعتداد بـالأعمال الصالحة بسبب الردة أي الرجوع إلى الكفر أو بسبب زيـادة السيئات على حسناته بحيث يستحق صاحب الأعمال العذاب بسبب زيادة سيئاته على حسناته بحسب ما قدر الله لذلك وهو أعلم به ومن هذه الجهة عدت مسألة الحبوط مع المسائل الكلامية أو بحيث ينظر في انتفاعه بما فعل من الواجبات عليه إذا ارتد عن الإسلام ثم عاد إلى الإسلام كمن حج ثم ارتد ثم رجع إلى الإسلام ومن هذه الجهة تعد مسألة الحبوط في مسائل الفقه فقال مالك وأبو حنيفة: الردة تحبط الأعمال بمجرد حصولها فإذا عاد إلى الإسلام وكان قد حج مثلاً قبل ردته وجبت عليه إعادة الحج تمسكاً بإطلاق هذه الآية إذ ناطت الحبوط بانتفاء الإيمان ولم يريا أن هذا مما يحمل فيه المطلق على المقيد احتياطاً لأن هذا الحكم راجع إلى الإعتقادات ولا يكفي فيها الظن. وقال الشافعي: إذا رجع إلى الإسلام رجعت إليه أعماله الصالحة التي عملها قبل الردة تمسكاً بقوله تعالى: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾. في سورة البقرة حملاً للمطلق في آية سورة الأحزاب ونحوها على المقيد في آية سورة البقرة تغليباً للجانب الفرعي في هذه المسألة على الجانب الاعتقادي. وتعرف هذه المسألة بمسألة الموافاة أي استمرار المرتد على الردة إلى انقضاء حياته فيوافي يوم القيامة مرتداً فمالك وأبو حنيفة لم يريا شرط الموافاة والشافعي اعتبر الموافاة والمعتزلة قائلون بمثل ما قال به مالك وأبو حنيفة. وحكى الفخر عن المعتزلة اعتبار الموافاة على الكفر. انظر التحرير ٢١/٢٩٩، ٣٠٠.

(٢) انظر حجة القراءات ٥٧٥، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٧٣.

تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

فقال عز وجل: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ يعني: وفوا بالعهد الذي عاهدوا ليلة العقبة ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ يعني: أجله فمات أو قتل على الوفاء يعني: وفاء بالعهد وقال القتبي النحب في اللغة النذر وذلك أنهم نذروا إذا لقوا العدو أن يقاتلوا فقتل في القتال فسمي قتله قضاء نحبه، واستعير النحب مكان الموت وقال مجاهد: النحب العهد وروى عيسى بن طلحة قال: جاء أعرابي فسأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الذين قضوا نحبهم فأعرض عنه وطلع طلحة بن عبيد الله فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا ممن قضى[1] نحبه[2] ثم قال ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ يعني: ينتظر أجله ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ يعني: ما غيروا بالعهد الذي عهدوا تغييراً ثم قال عز وجل: ﴿ليجزى الله الصادقين بصدقهم﴾ يعني: الوافين بوفائهم ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ يعني: إذا ماتوا على النفاق ﴿إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: يقبل توبتهم إن تابوا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رحِيماً﴾ لمن تاب منهم رحيماً بهم قوله عز وجل: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: صدهم وهم الكفار الذي جاؤوا يوم الخندق ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ يعني: صرفهم عن المدينة مع غيظ منهم ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْراً﴾ يعني: لم يصيبوا ما أرادوا من الظفر والغنيمة ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ يعني: دفع الله عنهم مؤنة القتال حيث بعث عليهم ريحاً وجنوداً ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾ فلما رجع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الخندق دخل المدينة[3] ودخل على فاطمة رضي الله عنها وأراد أن يغسل رأسه فجاءه جبريل عليه السلام وقال لا تغسل رأسك ولكن اذهب إلى بني قريظة فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال إن جبريل عليه السلام قال له حين وضع سلاحه وضعت سلاحك قال نعم قال ما وضعت الملائكة عليهم السلام سلاحها بعد وقد أمرك الله عز وجل أن تنهض نحو بني قريظة فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الناس فقال عزمت عليكم أن لا تصلوا العصر إلا ببني قريظة فلبس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سلاحه وخرج المسلمون معه واللواء في يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه فمر على بني عدي بن النجار وقد أخذوا السلاح فقال من أمركم أن تلبسوا السلاح فقالوا دحية الكلبي وكان جبريل عليه السلام يتمثل في صورته فلما جاء بني قريظة وجد بعض الصحابة قد صلوا العصر قبل أن يأتوا بني قريظة مخافة أن تفوتهم عن وقتها وأبى بعضهم فقالوا نهانا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن نصلي حتى نأتي بني قريظة

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٩١ وعزاه لابن أبي عاصم والترمذي وحسنه وأبي يعلى وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن طلحة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/٣٧٦ كتاب معرفة الصحابة باب من أراد أن ينظر إلى شهيد وذكره المتقي الهندي في كنز العمال ١١/٦٩٦ (٣٣٣٧١) وعزاه لابن عساكر.

(٣) انظر تفسير البغوي ٣/٥٢١ وما بعدها.

فلم ينتهوا إلى بني قريظة حتى غابت الشمس ولم يصلوا العصر قال فلم يؤنب أحداً من الفريقين أي رضي بما فعل الفريقان جميعاً وفيه دليل لقول بعض الناس إن لكل مجتهد نصيب فجاء علي رضي الله عنه باللواء حتى عزره عند الحصن فسبت اليهود رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأزواجه ورجع إليه علي رضي الله عنه فقال تأخر يا رسول الله ونحن نكفيك فيهم قال سبوني ولو كانوا دوني لم يسبوني فلما جاءهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا إخوة القردة والخنازير انزلوا على حكم الله وحكم رسوله فقالوا يا أبا القاسم ما كنت فحاشاً ورجع حيي بن أخطب من الروحاء وقد ذكر يمينه التي حلف بها لكعب بن الأشرف ودخل معهم في حصنهم ونزل بنو سعد بن شعبة أسد وثعلبة فأسلموا وأبى من بقي فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي لبابة بن عبد المنذر اذهب فقل لخلفائك ومواليك ينزلوا على حكم الله تعالى ورسوله عليه السلام فجاءهم أبو لبابة فقال: انزلوا على حكم الله ورسوله فقالوا يا أبا لبابة نصرناك يوم بعاث ويوم الحدائق والمواطن كلها التي كانت بين الأوس والخزرج ونحن مواليك وحلفاؤك فانصح لنا ماذا ترى فأشار إليهم ووضع يده على حلقه يعني: الذبح فقالوا لا تفعل يعني: لا ننزل فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خنت الله ورسوله فقال نعم فانطلق فربط نفسه بخشبة من خشب المسجد حتى تاب الله عليه والتمسه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يجده فقالوا: إنه قد ربط نفسه بخشبة من خشبة المسجد فقال: لو جاءني لاستغفرت له فأما إذا ربط نفسه فدعوه حتى يتوب الله عليه ثم أتاه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحله فقال كعب بن أسد لأصحابه من بني قريظة أما تعلمون أنه قد جاءنا ابن فلان اليهودي من الشام فقال لنا جئتكم لنبي ينتهي إلى هذه الأرض من قريش وأنه يبعث بالذبح والقتل والسب فلا يهولنكم ذلك وكونوا أولياءه وأنصاره فقالوا لا نكون تبعاً لغيرنا نحن أهل الكتاب والنبوة لا نتبع قوماً أميين ما درسوا كتاباً قط فلا نفعل فقال كعب بن أسد أطيعوني في إحدى ثلاث قالوا وما هي فقال إنكم لتعرفون أنه رسول الله فاتبعوه وانصروه وكونوا أنصاره وأولياءه فقالوا لا نكون تبعاً لغيرنا فقال أما إذا أبيتم فإن هذه ليلة السبت هم يأمنونكم انزلوا إليهم فبيتوهم حتى تقتلوهم فقالوا لا نكسر سبتنا فقد كسر قوم من بني إسرائيل سبتهم فمسخهم الله تعالى قردة وخنازير قال فإن أبيتم هذا فإذا كان يوم الأحد فاقتلوا أبناءكم ونساءكم ثم انزلوا إليهم بأسيافكم فقاتلوهم حتى تموتوا كراماً فقالوا لا نفعل فلبثوا خمسة عشر ليلة محاصرين فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على حكم من تنزلون قالوا ننزل على حكم سعد بن معاذ فأرسل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى سعد بن معاذ وكان جريحاً قد رمته بني قريظة فأصاب أكحله فدعى الله تعالى أن لا يميته حتى يشفي صدره من بني قريظة فأتي به على حمار فتبعه قوم كان ميلهم إلى بني قريظة وكانوا يقولون له يا أبا عمرو أحسن في حلفائك ومواليك إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب البقية وقد نصروك يوم بعاث ويوم حدائق فلم يكلمهم حتى نظر إلى بيوت بني قريظة فقال سعد قد آن لي أن لا أخاف في الله لومة لائم فعرفوا أنه سوف يقتلهم فرجعوا عنه فلما دنا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن حوله قوموا إلى سيدكم فأنزلوه فقام إليه الأنصار فأنزلوه فقال احكم فيهم يا أبا عمرو فقال سعد لليهود أترضون بحكمي قالوا: نعم فقال: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه قالوا نعم فالتفت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه وهاب أن يخاطب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال وَعَلَيَّ مِنْ هَاهُنَا مثل ذلك وإنه ليغض بصره عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نعم نعم وعلينا فقال لبني قريظة انزلوا فلما نزلوا قال احكم فيهم يا رسول الله أن تقتل مقاتليهم وتسبي ذراريهم وتقسم أموالهم فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقد حكمت بحكم من فوق سبعة أرقعة فأتي بحيى بن أخطب مأسوراً في حلة فجاءه رجل من الأنصار فنزع رداءه فبقي في إزاره فجعل يفرر إزاره ـ لكي لا يلبسه أحد وهو يقول لا بأس بأمر الله فلما جاء بين

يدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ألم يمكن الله منك يا عدو الله فقال بلى وما ألوم نفسي فيك قد التمست العز في مظانه وقلقلت في كل مقلقل فأبى الله إلا أن يمكنك مني فأمر بضرب عنقه ثم جاؤوا بعزاز بن سموأل فقال ألم يمكنني الله منك فقال بلى يا أبا القاسم فضرب عنقه ثم قال لسعد عليك بمن بقي وقال لا تجمعوا عليهم حرين حر الهاجرة وحر السيف فحسبهم كذلك في دار الحارث وفي بعض الروايات ببيت خراب ثم أخرجهم رسلاً فقتلهم على الولاء والترتيب فقال بعضهم لبعض ما تراهم يصنعون بنا فقال واحد ألا تعقلون أنهم يقتلون ألا ترون أن الداعي لا يسكت ومن ذهب لا يرجع فقتلوا كلهم ولم يسلم أحد منهم كان فيهم رجل يقال له زبير بن باطا فكلم ثابت بن قيس بن شماس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أمره فقال إن الزبير بن باطا له عندي يد وقد أعانني يوم بعاث فهبهُ لي يا رسول الله حتى أعتقه فقال عليه السلام هو لك فجاء إليه فقال: يا أبا عبد الرحمن أتعرفني قال نعم وهل ينكر الرجل أخاه أنت ثابت بن قيس قال أتذكر يداً لك عندي يوم بعاث قال نعم إن الكريم يجزي باليد فاجز بها فقال قد وهبك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لي وقد أعتقتك قال شيخ كبير لا أهل له كيف يعيش فجاء ثابت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكلمه في أهله فقال لك أهلهُ فجاء إليه فقال قد وهب لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهلك فهي لك فقال شيخ كبير أعمى وامرأة ضعيفة وأطفال صغار لا مال لهم كيف يعيشون فقام ثابت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسأله ماله فقال لك ماله فجاء إليه فقال قد وهب لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مالك لي فهو لك فقال فما فعلت بكعب بن أسد الذي وجهه كأنه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحي قال قتل قال فما فعل بعزاز بن سموأل مقدم اليهود إذا حملوا وحاميهم إذا انصرفوا قال قتل قال فما فعل بسيد الحاضر والبادي حيي بن أخطب يحملهم في الحرب ويطعمهم في المحل؟ قال قتل قال فما فعل بفلان وفلان قال قتل قال فقال: يا ابن الأخ لا خير في الحياة بعد أولئك ألا أصبر فيه قدر فراغ دلو ماء حتى ألقى الأحبة قال أبو بكر ويلك يا ابن باطا والله ما هو إفراغ دلو ماء ولكنه عذاب الله أبداً يا ابن الأخ قدمني إلى مصارع قومي فاضرب ضربة أجهز بها وأرفع يدك عن العصام وألصق بالرأس فإن أحسن الجسد أن يكون فيه شيء من العنق فقال ثابت ما كنت لأقتلك قال ما أبالي من قتلني فتقدم رجل من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضرب عنقه وغنم الله عز وجل رسوله أموال بني قريظة وذراريها فقسمها بين المسلمين فنزل قوله تعالى:

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ يعني: عاونوهم ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم بنو قريظة ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ يعني: من قصورهم وحصونهم وأصل الصياصي في اللغة[(١)] قرون الثور لأنه يتحصن به فقيل للحصون صياصي لأنها تمنع ثم قال: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمِ الرُّعْبَ﴾ حين انهزم الأحزاب ﴿فَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ يعني: رجالهم ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً﴾ تسبون طائفة وهم النساء والصبيان قال مقاتل قتل أربعمائة وخمسون رجلاً وسبي من النساء والصبيان ستمائة وخمسون وقال في رواية الكلبي كانوا سبعمائة فقسمها بين المهاجرين ثم قال عز وجل: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ يعني: مزارعهم ﴿وَدِيَارَهُمْ﴾ يعني: منازلهم ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ يعني: العروض والحيوان ﴿وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُوهَا﴾ يعني: لم تملكوها ولم تقدروا عليها يعني ورثكم تلك الأرض أيضاً وهي أرض خيبر وروي عن الحسن وغيره في قوله (أَرْضاً لَمْ تَطَؤُوهَا) قال كلما فتح على المسلمين إلى يوم القيامة[(٢)] ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ يعني: على فتح مكة وغيرها من القرى.

---

(١) انظر لسان العرب ٤/٢٥٣٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٩٣ وعزاه للفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ﴾ وذلك أنه رأى منهن الميل إلى الدنيا وطلبن منه فضل النفقة ﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ يعني: وزهرتها ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ متعة الطلاق ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ يعني: أطلقكن طلاق السنة من غير إضرار قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: تطلبن رضى الله ورضى رسوله ﴿وَالدَّارَ الآخِرَةَ﴾ يعني: الجنة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ يعني: ثواباً جزيلاً في الجنة فاعتزل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نساءه شهراً فلما نزلت هذه الآية جمع نساءه فبدأ بعائشة فقال يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تَعْجَلي فيه حتى تستشيري أبويك قالت وما هو يا رسول الله فتلى عليها الآية فقالت أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة ثم خير نساءه فاخترنه سائر النساء[1] ثم قال عز وجل: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ يعني: الزنا ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ يعني: تعاقب مثلي ما يعاقب غيرها ويقال الجلد والرجم وهذا قول الكلبي ويقال من يأت منكن بفاحشة مبينة يعني: بمعصية يضاعف لها العذاب ضعفين لأن كرامتهن كانت أكثر فجعل العقوبة عليهن أشد وهذا كما روي عن سفيان بن عيينة أنه قال يغفر للجاهل سبعون ما لا يغفر للعالم واحدة ثم قال ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ يعني: هيناً قرأ ابن كثير وعاصم في إحدى الروايتين (مبيَّنة) بنصب الياء وقرأ الباقون بالكسر وقرأ ابن كثير وابن عامر (نُضَعِّفْ) بالنون وتشديد العين لها العذابَ بنصب الباء ومعناه لها العذاب وقرأ أبو عمرو (يُضَعَّفْ) بالياء والتشديد وضم الباء في العذاب على معنى فعل ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون (يضاعف) وهما لغتان والعرب تقول تضعف الشيء وضاعفه ثم قال ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: تطع منكن الله ورسوله ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحاً﴾ يعني: تعمل بالطاعات فيما بينها وبين ربها ﴿نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ يعني: ثوابها ضعفين ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً﴾ يعني: ثواباً حسناً في الجنة قرأ حمزة والكسائي ويعمل صالحاً بالياء وقرأ الباقون بالتاء[2] فمن قرأ بالياء فللفظ مَنْ لأن

---

(١) أخرجه مسلم ٢/ ١١٠٤ كتاب الطلاق (٢٩ ـ ١٤٧٨) والترمذي (٣٢٠٤، ٣٣١٨) والنسائي ٦/ ١٦٠، وابن ماجه (٢٠٥٣). وأحمد في المسند ٦/ ١٦٣ والبيهقي في السنن ٧/ ٣٨.

(٢) حجتهم في قوله (تعمل) بالتاء: هي أن الفعل لما تقدمه قوله (منكن) أجروه بلفظ التأنيث لأن تأنيث (منكن) أقرب إليه من لفظ

لفظها لفظ واحد مذكر كما اتفقوا في قوله (وَمَنْ يَقْنُتْ) ومن قرأ بالياء ذهب إلى المعنى وصار منكن فاصلاً بين الفعلين وقرأ حمزة والكسائي يؤتها بالياء يعني: يؤتها الله وقرأ الباقون بالنون[١] على معنى الإضافة إلى نفسه ثم قال عز وجل: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ يعني: لستن كسائر النساء فقال لستن كأحد ولم يقل كواحد لأن لفظ الأحد يصلح للواحد والجماعة وأما لفظ الواحد لا يصلح إلا للواحد ثم قال عز وجل: ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ يعني: إن اتقيتن المعصية وأطعتن الله ورسوله ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ يعني: لا تلنَّ بالقول ويقال لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فأنتن أحق الناس بالتقوى وتم الكلام ثم قال (فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ) يعني: لا ترفقن بالقول وهو اللين من الكلام ومعلوم أن الرجل إذا أتى باب إنسان والرجل غائب فلا يجوز للمرأة أن تلين القول معه ثم قال: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ يعني: فجور وقال عكرمة هو شهوة الزنا[٢] ويقال الميل إلى المعصية ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ يعني: صحيحاً جميلاً ويقال قولاً حسناً يعني ليناً ويقال لا يقلن باللين فيفتن ولا بالخشن فتؤذين وقلن قولاً معروفاً بين ذلك قال عز وجل: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ قرأ نافع وعاصم (وَقرنَ فِي بُيوتكن) بالنصب والباقون بالكسر[٣] فمن قرأ بالكسر فمعناه اسكن في بيوتكنَّ بالوقار وهو من وقر يقر وقاراً ويقال هو من التقرير ويقال قر يقر وأصلهُ قررن ولكن المضاعف يراد به التخفيف فحذف إحدى الراءين للتخفيف فلما طرحوا إحدى الراءين استثقلوا الألف ولم تكن أصلية وإنما دخلت للوصل فحذفت الألف ومن قرأ وقرن بنصب القاف لا يكون إلا للتقرير ثم قال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ يعني: لا تتزين كتزين الجاهلية الأولى والتبرج إظهار الزينة ويقال التبرج الخروج من المنزل والجاهلية الأولى قال الكلبي يعني الأزمنة التي ولد فيها إبراهيم عليه السلام فكانت المرأة من أهل ذلك الزمان تتخذ الدروع من اللؤلؤ ثم تمشي وسط الطريق وكان ذلك في زمن النمرود الجبار وروي عن الحكم بن عيينة قال الجاهلية الأولى كانت بين نوح وآدم عليهما السلام وكانت نساؤهم أقبح ما يكون من النساء ورجالهم حسان وكانت المرأة تريد الرجل على نفسها[٤] وروى عكرمة عن ابن عباس أن الجاهلية الأولى كانت بين نوح وإدريس وكانت ألف[٥] سنة وقال مقاتل الجاهلية الأولى كانت قبل خروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما سمى جاهلية الأولى لأنه كان قبله ثم قال: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ﴾ يعني: أتممن الصلوات الخمس ﴿وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ يعني: إن كان

= (من) وحجة من قرأ (يعمل) بالياء: إجماع الجميع (على الياء) في قوله: (من يأت منكن) (ومن يقنت) فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه.

(وأما من قرأ بالياء فإنه حمل الكلام على لفظ (من) دون المعنى ومن قرأ بالتاء فإنه حمل على المعنى دون اللفظ لأن معنى (من) التأنيث والجمع ومما يقوى قول من حمل على المعنى فأنث: اتفاق حمزة والكسائي معهم في قوله: (نؤتها) فحملا أيضاً على المعنى ولو كان على اللفظ لقالوا: (نؤته) فكذلك قوله: (وتعمل) كان ينبغي أن يحمل على المعنى. انظر حجة القراءات ٥٧٦.

(١) حجة من قرأ (نؤتها) بالنون هي أن الكلام جرى عقيبه بلفظ الجمع وهو قوله ﴿وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ فأجراه على لفظ ما أتى عقيبه ليأتلف الكلام على نظام واحد وحجة من قرأ بالياء أن الكلام جرى عقيب الخبر من الله في قوله ﴿ومن يقنت منكن لله ورسوله﴾ فكان قوله ﴿يؤتها﴾ بمعنى (يؤتها الله) بمجيء الفعل بعد ذكره. انظر حجة القراءات ٥٧٦، إتحاف فضلاء البشر ٣٧٤/٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٩٦/٥ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة.

(٣) انظر حجة القراءات ٥٧٧، النشر في القراءات العشر ٣٤٨/٢.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٩٧/٥ وعزاه لابن جرير.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٩٧/٥ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

لكن مال ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما ينهاكن وفيما يأمركن ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ يعني: الإثم وأصله في اللغة كل خبيث من المأكول وغيره ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ يعني: يا أهل البيت وإنما كان نصباً للنداء ويقال إنما صار نصباً للمدح ويقال صار نصباً على جهة التفسير فكأنه يقول أعني أهل البيت وقال عنكم بلفظ التذكير ولم يقل عنكن لأن لفظ أهل البيت يصلح أن يذكر ويؤنث قوله ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ يعني: من الإثم والذنوب.

وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ يعني: احفظن ما يقرأ عليكن ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ يعني: أمره ونهيه في القرآن فوعظهن ليتفكرون ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً﴾لطيف علمه فيعلم حالهن إن خضعن بالقول ويقال لطيفاً أمر نبيه بأن يلطف بهن ﴿خَبِيراً﴾ يعني: عالماً بأعمالهن قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ وذلك أن أم سلمة رضي الله عنها سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما بال ربنا يذكر الرجال ولا يذكر النساء في شيء من كتابه فأخشى أن لا يكون فيهن خير ولا لله عز وجل فيهن حاجة[1] فنزل (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ) ويقال إن النساء اجتمعن وبعثن أنيسة رسولاً إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت إن الله تبارك وتعالى خالق الرجال والنساء وقد أرسلك إلى الرجال والنساء فما بال النساء ليس لهن ذكر في الكتاب فنزلت هذه الآية[2] وقال قتادة: لما ذكر الله عز وجل أزواج النبي يعني: دخل نِسَاءُ مسلماتٌ عليهن فقلن ذكرتن ولم نذكر ولو كان فينا خيراً ذكرنا[3] فنزلت هذه الآية (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ) يعني المسلمين من الرجال والمسلمات من النساء ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: المصدقين الموحدين من الرجال ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ يعني: المصدقات الموحدات من النساء ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ يعني: المطيعين وأصل القنوت القيام ثم يكون للمعاني ويكون للطاقة كقوله (وَالْقَانِتِينَ) ـ ويكون للإقرار بالعبودية كقوله (كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) ﴿وَالْقَانِتَاتِ﴾ أي: المطيعات من النساء ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ والصادقات يعني: الصادقين في إيمانهم من الرجال ﴿وَالصَّادِقَاتِ﴾ من النساء ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ على أمر الله تعالى من الرجال والنساء ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ يعني: المتواضعين من الرجال والنساء ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ

---

(١) انظر تفسير البغوي ٣/٥٢٩.

(٢) انظر المصدر السابق وأخرج الترمذي ٥/٣٣٠ من حديث أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرون بشيء؟ فنزلت هذه الآية: ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾ الآية.

وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب وإنما يعرف هذا الحديث من هذا الوجه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٠٠ وعزاه لابن جرير.

﴿وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ يعني: المنفقين أموالهم في طاعة الله من الرجال والنساء **﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾** قال مقاتل: من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر فهو من الصائمين والصائمات[١] ثم قال: **﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾** يعني: من الفواحش من الرجال والنساء **﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾** يعني: باللسان من الرجال والنساء فذكر أعمالهم ثم ذكر ثوابهم فقال **﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً﴾** في الدنيا لذنوبهم **﴿وَأَجْراً عَظِيماً﴾** في الآخرة وهو الجنة قوله عز وجل: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾** الآية وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لزينب بنت جحش الأسدية وهي بنت عمة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أميمة بنت عبد المطلب أني أريد أن أزوجك من زيد بن حارثة فقالت يا رسول الله لا أرضاه لنفسي وأنا أرفع قريش لأنني من قريش وابنة عمتك[٢] فنزل (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ) يعني: ما جاز لمؤمن يعني زيد بن حارثة ولا مؤمنة يعني زينب بنت جحش **﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً﴾** يعني: حكم حكماً في تزويجهما **﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾** يعني: اختيار من أمرهم بخلاف ما أمر الله ورسوله قرأ حمزة والكسائي وعاصم أن يكون بالياء بالتذكير وقرأ الباقون بالتاء[٣] بلفظ التأنيث فمن قرأ بالتاء فلأن لفظ الخيرة مؤنث ومن قرأ بالياء فإنه يتصرف إلى المعنى ومعناهما الاختيار لتقديم الفعل **﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً﴾** فلما سمعت زينب بنت جحش نزول هذه الآية قالت أطعتك يا رسول الله[٤].

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾

ثم قال عز وجل **﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾** يعني: زيد بن حارثة قد أنعم الله عز وجل عليه بالإسلام **﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾** بالعتق **﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾** قال قتادة: جاء زيد بن حارثة إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال إن زينب اشتد علي لسانها وإني أريد أن أطلقها فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «اتَّقِ اللَّهَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ» وكان يحب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يطلقها وخشي مقالة الناس أن أمره بطلاقها فنزلت هذه الآية وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم إلى زيد بن حارثة يطلبه في حاجة له فإذا زينب بنت جحش قائمة في درع وخمار فلما رآها أعجبته ووقعت في نفسه فقال سبحان الله مقلب القلوب ثبت قلبي فلما سمعت زينب جلست فرجع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما جاء زيد ذكرت

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٠٠ وعزاه لابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.
(٢) انظر تفسير البغوي ٣/ ٥٣٠. تفسير القرطبي ١٤/ ١٢٠.
(٣) انظر حجة القراءات ٥٧٨، إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٣٧٦.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٠٠ وعزاه لابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس بنحوه.

ذَلك له فعرف أنها أعجبته ووقعت في نفسه وأعجب بها رسول الله فأتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال يا رسول الله إن زينب امرأة فيها كبر تعصي أمري ولا تبر قسمي فلا حاجة لي فيها فقال له اتق الله يا زيد في أهلك وأمسك عليك زوجك وكان يحب أن يطلقها فطلقها زيد ونزلت هذه الآية (**أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ**) ﴿**وَتُخْفِي فِيْ نَفْسِكَ**﴾ يعني: تسر[1] في نفسك ليت أنه طلقها ﴿**مَا اللَّهُ مُبْدِيْهِ**﴾ يعني مظهره عليك حتى ينزل به قرآناً

(١) قال الحافظ في الفتح بعد ذكره قوله تعالى: ﴿**وتخفي في نفسك**﴾ الآية نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة هكذا اقتصر على هذا القدر من هذه القصة وأخرجه البخاري في التوحيد من وجه آخر عن حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال (جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: اتق الله وأمسك عليك زوجك قال أنس: لو كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كاتماً لكتم هذه) الآية قال (وكانت تفتخر على أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ) الحديث. أخرجه أحمد عن مؤمل بن إسماعيل عن حماد بن زيد بهذا الإسناد بلفظ (أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منزل زيد بن حارثة فجاءه زيد يشكوها إليه فقال له: أمسك عليك زوجك واتق الله) فنزلت إلى قوله ﴿**زوجناكها**﴾ قال: يعني زينب بنت جحش. وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي فساقها سياقاً واضحاً حسناً ولفظه (بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فزوجها إياه ثم أعلم الله عز وجل نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أنها من أزواجه فكان يستحي أن يأمر بطلاقها وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس فأمره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يمسك عليه زوجه وأن يتقي الله وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولون تزوج امرأة ابنه وكان قد تبنى زيداً وعنده من طريق علي بن زيد عن علي بن الحسين بن علي قال: أعلم الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها فلما أتاه زيد يشكوها إليه وقال له اتق الله وأمسك عليك زوجك قال الله: قد أخبرتك أني مزوجكما وتخفي في نفسك ما الله مبديه وقد أطنب الترمذي الحكيم في تحسين هذه الرواية وقال: إنها من جواهر العلم المكنون وكأنه لم يقف على تفسير السدي الذي أوردته وهو أوضح سياقاً وأصح إسناداً إليه لضعف علي بن زيد بن جدعان. وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: جاء زيد بن حارثة فقال يا رسول الله إن زينب اشتد علي لسانها وأنا أريد أن أطلقها فقال له: اتق الله وأمسك عليك زوجك قال والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب أن يطلقها ويخشى مقالة الناس. ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغي التشاغل بها والذي أوردته منها هو المعتمد. والحاصل أن الذي كان يخفيه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس تزوج امرأة ابنه وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمر لا أبلغ في الإبطال منه وهو تزوج امرأة الذي يدعى ابناً. ووقوع ذلك من أمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم وإنما وقع الخبط في تأويل متعلق الخشية والله أعلم.

وقد أخرج الترمذي من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن عائشة قالت (لو كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية ﴿**وإذ تقول للذي أنعم الله عليه ـ يعني بالإسلام ـ وأنعمت عليه** ـ بالعتق ـ **أمسك عليك زوجك**﴾. إلى قوله ﴿**قدراً مقدوراً**﴾ وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما تزوجها قالوا تزوج حليلة ابنه فأنزل الله تعالى: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم**﴾ الآية وكان تبناه وهو صغير. قلت: حتى صار رجلاً يقال له زيد بن محمد فأنزل الله تعالى: ﴿**ادعوهم لآبائهم** ـ إلى قوله ـ **ومواليكم**﴾ قال الترمذي: روي عن داود عن الشعبي عن مسروق عن عائشة إلى قوله (لكتم هذه الآية) ولم يذكر ما بعده. قلت: وهذا القدر أخرجه مسلم كما قال الترمذي وأظن الزائد بعده مدرجاً في الخبر فإن الراوي له عن داود لم يكن بالحافظ. وقال ابن العربي إنما قال عليه الصلاة والسلام لزيد (أمسك عليك زوجك) اختباراً لما عنده من الرغبة فيها أو عنها فلما أطلعه زيد على ما عنده منها من النفرة التي نشأت من تعاظمها عليه وبذاءة لسانها أذن له في طلاقها وليس في مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم ما يمنع من الأمر به والله أعلم. وروى أحمد ومسلم والنسائي من طريق سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لزيد اذكرها علي قال فانطلقت فقلت: يا زينب أبشري أرسل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يذكرك فقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن وجاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى دخل عليها بغير إذن) وهذا أيضاً من أبلغ ما وقع في ذلك وهو أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب=

﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ يعني: تستحي من الناس ويقال وتخشى مقالة الناس ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ في أمرها قال الحسن ما أنزل الله عز وجل على النبي - صلى الله عليه وسلم - آية أشد منها ولو كان كاتماً شيئاً من الوحي لكتمها ثم قال ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً﴾ يعني: حاجة ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ فلما انقضت عدتها تزوجها النبي - صلى الله عليه وسلم - قال الحسن: فكانت زينب تفتخر على أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - فتقول أما أنتن فزوجكن آباؤكن وأما أنا فزوجني رب العرش تعني قوله (زَوَّجْنَاكَهَا) ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ يعني: لكيلا يكون على الرجل حرج بأن يتزوج امرأة ابنه الذي يتبناه ﴿فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوا مِنْهُنَّ وَطَراً﴾ يعني: حاجة ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ تزوج النبي - صلى الله عليه وسلم - إياها كائن لا بد واللام للزيادة وكي مثله فلو كان أحدهما لكان يكفي ولكن يجوز أن يجمع بين حرفين زائدين إذا كانا جنسين وإنما لا يجوز إذا كانا من جنس واحد كما قال (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ولا يصلح أن يقال: مثل مثل أوكي كي فإذا كانا جنسين جاز فقالت اليهود والمنافقون يا محمد تنهى عن تزوج امرأة الإبن ثم تتزوجها فنزل قوله عز وجل ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ يقول ليس على النبي إثم ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ يعني: في الذي رخص الله عز وجل من تزوج زينب ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: هكذا سنة الله في الذين مضوا يعني: في كثرة تزوج النساء كما فعل الأنبياء عليهم السلام ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ يعني: قضاء كائناً قوله عز وجل ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ قال مقاتل: يعني: النبي - صلى الله عليه وسلم - وحده ويقال ينصرف إلى قوله (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ) ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ في كتمان ما أظهر الله عليهم ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً﴾ في البلاغ ﴿إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ يعني: شهيداً بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - بلغ الرسالة عن الله عز وجل ويقال شهيداً يعني: حفيظاً.

مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

قوله عز وجل ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ يعني بالتبني وليس بأب لزيد بن حارثة ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ يعني: ولكنه محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويقال لم يكن أب الرجال لأن بنيه ماتوا صغاراً ولو كان الرجال بنيه لكانوا أنبياء ولا نبي بعده فذلك قوله ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ قرأ بعضهم ولكن (رَسُولُ الله) بضم اللام[1] ومعناه ولكن هو رسول الله وكان خاتم النبيين وقرأ عاصم في إحدى الروايتين (وخاتَم) النبيين بنصب التاء وقرأ

= لئلا يظن أحد أن ذلك وقع قهراً بغير رضاه وفيه أيضاً اختبار ما كان عنده منها هل بقي منه شيء أم لا؟. انظر فتح الباري ٨/٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥.

(١) هي قراءة ابن أبي عبلة وبعض الناس انظر القرطبي ١٤/١٣٧.

الباقون بالكسر[1] فمن قرأ بالكسر يعني آخر النبيين ومن قرأ بالنصب فهو على معنى إضافة الفعل إليه يعني أنه ختمهم وهو خاتم قال أبو عبيد وبالكسر نقرأ لأنه رويت الآثار عنه أنه قال «أنا خاتم النبيين» فلم يسمع أحد من فقهائنا يروون إلا بكسر التاء ﴿**وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾ بمن يصلح للنبوة وبمن لا يصلح فإن قيل كيف يظن برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه يظهر من نفسه خلاف ما في قلبه قيل له يجوز مثل هذا لأن في قوله (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ) أمر بالمعروف وفيه رد النفس عما تهوى وهذا عمل الأنبياء والصالحين عليهم السلام وقال بعضهم للآية وجه آخر وهو أن الله تعالى قد أخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنها تكون زوجته فلما زوجها من زيد بن حارثة لم يكن بينهما ألفة وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينهاه عن الطلاق ويخفي في نفسه ما أخبره الله تعالى وقال بأنها تكون زوجته فلما طلقها زيد بن حارثة كان يمتنع من تزوجها خشية مقالة الناس يتزوج امرأة ابنه المتبنى به فأمره الله عز وجل بأن يتزوجها ليكون ذلك سبب الإباحة لنكاح امرأة الابن المتبنى لأمته ونزل (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ) الآية ثم قال تعالى: ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً**﴾ يعني: اذكروا الله باللسان وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال [إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد قيل يا رسول الله فما جلاؤها قال تلاوة كتاب الله عز وجل وكثرة ذكره] وذكر أن أعرابياً سأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال إن شرائع الإسلام قد كثرت فأنبئني منها بأمر أتشبث به فقال لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عز وجل ويقال ليس شيء من العبادات أفضل من ذكر الله تعالى لأنه قدر لكل عبادة مقداراً ولم يقدر للذكر وأمر بالكثرة فقال (اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً) يعني اذكروه في الأحوال كلها لأن الإنسان لا يخلو من أربعة أحوال إما أن يكون في الطاعة أو في المعصية أو في النعمة أو في الشدة فإذا كان في الطاعة ينبغي أن يذكر الله عز وجل بالإخلاص ويسأله القبول والتوفيق وإذا كان في المعصية ينبغي أن يذكر الله عز وجل بالامتناع عنها ويسأل منه التوبة منها والمغفرة وإذا كان في النعمة يذكره بالشكر وإذا كان في الشدة يذكره بالصبر ثم قال تعالى ﴿**وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ يعني: غدواً وعشياً يعني: صلوا لله بالغداة والعشي يعني الفجر والعصر ويقال بالغداة يعني صلوا أول النهار وهي صلاة الفجر وأصيلا يعني: صلوا آخر النهار وأول النهار وهي صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ثم قال عز وجل ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ**﴾ يقول: هو الذي يرحمكم ويغفر لكم ﴿**وَمَلاَئِكَتُهُ**﴾ أي يأمر الملائكة عليهم السلام بالاستغفار لكم ﴿**لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ يعني: أخرجكم من الكفر إلى الإيمان ووفقكم لذلك، اللفظ لفظ المستأنف والمراد به الماضي يعني أخرجكم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ونور قلوبكم بالمعرفة ويقال معناه ليثبتكم على الإيمان ويمنعكم عن الكفر ويقال ليخرجكم من الظلمات يعني: من المعاصي إلى نور التوبة والطهارة من الذنوب ويقال من ظلمات القبر إلى نور المحشر ويقال من ظلمات الصراط إلى نور الجنة ويقال من ظلمات الشبهات إلى نور البرهان والحجة ثم قال ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً**﴾ يعني: بالمصدقين الموحدين رحيماً يرحم عليهم ثم قال عز وجل ﴿**تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ**﴾ قال مقاتل: يعني يلقون الرب في الآخرة بسلام وقال الكلبي تجيبهم الملائكة عليهم السلام على أبواب الجنة بالسلام فإذا دخلوها حيا بعضهم بالسلام وتحية الرب إياهم حين يرسل إليهم بالسلام ويقال يعني يسلم بعضهم على بعض ويقال يسلمون على الله تعالى ﴿**وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً**﴾ يعني: جزاءً حسناً في الجنة ويقال مساكن في الجنة حسنة قوله عز وجل ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً**﴾ يعني: شهيداً على أمتك بالبلاغ ﴿**وَمُبَشِّراً**﴾ بالجنة لمن أطاع الله في الآخرة وفي الدنيا بالنصرة ﴿**وَنَذِيراً**﴾ من النار يعني: مخوفاً لمن عصى الله عز وجل:

---

(١) انظر حجة القراءات ٥٧٨، والنشر في القراءات العشر ٢/٣٤٨.

﴿وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ﴾ يعني: أرسلناك داعياً إلى توحيد الله ومعرفته ﴿بِإِذْنِهِ﴾ يعني: بأمره ﴿وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ يعني: أرسلناك بسراج منير لأنه يضيء الطريق فهذه كلها صارت نصباً لنزع الخافض ثم قال عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني بشر يا محمد المصدقين بالتوحيد ﴿بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ في الجنة وذلك أنه لما نزل قوله عز وجل (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)[1] فقال المؤمنون هذا لك فما لنا فنزل قوله تعالى (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً) في الجنة فلما سمع المنافقون ذلك قالوا فمالنا فنزل (وَبَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) ثم رجع إلى ما ذكر في أول السورة فقال تعالى ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ من أهل مكة ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ من أهل المدينة ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أي تجاوز عن المنافقين ولا تقتلهم ويقال ودع أذاهم يعني اصبر على أذاهم وإن خوفك شيء منهم فتوكل على الله يعني: فوض أمْرك إلى الله وروى الأعمش عن سفيان بن سلمة عن ابن مسعود وقال [قسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قسمة فقال رجل من الأنصار إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر بذلك فاحمر وجهه فقال رحم الله أخي موسى عليه السلام لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر][1] ثم قال ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ يعني: حافظاً نصيراً.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾

وقوله عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ قرأ حمزة والكسائي تماسوهن وقرأ الباقون تمسوهن مثل الاختلاف الذي ذكرنا في سورة البقرة ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ يعني: ليس للأزواج عليهن عدة ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ وإنما خص المؤمنات لأن نكاح المؤمنات كان مباحاً في ذلك الوقت فلما أحل الله تعالى نكاح الكتابيات صار حكم الكتابية وحكم المؤمنة في هذا سواء إذا طلقها قبل أن يخلو بها لا عدة عليها بالإجماع وإن طلقها بعد ما خلا بها ولم يدخل بها فقد روي عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما أنهما قالا لا عدة عليها[2] وقال عمر وعلي ومعاذ وزيد بن ثابت وجماعة منهم رضي الله عنهم أن عليها العدة وهو أحوط الوجهين أنه إذا خلا بها ولم تكن المرأة حائضاً ولم يكن أحدهما مريضاً ولا محرماً ولا صائماً صوم فرض يجب على الزوج المهر كاملاً وعليها العدة احتياطاً وأما إذا كانت المرأة حائضاً أو مريضة أو محرمة أو صائمة عن فرض أو الرجل مريض أو صائم عن فرض أو محرم فطلقها بعد الخلوة قبل الدخول فعليه نصف المهر وعليها العدة احتياطاً ثم قال ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ يعني: متعة الطلاق ثلاثة أثواب وهي مستحبة غير واجبة ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾

---

(١) أخرجه البخاري ١٠/٤٩٠ كتاب الأدب باب من أخبر صاحبه بما يقال فيه (٦٠٥٩).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٠٧ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

يعني: خلوا سبيلهن تخلية حسنة وهو أن يعطيها حقها قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ يعني: نساءك ﴿اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ يعني: أعطيت مهورهن لأن غيره كان له أكثر من أربع نسوة أمره أن يترك ما زاد على الأربع وقد أحل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إمساك التسع ولم يأمره بالفرقة ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ يعني: أحللنا لك من الإماء مثل مارية القبطية ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من الغنيمة يعني: أعطاك الله كقوله تعالى (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ) ثم قال ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ يعني: أحللنا لك نكاح بنات عمك ﴿وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ يعني: هاجرن معه من مكة إلى المدينة أو قبله أو بعده ثم قال ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً﴾ يعني: أحللنا لك امرأة مؤمنة ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ صلى الله عليه وسلم ـ وقرأ الحسن إن وهبت بنصب الألف ومعناه إذا وهبت ويكون ذلك الفعل خاصة لامرأة واحدة وقراءة العامة إن بالكسر فيكون معناه لكل امرأة إن فعلت ذلك في المستقبل قال مقاتل: وذلك أن أم شريك وهبت نفسها للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بغير مهر كذا قال الكلبي وروي معمر عن الزهري في قوله (إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ قال بلغنا أن ميمونة وهبت نفسها للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووهبت سودة يومها لعائشة رضي الله عنها وروى وكيع عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب القرظي وعمرو بن الحكم وعبد الله بن عبيدة قال تزوج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاث عشر امرأة ستة من قريش ـ خديجة بنت خويلد وعائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر وأم حبيبة بنت أبي سفيان وسودة بنت زمعة وأم سلمة بنت أبي أمية وثلاثاً من بني عامر وامرأتين من بني هلال ميمونة بنت الحارث وهي التي وهبت نفسها للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزينب أم المساكين وامرأة من بني بكر وهي التي اختارت الدنيا وامرأة من بني الحزن من كندة وهي التي استعاذت[١] منه وقال يحيى بن أبي كثير تزوج أربعة عشر خديجة وسودة وعائشة تزوج هؤلاء الثلاث بمكة وتزوج بالمدينة زينب بنت خزيمة وأم سلمة وجويرية من بني المصطلق وميمونة بنت الحارث وصفية بنت حيي بن أخطب وزينب بنت جحش وكانت امرأة زيد بن حارثة وعالية بنت ظبيان وحفصة وأم حبيبة والكندية وامرأة من كلب وروى الزهري عن عروة قال لما دخلت الكندية على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت أعوذ بالله منك فقال لقد عذت بعظيم الحقي بأهلك[٢] ثم قال عز وجل ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ يعني أن يتزوجها بغير صداق ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: خالصاً للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بغير مهر ولا يحل لغيره وقال الزهري الهبة كانت للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة ولا تحل لأحد أن تهب له امرأة نفسها بغير صداق وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال: لم تحل الموهوبة لأحد بعد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٣] واختلف الناس في جواز النكاح قال أهل المدينة باطل وقال أهل العراق النكاح جائز ولها مهر مثلها وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه أجاز ذلك وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أن خولة بنت حكيم وهبت نفسها للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت من المهاجرات الأول وقال القتبي العرب تخبر عن غائب ثم ترجع إلى الشاهد فتخاطبه كما قال هاهنا (إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ) بلفظ الغائب ثم قال: (خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) ثم قال ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: ما أوجبنا عليهم ﴿فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ يعني: في أن لا يتزوجوا إلا بالمهر ويقال إلا أربعاً ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ ويقال يعني: إلا ما لا وقت فيهن ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ في الهبة بغير مهر وفي الآية ومعناه أنا أحللنا لك امرأة مؤمنة

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٠٨ وعزاه لابن أبي شيبة وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه البخاري ٢٦٨/٩ كتاب الطلاق (٥٢٥٤)، وأخرجه النسائي ١٥٠/٦، والبيهقي في السنن ٣٩/٧، والحاكم في المستدرك ٣٥/٤.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٠٩ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي.

وهبت نفسها للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكي لا يكون عليك حرج ثم قال ﴿**وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً**﴾ يعني: غفوراً فيما تزوج قبل النهي ﴿**رحيماً**﴾ في تحليل ذلك.

تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

قوله عز وجل ﴿**تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ**﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ترجيء بالهمزة وقرأ الباقون بغير الهمز كلاهما في اللغة واحد[١] وأصله من التأخير يقول تؤخر من تشاء منهن ولا تتزوجها ﴿**وَتُؤْوِي إليكَ مَنْ تَشاء**﴾[٢] يعني: تضم فتتزوجها لخيره في تزويج القرابة ويقال: تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء وقال قتادة جعله في حل أن يدع من يشاء منهن ويضم إليه من يشاء يعني إن شاء جعل لهن قسماً وإن شاء لم يجعل وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقسم وقال الحسن كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا خطب امرأة فليس لأحد أن يخطبها حتى يتزوجها[٣] أو يدعها[٤] وفي ذلك نزل (ترجي من تشاء منهن) ثم قال ﴿**ومن ابتغيت مِمَّنْ عزَلْتَ**﴾ يعني أشرت ممن تركت ﴿**فَلا جُناحَ عَلَيْكَ**﴾ يعني: لا إثم عليك ﴿**ذَلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ**﴾ (أي ذلك أجدى وأجدر إذا علمن أنك تفعل بأمر الله أن تطمئن)[٥] قلوبهن ﴿**ولا يَحْزَنَّ**﴾ مخافة الطلاق ﴿**ويَرْضَيْنَ بما**

---

(١) انظر حجة القراءات ٥٧٩، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٩.

(٢) قرأ نافع في رواية ورش: (تووي) بترك الهمزة. وقرأ الباقون بالهمز. فإن سأل سائل فقال: أبو عمرو ترك الهمزة الساكنة نحو (يؤمنون) فهلا ترك الهمزة في (تووى)فقل: إن أبا عمرو ترك الهمزة في (يومنون) تخفيفاً فإذا كان ترك الهمزة أثقل من الهمزة لم يدع الهمزة ألا ترى أنك لو لينت (تووي) لالتقى واوان قبلهما ضمة فثقلت. انظر حجة القراءات ٥٧٩.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢١٠ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٤) انظر تفسير البغوي ٣/٥٣٨.

(٥) سقط في ظ.

﴿آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ من النفقة إذا علمن أنه من الله عز وجل وقرىء في الشاذ كلهن بالنصب صار نصباً لوقوع الفعل عليه وهو الإعطاء وتقرأه العامة أتيتهن كلهن بالضم ومعناه يرضين كلهن بما أعطيتهن ثم قال **﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾** من الحب والبغض **﴿وكانَ اللهُ عليماً﴾** بما في قلوبكم **﴿رحيماً﴾** بالتجاوز قوله عز وجل **﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾** قال مجاهد: أي لا تحل لك اليهوديات ولا النصرانيات من بعد يعني: من بعد المسلمات ولا أن تبدل بهن من أزواج يقول: لا تبديل اليهوديات ولا النصرانيات[1] على المؤمنات يقول لا تكون أم المؤمنين يهودية ولا نصرانية إلا ما ملكت يمينك من اليهوديات والنصرانيات يتسرى بهن[2] قال الحسن وابن سرين خير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نساءه بين الدنيا والآخرة فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة فشكر الله لهن على ذلك فحبسه عليهن فقال **لا يحل لك النساء من بعد**[3] **﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾** يعني: **لا يحل لك أن تطلق واحدة منهن وتتزوج غيرها** قرأ أبو عمرو (لا تحل) بالتاء بلفظ التأنيث[4] وقرأ الباقون بالياء بمعنى: لا يحل لك من النساء شيء ويقال: معناه لا تحل لجميع النساء فمن قرأ بالتاء بالتأنيث يعني: جماعة النساء ثم قال **﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ يعني** أسماء بنت عميس أراد أن يتزوجها فنهاه الله تعالى عز وجل عن ذلك فتركها وتزوجها أبو بكر رضي الله عنه بإذن رسول الله ـ **صلى الله عليه وسلم**[5] ـ **﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾من** السريات **﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾** من أمر التزويج رقيباً يعني: حفيظاً وروى عمرو بن دينار عن عطاء عن عائشة رضي الله عنها قالت ما مات رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى حل له النساء بعد قوله: (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ)[6] قوله عز وجل **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾** وذلك أن ناساً من المسلمين كانوا يتحينون غداء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويدخلون عليه بغير إذن ويجلسون وينتظرون الغذاء وإذا أكلوا جلسوا طويلاً ويتحدثون طويلاً فأمرهم الله عز وجل بحفظ الأدب فقال (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) **﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾** يعني: إلا أن يدعوكم ويأذن لكم في الدخول **﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾** يعني من غير أن تنتظروا وقته ويقال أصله إدراك الطعام يعني: غير ناظرين إدراكه ويقال إناه يعني: نضج الطعام ثم قال **﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾** يعني إذا دعاكم إلى الطعام فادخلوا بيته **﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾** الطعام **﴿فَانْتَشِرُوا﴾** يعني تفرقوا **﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾** أي لا تدخلوا مستأنسين للحديث **﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحِي مِنْكُمْ﴾** أن يقول لكم تفرقوا **﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِيِي مِنَ الْحَقِّ﴾** يعني: من بيان الحق أن يأمركم بالخروج بعد الطعام قال الفقيه أبو الليث في الآية: حفظ الأدب والتعليم أن الرجل إذا كان ضيفاً لا ينبغي أن يجعل نفسه ثقيلاً ولكنه إذا أكل ينبغي أن يخرج ثم قال **﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً﴾** يعني إذا سألتم من نسائه متاعاً **﴿فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾** ولا تدخلوا عليهن واسألوا من خلف الستر ويقال خارج الباب **﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾** من الريبة ثم قال **﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾** قال وذلك أن طلحة بن عبيد الله قال لئن مات محمد لأتزوجن بعائشة فنزل (وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ) **﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾** يعني: ولا أن تتزوجوا أزواجه

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢١٢/٥ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢١٢/٥ وعزاه لابن سعد عن عكرمة.

(٤) انظر حجة القراءات ٥٧٩، النشر في القراءات العشر ٣٤٩/٢.

(٥) انظر تفسير البغوي ٥٣٩/٣.

(٦) أخرجه الترمذي ٣٣٢/٥ كتاب تفسير القرآن (٣٢١٦). وأخرجه النسائي كتاب النكاح (٣٢٠٥)، وأحمد في المسند ١٨٠/٦ ـ ٢٠١، والطبري في تفسيره ٢٤/٢٢ وابن سعد في الطبقات ١٤١/٨، والدارمي ٥٤/٢، والحاكم في المستدرك ٤٣٧/٣.

مـن بعد وفاته أبداً ﴿**إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً**﴾ في العقوبة ويقال: إنما نهى عن ذلك لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وروي عن حذيفة أنه قال لامرأته إن أردت أن تكوني زوجتي في الجنة فلا تتزوجي بعدي فإن المرأة لآخر أزواجها ولذلك حرم الله تعالى على أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتزوجن بعده وروي أن أم الدرداء قالت لأبي الدرداء عند موته إنك خطبتني إلى أبوي في الدنيا فأنكحاك وإني أخطبك إلى نفسي في الآخرة فقال لها فلا تنكحي بعدي فخطبها معاوية بن أبي سفيان فأخبرته بالذي كان وأبت أن تتزوجه وروي في خبر آخر بخلاف هذا أن أم حبيبة قالت يا رسول الله إن المرأة منا كان لها زوجان لأيهما تكون في الآخرة؟ فقال إنها تخير فتختار أحسنهما خلقاً معها ثم قال يا أم حبيبة إن حسن الخلق ذهب بالدنيا والآخرة[1] ثم قال عز وجل ﴿**إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ**﴾ يعني: إن تظهروا من أمر التزويج شيئاً أو تسروه وتضمروه ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾ من السر والعلانية يعلم ما أعلنتم وما أخفيتم يجازيكم به ثم خص الدخول على نساء ذوات محرم بغير حجاب فرخص في ذلك وهو قوله عز وجل ﴿**لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيْ آبَائِهِنَّ**﴾ يعني: من الدخول عليهن ﴿**وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلاَ نِسَائِهِنَّ**﴾ يعني: نساء أهل دينهن ﴿**وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ**﴾ من الخدم ﴿**وَاتَّقِينَ اللَّهَ**﴾ يعني: اخشين الله وأطعن الله فلا يراهن غير هؤلاء ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً**﴾ يعني: عالماً بأعمالهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾

قوله عز وجل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلى النَّبِيِّ**﴾ والصلاة من الله الرحمة والمغفرة ومن الملائكة ـ عليهم السلام ـ الاستغفار يعني أن الله عز وجل يغفر للنبي ويأمر ملائكته بالاستغفار والصلاة عليه ثم أمر المسلمين بالصلاة عليه فقال: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ**﴾ روي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة أنه قال قلنا يا رسول الله كيف نصلي عليك فقال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد[2] إلى[3] آخره وروى أبو هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: صلوا علي فإن الصلاة علي زكاة لكم واسألوا الله لي الوسيلة قالوا وما الوسيلة يا رسول الله قال أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو[4] وروى أنس بن مالك عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال من صلى عليَّ واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه عشر[5] خطيآت ويقال ليس شيء من العبادات أفضل من الصلاة على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن سائر

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٥٠ وعزاه لابن جرير والطبراني وابن مردويه. انظر تفسير ابن كثير ٨/ ١٠.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢١٥ لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) أخرجه البخاري ٦/ ٤٠٨ كتاب الأنبياء (٣٣٧٠)، ومسلم ١/ ٣٠٥ كتاب الصلاة (٦٦ ـ ٤٠٦).

(٤) أخرجه مسلم ١/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩ كتاب الصلاة (١١ ـ ٣٨٤).

(٥) أخرجه النسائي ٣/ ٥٠ كتاب السهو، وأحمد في المسند ٣/ ١٠٢، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٩) وابن أبي حاتم في علل =

العبادات أمر الله تعالى بها عباده وأما الصلاة على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد صلى عليه أولاً هو بنفسه وأمر الملائكة بذلك ثم أمر العباد بذلك ثم قال ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ يعني: اخضعوا له خضوعاً ويقال: ائتمروا بما يأمركم الله تعالى ويقال: لما نزلت هذه الآية قال المسلمون هذا لك فما لنا فنزل (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ) ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: اليهود والنصارى حيث قالوا (يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ) ونحو ذلك من الكلمات ويقال أذاهم الله وهو قولهم لله ولد ونحو ذلك وإيذاءهم رسوله أنهم زعموا أنه ساحر ومجنون ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني: عذبهم الله في الدنيا بالقتل والسبي ﴿وَالْآخِرَةِ﴾بالنار ويقال: هم الذين يجعلون التصاوير ويقولون تخلق كما يخلق الله تعالى ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً﴾ يهانون فيه ثم قال عز وجل ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ يعني: بغير جرم ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً﴾ يعني: قالوا كذباً ﴿وَإِثْماً مُبِيناً﴾ يعني ذنباً بيناً قال مقاتل: قال السدي: نزلت هذه الآية في أمر عائشة وصفوان ويقال في جميع من يؤذي مسلماً بغير حق وقال عثمان لأبي بن كعب: إني قرأت هذه الآية (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنَاتِ) فوقعت مني كل موقع والله إني لأضربهم وأعاقبهم فقال له أبي إنك لست منهم إنك مؤدب معلم قوله عز وجل ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ وذلك أن المهاجرين نزلوا في ديار الأنصار فضاقت الدور عليهم وكن النساء يخرجن بالليل إلى التخلي يقضين حوائجهن كان الزناة يرصدون في الطريق وكانوا يطلبون الولائد ولم يعرفوا المرأة الحرة من الأمة بالليل فأمر الحرائر بأخذ الجلباب وقال الحسن كن النساء والإماء بالمدينة يقال لهن كذا وكذا يخرجن فيتعرض لهن السفهاء فيؤذونهن فكانت الحرة تخرج فيحسبون أنها أمة ويؤذونها فأمر الله تعالى المؤمنات أن يدنين عليهن من جلابيبهن وقال القتبي يلبسن الأردية ويقال يعني: يرخين الجلاليب على وجوههن وقال مجاهد يدنين عليهن من جلابيبهن يعني متجلببين ليعلم أنهن حرائر فلا يتعرض لهن فاسق بأذى من قول ولا ريبة قوله: ﴿وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ يعني: أحرى ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ إذا تابوا ورجعوا ثم وعد المنافقين وخوفهم لينزجروا عن الحرائر أو الإماء.

لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

فقال عز وجل ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ عن نفاقهم ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني: الميل إلى الزنا إن

= الحديث ٢/١٦٩ وصححه ابن حبان وأورده الهيثمي في موارد الظمآن ٥٩٥، وأخرجه الحاكم في المستدرك ١/٥٥٠ كتاب الدعوات. وانظر القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع ١١٠ ـ ١١١.

لم يتوبوا عن ذلك ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يعني: الذين يخبرون بالأراجيف وكانوا يخبرون المؤمنين بما يكرهون من عدوهم والأراجيف هي أول الاختيار وأصل الرجف هو الحركة فإذا وقع خبر الكذب فإنه يقع الحركة بالناس فسمي إرجافاً ويقال: الأراجيف تلقح الفتنة يعني: إن لم ينتهوا عن النفاق وعن الفجور وعن القول بالأراجيف ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ يعني: لنسلطنك عليهم ويقال لنحملنك على قتلهم وروى سفيان عن منصور بن زرين قال: (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ) هذا كله شيء واحد يعني: أنه نعتهم بأعمالهم الخبيثة ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً﴾ يعني: لا يساكنوك في المدينة إلا قليلاً حتى أهلكهم ويقال إلا جواراً قليلاً ويقال إلا قليلاً منهم وقال قتادة: إن أناساً من المنافقين أرادوا أن يُظْهِرُوا نفاقهم فنزلت هذه الآية ثم قال عز وجل ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ يعني: يجعلهم ملعونين أينما وجدوا فأوجب الله تعالى لهم اللعنة على كل حال أينما وجدوا وأدركوا ﴿أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ فلما سمعوا بالقتل انتهوا عن ذلك قوله عز وجل ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: سنة الله في الزناة القتل ويقال: هذا سنة الله في الذين مضوا من قبل يعني الذين أضمروا النفاق بأن يسلط الله عليهم الأنبياء بالقتل سنة الله ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ يعني: مبدلاً ومغيراً قوله عز وجل ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ يعني عن قيام الساعة وذلك أن رجلاً جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسأله متى الساعة فقال ـ عليه السلام ـ ما المسؤول عنها بأعلم من السائل فنزل ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني: علم قيام الساعة عند الله ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ يعني سريعاً وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: من أشراط الساعة أن يفتح القول ويحزن الفعل وأن ترفع الأشرار وتوضع الأخيار ومعنى يفتح الأقوال أن يقول: أفعل غداً فإذا جاء غداً خالف قوله وقت الفعل وأصل الفتح الابتداء وهو أن يعد لأخيه عدة حسنة ثم يخالفه وقال عطاء بن أبي رباح: من اقتراب الساعة مطر ولا نبات وعلو أصوات الفساق في المساجد وظهور أولاد الزنا وموت الفجأة وانبعاث الدويبضة يعني السفلة من الناس وقوله لعل الساعة تكون (قَرِيباً) ولم يقل قريبة لأنها جعلت ظرفاً وبدلاً ولم تجعل نعتاً وصفة ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ يعني: خذلهم وطردهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً﴾ يعني: جهنم ويقال لعن الكافرين في الدنيا بالقتل وفي الآخرة أعد لهم سعيراً ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يعني: قريباً ينفعهم ﴿وَلَا نَصِيراً﴾ أي: مانعاً يمنعهم من العذاب والسعير في اللغة هو النار الموقدة ثم قال عز وجل ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ يعني: تحول يقول هذا العذاب في يوم تقلب وجوههم في النار يعني: تحول عن الحسن إلى القبح من حال البياض إلى حال السواد وزرقة الأعين ويقال تقلب يعني: تجدد كقوله (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا) فيندمون على فعلهم ويوبخون أنفسهم ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ﴾ فيما أمرنا ونهانا في دار الدنيا ﴿وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ﴾ فيما دعانا إلى الحق ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَاتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ يعني: قادتنا وأشرافنا وعظماءنا ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ﴾ يعني: صرفونا عن طريق الإسلام ويقال أضللت الطريق وأضللته عن الطريق بمعنى واحد قرأ ابن عامر ساداتنا وقرأ الباقون سادتنا[١] جمع سيد وساداتنا جمع الجمع ثم قال عز وجل ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يعني: زدهم واحمل عليهم يعني عذبهم وارفع عنا بعض العذاب واحمل عليهم فإنهم هم الذين أضلونا ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ قرى عاصم وابن عامر في إحدى الروايتين كبيراً بالباء من الكبر والعظم يعني عذبهم عذاباً عظيماً وقرأ الباقون كثيراً[٢] من الكثرة يعني عذبهم عذاباً كثيراً دائماً.

---

(١) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٩. حجة القراءات ٥٨٠.

(٢) المصدران السابقان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ٧٣﴾

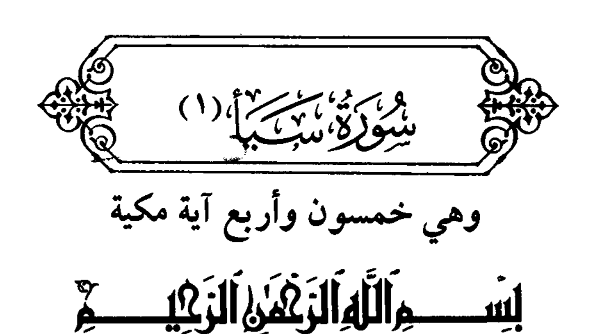
قوله عز وجل: **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى﴾** عليه السلام يعني: لا تؤذوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما آذى بنو إسرائيل موسى ـ عليه السلام ـ قال الفقيه أبو الليث رحمه الله أخبرني الثقة بإسناده عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال كانت بنـو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوأة بعض وكان موسى ـ عليه السلام ـ يغتسل وحده فقال بعضهم والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر فذهب موسى مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه فخرج موسى بأثره يقول حجر ثوبي حجر ثوبي حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوأة موسى فقالوا والله ما بموسى من بأس فقام الحجر وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضرباً فقال أبـو هريرة ستة أو سبعاً والله أن بالحجر لندباً سبعة بضرب[1] موسى[2] وذلك قوله **﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾** ويقال: إن موسى وهارون وابني هارون خرجوا فتوفي هارون في تلك الخرجة فلما رجع موسى إلى قومه قالت السفهاء من بني إسرائيل لموسى أنت قتلت هارون فخرج موسى مع جماعة من بني إسرائيل فأحيا الله تعالى هارون ـ عليه السلام ـ فأخبر أنه لم يقتله أحد وأنه مات بأجله فذلك قوله تعالى: (فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا) **﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾** يعني: مكيناً وكان له جاه عنده منزلة وكرامة ثم قال عز وجل **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾** يعني: أطيعوا الله واخشوا الله **﴿وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾** يعني: عدلاً صواباً فيما بينكم وهو قـولهم ابن فلان فـأمرهم أن ينسبوهم إلى آبائهم ويقال قولوا (قَوْلاً سَدِيداً) يعني: لا إله إلا الله ويقال: قولاً مخلصاً **﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾** يعني: يقبل أعمالكم **﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾** في السر والعلانية **﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾** يعني: نجى بالخير وأصاب نصيباً وافراً قوله عز وجل **﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾** قال مجاهد لما خلق الله عز وجل آدم ـ عليه السلام ـ عرض عليه الأمانة فحملها فما كان بين أن حملها وبين أن أخرج من الجنة إلا كما بين الظهر والعصر وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال إنا عرضنا الأمانة يعني الفرائض على السموات والأرض والجبال فقال لهن يأخذن بما فيها فقلنا وما فيها يا رب قال: إن أحسنتن جوزيتن وإن أسأتن عوقبتن فقلن يا رب إن تعرضها علينا فلا نريد وإن أمرتنا بها فنحن نجتهد وعرضت على الإنسان يعني آدم ـ عليه

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٢٣ وعزاه لعبد الرزاق وأحمد وعبد بـن حميد والبخاري والترمذي وابن جرير وابن المنذر. وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء (٣٤٠٤)، والترمذي (٣٢٢١) قوله «آدر» الأدرة انتفاخ الخصية أو الخصيتين بسبب فتق أو غيره أو تخلق هكذا.

السلام - فقبلها وحملها وقال بعضهم هذا على وجه المثل إن لم تظهر الخيانة في الأمانة إلا من الإنسان فلم تظهر من السموات والأرض والجبال كما قال (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا ٱلْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ) فكأنه يقول لو عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال لأبين حملها ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلإِنْسَانُ﴾ يعني: آدم وذريته ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ بالقبول وروي عن الحسن أنه قال: عرض على السموات عرض تخيير لا عرض إيجاب فلذلك لم تعص بترك قبولها ويقال: عرضنا الأمانة على السموات يعني على ملائكة السموات الأرض والجبال كما قال (وَاسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ) يعني: أهل القرية وقال السدي: لما أراد أن يحج عرض الأمانة يعني أمر ولده شِيْت وقابيل وهابيل فعرض على قابيل الكخداذبية والائتمار والقيام في شغل الدنيا والعيش حتى يرجع هو من الحج إلى وطنه فقبله ثم خانه فقتل أخاه وإنما كان عرض آدم بأمر الله تعالى فلذلك قال عرضنا وقال بعضهم إن الله عز وجل لما استخلف آدم على ذريته وسلطه على جميع ما في الأرض من الأنعام والوحوش والطير عهد إليه عهداً أمره فيه ونهاه فقبله ولم يزل عاملاً به إلى أن حضرته الوفاة فسأل ربه أن يعلمه من يستخلف بعده ويقلده الأمانة أن يعرض على السموات والأرض بالشرط الذي أخذ عليه من الثواب إن أطاع ومن العقاب إن عصى فأبين أن يقبلنها شفقاً من عذاب الله فأمره أن يعرض على الأرض والجبال فكلاهما أبيا ثم أمره أن يعرض على ولده فقبل بالشرط إنه كان ظلوماً جهولاً لعاقبة ما تقلده يعني المتقبل الذي تقبله منه وروى عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم قال الأمانة ثلاث في الصلاة والصيام والجنابة ثم قال عز وجل ﴿لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ﴾ يعني: عرضنا الأمانة على الإنسان لكي يعذب الله المنافقين والمنافقات ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ﴾ بما خانوا الأمانة ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ﴾ بما أوفوا الأمانة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ وكان صلة في الكلام يعني والله غفور لذنوب المؤمنين رحيم بهم وروى سفيان عن عاصم عن زر بن حبيش قال: قال أبي بن كعب: كانت سورة الأحزاب لتقارب سورة البقرة أو أطول منها وكان فيها آية الرجم قلت يا أبا المنذر وما آية الرجم فقال إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالاً من الله العزيز الحكيم والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وآله وسلم



سورة سبأ(١)

وهي خمسون وأربع آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الخلق ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ يعني: يحمده أهل الجنة ويقال: يحمدونه في ستة مواضع أحدها حين نودي (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) فإذا تميز المؤمنون من الكافرين يقولون (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) كما قال نوح - عليه السلام - حين أنجاه الله عز وجل من قومه، والثاني حين جازوا الصراط قالوا (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحُزْنَ) والثالث: لما دنوا إلى باب الجنة واغتسلوا بماء الحيوان، ونظروا إلى الجنة وقالوا (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا) والرابع: لما دخلوا الجنة استقبلتهم الملائكة - عليهم السلام - بالتحية فقالوا (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ) الآية، والخامس: حين استقروا في منازلهم وقالوا (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ) والسادس: كلما فرغوا من الطعام قالوا (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وقال بعضهم إنما الذي استوجب الحمد في الآخرة كما استوجب الحمد في الدنيا ثم قال ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ حين حكم بالبعث ﴿الْخَبِيرُ﴾ يعني: العليم بهم ثم قال عز وجل ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: ما يدخل في الأرض من المطر والأموات والكنوز ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات والكنوز والأموات ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من مطر أو وحي أو رزق أو مصيبة ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يعني يصعد إلى السماء من الملائكة، وأعمال بني آدم ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بخلقه ﴿الْغَفُورُ﴾ بستر الذنوب وتأخير العذاب عنهم.

---

(١) من أغراض هذه السورة إبطال قواعد الشرك وأعظمها إشراكهم آلهة مع الله وإنكار البعث فابتدىء بدليل على انفراده تعالى بالإلهية ونفي الإلهية عن أصنامهم ونفي أن تكون الأصنام شفعاء لعبادها. ثم موضوع البعث وعن مقاتل: أن سبب نزولها أن أبا سفيان لما سمع قوله تعالى (ليعذب الله المنافقين والمنافقات) (الآية الأخيرة من سورة الأحزاب) قال لأصحابه: كأن محمد يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبداً فأنزل الله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ الآية. وعليه فما قبل الآية المذكورة من قوله ﴿الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ إلى قوله ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ تمهيداً للمقصود من قوله ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾. وإثبات وإحاطة علم الله بما في السماوات وما في الأرض فما يخبر به فهو واقع ومن ذلك إثبات البعث والجزاء. وإثبات صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما أخبر به وصدق ما جاء به القرآن وأن القرآن شهدت به علماء أهل الكتاب. وتخلل ذلك بضروب من تهديد المشركين وموعظتهم بما حل ببعض الأمم المشركين من قبل. وعرض بأن جعلهم لله شركاء كفران لنعمة الخالق فضرب لهم المثل بمن شكروا نعمة الله واتقوه فأوتوا خير الدنيا والآخرة وسخرت لهم الخيرات مثل داود وسليمان، وبمن كفروا بالله فسلطت عليه الأرزاء في الدنيا وأعد لهم العذاب في الآخرة مثل سبأ وحذروا من الشيطان وذكروا بأن ما هم فيه من قرة العين يقربهم إلى الله، وأنذروا بما سيلقون يوم الجزاء من خزي وتكذيب وندامة وعدم النصير وخلود في العذاب وبُشر المؤمنون بالنعيم المقيم. انظر التحرير ٢٢/١٣٤ - ١٣٥.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي﴾ قسم أقسم به يعني: بلى والله، قوله ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ قرأ ابن عامر ونافع عالم بالضم جعله رفعاً بالابتداء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم عالم الغيب بكسر الميم[١] وهو صفة لله تعالى وهو قوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ) ويقال رده إلى حرف القسم وهو قوله تعالى (قُلْ بَلى وَرَبِّي عَالِمِ) وقرأ حمزة والكسائي علام الغيب[٢]، وهو على المبالغة في وصف الله عز وجل بالعلم ويقال من قرأ عالم الغيب بالضم فهو على المدح، ومعناه هو عالم الغيب، ويقال: هو على الابتداء وخبره ﴿وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ قرأ الكسائي لا يعزِب بكسر الواى وقرأ الباقون بالضم[٣] ومعناهما واحد أي لا يغيب عنه ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ يعني: وزن ذرة صغيرة والذرة النملة الصغيرة الحمراء، ويقال: التي ترى في شعاع الشمس ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يعني: قد بين الله عز وجل في اللوح المحفوظ ﴿لِيَجْزِيَ﴾ يعني: لكي يثيب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بأعمالهم في الدنيا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي ثواب حسن في الجنة قوله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ سَعَواْ فِي آيَاتِنَا﴾ يعني: عملوا في القرآن ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ يعني: متسابقين ليسبق كل واحد منهم بالتكذيب قرأ أبو عمرو وابن كثير معجزين[٤] أي مثبطين يثبطون الناس عن الإيمان بالقرآن ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص أليم بضم الميم وكذلك في الجاثية جعلاه من نعت العذاب يعني: عذاب أليم من رجز على معنى التقديم يعني: عذاب شديد وقرأ الباقون بالكسر فيكون صفة للرجز يعني: عذاب من العذاب الأليم.

وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

ثم قال عز وجل ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يعني: أي يعلم الذين أوتوا العلم وهذا روي في قراءة ابن مسعود يعني به مؤمني أهل الكتاب يعني: إنهم يعلمون أن ﴿الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: القرآن ﴿هُوَ

(١) انظر حجة القراءات ٥٨١، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٩.
(٢) المصدران السابقان.
(٣) انظر حجة القراءات ٥٨٢.
(٤) المصدر السابق.

﴿الْحَقَّ وَيَهْدِي﴾ يعني: يدعو ويدل **﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾** يعني: إلى طريق الرب العزيز بالنقمة لمن لم يجب الرسل الحميد في فعاله قوله عز وجل **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** يعني: كفار أهل مكة **﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾** يعني: قال بعضهم لبعض هل ندلكم على رجل **﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾** يعني: يخبركم **﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾** يعني: يخبركم أنكم إذا متم وتفرقتم في الأرض وأكلتكم الأرض كل ممزق يعني: وكنتم تراباً **﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾** يعني: بعد هذا كله صرتم خلقاً جديداً قوله عز وجل **﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾** يعني: قالوا أن الذي يقول أنكم لفي خلق جديد اختلق على الله كذباً **﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾** يعني: به جنون يقول الله **﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾** هم كذب حين كذبوا بالبعث **﴿فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾** يعني: هم في العذاب في الآخرة والخطأ الطويل في الدنيا عن الحق ثم خوفهم ليعتبروا فقال عز وجل **﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾** لأن الإنسان حيثما نظر رأى السماء والأرض قال قتادة إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك أو بين يديك أو من خلفك رأيت السماء والأرض[١] **﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾** يعني: تغور بهم وتبتلعهم الأرض **﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ﴾** يعني: جانباً من السماء قرأ حمزة والكسائي إن نشأ نخسف أو يسقط، الثلاثة كلها بالياء وقرأ الباقون كلها بالنون[٢] فمن قرأ بالياء فمعناه إن يشأ الله ومن قرأ بالنون فهو على معنى الإضافة إلى نفسه ثم قال عز وجل **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾** يعني: لعبرة **﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾** يعني: مقبل إلى طاعة الله عز وجل ويقال مخلص القلب بالتوحيد ويقال مشتاق إلى ربه ويقال (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) يعني: أفلم يعلموا أن الله خالقهم وخالق السموات والأرض وهو قادر على أن يخسف بهم إن لم يوحدوا (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) أي لعلامة لوحدانيتي

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

قوله عز وجل: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً﴾** يعني: أعطيناه النبوة والملك **﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾** يعني: سبحي مع داود، وأصله في اللغة[٣] من الرجوع وإنما سمي التسبيح إياباً لأن المسبح مرة بعد مرة وقال القتبي أصله التأويب من السير وهو أن يسير النهار كله كأنه أراد أوبي النهار كله بالتسبيح إلى الليل ثم قال **﴿وَالطَّيْرَ﴾** وقرىء في الشاذ والطيرُ بالضم،[٤] وقراءة العامة بالنصب، فمن قرأ بالضم فهو على وجهين: أحدهما أن يكون نسقاً على أوبي والمعنى يا جبال ارجعي بالتسبيح معه أنت والطير ويجوز أن يكون مرفوعاً على النداء المعنى أيها الجبال وأيها الطير، ومن قرأ بالنصب فلثلاث معانٍ أحدها لنزع الخافض ومعناه أوبي معه ومع الطير والثاني أنه عطف على قوله (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا) وآتيناه الطير يعني: وسخرنا له الطير والثالث أن النداء إذا كان على أثره إسم فكان الأول بغير الألف واللام والثاني بالألف واللام فإنه في الثاني بالخيار إن شاء نصبه وإن شاء رفعه والنصب أكثر كما قال الشاعر

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٢٦ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) حجة من قرأ بالياء أن الكلام أتى عقيب الخبر عن الله في قوله **﴿أفترى على الله كذباً﴾** فكذلك **﴿إن يشأ الله﴾** إذ كان في سياقه وحجة من قرأ بالنون أن الكلام أتى عقيبه بلفظ الجمع وهو قوله: **﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً﴾** فجعل ما قبله بلفظه إذ كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد ويقوي النون قوله **﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾** انظر حجة القراءات ٥٨٣.

(٣) انظر لسان العرب ١/١٦٧.

(٤) قراءة الرفع لابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم وابن هرمز ومسلمة بن عبد الملك انظر تفسير القرطبي ١٤/١٧١.

أَلَا يَا زَيْدُ والضَّحَّاكَ سِيْراً فَقَدْ جَاوَزْتُمَا خَمْرَ الطَّرِيقِ[1]

ورفع زيداً لأنه نداء مفرد ونصب الضحاك بإدخال الألف واللام ثم قال عز وجل ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ يعني: جعلنا له الحديد مثل العجين ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ يعني: قلنا له اعمل الدروع الواسعة وكان قبل ذلك صفائح الحديد مضروبة ثم قال ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ قال السدي السرد المسامير التي في خلق الدرع[2] وقال مجاهد وقدر في السرد أي لا تدق المسامير فتقلقل في الحلقة ولا تغلظها فتعصمها واجعله قدراً بين ذلك[3] وقال في رواية الكلبي هكذا، وقال بعضهم هذا لا يصح لأن الدروع التى عملها داود ـ عليه السلام ـ وكانت بغير مسامير لأنها كانت معجزة له ولو كان محتاجاً إلى المسمار لما كان بينه وبين غيره فرق وقد يوجد من بقايا تلك الدورع بغير مسامير ولكن معنى قوله (وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ) أي قدر في نسخها وطولها وعرضها وضيقها وسعتها ويقال: قدر في تأليفه والسرد في اللغة تقدمة الشيء إلى الشيء يأتي منسقاً بعضه إلى أثر بعض متتابعاً ويقال يسرد في الكلام إذا ذكره بالتأليف ومنه قيل لصانع الدروع سراد وزراد تبدل من السين الزاي وروي عن عائشة أنها قالت كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن سرد الحديث كسردكم[4]: أي لم يتابع في الحديث كتتابعكم ثم قال ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ يعني: أدوا فرائضي وقد خاطبه بلفظ الجماعة كما قال (يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ) وأراد به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة، ويقال: إنه أراد به داود وقومه ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعني: عالم

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر الريح بالضم وقرأ الباقون بالنصب، فمن قرأ بالنصب فمعناه وسخرنا لسليمان الريح كما اتفقوا في سورة الأنبياء ولسليمان الريح مسخرة تكون رفعاً على معنى الخبر ثم قال ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ تسير به الريح عند الغداة مسيرة شهر فتحمله مع جنوده من بيت المقدس إلى اصطخر ورواحها شهر: يعني: تسير به عند آخر النهار سيرة شهر من اصطخر إلى بيت المقدس واصطخر عند بلاد فارس ﴿وَأَرْسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ يعني أجرينا له عين الصفر المذاب يقال تسيل له في كل شهر ثلاثة أيام يعمل بها ما أحب وروى سفيان عن الأعمش قال سيلت له كما سيل الماء، ويقال: جرى له عين النحاس في اليمن وقال شهر بن حوشب جرى له عين النحاس من صنعاء ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: وسخرنا

---

(١) هذا من الأبيات التي لم يعرف لها قائل. انظر الدر اللوامع ٢/١٩٦ شرح المفصل ١/١٢٩ الجمل للزجاجي (١٦٥).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٢٧ وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٢٧ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن جرير.

(٤) أخرجه أبو داود ٣/٣٢٠ كتاب العلم ٣٦٥٥.

لسليمان من الجن من يعمل بين يديه ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ يعني: بأمر ربه ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ يعني: من يعصِ سليمان فيما أمره ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ قال بعضهم: كان معه ملك ومعه سوط من عذاب السعير فإذا خالف سليمان أحد الشياطين ضربه بذلك السوط، وقال مقاتل: يعني: به عذاب الوقود في الآخرة قوله عز وجل ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: ما يشاء سليمان ﴿مِنْ مَحَارِيبَ﴾ يعني: المساجد ويقال الغرق ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ يعني: على صور الرجال من الصفر والنحاس لأجل الهيبة في الحرب وغيره، ويقال ويجعلون صوراً للأنبياء ليستزيد الناس رغبة في الإسلام ثم قال ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ يعني: قصاعاً كالحياض الكبيرة ويجلس على القصعة الواحدة ألف رجل أو أقل أو أكثر الجابية في اللغة الحوض الكبير وجماعته جواب قرأ ابن كثير كالجوابي بالياء في الوقف والوصل جميعاً وقرأ أبو عمر وبالياء في الوصل، والباقون بغير ياء فمن قرأ بالياء فلأنه الأصل ومن حذف فلاكتفائه بكسر الياء قوله ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ يعني: ثابتان في الأرض لا تزول من مكانها وكان يتخذ القدور من الجبال، قال مقاتل: كان ملكه ما بين مصر وبابل، وقال بعضهم: جميع الأرض ثم قال ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً﴾ يعني: يا آل داود لما أعطيتكم من الفضل، ويقال: معناه اعملوا عملاً تؤدوا بذلك شكر نعمتي ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ والشكور هو المبالغة في الشكر وهو من كان عادته الشكر في الأحوال كلها ومثل هذا في الناس قليل وهذا معنى قوله (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) وروي عن أبي العالية أنه قال هو شكر الشكر يعني: إذا شكر النعمة يعلم أن ذلك الشكر بتوفيق الله عز وجل ويشكر لذلك الشكر وهذا في الناس قليل ثم قال عز وجل ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ يعني: على سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكان سليمان يبني في بيت المقدس فرأى أن ذلك لا يتم إلا بالجن فأمرهم بالعمل وقال لأهله لا تخبروهم بموتي فكان قائماً في الصلاة متكئاً على عصاه، وكان سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يطول الصلاة فكان الجن إذا حضروا رأوه قائماً فرجعوا ويقولون إنه قائم يصلي فيقبلون على أعمالهم، وروى إبراهيم بن الحكم عن أبيه عن عكرمة قال كان سليمان ـ عليه السلام ـ إذا مر بشجرة يعني: بشيء من نبات الأرض قال لها ما شأنك فتخبره الشجرة أنها كذا وكذا، ولمنفعة كذا وكذا فيدفعها إلى الناس حتى ينتفعوا بها فمر بشجرة فقال لها ما إسمك يا شجرة فقالت أنا خرنوبة فقال ما شأنك قالت أنا لخراب المسجد فتعصى سليمان منها عصا فكانت الجن يقولون للإنس إنا نعلم الغيب وإن سليمان سأل الله عز وجل أن يخفي موته فلما قضى الله عز وجل على سليمان الموت لم تدر الجن ولا الإنس ولا أحد كيف مات ولم يطلع أحد على موته والجن تعمل بأشد ما كانوا عليه حتى خر سليمان ـ عليه السلام ـ فنظروا كيف مات فلم يدروا فنظروا إلى العصا فرأوا العصا قد أكلت يعني: قد أكل منها وفي العصا أرضه فنظروا إلى أين أكلت الأرض من العصا فجعلوا له لها علماً ثم ردوا الأرض فيها فأكلت شهراً ثم نظروا كم أكلت في ذلك الشهر ثم قاسوها بما أكلت من قبل فكان لموته أثني عشر شهراً فتبين للجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين فقالت الجن: إن لها علينا حقاً يعني: الأرضة فهم يبلغونها الماء فلا يزال لها طينة رطبة فذلك قوله (فلما قضيا عليه الموت) ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ﴾ يعني: ما دل على موت سليمان ﴿إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ يعني: الأرضة ﴿تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ يعني: عصاه قرأ نافع وأبو عمرو منساية بلا همز وقرأ الباقون بالهمز فمن قرأ بالهمز[1] فهو من نسأ ينسأ إذا زجر الدابة ثم تسمى عصاه منسأة لأنه يزجر بها الدَّابة ومن قرأ بغير همز فقد حذف الهمزة للتخفيف وكلاهما جائز ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ يعني: سقط ـ عليه السلام ـ ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ علم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب، ويقال: تبينت الجن يعني: ظهر لهم أنهم لو علموا الغيب يعني: ﴿أَنْ لَوْ

(١) انظر النشر ٢/٣٤٩ وإتحاف فضلاء البشر ٢/٣٨٣ ـ ٣٨٤.

﴿كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ فتفرقوا عن ذلك قرأ حمزة من عبادي الشكور بسكون الياء[١] وقرأ الباقون بالنصب وهما لغتان وكلاهما جائز

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

قوله عز وجل: **﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾** قرىء بالنصب والكسر وقد ذكرناه من قبل فمن قرأ بالكسر والتنوين جعله إسم أب القبيلة ومن قرأ بالنصب جعله أرضاً والأول أشبه لأنه روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سئل عن سبأ فقال هو اسم رجل[٢] ويقال هو سبأ بن يشخب بن يغرب بن قحطان وروي عن إبن عباس أنه قال هي من قرى اليمن بعث عز وجل ثلاثة عشر نبياً ـ عليهم السلام ـ إلى ثلاث عشر قرية باليمن اتبع بعضهم بعضاً حتى اجتمعت الرسل في آل سبأ وقرية أخرى فأتوهم فذكروهم نعم الله عز وجل وخوفهم عقابه، وروى أسباط عن السدي قال: كانت أرضهم أرضاً خصيبة وكانت المرأة تخرج على رأسها مكيلا فلا ترجع حتى تملأ مكتلها من أنواع الفاكهة من غير أن تمد يدها وكان الماء يأتيهم من مسيرة عشرة أيام حتى يحبس بين جبلين وكانوا قد ردموا ردماً بين جبلين فحبسوا الماء وكان يأتيهم من السيول فيسقون بساتينهم وأشجارهم[٣]، ويقال: كان لهم وادي وكان للوادي ثلاث درفات فإذا كثر الماء فتحوا الدرفة العليا، وإذا انتقص فتحوا الدرفة الوسطى، وإذا قل الماء فتحوا الدرفة السفلى فأخصبوا وكثرت أموالهم واتخذوا من الجنان ما شاؤا فلما أحبوا ذلك وكذبوا رسلهم بعث الله عز وجل عليهم جرذاً فنقب ذلك الردم بجنب بستان رجل منهم يقال له عمران بن عامر وهو أب الأنصار والأزد وغسان وخزاعة ويسمون المنسأة العرم فدخل البستان فإذا هو ينقب العرم وقد سال فأمر به فسد ثم نظر إلى الجرزة تنقل أولادها من أصل الجبل إلى أعلاه وكان كاهناً فقال ما تنقل هذه الجرزة أولادها من أصل الجبل إلى أعلاه إلا وقد حضر هلاك هذه البلدة فدعى إبن أخ له فقال إذا رأيتني جلست في جماعة قومي فائتني فقل أي عم أعطني ميراثي من أبي فإني سأقول وهل ترك أبوك شيئاً فاردد علي وكذبني فأذا فإذا كذبتني فإني سألطمك فالطمني فقال أي عم ما كنت لأفعل هذا بك، قال: بلى، فلما رأى لعمه في ذلك هوى قال أفعل ما تأمرني، ففعل، فقال: عمران بن عامر لله علي كذا وكذا أن أسكن هذه البلاد من يشتري مالي فلما عرفوا منه الجد قال هذا أعطيك كذا فنظر إلى أجودهم صفقة فقال عجل إلى مالي فقد حلفت أن لا أبيت بها فعجل إليه ماله وارتحل من يومه حتى شخص عنهم فاتسع ذلك الخرق حتى انهدم وغرق بلادهم وتفرقوا في البلدان فذلك قوله لقد كان لسبأ **﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾** قرأ الكسائي في مسكنهم بكسر الكاف والنون وقرأ حمزة وعاصم في رواية حفص مسكنهم بنصب الكاف وكسر النون وقرأ الباقون مساكنهم بالألف والمسكن بنصب الكاف وكسره واحد، وهما لغتان[٤] مثل مطلع ومطلع والمساكين جمع مسكين وقد قيل

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٣٨٣/٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣١٦/١ وحسنه الحافظ ابن كثير في التفسير ٤٩١/٦ وعزاه لابن عبد البر في المقصد والأمم في معرفة أصول أنساب العرب والعجم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٣١/٥ وعزاه لابن أبي حاتم عن السدي.

(٤) من قرأ **﴿مساكنهم﴾** أتى باللفظ وفقاً للمعنى لأن لكل ساكن مسكناً فجمع. والمساكن جمع (مسكن) الذي هو اسم للموضع من: =

المسكن جمع المساكين لقد كان في منازلهم وقرياتهم ﴿آيَةً﴾ أي علامة ظاهرة لـوحدانيتي ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ يعني بستانان عن يمين الوادي وعن شماله وإنما أراد بالبستان البساتين ويقال بساتين عن يمين الطريق وبساتين عن شماله فأرسل الله تعالى إليهم الرسل فذكروهم النعم فقيل لهم ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ يعني من فضل ربكم ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ فيها رزقكم ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ يعني هذه بلدة طيبة لينة بلا سبخة ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ لمن تاب من الشرك ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان وقالوا: من ذا الذي يأخذ منا النعم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ والعرم هو اسم لذلك الوادي، ويقال: اسم للمنشأة، ويقال: هو اسم للفأرة التى قرضت النهر حتى سال عليهم الماء وجرى في بساتينهم وفي بيوتهم فخربها، وندت أنعامهم، وأخذ كل واحد منهم بيد ولده وامرأته فصعدوا بهم الجبل فذلك قوله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ يعني أبدلهم الله تعالى مكان الفاكهة ذواتي أكل خمط[١] أي الأراك ﴿وَأَثْلٍ﴾[٢] يعني الطرفاء ﴿وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ والسدر كانوا يستظلون في ظله ويأكلون من ثمره قرأ أبو عمرو (أُكُلِ) بكسر اللام بغير تنوين وقرأ الباقون بالتنوين[٣] فمن قرأ بالتنوين أراد ذواتي ثمر يؤكل ثم قال خمط بدلاً من أكل، والمعنى ذواتي خمط وأكله ثمرة، ومن قرأ بغير تنوين أضاف الأكل إلى الخمط، والخمط هو الأراك في اللغة المعروفة وقال بعضهم كل نبت أخذ طعماً من مرارة حتى لا يمكن أكله فهو خمط ثم قال ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ﴾ يعني ذلك الذي أصابهم عقوبة لهم عاقبناهم ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ أي بكفرهم ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ يعني وهل يعاقب بمثل هذه العقوبة إلا الكفور بنعمة الله تعالى ويقال الكفور الكافر، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص وهل نجازي بالنون وكسر الزاى إلا الكفور بالنصب وقرأ الباقون يجازي بالياء[٤] وفتح الزاي إلا الكفور

= سكن يسكن. وحجتهم: أنها مضافة إلى جماعة فمساكنهم بعددهم ويقوى الجمع إجماع الجميع على قوله: **﴿فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم﴾** ومن قرأ **﴿مسكنهم﴾** فالفتح يشبه أن يكون جعل المسكن مصدراً وحذف المضاف والتقدير: في مواضع سكناهم فلما جعل المسكن كالسكن أفرد كما تفرد المصادر. وعلى هذا قوله: **﴿في مقعد صدق﴾** أي: في موضع قعود ألا ترى أن لكل واحد من المتقين موضع قعود ومن قرأ **﴿مسكِنهم﴾** جعله اسم الموضع الذي يسكنون فيه وإنما وحد لأنه أراد بلدهم وقد يجوز أن يراد بذلك جمع المساكن ثم يؤدي الواحد عن الجمع.

قال الكسائي: (مسكنَ ومسكِن: لغتان) قال نحويو البصرة: والأشبه فيه الفتح لأن اسم المكان من (فعَل يفعُل) على المفْعَل) بالفتح وإن لم يرد المكان ولكن أراد المصدر فالمصدر أيضاً في هذا النحو يجيء على (المفعل) مثل المحْشَر. وقد يشذ عن القياس نحو المسكِن والمسجد وذهب سيبويه على أنه اسم البيت وليس المكان من (فعَل يفعُل) فعلى هذا لم يشذ عن الباب. انظر حجة القراءات ٥٨٦.

(١) الخمط ضرب من الاراك له حمل يؤكل قال الزجاج: يقال لكل نبت قد أخذ طعماً من مرارة حتى لا يمكن أكله خمط وقال الفراء: الخمط في التفسير ثمر الأراك. انظر لسان العرب ٢/ ١٢٦٧.

(٢) الأثل: شجر طويل مستقيم يعمر جيد الخشب كثير الأغصان متعقدها دقيق الورق طويله واحده أثلة. انظر المعجم الوسيط ١/ ٦.

(٣) حجة من نون أن الأُكل هو الخمط فالتنوين فيه على أنه بدل من الأكل وقد جاء في التفسير: أن الخمط (الأراك) وأُكُله: ثمره. قال المبرد: التنوين في (أُكُل) أحسن من الإضافة على البدل ويجوز أن يكون على النعت لأنه وإن كان فكأنه شيء مكروه الطعم فجرى مجرى النعت لأن بعض العرب يسمى ما كان مكروه الطعم من حموضة أو مرارة (خمطاً) قال: وأحسب أبا عمرو ذهب في الإضافة إلى هذا كأنه أراد: أكل حموضة أو مرارة وما أشبه ذلك. انظر حجة القراءات ٥٨٧.

(٤) حجة من قرأ بالنون أنه أتى عقيب لفظ الجمع في قوله **﴿ذلك جزيناهم بما كفروا﴾** فكان الأولى بما أتى في سياقه أن يكون بلفظه وبعده وجعلنا بينهم فهذا يؤيد معنى الجمع ليأتلف الكلام على نظام واحد وحجة الباقين أن ما أتى في القرآن من المجازاة أكثره على ما لم يسم فاعله من ذلك (اليوم تجزى كل نفس) فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. انظر حجة القراءات ٥٨٧ ـ ٥٨٨.

بالضم، فمن قرأ بالنون فهو على معنى الإضافة إلى نفسه والكفور بنصب لوقوع الفعل عليه، ومن قرأ يجازي بالياء فهو على فعل ما لم يسم فاعله، يعني هل يعاقب بمثل هذه العقوبة إلا الكفور بنعمة الله تعالى ويقال: هل يجازي الله ومعنى الآية أن المؤمن من يكفر عنه السيئات بالحسنات، وأما الكافر فإنه يحبط عمله كله فيجازى بكل سوء يعمله كما قال تعالى (أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) أي أبطل أعمالهم وأحبطها فلم ينفعهم منها شيء وهذا معنى قوله (وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا ٱلْكَفُورْ)

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

ثم قال عز وجل ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ قال في رواية الكلبي إنهم قالوا للرسل إنا قد عرفنا نعمة الله علينا فوالله لئن يرد الله فيئتنا وجماعتنا والذي كنا عليه لنعبدنه عبادة لم يعبدها إياه قوم قط فدعت لهم الرسل ربهم فرد الله لهم ما كانوا عليه وأتاهم نعمة وجعل لهم من أرضهم إلى أرض الشام قرى متصلة بعضها إلى بعض فذلك قوله وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها ﴿قُرىً ظَاهِرَةً﴾ ثم عادوا إلى الكفر فأتاهم الرسل فذكروهم نعمة الله فكذبوهم فمزقهم الله كل ممزق وقال غيره (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) هذا حكاية عما كانوا فيه من قبل أن يرسل عليهم سيل العرم قرى ظاهرة يعني متصلة على الطريق من حيث يرى بعضها من بعض ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ للمبيت والمعيل من قرية إلى قرية ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ يعني ليسيروا فيها، اللفظ لفظ الأمر، والمراد به الشرط والجزاء فلم يشكروا ربهم فسألوا ربهم أن تكون القرى والمنازل بعضها أبعد من بعض ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وقد كانوا في قراهم آمنين منعمين فذلك قوله (لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ) يعني أنهم كانوا يسيرون من قرية إلى قرية بالليل والنهار آمنين من الجوع والعطش واللصوص والسباع، قرأ إبن كثير وأبو عمرو بعد بغير إلف وتشديد العين وقرأ الباقون باعد بالألف، وهما لغتان بَعِّدَ باعد، وقرأ يعقوب الخضرمي وكان من أهل البصرة ربُنا بضم الباء باعَد بنصب العين[1] وهو على معنى الخبر، وروى الكلبي عن أبي صالح أنه قرأ هكذا معناه ربنا باعد بين أسفارنا فلذلك لا ينصب ثم قال ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالشرك وتكذيب الأنبياء ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يعني أهلكهم الله تعالى فصاروا أحاديث للناس يتحدثون في أمرهم وشأنهم لم يبق أحد منهم في تلك القرى ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي فرقناهم في كل وجه فألقى الله الأزد بعمان الأوس والخزرج بالمدينة وهما أخوان وأهل المدينة كانوا من أولادهما إحدى القبيلتين الخزرج والأخرى الأوس فسموا بإسم أبيهم وخزاعة بمكة كانوابنو خزاعة منهم لحم وجذام بالشام، ويقال: كلب وغسان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ أي: في هلاكهم وتفريقهم لعبرات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ بعني للمؤمنين الذين صبروا على طاعة الله تعالى وشكروا نعمته قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ يعني على أهل سبأ، ويقال: هذا ابتداء يعني جميع الكفار وذلك أن إبليس قد قال (لأُغْوِيَنَّهُمْ

(١) انظر حجة القراءات ٥٨٨.

أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ) فكان ذلك ظناً منه فصدق ظنه ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً﴾ يعني طائفة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الذين قال الله تعالى (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) وقال سعيد بن جبير كان ظنه أنه قال أنا ناري وآدم طيني، والنار تأكل الطين وكذا روي عن ابن عباس رضي الله عنه قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر ولقد صدق بالتخفيف يعني صدق في ظنه وقرأ الباقون صدق بالتشديد يعني صار ظنه صدقاً قوله عز وجل ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يعني لم يكن له عليهم ملك فيقهرهم ويقال يعني ما سلطناه عليهم إلا لنختبرهم من الذي يطيعنا، وقال الحسن البصري رحمه الله والله ما ضربهم بعصاً ولا أكرههم على شيء وما كان إلا غروراً وأماني دعاهم إليها فأجابوه[1]، وقال قتادة والله ما كان ظنه إلا ظناً فنزل الناس عند ظنه وقال معمر قال لي مقاتل: إن إبليس لما أنزل آدم ـ عليه السلام ـ ظن أن في ذريته من سيكون أضعف منه فصدق عليهم ظنه، فإن قيل في آية أخرى (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ) وها هنا يقول (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ) قيل له أراد بالسلطان هناك الحجة يعني إنما حجته على الذين يتولونه وهاهنا أراد به الملك والقهر يعني لم يكن له عليهم ملك يقهرهم به، ويقال: معنى الآيتين واحد لأن هناك قال إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا، وهاهنا قال: وما كان له عليهم من سلطان يعني حجة على فريق من المؤمنين إلا بالتزين والوسوسة منه ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ يعني نميز من يصدق بالبعث ممن هو في شك يعني من قيام الساعة وقال القتبي: علم الله نوعان: أحدهما: علم ما يكون من إيمان المؤمنين، وكفر الكافرين من قبل أن يكون، وهذا علم لا يجب به حجة ولا عقوبة والآخر علم الأمور الظاهرة فيحق به القول ويقع بوقوعها الجزاء يعني ما سلطانه عليهم إلا لنعلم إيمان المؤمنين ظاهراً موجوداً وكفر الكافرين ظاهراً موجوداً وكذلك قوله (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ) الآية ثم قال عز وجل ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ يعني عالماً بالشك واليقين، ويقال: عالم بقولهم، ويقال: عالم بما يكون منهم قبل كونه، ويقال: حفيظ يحفظ أعمالهم ليجازيهم

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

ثم قال عز وجل ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ يعني قل لكفار مكة ادعوا الذين زعمتم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أنهم آلهة فيكشفوا عنكم الضر الذي نزل بكم من الجوع يعني الأصنام ويقال الملائكة ـ عليهم السلام ـ ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يعني نملة صغيرة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني إذا كان حالهم هذا فمن أين جعلوا لهم الشركة في العبادة ثم قال ﴿وَمَالَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾ يعني في خلق السموات والأرض من عون ويقال مالهم فيها من نصيب ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ يعني معين من الملائكة الذين يعبدونهم ثم ذكر أن الملائكة لا يملكون شيئاً من الشفاعة فقال عز وجل ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ﴾ يعني لا تنفع لأحد لا نبياً ولا ملكاً ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أن يشفع لأحد من أهل التوحيد قرى نافع وابن كثير وابن عامر في إحدى الروايتين إلا لمن أذن له بالنصب يعني حتى يأذن الله عز وجل له قرأ الباقون بالضم[2] على فعل ما لم يسم فاعله ومعناه مثل الأول ثم أخبر عن خوف الملائكة

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٣٥ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) انظر حجة القراءات ٥٨٩.

أنهم إذا سمعوا الوحي خروا سجداً من مخافة الله عز وجل وكيف يعبدون من هذه حالة وكذلك قوله ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ وذلك أن أهل السموات لم يكونوا سمعوا صوت الوحي بين عيسى ومحمد ـ عليهما السلام ـ فسمعوا صوتاً كوقع الحديد على الصفا (فخروا سجداً مخافة القيامة)[1] وذلك صوت الوحي ويقال: صوت نزول جبريل ـ عليه السلام ـ فخروا سجداً مخافة القيامة، فهبط جبريل ـ عليه السلام ـ على أهل كل سماء فذلك قوله (حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) وذكر عن بعض أهل اللغة أنه قال إذا كانت حتى موصولة بإذا تكون بمعنى لما تقع موقع الابتداء كقوله عز وجل (حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً) كقوله حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج (حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) يعني لما فزع عن قلوبهم ومعناه انجلاء الفزع عن قلوبهم فقاموا عن السجود وسأل بعضهم بعضاً ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ يعني ماذا قال جبريل ـ عليه السلام ـ عن ربكم ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ يعني الوحي قال حدثنا الفقيه أبو الليث رحمه الله قال حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا الدبيلي قال حدثنا أبو عبد الله قال حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال إذا قضى الله في السماء أمراً ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله وسمع لذلك صوت كأنها سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم، قالوا: الحق الذي قال فسيحي الشياطين بعضهم فوق بعض فإذا سمع الأعلى منهم الكلمة رمى بها إلى الذي تحته وربما أدركه الشهاب قبل أن ينبذها، وربما نبذها قبل أن تدركه فينبذها بعضهم إلى بعض حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على لسان الكاهن والساحر فيكذب معها مائة كذبة فيصدق فيقول أليس قد أخبر بكذا وكذا وكان حقاً وهي الكلمة التي سمع من السماء قرأ[2] ابن عامر حتى إذا فزع بنصب الفاء والزاي يعني كشف الله الفزع وقرأ الباقون بضم الفاء[3] على معنى ما لم يسم فاعله، وقرأ الحسن حتى إذا فزع بالواو والغين يعني فرغ الفزع عن قلوبهم، وقراءة العامة بالزاي أين خفف عنها الفزع وقال مجاهد معناه حتى إذا كشف عنها الغطاء يوم القيامة ثم قال ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ يعني هو أعلى وأعظم وأجل من أن يوصف له شريك

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله عز وجل ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني المطر والنبات فإن أجابوك وإلا ﴿قُلِ اللَّهُ﴾

---

(١) سقط في ظ..

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخاري وأبي داود والترمذي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات وهو عند البخاري في ٨/ ٣٩٨ (٤٨٠٠).

(٣) قال الزجاج: كشف الفزع عن قلوبهم. انظر حجة القراءات ٥٨٩، إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٣٨٧.

يعني الله يرزقكم من السموات والأرض ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ يعني قل لهم أحدنا ﴿لَعَلَى هُدًى﴾ والأخرى على الضلال، يعني إنا على الهدى وأنتم على الضلالة وهذا كرجل يقول لأخر أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه أراد به صاحبه، ويقال في الآية تقديم يعني وإنا على الهدى وإياكم ﴿أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ثم قال عز وجل ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ يعني لا تسألون عن جرم أعمالنا ﴿وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يعني لا نسأل عن جرم أعمالكم ويقال لا تؤخذون بجرمنا ولا نؤخذ بجرمكم قوله عز وجل ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يعني يوم القيامة نحن وأنتم ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بالحق﴾ يعني بالعدل ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ القابض العليم بما يقضي ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ أروني آلهتكم الذين تعبدون من دون الله وتزعمون أنها له شركاء أي ماذا خلقوا في السموات والأرض من الخلق ﴿كَلَّا﴾ يعني ما خلقوا شيئاً ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ خالق كل شيء ﴿الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره قوله عز وجل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ أي عامة للناس ﴿بَشِيراً﴾ وروى خالد الحذاء عن قلابة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي بعثت إلى كل أحمر وأسود فليس أحد من أحمر وأسود يدخل في أمتي إلا كان منهم، ونصرت بالرعب أمامي مسيرة شهر، وجعلت فاتحاً وخاتماً وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً أينما أدركتنا الصلاة صلينا وإن لم نجد ماء تيممنا وأطعمنا غنائمنا ولم يطعمها أحد كان قبلنا كانت قربانهم تأكله[1] النار ثم قال بشيراً ﴿وَنَذِيراً﴾ يعني بشيراً بالجنة لمن أطاعه ونذيراً بالنار لمن عصاه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني لا يصدقون بالجنة ولا بالنار ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ يعني البعث ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني إن كنت صادقاً ويقال إن كنت رسول الله قوله عز وجل ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ﴾ يعني ميقاتاً في العذاب، ويقال: ميعاداً في البعث والعذاب ﴿لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ﴾ يعني عن الميعاد والعذاب ﴿سَاعَةً﴾ يعني قدر ساعة ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ قبل الأجل، ويقال: معناه أنا قادر اليوم على عذابهم، ولكن أؤخرهم في الوعد الذي كتب لهم في اللوح المحفوظ.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة والإنجيل يعني لا نصدق بذلك كله فحكى الله قولهم ثم ذكر عقوبتهم في الآخرة فقال ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ يعني لو رأيت يا

(١) أخرجه مسلم ١/ ٣٧٠ كتاب المساجد (٣ ـ ٥٢١).

محمد الظالمين يوم القيامة ﴿مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يعني محبوسين في الآخرة ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ يعني يرد بعضهم بعضاً الجواب ثم أخبر عن قولهم فقال ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ وهم السفلة والاتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ يعني القادة والرؤساء ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ يعني لولا دعوتكم وتعريفكم إيانا لكنا مصدقين قوله عز وجل ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ يعني القادة ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ وهم الاتباع ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى﴾ يعني أنحن منعناكم عن الإيمان ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ به الرسول ﴿بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ يعني مشركين قوله عز وجل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ يعني ردت الضعفاء عليهم الجواب وقالوا ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يعني قولكم لنا بالليل والنهار واحتيالكم بالدعوة إلى الشرك ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ يعني نجحد بوحدانية الله ﴿وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً﴾ يعني نقول له شركاء ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ يعني أخفوا الحسرة ويقال اظهروا الندامة والحسرة ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ﴾ يعني نجعل الأغلال يوم القيامة ﴿فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من الرؤساء والسفلة ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ يعني هل يثابون في الآخرة ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا قوله عز وجل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ﴾ يعني من رسول ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ يعني جبابرتها ورؤساؤها للرسل ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ يعني جاحدون بالتوحيد والمترف المتنعم وإنما أراد به المتكبرين ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً﴾ في الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ في الآخرة ومعناه أن الكفار المتقدمين استخفوا بالفقراء وآذوا الرسل كما يفعل بك قومك وافتخروا بما أعطاهم الله عز وجل من الأموال كما افتخر قومك وأمره بأن يأمرهم بأن لا يفتخروا بالمال فإن الله تعالى يعطي المال لمن يشاء.

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

وهو قوله عز وجل ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي يوسع المال لمن يشاء وهو مكر منه واستدراج ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يعني يقتر على من يشاء وهو نظر له لكي يعطي في الآخرة من الجنة بما قتر عليه في الدنيا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن التقتير والبسط من الله عز وجل، ويقال: لا يصدقون إن الذين اختاروا الآخرة خير من الذين اختاروا الدنيا ثم أخبر الله تعالى أن أموالهم لا تنفعهم يوم القيامة فقال عز وجل ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ يعني قربة، ومعناه وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا ولو كان على سبيل الجمع لقال بالذين يقربونكم لأن الحكم للآدميين إذا اجتمع معهم غيرهم ثم قال ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ﴾ يعني إلا من صدق بالله ورسوله ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ يعني للواحد عشرة إلى سبع مائة، وإلى ما لا يحصى وقال القتبي: أراد بالضعف التضعيف أي لهم جزاء وزيادة، قال: ويحتمل جزاء الضعف أي جزاء

الأضعاف كقوله (عذاباً ضعفاً في النار) أي مضافاً وروي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: إن الغني إذا كان تقياً يضاعف الله له الأجر مرتين[١] ثم قرأ هذه الآية (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ) إلى قوله (فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ) يعني أجره مِثْلَيْ ما يكون لغيره، ويقال هذا لجميع من عمل صالحاً ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ قرأ حمزة وهم في الغرفة وقرأ الباقون وهم في الغرفات[٢] والغرفة في اللغة[٣]: كل بناء يكون علواً فوق سفل، وجمعه غرف وغرفات، ومعناه وهم في الجنة آمنون من الموت والهرم والأمراض والعدو وغير ذلك من الآفات ثم قال عز وجل ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ والقراءة قد ذكرناها ﴿أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ يعني في النار معذبون ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ وقد ذكرناه ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني ما تصدقتم من صدقة ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ يعني فإن الله يعطي خلفه في الدنيا وثوابه في الآخرة ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ يعني أقوى المعطين وروى أبو الدرداء عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال ما طلعت شمس ولا غربت شمس إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان اللهم عجل لمنفق ماله خلفا وعجل لممسك ماله تلفاً[٤] ثم قال عز وجل ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ يعني الملائكة عليهم السلام ومن عبدهم قرأ بعضهم من أهل البصرة يحسرهم بالياء يعني يحشرهم الله عز وجل وقراءة العامة بالنون على معنى الحكاية عن نفسه ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾[٥] يعني أنتم أمرتم عبادي أن يعبدوكم وهذا سؤال توبيخ كقوله لعيسى عليه السلام (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي) الآية ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ فنزهت الملائكة ربها عن الشرك، وقالوا سبحانك يعني تنزيهاً لك ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ ونحن برآء منهم من أن نأمرهم أن يعبدونا ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ يعني أطاعوا الشياطين في عبادتهم ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ يعني مصدقين الشياطين مطيعين لها يقول الله تعالى ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً﴾ يعني شفاعة ﴿وَلَا ضَرّاً﴾ يعني ولا دفع الضر عنهم ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني كفروا في الدنيا يقال لهم في الآخرة ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ إنها غير كائنة ثم أخبر عن أفعالهم في الدنيا.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٣٨ وعزاه للحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) حجة قراءة حمزة قوله تعالى: ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا﴾ فكما أن الغرفة يراد بها الجمع والكثرة (كذلك وهم في الغرفات آمنون) يراد به الكثرة وإسم الجنس والعرب تجتزىء بالواحدة عن الجماعة قال تعالى: ﴿والملك على أرجائها﴾ وحجة الباقين قوله تعالى ﴿ومن فوقها غرف﴾ و ﴿لنبوءنهم من الجنة غرفاً﴾. انظر حجة القراءات ٥٩٠، النشر في القراءات ٢/٣٥١.

(٣) انظر لسان العرب ٥/٣٢٤٣. (٤) أخرجه البخاري ٣/٣٠٤ كتاب الزكاة (١٤٤٢). ومسلم ٢/٧٠٠ كتاب الزكاة (٥٧ ـ ١٠١٠).

(٥) وقرأ حفص: (يوم يحشرهم جميعاً ثم يقول﴾ بالياء فيهما أي يحشرهم الله. وحجته قوله تعالى ﴿قبلها﴾: ﴿قل إن ربي يبسط الرزق﴾ ﴿ويوم يحشرهم﴾.

وقرأ الباقون ﴿ويوم نحشرهم﴾ بالنون. أي: نحن نحشرهم وهو انتقال من لفظ الإفراد إلى الجمع كما أن قوله: ﴿ألا تتخذوا من دوني وكيلاً﴾ انتقال من الجمع إلى الإفراد والجمع ما تقدم من قوله: ﴿وآتينا موسى الكتاب﴾. انظر حجة القراءات ٥٩٠.

تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾

قوله عز وجل ﴿وَإِذَا تُتْلَى﴾ يعني يقرأ وتعرض ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ بالأمر والنهي والحلال والحرام ﴿قَالُوا﴾ ما نعرف هذا ﴿مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ﴾ يعني يصرفكم ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ من عبادة الأصنام ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَى﴾ يعني كذباً مختلقاً ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ يعني للقرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعني كذب بين ثم قال عز وجل ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ يعني ما أعطيناهم ﴿مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ يعني من كتب يقرؤونها وفيها حجة لهم بأن مع الله شريكاً ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يعني من رسول في زمانهم ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني من قبل قومك أرسلهم كما كذبك قومك ﴿وَمَا بَلَغُوا﴾ أي ما بلغ قومك ﴿مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ يعني ما بلغ أهل مكة عشر الذي أعطينا الأمم الخالية من الأموال والقوة فأهلكتهم بالعذاب حين كذبوا رسلي ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرُ﴾ يعني كيف كان إنكاري وتغييري عليهم وإيش خطر هؤلاء بجنب أولئك فأحذروا مثل عذابهم ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ يعني بكلمة واحدة ويقال بخصلة واحدة ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ بالحق ﴿مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ يعني أمركم بالإنصاف أن تتأملوا حق التأمل وتتفكروا في أنفسكم هل لهذا الرجل الذي يدعوكم إلى خالقكم وخالق السموات والأرض هل رأيتم به جنوناً ثم قال ما بصاحبكم من جنة يعني من جنون، وقال القتبي: تأويله أن المشركين لما قالوا إنه ساحر ومجنون وكذاب فقال الله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم - قل لهم: اعتبروا أمري بواحدة أن تنصحوا لأنفسكم ولا يميل بكم هوى فتقوموا لله في دار يخلوا فيها الرجل منكم بصاحبه، فيقول له: هلم فلنتصادق هل رأينا بهذا الرجل جنة أم جربنا عليه كذباً ثم ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه فيتفكر وينظر فإن ذلك يدل على أنه نذير قال وكل من تحير في أمر قد اشتبه عليه واستبهم أخرجه من الحيرة أن يسأل ويناظر فيه ثم يتفكر ويعتبر، ثم قال ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ﴾ أي ما هو إلا مخوف لكم ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي بين يدي القيامة ثم قال عز وجل ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أمر كفار مكة أن لا يؤذوا أقربائه فكفوا عن ذلك فنزل (قُلْ لَا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فكفوا عن ذلك ثم سمعوا بذكر آلهتهم فقالوا لا تنظرون إليه ينهانا عن إيذاء أقربائه وسألناه أن لا يؤذينا في آلهتنا فلا يمتنع فنزل (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ) إن شئتم آذوهم وإن شئتم امتنعتم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ فهو الحافظ والناصر ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بأني نذير وما بي جنون ثم قال عز وجل ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ يعني يبين الحق من الباطل، ويقال: يأمر بالحق ويقال: يتكلم بالحق يعني بالوحي ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يعني هو عالم كل غيب قوله عز وجل ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ يعني ظهر الإسلام ﴿وَمَا يُبْدِيءُ الْبَاطِلُ﴾ يعني لا يقدر الشيطان أن يخلق أحداً ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ يعني لا يقدر أن يحييه بعد الموت، والله تعالى يفعل ذلك، ويقال: الباطل أيضاً الصنم، وروى ابن مسعود أن النبي - صلى الله عليه وسلم - دخل مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل، قل جاء الحق وما يبدي الباطل وما يعيد.

قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ

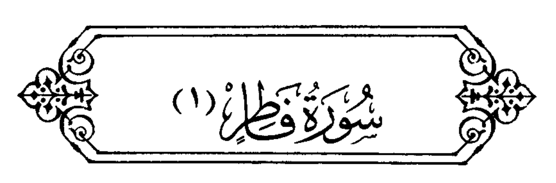
تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

قوله عز وجل ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ يعني وزور الضلال على نفسي ﴿وَإِنْ اهْتَدَيتُ﴾ إلى الحق والهدى ﴿فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ يعني اهتديت بما يوحي إلي من القرآن ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ للدعاء ﴿قَرِيبٌ﴾ بالإجابة ﴿ممن دعاه وقيل للنابغة حين أسلم: أصبوت يعني آمنت بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: بلى هو غلبني بثلاث آيات من كتاب الله عز وجل فأردت أن أقول ثلاثة أبيات من الشعر على قافيتها فلما سمعت هذه الآيات فعييت فيها ولم أطق فعلمت أنه ليس من كلام البشر وهي هذه ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ قوله عز وجل ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا﴾ يعني خافوا من العذاب ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ يعني فلا نجاة لهم منها ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

روي عن الكلبي أنه قال نزلت الآية في قوم يقال لهم السفيانية يخرجون في آخر الزمان عددهم ثلاثون ألف رجل إلى أن يبلغوا أرض الحجاز فافترقوا فرقتين فتقدمت فرقة إلى موضع يقال له بيداء صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة فخسف بهم الأرض كلهم إلا واحداً منهم ينجو فيحول وجهه إلى خلفه فيرجع إلى الفرقة الأخرى فيخبرهم بما أصابهم يعني ولو ترى يا محمد فزعهم حين صاح بهم جبريل عليه السلام فلا فوت أي لا يفوت منهم فايت وأخذوا من مكان قريب يعني خسف بهم البيدا بقرب مكة، ويقال: يعني يوم القيامة ولو ترى يا محمد إذ فزعوا حين نزل بهم العذاب يوم القيامة فلا فوت وأخذوا من مكان قريب، كما قال: وبرزت الجحيم، وقال الحسن: ولو ترى إذ فزعوا من قبورهم يوم القيامة، وقال الضحاك: يعني يوم بدر ثم قال عز وجل ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ يعني العذاب حين رأوه يقول الله تعالى ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوشُ﴾ يعني من أين لهم التوبة، ويقال: من أين لهم الرجفة قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في إحدى الروايتين التناؤش بالهمز وقرأ الباقون بغير همز[1] فمن قرأ بالهمز فهو من التناوش وهو الحركة في إبطاء، والمعنى من أين لهم أنْ يتحركوا فيما لا حيلة لهم فيه، ومن قرأ بغير همز فهو من التناول، ويقال: تناول إذا مد يده إلى شيء ليصل إليه وتناوش يده إذا مد يده إلى شيء لا يصل إليه ثم قال ﴿مِنَ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني من الآخرة إلى الدنيا وروي عن ابن عباس أنه قال: من مكان بعيد قال: سألوا الرد حين لا رد ثم قال عز وجل ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني كفروا بالله من قبل الموت، ويقال: به يعني بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم، ويقال: بالقرآن ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يعني يتكلمون بالظن في الدنيا ﴿مِنَ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أنه لا جنة ولا نار ولا بعث ثم قال ﴿وَحِيْلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ يعني من الرجفة إلى الدنيا ويقال من التسوية كيف ينالون التسوية في هذا الوقت، وقد كفروا به من قبل ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني الأقدمون أهل دينهم الأولون من قبل الاشياع جمع الجمع يقال: شيعة وشيع وأشياع ثم قال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ يعني هم في شك مما نزل بهم مريب يعني أنهم لا يعرفون شكهم، وقال القتبي: في قوله فلا فوت: يعني لا مهرب ولا ملجأ وهذا مثل قوله (فَنَادُوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ) أي نادوا حين لا مهرب والله أعلم.

---

(١) انظر حجة القراءات ٥٩٠، النشر في القراءات العشر ٢/٣٥١.



سُورَةُ فَاطِرٍ[١]

وهي أربعون وخمس آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ يعني: خالق السموات والأرض يقال فطر الشيء إذا بدأه قال ابن عباس رضي الله عنه ما كنت أعرف فاطر حتى اختصما لي أعرابيان في بئر، فقال: أحدهما أنا فطرتها[٢] يعني: بدأتها، ثم قال: ﴿**جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً**﴾ يعني: مرسل الملائكة بالرسالة جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت والكرام الكاتبين عليهم السلام ﴿**أُولِي أَجْنِحَةٍ**﴾ يعني: ذوي أجنحة ولفظ أولي يستعمل في الجماعة، ولا يستعمل في الواحد، وواحدها ذو، ثم قال: ﴿**مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ**﴾ يعني: من الملائكة من له جناحان ومنهم من له ثلاثة أجنحة ومنهم من له أربعة ومنهم كذا، ويقال: ثلاث معدول من ثلاثة يعني ثلاثة ثلاثة ورباع معدول من أربعة يعني أربعة أربعة ثم قال: ﴿**يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ**﴾ يعني: يزيد في خلق الأجنحة ما يشاء وروي عن ابن شهاب أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سأل جبريل عليه السلام أن يتراءى له في صورته، فقال له جبريل: إنك لا تطيق ذلك، فقال: إني أحب أن تفعل، فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (إلى المصلى) في ليلة مقمرة فأتاه جبريل في صورته فغشي على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين رآه، ثم أفاق وجبريل عليه السلام يسنده واضع إحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه فقال رسول الله ـ صلى الله عليه

---

(١) اشتملت هذه السورة على إثبات تفرد الله تعالى بالإلهية فافتتحت بما يدل على أنه مستحق الحمد على ما أبدع من الكائنات الدال إبداعها. على تفرده تعالى بالإلهية. وعلى إثبات صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما جاء به وأنه جاء به الرسل من قبله. وإثبات البعث والدار الآخرة. وتذكير الناس بإنعام الله عليهم بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد وما يعبد المشركون من دونه لا يغنون عنهم شيئاً وقد عبدهم الذين من قبلهم فلم يغنوا عنهم. وتثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ما يلاقيه من قومه، وكشف نواياهم في الإعراض عن اتباع الإسلام لأنهم احتفظوا بعزتهم وإنذارهم أن يحل بهم ما حل بالأمم المكذبة قبلهم.

والثناء على الذين تلقوا الإسلام بالتصديق وبضد حال المكذبين. وتذكيرهم بأنهم كانوا يودون أن يرسل إليهم رسول فلما جاءهم رسول تكبروا واستنكفوا، وأنهم لا مفر لهم من حلول العذاب عليهم فقد شاهدوا آثار الأمم المكذبين من قبلهم وأن لا يغتروا بإمهال الله إياهم فإن الله لا يخلف وعده. والتحذير من غرور الشيطان والتذكير بعداوته لنوع الإنسان. انظر التحرير ٢٤٧، ٢٢/٢٤٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٤٤ وعزاه لأبي عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان.

وسلم ـ: سبحان الله ما كنت أرى شيئاً من الخلق هكذا، فقال جبريل: فكيف لو رأيت إسرافيل؟ إن له اثني عشر جناحاً منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب وأن العرش لعلى كاهله وإنه ليتضائل بالأحايين لعظمة الله حتى يعود مثل الوضع يعني عصفوراً حتى لا يحمل عرشه إلا عظمته[١] فذلك قوله تعالى: (يَزِيْدُ في الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ) يعني: في خلق الملائكة ويقال يزيد في الخلق ما يشاء يعني الشعر الحسن والصوت الحسن[٢] والخد الحسن ويقال يزيد في الخلق ما يشاء يعني في الجمال والكمال والذمامة ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ﴾ من الزيادة والنقصان وغيره ثم قال عز وجل: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ يعني: ما يرسل الله للناس من رزق كقوله (ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ) ويقال الغيث[٣] ويقال من رحمة يعني: من كل خير ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ يعني: لا يقدر أحد على حبسها ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ يعني: ما يحبس من رزق ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعني: فلا معطي أحد بعد الله عز وجل قال في أول الكلام فلا ممسك لها بلفظ التأنيث لأنه انصرف إلى اللفظ وهو الرحمة ثم قال: فلا مرسل له بلفظ التذكير لأنه ينصرف إلى المعنى وهو المطر والرزق ولو كان كلاهما بلفظ التذكير أو كلاهما بلفظ التأنيث لجاز في اللغة فذكر الأول بلفظ التأنيث لأن الرحمة كانت أقرب إليه وفي الثاني كان أبعد وقد ذكر بلفظ التذكير مجاز حذف ما، ثم قال ﴿وَهُوَ الْعَزِيْزُ﴾ فيما أمسك ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما أرسل.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: احفظوا نعمة الله ثم ذكر النعمة فقال ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: النبات والمطر قرأ حمزة والكسائي غير الله بكسر الراء، وقرأ الباقون بالضم[٤] مثل ما في سورة الأعراف، والاستثناء إذا كان بحرف إلا فإن الإعراب يكون على ما بعده، وإذا كان الاستثناء بحرف غير فإن الإعراب يقع على نفس الغير، فمن قرأ بالكسر صار كسراً على البدل، ومن قرأ بالرفع فمعناه هل خالق غير الله لأن من موكدة ولفظ الآية لفظ الاستفهام، والمراد به النفس يعني أنتم تعلمون أنه لا يخلق أحد سواه ولا يرزقكم أحد سواه ثم وحد نفسه فقال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يفعل بكم ذلك ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ يعني: من أين تكذبون وأنتم تعلمون أنه لا يخلق أحد سواه ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كما

---

(١) أخرجه البخاري ٨/٤٧٧ (٤٨٥٨) كتاب التفسير وانظر تفسير ابن كثير ٦/٥١٩، تفسير البغوي ٣/٥٦٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٤٤ وعزاه لابن المنذر عن ابن عباس.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٤٤ وعزاه لابن أبي حاتم عن السدي.

(٤) انظر حجة القراءات ٥٩٢، النشر في القراءات العشر ٢/٣٥١.

كذبك قومك، وهذا تعزية يعزي بها نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصبر على أذاهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ يعني: إليه ترجع عواقب الأمور بالبعث ثم قال عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ﴾ يعني: يا أهل مكة ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني: البعث بعد الموت حق كائن ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يعني: حياتكم في الدنيا، والدنيا في الأصل هي القربى سميت بهذا لأن حياتهم هذه أقرب إليهم، ويقال: هي فعلى من الأدون يعني حياة الأدون ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ يعني: الباطل وهو الشيطان. قال حدثنا أبو الليث رحمه الله قال حدثني أبي قال حدثنا أبو الحسن الفراء الفقيه السمرقندي قال: حدثنا أبو بكر الجرجاني الإمام بسمرقند ذكر بإسناده عن العلاء بن زيادة قال رأيت الدنيا في النوم امرأة قبيحة عمشاء ضعيفة عليها من كل زينة فقلت من أنت أعوذ بالله منك فقالت أنا الدنيا فإن يسرك أن يعيذك الله مني فابغض الدراهم يعني لا تمسكها عن النفقة في موضع الحق ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ يعني: حين يأمركم بالكفر ومن عداوته مع أبيكم ترك طاعة الله ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ يعني: فعادوه بطاعة الله ومعناه أطيعوا الله عز وجل لأنك إذا أطعت الله فقد عاديت الشيطان ﴿إِنَّمَا يَدعـو حِزْبَهُ﴾ يعني: شيعته إلى الكفر ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ يعني: من أهل النار ثم بين مصير من أطاع الشيطان ومصير من عصاه فقال ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: جحدوا بوحدانية الله عز وجـل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿وَالَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: صدقوا بوحدانية الله وعملوا الطاعات واتخذوا الشيطان عدواً ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ في الدنيا لذنوبهـم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيـرٌ﴾ يعني: ثواباً حسناً في الجنة قوله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ يعني: قبيح عمله كمن لم يزين له ذلك ﴿فَرَآهُ حَسَناً﴾ يعني: فظنه حقاً، والجواب فيه مضمراً فمن زين له سوء عمله كمن لم يزين له ذلك، وقال الزجاج: أفمن زين له سوء عمله يعني أبا جهل وأصحابه وأضله الله كمن لم يزين له ذلك وهداه الله تعالى ثم قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ عن دينه ﴿وَيَهْدِيْ مَنْ يَشَاءُ﴾ لدينه ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ قال القتبي هـذا من الإضمار يعني ذهبت نفسك حسرة عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات بتركهم الإيمان، وقرىء في الشاذ فلا تذهب بضم التاء وكسر الهاء نفسك بنصب السين من أذهب يذهب: يعني لا تقتل نفسك؛ وقراءة العامة فلا تذهب نفسك بنصب التاء والهاء وضم السين أي (لا تحزن نفسك)[1] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ من الخير والشر.

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيـرُ سَحَاباً﴾[2] أي ترفعه وتهيجه ﴿فَسُقْنَاهُ﴾ يعني: نسوقه ﴿إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعني: بعد يبسها ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ يعني: هكذا تحيون بعد الموت

---

(١) سقط في ظ.

(٢) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (والله الذي أرسل الريح) بغير ألف وقرأ الباقون بها انظر المصدران السابقان.

يوم القيامة وروي عن سفيان عن سلمة بن كهيل عن أبي الزبعرى عن عبد الله بن مسعود أنه قال تقوم الساعة على شرار الناس ثم يقوم ملك بالصور فينفخ فيه فلا يبقى خلق في السموات والأرض إلا مات إلا ما شاء الله ثم يكون بين النفختين ما شاء الله فيرسل الله الوباء من السماء من تحت العرش كمني الرجال فتنبت لحومهم من ذلك الماء كما تنبت الأرض من الندا ثم قرأ (فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ) ثم ينفخ في الصور[1] قوله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ يعني: من طلب العزة بعبادة الأوثان فليتعزز بطاعة الله عز وجل فإن العزة لله جميعاً يقول من يتعزز بإذن الله، ويقال: معناه من كان يريد أن يعلم لمن تكون العزة فليعلم بأن العزة لله جميعاً، ويقال: من كان يطلب لنفسه العزة فإن العزة لله جميعاً ثم قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ قال مقاتل: يصعد إلى السماء كلمة التوحيد ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ يقول التوحيد يرفع العمل الصالح إلى الله تعالى في السماء فيها تقديم، وقال الحسن البصري العمل الصالح يرفع الكلام الطيب إلى الله عز وجل فإذا كان الكلام الطيب عملاً غير صالح يرد القول إلى العمل لأنه أحق من القول[2]، وقال قتادة: والعمل الصالح يرفعه، قال الله: يرفعه، ويقال: العمل الصالح يرفعه لصاحبه، ويقال: يرفعه يعني: يعظمه، ويقال: العمل الصالح يرفعه أي يقبل الأعمال بالإخلاص معناه العمل الخالص الذي يقبله ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: يعملون بالشرك، ويقال يعملون بالرياء لا يقبل منهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ يعني: شرك أولئك وفسقهم وصنيعهم يهلك صاحبه في الآخرة، يقال بارت السلعة إذا كسدت لأنها إذا كسدت فقد تعرضت للهلاك ثم قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ يعني: آدم عليه السلام وهو أصل الخلق ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ يعني: خلقكم من نطفة ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً﴾ يعني: أصنافاً ذكراً وأنثى، ويقال: أصنافاً أحمر وأبيض وأسود يعني فاذكروني ووحدوني ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ ومن صلة في الكلام ﴿وَتَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ يعني: بمشيئته ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ فيطول عمره ﴿وَلاَ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ يعني: إلا وكل ذلك في كتاب الله أي قد بين في اللوح المحفوظ وروي عن ابن عمر أنه قرأ من عمره بجزم الميم[3]، وهما لغتان مثل نكر ونكر ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني: حفظه على الله هين بغير كتابة.

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ العذب والمالح ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ يعني: طيب هين شربه.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٤٥ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٤٦ وعزاه لابن المبارك وعبد ابن حميد وابن المنذر.

(٣) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٩٢، تفسير القرطبي ١٤/٢١٣.

ويقال: سلس في حلقه، حلو في شرابه، **﴿سائغ﴾** يعني: شهياً ويقال: يسوغه الشراب **﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾** يعني: الشديد الذي شيب بضرب إلى المرارة **﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِياً﴾** يعني: السمك **﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾** من المالح **﴿حِلْيَةً﴾** وهي اللؤلؤ **﴿تَلْبَسُونَهَا﴾** يعني: تستعملونها وتلبسون نساءكم وهذا المثل لأصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الكفار يعني وما يستوي الذين صدقوا والذين كذبوا ومن كل يظهر شيء من الصلاح يعني يلد الكافر المسلم مثل ما أولد الوليد بن المغيرة خالد بن الوليد وأبو جهل عكرمة بن أبي جهل قوله **﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾** يعني: السفن **﴿مَوَاخِرَ﴾** يعني: تذهب وتجيء **﴿فِيهِ﴾** يعني: في البحر **﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾** يعني: من رزقه **﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** يعني: لكي تشكروا رب هذه النعمة، يقال في اللغة:[١] مخر يمخر إذا شق الماء يعني أن السفينة تشق الماء في حال جريها، يقال: مخرت السفينة إذا جرت وشقت الماء في جريها ثم قال عز وجل: **﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾** وقد ذكرناه **﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾** يعني: ذلل الشمس والقمر لبني آدم **﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾** يعني: إلى أقصى منازلها في الغروب لأنها تغرب كل ليلة في موضع وهو قوله عز وجل (فلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) ويقال: إلى أجل مسمى يعني: يجريان دائماً إلى يوم القيامة **﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾** يعني هذا الذي فعل لكم هذا الفعل هو ربكم وخالقكم **﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾** فاعرفوا توحيده وادعوه ولا تدعوا غيره **﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾** يعني: من دون الله الأوثان وما يعبدونهم من دون الله **﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾** يعني: لا يقدرون أن يعطوكم ولا ينفعوكم بمقدار القطمير والقطمير قشر النواة الأبيض الذي يكون بين النوى والتمر، وقال مجاهد: القطمير لفاف النوى[٢] ثم قال: **﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾** يعني: ولو كانوا بحال يسمعون أيضاً فلا يجيبونكم ولا يكشفون عنكم شيئاً **﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾** يعني: يتبرؤون من عبادتكم ويقولون ما كنتم إيانا تعبدون يقول الله تعالى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ **﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾** يعني: لا يخبرك من عمل الآخرة مثل الرب تبارك وتعالى، ويقال: لا يخبرك أحد مثل الرب بأن هذا الذي ذكر عن الأصنام أنهم يتبرؤون عن عبادتهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ

---

(١) انظر لسان العرب ٢/١١٢٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٤٨ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

ثم قال عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ يعني: أنتم محتاجون إلى ما عنده ويقال أنتم الفقراء إلى الله في رزقه ومغفرته ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ الغني عن عبادتكم الحميد في فعاله وسلطانه وهذا كما قال في آية أخرى (وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ) لأن كل واحد يحتاج إليه لأن أحداً لا يقدر أن يصلح أمره إلا بالأعوان والأمير ما لم يكن له خدم وأعوان لا يقدر على الإمارة وكذلك التاجر يحتاج إلى المكارين والله عز وجل غني عن الأعوانِ وغيره ثم قال عز وجل: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يعني: يهلككم ويميتكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أفضل منكم وأطوع لله ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ يعني: بشديد ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ يعني: لا تحمل نفس خطيئة نفس أخرى، ويقال: لا تحمل بالطوع ولكن يحمل عليها إذا كان له خصماً ثم قال: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا﴾ يعني: الذي أثقلته الذنوب والأوزار إن لو دعا أحداً ليحمل عنه بعض أوزاره لا يحمل من وزره شيئاً وإن كان ذا قرابة لا يحمل من وزره، وروى إبراهيم بن الحكم عن أبيه عن عكرمة قال إن الوالد يتعلق بولده يوم القيامة فيقول يا بني إني كنت لك والداً فيثني عليه خيراً فيقول يا بني قد احتجت إلى مثقال ذرة وفي رواية أخرى: إلى مثقال حبة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى فيقول له ولده ما أيسر ما طلبت ولكن لا أطيق أني أخاف مثل الذي تخوفت ثم يتعلق بزوجته فيقول لها إني كنت لك زوجاً في الدنيا فيثني عليها خيراً، ويقول إني طلبت إليك حسنة واحدة لعلي أنجو بها مما ترين فتقول ما أيسر ما طلبت ولكن لا أطيق أني أخاف مثل الذي تخوفت[1] فذلك قوله (وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا) ﴿لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ ثم قال: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ يعني: إنما تخوف بالقرآن الذين يخافون ربهم بالغيب يعني آمنوا بالله وهم له وهم في غيب منه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾ يعني: يقيمون الصلاة وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يُنذر المؤمنين والكافرين ولكن الذين يخشون ربهم هم الذين يقبلون الإنذار فكأنه أنذرهم خاصة ثم قال: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى﴾ يعني: توحد، ويقال: تطهر نفسه من الشرك، ويقال: من صلح فإنما صلاحه لنفسه يثاب عليه في الآخرة، ويقال: من يعطي الزكاة فإنما ثوابه لنفسه ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ المصير﴾ فيجازيهم بعملهم قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى﴾ يعني: الكافر الأعمى عن الهدى ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ يعني: المؤمن ﴿وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ﴾ يعني: الكفر والإيمان ﴿وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ﴾ يعني: الجنة والنار ولا الحرور هو استقرار الحر ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ﴾ قال القتبي مثل الأعمى والبصير كالكافر والمسلم والظلمات والنور مثل الكفر والإيمان والظل والحرور مثل الجنة والنار وما يستوي الأحياء ولا الأموات مثل العقلاء والجهال ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: يفقه من يشاء ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ يعني: لا تقدر أن تفقه الأموات وهم الكفار ﴿إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ يعني: ما أنت إلا رسول ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: بالقرآن ويقال: لبيان الحق ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ وقد ذكرناه ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يعني: وما من أمة فيما مضى إلا فيهم نذير، يعني إلا جاءهم رسول ثم قال: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: بالأمر والنهي ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ يعني: بالكتب وبأخبار من كان قبلهم ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ يعني: المضيء الكتاب هو نعت لما سبق ذكره من البينات والزبر ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: الذين كذبوهم فعاقبتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرُ﴾ يعني: كيف كان إنكاري وتغييري عليهم ثم ذكر خلقه ليعتبروا به ويوحدوه.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٤٨ وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

فقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا﴾ من الثمار الأحمر والأصفر والحلو والحامض ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ﴾ يعني: خلق من الجبال جدداً يعني: جماعة الجدة والجدة هي الطريقة التي في الجبل والجدد هي الطرائق فترى الطريق من البعد منها أبيض وبعضها حمر وقال القتبي الجدد الخطوط والطرق تكون في الجبال فبعضها بيض وبعضها حمر وبعضها غرابيب سود وهو جمع غريب وهو الشديد السواد ويقال أسود غريب ﴿وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وغَرَابِيْبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ﴾ يعني: خلق من الناس والدواب ﴿وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أي كاختلاف الثمرات ثم استأنف فقال ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وقال بعضهم: إنما يتم الكلام عند قوله مختلف ألوانه ثم استأنف فقال (كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) يعني هكذا يخشى الله من عباده العلماء يعني إن العلماء يعلمون خلق الله تعالى، ويتفكرون في خلقه ويعلمون ثوابه وعقابه فيخشونه ويعملون بالطاعة طمعاً لثوابه ويمتنعون عن المعاصي خشية عقابه وقال مقاتل أشد الناس خشية أعلمهم بالله تعالى، فيها تقديم، وروى سفيان عن بعض المشيخة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سئل يا رسول الله أينا أعلم فقال أخشاكم لله تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء قالوا يا رسول الله فأي الأصحاب أفضل قال الذي إذا ذكرت أعانك وإذا نسيت ذكرك قالوا فأي الأصحاب شر قال الذي إذا ذكرت لم يعينك وإذا أنسيت لم يذكرك قالوا فأي الناس شر قال اللهم اغفر للعلماء والعالم إذا فسد فسد الناس ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في ملكه ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يعني: يقرؤون القرآن ويقال معناه: يتبعون كتاب الله تعالى يقال: تلى يتلو إذا اتبعه كقوله تعالى: (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا) ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾ يعني: أتموا الصلوات في مواقيتها ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ يعني: تصدقوا مما أعطيناهم من الأموال ﴿سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ يعني: لن تهلك ولن تخسر، ومعناه: يرجون تجارة رابحة وهي الجنة مكان الحياة الدنيا ثم قال عز وجل: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ يعني: يوفر ثواب أعمالهم ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني: من رزقه من الجزاء والثواب في الجنة، ويقال: من فضله يعني من تفضله ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿شَكُورٌ﴾ لأعمالهم اليسيرة والشكر على ثلاثة أوجه الشكر ممن يكون دونه الطاعة لأمره وترك مخالفته والشكر ممن هو شكله يكون الجزاء والمكافأة والشكر ممن فوقه يكون رضي منه باليسير.

وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني: أرسلنا إليك جبريل عليه السلام بالقرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ لا شك فيه ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: موافقاً لما قبله من الكتب ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ يعني: عالم بهم وبأعمالهم قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ ويقال: أعطينا القرآن ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ يعني: اخترنا من هذه الأمة، وثم بمعنى العطف يعني وأورثنا الكتاب، ويقال: ثم بمعنى التأخير يعني بعد كتب الأولين أورثنا الكتاب ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ يعني: من الناس ظالم لنفسه ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ روي عن ابن عباس في إحدى الروايتين أنه قال الظالم الكافر، والمقتصد المنافق، والسابق المؤمن، وروي عنه رواية أخرى أنه قال: هؤلاء كلهم من المؤمنين فالسابق الذي أسلم قبل الهجرة، والمقتصد الذي أسلم بعد الهجرة قبل فتح مكة والظالم الذي أسلم بعد فتح مكة، وطريق ثالث ما روى أبو الدرداء عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال السابق الذي يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد الذي يحاسب حساباً يسيراً، والظالم الذي يحاسب في طول المحشر[1] وطريق رابع ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال سابقنا سابق ومقتصدنا ناجي وظالمنا مغفور له[2] وطريق آخر ما روى أسد بن رفاعة عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال سابقنا أهل الجهاد ومقتصدنا أهل حضرنا يعني أهل الأمصار، وهم أهل الجماعات والجمعات، وظالمنا أهل بدونا[3]، وطريق سادس ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت عن هذه الآية فقالت السابق النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن مضى معه، والمقتصد مثل أبي بكر ومن مضى معه، والظالم فمثلي ومثلكم[4]، وطريق سابع ما روي عن مجاهد قال: الظالم هم أصحاب المشأمة، والمقتصد أصحاب الميمنة والسابق هم السابقون بالخيرات فكأنه استخرجه من قوله (فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. . . والسابقون السابقون) وطريق ثامن ما روي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال الظالم هم المنافقون، والمقتصد هم التابعون بإحسان والسابق هم أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم -، وطريق تاسع ما روي عن الحسن أيضاً أنه قال السابق الذي ترك الدنيا، والمقتصد الذي أخذ من الحلال، والظالم الذي لا يبالي من أين أخذ، وقيل طريق عاشر السابق الذي رجحت حسناته على سيئاته والمقتصد الذي استوت حسناته مع سيئاته والظالم الذي رجحت سيئاته على حسناته وقيل طريق حادي عشر السابق الذي سره خير من علانيته، والمقتصد الذي سره وعلانيته سواء والظالم الذي علانيته خير من سره، وطريق ثاني عشر السابق الذي تهيأ للصلاة قبل دخول وقتها، والمقتصد الذي تهيأ للصلاة بعد دخول وقتها، والظالم الذي ينتظر الإقامة، وطريق ثالث عشر السابق الذي يتوكل على الله ويجعل جميع جهده في طاعة الله عز وجل والمقتصد الذي يطلب قوته ولا يطلب الزيادة والظالم الذي يطلب فوق القوت والكفاف، وقيل طريق رابع عشر السابق الذي شغله معاده عن معاشه، والمقتصد الذي يشتغل بهما جميعاً والظالم الذي شغله معاشه عن معاده وقيل طريق خامس عشر السابق الذي ينجو بنفسه وينجو غيره بشفاعته والمقتصد الذي يدخل الجنة برحمة الله وفضله والظالم الذي يدخل الجنة بشفاعة الشافعين، وطريق سادس عشر السابق الذي يعطى كتابه بيمينه والمقتصد الذي يعطى كتابه بشماله والظالم الذي يعطى كتابه وراء ظهره وطريق سابع عشر قيل السابق الذي ركن إلى المولى والمقتصد

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٥١/٥ وعزاه للفريابي وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي وانظر تفسير الطبري ٩٠/٢٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٥١/٥، ٢٥٢ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر والبيهقي في البعث.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٥٢/٥ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٥١/٥ وعزاه للطيالسي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والحاكم وابن مردويه.

الذي ركن إلى العقبى والظالم الذي ركن إلى الدنيا، وطريق ثامن عشر ما روي عن يحيـى بن معاذ الرازي قال: الظالم الذي يضيع العمر في الشهوة والمعصية، والمقتصد الذي يحارب فيهما، والسابق الذي يجتهد في الزلات ثم قال لأن محاربة الصديقين في الزلات ومحاربة الزاهدين في الشهوات ومحاربة التائبين في الموبقات وطريق تاسع عشر قال: الظالم يطلب الدنيا تمتعاً والمقتصد الذي يطلب الدنيا تلذذاً والسابق الذي ترك الدنيا تزهداً وطريق العشرين قال: الظالم الذي يطلب ما لم يؤمر بطلبه وهو الرزق، والمقتصد الذي يطلب ما أمر به ولم يؤمر بطلبه، والسابق الذي طلبه مرضات الله ومحبته. وطريق حادي عشرين قيل: الظالم أصحاب الكبائر والمقتصد أصحاب الصغائر والسابق المجتنب عن الصغائر والكبائر، وطريق ثاني عشرين قيل السابق الخارج إلى الغزو والرباطات قبل الناس، والمقتصد الخارج إليها مع الناس الذي يعلـم ويعلم الناس ويعمل به، والمقتصد الذي يعلم ويعلم ولا يعمل به، والظالم الذي لا يعلم ولا يرغب إلى التعليم. وطريق رابع وعشرين السابق الذي هو مشغول في عيب نفسه ولا يطلب عيب غيره، والمقتصد الذي يطلب عيب غيره، والظالم الذي هو مشغول في عيب غيره ولا يصلح عيب نفسه. وطريق خامس وعشرين ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا) إلى قوله (الْفَضْلُ الْكَبِيْرُ) قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هؤلاء كلهم في الجنة أما السابق بالخيرات فإنه يدخل الجنة بغير حساب، وأما المقتصد فإنه يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة، وأما الظالم لنفسه فإنه يحاسب حساباً شديداً ويحبس حبساً طويلاً ثم يدخل الجنة فإذا دخلوا الجنة[١] (قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور)[٢] وقد قيل غير هذا إلا أنه يطول الكلام فيه وفيما ذكرنا كفاية لمن عمل به وأكثر الروايات أن الأصناف الثلاثة كلهم في الجنة مؤمنون وأول الآية وآخرها دليل على ذلك فأما أول الآية فقوله عز وجل (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) يعني: أعطينا الكتاب فأخبر أنه أعطى الكتاب لهؤلاء الثلاثة وقال في آخر الآية: (جنات عدن يدخلونها) فأشار إلى الأصناف [الثلاثة بالآية الأولى حيث قال «وأورثنا الكتاب» والأخرى حيث قال «يدخلونها» ولم يقل يدخلانها وفي الآية الأخرى دليل أن الأصناف الثلاثة هم يدخلون الجنة][٣] وقال بعضهم تأول قول ابن عباس الذي قاله في رواية أبي صالح أن الظالم كافر يعني: كفر النعمة، ومعناه فمنهم من كفر بهذه النعمة ولم يشكر الله عز وجل عليها، ومنهم مقتصد يعني يشكر ويكفر، ومنهم سابق يعني يشكر ولا يكفر، وروي عن كعب الأحبار أنه قيل له ما منعك أن تسلم على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: كان أبي مكنني جميع التوراة إلا ورقات منعني أن أنظر فيها فخرج أبي يوماً لحاجة فنظرت فيها فوجدت فيها نعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته، وأنه يجعلهم يوم القيامة ثلاثة أثلاث ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ويدخلون الجنة بغير حساب وثلث تشفع لهم الملائكة والنبيون فأسلمت وقلت لعلي أكون من الصنف الأول وإن لم أكن من الصنف الأولى لعلي أن أكون من الصنف الثاني أو من الصنف الثالث فلما قرأت القرآن وجدتها في القرآن وهو قوله عز وجل: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ) إلى قوله (جنات عدن يَدْخُلُونَها) الآية، فإن قيل: ايش الحكمة في ذكره الظالم ابتداء وتأخيره ذكر السابق قيل له الحكمة فيه والله أعلم لكيلا يعجب السابق بنفسه ولا ييأس الظالم من رحمة الله عز وجل ثم قال تعالى: ﴿**بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيْرُ**﴾ يعني: الذين أورثهم من الكتاب واختارهم هو الفضل الكبير من الله تعالى.

---

(١) انظر تفسير الطبري ٢٢/٨٨.
(٢) سقط في ظ.
(٣) سقط في ظ.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ يعني: لهم جنات عدن أي دار الإقامة يقال عدن يعدن إذا أقام قرأ أبو عمرو وابن كثير في إحدى الروايتين ﴿يُدْخَلُونَهَا﴾ بضم الياء وفتح الخاء على معنى فعل ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون يدخلونها على معنى أن الفعل لهم(١) ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ يعني: يلبسون الحلي من أساور ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾ قرأ نافع وعاصم ولؤلؤاً بالنصب ومعناه يحلون أساور ولؤلؤاً وقرأ الباقون بالكسر(٢) يعني ذهب ومن لؤلؤ ثم قال: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ يعني: لباسهم في الجنة من حرير الجنة لا كحرير الدنيا قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ يعني: حزن الموت وحزن خوف الخاتمة ويقال: همّ العيش ويقال همّ المرور على الصراط ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ يغفر الذنوب ﴿شَكُورٌ﴾ يقبل اليسير من العمل ويعطي الجزيل عز وجل. ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني: الحمد لله الذي أنزلنا دار الخلود والمقامة والمقام بمعنى واحد يعني: الإقامة والدوام من فضله وكرمه ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ يعني: لا يصيبنا تعب وعناء ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ يعني: لا يصيبنا فيها من أعباء كما يصيبنا في الدنيا ثم بين حال المشركين في النار:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: جحدوا بوحدانية الله عز وجل: ﴿لَهُمْ نَارُ جَهنَّم لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ﴾ الموت ويقال: لا يرسل عليهم ولا ينزل الموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾ حتى يستريحوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ يعني:

---

(١) انظر حجة القراءات ٥٩٣.

(٢) قال ابن زنجلة في الموضع السابق: والتفسير على الخفض أكثر، على معنى يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ، وجاء في التفسير أيضاً أن ذلك الذهب في صفاء اللون كما قال «قواريرا قواريرا من فضة» أي: هو قوارير ولكن بياضه كبياض الفضة ـ انظر حجة القراءات ٥٩٣.

من عذاب جهنم ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ يعني: هكذا نعاقب كل كافر بالله تعالى قرأ أبو عمرو يجزي بالياء والضم ونصب الزاي كل كفور بضم اللام على معنى فعل ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون نجزي بالنون والنصب كل بنصب اللام[١] ومعنى القراءتين يرجع إلى شيء واحد يعني كذلك يجزي الله تعالى، ثم أخبر عن حالهم فيها فقال عز وجل: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي يستغيثون يقال: صرخ يصرخ إذا أغاث واستغاث وهو من الأضداد ويستعمل للإغاثة والإستغاثة لأن كل واحد منهما يصلح وهو افتعال من الصراخ يعني يدعون في النار ويقولون ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ يعني: نعمل غير الشرك وغير المعصية يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ﴾ يعني: أولم نعطكم من العمر والمهلة في الدنيا ﴿مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ يعني: يتعظ فيه من أراد أن يتعظ وروي مجاهد عن ابن عباس في قوله (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ) قال العمر ستون سنة ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ يعني: الشيب والهرم وروي أن إبراهيم الخليل أول من رأى الشيب فقال يا رب ما هذا فقال هذا وقار في الدنيا ونور في الآخرة فقال يا رب زدني وقاراً ويقال (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ) يعني: أولم نعطكم ونطول أعماركم وما يتذكر فيه من تذكر أي مقدار ما يتعظ فيه من يتعظ، وروى أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: لقد أعذر الله إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين سنة[٢] أزال عذره وجاءكم النذير أي الرسول ﴿فَذُوقُوا﴾ العذاب في النار ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ يعني: ما للمشركين من مانع من عذاب الله عز وجل ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: غيب ما يكون في السموات والأرض يعني أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني: عليم بما في قلوبهم ويقال عالم بما في قلوب العباد من الخير والشر ثم قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: قل لهم يا محمد الله تعالى جعلكم سكان الأرض من بعد الأمم الخالية ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾ بتوحيد الله ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ يعني: عاقبة كفره، وعقوبة كفره ﴿وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً﴾ وهو الغضب الشديد الذي يستوجب العقوبة يعني لا يزدادون في طول أعمارهم إلا غضب الله تعالى عليهم وقال الزجاج المقت أشد الغضب ﴿وَلاَ يَزِيْدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً﴾ يعني: غبناً في الآخرة وخسراناً ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: تعبدون من دون الله ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ يعني: أخبروني أي شيء خلقوا مما في السموات أو مما في الأرض من الخلق، وقال القتبي: من بمعنى في يعني أروني ماذا خلقوا في الأرض يعني أي شيء خلقوا في الأرض كما خلق الله عز وجل ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ يعني: عون على خلق السموات والأرض ويقال نصيب في السموات اللفظ لفظ الاستفهام والشك والمراد به النفي يعني ليس لهم شرك في السموات ثم قال ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً﴾ يعني: أعطيناهم كتاباً اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به النفي يعني كما ليس لهم كتاب فيه حجة على كفرهم ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ يعني: ليسوا على بيان مما يقولون قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وعاصم في رواية حفص على بينة بغير ألف وقرأ الباقون بينات بلفظ الجماعة[٣] ومعناهما

---

(١) حجة من قرأ بالياء أن ما أتى في القرآن من المجازاة أكثره على لفظ ما لم يسم فاعله من ذلك «اليوم تجزى كل نفس» ويقوي الياء قوله ﴿ولا يخفف عنهم من عذابهم﴾ ويقوي النون قوله بعدها ﴿أولم نعمركم﴾ انظر حجة القراءات الموضع السابق ـ النشر في القراءات ٢/٣٥٢.

(٢) أخرجه البخاري ١١/٢٤٣ كتاب الرقاق (٦٤١٩).

(٣) حجة من قرأ «بينات» أنها مرسومة في المصاحف بالتاء فدل ذلك على الجمع وحجة الباقين ذكرها اليزيدي فقال: يعني على بصيرة قال: وإنما كتبوها بالتاء كما كتبوا: «بقيت الله» بالتاء وفي التنزيل ما يدل عليه وهو قوله ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ انظر المصدران السابقان وإتحاف فضلاء البشر ٢/٣٩٤.

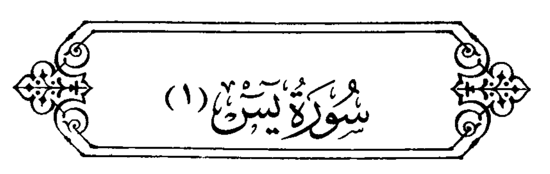
واحد لأن الواحد ينبيء عن الجماعة ثم قال: ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً﴾ يعني: ما يعد الظالمون بعضهم بعضاً يعني: الشياطين للكافرين من الشفاعة لمعبودهم ﴿إِلَّا غُرُوراً﴾ يعني: باطلاً.

إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمسِكُ السَّمٰوَاتِ﴾ يعني: يحفظ السموات ﴿وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ﴾ يعني: لئلا تزولا عن مكانها ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعني: لا يقدر أحد أن يمسكهما، ويقال: ولئن زالتا يعني إن زالتا في الحال وهما لا يزولان ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً﴾ عن قول الكُفَّار حيث قالوا لله ولد فكادت السموات والأرض أن تزولا فأمسكهما بحلمه فلم يزولا ﴿غَفُوراً﴾ يعني: متجاوزاً عنهم إن تابوا ويقال غفوراً حيث لم يعجل عليهم بالعقوبة، وأمسك السموات والأرض أن تزولا وقوله عز وجل: ﴿وأَقْسَموا باللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني: كفار مكة كانوا يعيرون اليهود والنصارى بتكذيبهم أنبيـاءهم وقالـوا لو أرسل الله عز وجل إلينا رسولاً لكنا أهدى من إحدى الأمم وكانوا يحلفون على ذلك فذلك قوله (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِم) فكل من حلف بالله فهو جهد اليمين ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني: رسول ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ﴾ يعني: أصوب ديناً من اليهود والنصارى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً﴾ يعني: ما زداهم الرسول إلا تباعداً عن الهدى قوله عز وجل: ﴿اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ﴾ يعني: تكبراً في الأرض استكباراً مفعول المعنى زادهم الرسول تكبراً هذا كقوله (وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً) وكان القرآن سبباً لخسرانهم فأضاف إليهم ثم قال: ﴿وَمَكْرُ السَّيِّـءِ﴾ يقول قول الشرك واجتماعهم على قتل النبي - صلى الله عليه وسلم - قرأ حمزة ومكر السيـء بجزم الياء وقرأ الباقون بالكسر[1] لتبين الحروف وجزم حمزة لكثرة الحركات ثم قال ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيـءُ إِلا بِأَهْلِهِ﴾ يعني: لا يدور وينزل المكر السيـء إلا بأهله يعني عقوبة المكر ترجع إليهم ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ يعني: ما ينتظرون ﴿إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ﴾ يعني: مثل عقوبة الأمم الخالية أن ينزل بهم مثل ما نزل بالأولين ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ يعني: لصنعة الله تعالى ويقال: لملة الله، ويقال: لسنة الله في العذاب تبديلاً يعني: لا يقدر أحد أن يبدله ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ يعني: تغييراً يعني: لا يقدر أحد أن يغير فعل الله تعالى ثم وعظهم ليعتبروا فقال عز

(١) انظر حجة القراءات (٥٩٤).

وجل: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ**﴾ يعني: أولم يسافروا في الأرض ﴿**فَيَنْظُرُوا**﴾ يعني: فيعتبروا ﴿**كيف كان عاقِبة الَّذِينَ**﴾ يعني: آخر أمر الذين كانوا ﴿**مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً**﴾ يعني: منعة ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ**﴾ يعني: ليسبقه ويفوته من شيء ويقال: لا يقدر أحد أن يهرب من عذابه ﴿**فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً**﴾ بخلقه بأنه لا يفوت منهم أحد ﴿**قَدِيراً**﴾ يعني: قادراً عليهم بالعقوبة قوله عز وجل: ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا**﴾ يعني: ولو عاقبهم ﴿**مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا**﴾ يعني: على ظهر الأرض ﴿**مِنْ دَابَّةٍ**﴾ يعني: لهلكت الدواب من قحط المطر، قال قتادة: ما ترك على ظهرها من دابة إلا أهلكهم كما أهلك من كان في زمان نوح عليه السلام ويقال: من دابة يعني من الجن والإنس فيعاقبهم بذنوبهم فيهلكهم، وقال مجاهد: ما ترك على ظهرها من دابة يعني من هوام الأرض من العقارب ومن الخنافس وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال كاد الجعل أن يعذب في حجره بذنب بني آدم ثم قرأ (ولو يؤاخذ الله الناس) الآية والعرب تكني عن الشيء إذا كان مفهوماً كما كني هاهنا عن الأرض كقوله (مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا) وإن لم يسبق ذكر الأرض ثم قال ﴿**وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾ يعني: إلى الميعاد الذي وعدهم الله تعالى ويقال إلى الوقت الذي وقت لهم في اللوح المحفوظ ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ**﴾ يعني: إلى انقضاء حياتهم، ويقال: هو البعث ثم قال تعالى: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً**﴾ يعني: عالماً بهم وبأعمالهم، روى الزهري عن سعيد بن المسيب قال لما طعن عمر رضي الله عنه قال كعب لو دعى الله عمر لأخر في أجله فقال الناس سبحان الله أليس قد قال الله تعالى: (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ) فقال كعب: وقد قال: (ما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) قال الزهري: فنرى أن ذلك ما لم يحضر الأجل فإذا حضر لم يؤخر وليس أحد إلا وعمره مكتوب في اللوح المحفوظ والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمّي وعلى آله وصحبه وسلم.



وهي ثمانون وثلاث آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿يسٓ﴾ قرأ حمزة بين الكسر والفتح، وقرأ الكسائي بالإمالة، وقرأ الباقون بالفتح، وقرأ ابن

---

(١) من أغراض هذه السورة التحدي بإعجاز القرآن بالحروف المقطعة وبالقسم بالقرآن تنويهاً به وأدمج وصفه بالحكيم إشارة إلى بلوغه أعلى درجات الإحكام والمقصود من ذلك تحقيق رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتفضيل الدين الذي جاء به في كتاب منزل من الله لإبلاغ الأمة الغاية السامية وهي استقامة أمورها في الدنيا والفوز في الحياة الأبدية فلذلك وصف الدين بالصراط المستقيم كما تقدم في سورة الفاتحة.

وأن القرآن داع لإنقاذ العرب الذين لم يسبق مجيء رسول إليهم لأن عدم سبق الإرسال إليهم تهيئة لنفوسهم لقبول الدين إذ ليس فيها شاغل سابق يعز عليهم فراقه أو يكتفون بما فيه من هدى. ووصف إعراض أكثرهم عن تلقي الإسلام وتمثيل حالهم الشنيعة وحرمانهم من الانتفاع بهدي الإسلام وأن الذين اتبعوا دين الإسلام هم أهل الخشية وهو الدين الموصوف بالصراط المستقيم. وضرب المثل لفريقي المتبعين والمعرضين من أهل القرى بما سبق من حال أهل القرية الذين شابه تكذيبهم الرسل تكذيب قريش. وكيف كان جزاء المعرضين من أهلها في الدنيا وجزاء المتبعين في درجات الآخرة. ثم ضرب المثل بالأعم وهم القرون الذين كذبوا فأهلكوا. والرثاء لحال الناس في إضاعة أسباب الفوز كيف يسرعون إلى تكذيب الرسل.

وتخلص إلى الاستدلال على تقريب البعث وإثباته بالاستقلال تارة وبالاستطراد أخرى. مدمجاً في آياته الامتنان بالنعمة التي تتضمنها تلك الآيات. ورامزاً إلى دلالة تلك الآيات والنعم على تفرد خالقها ومنعمها بالوحدانية إيقاظاً لهم. ثم تذكيرهم بأعظم حادثة حدثت على المكذبين للرسل والمتمسكين بالأصنام من الذين أرسل إليهم نوح نذيراً فهلك من كذب ونجا من آمن. ثم سيقت دلائل التوحيد المشوبة بالامتنان للتذكير بواجب الشكر على النعم بالتقوى والإحسان وترقب والجزاء. والإقلاع عن الشرك والاستهزاء بالرسول واستعجال وعيد العذاب. وحذروا من حلوله بغتة حين يفوت التدارك. وذكروا بما عهد الله إليهم مما أودعه في الفطرة من الفطنة. والاستدلال على عداوة الشيطان للإنسان. واتباع دعاة الخير. ثم رد العجز على الصدر فعاد إلى تنزيه القرآن عن أن يكون مفترى صادراً من شاعر بتخيلات الشعراء وسلى الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن لا يحزنه قولهم وأن له بالله أسوة إذ خلقهم فعطلوا قدرته عن إيجادهم مرة ثانية ولكنهم راجعون إليه. فقامت السورة على تقرير أمهات أصول الدين على أبلغ وجه وأتمه من إثبات الرسالة والوحي ومعجزة القرآن وما يعتبر في صفات الأنبياء وإثبات القدر وعلم الله والحشر، والتوحيد، وشكر المنعم، وهذه أصول الطاعة بالاعتقاد والعمل ومنها تتفرع الشريعة وإثبات الجزاء على الخير والشر من إدماج الأدلة من الآفاق والأنفس بتفنن عجيب فكانت هذه السورة جديرة بأن تسمى (قلب القرآن) لأن من تقاسيمها تتشعب شرايين القرآن كله. وإلى وتينها ينصب مجراها.

قال الغزالي: إن ذلك لأن الإيمان صحته باعتراف بالحشر والحشر مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه كما سميت الفاتحة أم القرآن إذ كانت جامعة لأصول التدبر في أفانيه كما تكون أم الرأس ملاك التدبر في أمور الجسد. انظر التحرير ٢٢/٣٤٢ ـ ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

عامر، والكسائي «يس والقُرْآنِ» مدغم بالنون، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو ونافع، وحمزة بإظهار النون، وكل ذلك جائز في اللغة، وقرىء في الشاذ «ياسين» بنصب النون، ومعناه اتل ياسين، لأن يس اسم سورة، وقراءة العامة بالتسكين لأنها حروف هجاء[١] فلا تحتمل الإعراب، مثل قوله تعالى (الۤمۤ) وروي عن ابن عباس في تفسير قوله (يَس) يعني يا إنسان بلغة طيء[٢]، وهكذا قال مقاتل، عن قتادة، والضحاك، وروي عن محمد ابن الحنفية أنه قال (يس) يعني يا محمد، وروى معمر عن قتادة قال (يس) اسم من أسماء القرآن، ويقال افتتاح السورة، وقال مجاهد هذه فواتح السور يفتتح بها كلام رب العالمين، وقال شهر بن حوشب، قال كعب (يس) قسم أقسم الله تعالى به قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي[٣] عام فقال: يس ﴿وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ﴾ ويا محمد ﴿إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ﴾ وقال ابن عباس في قوله (والقُرْآنِ الحَكِيمِ) أي أحكم حلاله وحرامه وأمره ونهيه، ويقال: حكيم يعني محكم من التناقض والعيب، ويقال الحكيم: أي الحاكم كالعليم يعني العالم، يعني القرآن حاكم على جميع الكتب التي أنزلها الله تعالى من قبل «إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ» فهذا جواب القسم، ومعناه يا إنسان، والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين، يعني رسولاً كسائر المرسلين، جواباً لقولهم لست مرسلاً ﴿عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني إنك على صراط مستقيم (ويقال هذا نعت للرسل، يعني إنك لمن المرسلين، الذين كانوا على صراط مستقيم، أي على طريق الإسلام)[٤] ثم قال عز وجل ﴿تَنْزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو، وعاصم في إحدى الروايتين (تَنْزِيلُ) بضم اللام، ومعناه: هذا القرآن تنزيل، أو هو تنزيل العزيز الرحيم، وقرأ الباقون (تَنْزِيلَ) بالنصب، ومعناه نزله تنزيلاً[٥]، فصار نصباً بالمصدر.

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

ثم قوله تعالى ﴿لِتُنْذِرَ﴾ يعني لتخوف بالقرآن ﴿قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ يعني كما أنذر آباؤهم الأولون ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ عن ذلك، يعني عما أنذر آباؤهم ثم قال عز وجل ﴿لَقَد حَقَّ القَوْلُ﴾ أي وجب القول بالعذاب ﴿عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ أي على الكفار، ويقال لقد حق القول، وهو قوله (لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ) ويقال: القول كناية عن العذاب، أي وجب عليهم العذاب ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني لا يصدقون بالقرآن ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً﴾ قال مقاتل:

---

(١) إنما جاز إظهارها وإن كانت تخفى مع حروف الفم ولا تتبين لأن هذه الحروف مبنية على الوقف، ومما يدل على ذلك استجازتهم فيها الجمع بين ساكنين كما يجتمعان في الكلمة التي يوقف عليها، ولولا أن ذلك لم يجز فيها الجمع بينهما وحجة من لم يبين هي وإن كانت في تقدير الوقف لم تقطع فيه همزة الوصل وذلك قوله ﴿ألم الله﴾ ألا ترى أنهم حذفوا الوصل ولم يبينوها كما لم يبينوها مع غيرها فلا يكون التقدير فيها وهي تجري مجرى قوله ﴿من واق﴾ انظر حجة القراءات ٥٩٥ ـ النشر في القراءات ٢/٣٥٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٥٨ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٥٨ وعزاه لابن مردويه عن كعب الأحبار.

(٤) سقط في ظ.

(٥) انظر حجة القراءات ٥٩٥ ـ ٥٩٦، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٩٧.

نزلت في بني مخزوم، وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليدفعنه بحجر، فأتاه وهو يصلي فرفع الحجر ليدمغه، فيبست يده إلى عنقه، والتزق الحجر بيده ورجع إلى أصحابه، فخلصوا الحجر من يده، ورجل آخر من بني المغيرة أتاه ليقتله فطمس الله على بصره فلم ير النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسمع قوله، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه، فذلك قوله تعالى: «إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم سَدّاً وَمِن خَلْفِهِمْ سِدّاً وذكر في رواية الكلبي نحو هذا، وقال بعضهم (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً) أي نجعل في أعناقهم أغلالاً يوم القيامة، ويقال معناه (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً) أي جعلنا أيديهم ممسكة عن الخيرات مجازاة لكفرهم (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم سَدّاً) أي حائلاً لا يهتدون إلى الإسلام، ولا يبصرون الهدى، وقال بعضهم: (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِم أَغْلَالاً). يعني أيديهم، ولم يذكر في الآية اليد، وفيها دليل لأن الغل لا يكون إلا باليد إلى العنق، فلما ذكر العنق فكأنما ذكر اليد، وروي عن ابن عباس، وابن مسعود أنهما قرآ: إنا جعلنا في أيمانهم أغلالاً، وقرأ بعضهم: في أيديهم وكل ذلك يرجع إلى معنى واحد، لأنه لا يجوز أن يكون الغل بأحدهما دون الآخر، كقوله (سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ) ولم يذكر البرد لأن في الكلام دليلاً عليه ثم قال: ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ (أي رددنا أيديهم إلى أعناقهم)[١] إلى الأذقان، أي الحنك الأيسر (فَهُمْ مُقْمَحُونَ) أي رافعو الرأس إلى السماء، غاضو الطرف، لا يبصر موضع قدميه، وقال قتادة: أي مغلولين من كل خير ثم قال عز وجل ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ أي ظلمة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ أي ظلمة ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ بالظلمة ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، يعني خوفتهم، اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التوبيخ (وَسَوَاءٌ عَلَيْهِم ﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ يعني خوفتهم ﴿أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُم لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني أم لم تخوفهم لا يصدقون، إنما نزلت الآية في شأن الذين ماتوا على كفرهم، أو قتلوا على كفرهم، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص (سَدًّا) بنصب السين في كلاهما، وقرأ الباقون بالضم[٢]، وقال أبو عبيدة قراءتنا بالضم لأنهما من فعل الله تعالى، وليس من فعل بني آدم، وقال القتبي: المقمح الذي يرفع رأسه ويغض بصره، يقال بعير قامح: إذا روي من الماء فقمحت عيناه وقال: والسد: الجبل (فَأَغْشَيْنَاهُمْ) يعني أعمينا أبصارهم عن الهدى.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ يعني تخوف بالقرآن من اتبع الذكر، يعني من قبل الموعظة

---

(١) سقط في ظ.

(٢) قال أبو عمرو: (السد: الحاجز بينك وبين الشيء والسد بالضم في العين) وأبوعمرو (ذهب في سورة الكهف (إلى) الحاجز بين الفريقين ففتح) وذهب ها هنا إلى سدة العين فرفع والعرب تقول: (بعينه سدة) والذي / يدل على هذا قوله: ﴿فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ أي: جعلنا على أبصارهم غشاوة فلم يبصروا طريق الهدى والحق. وقال أبو عبيدة: (كل شيء وجدته (العرب) من فعل الله من الجبال والشعاب فهو (سُد) بالضم وما بناه الآدميون فهو سد فمن رفع في سورة الكهف ذهب أنه من صنع الله وهو قوله تعالى: ﴿بين السدين﴾ وذهب في (يس) إلى المعنى وذلك أنه يجوز أن يكون الفتح فيها على معنى المصدر الذي صدر من غير لفظه لأنه لما قال ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً﴾ كأنه قال (وسددنا من بين أيديهم سداً) فأخرج المصدر على معنى الجعل إذ كان معلوماً أنه لم يرد بقوله (سداً) ما أريد في قوله (بين السدين) لأنهما في ذلك الموضع جبلان، وهما ها هنا عارض في العين. انظر حجة القراءات ٥٩٦ ـ ٥٩٧ والنشر ٢/٣٥٣.

وسمع القرآن ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ﴾ يعني أطاعه في الغيب ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ في الدنيا ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ في الآخرة ثم قال عز وجل ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي المَوْتَى﴾ يعني نبعثهم في الآخرة ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ يعني نحفظ ما أسلفوا، وما عملوا من أعمالهم، ويقال (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا) يعني تكتب أعمالهم الكرام الكاتبون، وما عملوا من خير أو شر ﴿وَآثَارَهُم﴾ يعني ما استنوا من سنة خير، أو شر عملوه، واقتدى بهم من بعدهم، فلهم مثل أجورهم أو عليهم مثل أوزارهم، من غير أن ينقص منه شيئاً، وهذا كقوله عز وجل (يُنَبَّؤُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ)، وهذا كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ» إلى آخره، وقال مجاهد: (وَآثَارَهُم) يعني خطأهم، وروي مسروق أنه قال: مَا خَطَا عَبْدٌ خُطْوَةً إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا حَسَنَةٌ أَوْ سَيِّئَةٌ [1]، وروي عن جابر بن عبد الله أنه قال: إن بني سلمة ذكروا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد منازلهم من المسجد، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «يا بني سلمة دياركم فإنما تكتب آثاركم»[2] ثم قال ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ أي حفظناه وبيناه ﴿فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يعني في اللوح المحفوظ.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله عز وجل ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً﴾ أي وصف لهم شبهاً ﴿أَصْحَابَ القَرْيَةِ﴾ أهل القرية وهي أنطاكية ﴿إِذْ جَاءَهَا المُرْسَلُونَ﴾ يعني رسل عيسى عليه السلام ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ قال مقاتل: هما: تومان، وطالوس ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ يعني قويناهما بثالث، وهو شمعون، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر (فَعَزَزْنَا) بالتخفيف، ومعناهما غلبنا، نقول عزه يعزه، إذا غلبه، ومنه قوله تعالى (وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) يعني غلبني في القول، وقرأ الباقون (فَعَزَّزْنَا) بالتشديد[3]، ومعناه قوينا وشددنا الرسالة برسول ثالث، وذلك أن عيسى بن مريم عليهما السلام رسولين إلى أنطاكية، وإنما كان إرساله بإذن الله عز وجل، فأضاف إليه حيث قال (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ) ثم بعث بعد ذلك شمعون، وروي في بعض الروايات أن عيسى عليه السلام أوصى إلى الحواريين أن يتفرقوا في البلدان، ثم رفع عيسى إلى السماء، وكان مجيء الرسل بعدما رفع عيسى، وفي بعض الروايات أنه أرسل الرسل ثم رفع وكان للرسل من المعجزة ما للأنبياء عليهم السلام بدعاء عيسى عليه السلام، فلما جاء الرسولان الأولان ودخلا أنطاكية وجعلا يناديان فيها بالإيمان بالرحمن، يعني يدعوان إلى الإيمان بالله عز وجل ويزجران أهلها عن عبادة الأصنام والشيطان، فأخذوهما شرط الملك، وأتوْا بهما إلى الملك، فلما دخلا على الملك، قالا إن الأوثان التي تعبدون ليست بشيء وإن الهكم الله الذي في السماء، وأن من مات منكم صار إلى النار، فغضب الملك وجلدهما وسجنهما، ثم حضر شمعون، ودخل أنطاكية وجاء إلى السجن فقال للسجان ائذن لي حتى أدخل السجن، فإني أريد أن أدفع إلى كل واحد كسرة خبز، فأذن له فدخل وجعل يعطي لكل واحد كسرة خبز حتى انتهى إلى صاحبيه، فقال لهما إني أريد أن آتي الملك وأطلب فكاكما حتى أخلصكما، فإنكما لم تأتيا الأمر من قبل

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦٠ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه مسلم ١/٤٦٢ كتاب المساجد (٢٨٠ ـ ٦٦٥) وأحمد في المسند ٣/٣٣٣ وأبو عوانة ١/٣٨٨ والطبري في التفسير ٢٢/١٠٠، وأخرجه البخاري من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ «يا بني سلمة ألا تحتسبون آثاركم» البخاري ٢/١٦٦ وفي مسلم (٦٦٢) في المساجد.

(٣) انظر حجة القراءات ٥٩٧ ـ النشر ٢/٣٥٣.

وجهه، ألم تعلما أنكما لا تطاعان إلا بالرفق واللطف، وأن مثلكما مثل امرأة لم تلد زماناً من دهرها، ثم ولدت غلاماً فأسرعت بشأنه فأطعمته الخبز قبل أوانه فغص بلقمة فمات، فكذلك دعوتكما هذا الملك قبل أوان الدعاء فأصابكما البلاء، ثم انطلق شمعون وتركهما فقعد عند بيت الأصنام حتى إذا دخلوا بيت الأصنام، دخل في صلاتهم، فقام بين يدي تلك الأصنام يصلي ويتضرع ويسجد لله تعالى، ولا يشكون أنه على ملتهم، وأنه إنما يدعو آلهتهم ففعل ذلك أياماً، فذكروا ذلك للملك فدعاه وكلمه وقال له من أين أنت؟ فقال: أنا رجل من بني إسرائيل، وقد انقرض أهلي وكنت بقيتهم وجئت إلى أصحابك آنس بهم وأسكن إليكم، فسأله الملك عن أشياء فوجده (حسن التدبير والرأي) فلبث فيهم ما شاء الله، فلما رأى أمره قد استقام قال يا أيها الملك إنِّي قد بلغني أنك سجنت رجلين منذ زمان، يدعوانك إله غير إلهك فهل لك أن تدعوهما فاسمع كلاهما، وأخاصمهما عنك؟ فقال الملك: نعم فدعاهما وأقيما بين يديه فقال لهما شمعون أخبراني عن الهكما؟ فقالا إنه يبرىء الأكمه، والأبرص[1] فدعي برجل ولد أعمى فدعوا الله تعالى فأبصر الأعمى، قال شمعون: فأنا أفعل مثل ذلك فأتي بآخر فدعى شمعون رضي الله عنه فبرىء فقال لهما شمعون لا فضل لكما عليّ بهذا، ثم أتي برجل أبرص فدعوا فبرىء، وفعل شمعون بآخر مثل ذلك، فقال لهما شمعون: فهل عندكما شيء غير هذا؟ فقالا نعم، إن ربنا يحيي الموتى فقال شمعون: أنا لا أقدر على ذلك ثم قال للملك هل لك أن تأتي بالصنم فلعله يحيي الموتى، فيكون لك الفضل عليهما ولإلاهك؟ فقال الملك: إنك تعلم أنه لا يسمع ولا يبصر، فكيف يحيي الموتى؟، ثم قال له شمعون: سلهما هل يستطيعان أن يفعلا مثل ما قالا؟ فقال الملك: إن عندنا ميتاً قد مات منذ سبعة أيام، وكان لأبيه ضيعة قد خرج إليها، وأهله ينتظرون قدومه واستأذنوا في دفنه فأمرتهم أن يؤخروه حتى يحضر أبوه، فَأَمَرَهم بإحضار ذلك الميت فلم يزالا يدعوان الله تعالى وشمعون يعينهما بالدعاء في نفسه حتى أحياه الله تعالى، فقال شمعون أنا أشهد أنهما صادقان، وإن إلههما حق، فاجتمع أهل المصر وقالوا: إن كلمتهم كانت واحدة، فرجموهم بالحجارة، وجاء أب الغلام فأسلم، وقتل أب الغلام أيضاً وهو حبيب بن إسرائيل النجار ثم إن الله عز وجل بعث جبريل عليه السلام فصاح صيحة فماتوا كلهم، فذلك قوله تعالى (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴿فَقَالُوا﴾ يعني هؤلاء الثلاثة ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُرْسَلُونَ﴾ وأروهم العلامة.

قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

قوله عز وجل ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ يعني آدمي مثلنا ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني لم يرسل الرسل من الأدميين ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ بأنكم رسل الله تعالى يعني أرسلكم عيسى بأمر الله تعالى، فأنكروا ذلك ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ يعني أن الرسل قالوا ربنا يعلم ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ يعني أرسلنا عيسى عليه السلام بأمر الله تعالى ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ يعني قال أهل أنطاكية إنا تشاءمنا بكم، وهذا الذي

---

(١) البرص: بياض يقع في الجسد لعلة ـ انظر المعجم الوسيط ١/ ٤٩.

يصيبنا من شؤمكم وهو قحط المطر ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ يعني لنقتلنكم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ يعني شؤمكم معكم وبأعمالكم الخبيثة، ويقال: إن الذي يصيبكم كان مكتوباً في أعناقكم ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ يعني إن وعظتم بالله، قرأ نافع، وأبو عمرو (آين) بهمزة واحدة ممدودة، وقرأ الباقون بهمزتين، وقرأ زر بن حبيش: إنْ ذكرتم بهمزة واحدة مع التخفيف والفتح[1] يعني: لأنكم وعظتم فلم تتعظوا، ومن قرأ بالاستفهام فمعناه: إن وعظتم تطيرتم، قالوا: هذا جواباً لقولهم إنا تطيرنا بكم، ويقال معناه: أئن ذكرتم، يعني حين وعظتم بالله تشاءمتم بنا، ثم قال ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ يعني مشركون.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢)﴾

قوله تعالى ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ يعني من وسط المدينة، وهو حبيب بن إسرائيل النجار ﴿رَجُلٌ يَسْعَى﴾ يعني يسعى في مشيه، وقال بعضهم هو الذي عاش ابنه بعد الموت بدعاء الرسل، فجاء وأسلم، وقال بعضهم: كان ابنه مريضاً فبرىء بدعوة الرسل، فصدق بهم، فلما بلغه أن القوم أرادوا قتل الرسل جاء ليمنع الناس عن قتلهم، وقال قتادة: كان في غار يدعو ربه، فلما بلغه مجيء الرسل أتاهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني دين المرسلين، ثم قال للرسل هل تسألون على هذا أجراً؟ فقالوا لا، فقال للقوم: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً﴾[2] يعني على الإيمان ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ يدعوكم إلى التوحيد، فقال له قومه: تبرأت عن ديننا واتبعت دين غيرنا فقال ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ يعني خلقني، قرأ حمزة وابن عامر في إحدى الروايتين (وَمَالِي) بسكون الياء، وقرأ الباقون بالفتح[3]، وهما لغتان وكلاهما جائز ثم قال ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني تصيرون إليه بعد الموت، وهذا كقوله «وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» فقالوا له ارجع إلى ديننا، فقال حبيب ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ يعني أعبد من دونه أصناماً ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ يعني ببلاء وشدة إذا فعلت ذلك ﴿لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ يعني لا تقدر

---

(١) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٥٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦١ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٣) سئل أبو عمر عن الحكمة في تسكينة «مالي لا أرى» بالنمل وفتحه «مالي لا أعبد». فأجاب بما معناه أن التسكين ضرب من الوقف فلو سكن هنا لكان كالمستأنف بـ «لا أعبد» وفيه مافيه ولا كذلك موضع النمل انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٣٩٩.

الآلهة أن يشفعوا لي ﴿وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ يعني لا يدفعون عني الضرر ﴿إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يعني إني إذا فعلت ذلك لفي خسران بين ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ يعني فاشهدوني وأعينوني بقول: لا إله إلا الله وقال ابن عباس: أُلقي في البئر، وهو الرس، كما قال (وَأَصْحَابُ الرَّسِ)، وقال قتادة قتلوه بالحجارة وهو يقول: رب اهد قومي فإنهم لا يعلمون[١]، وقال مقاتل أخذوه ووطؤوه تحت أقدامهم حتى خرجت أمعاؤه ثم ألقي في البئر، وقتلوا الرسل الثلاثة فلما ذهب بروح حبيب النجار إلى الجنة فـ ﴿قِيلَ﴾ له ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ وذلك حين دخلها وعاين ما فيها من النعيم، تمنى أن يسلم قومه، فقال (يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بما غفر لي ربي) بالذي غفر لي ربي، ويقال: بمغفرتي، ويقال: بماذا غفر لي ربي، فلو علموا لآمنوا بالرسل، ثم قال ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ أي الموحدين في الجنة نصح لهم في حياته، وبعد وفاته، يقول الله تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني من بعد حبيب النجار (من جند) من السماء يعني الملائكة ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ يعني لم نبعث إليهم أحداً ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يعني ما كانت إلا صيحة جبريل عليه السلام ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ يعني ميتون لا يتحركون ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ﴾ يعني يا ندامة على العباد في الآخرة، يعني يقولون يا حسرتنا على ما فعلنا بالأنبياء عليهم السلام ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ثم خوف المشركين بمثل عذاب الأمم الخالية ليعتبروا، فقال ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ يعني ألم يعلموا، ويقال: ألم يخبروا كم أهلكنا ﴿قَبْلَهُم مِنَ القُرُونِ﴾ يعني كم عاقبنا من القرون الماضية ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الدنيا ﴿وَإِن كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ قرأ عاصم وحمزة وابن عامر، بتشديد الميم، وقرأ الباقون بالتخفيف[٢]، فمن قرأ بالتشديد فمعناه: وما كل إلا جميع، ومن قرأ بالتخفيف فما: زائدة ومؤكدة، والمعنى وإن كل لجميع لدينا محضرون، يعني يوم القيامة محضرون عندنا، ثم وعظهم كي يعتبروا من صنعه، فيعرفوا توحيده.

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ﴾ يعني علامة وحدانيته ﴿الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ يعني الأرض اليابسة أحييناها بالمطر لتنبت ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ يعني الحبوب كلها ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ يعني وخلقنا في الأرض ﴿جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يعني البساتين والكروم ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ يعني أجرينا في الأرض الأنهار تخرج من العيون ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ يعني من الثمرات ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني لم تعمل أيديهم، ويقال: والذي عملت أيديهم مما يزرعون ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ رب هذه النعم فيوحدوه، وقرأ حمزة والكسائي (ثُمُره) بالضم، وقرأ الباقون بالنصب، والثَّمر بالنصب[٣]: جماعة الثمرة، والثمرات جمع الجمع وهو الثمر، مثل كتاب وكتب، والثُّمر بالضم: جمع الثمار، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر (وَمَا عَمِلَتْ) بغير هاء، وقرأ الباقون بالهاء[٤]، ومعناهما

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦١ نفس التخريج السابق.

(٢) انظر حجة القراءات ٥٩٧ النشر ٢/٣٥٣.

(٣) انظر المصدران السابقان.

(٤) حجة من قرأ بالهاء أنها كذلك في مصاحفهم فالهاء عائدة على (ما) و (ما) في معنى الذي. وموضع (ما) خفض نسقاً على ثمرة؛=

واحد، ثم قال (أَفَلاَ يَشْكُرُونَ) اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به الأمر، يعني اشكروا رب هذه النعم ووحدوه.

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

ثم قال عز وجل ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا**﴾ يعني تنزيهاً لله عز وجل الذي خلق الأصناف كلها ﴿**مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ**﴾ يعني ألواناً من النبات، والثمار، ففي كل شيء خلق الله تعالى دليلاً على وحدانيته تعالى وربوبيته ﴿**وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾ يعني خلق من جنسهم أصناف الذكر والأنثى، وألواناً مختلفة ﴿**وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ يعني وخلق من الخلق ما لا يعلمون، وهذا كقوله (وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) ثم ذكر لهم دلالة أخرى ليعتبروا بها فقال عز وجل ﴿**وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ**﴾ يعني علامة وحدانيته الليل ﴿**نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ**﴾ يعني نخرج ونميز منه النهار ﴿**فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ**﴾ يعني داخلون في الظلمة، ويقال: يبقون في الظلمة، ويقال: إن الله خلق الدنيا مظلمة، ثم قال ﴿**والشَّمْسُ**﴾ سراجاً، فإذا طلعت الشمس صارت الدنيا مضيئة، وإذا غربت الشمس بقيت الظلمة كما كانت، وهو قوله تعالى (نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ) يعني ننزع الضوء منه (فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ) يعني يبقون في الظلمة، ويقال: نسلخ الليل يعني نخرج منه النهار إخراجاً لا يبقى منه شيء من ضوء النهار، كما نسلخ الليل من النَّهار، فكذلك نسلخ النهار من الليل، فكأنه يقول: الليل نسلخ منه النهار، والنهار نسلخ منه الليل، فاكتفى بذكر أحدهما لأن في الكلام دليلاً، وقد ذكر في آية أخرى قال (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) ثم قال عز وجل والشمس ﴿**تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا**﴾ قال مقاتل: يعني لوقت لها، وقال الكلبي: تسير في منازلها حتى تنتهي إلى مستقرها ولا تتجاوزها، ثم ترجع إلى أول منازلها، وقال القتبي (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا) يعني إلى مستقر لها، ومستقرها أقصى منازلها في الغروب، وذلك لأنها لا تزال تتقدم في كل ليلة حتى تنتهي إلى أبعد مغاربها، ثم ترجع، فذلك مستقرها لأنها لا تجاوزها، وطريق آخر ما روي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال كنت جالساً مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند غروب الشمس، فقال: يا أبا ذر: أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تغرب، وتذهب حتى تسجد تحت العرش وتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تستأذن فلا يؤذن لها حتى تستشفع وتطلب، فإذا طال عليها قيل لها اطلعي

= المعنى: ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم قال الزجاج: ويجوز أن يكون (ما) نفياً وتكون الهاء عائدة على (الثمر) فلا موضع لـ (ما) حينئذ ويكون المعنى: ليأكلوا من ثمره ولم تعمله أيديهم قال السدي قوله: ﴿**وما عملته أيديهم**﴾ **يقول**: نحن عملناه نحن أنبتناه ولم يعملوه هم ويقوي النفي قوله: ﴿**أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون**﴾ ويقوي إثبات الهاء قوله تعالى: ﴿**كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان**﴾ ولم يقل (يتخبط) فكذلك قوله: (عملته) وحجة من حذف الهاء إجماع الجميع على حذف الهاء في قوله ﴿**مما عملت أيدينا أنعاماً**﴾ و (ما) في قوله ﴿**ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم**﴾ قال الزجاج: إذا حذفت الهاء فالاختيار أن يكون (ما) في موضع خفض فيكون في معنى (الذي) فيحسن حذف الهاء. واعلم أن العرب تضمر الهاء عائدة على (من) و (الذي) و (ما) وأكثر ما جاء في التنزيل من هذا على حذف الهاء كقوله: ﴿**أهذا الذي بعث الله رسولاً**﴾. أي بعثه الله وقال: (وسلام على عباده الذين اصطفى) أي: اصطفاهم وقال: ﴿**لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم**﴾ ومنهم من كلم الله أي كلمه الله وكل هذا على إرادة الهاء وإنما حذفوا اختصاراً وإيجازاً. انظر حجة القراءات ٥٩٨، ٥٩٩.

مكانك[1] فذلك قوله (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا) قال مستقرها تحت العرش ثم قال ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ العزيز بالنقمة، العليم بما قدره من أمرها وخلقها، وروى عمرو بن دينار، عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «والشَّمْسُ تَجْرِي لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا»[2] يعني لا تقف ولا تستقر، ولكنها جارية أبداً ثم قال عز وجل ﴿وَالقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو (والقَمَرُ) بالضم، وقرأ الباقون بالنصب[3]، فمن قرأ بالضم فله وجهان أحدهما أن يكون على الابتداء، والآخر معناه وآية لهم القمر، عطف على قوله (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ) ومن قرأ بالنصب فمعناه: وقدرنا القمر، وقال مقاتل في قوله (وَالقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ) يعني قدرناه منازل في السماء يبدو رقيقاً، ثم يستوي، ثم ينقص في آخر الشهر، وقال الكلبي (قدرناه منازل) أي قدرناه منازل بالليل، ينزل كل ليلة في منزل، ويصعد في منزل حتى ينتهي إلى مستقره الذي لا يجاوزه، ثم يعود إلى أدنى منازله، ويقال: إن القمر يدور في منازله في شهر واحد، مثل ما تدور الشمس في منازلها في سنة واحدة، قال مقاتل وذلك أن القمر عرضه ثمانون فرسخاً مستديرة، والشمس هكذا، وكان ضوؤهما واحداً، فأخذ تسعة وتسعون جزءاً من القمر فألحقت بالشمس، وروي عن ابن عباس أنه قال: القمر أربعون فرسخاً في أربعين فرسخاً، والشمس ستون فرسخاً في ستين فرسخاً، وقال بعضهم: القمر والشمس عرض كل واحد منهما مثل الدنيا كلها، ثم قال تعالى ﴿حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ[4] القَدِيمِ﴾ يعني صار كالعذق[5] اليابس المنقرس الذي حال عليه الحول، ويقال: للقمر ثمانية وعشرون منزلاً، فإذا صار في آخر منازله دق حتى يعود كالعذق اليابس، والعرجون إذا يبس: دق واستقوس فشبه القمر به، يعني صار في عين الناظر كالعرجون، وإن كان هو في الحقيقة عظيم بنفسه، إلا أنه في عين الناظر يراه دقيقاً ثم قال عز وجل ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ﴾ يعني أن تطلع في سلطان القمر، وقال عكرمة: لكل واحد منهما سلطان، للشمس سلطان بالنهار، وللقمر سلطان بالليل، فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل[6] ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يعني لا يدرك سواد الليل ضوء النهار فيغلبه على ضوئه ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يعني في دوران يجرون ويدورون، ويقال «يسبحون» يعني يسيرون فيه بالانبساط، وكل من انبسط في شيء فقد سبح فيه، وقال بعضهم: السماء كالموج المكفوف[7] والشمس والقمر والكواكب الدوارة يسبحون فيها، وقال بعضهم الأفلاك كثيرة، مختلفة في السير، تقطع القمر في ثمانية وعشرين يوماً، والشمس تقطع في سنة، وقال بعضهم: الفلك واحد، وجريهن مختلف، والفلك في اللغة[8]: كل ما يدور.

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦٣ وعزاه لعبد بن حميد والبخاري والترمذي وابن أبي حاتم وابن الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات والحديث عند البخاري في ٨/٤٠٢ (٤٨٠٢) وعند الترمذي ٥/٣٣٩ (٣٢٢٧).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦٣ وعزاه لأبي عبيد في فضائله وابن الأنباري في المصاحف وأحمد.

(٣) انظر حجة القراءات ٥٩٩ ـ النشر ٢/٣٥٣.

(٤) العرجون: العذق عامة، وقيل: هو أصل العذق إذا يبس واعوج، وقيل: هو أصل العذق الذي يعوج وتقطع منه الشماريخ ـ انظر لسان العرب ٤/٢٨٧١.

(٥) العذق كل غصن له شعب ـ انظر لسان العرب ٤/٢٨٦١.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦٤ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٧) كففته عنه: دفعته وصرفته عنه ـ انظر ترتيب القاموس ٤/٦٦.

(٨) انظر لسان العرب ٥/٣٤٦٤.

﴿نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

ثم قال عز وجل ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ﴾ يعني علامة لكفار مكة على معرفة وحدانية الله تعالى ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يعني آباءهم، واسم الذرية: يقع على الآباء والنسوة والصبيان، وأصله الخلق، كقوله عز وجل (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً) يعني خلقنا، ويقال: ذريتهم خاصة، ثم قال ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ يعني في سفينة نوح عليه السلام الموقرة، المملوءة، يعني حملنا ذريتهم في أصلاب آبائهم، قرأ نافع وابن عامر «ذُرِّيَاتِهِمْ» بلفظ الجماعة، وقرأ الباقون (ذُرِّيَّتَهُمْ)[1] وأراد به الجنس ثم قال عز وجل ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ يعني من مثل سفينة نوح عليه السلام ما يركبون في البحر، وقال قتادة يعني الإبل يركب عليها في السير كما تركب السفن في البحر، وقال السدي (وَخَلَقْنَا لَهُم مِن مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ) فقال هذه السفن الصغار، يعني الزوارق، وقال عبد الله بن سلام: هي الإبل، قال الفقيه أبو الليث رحمه الله أخبرني الثقة بإسناده عن أبي صالح قال: قال لي ابن عباس: ما تقول في قوله (وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ) قلت: هي السفن، قال: خذ مني بآذان إنما هي الإبل، فلقيني بعد ذلك فقال: إني ما رأيتك إلا وقد غلبتني فيها، هي كما قلت، ألا ترى أنه يقول ﴿وَإِن نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾[2] يعني إن نشأ نغرقهم في الماء ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ يعني لا مغيث لهم ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ يعني لا يمنعون فلا ينجون من الغرق قوله عز وجل ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ يعني إلا نعمة منا حين لم نغرقهم، ويقال معناه: لكن رحمة منا بحيث لم نغرقهم ﴿وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ يعني بلاغاً إلى آجالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ يعني: ما بين أيديكم من أمر الآخرة. فاعملوا لها، وما خلفكم من أمر الدنيا فلا تغتروا بها، وقال مقاتل: اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ) لكيلا يصيبكم مثل عذاب الأمم الخالية (وَمَا خَلْفَكُمْ) يعني :واتقوا مابين أيديكم أي :من عذاب الآخرة، والأول قول الكلبي ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يعني: لكي ترحموا فلا تعذبوا ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِن آيَةٍ مِن آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ مثل انشقاق القمر ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يعني: مكذبين، وهذا جواب لقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ الآية، ثم أخبر عن حال زنادقة الكفار فقال عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني: تصدقوا من المال

(١) انظر حجة القراءات (٦٠٠) النشر ٢/٣٥٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦٤ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

الذي أعطاكم الله عز وجل. ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ على وجه الاستهزاء منهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يعني: في خطأ بين، قال بعضهم هذا قول الكفار الذين أمرهم بالنفقة وقال بعضهم: هذا قول الله تعالى يعني قل لهم يا محمد، إن أنتم إلا في ضلال مبين، وروي عن ابن عباس مثل هذا ثم قال عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني: متى هذا الوعد الذي تعدونا به يوم القيامة إن كنتم صادقين بأنا نبعث بعد الموت فيقول الله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ بالعذاب ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يعني: لا حظر لإهلاكهم فليس إلا صيحة واحدة ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر، يخصمون بكسر الياء والخاء، وقرأ نافع يخصمون بنصب الياء وسكون الخاء وقرأ الكسائي وعاصم في رواية حفص وابن عامر في إحدى الروايتين بنصب الياء وكسر الخاء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بنصب الياء والخاء وقراءة حمزة (يَخْصِمُونَ) بنصب الياء وجزم الخاء بغير تشديد[1]، ومعناه تأخذهم وبعضهم يخصم بعضاً، ومن قرأ بالتشديد فالأصل فيه يختصمون فأدغمت التاء في الصاد وشددت ومن قرأ بنصب الخاء طرح فتحة التاء على الخاء، ومن قرأ بكسر الخاء فلسكونها وسكون الصاد. وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص لينفخن في الصور والناس في طرقهم وأسواقهم حتى أن الثوب ليكون بين الرجلين يتساومان فما يرسله واحد منهما حتى ينفخ في الصور فيصعق به، وهي التي قال الله تعالى: (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُم يَخِصِّمُونَ) قال الفقيه أبو الليث رحمه الله وأخبرني الثقة بإسناده عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال تقوم الساعة والرجلان يتبايعان الثوب فلا يطويانه ولا يتبايعانه، وتقوم الساعة والرجل يحلب الناقة فلا يصل الإناء إلى فيهِ، وتقوم الساعة وهو يلوط[2] الحوض فلا يسقي فيه ثم قال[3] تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ يعني: يموتون من ساعتهم بغير وصية فلا يستطيعون أن يوصوا إلى أهلهم بشيء ﴿وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعني: ولا إلى منازلهم يرجعون من الأسواق. فأخبر الله تعالى بما يلقون (في النفخة الأولى) ثم أخبر بما يلقون في النفخة الثانية يعني: إذا بعثوا من قبورهم بعد الموت، فذلك قوله ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ من القبور ﴿إِلَى رَبِّهِم يَنْسِلُونَ﴾ يعني: يخرجون من قبورهم أحياء وكان بين النفختين أربعين عاماً في رواية ابن عباس وقيل أكثر من ذلك، ورفع العذاب عن الكفار بين النفختين، فكأنهم رقدوا فلما بعثوا ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَرْقَدِنَا﴾ يعني: من أيقظنا من منامنا قال: فيقول لهم الحفظة من الملائكة ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ على ألسنة الرسل ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ بأن البعث حق، ويقال إن المؤمنين هم الذين يقولون (هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) بأن البعث كائن.

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾

(١) انظر حجة القراءات (٦٠٠) النشر ٢/٣٥٣.

(٢) لاط الوض بالطين: طلاه وملسه به ـ انظر المعجم الوسيط ٢/٨٥٣.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦٥ وعزاه لسعيد بن منصور والبخاري ومسلم وابن المنذر وأبي الشيخ.

ثم قال عز وجل: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ قال الكلبي يعني في الآخرة، وقال مقاتل في بيت المقدس «لحسابهم» ثم قال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ يعني: يوم القيامة لا تنقص نفس مؤمنة ولا كافرة من أعمالهم شيئاً ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ﴾ يعني: ولا تثابون ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر ثم قال: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ يعني: يوم القيامة في شغل مما هم فيه أي عن الذي هم فيه فاكهون يعني ناعمين، قرأ ابن كثير، ونافع وأبو عمرو (في شغل) بجزم الغين وقرأ الباقون بالضم وهما لغتان، يقال شغْل وشغُل مثل عُذْر وعذُر وعمْر وعمر، قرأ أبو جعفر المدني (فكهون) بغير ألف. وقراءة العامة (فاكهون) بالألف[1] فمن قرأ بغير ألف يعني: يتفكهون، قال أبو عبيد يقال للرجل إذا كان يتفكه بالطعام أو بالشراب، أو بالفاكهة، أو بأعراض الناس إن فلاناً يتفكه، ومنه يقال للمزاحة فكاهة، ومن قرأ بالألف يعني ذوي فاكهة وقال الفراء: فاكهة، وفكهة لغتان، كما يقال حذر وحاذر، وروي في التفسير (فاكهون) يعني ناعمون، وفكهون: معجبون، وقال الكلبي ومقاتل في قوله: (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) الآية، يعني شغلوا بالنعيم في افتضاض لأبكار العذارى[2] عن أهل النار فلا يذكرونهم، يعني معجبين بما هم فيه من النعم والكرامة، قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: حدثنا محمد بن الفضل بإسناده عن عكرمة في قوله (فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ) قال في افتضاض الأبكار[3]، وروى زيد بن أرقم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: إن الرجل ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع، فقال رجل من أهل الكتاب إن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة فقال الرسول يفيض من جسد أحدهم عرق مثل المسك الأذفر فيضمر بذلك بطنه»[4]، ثم قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي (فِي ظُلَلٍ) وقرأ الباقون (فِي ظِلَالٍ)[5]، فمن قرأ (فِي ظُلَلٍ) فهو جمع الظلة، يقال ظلة وظلل، مثل حلة وحلل، ومن قرأ بكسر الظاء فهو جمع الظل، يعني هم في ظلال العرش والشجر، ويقال معنى القراءتين يرجع إلى شيء واحد، يعني إن أهل الجنة هم وأزواجهم الحور العين في القصور ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ يعني: على السرر عليها الحجال، وروى مجاهد عن ابن عباس قال: الأرائك سرر في الحجال، وقال الكلبي: لا تكون أريكة إلا إذا اجتمعتا، فإذا تفرقا فليست بأريكة (مُتَّكِئُونَ) أي ناعمون، وإنما سمي هذا لأن الناعم يكون متكئاً، ثم قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ يعني: لهم في الجنة من أنواع الفاكهة ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ يعني: ما يتمنون مما يشتهوا من الخير ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ يعني: يرسل إليهم ربهم بالتحية والسلام، والعرب تقول: ادّعي ما شئت يدعون: يتمنون فقوله عز وجل: «سلام قولا» يعني: يقال لهم سلام، كأنهم يتلقونه بالسلام من رب رحيم، ويقال (وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ سَلَامٌ) يعني: لهم ما يشاؤون خالصاً، ثم قال: (قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ).

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا

(١) انظر النشر ٢/٣٥٣.

(٢) العذراء: البكر الجمع عذارى وعذار، والعذرة: البكارة ـ انظر المعجم الوسيط ٢/٥٩٦.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦٦ وعزاه لعبد بن حميد عن عكرمة وقتادة.

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/١١٦.

(٥) حجة حمزة إجماع الجميع على قوله «في ظلل من الغمام» وقال «ظلل من النار» فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى وحجة الباقين قوله «يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل» انظر حجة القراءات ٦٠١.

تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾

يقول الله تعالى: [«وامتازوا اليوم» وذلك أنه إذا كان يوم نادى مناد][1] ﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**﴾ يعني: اعتزلوا أيها الكفار من المؤمنين فإنهم قد تأذوا منكم في الدنيا فاعتزلوهم حتى ينجوا منكم ويقال: إن المنادي ينادي أيها المجرمون امتازوا فإن المؤمنين قد فازوا، وأيها المنافقون امتازوا فإن المخلصين قد فازوا، ويا أيها الفاسقون امتازوا فإن الصالحين قد فازوا، ويا أيها العاصون امتازوا فإن المطيعين قد فازوا، ثم يقول للكفار والمنافقين بعدما امتازوا ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ**﴾ يعني: ألم أتقدم إليكم، ويقال: ألم أبين لكم في القرآن، ويقال: ألم أوضح لكم (يَا بَنِي آدَمَ) بالكتاب والرسل. وقال القتبي: العهد يكون لمعان: يكون للأمانة كقوله: «فَأَتِمُّوا إِلَيْهِم عَهْدَهُمْ»: ويكون لليمين ويكون للميثاق، ويكون للزمان، كما يقال: كان ذلك في عهد فلان: أي في زمانه ويكون العهد للوصية كقوله ﴿**أَلَمْ أَعْهَد إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**﴾ يعني: أن لا تطيعوا الشيطان، قال ابن عباس من أطاع شيئاً فقد عبده ﴿**إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾ يعني: بين العداوة ﴿**وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**﴾ يعني: أطيعوني ووحدوني يعني: هذا التوحيد طريق مستقيم ويقال دين الإسلام هو طريق مستقيم لا عوج فيه وهو طريق الجنة قوله عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جَبِلًّا كَثِيراً**﴾ يعني: خلقاً كثيراً، وقرأ نافع وعاصم (جِبِلا) بكسر الجيم والباء والتشديد، وقرأ أبو عمرو وابن عامر (جبلا) بضم الجيم وجزم الباء، والباقون بضم الجيم والباء[2]، ومعنى ذلك كله واحد، وقال أهل اللغة:[3] الجبل والجبلة كله بمعنى واحد، يعني الناس الكثير ﴿**أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ**﴾ ما فعل بمن كان قبلكم فتعتبروا فلم تطيعوه، فلما دنوا من النار قال لهم خزنتها ﴿**هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ في الدنيا فلم تصدقوا بها ﴿**اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**﴾ يعني: اصلوها اليوم بما كفرتم في الدنيا عقوبة لكم في الدنيا ﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِم**﴾ وذلك حين قالوا: «وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» ﴿**وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ يعني: يعملون من الشرك والمعاصي ثم قال: ﴿**وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ**﴾ قال مقاتل: يعني لو نشاء لحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى ﴿**فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ**﴾ يعني: ولو طمست الكفر لاستبقوا الصراط، أي لجازوا الطريق ﴿**فَأَنَّى يُبْصِرُونَ**﴾ يعني: فمن أين يبصرون الهدى بعدما جعلت قلوبهم قاسية، وجعلت على أعمالهم غطاء وَأَكِنَّةً على قلوبهم قال الكلبي: ولو نشاء لفقأنا أعين الضلالة فأبصروا الهدى واستبقوا الطريق (فَأَنَّى يُبْصِرُونَ) الطريق، ويقال: فأنى يبصرون الهدى، وقال بعضهم ولو نشاء لأعمينا أبصارهم في أسواقهم ومجالسهم كما فعلنا بقوم لوط عليه السلام حين كذبوه وراودوه عن ضيفه (فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ) يعني: فابتدروا الطريق هرباً إلى منازلهم ولو فعلنا ذلك بهم.

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذلك أنه جمع جبيلاً، وجبيل معدول عن «مجبول» مثل قتيل من مقتول وصريع من مصروع ثم جمع الجبيل جبلاً كما يجمع السبيل سبلاً والطريق طرقاً وقالوا: لا ضرورة إلى إسكان حرف مستحق للتحريك /انظر حجة القراءات ٦٠٢ ـ النشر ٣٥٥/٢ إتحاف فضلاء البشر ٤٠٣/٢.

(٣) انظر لسان العرب ٥٣٨/١.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)﴾

ثم قال عز وجل: ﴿**وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ**﴾ يعني: إن شئت لمسختهم حجارة في منازلهم، ليس فيها أرواح ﴿**فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِياً وَلَا يَرْجِعُونَ**﴾ ولا يتقدمون ولا يتأخرون. وهذا قول مقاتل. وقال الكلبي: لو نشاء لجعلناهم قردة وخنازير (فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِياً) يعني: فما قدروا ذهاباً ولا يرجعون قوله عز وجل ﴿**وَمَنْ نُعَمِّرْهُ**﴾ يعني: من أطلنا عمره في الدنيا ﴿**نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ**﴾ يعني: نرده إلى أرذل العمر فلا يعقل فيه كعقله الأول. قرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر (نُنَكِّسْهُ) بضم النون الأولى ونصب الثانية وكسر الكاف مع التشديد وقرأ الباقون (نَنْكِسه) بنصب النون الأولى وجزم الثانية وضم الكاف والتخفيف[1]، ومعناهما واحد يقال نكسَه ونكَّسه وأنكسه بمعنى واحد، ومعناه من أطلنا عمره نكسنا خلقه، فصار بدل القوة ضعفاً، وبدل الشباب هرماً، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر (مكاناتهم) وقرأ الباقون (مكانتهم)[2] والمكانة والمكان واحد، مثل المنزل والمنزلة، والمكانات جمع المكانة ثم قال: ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ يعني: أفلا تفهمون أن الله هو الذي يفعل ذلك فتوحدوه وليس لمعبودهم قدرة على ذلك. قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ الباقون بالياء[3] على معنى الخبر وقرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة (وَأَنِ اعْبُدُونِي) بالياء وقرأ الباقون بغير ياء لأن الكسر يدل عليه ثم قال عز وجل: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ**﴾ جواباً لقولهم إنه شاعر، يعني أرسلنا إليه القرآن ولم نرسل إليه الشعر ﴿**وَمَا يَنْبَغِي لَهُ**﴾ يعني: لم يكن أهلاً لذلك وقال: ما يسهل له، وما يحضره الشعر ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ**﴾ يعني: ما هو إلا عظة وقرآن مبين يعني: يبين الحق من الضلالة، وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أنه قال: سألت عائشة رضي الله عنها هل كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت كان أبغض الحديث إليه الشعر، ولم يتمثل بشيء من الشعر إلا ببيت أخي بني قيس بن طرفة.

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فجعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول ويأتيك بالأخبار من لم تزود بالأخبار، فقال أبو بكر ليس هكذا يا رسول الله فقال لست بشاعر ولا ينبغي لي أن أتكلم[4] بالشعر، فإن قيل روي عنه أنه كان يتكلم بالشعر لأنه ذكر أنه قال:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وذكر أنه عثر يوماً فدميت أصبعه فقال:

هل أنت إلا إصبع دميت وفي كتاب الله ما لقيت[5]

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٠٣ ـ النشر ٢/٣٥٥.

(٢) إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٠٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦٨ وعزاه لعبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه البخاري ٦/١٩ كتاب الجهاد (٢٨٠٢) ومسلم ٣/١٤٢١، كتاب الجهاد (١١٢ ـ ١٧٩٦).

وذكر أنه قال يوم الخندق:

بسم الإله وبه هدينا ولو عبدنا غيره شقينا[1]

قيل له هذه كلمات تكلم بها فصارت موافقة للشعر وليست بشعر. ثم قال عز وجل: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً﴾ يعني: من كان مؤمناً لأن المؤمن من هو الذي يقبل الإنذار. ويقال من كان حياً يعني: عاقلاً راغباً في الطاعة. قرأ نافع وابن عامر (لتنذر) بالتاء على معنى المخاطبة يقول لتنذر يا محمد، وقرأ والباقون بالياء[2] على معنى الخبر عنه. يعني: لتنذر يا محمد. ويقال يعني: لتنذر بالقرآن من كان مهتدياً في علم الله تعالى الأزلي ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ﴾ يعني: وجب العذاب ﴿عَلَى الكَافِرِينَ﴾ يعني: قوله (لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ) ثم وعظهم ليعتبروا.

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

فقال عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَرَواْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ يعني: أولم ينظروا فيعتبروا فيما أنعم الله عز وجل عليهم قوله ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً﴾ يعني: أنا خلقنا لهم بقوتنا وبقدرتنا وبأمرنا (أنعاماً) يعني: الإبل والبقر والغنم ﴿فَهُم لَهَا مَالِكُونَ﴾ يعني: الأنعام وقال قتادة: يعني ما في بطونها ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُم﴾ يعني: سخرناها لهم فيحملون عليها ويسوقونها حيث شاؤوا فلا تمتنع منهم ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ في انتفاعهم وحوائجهم ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ من الإبل والبقر والغنم ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ يعني: في الأنعام ﴿مَنَافِعُ﴾ في الركوب والحمل والصوف والوبر ﴿وَمَشَارِبُ﴾ يعني: ألبانها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ رب هذه النعمة فيوحدونه، يعني: اشكروا ووحدوا ﴿وَاتَّخذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ يعني: تركوا عبادة رب هذه النعم وعبدوا الآلهة ﴿لَعَلَّهُم يُنْصَرُونَ﴾ يعني: لعل هذه الآلهة تمنعهم من العذاب في ظنهم يقول الله عز وجل: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُم﴾ يعني: منعهم من العذاب ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ يعني: الكفار للأصنام جند يتعصبون لها ويحضرونها في الدنيا للآلهة، ويقال: وهم لهم جند محضرون يعني لآلهتهم كالعبيد والخدم، قيام بين أيديهم، وقال الحسن (وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ) في الدنيا (مُحْضَرُونَ) في النار ثم قال عز وجل: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ يعني: لا يحزنك يا محمد تكذيبهم إياك ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من التكذيب ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يعني: ما يظهرون لك من العداوة.

أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ

(١) أخرجه البيهقي عن سلمان رضي الله عنه وذكره الصالحي في سبل الهدى والرشاد ٤/ ٥١٧ وذكره بعده يا حبذا رباً وحب ديناً.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٠٣.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

قوله عز وجل: ﴿أولم يَرَ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ روى سفيان عن الكلبي عن مجاهد قال أتى أبيّ بن خلف الجمحي إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعظم بالي قد أتى عليه حين، فقام ففته بيده ثم قال يا محمد أتعدنا أنا إذا متنا وكنا مثل هذا[1] بعثنا؟ فأنزل الله تعالى (أَوَلَمْ يَرِ الإنْسَانُ) الآية وروي عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه قال: لما ذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرون الماضية أنهم يبعثوا بعد الموت، وأنكم يا أهل مكة معهم، فأخذ أبي بن خلف الجمحي عظماً بالياً فجعل يفته بيده ويذروه في الرياح، ويقول عجباً يا أهل مكة إن محمداً يزعم أنا إذا متنا وكنا عظاماً بالية مثل هذا العظم وكنا تراباً، أنا نعاد خلقاً جديداً، وفينا الروح، وذلك ما لا يكون[2] أبداً. فنزل (أَوَلَمْ يَرَ الإنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُطْفَةٍ) يعني: أولم يعلم هذا الكافر أنا خلقناه أول مرة من نطفة ﴿فإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ جدل بالباطل، ويقال: خصيم بيِّن الخصومة فيما يخاصم، مبين أي بين ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً﴾ يعني: وصف لنا شبهاً في أمر العظام. ويقال وصف لنا بالعجز ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ يعني: وترك ابتداءه حين خلقه من نطفة، ويقال ترك النظر في خلق نفسه فلم يعتبر ﴿وَقَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ يعني: بالية، والرميم: العظم البالي. يقال رم العظم إذا بلي قال الله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني: قل يا محمد يحيي العظام الذي خلقها أول مرة، يعني: في أول مرة ولم يكن شيئاً ثم قال عز وجل: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يعني: عليم بخلقهم وببعثهم، ثم أخبر عن صنعه ليعتبروا في البعث فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ﴾ يعني: قل يا محمد العظام يحييها (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ) ﴿مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ قال الكلبي كل شجرة يقدح منها النار إلا شجرة العناب فمن ذلك القصارون يدقون عليه (فإِذَا أَنتم مِنه تُوقِدُونَ) يعني: تقدحون يعني: فهو الذي يقدر على أن يبعثكم ثم قال عز وجل: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ﴾ وهي أعظم خلقاً ﴿بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ في الآخرة. والكلام يخرج على لفظ الاستفهام ويراد به التقرير. ثم قال ﴿بَلَى﴾ هو قادر على ذلك ﴿وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ يعني: الباعث العليم ببعثهم قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَمرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً﴾ من أمر البعث وغيره ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ خلقاً. قرأ ابن عامر والكسائي فيكون بالنصب[3] وقد ذكرناه في سورة البقرة ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني: خلق كل شيء من البعث وغيره. ويقال خزائن كل شيء، ويقال له القدرة على كل شيء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت فيجازيكم بأعمالكم. قال حدثنا الفقيه أبو الليث رحمه الله قال حدثنا أبو الحسن أحمد بن حمدان، بإسناده عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس فمن قرأ يس يريد بها وجه الله تعالى غفر له وأعطي من الأجر كمن قرأ القرآن اثني عشرة مرة، وأيما مسلم قرئت عنده سورة يس حين ينزل به ملك الموت ينزل إليه بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون قبضه، ويشهدون غسله ويشيعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون

---

(١) انظر تفسر ابن كثير ٦/٥٧٩ ـ تفسير القرطبي ١٥/٤٠.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦٩ وعزاه لابن مردويه.

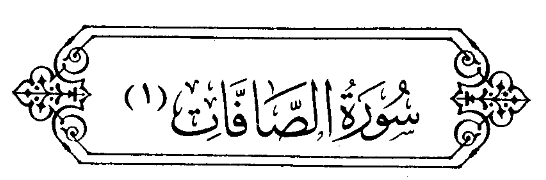
(٣) انظر النشر في القراءات ٢/٣٥٦ ـ حجة القراءات (٦٠٣).

دفنه، وأيما مسلم مريض قريء عنده سورة يس وهو في سكرات الموت لا يقبض ملك الموت روحه حتى يجيء رضوان خازن الجنة بشربة من شراب الجنة فيشربها وهو على فراشه فيقبض ملك الموت روحه عليه السلام وهو ريان ويدخل قبره وهو ريان ويمكث في قبره وهو ريان ويخرج من القبر وهو ريان ويحاسب وهو ريان ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء عليهم السلام حتى يدخل الجنة وهو ريان[١] (والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأوَّاب وعلى آله وسلم)[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي ٥/١٥٠ (٢٨٨٧) والدارمي ٢/٤٥٦ من طريق حميد بن عبد الرحمن عن الحسن بن صالح عن هارون أبي محمد عن مقاتل بن حبان عن قتادة عن أنس مرفوعاً وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وهارون أبو محمد مجهول وفي الباب عن أبي بكر الصديق ولا يصح، وإسناده ضعيف. ونقل المنذري في الترغيب ٢/٣٢٢ وابن كثير في التفسير ٥٦٣/٣ والحافظ في التهذيب أنه قال حديث غريب ليس في نقلهم عنه أنه حسنه وفي إسناده هارون وهو متهم.

(٢) سقط في ظ.



وهي مائة واثنتان وثمانون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿**وَالصَّافَّاتِ صَفًّا**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا) قال أقسم الله تعالى بصفوف الملائكة الذين في السموات، كصفوف المؤمنين في الصلاة. ويقال يعني صفوف الغزاة في الحرب كقوله عز وجل: (صَفاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مرصوص) ويقال: بصفوف الأمم يوم القيامة لقوله عز وجل (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفاً) ويقال: صف الطيور بين السماء والأرض صافات بأجنحتها لقوله (والطَّيْرُ صَافَّاتٍ) ويقال: صفوف الجماعات في المساجد، وفي الآية بيان فضل الصفوف، حيث أقسم الله بهن، ثم قال عز وجل ﴿**فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً**﴾ يعني: الملائكة الذين يزجرون السحاب ويؤلفونه ويسوقونه إلى البلد الذي لا مطر بها، ويقال (فَالزَّاجِرَاتِ) يعني فالدافعات وهم الملائكة الذين يدفعون الشر عن بني آدم موكلون بذلك ويقال فالزاجرات يعني ما زجر الله تعالى في القرآن بقوله: (لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا) (وَلَا تَأْكُلوا أَمْوَالَهُم إِلَى أَمْوَالِكُم) ويقال هي التوراة والإنجيل، والزبور،

---

(١) من أغراض السورة إثبات وحدانية الله تعالى وسوق دلائل كثيرة على ذلك دلت على انفراده بصنع المخلوقات العظيمة التي لا قبل لغيره بصنعها وهي العوالم السماوية بأجزائها وسكانها ولا قبل لمن على الأرض أن يتطرق في ذلك. وإثبات أن البعث يعقبه الحشر والجزاء. ووصف حال المشركين يوم الجزاء ووقوع بعضهم في بعض. ووصف حسن أحوال المؤمنين ونعيمهم. ومذاكرتهم فيما كان يجري بينهم وبين بعض المشركين من أصحابهم في الجاهلية ومحاولتهم صرفهم عن الإسلام. ثم انتقل إلى تنظير دعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قومه بدعوة الرسل من قبله وكيف نصر الله رسله ورفع شأنهم وبارك عليهم وأدمج في خلال ذلك شيء من مناقبهم وفضائلهم وقوتهم في دين الله وما نجاهم الله من الكروب التي حفت بهم. وخاصة منقبة الذبيح والإشارة إلى أنه إسماعيل. ووصف ما حل بالأمم الذين كذبوهم. ثم الإنحاء على المشركين فساد معتقداتهم في الله ونسبتهم إليه الشركاء. وقولهم: الملائكة بنات الله وتكذيب الملائكة إياهم على رؤوس الأشهاد. وقولهم في النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكيف كانوا يودون أن يكون لهم كتاب. ثم وعد الله رسوله بالنصر كدأب المرسلين ودأب المؤمنين السابقين وأن عذاب الله نازل بالمشركين وتخلص العاقبة الحسنى للمؤمنين. وكانت فاتحتها مناسبة لأغراضها بأن القسم بالملائكة مناسب لإثبات الوحدانية لأن الأصنام لم يدعوا لها ملائكة والذي تخدمه الملائكة هو الإله الحق ولأن الملائكة من جملة المخلوقات الدال خلقها على عظم الخالق ويؤذن القسم بأنها أشرف المخلوقات العلوية. ثم إن الصفات التي لوحظت لفي القسم بها مناسبة للأغراض المذكورة بعدها في (الصافات) يناسب عظمة ربها (الزاجرات) يناسب قذف الشياطين عن السماوات ويناسب تسيير الكواكب وحفظها من أن يدرك بعضها بعضاً ويناسب زجرها الناس في الحشر. ﴿**والتاليات ذكراً**﴾ يناسب أحوال الرسول والرسل عليهم الصلاة والسلام وما أرسلوا به إلى أقوامهم. هذا وفي الافتتاح بالقسم تشويق إلى معرفة المقسم عليه ليقبل عليه السامع بشراشره. فقد استكملت فاتحة السورة أحسن وجوه البيان وأكملها. انظر التحرير ٢٣/٨١، ٨٢، ٨٣.

والفرقان، وما كان من عند الله من كتب ويقال: فالزاجرات زجراً، يعني هم الأنبياء والرسل، والعلماء، يزجرون الناس عن المعاصي، والمناهي، والمناكر ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً﴾ يعني: الملائكة، وهو جبريل يتلو القرآن على الأنبياء، ويقال: هم المؤمنون الذين يقرأون القرآن، ويقال: فالتاليات ذكراً، قال هم الصبيان يتلون في الكتاب من الغدوة إلى العشية[١]، كان الله تعالى يحول العذاب عن الخلق ما دامت تصعد هذه الأربعة إلى السماء، أولها أذان المؤذنين والثاني تكبير المجاهدين، والثالث تلبية الملبين، والرابع صوت الصبيان في الكتاب وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال (وَالصَّافَاتِ صَفّاً) قال الملائكة (فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً) قال الملائكة (فَالْتَالِيَاتِ ذِكْراً) قال الملائكة[٢]، وهكذا قال مجاهد[٣] قد أقسم الله بهذه الأشياء ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ويقال: أقسم (بنفسه فكأنه يقول وخالق هذه الأشياء إن إلهكم لواحد يعني: ربكم، وخالقكم)[٤] ورازقكم لواحد ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ﴾ يعني: الذي خلق السموات ﴿وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من خلق ﴿وَرَبُّ المَشَارِقِ﴾ يعني: مشرق كل يوم (وقال في آية أخرى (رَبُّ المَشْرِقَينِ وَرَبُّ المغْرِبَين) أي مشرق الشتاء ومشرق الصيف وقال في هذه السورة (رَبُّ المَشَارِقِ)[٥] أي مشرق كل يوم.

إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾

ثم قال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ يعني: الأدنى، وإنما سميت سماء الدنيا لأنها أقرب إلى الأرض ﴿بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ﴾ أي: بضوء الكواكب، قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص (بِزِينَةٍ) بالتنوين (الكَوَاكِبِ) بالكسر بغير تنوين بكسر الباء وقرأ عاصم في رواية أبي بكر (بِزِينَةٍ) بالتنوين (الكَوَاكِبَ) بالنصب والباقون (بِزِينَةِ) بالكسر بغير تنوين (الكَوَاكِبِ) بكسر الباء[٦] فمن قرأ بزينة الكواكب بالكسر جعل الكواكب بدلاً من الزينة والمعنى: إنا زينا السماء الدنيا بالكواكب ومن قرأ بالنصب أقام الزينة مقام التزيين، فكأنه قال: إنا زينا السماء الدنيا بتزييننا الكواكب، فيكون الكواكب على معنى التفسير، ومن قرأ بغير تنوين فهو على إضافة الزينة إلى الكواكب، وروي عن ابن عباس رضي

---

(١) الغداة: الوقت ما بين الفجر وطلوع الشمس. العشي: الوقت من زوال الشمس إلى المغرب ـ انظر المعجم الوسيط ٦٩/٢ ـ ٦٥٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٧١/٥ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٧١/٥ وعزاه لعبد بن حميد عن مجاهد وعكرمة.

(٤) سقط في ظ.

(٥) سقط في ظ.

(٦) انظر حجة القراءات ٦٠٤ ـ النشر ٣٥٦/٢

الله عنه أنه قال ـ الكواكب معلقة بالسماء كالقناديل ـ ويقال إنها مركبة عليها كما تكون في الصناديق والأبواب ثم قال: ﴿وَحِفْظاً مِن كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ يعني: حفظ الله تعالى السماء بالكواكب من كل شيطان متمرد يعني شديد يقال: مرد يمرد إذا اشتد ثم قال: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص (لَا يَسَّمَّعُونَ) بنصب السين والتشديد، والباقون (يَسْمَعُونَ) بنصب الياء وجزم السين مع التخفيف[1]، فمن قرأ بجزم السين فهو بمعنى يسمعون، ومن قرأ بالتشديد فأصله يتسمعون فأدغمت التاء في السين وشددت يعني لكيلا يستمعون ﴿إِلَى المَلَأِ الأَعْلَى﴾ يعني: إلى الكتبة ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ يعني: يرمون ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً﴾ يعني: طرداً من كل ناحية من السماء وكانوا من قبل (يستمعون إلى كلام الملائكة) عليهم السلام، قال حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس قال: (بَيْنَمَا رَسُول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جَالِس فِي نَفَرٍ من أصحابه إذ رمى بنجم فاستنار، فقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية؟ فقالوا يموت عظيم أو يولد عظيم فقال عليه السلام: إنه لا يرمى لموت أحد ولا لحياته ولكن الله عز وجل إذا قضى أمراً يسبحه حملة العرش وأهل السماء السابعة يقول ماذا قال ربكم فيخبرونهم فيستخبر أهل كل سماء أهل السماء الأخرى حتى ينتهي الخبر إلى السماء الدنيا فتخطف الجن، ويرمون فيما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يزيدون فيه ويكذبون)[2] قال معمر قلت للزهري؟ أو كان يرمى به في الجاهلية قال نعم قال قالت الجن لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً) قال غلظ وشدد أمرها حيث بعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وقوله (دُحُوراً) يعني: طردا بالشهب فيعيدونهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ يعني: دائم، يعني الشياطين لمن استمع ولمن لم يستمع في الآخرة وقال مقاتل: في الآية تقديم ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ﴾ من الشياطين ﴿الخَطْفَةَ﴾ يختطف، يعني يستمع إلى الملأ الأعلى من كلام الملائكة عليهم السلام ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، والشهاب في اللغة: كل أبيض

---

(١) حجتهم ما روي عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿لا يسمعون﴾ وقال: ﴿هم يسمعون ولكن لا يسمعون﴾ (والدليل) على صحة قول ابن عباس أنهم (يسمعون ولكن لا يسمعون) قوله: وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً وقوله (بعدها) (إلا من خطف الخطفة) فعلم بذلك أنهم يقصدون للإستماع ومن حجتهم أيضاً إجماع الجميع على قوله ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ وهو مصدر (سمعت) والقصة واحدة وتأويل الكلام: وحفظاً من كل شيطان مارد لئلا يسمعوا بمعنى أنهم ممنوعون بالحفظ عن السمع. فكفت (لا) من (أن) كما قال: ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين. لا يؤمنون به﴾ بمعنى: لئلا يؤمنوا به فكفت (لا) من (أن) كما كفت (أن) من (لا) في قوله تعالى: (يبين الله لكم أن تضلوا). فإن قال قائل: (فلو كان هذا هو الوجه لم يكن في الكلام (إلى) ولكان الوجه أن يقال: لا يسمعون الملاء الأعلى) قلت: العرب تقول: سمعت زيداً وسمعت إلى زيد فكذلك قوله ﴿لا يسمعون إلى الملأ الأعلى﴾. وقد قال جل وعز: ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾. وقال: و (ومنهم من يستمع إليك) فيعدى الفعل مرة بـ (إلى) ومرة باللام كقوله: ﴿وهداه إلى صراط مستقيم﴾ و ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾. ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ وقال: ﴿بأن ربك أوحى لها﴾. ومن قرأ: (يسمعون) الأصل: (يتسمعون) فأدغم التاء في السين لقرب المخرجين وحجتهم في أنهم منعوا من التسمع: الأخبار التي وردت عن أهل التأويل: بأنهم كانوا يتسمعون الوحي فلما بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رموا بالشهب ومنعوا. فإذا كانوا عن التسمع ممنوعين كانوا عن السمع أشد منعاً وأبعد منه. لأن المتسمع يجوز أن يكون غير سامع والسامع قد حصل له الفعل. قالوا: فكان هذا الوجه أبلغ في زجرهم لأن الإنسان قد يتسمع ولا يسمع فإذا نفى التسمع عنه فقد نفى سمعهم من جهة التسمع ومن جهة غيره فهو أبلغ. انظر حجة القراءات ٦٠٥ - ٦٠٦.

(٢) أخرجه الترمذي ٥/١٣٥٣ كتاب تفسير القرآن (٣٢٢٤) وقال حديث حسن صحيح والبيهقي في السنن ٨/١٣٨ وأحمد في المسند ١/٣١٨.

ذي نور، والثاقب: المضيء ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ يعني: سل أهل مكة، وهذا سؤال تقرير لا سؤال استفهام وقال تعالى: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً﴾ بالبعث ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ يعني: ما خلقنا من السموات، وما ذكر من المشارق والمغارب، ويقال: أهم أشد خلقاً بالبعث، يعني بعثهم أشد (أَم مَّنْ خَلَقْنَا) يعني: أم خلقهم في الابتداء ثم ذكر خلقهم في الابتداء فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾ يعني: خلقنا آدم وهم من نسله من طين حمئة، ويقال: لَازِب: أي لاصق، ويقال لَازِب يعني: لازم، إلَّا أن الباء تبدل من الميم لقرب مخرجهما، كما يقال: سمد رأسه وسبد إذا استأصله، واللازب، واللاصق واحد، ثم قال: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي (عَجِبْتُ) بضم التاء، وقرأ الباقون بالنصب[١]، فمن قرأ بالنصب فالمعنى بل عجبت يا محمد من نزول الوحي عليك والكافرون يسخرون مكذبين لك، ومن قرأ (بَلْ عَجِبْتُ) بالضم فهو إخبار عن الله تعالى، وقد أنكر قوم هذه القراءة، وقالوا إن الله تعالى لا يعجب من شيء، لأنه علم الأشياء قبل كونها، وإنما يتعجب من سمع أو رأى شيئاً لم يسمعه ولم يره، ولكن الجواب أن يقال: العجب من الله عز وجل بخلاف العجب من الأدميين، ويكون على وجه التعجب، ويكون على وجه الإنكار والاستعظام لذلك القول كما قال في آية أخرى (وَإِنْ تَعْجَب فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ) وروى الأعمش عن سفيان بن سلمة أن شريحاً كان يقرأ: (بل عجبت) بالنصب ويقول إنما يعجب من لا يعلم، وقال الأعمش فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي فقال إبراهيم النخعي إن شريحاً كان معجباً برأيه، وعبد الله بن مسعود كان أعلم منه وكان يقرؤها (بَلْ عَجِبْتُ)[٢] بالضم وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ هكذا بالضم، وهو اختيار أبي عبيدة ثم قال (ويسخرون) يعني: يسخرون حين سمعوا ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ يعني: إذا وعظوا بالقرآن لا يتعظون، ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ يعني: علامة مثل انشقاق القمر ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يعني: يستهزئون ويسخرون، وقال أهل اللغة سخر واستسخر بمعنى واحد، مثل قر واستقر ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعني بين قوله عز وجل: ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ يعني يقولون إذا متنا ﴿وَكُنَّا تُراباً وعظاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ يعني: لمحيون بعد الموت ﴿أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ قُلْ﴾ يا محمد ﴿نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ يعني: صاغرون.

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ

---

(١) حجة من قرأ بالضم قوله ﴿وإن تعجب فعجب قولهم﴾ أي إن تعجب يا محمد من قولهم فعجب قولهم عند من سمعه ولم يرد: فإنه عجب عندي. قال أبو عبيد: قوله: (بل عجبت) بالنصب: بل عجبت يا محمد من جهلهم وتكذيبهم وهم يسخرون منك ومن قرأ: (عجبت) فهو إخبار عن الله جل وعز وحجتهم ما روي في الحديث: (إن الله قد عجب من فتىً لا صبوة له) وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (عجب ربكم من إلكم وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم). قال أبو عبيد: (والشاهد لها مع الأخبار قوله تعالى: ﴿وإن تعجب فعجب قولهم﴾ فأخبر جل جلاله أنه عجيب ومما يزيده تصديقاً الحديث المرفوع: (عجب الله البارحة من فلان وفلانة). قال الزجاج: وقد أنكر قوم هذه القراءة وقالوا: (إن الله جل وعز لا يعجب) وإنكار هذا غلط لأن القراءة والرواية كثيرة فالعجب من الله خلاف العجب من الآدميين وهذا كما قال جل وعز: ﴿ويمكر الله﴾ ومثل قوله ﴿سخر الله منهم﴾ و ﴿وهو خادعهم﴾ فالمكر من الله والخداع خلافه من الآدميين. وأصل العجب في اللغة أن الإنسان إذا رأى ما ينكره ويقل مثله قال: (قد عجبت من كذا وكذا) فكذلك إذا فعل الآدميون ما ينكره الله جاز أن يقول فيه (عجبت) والله قد علم الشيء قبل كونه ولكن الإنكار إنما يقع والعجب الذي تلزم به الحجة عند وقوع الشيء. انظر حجة القراءات ٦٠٦ ـ ٦٠٧ ـ ٦٠٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٧٢ وعزاه لأبي عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق الأعمش عن شقيق بن سلمة عن شريح.

تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

ثم قال عز وجل: **﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾** يعني: صيحة ونفخة واحدة ولا يحتاج إلى الأخرى **﴿فَإِذَا هُم﴾** يعني: الخلائق **﴿يَنْظُرُونَ﴾** يعني: يخرجون من قبورهم وينظرون إلى السماء كيف غيرت والأرض كيف بدلت، فلما عاينوا البعث ذكروا قول الرسل: إن البعث حق **﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾** يعني يوم الحساب، ويقال يوم الجزاء، فردت عليهم الحفظة ويقولون **﴿هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾** أنه لا يكون، ثم ينادي المنادي **﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾** يعني: سوقوا الذين كفروا **﴿وَأَزْوَاجَهُم﴾** يعني: وأشباههم، ويقال وقرناءهم وضرباءهم، ويقال وأشياعهم وأعوانهم، ويقال وأمثالهم **﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾** يعني: من الشياطين الذين أضلوهم، ويقال كل معبود وكل من يطاع في المعصية **﴿فَاهْدُوهُم﴾** يعني: ادعوهم جميعاً ويقال اذهبوا بهم وسوقوهم جميعاً **﴿إِلَى صِرَاطِ الجَحِيمِ﴾** يعني: إلى طريق الجحيم، والجحيم: ما عظم من النار، ويقال إلى وسط الجحيم، فلما انطلق بهم إلى جهنم أرسل الله عز وجل ملكاً يقول **﴿وَقِفُوهُم﴾** أي احبسوهم **﴿إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾** عن ترك قول لا إله إلا الله، ويقال في الآية تقديم يعني يقال لهم قفوا قبل ذلك، فحبسوا أو سئلوا ثم يساق بهم إلى الجحيم فيقال لهم **﴿مَا لَكُم لَا تَنَاصَرُونَ﴾** يعني: لم ينصر بعضكم بعضاً ولا يدفع بعضكم عن بعض كما كنتم تفعلون في الدنيا قوله عز وجل: **﴿بَلْ هُم الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾** أي خاضعون ذليلون **﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾** يعني: يسأل ويخاصم بعضهم بعضا القادة والسفلة والعابد والمعبود ومتابعي الشيطان للشيطان، ويقال: يتساءلون يعني يتلاومون، **﴿قَالُوا﴾** يعني: السفلة للرؤساء **﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾** يعني: من قبل الحق أي الدين فزينتم لنا ضلالتنا، وروي عن الفراء أنه قال: اليمين في اللغة القوة والقدرة، ومعناه إنكم كنتم تأتوننا بأقوى الحيل وكنتم تزينون علينا أعمالنا، وقال الضحاك: تقول السفلة للقادة إنكم قادرون وظاهرون علينا، ونحن ضعفاء أذلاء في أيديكم، روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال (تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ) عن الحق[1]، يعني: الكفار يقولون للشيطان، وقال القتبي: إنما يقول هذا المشركون لقرنائهم من الشياطين (إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ) يعني: عن أيماننا، لأن إبليس قال (لآتِيَنَّهُمْ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِم وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِم) وقال المفسرون: من أتاه الشيطان من قبل اليمين أتاه من قبل الدين وليس عليه الحق، ومن أتاه من قبل الشمال أتاه من قبل الشهوات، ومن أتاه من بين

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٧٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

يديه أتاه من قبل التكذيب بالقيامة، ومن أتاه من خلفه خوفه الفقر على نفسه وعلى من يخلف بعده، فلم يصل رحماً، ولم يؤد زكاة، وقال المشركون لقرنائهم إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين في الدنيا من جهة الدين، يعني أضللتمونا ﴿**قالُوا**﴾ لهم قرناؤهم ﴿**بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ أي لم تكونوا على حق فتشبه عليكم ونزيلكم عنه إلى الباطل ﴿**وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ**﴾ يعني: من قدرة فنقهركم، ويقال من ملك فنجبركم عليه ﴿**بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ**﴾ يعني: كافرين عاصين ﴿**فَحَقَّ عَلَيْنَا**﴾ يعني: وجب علينا جميعاً ﴿**قَوْلُ رَبِّنَا**﴾ وهو السخط، ويقال قول ربنا يوم قال لإبليس (لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ مِمن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أجْمَعِينَ) ﴿**إِنَّا لَذَائِقُونَ**﴾ يعني: العذاب جميعاً في النار، قوله عز وجل: ﴿**فَأَغْوَيْنَاكُمْ**﴾ يعني: أضللناكم عن الهدى ﴿**إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ**﴾ يعني: ضالين يقول الله تعالى: ﴿**فَإِنَّهُمْ**﴾ يعني: الكفار والشياطين ﴿**يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾ يعني: شركاء في النار وفي العذاب يوم القيامة ﴿**إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ**﴾ يعني: هكذا نفعل بمن أشرك فنجمع بينهم وبين الذين أضلوهم في النار، ثم أخبر عنهم فقال ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا**﴾ يعني: في الدنيا ﴿**إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**﴾ يعني: قولوا لا إله إلا الله ﴿**يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ عنها ولا يقولونها ﴿**وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا**﴾ يعني: أنترك عبادة آلهتنا ﴿**لِشَاعِرٍ**﴾ يعني: لقول شاعر ﴿**مَّجْنُونٍ**﴾ أي مغلوب على عقله، يقول الله تعالى ﴿**بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ**﴾ يعني: بالقرآن، ويقال: بأمر التوحيد، ويقال جاء ببيان الحق ﴿**وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ الذين قبله، قال مقاتل يعني: صدق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمرسلين الذين قبله، وقال الكلبي: وبتصديق المرسلين الذين قبله ومعناهما واحد. ويقال معناه جاء محمد عليه السلام بموافقة المرسلين عليهم السلام ﴿**إِنَّكُمْ**﴾ يعني: العابد والمعبود ﴿**لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ**﴾ يعني: لتصيبوا العذاب الوجيع الدائم ﴿**وَمَا تُجْزَوْنَ**﴾ في الآخرة ﴿**إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ يعني: إلا بما كنتم تعملون في الدنيا من المعاصي والشرك ثم استثنى المؤمنين فقال عز وجل: ﴿**إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**﴾ يعني: الموحدين، ويقال إلا بمعنى لكن عباد الله المخلصين.

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾

ثم قال: ﴿**أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ**﴾ يعني: طعام معلوم معروف حين يشتهونه على قدر غدوة وعشية، ثم بين الرزق فقال ﴿**فَوَاكِهُ**﴾ يعني: ألوان الفاكهة ﴿**وَهُم مُّكْرَمُونَ**﴾ بالثواب، ويقال منعمون ﴿**فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**﴾ في الزيارة ﴿**يُطَافُ عَلَيْهِم**﴾ يعني: يطوف عليهم خدمهم ﴿**بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ**﴾ يعني: خمراً جارياً (من معين) يعني: الطاهر الجاري بيضاء يعني: بخمرة توجب اللذة ﴿**بَيْضَاءَ لَذَّةٍ**﴾ يعني: شهوة ﴿**لِلشَّارِبِينَ، لَا فِيهَا غَوْلٌ**﴾ يعني: ليس فيها إثم ويقال لا غائلة لها، ولا يوجع منها الرأس، وروي شريك عن سالم قال لا فيها غول أي لا مكروه فيها ولا أذى، وقال القتبي لا فيها غول أي لا تغتال عقولهم فتذهب بها. يقال الخمر غول للحلم، والحرب غول للنفوس، والغول البعد ﴿**وَلَا هُم عَنْهَا يُنْزَفُون**﴾ قرأ حمزة والكسائي (يُنْزِفُون) بكسر الزاي، وقرأ

الباقون بالنصب[١]، فمن قرأ بالنصب فمعناه لا يذهب عقولهم شربها ويقال للسكران نـزيف، ومنزوف إذا زال عقله، ومن قرأ بالكسر فله معنيان: أحدهما لا ينفذ شرابهم أبداً، والثاني أنهم لا يسكرون ثم قال عـز وجل: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ يعني: غاضات الأعين عن غير أزواجهن، يعني: قصرن طرفهن على أزواجهن وقنعن بهم ولا يبغين بهم بدلاً ثم قال: (عين) أي حسان الأعيـن شدة البياض في شدة السواد، يقال لواحدة العين عيناء يعني: كبيرة العين، ويقال الحسن العيناء التي سواد عينها أكثر من بياضها ثم قال: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يعني: إنهن أحسن بياضاً من بيض النعم، والعرب تشبه النساء ببيض النعام، يقال لا يكون لون البياض في شيء أحسن من بيض النعام وقال قتادة البيض التي لم تلوثه الأيدي[٢]، ويقال البيض أراد به القشر الداخل من البيض، المكنون قد خبأ وكنّ من البرد والحر ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهم عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يعني: يسأل بعضهم بعضاً عن حاله في الدنيا قوله عز وجل: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ يعني: من أهل الجنة ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ وهو الذي بين الله تعالى أمرهما في سورة الكهف (جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ) فكانا أخوين وشريكين وأنفق أحدهما ماله في أمر الأخرة، واتخذ الآخر لنفسه ضياعاً[٣] وخدما، واحتاج المؤمن إلى شيء، فجاء إلى أخيه الكافر يسأله، فقال له الكافر ما صنعت بمالك؟ فأخبره أنه قدمه إلى الآخرة، فقال له الكافر ﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ المُصَدِّقِينَ﴾ يعني: إنك ممن يصدق بالبعث، وطلب منه أن يدخل في دينه، ولم يقض حاجته، فذلك قوله (أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ) يعني: بالبعث بعد الموت قوله عز وجل: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ يعني: لمحاسبون، فيقول المؤمن لأصحابه في الجنة ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ حتى ننظر إلى حاله وإلى منزله، فيقول أصحابه: أطلع أنت فإنك أعرف به منا ﴿فَاطَّلَعَ﴾ يعني: فنظر في النار ﴿فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الجَحِيمِ﴾ يعني: رأى أخاه في وسط الجحيم أسود الوجه مزرق العين، فيقول المؤمن عند ذلك قوله: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ يعني: والله لقد هممت لتغويني ولتضلني، ويقال: لتردين أي لتهلكني، يقال أرديت فلان: أي أهلكته، والردى: الموت والهلاك، وقال القتبي في قوله (إِنَّا لَمَدِينُونَ) أي مجازون بأعمالنا، يقال: دنته بما عمل: أي جازيته.

وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ يعني: لولا ما أنعم الله عليَّ بالإسلام ﴿لَكُنْتُ مِنَ المُحْضَرِينَ﴾ معك في النار، ثم أقبل المؤمن على أصحابه في الجنة فقال: يا أهل الجنة ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الأُولَى﴾ اللفظ

(١) انظر حجة القراءات (٦٠٩) النشر ٢/٣٥٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٧٥ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بـن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٣) ضياعاً أي عقاراً ـ انظر لسان العرب ٤/٢٦٢٤.

لفظ الاستفهام، والمراد به النفي، يعني لا نموت أبداً سوى موتتنا الأولى، وذلك حين يذبح الموت فيأمنوا من الموت ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ يعني: لم نكن من المعذبين مثل أهل النار. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني: النجاة الوافرة، فازوا بالجنة ونجوا من النار ﴿بِمِثْلِ هَذَا﴾ يعني: لمثل هذا الثواب والنعم والخلود ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ أي: فليبادر المبادرون، ويقال فليجتهد المجتهدون [ويقال: فليحتمل المحتملون الأذى لأنه قد حفت النار بالمكاره][1] ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا﴾ يعني: الذي وصفت في الجنة، خير ثواباً، ويقال رزقاً، ويقال منزلاً ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ للكافرين ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ يعني: ذكر الشجرة بلاء للمشركين، قال قتادة زادتهم تكذيباً، فقالوا يخبركم محمد أن في النار شجرة والنار تحرق الشجر، وقال مجاهد إنا جعلناها فتنة، قول أبي جهل إنما الزقوم التمر والزبد فقال لجاريته زقمينا فزقمته[2] وذكر أن الزبعرى قال الزقوم بلسان البربر وأفريقيا: التمر والزبد، فأخبر الله تعالى عن الزقوم أنه لا يشبه النخل ولا طلعها كطلع النخل، فقال: (أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا) يعني: نعيم الجنة، وما فيها من اللذات (خير نزلا) أي طعاماً (أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ) لأهل النار قوله عز وجل: (إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ) ثم وصف الشجرة فقال: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ يعني: في وسط الجحيم ﴿طَلْعُهَا﴾ يعني: ثمرتها ﴿كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ يعني: رؤوس الحيات قبيح في النظر، ويقال هو نبت لا يكون شيء من النبات أقبح منه، وهو يشبه الحسك[3] فيبقى في الحلق، ويقال هي رؤوس الشياطين بعينها، وذلك أن العرب إذا وصفت الشيء بالقبح تقول كأنه شيطان، ثم وصف أكلهم فقال ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ يعني: من ثمرها ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ وهو جماعة المالي، يعني: يملؤون منها البطون قال حدثنا أبو الليث رحمه الله، قال حدثنا الفقيه أبو جعفر قال حدثنا محمد بن عقيل قال حدثنا عباس الدوري قال حدثنا وهب بن جرير عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «أيها الناس اتقوا الله ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في الأرض لأمرت على أهل الدنيا معيشتهم فكيف بمن هو طعامه وشرابه منه ليس له طعام غيره»[4] قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُم عَلَيْهَا لَشَوْباً مِن حَمِيمٍ﴾ يعني: خلطاً من حميم من ماء حار في جهنم ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ يعني: مصيرهم إلى النار، ثم بين المعنى الذي به يستوجبون العقوبة فقال تعالى: ﴿إِنَّهُم أَلْفَوْا﴾ يعني: وجدوا ﴿آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ عن الهدى ﴿فَهُمْ على آثَارِهِم يُهْرَعُونَ﴾ يعني: يسعون في مثل أعمال آبائهم، والإهراع في اللغة: المشي بين المشيتين وقال مجاهد كهيئة الهرولة[5].

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ

(١) سقط في ظ.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٧٧ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.
(٣) الحسك: نبات له ثمرة خشنة تتعلق بأصواف الغنم وأوبار الإبل انظر المعجم الوسيط ١/١٧٣.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٧٧ وعزاه لابن أبي شيبة.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٧٨ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم.

وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾

ثم قال عز وجل: **﴿وَلَقَد ضَلَّ قَبْلَهُم﴾** يعني: أضل إبليس قبلهم **﴿أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ﴾** يعني: من الأمم الخالية، ولم يذكر إبليس لأن في الكلام دليلاً عليه فاكتفى بالإشارة، ومثل هذا كثير في القرآن ثم قال عز وجل: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ﴾** يعني: رسلاً ينذرونهم، كما أرسلناك إلى قومك، فكذبوهم بالعذاب، كما كذبك قومك، فعذبهم الله تعالى في الدنيا **﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾** يعني: آخر أمر من أنذر فلم يؤمن **﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾** يعني: الموحدين المطيعين فإنهم لم يعذبوا قوله عز وجل: **﴿وَلَقَد نَادَانَا نُوحٌ﴾** يعني: دعا نوح ربه على قومه، وهو قوله: (اني مَغْلُوبٌ فَانْتَصِر) **﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾** يعني: نعم المجيب أنا **﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾** يعني: من الهول الشديد وهو الغرق، قوله **﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾** لأن الذي حمل معه من الناس ثمانون رجلاً وامرأة، غرقوا كلهم ولم يبق إلا ولده سام، وحام، ويافث قال الفقيه أبو الليث رحمه الله حدثنا أبو جعفر قال حدثنا أبو القاسم الصغار بإسناده عن سمرة بن جندب قال: إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال «سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث[1] أبو الروم» ثم قال تعالى: **﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾** يعني: أبقينا عليه ذكراً حسناً في الباقين من الأمم، وهذا قول القتبي، وقال مقاتل يعني: أثنينا على نوح بعد موته ثناء حسناً ثم قال عز وجل: **﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾** يعني: السعادة والبركة على نوح من بين العالمين **﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾** يعني: هكذا نجزي كل من أحسن **﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾** يعني: المصدقين بالتوحيد **﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾** يعني: قومه الكافرين.

قوله عز وجل: **﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ﴾** قال مقاتل: يعني: إبراهيم من شيعة نوح عليه السلام وعلى ملته، وقال الكلبي يعني من شيعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إبراهيم، وعلى دينه ومنهاجه، وذكر عن الفراء أنه قال هذا جائز، وإن كان إبراهيم قبله كما قال (حملنا ذريتهم) يعني: آباءهم، ذريته الذين هو منهم، قوله عز وجل: **﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾** يعني: إبراهيم دعا ربه بقلب سليم أي خالص[ويقال: إذ جاء ربه بقلب سليم أي مخلص][2] سليم من الشرك **﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾** يعني: ايش الذي تعبدون، ويقال: معناه لماذا تعبدون هذه الأوثان قوله عز وجل: **﴿أَئِفْكاً آلِهَةً﴾** يعني: أكذباً آلهة **﴿دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾** عبادتها **﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** إذا عبدتم غيره، فما ظنكم به إذا لقيتموه **﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾** قال مقاتل: يعني: في الكواكب

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٧٨ وعزاه لابن سعد وأحمد والترمذي وحسنه وأبي يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن سمرة. هو عند الترمذي ٥/٣٤٠ (٣٢٣٠).

(٢) سقط في أ.

[ويقال فنظر نظرة في النجوم، أي في أمر النجوم ثم تفكر بالعين وبالقلب][١]، وذلك أنه رأى كوكباً قد طلع ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: سأسقم ويقال مطعوناً وهو قول سعيد بن جبير والضحاك[٢] وقال القتبي: نظر في الحساب لأنه لو نظر إلى الكواكب، لقال: نظر نظرة إلى النجوم وإنما يقال نظر فيه، إذا نظر في الحساب «فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ» أي سأمرض غداً وكانوا يتطيرون من المريض، فلما سمعوا ذلك منه هربوا، فذلك قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ قال الفقيه أبو الليث رحمه الله حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا خزيمة قال حدثنا عيسى بن إبراهيم[٣] قال حدثنا ابن وهب عن جرير بن حازم[٤] عن أيوب السجستاني عن محمد بن سيرين[٥] عن أبي هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «لم يكذب إبراهيم قط إلا ثلاث كذبات، ثنتان في ذات الله قوله: «إني سقيم» وقوله «بل فعله كبيرهم هذا» وواحدة في شأن سارة ذلك أنه قدم أرض جبار، ومعه سارة، وكانت أحسن النساء، فقال لها إن هذا الجبار إن علم أنك امرأة يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك، فلما دخل الأرض رآها بعض أهل الجبار، فأتاه فقال له: لقد دخل اليوم أرضك امرأة، لا ينبغي أن تكون إلا لك، فأرسل إليها فأتي بها، فقام إبراهيم إلى الصلاة، فلما أدخلت عليه لم يمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة، فقال لها ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك، ففعلت فعاد، فقبضت يده أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك ففعلت، فعاد، فقبضت أشد من القبضتين الأوليين، فقال لها ادعي الله أن يطلق يدي ولك عليّ ألا أضرك، ففعلت، فأطلقت يده، فدعا الذي جاء بها فقال له إنك أتيتني بشيطان ولم تأتيني بإنسان، فأخرجها من أرضي، وأعطاها هاجر، فأقبلت تمشي حتى جاءت إلى إبراهيم، فلما رآها إبراهيم انصرف من الصلاة، فقال لها: مهيم: يعني ما الخبر؟ فقالت خيراً كفيت الفاجر وأخدمني خادماً» فقال أبو هريرة: «فتلك أمكم يا بني ماء السماء»[٦] يعني نسل العرب منها، لأنه روي في الخبر أنها وهبت هاجر لإبراهيم فولد منها إسماعيل، ويقال: (فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ) يعني أعرضوا عنه ذاهبين إلى عيدهم قوله عز وجل: ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ﴾ يعني: مال إلى أصنامهم، ويقال: دخل بيوت الأصنام فرأى بين أيديهم طعاماً ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فلم يجيبوه، فقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ يعني: أقبل يضربهم بيمينه، ويقال: يضربهم باليمين التي حلف، وهو قوله (تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ) ويقال باليمين، يعني يضربهم بالقوة، واليمين كناية عنها لأن القوة في اليمين ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ يعني: يسرعون ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ بأيديكم من الأصنام، قرأ حمزة (يُزِفون) بضم الياء، وقرأ الباقون بالنصب[٧]، فمن قرأ بالنصب فأصله من زفيف النعام، وهو ابتداء عدوه، ومن قرأ بالضم، أي يصيروا إلى الزفيف، ويدخلون في الزفيف، وكلا القراءتين يرجع إلى معنى واحد وهو الإسراع في المشي ثم قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعني: و ما تنحتون به بأيديكم من الأصنام، ومعناه تتركون عبادة من

---

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٧٩ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وعن الضحاك.

(٣) عيسى بن إبراهيم الشعيري البركي بصري صدوق ربما وهم مات سنة ثمان وعشرين ـ التقريب ٢/٩٦.

(٤) جرير بن حازم بن عبد الله بن شجاع الأزدي أبو النضر البصري ثقة مات سنة ١٧٥ التهذيب ٢/٦٩.

(٥) محمد بن سيرين الأنصاري أبو بكر بن أبي عمرة البصري ثقة ثبت عابد كبير القدر كان لا يرى الرواية بالمعنى مات سنة عشر ومائة التقريب ٢/١٦٩.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء (٣٣٥٧) ـ أخرجه مسلم ٤/١٨٤٠ كتاب الفضائل (١٥٤ ـ ٢٣٧١) وأحمد.

(٧) انظر حجة القراءات (٦٠٩) النشر ٢/٣٥٧.

خلقكم، وخلق ما تعملون وتعبدون غيره ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً﴾ يعني: آتوناً ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ يعني: في النار العظيمة ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً﴾ يعني: أرادوا حرقه وقتله ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ يعني: الآخرين ويقال الأذلين، وعلاهم إبراهيم، فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى أهلكهم الله عز وجل.

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ يعني: إني مهاجر إلى طاعة ربي، ويقال من أرض ربي إلى أرض ربي، وقال مقاتل: يعني من بابل إلى بيت المقدس، ويقال: من أرض حران إلى بيت المقدس ﴿سَيَهْدِينِ﴾ يعني: يحفظني، ويقال إني مهاجر إلى ربي، يعني مقبل إلى طاعة ربي، «سيهديني» أي سيرشدني ربي ويقال سيعينني قوله عز وجل: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: يا رب أعطني ولداً صالحاً من المسلمين ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ يعني: حليم في صغره، عليم في كبره قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ إلى الحج، ويقال: إلى الجبل ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام لابنه ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ﴾ قال مقاتل: هو إسحاق، وقال الكلبي: هو إسماعيل، وروى معمر عن الزهري، قال في قوله (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ)(١) قال ابن عباس: هو إسماعيل، وكان ذلك بمنى، وقال كعب: هو إسحاق، وكان ذلك ببيت المقدس، وقال مجاهد وابن عمر ومحمد بن كعب القرظي هو إسماعيل(٢) وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال هو إسحاق، وهكذا روي عن ابن عباس [وهكذا قال](٣) وعكرمة(٤) وقتادة: وأبو هريرة وعبد الله بن سلام رضي الله عنهم، وهكذا قال أهل الكتابين كلهم، والذي قال هو إسماعيل: احتج بالكتاب، والخبر، أما الكتاب: فهو أنه لما ذكر قصة الذبح قال على أثر ذلك (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا)، وأما الخبر: فما روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ»(٢) يعني: أباه عبد الله بن عبد المطلب، وإسماعيل بن إبراهيم، وأما الذي يقول هو إسحاق يحتج بما

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٨٠ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر.

(٣) سقط في أ.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٨٠ وعزاه لابن جرير عن عكرمة.

(٥) قال الزيلعي وابن حجر في تخريج الكشاف: لم نجده بهذا اللفظ وانظر ابن كثير ٧/ ٢٩ وتفسير الطبري ٢٣/ ٥٤ والعقيلي في الضعفاء ٣/ ٩٤ والقرطبي ١٥/ ١١٣ والدر المنثور ٥/ ٢٨١ وفتح الباري ١٢/ ٣٧٨.

روي في الخبر، أنه ذكر نسبة يوسف فقال: كان يوسف أشرف نسباً، يوسف صديق الله بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله، قد اختلفوا فيه هذا الاختلاف والله أعلم بالصواب، والظاهر عند العامة هو إسحاق، فذلك قوله ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ فظاهر اللفظ أنه رأى في المنام أنه يذبحه ولكن معناه أني أرى في المنام أني قد أمرت بذبحك بدليل ما قال في سياق الآية (ياأبتِ افْعَل مَا تُؤْمَرُ) وروي في الخبر، أنه رأى في المنام، أنه قيل له، إن الله يأمرك أن تذبح ولدك، فاستيقظ خائفاً وقال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم رأى في المنام في الليلة الثانية والثالثة مثل ذلك، فاستيقظ وضم ابنه إلى نفسه، وجعل يبكي حتى أصبح فانقاد لأمر الله تعالى، وقال لامرأته سارة إني أريد أن أخرج إلى طاعة ربي، فابعثي ابني معي فجهزته وبعثته معه، قال كعب الأحبار: قال الشيطان إن لم أفتن هؤلاء عند هذه لم أفتنهم أبداً، فلما خرج إبراهيم بابنه ليذبحه، فذهب الشيطان ودخل على سارة فقال: أين ذهب إبراهيم بابنك؟ فقالت غدا به لبعض حاجته، قال: إنه لم يغد به لحاجته، ولكنه إنما ذهب به ليذبحه، فقالت: ولم يذبحه؟ قال: يزعم أن ربه أمره بذلك، فقالت: قد أحسن أن يطيع ربه، فخرج في أثرهما فقال للغلام أين يذهب بك أبوك؟ قال: لبعض حاجته، قال: فإنه لا يذهب بك لحاجته، ولكنه إنما يذهب بك ليذبحك، فقال: ولم يذبحني؟ قال يزعم أن ربه أمره بذلك، قال: فوالله لئن كان الله أمره بذلك ليفعلن، فتركه (ولحق بإبراهيم)، فقال: أين غدوت بابنك؟ قال لحاجة، قال: فإنك لم تغد به لحاجة، وإنما غدوت به لتذبحه، قال ولم أذبحه؟ قال: تزعم أن الله تعالى أمرك بذلك، قال فوالله لئن كان الله أمرني بذلك لأفعلن، فتركه وأيس من أن يطاع قوله عز وجل: ﴿فَانْظُر مَاذَا تَرَى قَالَ يا أَبَتِ افْعَل مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُو الْبَلَاءُ الْمُبِين﴾[١]، ﴿وَفَدَيْنَاهِ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فأوحى الله تعالى إلى إسحاق، أن ادعو فإن لك دعوة مستجابة فقال إسحاق: اللّهم إني أدعوك أن تستجيب لي في أيما عبد من الأولين، والآخرين، لقيك لا يشرك بك شيئاً أن تدخله الجنة، وقال مجاهد إن إبراهيم عليه السلام لما أراد أن يذبح ابنه بالسكين، قال ابنه. يا أبت خذ بناصيتي، واجلس بين كتفي حتى لا أوذيك إذا أصابني حد السكين، ولا تذبحني وأنت تنظر في وجهي عسى أن ترحمني واجعل وجهي إلى الأرض ففعل إبراهيم، فلما أمر السكينة على حلقه انقلبت فقال يا أبت مالك؟ قال: قد انقلبت السكين، قال فاطعن بها طعناً قال: فطعن فانثنت، قال فعرف الله عز وجل الصدق منه ففداه بذبح عظيم وقال هو إسحاق،[٢] وروى أسباط عن السدي قال كان من شأن إسحاق حين أراد أبوه أن يذبحه، أنه ركب مع أبيه في حاجة فأعجبه شبابه، وحسن هيئته وكان إبراهيم حين بشر بإسحاق، قبل أن يولد له، قال هو إذا لله ذبيح، فقيل لإبراهيم في منامه قد نذرت لله نذراً فاوفيه، فلما أصبح قال (يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ) يقول قد أمرت بذبحك (قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلُ مَا تُؤْمَرُ) قال: فانطلق معي، وأخبر أمك أنك تنطلق إلى أخوالك، وأخذ إبراهيم معه حبلاً ومدية يعني: السكين، فقال له: يا أبتاه حدها فإنه أهون للموت، فانطلق به، حتى أتى به جبلاً من جبال الشام، فأضجعه في أصرة[٣] وربط يديه ورجليه فقال له إسحاق: يا أبتاه شد رباطي لكي لا أضطرب فيصيب الدم ثيابك فتراه سارة فتحزن، فبكى إبراهيم بكاء شديداً، وأخذ الشفرة، فوضعها على حلقه وضرب الله تعالى على حلقه

---

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٨٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) الإصار: وتد قصير الأضاب ـ انظر لسان العرب ١/٨٧.

صفيحة نحاس، فجعل يحز فلا تصنع شيئاً، فلما رأى إبراهيم ذلك قلبه على وجهه فضرب الله تعالى على قفاه صفيحة نحاس، وبكيا حتى ابتلت الأرض من دموعهما، فجعل يحز فلا تقطع شيئاً، فنودي (أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا) ودونك هذا الكبش فهو فداه فالتفت فإذا هو بكبش أبيض أملح ينحط من الجبل، وقد كان رعي في الجنة أربعين خريفاً، فخلا عن ابنه وأخذ الكبش فذبحه، وقال وهب بن منبه لما قال لإسحاق «يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى، قال يا أبت أفعل ما تؤمر» ثم قال يا أبت إني أوصيك بثلاثة أشياء، قال وكان إسحاق في ذلك اليوم ابن سبع سنين، أحدها: أن تربط يدي لكيلا اضطرب فأوذيك والثاني: أن تجعل وجهي إلى الأرض لكيلا تنظر إلى وجهي فترحمني والثالث: أن تذهب بقميصي إلى أمي، ليكون القميص عندها تذكرة مني، فذلك قوله (فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى) قرأ حمزة والكسائي (ماذا تُرَى) بضم التاء، يعني: ماذا ترى من صبرك، ويقال معناه ماذا تشير، وقر الباقون بالنصب[1]، وهو من الرأي يعني ماذا ترى [من صبرك، ويقال: معناه ماذا تشير][2] فيما أمر الله به، ويقال هو من المشورة والرأي (قال أبو عبيد بالنصب تقرأ، لأن هذا في موضع المشورة والرأي والآخر يستعمل في رؤية)[3] العين (قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) على الذبح قوله عز وجل (فَلَمَّا أَسْلَمَا) يعني: اتفقا على أمر الله تعالى، قال قتادة: أسلم هذا نفسه لله تعالى، وأسلم هذا ابنه[4] لله تعالى، وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ (فلما سلما) يعني: رضيا وتله للجبين يعني: صرعه على جبينه أي: على وجهه وقال القتبي: وتله للجبين يعني: جعل إحدى جبينيه على الأرض، وهما جبينان والجبهة بينهما (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) وقال القتبي الواو زيادة، ومعناه: فلما أسلما وتله للجبين ناديناه، وهذا كما قال امرىء القيس[5]:

فَلَمَّـا أَجَـزْنَـا سَـاحَـةَ الحَي وانْتَحَى بِنَـا بَـطْنِ خِـبْـت ذي حِـقَـاف عَـقَـنْـقَـل

يعني انتحى، والواو زيادة، وقال بعضهم في الآية مضمر ومعناه فلما أسلما: سلما وتله للجبين، وذكر عن الخليل بن أحمد، أنه سئل عن هذه الآية فقال: ليس لنا في كتاب الله عز وجل متكلم، فقيل له فما مثله في العربية، فقال: قول امرىء القيس فلما أجزنا ساحة الحي أجزنـا وانتحى بنا، كذلك قوله (أسلما) سلما، وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، يعني: أوفيت الوعد، وائتمرت ما أمرت لقول الله تعالى: (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) كما فعلت يا إبراهيم قوله إن هذا لهو البلاء المبين يعني: الاختبار البين، ثم قـال: (وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) يعني: بكبش عظيم، والذبح بكسر الذال: اسم لما يذبح، وبالنصب مصدر، وروي عن ابن عباس أنه قال: حدثني من رأى قرني الكبش معلقين في الكعبة، وهو الكبش الذي ذبحه إبراهيم عن إسماعيل عليهما السلام، ثم قال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ قال الثناء الحسن ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني: سلام الله على إبراهيم، ويقال هذا موصول بالأول يعني: (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلَامٌ على إِبْرَاهِيمَ) يعني: أثنينا عليه السلام في الآخرين قوله ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: المصدقين المخلصين ثم قال

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٠٩ النشر ٢/٣٥٧.

(٢) سقط في أ.

(٣) سقط في ظ.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٨٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم.

(٥) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي أشهر شعراء العرب على الإطلاق ـ انظر الأعلام ٢/١١.

عز وجل: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: بشرناه بنبوة إسحاق بعدما أمر بذبح إسحاق، وقال ابن عباس بشر بإسحاق بعد ما أمر بذبح إسماعيل[١]، وكان إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاثة عشر سنة ثم قال عز وجل: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ أي: على إبراهيم وعلى إسحاق، وبركته النماء والزيادة في الأموال والأولاد فكان من صلبه ذرية لا تحصى ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ مثل موسى وهارون وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام ومؤمنو أهل الكتاب ﴿وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ يعني: الذين كفروا بآيات الله عز وجل وروي عن ابن عباس أنه قال: قد رعي الكبش في الجنة أربعين خريفاً[٢]، وقال بعضهم هي الشاة التي تقرب بها هابيل بن آدم عليهما السلام فتقبل منه قربانه ورفع إلى السماء حياً، ثم جعل بدلاً عن ذبح إسماعيل أو إسحاق ويقال هي الشاة التي خلقها الله تعالى لأجله، وقال بعضهم إنها وعلة[٣] من البر يعني بقرة وحش من البر جبلية.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ يعني: أنعمنا عليهما بالنبوة ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ يعني: من الغرق ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ يعني: موسى وقومه ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ بالحجة على فرعون ﴿وَآتَيْنَاهُمَا﴾ يعني: موسى وهارون ﴿الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ يعني: المبين الذي قد بين فيه الحلال والحرام

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٨٥ وعزاه لابن جرير عن ابن عباس «لكنه مختلف عنه».

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٨٤ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) الوعل: تيس الجبل، وهو جنس من المعز الجبلية له قرنان قويان منحنيان كسيفين أحدبين ـ انظر لسان العرب ـ ٦/٤٨٧٥ المعجم الوسيط ٢/١٠٥٦.

﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يعني: ثبتناهما على دين الإسلام ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ﴾ يعني: الثناء الحسن في الباقين. ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ يعني: السلامة منا والمغفرة عليهما ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: نكافىء المحسنين ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: من المرسلين قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: نبي من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام وقال بعضهم إنه إدريس وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ وإن إدريس لمن المرسلين سلام على إدريس وقال بعضهم إلياس هو الخضر عليه السلام وقال بعضهم إلياس غير الخضر وإلياس صاحب البراري والخضر صاحب الجزائر ويجتمعان (في كل يوم عرفة بعرفات) ويقال هو من[1] سبط يوشع بن نون بعثه الله تعالى إلى أهل بعلبك فكذبوه فأهلكهم الله تعالى بالقحط[2] وقال الله عز وجل لإلياس سلني أعطك، قال ترفعني إليك فرفعه الله تعالى إليه، وجعله أرضياً سماوياً، إنسياً ملكياً يطير مع الملائكة فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الأمر يعني: اتقوا الله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ﴾ ربا، روى عكرمة عن ابن عباس قال: البعل الصنم، وقال مجاهد أتدعون بعلاً وَتَذَرُونَ رباً، وروى جبير عن الضحاك قال مر رجل وهو يقول من يعرف بعل البقرة فقال رجل أنا بعلها، فقال له ابن عباس أنك زوج البقرة فقال الرجل يا ابن عباس أما سمعت قول الله تعالى يقول: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ يعني: رباً وأنا ربها[3]، ويقال البعل كان اسم ذلك الصنم خاصة الذي كان لهم، ويقال كان صنماً من ذهب، فقال لهم﴿أتدعون بعلاً أي الصنم وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ الذي خلقكم يعني: تتركون عبادة الله ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴿وَرَبَّ آبَائِكُمْ﴾ كلها بالنصب، وقرأ الباقون كلها بالضم[4] فمن قرأ بالنصب يرده إلى قوله (وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ) على صفة أحسن الخالقين ومن قرأ بالضم فهو على معنى الاستئناف فكأنه قال هو الله ربكم ورب آبائكم الأولين ثم قال عز وجل: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني: كذبوا إلياس ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ يعني: هم وآلهتهم لمحضرون النار ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهم لا يحضرون النار ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ يعني: الثناء الحسن ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ ياسين﴾ قرأ نافع وابن عامر (سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ) وقرأ الباقون إِلْيَاسِينَ[5] ومن قرأ آل ياسين، يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ويقال آل محمد فياسين اسم والال مضاف إليه، وآل الرجل أتباعه، وقيل أهله، ومن قرأ الياسين فله طريقان: أحدهما: أنه جمع الياس ومعناه الياس وأمته من المؤمنين كما يقال رأيت المهالبة يعني بني المهلب والثاني أن يكون لقبان الياس والياسين مثل ميكال وميكائيل ثم قال: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقد ذكرناه قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قوله: ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾ وقد ذكرناه ثم قال عز وجل ﴿وَإِنَّكُم لَتَمرُّونَ عَلَيْهِم مُصْبِحِينَ﴾ يعني: إنكم يا أهل مكة، لتمرون على قرياتهم إذا سافرتم بالليل والنهار، فذلك قوله: ﴿وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَإِنَّ يُونسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: من جملة المرسلين ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ يعني: إذ فر، ويقال: إذ هرب، ويقال: خرج ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ يعني: المُوقد من الناس، والدواب، ويقال المجهز الذي قد فرغ من جهازه

(١) السبط: ولد الإبن والإبنة. والسبط من اليهود / كالقبيلة من العرب ـ انظر المعجم الوسيط ١/٤١٥.

(٢) القحط: احتباس المطر ـ انظر لسان العرب ٥/٩٥٣٦.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٨٦ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٤) انظر حجة القراءات ٦١٠ إتحاف فضلاء البشر ٢/٤١٥.

(٥) حجة هذه القراءة أنه ذكره في صدر الآية فقال في آخر الآية «سلام على إلياسين» كما ذكر نوحاً في صدر الآية ثم قال في آخر القصة «سلام على نوح» وكذلك إبراهيم وموسى وهارون إنما قال في آخر قصصهم: سلام على فلان ـ انظر حجة القراءات ٦١١.

﴿فَسَاهَمَ﴾ يعني: اقترعوا، وقد ذكرت قصته في سورة الأنبياء **﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾** يعني: من المقروعين، والمدحض في اللغة:[١] هو المغلوب في الحجة، وأصله من دحض الرجل، إذ ذل من مكانه، قوله **﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾** يعني: ابتلعه الحوت **﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾** قال أهل اللغة المليم: الذي استوجب اللوم، سواء لأمره أو لا، والملوم الذي يلام، سواء استوجب اللوم أو لا، ويقال وهو ملوم، يعني يلوم نفسه **﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾** قال مقاتل والكلبي: لولا أنه كان من المصلين قبل ذلك، ويقال لولا أنه كان من المسبحين في بطن الحوت **﴿لَلَبِثَ﴾** أي لمكث **﴿فِي بَطْنِهِ﴾** ولكان بطنه قبره **﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾** يعني: إلى يوم القيامة قوله عز وجل: **﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾** يعني: نبذه الحوت على ساحل البحر، ويقال بالفضاء على ظاهر الأرض، وقال أهل اللغة العراء: هو المكان الخاليّ من البناء، والشجر، والنبات فكأنه من عرى الشيء **﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾** يعني: مريض، وذكر في الخبر أنه لم يبق له لحم ولا ظفر، ولا شعر، فألقاه على الأرض كهيئة الطفل لا قوة له، وقد كان مكث في بطن الحوت أربعين يوماً، ثم قال **﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِن يَقْطِينٍ﴾** قال مقاتل: يعني من قرع، وهكذا قال قتادة، ومجاهد[٢]، وقال أهل اللغة: كل شيء ينبت بسطاً فهو يقطين، هكذا قال الكلبي، وذكر في الخبر، أن وعلة كانت تختلف إليه ويشرب من لبنها، فكان تحت ظل اليقطين، ويشرب من لبن الوعلة يعني بقرة الوحش حتى تقوى ثم يبست تلك الشجرة فاغتم لذلك وحزن حزناً شديداً، وبكى، فأوحى الله تعالى إليه أنك قد اغتممت بيبس هذه الشجرة فكيف لم تغتم بهلاك مائة ألف أو يزيدون؟ فذلك قوله: **﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾** يعني: كما أرسلناه قبل ذلك إلى قومه وهم مائة ألف، يعني: أهل نينوى، أو يزيدون، يعني بل يزيدون ويقال: يعني: ويزيدون وكانوا مائة وعشرين ألفاً **﴿فَآمَنُوا﴾** يعني: لما جاءهم العذاب أقروا وصدقوا، فصرف الله عنهم العذاب، فذلك قوله **﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾** يعني: أبقيناهم إلى منتهى اجالهم، فخرج يونس عليه السلام فمر بجانب (مدينة نينوى، فرأى هناك غلاماً يرعى فقال من أنت يا غلام؟ فقال: من قوم يونس، فقال فإذا رجعت إليهم)[٣] فأخبرهم بأنك قد رأيت يونس فقال الغلام إنه من يحدث، ولم تكن له بينة قتلوه، فقال له يونس تشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة، فدخل وقال للملك إني رأيت يونس عليه السلام يقرئك السلام، فلم يصدقوه حتى خرجوا فشهدت له الشجرة والبقعة قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فأخذ الملك بيد الغلام، وقال أنت أحق بالملك مني فأقام الغلام أميرهم أربعين سنة[٤].

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾

ثم قال عز وجل: **﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾** يعني: سل أهل مكة **﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ﴾** قال مقاتل وذلك أن جنسا من

---

(١) انظر لسان العرب ٢/١٣٣٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٩١ وعزاه لعبد بن حميد عن مجاهد.

(٣) سقط في ظ.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٨٨ وعزاه لابن أبي شيبة في المصنف وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في أثر طويل.

الملائكة، يقال لهم الجن منهم إبليس، قال بعض الكفار إن الله عز وجل اتخذهم بناتاً لنفسه، فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه فمن أمهم؟ فقالوا سروات الجن[1] فذلك قوله أَلِرَبِّكَ البَنَاتُ ﴿وَلَهُم البَنُونَ﴾ يعني: يختارون له البنات، ولأنفسكم البنين، ثم قال ﴿أَمْ خَلَقْنَا المَلائِكَةَ إِنَاثاً وَهُم شَاهِدُون﴾ يعني: كانوا شاهدين حاضرين حين خلقهم بناتاً ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِم﴾ يعني: من كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُم لَكَاذِبُونَ﴾ في قلوبهم ثم قال عز وجل: ﴿أَصْطَفَى البَنَاتِ عَلَى البَنِينَ﴾ وذكر عن نافع أنه قرأ بإسقاط الألف في الوصل، وهو قوله (لكاذبون اصطفى) وبكسرها في الابتداء، وجعلها ألف وصل، ولم يجعلها ألف قطع، ولا ألف إستفهام ومعناها أن الله عز وجل حكى عن كفار قريش أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، وأنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون في قولهم اصطفى البنات على البنين وقرأ الباقون (لكاذبون اصطفى) باثبات الألف[2] على معنى الاستفهام، فلفظه لفظ الاستفهام، والمراد به الزجر، ثم قال عز وجل: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يعني: كيف تقضون بالحق ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه لا يختار البنات على البنين ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ يعني: ألكم حجة ويقال ألكم عذر بين في كتاب الله أنزل الله إليكم بأن الملائكة بناته ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ يعني: أي بعذركم وحجتكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في مقالتكم.

وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً﴾ يعني: وصفوا بين الرب وبين الملائكة نسباً، حين زعموا أنهم بناته، ويقال جعلوا بينه وبين إبليس قرابة وروى جبير عن الضحاك قال: قالت قريش: إن إبليس أخو الرحمن، وقال عكرمة (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً) قالوا الملائكة بنات الله، وجعلوهم من[3] الجن، وهكذا قال القتبي ثم قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ﴾ قال مقاتل والكلبي: يعني: علمت الملائكة الذين قالوا أنهم البنات ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أن من قال إنهم بناته، لمحضرون في النار ويقال لو علمت الملائكة، أنهم لو قالوا بذلك أدخلوا النار ثم قال عز وجل: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يعني: تنزيهاً لله عما يصف الكفار، ثم استثنى على معنى التقديم والتأخير يعني: فقال إنهم لمحضرون ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ المُخْلَصِينَ﴾ يعني: الموحدين فإنهم لا يقولون ذلك ثم قال عز وجل: ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ، مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ يعني: ما أنتم عليه بمضلين أحداً بآلهتكم ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الجَحِيمِ﴾ يعني: إلا من قدر الله له أن يصلى الجحيم، ويقال إلا من كان في علم الله تعالى أنه يصلى الجحيم، ويقال إلا من قدرت عليه الضلالة، وعلمت ذلك منه، وأنتم لا تقدرون على الإضلال والهدى

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٩٢ وعزاه لآدم بن أبي إياس وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد.

(٢) انظر حجة القراءات (٦١٢) النشر ٢/٣٦٠.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٩٢ وعزاه لعبد بن حميد عن عكرمة.

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ يعني: قل يا جبريل لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما منا معشر الملائكة إلا له مقام معلوم، يعني مصلى معروفاً في السماء يصلي فيه، ويعبد الله تعالى فيه ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ يعني: صفوف الملائكة في السموات، وروي عن مسروق، عن ابن مسعود قال: «إن في السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك ساجد وروي أو قدماه، وروي عن مجاهد عن أبي ذر[1]، عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «أطت السَّماءُ وَحُقَّ لَها أَنْ تَئِط، مَا فِيهَا مَوْضِعُ شِبْرٍ إِلَّا وَفِيهِ جَبْهَةُ مَلَكٍ سَاجِد»[2] ويقال إن جبريل عليه السلام، جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له: (إِنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ) وما منا إلا له مقام معلوم في السموات يعبد الله عز وجل فيه، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ يعني: المصلين ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا﴾ يعني: إن أهل مكة كانوا يقولون لو أتانا بكتاب مثل اليهود والنصارى، لكنا نؤمن، فذلك قوله عز وجل لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ﴿ذِكْراً مِنَ الأَوَّلِينَ﴾ يعني: لو جاءنا رسول ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ يعني: الموحدين، فلما جاءهم محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كفروا به ويقال يعني: بالقرآن ﴿فَكَفَرُوا بِهِ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: يعرفون في الآخرة، وهذا وعيد لهم، ويقال في الدنيا.

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَت كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا﴾ يعني: قد مضت كلمتنا بالنصرة لعبادنا ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: الأنبياء عليهم السلام وهو قوله عز وجل: (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورونَ﴾ في الدنيا على أعدائهم ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ يعني: المؤمنون أهل ديننا، ويقال رسلنا لهم الغالبون في الدنيا بالغلبة والحجة في الآخرة ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ يعني: فأعرض عنهم إلى نزول العذاب، وكان ذلك قبل أن يؤمر بالقتال ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ قال الكلبي: إلى فتح مكة، ويقال إلى أن تؤمر بالقتال ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ يعني: أعلمهم ذلك ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ يعني: يرون ماذا يفعل بهم إذا نزل بهم العذاب ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ يعني: أفبعذاب مثلي يستعجلون ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يعني: بقربهم وحضرتهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ يعني: بئس الصباح، صباح من أُنذر بالعذاب، وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، أنه لما نزل بقرب خيبر قال «هَلَكَت خَيبر، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ»[3] يعني: من أنذرتهم فلم يؤمنوا قوله عز وجل: ﴿وَتَولَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ

---

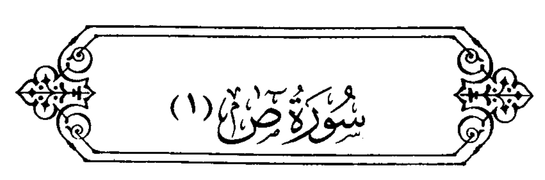
(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٩٣ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠) وأحمد في المسند ٥/١٧٣ والحاكم في المستدرك ٤/٥١٠، ٤، ٥٤٤ وذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٦٥ وانظر تفسير ابن كثير ٧/٣٨.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٩٤ وعزاه لأحمد والبخاري ومسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أنس بنحوه.

﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ وتكرار الكلام للتأكيد، والمبالغة في الحجة، ثم نزه نفسه عما قالت الكفار، فقال عز وجل: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿رَبِّ العِزَّةِ﴾ والقدرة ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يعني: عما يقولون وقرىء في الشاذ (رَبَّ العِزَّةِ) ويكون نصباً على المدح، وفي الشاذ قرىء (رَبُّ العِزَّة) بالرفع على معنى هو رب العزة، وقراءة العامة بالكسر[1] على معنى النعت ثم قال عز وجل: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ﴾ بتبليغ الرسالة، ففي الآية دليل وتنبيه للمؤمنين بالتسليم على جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام ثم قال: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ على هلاك الكافرين، الذين لم يوحدوا ربهم، ويقال: حمد الرب نفسه ليكون دليلاً لعباده ليحمدوه سبحانه وتعالى، والحمد لله رب العالمين.

(١) انظر تفسير القرطبي ١٥/٩٢.



وهي ثمانية وثمان آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

قوله تعالى ﴿صٓ، والقُرْآنِ﴾ قرأ الحسن (صاد) بالكسر وجعلها من المصادات، يقول عارض القرآن، (أي عارض عملك بالقرآن، ويقال بقلبك)[٢]، وروى معمر عن قتادة، في قوله (صٓ) قال: هو كما تقول، تلق كذا أي هيىء نفسك لقدوم فلان، يعني طهر نفسك بآداب القرآن، كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ «القرآن مأدبة الله تعالى فتطعموا من مأدبته»[٣] وكان عيسى بن يعمر يقرأ (صَادَ) بالنصب، وكذلك يقرأ (قاف) و(نون) بالنصب، ومعناه اقرأ صاد، وقراءة العامة بسكون الدال[٤]، لأنها حروف هجاء، فلا يدخلها الإعراب، وتقديرها الوقف عليها، وقيل في تفسير قول الله تعالى (ص) يعني الله هو الصادق. ويقال هو قسم (والقُرْآنِ) عطف عليه قسم بعد قسم، ومعناه أقسمت بصاد وبالقرآن، وقال علي بن أبي طالب الصاد اسم بحر في السماء، وقال ابن مسعود في قوله (صَ، والقُرْآنِ) يعني صادقوا القرآن حتى تعرفوا الحق من الباطل، وقال الضحاك معناه صدق الله[٥]، ثم قال والقُرْآنِ ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ يعني والقرآن ذي الشرف، ويقال فيه ذكر من كان قبله وجواب القسم عند قوله (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) والجواب قد يكون مؤخراً عن الكلام كما قال (والفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ) وجوابه قوله (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ) وقوله (والسَّماءِ ذَاتِ البُرُوجِ) وجوابه، قوله (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) وقال بعضهم جواب القسم ههنا (كَمْ أَهْلَكْنَا) ومعناه لكم أهلكنا، فلما طال الكلام حذف اللام، ثم قال ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ﴾ أي في حمية، كقوله (أَخَذَتْهُ العِزَّةُ) يعني الحمية، ويقال في عزة: يعني في تكبر ﴿وَشِقَاقٍ﴾ يعني في خلاف من الدين بعيد،

---

(١) تسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن تكذيب الكفار واقتداء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرسل من قبله داود وأيوب وغيرهما وما جوزوا عن صبرهم واستطراد الثناء على داود وسليمان وأيوب وأتبع ذكر أنبياء آخرين لمناسبة سنذكرها. وإثبات البعث لحكمة جزاء العاملين بأعمالهم من خير أو شر. وجزاء المؤمنين المتقين وضده من جزاء الطاغين والذين أضلوهم وقبحوا لهم الإسلام والمسلمين. ووصف أحوالهم يوم القيامة وذكر أول غواية حصلت وأصل كل ضلالة وهي غواية الشيطان في قصة السجود لآدم. وقد جاءت فاتحتها مناسبة لجميع أغراضها إذ ابتدئت بالقسم بالقرآن الذي كذب به المشركون وجاء المقسم عليه أن الذين كفروا في عزة وشقاق وكل ما ذكر فيها من أحوال المكذبين سببه اعتزازهم وشقاقهم ومن أحوال المؤمنين سببه ضد ذلك، مع ما في الافتتاح بالقسم من التشويق إلى ما بعده فكانت فاتحتها مستكملة خصائص حسن الابتداء. انظر التحرير ٢٣/٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٢) سقط في ظ.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك وصحح إسناده وذكره الحافظ في الفتح ١٣/٢٥٠.

(٤) انظر النشر ٢/٣٦١، إتحاف فضلاء البشر ٢/٤١٨.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٩٦ وعزاه لابن جرير.

ويقال: في عداوة ومباعدة وتكذيب، وقال القتبي بل في اللغة على وجهين: أحدهما لتدارك كلام غلطت فيه تقول رأيت زيداً بل عمرواً، والثاني أن يكون لترك شيء وأخذ غيره من الكلام كقوله (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) ثم خوفهم فقال عز وجل ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ يعني من أمة ﴿فَنَادَوْا﴾ يعني فنادوا في الدنيا واستغاثوا ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ يعني وليس تحين فرار، قال الكلبي: فكانوا إذا قاتلوا قال بعضهم لبعض مناص، يعني يقول احمل حملة واحدة فينجـو من نجا، ويهلك من هلك، فلما أتاهم العذاب، قالوا مناص، مثل ما كانوا يقولون، فقال الله تعالى ليس تحين فرار، وهي لغة اليمن، وقال القتبي النوص: التأخر والبوص: التقدم في كلام العرب وروى معمر عن قتادة في قوله (فنادوا ولات حين مناص) قال نادوا على غير حين النداء[١]، وقال عكرمة: نادوا وليس تحين انفلات، وقال أبو عبيدة اختلفوا في الوقف، فقال بعضهم يوقف عند قوله (ولات) ثم يبتدأ بـ (حين مناص) لأنا لا نجد في شيء من كلام العرب ولات، أما المعروف لا، ولأنَّ تفسير ابن عباس يشهد لها، وذلك أنه قال ليس تحين فرار وليس هي أخت لا، ولا بمعناها، قال أبو عبيد ومع هذا تعمدت النظر في الذي يقال له مصحف الإمام وهو مصحف عثمان بن عثمان رضي الله عنه فوجدت التاء متصلة مع حين.

وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾

ثم قال عز وجل ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ يعني مخوف منهم، ورسول منهم، يعني من العرب وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يكذب على الله تعالى أنه رسوله ﴿أَجَعَلَ الأَلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً﴾ يعني كيف يتسع لحاجتنا إله واحد ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ يعني لأمر عجيب، والعرب تحول فعيلاً إلى فعال، وها هنا أصله شيء عجيب كما قال في سورة ق (عجيب) ﴿وَانْطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ﴾ قال الفقيه أبو الليث رحمه الله أخبرنا الثقة بإسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه نفر[٢] من قريش فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويقول ويقول، ويفعل ويفعل، فأرسل إليه فانهه عن ذلك، فأرسل إليه أبو طالب وكان إلى جنب أبي طالب موضع رجل فخشي أبو جهل إن جاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجلس إلى جنب عمه أن يكون أرق له عليه، فوثب أبو جهل فجلس في ذلك المجلس، فلما جاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يجد مجلساً إلا عند الباب، فلما دخل قال له أبو طالب: يا ابن أخي إن قومك يشكونك ويزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول، وتفعل وتفعل، فقال يا عم (إني إنما أريد منهم كلمة واحدة) تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العرب والعجم الجزية، فقالوا وما هي فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا إله إلا الله

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٩٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٢) النفر: من ثلاثة إلى عشرة من الرجال ـ انظر المعجم الوسيط ٢/٩٤٨.

فقاموا فزعين، ينفضون ثيابهم[١] ويقولون (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وانْطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ) يعني الأشراف من قريش ﴿أَنِ امْشُوا﴾ يعني امكثوا ﴿وَاصْبِرُوا﴾ يعني اثبتوا ﴿عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ يعني على عبادة آلهتكم ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ يعني لأمر يراد كونه بأهل الأرض، ويقال: إن هذا لشيء يراد يعني لا يكون ولا يتم له. ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ يعني في اليهود والنصارى ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ يعني يختلقه من قبل نفسه، ويقال في قوله (إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ يُرَادُ) يعني أراد أن يكون. ثم قال عز وجل ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يعني أخص بالنبوة من بيننا، يقول الله عز وجل ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ يعني في ريب من القرآن والتوحيد ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أي لم يذوقوا عذابي كقوله (وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) أي لم يدخل، فهذا تهديد لهم أي سيذوقوا عذابي ثم قال ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ يعني مفاتيح رحمة ربك، يعني مفاتيح النبوة بأيديهم ليس ذلك بأيديهم وإنما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴿الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ يعني بيد الله العزيز في ملكه، الوهاب لمن يشاء بل الله يختار من يشاء للوحي فيوحي الله عز وجل وهي الرسالة لمن يشاء ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ يعني إن لم يرضوا بما فعل الله تعالى فليتكلفوا الصعود إلى السماء، وقال القتبي: أسباب السماء أي أبواب السماء، كما قال القائل: ولو نال أسباب السماء بسلم، قال: ويكون أيضاً (فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ) يعني في الجبال إلى السماء، كما سألوك أن ترقى إلى السماء فتأتيهم بآية وهذا كله تهديد وتوبيخ بالعجز.

جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٌ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٍ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةًۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٠﴾

ثم قال عز وجل ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ﴾ يعني جند عند ذلك، وما زائدة، يعني حين أرادوا قتل النبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿مَهْزُومٌ﴾ يعني مغلوب ﴿مِنَ الأَحْزَابِ﴾ يعني من الكفار، وقال مقاتل: فأخبر الله تعالى بهزيمتهم ببدر وقال الكلبي: يعني عند ذلك إن أرادوه، مهزوم: مغلوب ثم قال عز وجل ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ يعني من قبل أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ، وَعَادٌ، وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ﴾ يعني ذو ملك ثابت شديد دائم، ويقال ذو بناء محكم، ويقال: يعني في عز ثابت والعرب تقول: فلان في عز ثابت الأوتاد، يريدون دائم شديد، وأصل هذا أن بيوت العرب تثبت بأوتاد، ويقال هي أوتاد كانت لفرعون يعذب بها، وكان إذا غضب على أحد شده بأربعة أوتاد ثم قال ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ يعني الغيضة وهم قوم شعيب عليه السلام ﴿أُولَئِكَ الأَحْزَابُ﴾ يعني الكفار، سموا أحزاباً لأنهم تحزبوا على أنبيائهم، أي تجمعوا، وأخبر في الابتداء أن مشركي قريش حزب من هؤلاء الأحزاب ﴿إِنْ كُلٌّ﴾ يعني ما كل ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ يعني وجب عذابي عليهم قوله عز وجل ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ﴾ يعني

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٩٥ وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه.

قومك ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يعني النفخة الأولى ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ يعني من نظرة ومن ورجعة، قرأ حمزة والكسائي (فُواق) بضم الفاء، وقرأ الباقون بالنصب[1]، ومعناهما واحد، يسمى ما بين حلبتي الناقة فواق، لأن اللبن يعود إليه الضرع، وكذلك إفاقة المريض، يعني يرجع إلى الصحة، فقال: ما لها من فواق، يعني من رجوع، وقال أبو عبيدة: من فتحها، أراد مالها من راحة ولا إفاقة يذهب بها إلى إفاقة المريض، ومن ضمها، جعلها من فواق الناقة، وهو ما بين الحلبتين، يعني ما لها من انتظار، وقال القتبي: الفُواق، والفَواق واحد وهو ما بين الحلبتين، ثم قال تعالى ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ قال ابن عباس وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، قال لقريش: من لم يؤمن بالله أعطي كتابه بشماله، فقالوا (رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا) يعني صحيفتنا، وكتابنا في الدنيا ﴿قَبْلَ يَوْمِ الحِسَابِ﴾ والقط في اللغة: الصحيفة المكتوبة، ويقال لما نزل قوله (فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) فقالوا ربنا عجل لنا هذا الكتاب (قَبْلَ يَوْمِ الحِسَابِ) استهزاء، ثم عزى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال عز وجل ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ من التكذيب ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ﴾ يعني ذا القوة على العبادة ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ يعني مقبل على طاعة الله عز وجل وقال مقاتل: أَوَّابٌ يعني: مطيع قوله عز وجل ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبالَ مَعَهُ﴾ يعني ذللنا الجبال ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ مع داود عليه السلام ﴿بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ يعني في آخر النهار وأوله، وروى طاووس[2] أن ابن عباس قال لأصحابه، هل تجدون صلاة الضحى في القرآن؟ قالوا لا، قال بلى، قوله «يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ والإِشْرَاقِ» كانت صلاة الضحى يصليها[3] داود عليه السلام ثم قال عز وجل ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ يعني مجموعة ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ يعني مطيع وقال عمرو بن شرحبيل الأواب بلغة الحبشة: المسيح، وقال الكلبي: المقبل على طاعة الله تعالى قوله عز وجل ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ يعني قوينا حراسه، قال مقاتل والكلبي: كان يحرسه كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألف رجل، ويقال قوينا ملكه وأثبتناه وحفظناه عليه وروي في الخبر، أن غلاماً استعدى على رجل وادعى عليه بقراً، فأنكر المدعي عليه، وقد كان لطمه لطمة حين ادعى عليه، فسأل داود من الغلام البينة، فلم يقمها فرأى داود في منامه أن الله عز وجل يأمره أن يقتل المدعى عليه، ويسلم البقر إلى الغلام فقال داود هو منام، ثم أتاه الوحي بذلك فأخبر بذلك بنو إسرائيل فجزعت بنو إسرائيل وقالوا رجل لطم غلاماً لطمة فقتله بذلك؟ فقال داود عليه السلام: هذا أمر الله تعالى به، فسكتوا، ثم أحضر الرجل فأخبره أن الله تعالى أمره بقتله، فقال الرجل صدقت يا نبي الله إني قتلت أباه غيلة وأخذت البقر فقتله داود، فعظمت هيبته وشدد ملكه فلما رأى الناس ذلك جل أمره في أعينهم، وقالوا: إنه يقضي بوحي الله تعالى ثم إن الله تعالى أرخى سلسلة من السماء وأمره بأن يقضي بها بين الناس، فمن كان على الحق يأخذ السلسلة، ومن كان ظالماً لا يقدر على أخذ السلسلة وقد كان غصب رجل من رجل لؤلؤاً، فجعل اللؤلؤ في جوف عصاً له، ثم خاصمه المدعي إلى داود عليه السلام فقال المدعي إن هذا أخذ مني لؤلؤاً وإني لصادق في مقالتي، فجاء وأخذ السلسلة، ثم قال المدعى عليه خذ مني العصا، فأخذ عصاه، وقال إني قد دفعت إليه اللؤلؤ، وإني لصادق في مقالتي، فجاء وأخذ السلسلة، فتحير داود عليه السلام في ذلك، فرفعت السلسلة، وأمره بأن يقضي بالبينات والأيمان، فذلك قوله عز وجل ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ يعني الفهم والعلم، ويقال يعني النبوة ﴿وَفَصْلَ

---

(١) انظر حجة القراءات (٦١٣) النشر ٢/٣٦١.

(٢) طاوس بن كيسان اليماني أبو عبد الرحمن الحميري مولاهم الفارس يقال اسمه ذكوان وطاوس لقب ثقة فقيه فاضل مات سنة ست ومائة التقريب ١/٣٧٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٩٨ وعزاه لعبد بن حميد.

الخِطَابِ﴾ يعني القضاء بالبينات والأيمان وقال قتادة والحسن: وفصل الخطاب يعني البينة على الطالب، واليمين على المطلوب[١].

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ﴾ يعني خبر الخصم، ويقال خبر الخصوم، أي وهل أتاك يا محمد ما أتاك، حين أتاك، ويقال وقد أتاك ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ﴾ والتسور: أن يصعد في مكان مرتفع، وإنما سمي المحراب سوراً لارتفاعه من الأرض، ويقال تسوروا: يعني دخلوا عليه من فوق الجدار، وقال الحسن البصري: وذلك أن داود عليه السلام جزأ الدهر أربعة أيام، فيوماً لنسائه، ويوماً لقضائه ويوماً يخلو فيه لعبادة ربه، ويوماً لبني إسرائيل ليسألونه، فقال يوماً لبني إسرائيل أيكم يستطيع أن يتفرغ لعبادة ربه يوماً لا يصيب الشيطان منه شيئاً؟ فقالوا: يا نبي الله، إننا والله لا نستطيع، فحدث داود نفسه أنه يستطيع ذلك، فدخل محرابه وأغلق بابه فقام يصلي في المحراب، فجاء طائر في أحسن صورة مزين كأحسن ما يكون، فوقع قريباً منه، فنظر إليه فأعجبه، فوقع في نفسه منه، فدنا منه ليأخذه، فوقع قريباً منه وأطمعه أن سيأخذه، ففعل ذلك ثلاث مرات، حتى إذا كان في الرابعة ضرب يده عليه فأخطأه ووقع على سور المحراب، قال وخلف المحراب حوض تغتسل فيه النساء، فضرب يده عليه وهو على سور المحراب فأخطأه، وهرب الطائر، فأشرف داود، فإذا بامرأة تغتسل فلما رأته نقضت شعرها، فغطى جسدها، فوقع في نفسه منها ما يشغله عن صلاته، فنزل من محرابه، ولبست المرأة ثيابها، وخرجت إلى بيتها، فخرج حتى عرف بيتها، وسألها من أنت؟ فأخبرته فقال: هل لك زوج؟ قالت نعم، قال أين هو؟ فقالت في بعث كذا وكذا، وجند كذا وكذا، فرجع وكتب إلى عامله إذا جاءك كتابي هذا فاجعل فلاناً في أول الخيل، فقدم في فوارس فقاتل فقتل، ثم انتظر حتى انقضت عدتها، فخطبها وتزوجها، فبينما هو في المحراب، إذ تسور عليه ملكان، وكان الباب مغلقاً، ففزع منهما، فقالا: لا تخف (خصمان بغى بعضنا على بعض، فاحكم بيننا بالحق) يعني اقض بيننا بالعدل، ثم خاصم أحدهما الآخر فقال: (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً) إلى آخره فعلم داود عليه السلام أنه مراد بذلك (فخر راكعاً وأناب) قال الحسن سجد أربعين ليلة لا يرفع رأسه إلا للصلاة المكتوبة، قال ولم

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٠٠ وعزاه لابن جرير والبيهقي عن قتادة.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٠١ - ٣٠٢ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن بنحوه.

يذق طعاماً ولا شراباً حتى أوحى الله عز وجل إليه أن ارفع رأسك فإني قد غفرت(٢) لك، وهكذا ذكر في رواية الكلبي عن ابن عباس أنه سجد أربعين يوماً حتى سقط جلد وجهه ونبت العشب من دموعه، فقال يا رب: كيف ترحمني وأنا أعلم أنك منتقم مني بخطيئتي وذكر أن جبريل عليه السلام قال له اذهب إلى أوريا فاستحل منه فإنك تسمع صوته في يوم كذا، فأتاه ذات ليلة، فناداه، فأجابه، فاستحل منه فقال: أنت في حل، فلما رجع قال له جبريل هل أخبرته بجرمك؟ قال لا، قال: فإنك لم تفعل شيئاً؟ قال فارجع فأخبره بالذي صنعت، فرجع داود فأخبره بذلك، فقال أنا خصمك يوم القيامة، فرجع مغتماً وبكى أربعين يوماً، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله تعالى يقول إني أستوهبك من عبدي، فيهبك لي وأجزيه على ذلك أفضل الجزاء، فسري عنه بذلك، وكان محزوناً في عمره، باكياً على خطيئته، وروي في خبر آخر، أن داود سمع بني إسرائيل كانوا يقولون في دعائهم يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فيستجاب لهم، فقال لهم داود عليه السلام اذكروني فيهم فقولوا: يا إله إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وداود، فقالوا: آلله أمرك بهذا؟ قال لا، فقالوا: لا نزيد فيهم ما لم يأمرك الله تعالى بذلك، فسأل داود ربه أن يجعله فيهم، فأوحى الله تعالى إليه، وذكر له ما لقي إبراهيم من الشدائد، وما لقي إسحاق ويعقوب عليهم السلام، فسأل داود ربه أن يبتليه ببلية لكي يبلغ منزلتهم، فابتلي بذلك حتى بلغ مبلغهم، وقال بعضهم هذه القصة لا تصح، لأنه لا يظن بالنبي مثل داود أنه يفعل مثل ذلك، ولكن كانت خطيئته أنه لما اختصما إليه، فقال للمدعي لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه فنسبه إلى الظلم بقول المدعي فكان ذلك منه زلة، فاستغفر ربه عن زلته، فذلك قوله ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاودَ﴾ وقال بعضهم: كانوا اثنين فذكر بلفظ الجماعة فقال، (إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ) وقال بعضهم كانوا جماعة ولكنهم كانوا فريقين، فقال ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني استطال وظلم بعضنا على بعض ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ يعني اقض بيننا بالعدل ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي ولا تجر في الحكم والقضاء ويقال أشططت إذا جرت ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ يعني: أرشدنا إلى أعدل الطريق قوله عز وجل ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً، وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ، فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ يعني أعطني هذه النعجة، وهذا قول الكلبي ومقاتل، وقال القتبي (أَكْفِلْنِيهَا) يعني ضمها إليّ، واجعلني كافلها ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ يعني غلبني في الكلام ﴿قَالَ﴾ داود ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ أي مع نعاجه ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ يعني من الإخوان، والشركاء ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني ليظلم بعضهم بعضاً ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم لا يظلمون ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ يعني قليل منهم الذين لا يظلمون، فلما قضى بينهما داود عليه السلام أحب أن يعرفهما، فصعد إلى السماء حيال وجهه ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ﴾ يعني علم داود، ويقال ظن: بمعنى أيقن، إلا أنه ليس بيقين عياناً لأن العيان لا يقال فيه إلا العلم ﴿أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ يعني ابتليناه واختبرناه، ويقال إنهما ضحكا وذهبا فعلم داود أن الله عز وجل ابتلاه بذلك، وروي عن أبي عمرو في بعض الروايات أنه قرأ (أَنَّمَا فَتَنَاهُ) بالتخفيف، ومعناه ظن أن الملكين اختبراه وامتحناه في الحكم، وقراءة العامة (فَتَنَّاه) بالتشديد، يعني أن الله عز وجل قد اختبره وامتحنه بالملكين ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾ يعني وخر وقع راكعاً ساجداً (وَأَنَابَ) يعني أقبل إلى طاعة الله تعالى بالتوبة، وروى عطاء بن السائب عن أبي عبد الله الجبلي قال: إن داود لم يرفع رأسه إلى السماء مذ أصاب الخطيئة حتى مات، وذكر في الخبر أن داود كان له تسع وتسعون امرأة، فتزوج امرأة أوريا على شرط أن يكون ولدها خليفة بعده، فولد له منها سليمان وكان خليفته بعده، يقول الله عز وجل ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ يعني ذنبه ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى﴾ لقربة ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي المرجع في الآخرة، [وروي أن كاتباً كان يكتب قوله تعالى: وخر راكعاً وأناب وكان تحت شجرة فقرأها وكتبها فخرت الشجرة ساجدة لله تعالى وهي تقول اللهم اغفر بها

ذنباً، وخرت الدواة ساجدة كذلك، وهي تقول اللهم احطط عني بها وزراً، وكذلك الصحيفة التي في يده وهي تقول اللهم احدث مني بها شكراً» وعن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا رسول الله رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة فقرأت السجدة فَسجدتُ فَسَجَدت الشجرة لسجودي فسمعتها وهي تقول اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود، قال ابن عباس فقرأ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ آية سجدة ثم سجد فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة[١]، وأيضاً سئل ابن عباس عن سجدة (ص) من أين سجدت؟ قال أما تقرأ هذه الآية (وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاودَ وَسُلَيْمانَ) ثم قال (فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه) فكان داود ممن أمر نبيكم أن يقتدي به، فسجدها داود، فسجدها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اقتداء به][٢] ثم قوله عز وجل ﴿**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ**﴾ يعني أكرمناك بالنبوة وجعلناك خليفة، والخليفة: الذي يقوم مقام الذي قبله، فقام مقام الخلفاء الذين قبله، وكان قبله النبوة في سبط والملك في سبط آخر، فأعطاهما الله تعالى لداود ثم قال ﴿**فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ**﴾ يعني بالعدل ﴿**وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى**﴾ أي لا تمل إلى هوى نفسك فتقضي بغير عدل، ويقال لا تعمل بالجور في القضاء، ولا تتبع الهوى كما اتبعت في بتشايع وهي امرأة أوريا ﴿**فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ يعني عن طاعة الله تعالى، ويقال: يعني الهوى يستزلك عن سبيل الله ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ يعني عن دين الله الإسلام ﴿**لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ**﴾ يعني بما تركوا من العمل ليوم القيامة فلم يخافوه، ويقال بما تركوا الإيمان بيوم القيامة.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾

قوله عز وجل ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّماءَ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا**﴾ من الخلق ﴿**بَاطِلاً**﴾ يعني عبثاً لغير شيء بل خلقناهما لأمر هو كائن ﴿**ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ يعني يظنون أنهما خلقتا لغير شيء، وأنكروا البعث ﴿**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**﴾ يعني جحدوا، من النار يعني من عذاب النار ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا إنا نعطي في الآخرة من الخير أكثر مما تعطون، فنزل (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) في الثواب ﴿**كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ**﴾ يعني كالمشركين وقال في رواية الكلبي: نزلت في مبارزي يوم بدر (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يعني علياً وحمزة، وعبيدة رضي الله عنهم (كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ) يعني عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد، ويقال: نزلت في جميع المسلمين، وجميع الكافرين، يعني لا نجعل جزاء المؤمنين كجزاء الكافرين في الدنيا والآخرة، كما قال في آية أخرى «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَواءً» ثم قال عز وجل ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾ يعني كالكفار في الثواب،

---

(١) أخرجه الترمذي ٢/٤٧٢ (٥٧٩) (٣٤٢٤) والدر المنثور ٥/٣٠٥ والبيهقي في السنن ٢/٣٢٠.
(٢) سقط في ظ.

اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به الوعيد ثم قال عز وجل ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ يعني أنزلنا جبريل عليه السلام به إليك (مُبَارَكٌ) يعني كتاب مبارك فيه مغفرة للذنوب لمن آمن به وصدقه وعمل بما فيه ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ أي لكي يتفكروا في آياته، قرأ عاصم في إحدى الروايتين (لِتَدَبَّرُوا) بالتاء مع النصب وتخفيف الدال، وهو بمعنى: لتتدبروا، فحذفت إحدى التائين وتركت الأخرى خفيفة، وقراءة العامة (لِيَدَّبَّرُوا) بالياء وتشديد الدال، وهو بمعنى ليتدبروا، فأدغمت التاء في الدال وشددت ثم قوله عز وجل ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ يعني وليتعظ بالقرآن ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ يعني ذوو العقول من الناس.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ يعني أعطينا لداود سليمان، وروي عن ابن عباس أنه قال: أولادنا من مواهب الله عز وجل ثم قرأ (يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ) فوهب الله تعالى لداود سليمان ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ يعني مقبلاً إلى طاعة الله تعالى قوله عز وجل ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾ يعني في آخر النهار ﴿الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ يعني الخيل، قال الكلبي ومقاتل: صفن الفرس، إذا رفع إحدى رجليه، فيقوم على طرف حافره، وقال أهل اللغة[1]: الصافن: الواقف من الخيل، وفي الخبر «من أحب أن يقوم له الرجال صفوفاً فليتبوأ مقعده من النار» يعني يديمون له القيام، والجياد: الحسان، ويقال الإسراع في المشي، وقال ابن عباس في رواية الكلبي إن أهل دمشق من العرب، وأهل نصيبين جمعوا جموعاً وأقبلوا ليقاتلوا سليمان فقهرهم سليمان، وأصاب منهم ألف فرس عراب فعرضت على سليمان الخيل، فجعل ينظر إليها ويتعجب من حسنها، حتى شغلته عن صلاة العصر، وغربت الشمس، ثم ذكرها بعد ذلك فغضب وقال: رُدُّوهَا عَلَيَّ فضرب بسوقها وأعناقها بالسيف حتى خر منها تسعمائة فرس، وهي التي كانت عرضت عليه، وبقيت مائة فرس لم تعرض عليه، كما كان في أيدي الناس الآن من الجياد فهو من نسلها، أي من نسل المائة الباقية، قوله تعالى ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ يعني آثرت حب المال ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ يعني عن الصلاة وهي صلاة العصر ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ يعني حتى غابت الشمس، وهذا إضمار لما لم يسبق ذكره يعني ذكر الشمس لأن في الكلام دليلاً، فاكتفى بالإشارة عن العبارة قوله عز وجل ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ يعني قال سليمان: ردوا الخيل عليّ فردت عليه ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ﴾ يعني يضرب السوق وهو جماعة الساق ﴿وَالأَعْنَاقِ﴾ وهو جمع العنق، وروي عن إبراهيم النخعي قال: كانت عشرين ألف فرس، وقال السدي كانت خيل لها أجنحة، وقال أبو الليث يجوز أن يكون مراده في سرعة السير كأن لها أجنحة، وقال بعضهم كانت الجن والشياطين أخرجتها من البحر، وقال عامة المفسرين في قوله (فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ والأَعْنَاقِ) يعني فضرب سوقها وأعناقها، وقال بعضهم: لم يعقر ولكن جعل على سوقهن وعلى أعناقهن سمة، وجعلها في سبيل الله، قال لأن التوبة لا تكون بأمر منكر، ولكن الجواب عنه أن يقال له يجوز أن يكون ذلك مباحاً في ذلك الوقت، وإنما أراد بذلك الاستهانة بمال الدنيا لمكان فريضة الله تعالى، ثم قال عز وجل ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ ابتليناه ﴿وَأَلْقَيْنَا

(١) انظر لسان العرب ٤/٢٤٦٧.

عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ يعني شيطاناً، قال ابن عباس في رواية أبي صالح[١]: إن سليمان أمر بأن لا يتزوج إلا من بني إسرائيل، فتزوج امرأة من غير بني إسرائيل فعاقبه الله تعالى، فأخذ شيطان يقال له صخر، خاتمه وجلس على كرسيه أربعين يوماً، وقد ذكرنا قصته في سورة البقرة ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ يعني رجع إلى ملكه وأقبل على طاعة الله تعالى وقال الحسن في قوله تعالى (وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً) قال شيطاناً، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: سألت كعباً عن قوله (وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً) قال شيطاناً يعني أخذ خاتم سليمان الذي فيه ملكه فقذفه في البحر فوقع في بطن سمكة وانطلق سليمان يطوف فتصدق عليه بسمكة فشواها ليأكل فإذا فيها خاتمه[٢]، وقال وهب بن منبه إن سليمان تزوج امرأة من أهل الكتاب، وكان لها عبد فطلبت منه أن يجزرها لعبدها يعني ينحر الجزور، فأجزرها، فكره ذلك منه، ثم ابتلي بالجسد الذي ألقي على كرسيه وروى معمر عن قتادة في قوله (وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً) قال كان الشيطان جلس على كرسيه أربعين ليلة، حتى رد الله تعالى إليه ملكه، وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله (وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً) قال شيطان يقال له صخر، قال له سليمان يوماً: كيف تفتنون الناس؟ فقال له: أرني خاتمك أخبرك، فلما أعطاه إياه نبذه في البحر فذهب ملكه وقعد صخر على كرسيه، ومنعه الله تعالى نساء سليمان فلم يقربهن، فأنكرته أم سليمان، أهو سليمان أم آصف فكان يقول: أنا سليمان، فيكذبونه، حتى أعطته امرأة يوماً حوتاً، فوجد خاتمه في بطنه، فرجع إليه ملكه، ودخل صخر البحر فاراً، وذكر شهر بن حوشب نحو هذا، وقال لما جلس سليمان على سريره بعث في طلب صخر فأتي به فأمر به فقورت له صخرة وأدخله فيها ثم أطبق عليها وألقاه في البحر، وقال هذا سجنك إلى يوم القيامة، وقال بعضهم هذا التفسير الذي قاله هؤلاء الذين ذكروا أنه شيطان، لا يصح، لأنه لا يجوز من الحكيم أن يسلط شيطاناً من الشياطين على أحكام المسلمين، ويجلسه على كرسي نبي من الأنبياء عليهم السلام، ولكن تأويل الآية والله أعلم أن سليمان كان له ابن، فجاء ملك الموت يوماً زائراً لسليمان فرآه ابنه، فخافه وتغير لونه، ومرض من هيبته، فأمر سليمان عليه السلام الريح بأن تحمل ابنه فوق السحاب ليزول ذلك عنه، فلما رفعته الريح فوق السحاب ودنا أجله، فقبض ابنه وألقي على كرسيه فذلك قوله (وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً) يعني ابنه الميت، قال والدليل على ذلك أن الجسد في اللغة هو الميت الذي لا يأكل الطعام والشراب، كالميت ونحوه، وذكر أن سليمان جزع على ابنه، إذ لم يكن له إلا ابن واحد فدخل عليه ملكان، فقال أحدهما: إن هذا مشى في زرعي فأفسده، فقال له سليمان: لم مشيت في زرعه؟ فقال: لأن هذا الرجل زرع في طريق الناس، ولم أجد مسلكاً غير ذلك، فقال سليمان للآخر: لم زرعت في طريق الناس؟ أما علمت أن الناس لا بد لهم من طريق يمشون فيه؟ فقال لسليمان صدقت، لم ولدت على طريق الموت، أما علمت أن ممر الخلق على الموت، ثم غابا عنه، فاستغفر سليمان فذلك قوله (ثُمَّ أَنَابَ) يعني تاب ورجع إلى طاعة الله عز وجل.

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

---

(١) أبو صالح السمان الزيات واسمه ذكوان سمع سعد بن حرفاص وابن عمر وابن عباس وجابراً وأبا سعيد وغيرهم قال أحمد بن حنبل هو ثقة ثقة من أجل اناس وأوثقهم ـ انظر تهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٤٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣١٠ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر.

قوله عز وجل ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً﴾ أي أعطني ملكاً ﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ قال سعيد بن جبير: أعطني ملكاً لا تسلبه كما سلبت في المرة الأولى، ويقال إنما تمنى ملكاً لا يكون لأحد من بعده، حتى يكون ذلك معجزة له، وعلامة لنبوته ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ يعني المعطي الملك قوله عز وجل ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ وكان من قبل ذلك لم تسخر له الريح، والشياطين، فلما دعا بذلك سخرت له الريح والشياطين، فقال: (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ) يعني بأمر سليمان ويقال بأمر الله تعالى ﴿رُخَاءً﴾ يعني لينة مطيعة ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ يعني حيث أراد من الأرض والنواحي، أصاب يعني أراد، وقال الأصمعي[1] العرب تقول: أصاب الصواب فأخطأ الجواب، يعني أراد الصواب فأخطأ الجواب ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ يعني سخرنا له كل شيء، وسخرنا له الشياطين أيضاً ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ يعني يغوصون في البحر ويستخرجون اللؤلؤ، وقال مقاتل: وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ﴾ يعني مردة الشياطين موثقين ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ يعني في الحديد، ويقال: الأصفاد: الأغلال ثم قال عز وجل ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ يعني هذا عطاؤنا لك، وكرامتنا عليك ﴿فَامْنُنْ﴾ يعني اعتق من شئت منهم، فخل سبيله من الشياطين ﴿أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يعني احبس في العمل، والوثاق، والسلاسل من شئت منهم (بِغَيْرِ حِسَابٍ) أي فلا تبعة عليك في الآخرة فيمن أرسلته، وفيمن حبسته، ويقال ليس عليك بذلك إثم ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى﴾ يعني لقربى ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ يعني: حسن المرجع.

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

قوله عز وجل ﴿وَاذْكُر عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ يعني واذكر صبر عبدنا أيوب ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ يعني دعا ربه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾ يعني أصابني الشيطان ﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ وهو المشقة والعناء والأمراض، وعذاب في ماله، يعني هلاك أهله وماله، وقد ذكرناه في سورة الأنبياء قوله عز وجل ﴿أُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا﴾ يعني قال له جبريل اضرب الأرض برجلك، فضرب، فنبعت عين من تحت قدميه فاغتسل فيها، فخرج منها صحيحاً، ثم ضرب برجله الأخرى، فنبعت عين أخرى ماء عذب بارد فشرب منها فذلك قوله هَذَا ﴿مُغْتَسَلٌ﴾ يعني الذي اغتسل منها ثم قال: ﴿بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ يعني الذي شرب منها قوله عز وجل ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ، وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً﴾ يعني قبضة من سنبل فيها مائة سنبلة وقال الكلبي: ضغثاً: أي مجتمعاً، وقال مقاتل: الضغث القبضة الواحدة، فأخذ عيداناً رطبة من الآس فيه مائة عود، وقال القتبي: الضغث، الحزمة من العيدان والكلأ ﴿فَاضْرِبْ بِهِ﴾ يعني اضرب به امرأتك ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ في يمينك، وقال الزجاج: قالت امرأته لو ذبحت عناقاً[2] باسم الشيطان، فقال لا، وَلَا كَفّاً مِن تُرَاب، وحلف أنه يضربها مائة سوط وأمر بأن يبر في يمينه ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً﴾ على البلاء الذي ابتليناه ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ يعني مقبل على طاعة ربه، وقال وهب بن منبه: أصاب

---

(١) هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع أبو سعيد الأصمعي البصري اللغوي أحد أئمة اللغة والغريب والأخبار والنوادر توفي سنة ٢١٦ هـ ـ انظر تهذيب الأسماء ٢/٢٧٣.

(٢) العناق الأنثى من أولاد المعيز والغنم من حين الولادة إلى تمام الحول ـ انظر المعجم الوسيط ٢/٦٤٨.

أيوب البلاء سبع سنين، ومكث يوسف في السجن سبع سنين، (ويقال إنه أواب، لما هلك ماله قال كان ذلك من عطاء الله، ولما هلك أولاده قال: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، ولما ابتلي بالنفس قال: إني له، ويقال: واذكر أنت يا محمد، صبر عبدنا أيوب إذ ضاق صدرك من أذى الكفار، وأمر أمتك ليذكروا صبره، ويعتبروا، ويصبروا.

وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾

ثم قال عز وجل: ﴿**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ**﴾ فجعل العبد نعت إبراهيم خاصة، كأنه قال واذكر عبدنا[١]، قرأ ابن كثير واذكر (عَبْدَنَا) بغير ألف، وقرأ الباقون (عِبَادَنَا) بالألف[٢]، فمن قرأ عبدنا فمعناه (وَاذْكُر عَبْدَنا إِبْرَاهِيمَ) فجعل العبد نعتاً لإبراهيم خاصة فكأنه قال (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ) واذكر ﴿**إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ**﴾ ومن قرأ «عِبَادَنَا» يعني ما بعده مع إِبْرَاهِيمَ، وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ ﴿**أولي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ**﴾ يعني أولى القوة في العبادة، والأبصار يعني ذوي البصر في أمر الله تعالى قوله عز وجل ﴿**إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ**﴾ يعني اختصصناهم بذكر الله تعالى، وبذكر الجنة وليس لهم هم إلا هم الآخرة، ويقال معناه: واذكر صبر إبراهيم، وصبر إسحاق، وصبر يعقوب، ولم يذكر صبر إسماعيل لأنه لم يبتل بشيء، قرأ نافع (بِخَالِصَةِ) بغير تنوين على معنى الإضافة، وقرأ الباقون مع التنوين[٣]، وروي عن مالك بن دينار أنه قال: نزع الله ما في قلوبهم من حب الدنيا وذكرها وقد أخلصهم بحسب الآخرة وذكرها، ومن قرأ (بِخَالِصَةٍ) بالتنوين جعل قوله (ذِكْرَى الدَّارِ) بدلاً من خالصة، والمعنى إنا أخلصناهم بذكر الدار، والدار هاهنا: دار الآخرة، يعني جعلناهم لنا خالصين، بأن جعلناهم يكثرون ذكر الدار والرجوع إلى الله تعالى ثم قال عز وجل ﴿**وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لِمَنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ**﴾ يعني المختارين للرسالة، الأخيار

---

(١) سقط في ظ.

(٢) حجتهم أنه ذكر أسماءهم فقال: (إبراهيم وإسحاق ويعقوب). وهم بدل من قوله (عبادنا) وذلك أنه أجملهم ثم بين أسماءهم كقولك (رأيت أصحابك) ثم تقول: (زيداً وعمراً) ووجه إفراد (عبدنا) أنه اختصه بالإضافة على التكرمة له والاختصاص بالمنزلة الرفيعة كما قيل في مكة: (بيت الله) وكما اختص بالخلة في قوله: ﴿**واتخذ الله إبراهيم خليلاً**﴾. انظر حجة القراءات ٦١٣.

(٣) انظر حجة القراءات الموضع السابق ـ النشر في القراءات ٢/٣٦١.

في الجنة ثم قال ﴿واذْكُر إسْمَاعِيلَ﴾ قال مقاتل: واذكر صبر إسماعيل وهو أشمويل بن هلفانا، وقال غيره هو إسماعيل بن إبراهيم، يعني اذكر لقومك صبر إسماعيل، وصدق وعده ﴿وَالْيَسَعَ، وَذَا الْكِفْلِ﴾ واليسع كان خليفة إلياس، وذا الكفل كفل مائة نبي أطعمهم وكساهم ﴿وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ هَذَا ذِكْرٌ﴾ يعني هذا الذي ذكرنا من الأنبياء عليهم السلام في هذه السورة ذكر يعني بيان لعظمته ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ من هذه الأمة ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ يعني حسن المرجع. ثم وصف الجنة فقال عز وجل ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ﴾ يعني تفتح لهم الأبواب فيدخلونها يعني الجنة، كما قال تعالى في آية أخرى (حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) فإذا دخلوها وجلسوا على السرر، وكانوا ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ يعني ألوان الفاكهة، والشراب ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ يعني غاضات أعينهن عن غير أزواجهن ﴿أَتْرَابٌ﴾ يعني ذات أقران أي مستويات على سن واحد ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الحِسَابِ﴾ يقول ﴿إِنَّ هَذَا﴾ يعني إن هذا الثواب الذي توعدون بأنه يكون لكم في يوم الحساب وقرأ ابن كثير، وأبو عمر، بالياء على معنى الأخبار عنهم، وقرأ الباقون بالتاء[1] على معنى المخاطبة، يقول الله تعالى (إِنَّ هَذَا ﴿لَرِزْقُنَا﴾ يعني إن هذا الذي ذكرنا لعطاؤنا للمتقين ﴿مَالَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ يعني لا يكون له فناء، ولا انقطاع عنهم، وهذا كما قال تعالى (لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ) ثم قال ﴿هذا﴾ يعني هذا الرزق للمتقين، فيتم الكلام عند قوله (هَذَا) ثم ذكر ما أوعد الكفار فقال عز وجل ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ يعني للكافرين لبئس المرجع لهم في الآخرة، ثم بين مرجعهم فقال عز وجل ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يعني يدخلونها ﴿فَبِئْسَ المِهَادُ﴾ يعني فبئس موضع القرار ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾ يعني هذا العذاب لهم فليذوقوه ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ وهو ماء حار قد انتهى حره، قرأ حمزة والكسائي وحفص غسَّاق، بتشديد السين، وقرأ الباقون بالتخفيف، وعن عاصم روايتان، رواية حفص بالتشديد، ورواية أبي بكر بالتخفيف[2]، فمن قرأ بالتشديد: فهو بمعنى سيال وهو ما يسيل من جلود أهل النار، ومن قرأ بالتخفيف: جعله مصدر غسق يغسق غساقاً، أي سال، وروي عن ابن عباس، وابن مسعود، أنهما قرآ غساق بالتشديد، وفسراه بالزمهرير، وقال مقاتل: الغساق، البارد الذي انتهى برده، وقال الكلبي: الحميم: هو ماء حار قد انتهى حره وأما غساق فهو الزمهرير، يعني برد يحرق كما تحرق النار، وقال بعضهم الغساق: المنتن بلفظ الطحاوية ثم قال عز وجل ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ يعني وعذاب آخر من نحوه يعني من نحو الحميم، والزمهرير، قرأ أبو عمر، وابن كثير في إحدى الروايتين (وَأُخَر من شكله) بضم الألف، وقرأ الباقون (وَآخَر) بالنصب[3]، فمن قرأ

---

(١) حجة من قرأ بالياء أن الكلام أتى عقيب الخبر عن المتقين، فأتبع ذلك فقال: «مفتحة لهم الأبواب. . . وعندهم قاصرات الطرف أتراب» فجرى الكلام بعد ذلك بالخبر عنهم، إذ كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد وحجة الباقين أن الخبر عنهم قد تناهى عند قوله: (أتراب) ثم ابتدىء الكلام بعد ذلك بالخبر عن حكاية ما خوطبوا به نظير قوله: ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾ ثم تناهى الخبر عنهم ثم جاء الكلام بعده على حكاية ما خوطبوا به فقال: ﴿وأنتم فيها خالدون﴾ أي: وقيل لهم. انظر حجة القراءات ٦١٤.

(٢) حجة من خفف أنه اسم موضوع على هذا الوزن مثل عذاب وشراب ونكال ـ حجة القراءات ٦١٤.

(٣) من أفرد فإنه عطف على قوله (حميم وغساق) و (آخر) أي: وعذاب آخر من شكله أي: مثل ذلك. وحجته ما روي عن ابن مسعود أنه قال في تفسير قوله ﴿وآخر من شكله﴾: الزمهرير فتفسيره حجة لمن قرأ (وآخر) بالتوحيد لأن الزمهرير واحد. فإن قيل: (لم جاز أن ينعت الآخر وهو واحد في اللفظ بـ(أزواج) وهي جمع؟) قيل: إن الأزواج نعت للحميم والغساق والآخر (فهي ثلاثة) وحجة من قرأ: (أُخر) على الجمع أن الأُخر قد نعتت بالجمع فدل على (أن) المنعوت جمع مثله. قال سفيان: (لو كانت (وآخر) لم يقل (أزواج) وقال (زوج). وقال الزجاج: من قرأ (وأُخَر فالمعنى: وأقوام أخر لأن قوله (أزواج) معناه: أنواع، انظر حجة القراءات ٦١٥.

بالضم فهو لفظ الجماعة ومعناه وأنواع أخر، ومن قرأ (وَأُخَرَ) بنصب الألف بلفظ الواحد يعني وعذاب آخر من شكله، أي مثل عذابه الأول (أزواج) يعني ألوان ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ يعني جماعة داخلة معكم النار يقال: اقتحم إذا دخل في المهالك، وأضلوا الدخول، تقول الخزنة للقادة وهذه جماعة داخلة معكم النار وهم الاتباع ﴿لَا مَرْحَبَاً بِهِمْ﴾ يعني لا وسع الله لهم ﴿إِنَّهُمْ صَالُـو النَّارِ﴾ يعني داخل النار معكم فردت الاتباع على القادة ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ﴾ يعني لا وسع الله عليكم ﴿أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ يعني أسلفتموه لنا وبدأتم بالكفر قبلنا فاتبعناكم ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ يعني بئس موضع القرار في النار قوله عز وجل ﴿قَالُوا رَبَّنَا من قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ الأمر هذا الذي كنا فيه ﴿فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ، وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ يعني فقراء المسلمين.

قوله عز وجل ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً﴾ قرأ حمزة والكسائي، وأبو عمرو (سخرياً اتخذناهم) بالوصل، وقرأ الباقون بالقطع[1] فمن قرأ بالقطع فهو على معنى الاستفهام بدليل قوله ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ لأن أم تدل على الاستفهام، ومن قرأ بالوصل فمعناه أنا اتخذناهم سخرياً، وجعل أم بمعنى بل، وقرأ حمزة والكسائي ونافع (سُخْرِيًّا) بضم السين، وقرأ الباقون بالكسر[2]، قال القتبي: فمن قرأ بالضم جعله من السخرة يعني تستذلهم، ومن قرأ بالكسر فمعناه إنا كنا نسخر منهم، ثم قال (أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ) يعني مالت وحادت أبصارنا عنهم فلا نراهم، قال الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ يعني يتكلم به أهل النار ويتخاصمون فيما بينهم.

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾ يعني رسول أخوفكم عذاب الله تعالى، وأبين لكم أن الله تعالى واحد ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ يعني قاهر لخلقه ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا العَزِيزُ﴾ بالنقمة ﴿الغَفَّارُ﴾ للمؤمنين قوله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ يعني القرآن حديث عظيم لأنه كلام رب العالمين ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ يعني تاركون فلا تؤمنون به، وقال الزجاج (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ) يعني قل إن النبأ الذي أنبأتكم عن الله عز وجل نبأ عظيم فيه دليل نبوتي، مما ذكر فيه من قصة آدم عليه السلام فإن ذلك لا يعرف إلا بوحي أو بقراءة كتب، ولم يكن قرأ الكتب ثم قال ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالمَلَأِ الأَعْلَى﴾ يعني الملائكة عليهم السلام ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني يتكلمون حين قالوا (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا). وإنما عرفت ذلك بالوحي.

إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ

---

(١) حجة القراءات ٦١٦ ـ النشر في القراءات العشر ٢/٣٦٢.

(٢) المصدران السابقان.

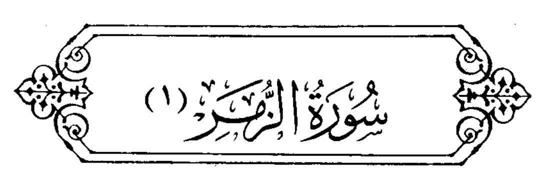
﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ٨٤ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٥ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨﴾

﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ يعني ما يوحي إليَّ ﴿إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ إلَّا أنا رسول بين ثم قال عز وجل ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ﴾ يعني آدم ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ يعني جمعت خلقه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي﴾ يعني وجعلت الروح فيه ﴿فَقَعُوْا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ يعني اسجدوا له ﴿فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ يعني سجدوا كلهم دفعة واحدة ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ أبى عن السجود و﴿اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ يعني وصار من الكافرين ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ﴾ ما منعك يعني يا خبيث ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ يعني الذي خلقته بيدي، قال بعضهم نؤمن بهذه الآية ونقرؤها، ولا نعرف تفسيرها يعني قوله بيدي، يعني الذي خلقت بيدي، وقال بعضهم تفسيرها كما قال الله تعالى، خلقته بيدي، ولا نفسر اليد، ونقول يد لا كالأيدي وهذا قول أهل السنة والجماعة، وقال بعضهم نفسرها بما يليق من صفات الله تعالى يعني خلقه بقدرته وقوته وإرادته، فإن قيل: قد خلق الله عز وجل سائر الأشياء بقوته وقدرته وإرادته فما الفائدة في التخصيص هنا؟ قيل له: قد ذكر اليد في خلق سائر الأشياء أيضاً وهو قوله (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا عَمِلَت أَيْدِينَا أَنْعَاماً) ويقال (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) أي بقوتي، قوة العلم، وقوة القدرة، ويقال خلقته بيدي: أي بماء السماء، وتراب الأرض كقوله، آدم خلقه من تراب، وكما قال عليه السلام «خلق الله تعالى الخلق من ماء» وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال «أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل حرف منها ظهر وبطن» وكذلك الأخبار قد جاء فيها أيضاً ماله ظهر وبطن، وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «لَا تَقُولُوا فَلاَنٌ قَبِيح فَإِن اللَّهَ عز وجل خلق آدم عَلَى صُورَتِهِ» ومن قال إن لله تعالى صورة كصورة آدم فهو كافر، ولكن المعنى في الخبر ما روي عن بعض المتقدمين أنه قال: إن الله تبارك وتعالى اختار من الصور صورة وخلق آدم عليه السلام بتلك الصورة، فمن ذلك قال: إن الله تعالى خلق آدم على صورته، أي على تلك الصورة التي اختارها الله، روى شبل عن ابن كثير أنه قرأ (بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرتَ) موصولة الألف، وقراءة العامة بقطع الألف[1] على الاستفهام بدليل قوله عز وجل (أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ) ومن قرأ موصولة فهو على معنى الوجوب، وتكون أم بمعنى بل ﴿استكبرت﴾ يعني تعظمت عن السجود ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ يعني بل كنت من العالين، من المخالفين لأمري ﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ قوله عز وجل ﴿قَالَ فَاخْرُج مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، وإِن عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وقد ذكرناه من قبل ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿قَالَ فَالْحَقُّ، وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ يقال معناه قولي الحق وأقول الحق، قرأ حمزة وعاصم (فالحقُّ) بالضم القاف، وقرأ الباقون[2] واتفقوا في الثاني أنه بالنصب، فمن

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٢٤.

(٢) انظر حجة القراءات ٦١٨ ـ النشر في القراءات العشر ٢/٣٦٢.

قرأ بالضم فمعناه: أنا الحق والحق أقول، ويقال: فمعناه فالحق مني، والحق أقول ويقال معناه فقولنا الحق، وأقول الحق ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ومن قرأ بالنصب فهو على معنى الإغراء يعني الزموا الحق، واتبعوا الحق، ثم قال: (والحق أقول) يعني وأقول الحق كقوله عز وجل (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) ثم قال عز وجل (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) يعني من ذريتك، وممن تبعك في دينك ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ يعني على الذي أتيتكم به من القرآن من أجر، ولكن أعلمكم بغير أجر ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ يعني ما أتيتكم به من قبل نفسي، وما تكلفته من تلقاء نفسي ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني ما هذا القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني: إلا عظة للجن والإنس ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ يعني: خبر هذا القرآن أنه حق، بعد حين يعني بعد الموت، ويقال: بعد الإسلام، ويقال بعد ظهور الإسلام. والله أعلم بالصواب.



وهي سَبعون وخمس آيات وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾

قول الله تبارك وتعالى ﴿تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن، صار رفعاً بالابتداء، وخبره من الله تعالى، أي

(١) هي مكية كلها عند الجمهور وعن ابن عباس أن قوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ الآيات الثلاث. وقيل إلى سبع آيات نزلت بالمدينة في قصة وحشي قاتل حمزة وسنده ضعيف وقصته عليها مخائل القصص. وابتدئت هذه السورة بما هو كالمقدمة للمقصود وذلك بالتنويه بشأن القرآن تنويهاً تكرر في ستة مواضع من هذه السورة لأن القرآن جامع لأغراضها. وأغراضها كثيرة تحوم حول إثبات تفرد الله تعالى بالإلهية وإبطال الشرك فيها. وإبطال تعللات المشركين لإشراكهم وأكاذيبهم. ونفي ضرب من ضروب الإشراك وهو زعمهم أن لله ولداً. والإستدلال على وحدانية الله في الإلهية بدلائل تفرده بإيجاد العوالم العلوية والسلفية وبتدبير نظامها وما تحتوي عليه مما لا ينكر المشركون انفراده به. والخلق العجيب في أطوار تكون الإنسان والحيوان. والإستدلال عليهم بدليل من فعلهم وهو التجاؤهم إلى الله عندما يصيبهم الضر. والدعوة إلى التدبر فيما يلقى إليهم من القرآن الذي هو أحسن القول. وتنبيهم على كفرانهم شكر النعمة والمقابلة بين حالهم وبين حال المؤمنين المخلصين لله وأن دين التوحيد هو الذي جاءت به الرسل من قبل. والتحذير من أن يحل بالمشركين ما حل بأهل الشرك من الأمم الماضية. وإعلام المشركين بأنهم وشركاءهم لا يعبأ بهم عند الله وعند رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالله غني عن عبادتهم ورسوله لا يخشاهم ولا يخاف أصنامهم لأن الله كفاه إياهم جميعاً.

وإثبات البعث والجزاء لتجزى كل نفس بما كسبت. وتمثيل البعث بإحياء الأرض بعد موتها. وضرب لهم مثله بالنوم والإفاقة بعده وأنه يوم الفصل بين المؤمنين والمشركين. وتمثيل حال المؤمنين وحال المشركين في الحياتين الحياة الدنيا والحياة الآخرة. ودعاء المشركين للإقلاع عن الإسراف على أنفسهم ودعاء المؤمنين للثبات على التقوى ومفارقة دار الكفر. وختمت بوصف حال يوم الحساب. وتخلل ذلك كله وعيد ووعد وأمثال وترهيب وترغيب ووعظ وإيماء بقوله ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون﴾ الآية إلى أن شأن المؤمنين أنهم أهل علم وأن المشركين أهل جهالة وذلك تنويه برفعة العلم ومذمة الجهل. انظر التحرير ٢٣/٣١١ ـ ٣١٢ ـ ٣٠٣.

نزل الكتاب من عند الله ﴿الْعَزِيزِ﴾ بالنقمة ﴿الْحَكِيمِ﴾ في أمره، ومعناه نزل جبريل بهذا القرآن من عند الله (العَزِيزِ الحَكِيمِ) وقال بعضهم: صار رفعاً لمضمر فيه، ومعناه هذا الكتاب تنزيل قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني أنزلنا إليك جبريل بالكتاب ﴿بِالْحَقِّ﴾ ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ يعني استقم على التوحيد، وعلى عبادة الله تعالى مخلصاً، وإنما خاطبه والمراد به قومه، يعني وحدوا الله تعالى ولا تقولوا مع الله شريكاً ثم قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ يعني له الولاية والوحدانية، ويقال له الدين الخالص، والخالص: هو دين الإسلام فلا يقبل غيره من الأديان، لأن غيره من الأديان ليس هو بخالص سوى دين الإسلام قوله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني عبدوا من دونه أرباباً، وأوثاناً ﴿مَانَعْبُدُهُمْ﴾ على وجه الاضمار، قالوا مَا نَعْبُدُهُم يعني يقولون ما نعبدهم، وروي عن عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب أنهما كانا يقرآن وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قالوا (ما يعبدهم)[1] بالياء، وقراءة العامة مَا نَعْبُدُهُمْ على وجه الإضمار لأن في الكلام دليلاً عليه ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ يعني ليشفعوا لنا، ويقربونا عند الله ويقال ليقربونا إلى الله زلفى يعني منزلة. يقول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني يقضي بينهم يوم القيامة ﴿فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ أي لا يرشد إلى دينه ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ في قوله الملائكة بنات الله وعيسى بن الله، كفار، يعني كفروا بالله، بعبادتهم إياهم، ويقال معناه: لا يوفق لتوحيده من هو كاذب على الله، حتى يترك كذبه ويرغب في دين الله ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ كما قلتم ﴿لَاصْطَفَى﴾ يعني لاختار من الولد ﴿مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من خلقه إن فعل ذلك ثم قال ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزه نفسه عن الولد، وعن الشرك ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ يعني الذي لا شريك له، القهار: يعني القاهر لخلقه، ثم بين ما يدل على توحيده ويعجز عنه المخلوقون قوله عز وجل ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ يعني للحق، ولم يخلقهما باطلاً لغير شيء ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾ قال مجاهد يعني يدهور الليل على النهار ﴿وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ يعني يدهور النهار على الليل وقال مقاتل: يكور يعني يسلط عليه، وهو انتقاص كل واحد منهما من صاحبه، وقال الكلبي يكور يعني يزيد من النهار في الليل فيكون الليل أطول من النهار، ويزيد من الليل في النهار فيكون النهار أطول من الليل هذا يأخذ من هذا، وهذا يأخذ من هذا، وقال القتبي: يُكَوِّرُ يعني: يدخل هذا على هذا، وأصل التكوير اللف والجمع، ومنه كور العمامة، ومنه قوله (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) (وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ يعني: ذلل ضوء الشمس والقمر للخلق ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني: إلى أقصى منازله، ويقال إلى يوم القيامة ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ يعني: العزيز بالنقمة لمن لم يتب ﴿الْغَفَّارُ﴾ لمن تاب، ويقال العزيز في ملكه، الغفار لخلقه بتأخير العذاب.

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

قوله عز وجل: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني من نفس آدم ـ عليه السلام ـ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾

(١) انظر في الدر المنثور ٥/٣٢٢.

حواء ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ يعني ثمانية أصناف وقد فسرناه في سورة الأنعام ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ يعني نطفة ثم علقة، ثم مضغة، حالاً بعد حال ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ أي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وهو الذي يكون فيه الولد في الرحم فتخرج بعد ما يخرج الولد ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ يعني الذي خلق هذه الأشياء هو ربكم ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ يعني من أين تكذبون على الله؟ ومن أين تعدلون عنه إلى غيره؟ فاعلموا أنه خالق هذه الأشياء ثم قال ﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ يعني إن تجحدوا وحدانيته (فإن الله غني عنكم) يعني عن إقراركم وعبادتكم ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ قال الكلبي يعني: ليس يرضى من دينه الكفر، ويقال: لا يرضى لعباده الكفر، وهو ما قاله لإبليس أن عبادي ليس لك عليهم سلطان ويقال: لا يرضى لعباده الكفر يعني بشيء من عبادة الكفار ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ يعني إن تؤمنوا بالله وتوحدوه يرضه لكم، يعني: يقبله منكم، لأنه دينه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ يعني لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ﴿ثم إلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني مصيركم في الآخرة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ يعني فيخبركم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر، فيجازيكم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني عالم بما في ضمائر قلوبهم.

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

ثم قال ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانُ ضُرٌّ﴾ يعني إذا أصاب الكافر شدة في جسده ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ﴾ يعني مقبلاً إليه بدعائه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ﴾ قال مقاتل يعني أعطاه، وقال الكلبي يعني بدله عافية مكان البلاء ﴿نَسِيَ﴾ ترك الدعاء ﴿مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ ويتضرع به ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ يعني يصف لله شريكاً ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضل بنصب الياء وهو من ضل يضل، يعني ترك الهدى، وقرأ الباقون ليضل بالضم يعني ليضل الناس، ويقال ليضل نفسه بعبادة غير الله ويصرفهم عن سبيل الله يعني عن دين الله ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً﴾ يعني عش في الدنيا مع كفرك قليلاً ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ يعني من أهل النار قوله عز وجل ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً﴾ وأصل القنوت هو القيام، ثم سمي المصلي قانتاً لأنه بالقيام يكون، ومعناه أمن هو مصل كمن لا يكون مصلياً، على وجه الإضمار، وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «مثل المجاهد في سبيل الله، كمثل القانت القائم» يعني المصلي القائم قرأ ابن كثير ونافع وحمزة (أمن) بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد[1]، فمن قرأ بالتخفيف فقد روي عن الفراء أنه قال: معناه يا من هو قانت كما تقول في الكلام فلان لا يصوم ولا يصلي فيا من يصلي ويصوم أبشر فكأنه قال يا من هو قانت أبشر ومن قرأ بالتشديد فإنّه يريد به معنى الذي، ومعناه الذي هو من أصحاب النار، فهذا أفضل، أم الذي هو قانت آناء الليل، يعني ساعات الليل في الصلاة ساجداً وقائماً في الصلاة ﴿يَحْذَرُ ٱلآخِرَةَ﴾ يعني يخاف عذاب الآخرة ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ يعني مغفرة الله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي

(١) انظر حجة القراءات ٦٢٠ ـ النشر ٢/٣٦٢.

﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ وهم المؤمنون ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ وهم الكفار، في الثواب والطاعة، ويقال قُلْ هَلْ يِسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ يعني يصدقون بما وعد الله في الآخرة من الثواب وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ يعني لا يصدقون، ويقال معناه قل هل يستوي العالم والجاهل، فكما لا يستوي العالم والجاهل، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُـو الْأَلْبَابِ﴾ يعني يعتبر في صنعي وقدرتي من له عقل وذهن قوله عز وجل﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ يعني اخشوا ربكم في صغير الأمور وكبيرها واثبتوا على التوحيد ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ يعني لمن عمل بالطاعة في الدنيا حسنة، له الجنة في الآخرة ويقال: للذين أحسنوا يعني شهدوا أن لا إله إلاَّ الله في الدنيا حسنة يعني لهم الجنة في الآخرة، ويقال للذين أحسنوا أي ثبتوا على إيمانهم فلهم الجنة قوله ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ قال مقاتل يعني الجنة واسعة، وقال الكلبي وأرض الله واسعة يعني المدينة فتهاجـروا فيها، يعني انتقلوا إليهـا واعملوا لآخرتكم، ﴿إِنَّمَـا يُوَفَّى الصَّـابِرُونَ أَجْرَهُمْ﴾ يعني هم الذين يصبرون على الطاعة لله في الدنيا، جزاؤهم وثوابهم على الله ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يعني بلا عدد ولا انقطاع، وروى سفيان عن عبد الملك بن[1]عمير عن جندب بن عبد الله أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال «أنا فرطكم على الحوض» قال سفيان: لما نزل (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «ربِ زد أمتي» فنزل (مَثَلُ الَّذِين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مَائَةُ حَبَّةٍ) قال رب زد أمتي، فنزل(من ذا الذي يقرض اللَّهِ قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «رب زد أمتي» فنزل (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) فانتهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، قوله عز وجل:

قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

قال عز وجل ﴿قُلْ أنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ وذلك أن كفار قريش قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا تنظر إلـى ملة أبيك عبد الله، وملة جدك عبد المطلب، وسادات قومك يعبدون الأصنام، فنزل (قل) يا نبي الله إنِّي أمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ يعني التوحيد ﴿وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾من أهل بلدي ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ وعبدت غيره ينزل علي ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي في يوم القيامة ﴿قُلْ اللَّهَ أَعْبُدُ﴾ يعني

(١) عبد الملك بن عمير بن سويد بن جارية اللخمي ويقال القرشي الكوفي التابعي ضعفه أحمد بن حنبل توفي سنة ست وثلاثين ومائة ـ انظر تهذيب الأسماء ١/ ٣٠٩.

أعبد الله ﴿مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ أي توحيدي ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ من الآلهة وهذا كقوله (لَكُمْ دِينُكُمْ) ويقال (فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِنْ دُونِهِ) لفظه لفظ التخيير والأمر، والمراد به التهديد والتخويف، كقوله (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ) وكقوله (قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً) ويقال قد بين الله ثواب المؤمنين وعقوبة الكافرين، ثم قال: فاعبدوا ما شئتم من دونه وذلك قبل أن يؤمر بالقتال، فلما أيسوا منه أن يرجع إلى دينهم قالوا خسرت إن خالفت دين آبائك، فقال الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾يعني أنتم الخاسرون لا أنا، ويقال الذين خسروا أنفسهم بفوات الدرجات ولزوم الشركات ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ يعني الظاهر، حيث خسروا أنفسهم وأهلهم، وأزواجهم ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾ يعني أطباقاً من نار ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ يعني مهاداً من نار، أو معناه أن فوقهم نار، وتحتهم نار ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ أي ذلك الذي ذكر يخوف الله به عباده في القرآن لكي يؤمنوا ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ أي فوحدون، وأطيعون ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ قال مقاتل: يعني اجتنبوا عبادة الأوثان، وقال الكلبي: الطاغوت يعني الكهنة ﴿أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ يعني أن يطيعوها، ورجعوا إلى عبادة ربهم ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي أقبلوا إلى طاعة الله ويقال: رجعوا من عبادة الأوثان إلى عبادة الله ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ يعني الجنة، ويقال الملائكة يبشرونهم في الآخرة ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ يعني القرآن ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ يعني يعملون بحلاله، وينتهون عن حرامه، وقال الكلبي: يعني يجلس الرجل مع القوم فيستمع الأحاديث محاسن ومساوىء، فيتبع أحسنه فيأخذ المحاسن فيحدث بها، ويدع مساوئه، ويقال يستمعون القرآن ويتبعون أحسن ما فيه، وهو القصاص والعفو، يأخذ العفو لقوله (وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) (وقال بعضهم: يستمع النداء فيستجيب ويسرع إلى الجماعة وقال بعضهم: يستمع الناسخ والمنسوخ، والمحكم من القرآن فيعمل بالمحكم، ويؤمن بالناسخ والمنسوخ)[1] ثم قال ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي وفقهم الله لمحاسن الأمور، ويقال هداهم الله أي أكرمهم الله تعالى بدين التوحيد ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ يعني ذوي العقول قوله عز وجل ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ يعني وجب له العذاب، ويقال أفمن سبق في علم الله تعالى أنه في النار، كمن لا يجب عليه العذاب ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ يعني تستنقذ من هو في علم الله تعالى أنه يكون في النار بعمله الخبيث، ويقال: من وجبت له النار، وقدرت عليه، ثم ذكر حال المؤمنين المتقين فقال عز من قائل ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ يعني وحدوا ربهم، وأطاعوا ربهم ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ﴾ في الجنة، وهي العلالي، غرف مبنية مرتفعة بعضها فوق بعض ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ﴾ في القرآن ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ

(١) سقط في ظ.

مِن هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي فأدخله في الأرض فجعله ينابيع يعني عيوناً في الأرض تنبع، ويقال (فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ) يعني جارياً في الأرض وهي تجري فيها، ويقال جعل فيها أنهاراً وعيوناً ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾ أحمر وأصفر وأخضر ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي يتغير ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ أي يابساً بعد الخضرة، ويقال ثُمَّ يَهِيجُ يعني ييبس، ويقال: يهيج أي يتم ويشتد، من هاج يهيج، أي تم يتم فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا متغيراً عن حاله ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً﴾ قال القتبي: حطاماً مثل الرفات والفتات، وقال الزجاج: الحطام: ما تفتت وتكسر من النبت، وقال مقاتل: حطاماً يعني هالكاً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ أي فيما ذكر لعظة ﴿لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ يعني لذوي العقول من الناس ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ يعني وسع الله قلبه للإسلام، ويقال: لين الله قلبه لقبول التوحيد ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني على هدى من الله تعالى وجوابه مضمر، يعين أفمن شرح الله صدره للإسلام، واهتدى، كمن طبع على قلبه وختم على قلبه فلم يهتد، ويقال: فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) يعني القرآن. لأن فيه بيان الحلال والحرام، فهو على نور من ربه لمن تمسك به ويقال على نور: يعني التوحيد والمعرفة، وروي في الخبر أنه لما نزلت هذه الآية ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ قالوا فكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: إذا دخل النور في القلب انفسح وانشرح، قالوا: فهل لذلك علامة؟ قال: نعم التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت[1] ثم قال ﴿فَوَيْلٌ﴾ يعني الشدة من العذاب ﴿لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني لمن قست، ويبست قلوبهم ﴿مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ تعالى ويقال القاسية: الخالية من الخير ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني أهل هذه الصفة ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي في خطأ بين قوله عز وجل ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعني أحكم الحديث وهو القرآن، وذلك أن المسلمين قالوا لبعض مؤمني أهل الكتاب نحو عبد الله بن سلام أخبرنا عن التوراة فإن فيها علم الأولين والآخرين، فأنزل الله تعالى اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ يعني أنزل عليكم أحسن الحديث وهو القرآن، ويقال: أحسن الحديث يعني أحسن من سائر الكتب، لأن سائر الكتب صارت منسوخة بالقرآن ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾ يعني يشبه بعضه بعضاً ولا يختلف، ويقال متشابهاً يعني موافقاً لسائر الكتب في التوحيد، وفي بعض الشرائع، وروي عن الحسن البصري أنه قال: متشابهاً يعني خياراً لا رذالة فيه ويقال متشابهاً: اشتبه على الناس تأويله ثم قال ﴿مَثَانِيَ﴾ يعني أن الأنباء والقصص تثنى فيه، ويقال: سمي مثاني لأن فيه سورة المثاني يعني سورة الفاتحة (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ثم قال ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ﴾ يعني ترتعد مما فيه من الوعيد ﴿جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ ويقال تقشعر منه يعني تتحرك مما في القرآن من الوعيد، ويقال ترتعد منه الفرائص ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ يعني بعد الاقشعرار ﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ من آية الرحمة والمغفرة، يعني إذا قرأت آيات الرجاء والرحمة تطمئن قلوبهم وتسكن ﴿ذَلِكَ﴾ يعني القرآن، ﴿هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني بالقرآن من يشاء الله أن يهديه إلى دينه ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ عن دينه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يعني لا يقدر أحد أن يهديه بعد خذلان الله

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٢٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة.

تعالى قوله عز وجل ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ ٱلْعَذَابِ﴾ يعني أفمن يدفع بوجهه شدة سوء العذاب، وجوابه مضمر، يعني هل يكون حاله كحال من هو في الجنة، يعني ليس الضال الذي تصل النار إلى وجهه كالمهتدي الذي لا تصل النار إلى وجهه ليسا سواء، وقال أهل اللغة: أصل الاتقاء في اللغة[1]: الإوتقاء وهو التستر، يعني وجهه إلى النار كالذي لا يفعل ذلك به، وروى ابن أبي نجيح،عن مجاهد قال(أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ ٱلْعَذَابِ) يعني يجر على وجهه في النار، وهذا كقوله (أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ)[2] ويقال (أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ ٱلْعَذَابِ) معناه أنه يلقى في النار مغلولاً، لا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ يعني للكافرين ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من التكذيب قوله عز وجل ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني من قبل قومك رسلهم ﴿فَأَتَاهُمُ ٱلعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني لا يعلمون، ولا يحتسبون وهم غافلون ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلخِزْيَ﴾ العذاب ﴿فِي ٱلحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ يعني أعظم مما عذبوا به في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ولكنهم لا يعلمون.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا ٱلْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يعني بينا في هذا القرآن من كل شيء، وقد بين بعضه مفسراً، وبعضه مبهماً مجملاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يتعظوا ﴿قُرْآناً عَرَبِياً﴾ يعني أنزلناه قرآناً عربياً، بلغة العرب ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ يعني ليس بمختلف، ولكنه مستقيم، ويقال: غير ذي تناقض، ويقال غير ذي عيب، ويقال: غير ذي عوج أي غير مخلوق، قال أبو الليث[3] رحمه الله حدثنا محمد بن داود[4] قال حدثنا محمد بن أحمد[5] بإسناده قال حدثنا أبو حاتم الداري عن سليمان بن داود العتكي عن يعقوب بن محمد بن عبد الله الأشعري عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: في قوله تعالى ﴿قُرْآناً عَرَبِياً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ قال غير مخلوق[6] ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي لكي يتقوا الشرك ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً﴾ أي بين شبهاً ﴿رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي عبداً بين موالي مختلفين، يأمره هذا بأمر وينهاه هذا عنه، ويقال متشاكسون أي مختلفون يتنازعون ﴿وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ﴾ أي خالصاً لرجل لا شركة فيه لأحد، قرأ ابن كثير وأبو عمر (سَالِمًا) بالألف وكسر

---

(١) انظر لسان العرب ٤٩٠٢/٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٢٦/٥ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد.

(٣) الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي أبو الحارث المصري ثقة ثبت فقيه إمام مشهور مات في شعبان سنة خمس وسبعين - التقريب ١٣٨/٢.

(٤) محمد بن داود بن صبيح أبو جعفر المصيصي ثقة فاضل ـ انظر التقريب ١٦٠/٢.

(٥) محمد بن أحمد بن الجراح أبو عبد الرحيم الجوزجاني كان صاحب سنة وخبر وفضل وكان أبوه حنفياً ـ انظر التهذيب ٢٠/٩.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٢٦/٥ وعزاه للآجري في الشريعة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس.

اللام، والباقون (سَلَماً) بغير ألف ونصب السين[١]، فمن قرأ سَالِماً فهو اسم الفاعل على معنى سلم فهو سالم، ومعناه الخالص، ومن قرأ (سَلَماً) فهو مصدر فكأنه أراد به رجلاً ذا سلم لرجل، ومعنى الآية: هل يستوي من عبد آلهة مختلفة، كمن عبد رباً واحداً، وقال قتادة الرجل: الكافر، والشركاء: الشياطين والآلهة[٢] وَرَجُلاً سَلَماً المؤمن يعمل لله تعالى وحده، وقال بعضهم هذه المثل للراغب والزاهد، فالراغب شغلته أمور مختلفة فلا يتفرغ لعبادة ربه، فإذا كان في العبادة فقلبه مشغول بها، والزاهد قد يتفرغ عن جميع أشغال الدنيا فهو يعبد ربه خوفاً وطمعاً ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ يعني عنده في المنزلة يوم القيامة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال مقاتل الحمد لله حين خصهم، ويقال: الحمد لله على تفضيل من اختاره على من اشتغل بما دونه، ويقال يعني: قولوا الحمد لله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾أنَّ عبادة رب واحد خير من عبادة أرباب شتى ويقال (لَا يَعْلَمُونَ) أنهما لا يستويان ويقال (لَا يَعْلَمُونَ) توحيد ربهم ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ذلك أن كفار قريش قالوا: نتربص به ريب المنون، يعني ننتظر موت محمد ـ عليه السلام ـ فنزل إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) يعني أنت ستموت وهم سيموتون، ويقال (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُون) يعني إنك لميت لا محالة وإنهم لميتون لا محالة، والشيء إذا قرب من الشيء سمي باسمه، فالخلق كلهم إذا كانوا بقرب من الموت فكل واحد منهم يموت لا محالة فسماهم ميتين ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ أي تتكلمون بحججكم الكافر مع المؤمن، والظالم مع المظلوم، فإن قيل: قد قال في آية أخرى (لَا تَخْتَصِمُوا دَيَّ) قيل له: إن في يوم القيامة ساعات كثيرة، وأحوالها مختلفة، مرة يختصمون ومرة لا يختصمون كما أنه قال فهم لا يتساءلون وقال في آية أخرى (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) يعني في حال يتساءلون، وفي حال لا يتساءلون، وهذا كما قال في موضع آخر (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَان)، وقال في آية أخرى (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِين)، وكما قال في آية أخرى لا يتكلمون، وفي آية أخرى أنهم يتكلمون ونحو هذا كثير في القرآن، وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «لَا تَزَال الخُصومَة بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتى تَتَخاصَمَ الرُّوح والجَسَد، فَيَقُول الجَسَد إنَّمَا كُنْتُ بِمَنْزِلَةِ جِزْع مُلْقَى، لَا أَسْتَطِيع شَيْئاً، وَتَقُولُ الرُّوح إِنَّمَا كُنْتُ رِيحاً لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعْمَلَ شَيْئاً، فَضُرِبَ لَهُما مَثَلُ الأَعْمَى والمُقْعَد، فَحَمَلَ الأَعْمَى المُقْعَد فَيَدُلَّهُ المُقْعَد بِبَصَرِهِ وَيَحْمِله الأعْمَى[٣] برجْلَيه» وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أنس قال: سألت أبا العالية عن قوله (لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ) ثم قال (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) فكيف هذا؟ قال: أما قوله (لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ) فهو لأهل الشرك، وأما قوله (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) فهو لأهل القبلة، يختصمون في مظالم ما بينهم.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ

(١) حجة من قرأ بالألف قوله: (فيه شركاء متشاكون) فكما أن الشريك عبارة عن العين وليس باسم حدث، كذلك الذي بإزائه ينبغي أن يكون فاعلاً ولا يكون إسم حدث. وكذلك اختارها أبو عبيد وال: (إن الخالص هو ضد المشترك، وأما (السَلَم) فإنما ضد المحارب ولا موضع للحرب ها هنا). وحجة الباقين قوله: (متشاكسون) لأن معناه: (متنازعون) يدعيه كل واحد منهم ثم وصف من هو ضد هذه الحال ممن لا تنازع فيه ولا اختصام فقال: (رجلاً سَلَماً لرجل) وكان معلوماً أن السلم ضد التنازع فكان تأويله: (ورجلاً سُلِّم لرجل فلم ينازع فيه) ومنه قيل للسلف: (سَلَم) لأنه سُلِّم إلى من استسلفه. انظر حجة القراءات ٦٢١ ـ ٦٢٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور بنحوه ٥/٣٢٧ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٢٨ وعزاه لابن منده عن ابن عباس موقوفاً.

ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ**﴾ أي فلا أحد أظلم ممن كذب على الله بأن معه شريكاً ﴿**وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ**﴾ يعني بالقرآن وبالتوحيد، ويقال (وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ) يعني بالصادق وهو النبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿**أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ**﴾ يعني مأوى للذين يكفرون بالقرآن، فاللفظ: لفظ الاستفهام والمراد به التحقيق كقوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) ﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ**﴾ أي بالقرآن وصَدَّق به أي أصحابه ويقال وصدق به المؤمنون، وقال القتبي (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ) هو في موضع جماعة ومعناه: والذين جاؤوا بالصدق وصدقوا به، وهذا موافق لخبر ابن مسعود، وقال قتادة، والشعبي، ومقاتل، والكلبي (والَّذي جَاءَ بِالصِّدْقِ) يعني النبي - صلى الله عليه وسلم -(وَصَدَّقَ بِهِ) يعني المؤمنون، وذكر عن علي بن أبي طالب أنه قال (وَالَّذي جَاءَ بِالصِّدْقِ) يعني النبي - صلى الله عليه وسلم - (وَصَدَّقَ بِهِ) يعني أبو بكر[١] ﴿**أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ الذين اتقوا الشرك، والفواحش، وقرأ بعضهم وَصَدَقَ بالتخفيف[٢]، يعني النبي - صلى الله عليه وسلم - قرأ على الناس كما أنزل عليه ولم يزد في الوحي شيئاً، ولم ينقص من الوحي شيئاً ﴿**لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾ يعني لهم ما يريدون ويحبون في الجنة ﴿**ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ**﴾ أي ثواب الموحدين المطيعين المخلصين ﴿**لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ**﴾ يعني ليمحو عنهم ويغفر لهم ﴿**أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا**﴾ يعني أقبح ما عملوا مخالفاً للتوحيد ﴿**وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ**﴾ أي ثوابهم ﴿**بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ يعني يجزيهم بالمحاسن، ولا يجزيهم بالمساوىء لأنه ليس لهم ذنب ولا خطايا فلا يجزيهم بمساوئهم ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾ قرأ حمزة، والكسائي عِبَادَهُ بالألف بلفظ الجماعة، يعني الذين صدقوا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وبالقرآن، والباقون عَبْدَه بغير ألف[٣]، يعني النبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿**وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ**﴾ يعني بالذين يعبدون من دونه وذلك أن كفار مكة قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - لا تزال تقع في آلهتنا فاتق كيلا يصيبك منها معرة، أو سوء، فنزل (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) الآية، وروى معمر عن قتادة قال: بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - خالد بن الوليد إلى العزى ليكسرها، فمشى إليها بالفأس فقالت له قيمتها يا خالد: احذر فإن لها شدة، لا يقوم لها أحد، فمشى إليها خالد فهشم أنفها[٤] بالفأس، ويقال أَلَيْسَ اللَّهُ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٢٨ وعزاه لابن جرير والباوردي في معرفة الصحابة وابن عساكر من طريق أسيد بن صفوان وله صحبة عن علي بن أبي طالب.

(٢) هي قراءة أبي طالح الكوفي - انظر تفسير القرطبي ١٥/١٦٧.

(٣) حجتهم قوله: «يخوفونك (بالذين من دونه) أي ويخوفونك يا محمد. فكأن المعنى: أليس الله بكافيك وهم يخوفونك من دونه يعني الأصنام وذلك أن قريشاً قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم -: أما تخاف أن يخبلك آلهتنا لعيبك؟ إياها؟ فأنزل الله: ﴿**أليس الله بكاف عبده**﴾ فأخبر ثم خاطبه والمخبَر والمخاطب واحد والعرب تخبر ثم ترجع إلى الخطاب ومن قرأ (عباده) فالمعنى: أليس الله بكاف عباده الأنبياء قبل كما كفى إبراهيم النار ونوحاً الغرق ويونس ما دفع إليه فهو سبحانه كافيك كما كفى هؤلاء الرسل قبلك. قال الفراء؛ قد همت أمم الأنبياء بهم ووعدوهم مثل هذا فقالوا لهود: ﴿**إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء**﴾فقال الله: ﴿**أليس بكاف عباده**﴾ أي محمداً والأنبياء قبله. انظر حجة القراءات ٦٢٢ - ٦٢٣. إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٢٩.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٢٨ وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن جرير عن قتادة.

بِكَافٍ عَبْدُهُ يعني الأنبياء ثم قال ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يعني من يخذله الله عن الهدى فما له من مرشد ولا ناصر ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ أي ليس له أحد يخذله ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ يعني عزيزاً في ملكه ذي انتقام من عدوه.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فعل ذلك ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني ما تعبدون من دون الله من الآلهة ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ يعني إنْ أصابني الله ببلاء، ومرض في جسدي، وضيق في معيشتي، أو عذاب في الآخرة ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ يعني هل تقدر الأصنام على دفع ذلك عني ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ أي بنعمة وعافية وخير ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ يعني هل تقدر الأصنام على دفع تلك الرحمة عني، قرأ أبو عمر كَاشِفَاتٌ بالتنوين ضُرَّهُ بالنصب مُمْسِكَاتٌ بالتنوين رَحْمَتَهُ بالنصب، والباقون بغير تنوين وكسر ما بعده[1] على وجه الإضافة، فمن قرأ بالتنوين نصب ضره ورحمته لأنه مفعول به ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ يعني يكفيني الله من شر آلهتكم، ويقال: حسبي الله يعني: أثق به (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) أي فوضت أمري إلى الله ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي يثق به الواثقون، فأنا متوكل، وعليه توكلت ﴿قُلْ يَا قَوْم اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي في

---

(١) حجة أبي عمرو: أن الفعل منتظر وأنه مما لم يقع وما لم يقع من أسماء الفاعلين إذا كان في الحال فالوجه فيه النصب. المعنى: هل هن يكشفن ضره أو يمسكهن رحمته. وحجة الإضافة: أن الإضافة قد استعملتها العرب في الماضي والمنتظر وأن التنوين لم يستعمل إلاّ في المنتظر خاصة فلما كانا مستعملين وقد نزل بهما القرآن فقال جل وعز: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ أخذ بأكثر الوجهين أصلاً وحجة أخرى: وهو أنه يراد فيهما التنوين ثم يحذف التنوين كما قال سبحانه: ﴿إلا آتي الرحمن عبداً﴾ هذا لم يقع وتقديره: آتٍ «الرحمن». انظر حجة القراءات ٦٢٣.

منازلكم ويقال (عَلَى مَكَانَتِكُمْ) أي على قدر طاقتكم وجهدكم ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ في إهلاككم لأنهم قالوا له إن لم تسكت عن آلهتنا نعمل في إهلاكك فنزل (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) إهلاكي في مكانتكم (إِنِّي عَامِلٌ) في إهلاككم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من نجا، ومن هلك، قرأ عاصم في رواية أبي بكر مكاناتكم بلفظ الجماعة والباقون[1] مكانتكم والمكانة، والمكان واحد ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يخزيه﴾ أي من يأتيه عذاب الله يهلكه ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أي دائم لا ينقطع أبداً ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ يعني أنزلنا عليك جبريل بالقرآن، للناس بالحق، يعني لتدعو الناس إلى الحق، وهو التوحيد ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ أي وحد وصدق بالقرآن، وعمل بما فيه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي ثواب الهدى لنفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ يعني أعرض ولم يؤمن بالقرآن فقد أوجب العقوبة على نفسه ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ يعني ما أنت يا محمد عليهم بحفيظ، ويقال بمسلط وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ قال الكلبي: الله يقبض الأنفس عند موتها ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ فيقبض نفسها إذا نامت أيضاً ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ فلا يردها ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى﴾ التي لم تبلغ أجلها ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي يردها إلى أجلها، وقال مقاتل (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ) عند أجلها، والتي قضى عليها الموت، فيمسكها عن الجسد، على وجه التقديم، والتي لم تمت في منامها فتلك الأخرى التي أرسلها إلى الجسد إلى أجل مسمى، وقال سعيد بن جبير: الله يقبض أنفس الأحياء والأموات، فيمسك أنفس الأموات، ويمسك أنفس الأحياء إلى أجل مسمى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي يعتبرون، قرأ حمزة والكسائي قُضِيَ عليها بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء، وبضم التاء في الموت، على فعل ما لم يسم فاعله، والباقون (قَضَى عَلَيْهَا) بالنصب[2]، يعني قضى الله عليها الموت، ونصب الموت، لأنه مفعول به ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الميم صلة معناه اتخذوا، فاللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به التوبيخ والزجر، فقال أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿شُفَعَاءَ﴾ يعني يعبدون الأصنام لكي تشفع لهم ﴿قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني يعبدونهم وإن كانوا لا يعقلون شيئاً ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ أي قل يا محمد لله الأمر والإذن في الشفاعة، وهذا كقوله (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) وكما قال (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ) ثم قال ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني خزائن السموات والأرض، ويقال نفاذ الأمر في السموات والأرض، وله نفاذ الأمر في السموات والأرض ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ﴾ يعني إذا قيل لهم قولوا: لا إله إلا الله اشمأزت قال مقاتل: يعني انقبضت عن التوحيد، وقال الكلبي أعرضت ونفرت، وقال القتبي: العرب تقول: اشمأز قلبي من فلان أي نفر منه ﴿قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني لا يصدقون بيوم القيامة ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الآلهة ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بذكرها، وذلك أنه حين قرأ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سورة النجم وذكر آلهتهم استبشروا.

قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٣٠.

(٢) حجة من قرأ على ما لم يسم فاعله أن الكلام أتى عقيب ذلك بترك تسمية الفاعل وهو قوله «إلى أجل مسمى» وحجة الباقين أن الكلام أتى عقيب إخبار الله عن نفسه في قوله ﴿الله يتوفى الأنفس﴾ فيمسك. ويرسل «فجرى الفعل بعد ذلك بلفظ ما تقدمه من ذكر الفاعل، إذا كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد ـ حجة القراءات ٦٢٤.

سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

قال الله تعالى للنبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ صار نصباً بالنداء، يعني يا خالق السموات والأرض ﴿**عَالِمَ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ**﴾ يعني عالماً بما غاب عن العباد، وما لم يغب عنهم، ويقال عالماً بما مضى، وما لم يمض، وما هو كائن، ويقال: عالم السر والعلانية ﴿**أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ**﴾ يعني أنت تقضي في الآخرة بين عبادك ﴿**فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ من أمر الدين ﴿**وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ أي كفروا ﴿**مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ**﴾ أي مثل ما في الأرض ﴿**لَافْتَدَوْا بِهِ**﴾ أي لفادوا به أنفسهم ﴿**مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ**﴾ أي من شدة العذاب ﴿**يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ وفي الآية مضمر، أي لا يقبل منهم ذلك ﴿**وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ**﴾ أي ظهر لهم حين بعثوا من قبورهم ﴿**مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾ في الدنيا أنه نازل بهم، يعني يعملون أعمالاً يظنون أن لهم فيها ثواباً فلم تنفعهم مع شركهم، فظهرت لهم العقوبة مكان الثواب ﴿**وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا**﴾ أي عقوبات ما عملوا ﴿**وَحَاقَ بِهِمْ**﴾ أي نزل بهم عقوبة ﴿**مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ يعني باستهزائهم بالمسلمين، ويقال باستهزائهم بالرسول، والكتاب، والعذاب، ﴿**فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا**﴾ يعني أصاب الكافر شدة وبلاء، وهو أبو جهل، ويقال جميع الكفار دعانا أي أخلص في الدعاء ﴿**ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ**﴾ أي بدلنا وأعطيناه مكانها عافية ﴿**نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بل هي فتنة**﴾ أي على علم عندي، يعني أعطاني ذلك لأنه علم أني أهل لذلك، ويقال: معناه على علم عندي، بالدواء ﴿**بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ**﴾ أي بلية وعطية يبتلي بها العبد، ليشكرأو ليكفر ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ أن إعطائي ذلك بلية، وفتنة ﴿**قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ يعني قال تلك الكلمة، الذين من قبل كفار مكة، مثل قارون وأشباهه ﴿**فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ يعني لم ينفعهم ما كانوا يجمعون من الأموال ﴿**فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا**﴾ أي عقوبات ما عملوا، قوله ﴿**وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ**﴾ يعني من أهل مكة ﴿**سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـئَاتُ مَا كَسَبُـوا**﴾ يعني عقوبات ما عملوا، مثل ما أصاب الذين من قبلهم ﴿**وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ**﴾ أي غير فائتين من عذاب الله ﴿**أَو لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ أي يوسع الرزق لمن يشاء ﴿**وَيَقْدِرُ**﴾ أي يقتر على من يشاء ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ**﴾ يعني في القبض والبسط ﴿**لآيَاتٍ**﴾ أي لعلامات لوحدانيتي ﴿**لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ أي يصدقون بتوحيد الله ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ**﴾ يعني أسرفوا بالذنوب على أنفسهم، قرأ نافع، وابن كثير وعاصم، وابن عامر **قُلْ يَا عِبَادِيَ** بفتح الياء، والباقون بالإرسال[1]، وهما لغتان، ومعناهما واحد ﴿**لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ**﴾ أي لا تيأسوا من مغفرة الله ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً**﴾ الكبائر، وغير الكبائر، إذا تبتم ﴿**إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ**﴾ لمن تاب

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٣٦٤ - اتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٣٠.

﴿الرَّحِيمُ﴾ بعد التوبة لهم، وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: أصاب قوم في الشرك ذنوباً عظاماً فكانوا يخافون أن لا يغفر الله لهم، فدعاهم الله تعالى بهذه الآية(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا) وقال مجاهد: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم بقتل الأنفس في الجاهلية، وقال في رواية الكلبي نزلت الآية في شأن وحشي، يعني أسرفوا على أنفسهم بالقتل والشرك والزنى، لا تيأسوا (مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يغفر الذنوب جميعاً) لمن تاب وقال ابن مسعود أرجى آية في كتاب الله هذه الآية وهكذا قال عبد الله بن عمرو بن العاص، وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: فيها عظة.

وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى ﴿وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُم﴾ يعني ارجعوا له، وأقبلوا إلى طاعة ربكم ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ يعني أخلصوا، وأقروا بالتوحيد ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ﴾ أي لا تمنعون مما نزل بكم ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قال الكلبي: هذا القرآن أحسن ما أنزل إليهم، يعني اتبعوا ما أمرتم به، ويقال أحلوا وحرموا حرامه ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ بنزوله ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ يعني لكي لا تقول نفس، ويقال معناه: اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، خوفاً قبل أن تصيروا إلى حال الندامة وتقول نفس ﴿يَا حَسْرَتَى﴾ يعني يا ندامتا ﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ يعني تركت وضيعت من طاعة الله، وقال مقاتل: يعني ما ضيعت من ذكر الله، ويقال: يا ندامتاه على ما فرطت في أمر الله ﴿وَإِنَّ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ يعني وقد كنت من المستهزئين بالقرآن في الدنيا، ويقال وقد كنت من اللاهين، وقال أبو عبيدة: في جنب الله، وذات الله واحد ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ يعني قبل، أو تقول: لو أن الله هداني، بالمعرفة ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي من الموحدين، يعني لو بين لي الحق من الباطل لكنت من المؤمنين ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ يعني من قبل أن تقول ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني من الموحدين، يقول الله تعالى ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ يعني القرآن ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ أي تكبرت، وتجبرت عن الإيمان بها ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قرأ عاصم الجحدري (بَلَى قد جَاءَتْكِ آياتي) يعني القرآن فَكَذَّبْتِ بِهَا واسْتَكْبَرتِ وَكُنْتِ كلها بالكسر، وهو اختيار ابن مسعود، وصالح، ومن تابعه من قراء سمرقند، وإنما قرأ بالكسر لأنه سبق ذكر النفس، والنفس تؤنس، وقراءة العامة كلها بالنصب، لأنه انصرف إلى المعنى، يعني يقال للكافر ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ يعني قالوا بأن لله شريكاً ﴿وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ صار وجوههم رفعاً بالابتداء، ويقال معناه: مسودة وجوههم ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ

مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي مأوى للذين تكبروا عن الإيمان ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ يعني ينجي الله الذين اتقوا الشرك، من جهنم، قال مقاتل، والكلبي بأعمالهم الحسنة لا يصيبهم العذاب، وقال القتبي: بمنجاتهم، قرأ حمزة والكسائي بِمَفَازَاتِهِم بالألف وكذلك عاصم في رواية أبي بكر، والباقون بِمَفَازَتِهِم بغير ألف[1]، والمفازة: الفوز والسعادة والفلاح، والمفازات جمع ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ أي لا يصيبهم العذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة.

ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي حفيظ، ويقال: كفيل بأرزاقهم ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني بيده مفاتيح السموات والأرض ويقال خزائن السموات والأرض وهو المطر والنبات، وقال القتبي المقاليد: المفاتيح، يعني مفاتيحها وخزائنها، وواحدها: إقليد، ويقال: إنها فارسية معربة إكليد ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يعني اختاروا العقوبة على الثواب ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي﴾ قرأ ابن عامر، تأمرونني بنونين، وقرأ نافع (تَأْمُرُونِي) بنون واحدة والتخفيف وقرأ الباقون بنون واحدة والتشديد والأصل تأمرونني بنونين، كما روي عن ابن عامر[2]، إلا أنه أدغم إحدى النونين في الأخرى وشدد، وتركها نافع على التخفيف ﴿أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ يعني أيها المشركون تأمروني أن أعبد غير الله ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني الأنبياء بالتوحيد ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أي ثوابك، وإن كنت كريماً عليَّ، فلو أشركت بالله ليحبطن عملك ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ في الآخرة، فكيف لو شرك غيرك، فالله تعالى علم أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يشرك بالله، ولكنه أراد تنبيهاً لأمته أنَّ من أشرك بالله حبط عمله، وإن كان كريماً على الله ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ أي استقم على عبادة الله وتوحيده، وقال مقاتل بل الله فاعبد أي فوحد الله تعالى، وقال الكلبي: يعني أطع الله تعالى ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على ما أنعم الله عليك من النبوة

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٢٤. إتحاف فضلاء البشر ٢/٦٣١.

(٢) حجة ابن عامر إجماع الجميع على إظهار النون في قوله «وكادوا يقتلونني» فروعاً اختلفوا فيه إلى ما أجمع عليه ـ حجة القراءات الموضع السابق.

والإسلام والرسالة، ويقال: هذا الخطاب لجميع المؤمنين، أمرهم بأن يشكروا الله تعالى على ما أنعم عليهم وأكرمهم بمعرفته، ووفقهم لدينه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عظموا الله حق عظمته، ولا وصفوه حق صفته، ولا عرفوا الله حق معرفته، وذلك أن اليهود والمشركين وصفوا الله تعالى بما لا يليق بصفاته فنزل (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) وفيه تنبيه للمؤمنين لكيلا يقولوا مثل مقالتهم، ويعظموا الله حق عظمته، ويصفوه حق صفته، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) ثم قال﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي في قدرته وملكه وسلطانه، لا سلطان لأحد عليها، وهذا كقوله (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) وقال القتبي: في قبضته: أي في ملكه نحو قولك للرجل: هذا في يدك وقبضتك، أي في ملكك ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أي بقدرته، ويقال في الآية تقديم معناه، والسموات مطويات بيمينه يوم القيامة أي في يوم القيامة، ويقال بيمينه، يعني عن يمين العرش، وقال القتبي: بيمينه أي بقدرته، نحو قوله (وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) يعني ما كانت لهم عليه قدرة، وليس الملك لليمين دون الشمال، ويقال اليمين هاهنا: الحلف، لأنه حلف بعزته وجلاله ليطوين السموات والأرض، ثم نزه نفسه فقال تعالى ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزيهاً لله تعالى، يعني ارتفع وتعظم عما يشركون، يعني عما يصفون له من الشريك ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أَنَّه سُئِلَ عَنِ الصُّورِ فَقَال «هُوَ الْقَرْنُ وَإِنَّ عِظَمَ دَائِرَتِهِ مِثْلَ مَا بَيْنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ فَينفخ نفخة فيفزع الخلق، ثم ينفخ نفخة أخرى فيموت أهل السموات والأرض، فإذا كان وقت النفخة الثالثة تجمعت الأرواح كلها في الصور ثم ينفخ النفخة الثالثة فتخرج الأرواح كلها كالنحل، وكالزنابير وتأتي كل روح إلى جسدها[1] فذلك قوله تعالى ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني يموت من في السموات ومن في الأرض ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ يعني جبريل وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت ويقال: أرواح الشهداء، وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: استثنى الله تعالى الشهداء حول العرش متقلدين بسيوفهم»[2] وقال بعضهم: النفخة نفختان، وروى أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «ينفخ في الصور ثلاث نفخات، الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين»[3] وهو قوله ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ أي ينظرون ماذا يأمرهم، ويقال ينظرون إلى السماء كيف غيرت، وينظرون إلى الأرض كيف بدلت، وينظرون إلى الداعي كيف يدعوهم إلى الحساب، وينظرون فيما عملوا في الدنيا، وينظرون إلى الآباء والأمهات كيف ذهبت شفقتهم عنهم، واشتغلوا بأنفسهم، وينظرون إلى خصمائهم ماذا يفعلون بهم ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ﴾ يعني أضاءت ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي بعدل ربها، ويقال: وأشرقت وجوه من على الأرض بمعرفة ربها، وأظلم وجوه من على الأرض بنكرة ربها، وقال بعضهم هذا من المكتوم الذي لا يفسر ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ يعني ووضع الحساب، ويقال ووضع الكتاب في أيدي الخلق في أيمانهم وشمائلهم ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي بين الخلق بالعدل، بين الظالم والمظلوم، وبين الرسل وقومهم ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً ﴿وَوُفِّيَتْ﴾ أي وفرت ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي جزاء ما عملت من خير أو شر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ لأنه قد سبق ذكر قوله وجيء بالنبيين والشهداء ثم أخبر أنه لم يدع الشهداء ليشهدوا بما يعلموا، بل هو أعلم بما يفعلون، وإنما يدعو الشهداء لتأكيد الحجة عليهم.

---

(١) أخرجه الترمذي مختصراً (٢٤٣٠) وابن المبارك في الزهد (١٥٩٩) وأحمد في المسند (٢/١٦٢، ١٩٢، وابن جرير في تفسيره ٢٤/١٦ والدارمي ٢/٣٢٥ والحاكم في المستدرك ٢/٤٣٦، ٥٠٦ وصححه وأقره الذهبي.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٣٦ وعزاه لسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ٢٠/٢٤.

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ **وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾**

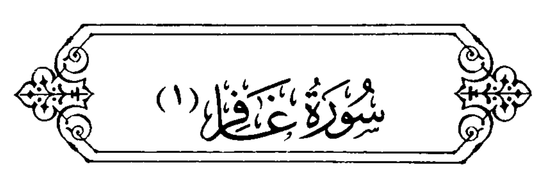
ثم قال ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ أي يساق الذين كفروا ﴿**إِلَى جَهَنَّم زُمَراً**﴾ يعني أمة أمة، فوجاً فوجاً، وواحدتها زمرة ﴿**حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا**﴾ يعني جهنم ﴿**فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ وقال أصحاب اللغة: جهنم في أصل اللغة[١]: جهنام، وهي بئر لا قعر لها، فحذفت الألف وشددت النون فسميت جهنم، قرأ حمزة والكسائي وعاصم فُتِحَتْ بتخفيف التاء، والباقون بالتشديد[٢]، فمن قرأ بالتشديد فلتكثير الفعل، ومن قرأ بالتخفيف فعلى فعل الواحد، وكذلك الاختلاف في الذي بعده ﴿**وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا**﴾ أي خزنة جهنم، وواحدها خازن، وقال القتبي: الواو قد تزاد في الكلام، والمراد به حذفه، كقوله (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ) يعني اقترب، وكقوله (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا) يعني قال لهم، وهذا في كلام العرب ظاهر، كما قال امرؤ القيس: فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى، يعني انتحى، بغير واو، ثم قال ﴿**أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ**﴾ يعني آدمياً مثلكم تفهمون كلامه ﴿**يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ**﴾ يعني يقرأون عليكم ما أوحي إليهم ﴿**وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا**﴾ يعنيَ أنهم يخوفونكم بهذا اليوم، فكأنه يقول لهم يا أشقياء ألم يأتكم رسل منكم؟ فأجابوه ﴿**قَالُوا بَلَى**﴾ فيقرون بذلك في وقت لا ينفعهم الاقرار، ولو كان قولهم بلى في الدنيا لكان ينفعهم ولكنهم قالوا بلى في وقت لا ينفعهم ﴿**وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ أي وجبت كلمة العذاب في علم الله السابق أنهم من أهل النار،

---

(١) انظر لسان العرب ٧١٥.

(٢) حجتهم قوله: (مفتحة لهم الأبواب) قال اليزيدي: كل ما فتح مرة بعد مرة فهو (التفتيح) ووجه التخفيف أن التخفيف يصلح للقليل والكثير وقالوا: (لأنها تفتح مرة واحدة فإن سأل سائل فقال: (لم دخلت الواو في (وفتحت) وأين جواب (حتى إذا جاؤوها) ففي ذلك أجوبة: فقال قوم الواو زائدة وقال المبرد: (إذا وجدت حرفاً من كتاب الله تعالى قد اشتمل على معنى حسن لم أجعله ملغى ولكن الواو واو نسق ها هنا والتقدير: حتى إذا جاؤوها وصلوا وفتحت أبوابها) وقال أيضاً: (إن الجواب محذوف والمعنى: حتى إذا جاؤوها إلى آخر الآية سعدوا) أي حتى إذا كانت هذه الأشياء صاروا إلى السعادة وقال قوم: (معناه حتى إذا جاؤوها (جاؤوها) (وفتحت أبوابها) فـ (جاؤوها) عندهم محذوف وعلى قول هؤلاء يكون اجتمع المجيء مع الدخول في حال واحد وقد قيل إن العرب تعد من واحد إلى سبعة ثم تزيد الواو كما قال جل وعز: ﴿**التائبون العابدون**﴾ ثم قال: (والناهون) بعد السبعة وقال: ﴿**ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم**﴾ والله أعلم بذلك. انظر حجة القراءات ٦٢٥ ـ ٦٢٦.

ويقال وجبت كلمة العذاب وهي قول الله تعالى (لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ) ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي دائمين فيها ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي بئس موضع القرار لمن تكبر عن الإيمان، ثم بين حال المؤمنين المطيعين فقال تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ يعني اتقوا الشرك والفواحش ﴿إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾ يعني فوجاً فوجاً، بعضهم قبل الحساب اليسير وبعضهم بعد الحساب الشديد، على قدر مراتبهم ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ يعني وقد فتحت أبوابها، ويقال (وَفُتِحَتْ أَبْوابُها) قبل مجيئهم تكريماً وتبجيلاً لهم، ويقال الواو زيادة في الكلام، ويقال هذه الواو منسوقة على قوله فتحت كما يقال في الكلام دخل زيد وعمرو ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلوهَا خالدينَ﴾ أي فزتم ونجوتم، ويقال طابت لكم الجنة، وقال بعض أهل العربية في الآية دليل على أن أبواب الجنة ثمانية، لأنه قد ذكر بالواو وإنما يذكر بالواو إذا بلغ الحساب ثمانية، كما قال في آية أخرى (سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُم وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُم رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُم كَلْبُهُمْ) فذكر الواو عند الثمانية، وكما قال (التَّائِبُونَ العَابِدُونَ) فذكرها كلها بغير واو، فلما انتهى إلى الثمانية قال (والنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ). وقال في آية أخرى (مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ) ثم قال عند الثمانية (وَأَبْكَاراً)، وعرف أن أبواب جهنم سبعة بالآية، وهي قوله لها سبعة أبواب وقال أكثر أهل اللغة ليس في الآية دليل، لأن الواو قد تكون عند الثمانية، وقد تكون عند غيرها، ولكن عرف أن أبوابها ثمانية بالأخبار، ثم أنهم لما دخلوا الجنة حمدوا الله تعالى ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يعني الشكر لله ﴿الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ يعني أنجز لنا وعده على لسان رسله ﴿وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ﴾ يعني أنزلنا أرض الجنة ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي ننزل في الجنة ونستقر فيها حَيْثُ نَشَاءُ ونشتهي ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ أي ثواب الموحدين المطيعين ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ﴾ أي ترى يا محمد الملائكة يوم القيامة محدقين ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي يسبحونه ويحمدونه ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي بين الخلق، وهو تأكيد لما سبق من قوله وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني لما قضي بينهم بالحق، أي بالعدل، وميزوا من الكفار حمدوا الله تعالى، وقالوا الحمد لله رب العالمين، الذي قضى بيننا بالحق، ونجانا من القوم الظالمين وقال مقاتل: ابتدأ الدنيا بالحمد لله رب العالمين وهو قوله (الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ)، وختمها بقوله (الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).



وهي ثمانون وخمس آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣

قوله تبارك وتعالى ﴿حمٓ﴾ روي عن ابن عباس أنه قال: الحواميم كلها مكية[٢] وهكذا روي عن محمد ابن الحنفية، وقال ابن مسعود: إنَّ حمٓ دِيْبَاجُ القُرْآنِ[٣] وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ الجَنَّةِ فَلْيَقْرَأْ الحَوَامِيم»[٤] وقال قتادة حمٓ اسم من أسماء الله الأعظم، ويقال: اسم من أسماء القرآن، ويقال قسم أقسم الله بحمٓ، ويقال معناه: قضى بما هو كائن ويقال: حم الأمر أي قدر وقضى وتم، وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم حم بفتح الحاء، وقرأ أبو عمرو، ونافع بين الفتح والكسر، والباقون بالكسر[٥] وكل ذلك جائز في اللغة، ثم قال ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ يعني إن هذا القرآن الذي يقرأه عليكم محمد هو من عند الله العَزِيز في سلطانه وملكه العَلِيم بخلقه وبأعمالهم ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ لمن يقول لا إله إلا الله مخلصاً، يستر عليه ذنوبه ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ لمن تاب ورجع ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ لمن مات على الشرك ولم يقل لا إله إلا الله

---

(١) تضمنت هذه السورة أغراضاً من أصول الدعوة إلى الإيمان فابتدئت بما يقتضي التحدي المعاندين في صدق القرآن كما اقتضاه الحرفان المقطعان في فاتحتها كما تقدم في أول سورة البقرة.

وأجري على اسم الله تعالى من صفاته ما فيه تعريض بدعوتهم إلى الإقلاع عما هم فيه فكانت فاتحة السورة مثل ديباجة الخطبة مشيرة إلى الغرض من تنزيل هذه السورة. وعقب ذلك بأن دلائل تنزيل هذا الكتاب من الله بينة لا يجحدها إلا الكافرون من الاعتراف بها حسداً وأن جدالهم تشغيب وقد تكرر ذكر المجادلين في آيات الله خمس مرات في هذه السورة وتمثيل حالهم بحال الأمم التي كذبت رسل الله بذكرهم إجمالاً ثم التنبيه على آثار استئصالهم وضرب المثل بقوم فرعون. وموعظة مؤمن آل فرعون قومه بمواعظ تشبه دعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قومه. والتنبيه على دلائل تفرد الله تعالى بالإلهية إجمالاً. وإبطال عبادة ما يعبدون من دون الله. والتذكير بنعم الله على الناس ليشكره الذين أعرضوا عن شكره. والاستدلال على إمكان البعث. وإنذارهم بما يلقون من هوله وما يترقبهم من العذاب وتوعدهم بأن لا نصير لهم يومئذ وبأن كبراءهم يتبرؤون منهم. وتثبيت الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتحقيق نصر هذا الدين في حياته وبعد وفاته وتخلل ذلك الثناء على المؤمنين ووصف كرامتهم وثناء الملائكة عليهم. انظر التحرير ٢٤/٧٧ ـ ٧٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٤٤ وعزاه لابن الضريس والنحاس والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٤٤ وعزاه لابن عبيد وابن الضريس وابن المنذر والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود.

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره ١٥/١٨٨ ونسبه للثعلبي.

(٥) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٣٤، حجة القراءات ٦٢٦ ـ ٦٢٧.

﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ يعني ذي الفضل على عباده والمن، والطول في اللغة[١]: التفضل، يقال طل علي برحمتك أي تفضل، وقال مقاتل ذِي الطَّوْلِ يعني ذي الغنى عمن لم يوحده، ثم وحد نفسه فقال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يعني إليه مصير العباد ومرجعهم في الآخرة فيجازيهم بأعمالهم.

مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾

قوله ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني ما يخاصم في آيات الله بالتكذيب ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ يعني ذهابهم ومجيئهم في أسفارهم[٢] وتجاراتهم، فإنهم ليسوا على شيء من الدين، وقال مقاتل تَقَلُّبُهُم يعني ما هم فيه من السعة في الرزق، ثم خوفهم ليحذروا فقال ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ﴾ يعني الأمم من بعد قوم نوح ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ يعني أرادوا أن يقتلوه ﴿وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ﴾ أي بالشرك ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ يعني ليبطلوا به دين الحق، وهو الإسلام والذي جاء به الرسل ﴿فَأَخَذْتُهُم﴾ أي عاقبتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ يعني كيف رأيت عذابي لهم، أليس قد وجدوه حقاً ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يعني سبقت ووجبت كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالعذاب ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يعني يصيرون إليها، قرأ نافع وابن عامر كَلِمَاتُ رَبِّكَ بلفظ الجماعة، والباقون كلمة ربك[٣] بلفظ الواحد، وهي عبارة عن الجنس، والجنس يقع على الواحد وعلى الجماعة، وقرىء في الشاذ إِنَّهم بالكسر على معنى الابتداء، وقراءة العامة بالنصب على معنى البناء.

ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ

---

(١) انظر لسان العرب ٤/٢٧٢٨.

(٢) في أ [الأسفار].

(٣) حجة من أفرد أنها تجمع سائر الكلمات وتقع مفردة على الكثرة فإذا كان ذلك كذلك استغنى بها عن الجمع كما تقول: ﴿يعجبني قيامكم وقعودكم﴾ وقال: ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ وقال: (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ فأفرد الصوت مع الإضافة إلى الكثرة فكذلك الكلمة ومن جمع فلأن هذه الأشياء وإن كانت تدل على الكثرة قد تجمع إذا جعلت أجناساً قال: ﴿وصدقت بكلمات ربها﴾ أي: بشرائعه لأن الكتب قد ذكرت وقال: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾. انظر حجة القراءات ٦٢٧. انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٣٥.

أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾

ثم قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ وهم الملائكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ من المقربين ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يعني يسبحون الله تعالى ويحمدونه ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي يصدقون بالله ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني المؤمنين، وفي الآية دليل[١] فضل المؤمنين، وبيانه أن الملائكة مشتغلون بالدعاء لهم ثم وصف دعاءهم للمؤمنين، وهو قولهم ﴿رَبَّنَا﴾ يعني يقولون يا ربنا ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ يعني يا ربنا رحمتك واسعة، وعلمك محيط بكل شيء، ويقال معناه ملأت كل شيء نعمة وعلماً، علم ما فيها من الخلق، روى قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير[٢] قال: وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله، الشياطين[٣]، وروى الأعمش عن إبراهيم قال: كان أصحاب عبد الله بن مسعود، يقولون الملائكة خير للمسلمين من ابن الكواء الملائكة يستغفرون لمن في الأرض وابن الكواء يشهد عليهم بالكفر، وكان ابن الكواء رجلاً خارجياً، قوله ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ أي تجاوز عنهم، يعني الذين رجعوا عن الشرك ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ يعني دينك الإسلام ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ يعني ادفع عنهم في الآخرة عذاب النار ﴿رَبَّنَا﴾ يعني ويقولون رَبَّنا ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ على لسان رسلك ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ أي من وحد الله تعالى ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي وأدخلهم معهم الجنة أيضاً ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكك ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمرك ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ يعني ادفع عنهم العذاب في الآخرة ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني من دفعت العذاب عنه فقد رحمته قال مقاتل السيئات يعني الشرك في الدنيا ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ في الآخرة ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني النجاة الوافرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ﴾ قال مقاتل والكلبي لما عاين الكفار النار ودخلوها مقتوا أنفسهم، أي لاموا أنفسهم وغضبوا عليها، فتقول لهم خزنة جهنم ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ﴾ يعني غضب الله عليكم وسخطه أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ ﴿أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإيمان فَتَكْفُرُونَ﴾ أي تجحدون وتثبتون على الكفر ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمِتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ يعني كنا نطفاً أمواتاً ﴿وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ يعني فأحييتنا ثم أمتنا عند آجالنا، ثم أحييتنا اليوم، وذكر عن القتبي نحو هذا، وقال بعضهم: إحدى الإماتتين يوم الميثاق حين صيروا إلى صلب آدم، والأخرى في الدنيا عند انقضاء

---

(١) في أ [بيان].

(٢) مطرف بن عبد الله بن الشخير العامري الحرشي أبو عبد الله البصري ثقة عابد فاضل مات سنة خمس وتسعين. «انظر التقريب ٢/٢٥٣».

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٤٧ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير.

الأجل، وإحدى الإحيائين في بطن الأمهات. والأخرى في القبر ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ يعني أقررنا بشركنا، وظهر لنا أن البعث حق ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ يعني فهل سبيل إلى الخروج من النار، ويقال فهل من حيلة إلى الرجوع ﴿ذَلِكُم﴾ يعني يقال لهم ذلك الخلود ﴿بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ يعني إذا قيل لكم لا إله إلا الله جحدتم، وأقمتم على الكفر ﴿وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ يعني إذا دعيتم إلى الشرك، وعبادة الأوثان تصدقوا ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ يعني القضاء فيكم لله العلي الكبير، أي الرفيع فوق خلقه، القاهر لخلقه، الكبير بالقدرة والمنزلة.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾

ثم قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ يعني: عجائبه ودلائله من خلق السموات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، وذلك أنه لما ذكر ما يصيبهم يوم القيامة، عظم نفسه تعالى، ثم ذكر لأهل مكة من الدلائل ليؤمنوا به فقال هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً﴾ يعني المطر، ويقال الملائكة لتدبير الرزق ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ يعني ما يتعظ بالقرآن إلا من يقبل إليه بالطاعة، ويقال وما يتذكر في هذا الصنيع فيوحد الرب إلا من يرجع إليه ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني اعبدوه بالإخلاص ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ يعني وإن شق ذلك على المشركين الكافرين ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ يعني رافع وخالق السموات، أي مطبقاً بعضها فوق بعض، ويقال: هو رافع الدرجات في الدنيا بالمنازل وفي الآخرة الجنة ذو الدرجات ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ يعني رافع العرش، ويقال: خالق العرش، هو رب العرش ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ يعني ينزل جبريل بالوحي ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهو النبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ يعني ليخوف بالقرآن، وقرأ الحسن لتنذر بالتاء على معنى المخاطبة، يعني لتنذر يا محمد، وقراءة العامة بالياء[1]، يعني لينذر الله، ويقال: لينذر من أنزل عليه الوحي، يوم التلاق، قرأ ابن كثير يَوْمَ التَّلَاقِي بالياء، وهي إحدى الروايتين عن نافع، والباقون بغير ياء[2]، فمن قرأ بالياء فهو الأصل، ومن قرأ بغير ياء فلأن الكسر يدل عليه، وقال في رواية الكلبي يَوْمَ التَّلَاقِ يوم يلتقي أهل السموات وأهل الأرض، ويقال يوم يلتقي الخصم والمخصوم ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ أي ظاهرين خارجين من قبورهم ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ يعني من أعمال أهل السموات وأهل الأرض ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ قال بعضهم: هذا بين النفختين يقول الرب تبارك وتعالى لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْم؟ فلا يجيبه أحد، فيقول لنفسه ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قال بعضهم إن ذلك لأهل

---

(١) في أ [أنفسهم ودخلوا].

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٣٥.

(٣) المصدر السابق وحجة القراءات ٦٢٧.

الجمع يوم القيامة، يقول لمن الملك اليوم، فأقر الخلائق كلهم وقالوا لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ يقول الله تعالى ﴿**ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ**﴾ يعني بما عملت في الدنيا من خير أو شر ﴿**لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ**﴾ وقد ذكرناه ﴿**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ**﴾ يعني خوفهم بيوم القيامة، فسمي الازفة لقربه، ويقال أزف شخوص فلان يعني قرب، كما قال أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ثم قال ﴿**إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ**﴾ من الخوف لا تخرج، ولا تعود إلى مكانها ﴿**كَاظِمِينَ**﴾ أي مغمومين، يتردد خوفهم في أجوافهم ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ**﴾ يعني المشركين ﴿**مِنْ حَمِيمٍ**﴾ أي قريب ﴿**وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾ أي له الشفاعة فيهم ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ**﴾ هذا موصول بقوله (لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ) وهو يعلم خائنة الأعين، وقال أهل اللغة: الخائنة والخيانة واحدة، كقوله (وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ) وقال مجاهد: خائنة الأعين يعني نظر العين إلى ما نهى الله عنه[1]، وقال مقاتل الغمزة فيما لا يحل له والنظرة إلى المعصية، ويقال النظرة بعد النظرة، وقال قتادة يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ يعني يعلم غمزه بعينه، وإغماضه فيما لا يحب الله تعالى[2] ﴿**وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ**﴾.

وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

﴿**وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ**﴾ أي يحكم بالحق، ويقال يأمر بما يجب به الثواب، وينهى عما يجب به العقاب ﴿**وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ**﴾ يعني يعبدون من الآلهة، قرأ نافع وابن عامر تدعون بالتاء على معنى المخاطبة، والباقون بالياء[3] على معنى الخبر عنهم ﴿**لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ**﴾ يعني ليس لهم قدرة ولا يحكمون بشيء ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ**﴾ يعني السميع لمقالة الكفار البصير بأعمالهم.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا**﴾ يعني فيعتبروا ﴿**كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ**﴾ يعني آخر أمر ﴿**ٱلَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً**﴾ يعني منعة، قرأ ابن عامر، ومن تابعه من أهل الشام أشد منكم بالكاف على معنى المخاطبة، والباقون أشد منهم بالهاء[4] على معنى الخبر عنهم ﴿**وَآثَاراً فِي ٱلْأَرْضِ**﴾ يعني أكثر أعمالاً، ويقال أشد لها طلباً، وأبعد لها ذهاباً ﴿**فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ**﴾ أي عاقبهم الله ﴿**وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ وَاقٍ**﴾ أي من مانع يمنعهم من عذاب الله ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ أي ذلك العذاب ﴿**بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ**﴾ يعني بالأمر والنهي، ويقال: بالدلائل الواضحات ﴿**فَكَفَرُوا**﴾ بهم وبدلائلهم ﴿**فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ**﴾ أي عاقبهم الله بذنوبهم، إنه قادر على أخذهم، شديد العقاب لمن عاقب.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٤٩ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٤٩ وعزاه لعبد بن حميد وأبي الشيخ في العظمة.

(٣) انظر حجة القراءات ٦٢٨.

(٤) النشر في القراءات العشر ٢/٣٦٥.

سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ التسع ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي حجة بينة ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يعني لم يصدقوا موسى قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ يعني بالرسالة ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ يعني أعيدوا القتل عليهم ﴿وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ فلا تقتلوهن ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي في خطأ بين قوله تعالى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ يعني خلوا عني حتى أقتل موسى ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ يعني ليدعوا ربه موسى لكي يمنعه عني، وذلك أن قومه كانوا يقولون: أرجئه وأخاه ولا تقتله حتى لا يفسدوا عليك الملك، فقال لهم فرعون ذروني أقتل موسى، فإني أعلم أن صلاح ملكي في قتله ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُم﴾ يعني عبادتكم إياي ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ يعني الدعاء إلى غير عبادتي، قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو وَأَنْ يظهر على معنى العطف، والباقون[1] أو أن يظهر على معنى الشك، وكلاهما جائز، وأو لأحد الشيئين، إما لشك المتكلم، أو أحدهما، والواو للجمع، وتقع على الأمرين جميعاً وقرأ أبو عمرو ونافع، وعاصم، يُظْهِر بضم الياء وكسر الهاء الفَسَادَ بالنصب، والباقون يَظْهَر بنصب الياء والهاء الفَسادُ بالضم[2]، فمن قرأ يُظْهِر بالضم فالفعل لموسى والفساد نصب لوقوع الفعل عليه، ومن قرأ يَظْهَر فالفعل للفساد فيصير الفسادُ رفعاً لأنه فاعل، فلما سمع موسى ذلك التهديد استعاذ بالله من شره فذلك قوله ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ يعني أستعيذ بربي وربكم ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ عن الإيمان يعني ﴿لَا يُؤْمِنُ﴾ أي لا يصدق ﴿بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾

وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ

(١) حجة القراءات ٦٢٩.

(٢) المصدر السابق إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٣٦.

مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وهو حزبيل بن ميخائيل، هو ابن عم قارون وكان أبوه من آل فرعون، وأمه من بني إسرائيل، ويقال كان ابن فرعون ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾وكان قد أسلم سراً من فرعون، قوله ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني اليد والعصا، وروى الأوزاعي، عن يحيى بن كثير[1] عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو حدثني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال «أقبل عقبة بن أبي معيط ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلي عند الكعبة فلوى ثوبه على عنقه، وخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبيه ودفعه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ثم قال أبو بكر أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ[2] كَذِبُهُ﴾ يعني فعليه وبال كذبه، فلا ينبغي أن تقتلوه بغير حجة ولا برهان ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقاً﴾ في قوله وكذبتموه ﴿يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ من العذاب، يعني بعض ذلك العذاب يصبكم في الدنيا، ويقال بعض الذي يعدكم فيه أي جميع الذي يعدكم كقوله (لِيُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ) أي جميع الذي تختلفون فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ يعني لا يرشد ولا يوفق إلى دينه ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في قوله ﴿كَذَّابٌ﴾ يعني الذي عادته الكذب ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أي ملك مصر ﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾أي غالبين على أرض مصر ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾ يعني من يعصمنا من عذاب الله ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ يعني أرأيتم إن قتلتم موسى وهو الصادق فمن يمنعنا من عذاب الله، فلما سمع فرعون قول المؤمن ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ يعني ما أريكم من الهدى إلا ما أرى لنفسي، ويقال: ما آمركم إلا ما رأيت لنفسي أنه حق وصواب ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ يعني ما أدعوكم إلا إلى طريق الهدى،وقرىء في الشاذ الرَّشَّاد بتشديد الشين يعني سبيل الرشاد الذي يرشد الناس، ويقال رشاد اسم من أسماء أصنامه، قوله ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ وهو حزبيل ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ يعني أخاف عليكم من تكذيبكم مثل عذاب الأمم الخالية ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي مثل عذاب قوم نوح ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾ يعني لا يعذبهم بغير ذنب ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ وهو من نَدَّ يَند، وهو من تنادى يتنادى تنادياً، وروى أبو صالح عن ابن عباس أنه قرأ يوم التناد بتشديد الدال وقال تندون كما تند الإبل، وهذا موافق لما بعده ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ وكقوله (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ).

وقرأ الحسن يَوْمَ التَّنَادِي بالياء وهو من النداء، يوم ينادى كل قوم بأعمالهم، وينادي المنادى من مكان بعيد،

---

(١) يحيى بن كثير الطائي مولاهم أبو نصر اليمامي ثقة ثبت لكنه يدلس ويرسل مات سنة اثنتين وثلاثين انظر التقريب ٣٥٦/٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٤٩/٥ وعزاه للبخاري وابن المنذر وابن مردويه هو عند البخاري ٤١٦/٨ (٤٨١٥).

وينادي أهل النار أهل الجنة، وينادي أهل الجنة أهل النار (أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً) وقراءة العامة التناد بالتخفيف بغير ياء[١]، وأصله الياء فحذف الياء لأن الكسرة تدل عليه، وقوله (يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ) أي هاربين قال الكلبي: هاربين إذا انطلق بهم إلى النار فعاينوها هربوا، فيقال لهم ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي ليس لكم من عذاب الله من مانع، وقال مقاتل (يوم تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ) أي ذاهبين بعد الحساب إلى النار، كقوله (فتولَّوا عَنْهُ مُدْبِرِينَ) أي ذاهبين (مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ)يعني من مانع من عذابه ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ عن الهدى ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يعني من مرشد وموفق ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ هذا قول حزبيل أيضاً لقوم فرعون قال (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ) ويقال يعني به أهل مصر وهم الذين قبل فرعون، لأن القرون الذين كانوا في زمن فرعون لم يروا يوسف، وهذا كما قال تعالى (فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ) وإنما أراد به آباءهم (بالبينات) أي بتعبير الرؤيا وروي عن وهب بن منبه قال: فرعون موسى: هو الذي كان في زمن يوسف وعاش إلى وقت موسى، وهذا خلاف قول جميع المفسرين ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ من تصديق الرؤيا وبما أخبركم ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾ يعني مات ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ يقول الله تعالى ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ يعني من هو مشرك شاك في توحيد الله، ثم وصفهم فقال ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي بغير حجة ﴿أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي عظم بغضاً لهم من الله ﴿وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني عند المؤمنين ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ أي يختم الله بالكفر ﴿عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ يعني متكبر عن عبادة الله تعالى، قرأ أبو عمرو قَلْبٍ مُتَكَبِّر بالتنوين، جعل قوله متكبر نعتاً للقلب، ومعناه أن صاحبه متكبر، والباقون قلبِ مُتَكَبِّرٍ[٢] بغير تنوين على معنى الإضافة، لأن المتكبر هو الرجل وأضاف القلب إليه.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٣٧.

(٢) من نون جعل المتكبر نعتاً للقلب وصفة له لأن القلب إذا تكبر تكبر صاحبه. المعنى: أن صاحبه متكبر كقوله تعالى: ﴿ناصية كاذبة﴾ أضاف الفعل إلى الناصية. والمعنى لصاحبها ومما يقوى ذلك قوله: ﴿إن في صدورهم إلا كبر﴾ فالكبر في القلب قال اليزيدي: حجة هذه القراءة قوله: ﴿ونطبع على قلوبهم﴾ ولم يقل: عليهم فالطبع إنما قصد به القلب. ومن قرأ بالإضافة فهو الوجه لأن المتكبر هو الإنسان المعنى: على قلب كل رجل متكبر. انظر حجة القراءات ٦٣٠، ٦٣١.

إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً﴾ أي قصراً مشيداً ﴿لَعَلِّيَ أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾ يعني أصعد طرق السموات ﴿فَاطَّلِعَ﴾ أي انظر ﴿إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى﴾ الذي يزعم أنه أرسله، وقال مقاتل والقتبي ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ أبوابها، قرأ عاصم في رواية حفص (فَأَطَّلِعَ) بنصب العين، والباقون بالضم[1] فمن قرأ بالنصب جعله جواباً للفعل، ومن قرأ بالضم رده إلى قوله أبلغ الأسباب فأطلع ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ أي لأحسب موسى كاذباً في قوله، قال الله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أي قبح عمله ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي الدين والتوحيد، قرأ حمزة والكسائي وعاصم وَصُدَّ بضم الصاد، والباقون بالنصب[2]، فمن قرأ بالضم فمعناه: إن فرعون صرف عن طريق الهدى، يعني إن الشيطان زين له سوء عمله، وصرفه عن طريق الهدى ومن قرأ بالنصب فمعناه صرف فرعون الناس عن الدين ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعُونَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾ أي ما صنع فرعون إلا في خسارة يوم القيامة، كقوله (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) يعني إن فرعون اختار متاعاً قليلاً، وترك الجنة الباقية، فكان عمله في الخسارة ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ وهو حزبيل ﴿يَا قَوْمِ﴾ ﴿اتَّبِعُونِي أَهْدِكُم سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ يعني أطيعوني حتى أرشدكم وأبين لكم دين الصواب، قوله تعالى ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أي قليل ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ لا زوال لها ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ يعني من عمل الشرك فلا يجزى إلا النار في الآخرة ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يعني من رجل أو امرأة ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3] أي: بغير مقدار، وقال بعض الحكماء إن الله تعالى قال (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً) ولم يقل من ذكر أو أنثى وقال (وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى) لأن العمل الصالح يَحْسُن من الرجل والمرأة والسيئة من المرأة أقبح من الرجل، فلم يذكر من ذكر أو أنثى ﴿وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾ يعني أن حزبيل قال لقومه: مالي أدعوكم إلى التوحيد والطاعة وذلك سبب النجاة والمغفرة فلم تطيعوني ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ يعني إلى عمل أهل النار، ثم بين عمل أهل النار فقال: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ يعني: لأجحد بوحدانية الله ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ﴾ أي أشرك بالله ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ يعني ما ليس لي به حجة بأن مع الله

(١) انظر حجة القراءات ٦٣١ النشر في القراءات العشر.

(٢) حجة من قرأ بالضم أن الكلام أتـى عقيب الخبر من الله فلفظ ما لم يسم فاعله وهو قوله (وكذلك زين لفرعون) فجرى الكلام بعده بترك تسمية الفاعل ليأتلف الكلام على نظام واحد انظر حجة القراءات ٦٣٢.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر: ﴿فأولئك يدخلون الجنة﴾ بضم الياء وحجتهم ذكرها اليزيدي فقال: إذا كان بعدها ما يؤكدها مثل (لا يظلمون) و (يرزقون) و (يحلون) لأن الأخرى توكيد الأولى فإذا لم يكن معها ذلك فالياء مفتوحة. ويقوي هذا قوله ﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات﴾. وقرأ الباقون: ﴿يدخلون الجنة﴾ بفتح الياء. وحجتهم قوله تعالى: ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾ وقوله: ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾. فكان أمر الله إياهم أن يدخلوها دليلاً على ما أسند الفعل إليهم. والمعنيان يتداخلان لأنهم إذا أدخلوا دخلوا وإذا أدخلهم (الله) الجنة دخلوا. فمعنى (يُدخَلون) و (يَدْخُلون) واحد. قال الله عز وجل: ﴿وأُدخِلَ الذين آمنوا﴾ (و) قال: (سندخلهم) فهم مفعولون وفاعلون. انظر حجة القراءات ٦٣٢ ـ ٦٣٣.

شريكاً ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ يعني إلى دين العزيز الغفار، العزيز في ملكه، الغفار: لمن تاب ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقاً يقال: لا جرم يعني لا بد ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي ليس له قدرة، ويقال ليس له استجابة دعوة تنفع في الدنيا ﴿وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي مصيرنا ومرجعنا إلى الله يوم القيامة ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يعني المشركين ﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يعني هم في النار أبداً ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ يعني ستعرفون إذا نزل بكم العذاب، وتعلمون أن ما أقول لكم من النصيحة أنه حق ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ يعني أمر نفسي إلى الله، وأدع تدبيري إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعني عالم بأعمالهم وبثوابهم، فأرادوا قتله فهرب منهم فبعث فرعون في طلبه فلم يقدروا عليه فذلك قوله ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ يعني دفع الله عنه شر ما أرادوا ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ﴾ يعني نزل بهم ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ يعني شدة العذاب وهو الغرق ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ قال ابن عباس يعني تعرض أرواحهم على النار[1] ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ هكذا قال قتادة ومجاهد، وقال مقاتل: تعرض روح كل كافر على منازلهم من النار كل يوم مرتين، وقال ابن مسعود «أَرْوَاحُهُم في جَوْف طَيْر سُودٍ يَرَوْنَ مَنَازِلهم غُدوة وَعَشِيةً»[2] وقال هذيل بن شرحبيل «أرواح الشهداء في جوف طير خضر تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش» وإن أرواح آل فرعون في جوف طير سود تغدو وتروح على النار فذلك عرضها، والآية تدل على إثبات عذاب القبر لأنه ذكر دخولهم النار يوم القيامة وذكر أنه تعرض عليهم النار قبل ذلك غدواً وعشياً، ثم قال ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يعني يقال لهم يوم القيامة ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو آدْخُلُوا بضم الألف والخاء، وهكذا قرأ عاصم في رواية أبي بكر، والباقون بنصب الألف وكسر الخاء[3]، فمن قرأ آدْخُلوا بالضم فمعناه ادخلوا يا آل فرعون ﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ فصار الآل نصباً بالنداء، ومن قرأ أَدْخِلوا بالنصب معناه: يقال للخزنة أدخلوا آل فرعون يعني قوم فرعون أشد العَذَابِ يعني أسفل العذاب فصار الآل نصباً لوقوع الفعل عليه.

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ أي يتخاصمون في النار، الضعفاء والرؤساء ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٥١ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٥١ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي حاتم عن ابن مسعود.

(٣) حجة من قرأ بقطع الألف أن الكلام أتى عقيب الفعل الواقع بهم وهو قوله: (النار يعرضون عليها) فهم حينئذ مفعولون فجعل الإدخال واقعاً بهم ليأتلف الكلام على طريق واحد وحجة الباقين قوله تعالى ﴿أدخلوا أبواب جهنم﴾ وقال ﴿ادخلوا في أمم قد خلت﴾ انظر حجة القراءات ٦٣٣.

يعني لرؤسائهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُم تَبعاً﴾ في الدنيا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا﴾ أي حاملون عنا ﴿نَصِيباً مِنَ النَّارِ﴾ يعني بعض الذي علينا من العذاب باتباعنا إياكم كما كنا ندفع عنكم المؤونة في دار الدنيا ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ يعني الرؤساء يقولون للضعفاء ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ يعني نعذب نحن وأنتم على قدر حصصكم في الذنوب، فلا يغني واحد واحداً ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أي قضى بين العباد، بين التابع والمتبوع، ويقال حكم بين العباد، يعني أنزلنا منازلنا، وأنزلكم منازلكم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ إذا اشتد عليهم العذاب ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ يعني سلوا ربكم ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ﴾ يعني يوماً من أيام الدنيا حتى نستريح، فترد الخزنة عليهم فتقول ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني ألم تخبركم الرسل أن عذاب جهنم إلى الأبد، ويقال أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ يعني ألم تخبركم الرسل بالدلائل والحجج والبراهين فكذبتموهم ﴿قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا﴾ يعني تقول لهم الخزنة فادعوا ما شئتم فإنه لا يستجاب لكم ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي في خطأ بين ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ بالغلبة والحجة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بهم يعني الذين صدقوهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي بالحجة والغلبة على جميع الخلق، يعني على جميع أهل الأديان ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ قال مقاتل يعني الحفظة من الملائكة يشهدون عند رب العالمين للرسل بالبلاغ، وعلى الكافرين بتكذيبهم، وقال الكلبي يعني يوم القيامة يقوم الرسل عند رب العالمين ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ يعني لا ينفع الكافرون اعتذارهم، قرأ ابن كثير وأبو عمرو (يَوْمَ لَا تَنْفَعُ) بالتاء بلفظ التأنيث، لأن المعذرة مؤنثة والباقون بالياء[1] وانصرف إلى المعنى يعني لا ينفع لهم اعتذارهم ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي السخطة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي عذاب جهنم.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ

(١) انظر حجة القراءات ٦٣٤ النشر ٢/٦٣٤.

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ يعني التوراة، فيها هدى ونور من الضلالة **﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾** يعني أعطيناهم على لسان الرسل، التوراة، والإنجيل، والزبور (هُدًى) أي بياناً من الضلالة، ويقال فيه نعت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ)، يعني عظة لذوي العقول **﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾** يعني اصبر يا محمد على أذى المشركين فإن وعد الله حق، وهو ظهور الإسلام على الأديان كلها، وفتح مكة **﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾** وهذا قبل نزول قوله (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)، ويقال استغفر لذنبك أي لذنب أمتك **﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾** أي صل بأمر ربك **﴿بِالْعَشِيِّ﴾** أي صلاة العصر **﴿وَالإِبْكَارِ﴾** يعني صلاة الغداة، ويقال سبح الله تعالى، واحمده بلسانك في أول النهار وآخره **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾** قال الكلبي ومقاتل يعني اليهود والنصارى كانوا يجادلون في الدجال، وذلك أنهم كانوا يقولون إن صاحبنا يبعث في آخر الزمان وله سلطان فيخوض البحر، وتجري معه الأنهار، ويرد علينا الملك، فنزل (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ) يعني في الدجال، لأن الدجال آية من آيات الله **﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾** أي بغير حجة **﴿أَتَاهُمْ﴾** من الله **﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾** أي ما في قلوبهم إلا عظمة مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ يعني ما هم ببالغي ذلك الكبر الذي في قلوبهم بأن الدجال منهم، وقال القتبي: إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا تكبراً على محمد ـ صلى الله عليه وسلم، وطمعاً أن يغلبوه وما هم ببالغي ذلك، وقال الزجاج: معناه وما هم ببالغي إرادتهم، وإرادتهم دفع آيات الله، وروى أبو جعفر الرازي عن الربيع[1] عن أبي العالية قال: إن اليهود ذكروا الدجال وعظموا أمره فنزل (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ)[2] يعني إن الدجال من آيات الله **﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾** من فتنة الدجال، فإنه ليس ثم فتنة أعظم من فتنة الدجال **﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾** لقول اليهود **﴿الْبَصِيرُ﴾** يعني العليم بأمر الدجال، ويقال السميع لدعائك، البصير برد فتنة الدجال عنك **﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** قال الكلبي ومقاتل: لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أعظم من خلق الدجال، ويقال لخلق السموات والأرض، أعظم من خلق الناس بعد موتهم، يعني أنهم يبعثون يوم القيامة (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أن الدجال خلق من خلق الله، ويقال لا يعلمون أن الله يبعثهم ولا يصدقون **﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾** يعني الكافر والمؤمن في الثواب **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾** يعني لا يستوي الصالح مع الطالح **﴿قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾** أي يتعظون ويعتبرون، قرأ عاصم وحمزة والكسائي تَتَذَكَّرُونَ بالتاء على وجه المخاطبة، والباقون بالياء[3] يَتَذَكَّرُونَ على معنى الخبر عنهم، وفي كلا القراءتين مَا للصلة والزينة **﴿إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾** يعني قيام الساعة آتية لا شك فيها عند المؤمنين **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا**

---

(١) في أ أبي الربيع.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور بنحوه ٣٥٣/٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم بسند صحيح عن أبي العالية.

(٣) حجة الباقين قوله تعالى قبلها: **﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان﴾** ثم قال **﴿ولكن أكثر الناس﴾** فكأنه لما جرى الكلام قبله بالخبر ثم أتى عقيبه جعلوه بلفظ ما تقدمه إذ كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد قال: والتاء أعم لأنها تجمع الصفين أي أنتم وهم. انظر حجة القراءات ٦٣٤ النشر ٢/٦٣٤.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون الله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

قال الكلبي معناه: وحدوني أغفر لكم، وقال مقاتل معناه: وقال ربكم لأهل الإيمان ادعوني أستجب لكم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي عن توحيدي فلا يؤمنون بي ولا يطيعونني ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي صاغرين، ويقال وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي يعني: الدعاء بعينه أَسْتَجِبْ لَكُم يعني: أستجب دعاءكم، وقال بعض المتأخرين معناه ادعوني بلا غفلة، أستجب لكم بلا مهلة، وقيل أيضاً ادعوني بلا جفاء، أستجب لكم بالوفاء، وقيل أيضاً: ادعوني بلا خطأ، أستجب لكم مع العطاء، وروى النعمان بن بشير عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ وَقَالَ رَبُّكُم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ[1] قرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر، وإحدى الروايتين عن أبي عمرو سَيُدخلونَ بضم الياء ونصب الخاء على معنى فعل ما لم يسم فاعله، وتكون جهنم مفعولاً ثانياً، والباقون يدخلون بنصب الياء وضم الخاء[2] على الإخبار عنهم بالفعل المستقبل، على معنى سوف يدخلون ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ أي: خلق لكم الليل ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي لتستقروا فيه، وتستريحوا فيه ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ أي: مضيئاً لابتغاء الرزق، والمعيشة، ويقال: مُبْصِراً: معناه يبصر فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ يعني: على أهل مكة بتأخير العذاب عنهم، ويقال: لذوي فضل على الناس أي على جميع الناس بخلق الليل والنهار ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ لربهم في النعمة فيوحدونه، ويطيعونه ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ يعني: الذي خلق هذا هو ربكم ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: تصرفون وتحولون، ويقال: فأنى تؤفكون أي من أين تكذبون ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ﴾ أي: هكذا يكذب، ويقال هكذا يحول ﴿الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ويقال هكذا يؤفك الذين كانوا من قبلهم ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً﴾ أي: بسط لكم الأرض وجعلها موضع قراركم ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي: خلق السماء فوقكم مرتفعاً ﴿وَصَوَّرَكُم﴾ أي: خلقكم ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ ولم يخلقكم على صورة الدّوابّ ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُم﴾ أي أحكم خلقكم ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي الحلالات، يقال اللذيذات ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ يعني: الذي خلق هذه الأشياء هو ربكم ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي فتعالى الله رب العالمين، ويقال هو من البركة، يعني البركة منه ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ يعني: هو الحي الذي لا يموت، ويميت الخلائق ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني: بالتوحيد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: قولوا الحمد لله رب العالمين الذي صنع لنا هذا.

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ يعني: قل يا محمد لأهل مكة إنّي نُهيتُ ﴿أَنْ أَعبدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني:

---

(١) أخرجه أبو داود ٢/٧٧ (١٤٧٩) أخرجه الترمذي ٥/٣٤٩ ٣٢٤٧ وأحمد في المسند ٤/٢٧١ وابن حبان ٢٣٩٦ والطبري في تفسيره ٢٤/٥١.

(٢) المصدران السابقان.

نهاني ربي أن أعبد الذين تعبدون من دون الله من الأصنام ﴿لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ يعني: حين جاءني الواضحات وهو القرآن ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: أستقيم على التوحيد ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُم طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ وقد ذكرناه من قبل ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً﴾ يعني: يعيش الإنسان إلى أن يصير شيخاً ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى﴾ يعني: الشباب والشيخ يبلغ أجلاً مسمى وقتاً معلوماً، ويقال في الآية تقديم، ومعناه ثمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً أي لتبلغوا أجلاً مسمى، يعني: وقت انقضاء أجله (وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ) أي من قبل أن يبلغ أشده، ويقال من قبل أن يصير شيخاً ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تعقلوا أمر ربكم، ولتستدلوا به، وتتفكروا في خلقه ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: يحيي للبعث ويميت في الدنيا على معنى التقديم، ويقال معناه هو الذي يحيي في الأرحام، ويميت عند انقضاء الآجال ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْراً﴾ يعني: أراد أن يخلق شيئاً ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

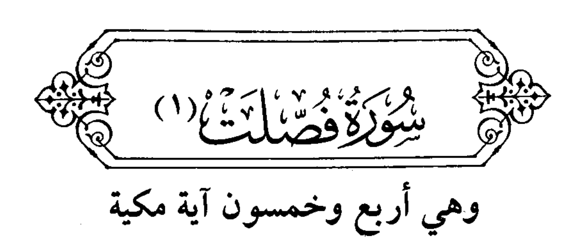
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: يجادلون في القرآن أنه ليس منه ﴿أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ يعني: من أين يصرفون عن القرآن والإيمان من أين يعدلون عنه إلى غيره، ويقال: عن الحق والتوحيد، ثم وصفهم فقال ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ أي بالقرآن ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ يعني: بالتوحيد، ويقال بالأمر والنهي ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ماذا ينزل بهم في الآخرة، ثم وصف ما ينزل بهم فقال عز وجل ﴿إِذِ الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِم﴾ يعني: ترد أيمانهم إلى أعناقهم ﴿وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ يعني: تجعل السلاسل في أعناقهم يُسْحَبُونَ ويجرون ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ يعني: في ماء حار قد انتهى حره قال مقاتل: يسحبون في الحميم، يعني: في حر النار، وقال الكلبي: يعني في الماء الحار ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي: يوقدون، فصاروا وقوداً، وروي عن ابن عباس أنه قرأ والسَّلاسِلَ بنصب اللام يَسْحَبُونَ بنصب الياء يعني: أنهم يسحبون السلاسل وقال هو أشد عليهم، وقراءة العامة والسَّلَاسِلُ بضم اللام يُسْحَبُونَ بالضم على معنى فعل ما لم يسم فاعله، والمعنى أن الملائكة يسحبونهم في السلاسل ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُم﴾ أي تقول لهم الخزنة ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ أي: تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ يعني: اشتغلوا بأنفسهم عنا ﴿بَلْ لَمْ نَكُن نَّدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾ وذلك أنهم يندمون على إقرارهم وينكرون ويقولون: بَلْ لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً في الدنيا، ويقال معناه: بل لم نكن نعبد شيئاً ينفعنا، يقول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الكَافِرِينَ﴾ عن الحجة ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي ذلكم العذاب ﴿بِمَا تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ﴾ أي تبطرون، وتتكبرون في الأرض ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي: تعصون، وتستهزئون بالمسلمين ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ

فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: فبئس مقام المتكبرين عن الإيمان.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني: اصبر يا محمد على أذى الكفار إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أي كائن **﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُم﴾** من العذاب، يعني: فإما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب في الدنيا، وهو القتل والهزيمة **﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾** من قبل أن نرينك عذابهم في الدنيا **﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾** يعني: يرجعون إلينا في الآخرة فنجزيهم بأعمالهم **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ﴾** يعني: إلى قومهم **﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾** يعني: سميناهم لك فأنت تعرفهم **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾** يعني: لم نسمهم لك، ولم نخبرك بهم، يعني أنهم صبروا على أذاهم، فاصبر أنت يا محمد على أذى قومك كما صبروا **﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾** أي ما كان لرسول من القدرة أن يأتي بآية، أي بدلائل وبراهين **﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** يعني: بأمره **﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾** يعني: بالعذاب **﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾** أي: عذبوا ولم يظلموا حين عذبوا **﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾** أي خسر عند ذلك المبطلون، يعني المشركون، ويقال يعني الظالمون، ويقال الخاسرون، ثم ذكر صنعه ليعتبروا فقال **﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ﴾** يعني: خلق لكم البقر والغنم والإبل **﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾** أي بعضها وهو الإبل **﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾** أي: في الأنعام منافع، في ظهورها، وشعورها، وشرب ألبانها **﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾** أي: ما قلوبكم من بلد إلى بلد **﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾** يعني: على الأنعام وعلى السفن **﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾** يعني: دلائله وعجائبه **﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾** بأنها ليست من الله **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾** يعني: يسافروا في الأرض **﴿فَيَنْظُرُوا﴾** أي: فيعتبروا **﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾** يعني: آخر أمر من كان قبلهم كيف فعلنا بهم حين كذبوا رسلهم **﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾** يعني: أكثر من قومك في العدد **﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾** من قومك **﴿وَآثاراً فِي الأرضِ﴾** يعني: مصانعهم أعظم أثاراً في الأرض وأطول أعماراً، وأكثر ملكاً في الأرض **﴿فَما أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** يعني: لم ينفعهم ما عملوا في الدنيا حين نزل بهم العذاب

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالأمر والنهي، وبخبر العذاب ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلمِ﴾ يعني: من قلة علمهم، رضوا بما عنـدهم من العلم، ولم ينظروا إلى دلائل الرسل، ويقال رضوا بما عندهم فقالوا: لن نعذب، ولن نبعث، ويقال فرحوا بما عندهم من العلم، أي علم التجارة كقوله: يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي نزل بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: يسخرون به ويقولون أنه غير نازل بهم ﴿فَلَمَّا رَأَوا بَأْسَنَا﴾ أي عذابنا في الدنيا ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا﴾ أي تبرأنا ﴿بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ يعني: بما كنا به مشركين من الأوثان ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ﴾ يعني: تصديقهم ﴿لما رأوا بأسنا﴾ أي: حين رأوا عذابنا، قال القتبي: البأس الشدة والبأس العذاب كقوله (فلما رأوا بأسنا) وكقوله (فلما أحسوا بأسنا) ﴿سُنَّتَ اللَّهِ التي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ قال مقاتل: يعني كذلك كانت سنة الله (في عباده) يعني العذاب في الأمم الخالية، إذا عاينوا العـذاب لم ينفعهم الإيمان، وقال القتبي: هكذا سنة الله أنه من كفر عذبه ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُونَ﴾ أي: خسر عند ذلك الكافرون بتوحيد الله عز وجل. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.



وهي أربع وخمسون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿حمٓ﴾ اسم السورة، ويقال (حمٓ) يعني قضي ما هو كائن، ويقال: هو قسم أقسم الله تعالى به ﴿تَنْزِيلٌ﴾ أي نزل بهذا القرآن جبريل ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (تنزيل) صار رفعاً بالابتداء، وخبره ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ ويقال: صار رفعاً بإضمار فيه. ومعناه هذا تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب، يعني القرآن (فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) يعني بينت وفسرت دلائله وحججه، ويقال: بين حلاله وحرامه ﴿قُرْآنَاً عَرَبِيًّا﴾ صار نصباً على الحال، أي بينت آياته في حال جمعه ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي يصدقون ويقرون بالرسل، ويقال يعلمون ما فيه ويفهمونه قرآناً عربياً أخذ من الجمع، ولو كان غير عربي لم يعلموه قوله تعالى ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ يعني بشيراً للمؤمنين بالجنة، ونذيراً للكافرين بالنار ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني أعرض أكثر أهل مكة ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ يعني لا يسمعون سمعاً ينفعهم، لأنهم لا يجيبون ولا يطيعون ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ يعني في غطاء لا نفقه ما تقول ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد لا يصل إلى قلوبنا ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ يعني ثقلاً فلا نسمع قولك، يعني نحن في استماع قولك كالصم لا نسمع ما تقول ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي ستر وغطاء ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ يعني اعمل على أمرك نعمل على أمرنا، ويقال: اعمل لإلهك الذي أرسلك، إننا عاملون لآلهتنا وهذا قول مقاتل والأول قول الكلبي، ويقال اعمل في هلاكنا، إننا عاملون في هلاكك روى محمد بن كعب القرضي عمن حدثه أن عتبة بن ربيعة، قال ذات

---

(١) من أغراض هذه السورة التنويه بالقرآن والإشارة إلى عجزهم عن معارضته. وذكر هديه وأنه معصوم من أن يتطرقه الباطل وتأييده بما أنزل إلى الرسل من قبل الإسلام. وتلقي المشركين له بالإعراض وصم الآذان. وإبطال مطاعن المشركين فيه وتذكيرهم بأن القرآن نزل بلغتهم فلا عذر لهم أصلاً في عدم انتفاعهم بهديه. وزجر المشركين وتوبيخهم على كفرهم بخالق السماوات والأرض مع بيان ما في خلقها من الدلائل على تفرده بالإلهية. وإنذارهم بما حل بالأمم المكذبة من عذاب الدنيا. ووعيدهم بعذاب الآخرة وشهادة سمعهم وأبصارهم وأجسادهم عليهم. وتحذيرهم من القرناء المزينين لهم الكفر من الشياطين والناس وأنهم سيندمون يوم القيامة على اتباعهم في الدنيا. وقوبل ذلك بما للموحدين من الكرامة عند الله. وأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدفعهم بالتي هي أحسن وبالصبر على جفونهم وأن يستعيذ بالله من الشيطان.

وذكرت دلائل تفرد الله بخلق المخلوقات العظيمة كالشمس والقمر. ودلائل إمكان البعث وأنه واقع لا محالة ولا يعلم وقته إلا الله تعالى. وتثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتأييد الله إياهم بتنزيل الملائكة بالوحي. وبالبشارة للمؤمنين. وتخلل ذلك أمثال مختلفة في ابتداء خلق العوالم وعبر في تقلبات أهل الشرك. والتنويه بإيتاء الزكاة. انظر التحرير ٢٤/٢٢٨ ـ ٢٢٩.

يوم وهو جالس في نادي قريش ألا أقوم إلى هذا الرجل وأكلمه، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل منا بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا، وذلك حين رأوا أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يزيدون ويكثرون، فقالوا بلى يا أبا الوليد، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من المكان في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت جماعتهم وعبت آلهتهم، ودينهم، وكفرت من مضى من آبائهم، فإن كنت إنما تريد بما جئت به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر مالاً، وإن كنت تريد شرفاً، شرفناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه أي خيالاً لا تستطيع أن ترده عنك نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا لك فيه أموالنا حتى نبريك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، فلما فرغ منه قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: (بسم الله الرحمن الرحيم ـ حٰمٓ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُه) حتى انتهى إلى قوله (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) فقام عتبة وجاء إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: تالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب، فلما جلس إليهم قالوا ما وراءك، قال: سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني وخلوا بيني وبين الرجل، وبين ما هو فيه، فقالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، فقال هذا الرأي لكم، فاصنعوا ما بدا لكم.

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

يقول الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يعني آدمياً مثلكم ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ ما أبلغكم من الرسالة ﴿أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ يعني أقروا له بالتوحيد ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ من الشرك ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ يعني الشدة من العذاب للمشركين ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يعني لا يعطون الزكاة ولا يقرون بها ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ يعني بالبعث بعد الموت، ثم وصف المؤمنين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني صدقوا بالله وأدوا الفرائض ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يعني غير منقوص، ويقال غير مقطوع عنهم في حال ضعفهم ومرضهم فقال عز وجل ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التهديد والزجر، يعني أئنكم لتكذبون بالخالق الذي خلق الأرض في يومين يوم الأحد ويوم الإثنين، فبدأ خلقها في يوم الأحد، وبسطها في يوم الإثنين ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً﴾ يعني تصفون له شركاء من الآلهة ﴿ذٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني الذي خلق الأرض فهو رب جميع الخلق، ولو أراد الله أن يخلقها في لحظة

واحدة لفعل وكان قادراً ولكنه أحب أن يبصر الخلق وجوه الأناة، والقدرة على خلق السموات والأرض في أيام كثيرة، وفي لحظة واحدة سواء، لأن الخلق عاجزون عن مثقال ذرة منها، وكان ابتداء خلق الأرض في يوم الأحد، وإتمام خلقها وبسطها في يوم الإثنين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾ يعني وخلق في الأرض الرواسي يعني الجبال الثوابت من فوقها ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ بالماء والشجر ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [يعني قسم فيها الأرزاق وقال عكرمة: قدر فيها أقواتها][١] يعني قدر في كل قرية عملاً لا يصلح في الأخرى، مثل النيسابوري لا يكون إلا بنيسابور، والهروي لا يكون إلا بهراة، وقال قتادة (وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا) قال جبالها، ودوابها، وأنهارها وثمارها، وقال الحسن: وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا قال: أرزاقها، وقال مقاتل: يعني أرزاقها ومعايشها، وروى الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس رضي الله عنهم قال: أول ما خلق الله من شيء خلق القلم، فقال له اكتب، فقال يا رب وما أكتب؟ فقال: اكتب القدر فجرى بما يكون من ذلك اليوم إلى يوم القيامة، ثم خلق النون، ثم رفع بخار الماء ففتق منه السموات ثم بسط الأرض على ظهر النون، فاضطرب النون، فتمادت الأرض فأوتدت بالجبال، ثم قال ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ يعني من أيام الآخرة، ويقال من أيام الدنيا ﴿سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ يعني لمن سأل الرزق، ومن لم يسأل، وقال مقاتل (سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ) يعني عدلاً لمن سأل الرزق، كقوله (وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ) يعني عدلاً، وقال ابن عباس سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن هذه الآية فقال: «خلق الأرواح قبل الأجساد بأربع آلاف سنة»[٢]، وهكذا خلق الأرزاق قبل الأرواح بأربع آلاف سنة[٣] «فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً» قرأ الحسن «سَوَاءٍ» بكسر الألف، وقرأ أبو جعفر المدني (سَوَاءٌ) بالضم، وقراءة العامة بالنصب[٤]، فمن قرأ بالكسر جعل سواء صفة للأيام والمعنى في أربعة أيام مستويات تامات للسائلين، ومن قرأ بالضم فمعناه: في أربعة أيام. وقد تم الكلام، ثم استأنف فقال سواء للسائلين، ومن قرأ بالنصب يعني قدرها (سواء) صار نصباً على المصدر، ومعناه استوت استواء ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي صعد أمره إلى السماء وهو قوله (كُنْ) ويقال عمد إلى خلق السماء ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ يعني بخار الماء كهيئة الدخان، وذلك أنه لما خلق العرش لم يكن تحت العرش شيء سوى الماء كما قال (وكان عرشه على الماء) ثم ألقى الحرارة على الماء حتى ظهر منه البخار، فارتفع بخاره كهيئة الدخان، فارتفع البخار، وألقى الريح الزبد على الماء فزيد الماء، فخلق الأرض من الزبد وخلق السماء من الدخان وهو البخار ثم قال تعالى (وَهِيَ دُخَانٌ) ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ يعني للسماء والأرض ﴿ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ يعني اعطيا الطاعة طوعاً أو كرهاً، يعني ائتيا بالمعرفة لربكما، والذكر له طوعاً أو كرهاً ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فأعطيا الطاعة بالطوع، ويقال: كانت السماء رتقاً عن المطر، والأرض عن النبات، فقال لهما: (ائْتِيَا) يعني أعطيا وأخرجا ما فيكما من المطر والنبات منفعة للخلق، إن شئتما طائعين، وإن شئتما كارهين (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) يعني أخرجنا ما فينا طائعين غير كارهين، وروي عن مجاهد أنه قال: معناه يا سماء أبرزي شمسك وقمرك ونجومك، ويا أرض أخرجي نباتك طوعاً أو كرهاً ويقال هذا على وجه المثل، يعني أمرهما بإخراج ما فيهما، فأخرجتا طائعتين، قوله عز وجل ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ يعني أمر أهل كل سماء بأمرها قال السدي: خلق في كل سماء خلقاً من

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره في كشف الخفا ١/ ٢٦٥ وقال: لم يثبت عن ابن عباس بل هو باطل عنه قاله ابن حجر المكي في فتاويه الحديثية.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٦١ وعزاه لعبد الرزاق عن الحسن.

(٤) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٤٢.

الملائكة ﴿وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ يعني بالنجوم ﴿وَحِفْظاً﴾ يعني من الشياطين أن يسترقوا السمع ﴿ذَلِكَ﴾ أي الذي ذكر من صنعه ﴿تَقْدِيرُ العَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿العَلِيمِ﴾ بخلقه.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ﴾ أي خوفتكم ﴿صَاعِقَةً﴾ أي عذاباً ﴿مِثْلَ صَاعِقَةِ﴾ أي مثل عذاب ﴿عَادٍ وَثَمُودَ﴾ وقال مقاتل: كان عاد وثمود ابني عم، وموسى وقارون ابني عم، وإلياس واليسع ابني عم، وعيسى ويحيى ابني خالة، ومعنى الآية إن لم يعتبروا فيما وصف لهم من قدرتي وعظمتي في خلق السموات والأرض، وأعرضوا عن الإيمان، فقل أنذرتكم عذاباً مثل عذاب عاد وثمود أنه يصيبهم مثل ما أصابهم، قال الفقيه أبو الليث رحمه الله أخبرني الخليل بن أحمد قال حدثنا علي بن المنذر[2] قال حدثنا ابن فضيل عن الأجلح، عن ابن حرملة[1] عن جابر بن عبد الله: أن أبا جهل والملأ من قريش بعثوا عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فأتاه فقال له أنت يا محمد خير أم هاشم، أنت خير أم عبد المطلب، فلم تشتم آلهتنا، وتضلل آباءنا، فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك لواء وكنت رأساً ما بقيت، وإن كنت تريد الباءة زوجناك عشرة نسوة تختارهن من أي حي من بنات قريش شئت، وإن كنت تريد المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك، فلما فرغ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (بسم الله الرحمن الرحيم حَمٓ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) إلى قوله مثل صاعقة عاد وثمود) فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم أن يكف ثم رجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم، فقال أبو جهل والله يا معشر قريش ما نرى عتبة إلا وقد صبأ، فأتوه فقال أبو جهل والله يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبوت إلى دين محمد، وأعجبك أمره، فغضب عتبة وأقسم ألا يكلم محمداً أبداً، وقال إني أتيته وقصصت عليه القصة فأجابني بقوله: والله ليس فيه سحر ولا شعر ولا كهانة فأمسكت على فيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا قال قولاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم[3] العذاب ثم قال تعالى ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنَ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني من قبل عاد وثمود ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يعني من بعد عاد وثمود ﴿أَلَّا

(١) علي بن المنذر الطريقي الكوفي صدوق يتشيع مات سنة ست وخمسين انظر التقريب ٢/٤٤.

(٢) عبد الرحمن بن حرملة الأسلمي أبو حرملة المدني صدوق ربما أخطأ مات سنة خمسين وأربعين. التقريب ١/٤٧٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٥٩ وعزاه للبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن جابر.

﴿تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ يعني ألا تطيعوا في التوحيد غير الله، وهذا قول الرسل لقومهم، فأجابهم قومهم **﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾** ولم يرسل إلينا آدمياً **﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾** أي جاحدون، وقد قيل في قوله (مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِم) يعني خوفوهم من بين أيديهم من أمر الآخرة وحذروهم النار، ورغبوهم في الجنة (وَمِنْ خَلْفِهِمْ) يعني زهدوهم في الدنيا فلم يقبلوا، وقد قيل (من بين أيديهم) يعني ما خلق قبلهم، كيف أهلكهم الله، ومما خلفهم من أمر الآخرة **﴿فَأَمَّا عَـادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ﴾** يعني تعظموا عن الإيمان، عن قول لا إله إلا الله **﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾** يقول الله تعالى **﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾** وقواهم **﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾** يعني بطشاً ولم يعتبروا بذلك **﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾** يعني جاحدين بما آتاهم هود عليه السلام أنه لا ينزل بهم، قوله عز وجل **﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾** يعني ريحاً بارداً ذا صوت ودوي تحرق كما تحرق النار، ويقال: (رِيحا صَرْصَراً) أي شديدة الصوت **﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾** قال مقاتل: يعني شدائد. وقال الكلبي يعني أيام مشؤومات قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو (في أيام نَحْسَاتٍ) بجزم الحاء، والباقون بكسر الحاء[1] ومعناهما واحد، ويقال يوم نحس ويوم نحس، وأيام نحسه ونحسه، والنحسات جمع الجمع. **﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾** يعني العذاب الشديد في الدنيا قبل عذاب الآخرة وهذا كقوله (لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عملوا) يعني ليصيبهم بعض العقوبة في الدنيا. كقوله تعالى (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يُرْجِعُونَ) يعني يتوبون ثم قال عز وجل **﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنْصَرُونَ﴾** يعني أشد مما كان في الدنيا (وَهُمْ لاَ يُنْصَرُونَ) يعني لا يمنعهم أحد من عذاب الله لا في الدنيا ولا في الآخرة **﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾** قرأ الأعمش (ثَمُودٌ) بالتنوين، وقراءة العامة بغير تنوين **﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾** يعني بينا لهم الحق من الباطل والكفر من الإيمان وقال مجاهد (فَهَدَيْنَاهُمْ) أي دعوناهم، وقال قتادة ومقاتل: بينا لهم، وقال القتبي: دعوناهم ودللناهم **﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾** يعني اختاروا الكفر على الإيمان، ويقال اختاروا طريق الضلالة على طريق الهدى **﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾** والصاعقة: هي العذاب (الْهُونِ) يعني يهانون فيه، ويقال، الهون الشديد **﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** يعني يعملون من الشرك والمعاصي قوله عز وجل **﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾** يعني آمنوا بصالح النبي عليه السلام (وَكَانُوا يَتَّقُونَ) عقر الناقة، ويتقون الشرك والفواحش.

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا

---

(١) حجة من قرأ بسكون الحاء قوله تعالى: **﴿في يوم نحس مستمر﴾** ولم يقل نحس بكسر الحاء. قال الكسائي والفراء: هما لغتان بمعنى واحد. انظر حجة القراءات ٦٣٥.

خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ يعني: يساق أعداء الله وهم الكفار والمنافقون ﴿إِلَى النَّارِ﴾ قرأ نافع (وَيَوْمَ نَحْشر) بالنون أعداء بالنصب على معنى الإضافة إلى نفسه، وقرأ الباقون بالياء والضم[1] (يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ) على معنى فعل ما لم يسم فاعله، ويوم صار نصباً لإضمار فيه يعني: واذكر يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ ﴿فَهُم يُوزَعُونَ﴾ يعني: يحبس أولهم ليلحق بهم آخرهم وأصله من وزعته أي كففته ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا﴾ يعني: إذا جاؤوها ما صلة في الكلام، يعني جاءوا النار وعاينوها قيل لهم (أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُم تَزْعُمُونَ) فقالوا عند ذلك (وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) فيختم على أفواههم، وتستنطق جوارحهم فتنطق بما كتمت الألسن، فذلك قوله ﴿شَهِدَ عَلَيْهِم سَمْعُهُم﴾ يعني: آذانهم بما سمعت ﴿وَأَبْصَارُهُم﴾ يعني: أعينهم بما نظرت ورأت ﴿وَجُلُودُهُم﴾ يعني: فروجهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: بجميع أعمالهم قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِم﴾ يعني: لجوارحهم وقال القتبي: الجلود كناية عن الفروج ﴿لِمَ شَهِدتُّم عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يعني: أنطق الدواب وغيرهم ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني: أنطقكم في الدنيا ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة، يقول الله تعالى ﴿وَمَا كُنْتُم تَسْتَتِرُونَ﴾ يعني: ما كنتم تمتنعون، ويقال: ما كنتم تحسبون وتستيقنون ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُم وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُم وَلَكِن ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر ﴿وَذَلِكُم ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُم بِرَبِّكُم أَرْدَاكُمْ﴾ يعني: ذلك الظن الذي أهلككم، ويقال (أَرْدَاكُمْ) يعني: أغواكم، ويقال: أهلككم سوء الظن، وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: يقول الله تعالى «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي[2]» وقال الحسن: إن المؤمن أحسن الظن بربه، فأحسن العمل، وإن المنافق أساء الظن بربه، فأساء العمل ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يعني: صرتم من المغبونين ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا﴾ على النار ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: مأوى لهم ويقال هذا جواب لقولهم (اصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُم) يقول الله تعالى: (فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُم ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ أي: يسترجعوا من الآخرة إلى الدنيا ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي من المرجوعين إلى الدنيا، ويقال (وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا) يعني: وإن يطلبوا العذر (فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ) أي لا يسمع ولا يقبل منهم عذر قوله عز وجل: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُم قُرَنَاءَ﴾ قال القتبي يعني ألزمناهم قرناء من الشياطين، وقال أهل اللغة: قيض يعني: سلط، ويقال: قيض بمعنى قدر ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم﴾ يعني: زينوا لهم التكذيب بالحساب، وقال الحسن (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ) أي خلينا بينهم وبين الشياطين بما استحقوا من الخذلان فَزَيَّنُوا لَهُمْ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِم وَمَا خَلْفَهُم﴾ قال الضحاك يعني: شككوهم في أمر الآخرة (وَمَا خَلْفَهُم) يعني: رغبوهم في الدنيا، ويقال زينوا لهم ما بين أيديهم، يعني ما كان عليه آباؤهم من أمر الجاهلية، وما خلفهم يعني: تكذيبهم بالبعث ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يعني: وجب عليهم العذاب ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِم﴾ يعني: مع أمم قد خلت من قبل أهل مكة ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُم كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ بالعقوبة، ويقال: إِنَّهُم كَانُوا خَاسِرِينَ مثلهم.

---

(١) حجة من قرأ بالنون قوله تعالى: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ فرد ما اختلف فيه إلى ما أجمع عليه وحجة الباقين أنه عطف عليه مثله وهو قوله ﴿فهم يوزعون﴾. انظر المصدر السابق والنشر في القراءات العشر ٢/٣٦٦.

(٢) أخرجه البخاري ١٣/٣٨٤ كتاب التوحيد ٧٤٠٥ ومسلم ٤/٢٠٦١ كتاب الذكر ٢ ـ ٢٦٧٥.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ**﴾ نزلت الآية في أبي جهل وأصحابه، فإنه قال: إذا تلى محمد القرآن، فارفعوا أصواتكم بالأشعار والكلام في وجوههم حتى تلبسوا عليهم فذلك قوله ﴿**وَالْغَوْا فِيهِ**﴾ يعني: الغطوا، واللغط هو: الشغب والجلب ﴿**لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾ أي تغلبوهم فيسكتون، قال الزجاج: قوله (وَالْغَوْا فِيهِ) أي عارضوه بكلام لا يفهم يكون ذلك الكلام لغواً، يقول الله تعالى: ﴿**فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً**﴾ يعني: في الدنيا بالقتل ﴿**وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ**﴾ في الآخرة ﴿**أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ يعني: أقبح ما كانوا يعملون، ويقال: هذا كله من عذاب الآخرة، يعني: فلنذيقن الذين كفروا في الآخرة عذاباً شديداً، ولنجزينهم من العذاب أسْوَأَ ما كانوا يعملون، يعني بأسوء أعمالهم وهو الشرك ﴿**ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ**﴾ يعني: ذلك العذاب الشديد هو جزاء أعداء الله النَّارُ يعني: ذلك العذاب هو النار، ويقال صار رفعاً بالبدل عن الجزاء، ثم قال: ﴿**لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ**﴾ يعني: في النار موضع المقام أبداً ﴿**جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ**﴾ يعني: بالكتاب، والرسل قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ**﴾ يعني الصنفين اللذين ﴿**أَضَلَّانَا**﴾ يعني: استنا ضلالتنا ﴿**مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ**﴾ ويقال: جهلانا حتى نسينا الاخرة، ثم قال ﴿**نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ**﴾ في النار، ويقال من الجن، ويقال: يعني: إبليس هو الذي أضلنا، ومن الإنس يعني ابن آدم الذي قتل أخاه، ويقال يعني رؤساؤهم في الضلالة، كقوله: (رَبَّنَا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا) الآية، قرأ ابن كثير وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر (أرْنَا) بجزم الراء، والباقون بالكسر[1] ومعناهما واحد.

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٤٣، حجة القراءات الموضع السابق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ يعني: قالوا ربنا الله فعرفوه، واستقاموا على المعرفة، وقال القتبي: يعني آمنوا ثم استقاموا على طاعة الله، وقال ابن عباس في رواية الكلبي: ثم استقاموا على ما افترض الله عليهم، وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية ثم قال: أتدرون ما استقاموا عليه؟ فقالوا ما هو يا خليفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ قال: استقاموا ولم يشركوا[1]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ثم استقاموا ولم يروغوا روغان الثعلب على طاعة الله، فقال ابن عباس في رواية القتبي ثم استقاموا، وعن أبي العالية أنه قال ثم استقاموا أي أخلصوا له الدين والعمل، ويقال: وحدوا الله تعالى واستقاموا على طاعته، ولزموا سنة نبيه، وقال بعض المتأخرين: معناه ثم استقاموا أفعالاً كما استقاموا أقوالاً، وقد قيل أيضاً (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) يعني: يقولون الله مانعنا ومعطينا، وضارنا ونافعنا (ثُمَّ اسْتَقَامُوا) على ذلك القول، ولا يرون النفع ولا يرجون من أحد دون الله تعالى، ولا يخافون أحداً دون الله، فذكر أعمالهم، ثم ذكر ثوابهم فقال ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال الكلبي يعني: تتنزل عليهم الملائكة عند قبض أرواحهم ويبشرونهم ويقولون ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ يعني: لا تخافوا ما أمامكم من العذاب، ولا تحزنوا على ما خلفكم من الدنيا، وقال مقاتل: تتنزل عليهم الملائكة يعني: تتنزل عليهم الحفظة من السماء يوم القيامة فتقول له أتعرفني؟ فيقول لا. فيقول: أنا الذي كنت أكتب عملك، وبشره بالجنة فذلك قوله: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا، وقال زيد بن أسلم البشرى في ثلاث مواطن: عند الموت، وفي القبر وفي البعث[2]، وقال بعض المتأخرين: هذه البشرى للخائف الحزين لا للآمن المستبشر، يعني: الذي كان خائفاً في الدنيا ثم قال عز وجل: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: تقول لهم الحفظة نحن كنا أولياؤكم في الحياة الدنيا، ونحن أولياؤكم ﴿وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ يعني: لكم في الجنة ما تحب وتتمنى قلوبكم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ يعني: تسألون ثم قال: ﴿نُزُلًا﴾ أي رزقاً ﴿مِنْ غَفُورٍ﴾ للذنوب العظام ﴿رَحِيمٍ﴾ بالمؤمنين، حكى الزجاج عن الأخفش «نُزُلًا» منصوباً من وجهين: أحدهما على المصدر فمعناه: أنزلناه نزلا، ويجوز أن يكون على الحال قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ قال بعضهم الآية نزلت في شأن المؤذنين[3]، يدعون الناس إلى الصلاة، (وَعَمِلَ صَالِحًا) يعني: صلى بين الأذان والإقامة ويقال: الأنبياء يدعون الخلق إلى توحيد الله تعالى، وعمل صالحاً: يعني: الطاعات، ويقال العلماء يعلمون الناس أمور دينهم، ويدعونهم إلى طريق الآخرة، وعمل صالحاً: يعني عملوا بالعلم، ويقال نزلت الآية: في الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر يعني: يأمرون بالمعروف ويعملون به، ويصبرون على ما أصابهم، قوله ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعني: أكون على دين الإسلام، لأنه لا تقبل طاعة بغير دين الإسلام فقال عز وجل: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ قال الزجاج: لا زائدة مؤكدة، والمعنى لا تستوي الحسنة والسيئة، يعني: لا تَستَوي الطاعة والمعصية، ولا يستوي الكفر والإيمان، ويقال: لا يستوي البصير والأعمى، ويقال: لا يستوي الصبر والجزع، واحتمال الأذى والإساءة، وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يؤذيه أبو جهل لعنة الله عليه، وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكره رؤيته بُغْضاً له، فأمره الله تعالى بالعفو والصفح فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يعني: ادفع بالكلمة الحسنة الكلمة القبيحة ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٦٣ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور ومسدد وابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٦٣ وعزاه لابن أبي شيبة وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٦٤ وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة.

﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ يعني: إذا فعلت ذلك يصير الذي بينك وبينه عداوة بمنزلة القرابة في النسب قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ يعني: الكلمة الحسنة، ودفع السيئة ما يعطاها إلا الذين صبروا على طاعة الله، وأداء الفرائض ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ يعني: ذو نصيب وافر في الآخرة، ويقال (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) يعني: بقول لا إله إلا الله، السيئة: يعني الشرك، وما يلقاها إلَّا الذين صبروا: على كظم الغيظ ثم قال: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ يعني: يصيبك ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ يعني: وسوسة على الإحتمال ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من شره، وامض على احتمالك، وقال مقاتل (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ) يعني: يفتنتك (مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ) أي فتنة، وقال الكلبي الذنب عند دفع السيئة، ويقال (ينزغنك) يعني: يغوينك (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ) يعني تعوذ بالله ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ للإستعاذة ﴿الْعَلِيمُ﴾ بقول الكفار وعقوبتهم.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ يعني: من علامات وحدانيته ﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ يعني: خلق الشمس والقمر، والليل والنهار دلالة لوحدانيته، لتعرفوا وحدانيته فتعبدوه ولا تعبدوا هذه الأشياء ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ يعني: اعبدوا خالق هذه الأشياء واسجدوا له وأطيعوه ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يعني: إن أردتم بعبادة الشمس والقمر رضا الله تعالى فإن رضاه أن تعبدوه ولا تعبدوا غيره، ويقال (إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) يعني: إن أردتم بعبادتها عبادة الله تعالى فاعبدوا الله وأطيعوه ولا تسجدوا لغيره ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ يعني: تكبروا عن السجود لله تعالى وعن توحيده ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ﴾ يعني: يصلون لله تعالى ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يقال هو التسبيح بعينه، يعني يسبحونه ويذكرونه ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ يعني: لا يملون من الذكر والعبادة والتسبيح قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: من علامات وحدانيته ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي: غبراء يابسة لا نبت فيها ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ يعني: المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ يعني: تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: علت يعني انتفخت الأرض إذا أرادت أن تنبت ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ بعد موتها ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ للبعث في الآخرة ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي من البعث وغيره.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قال مقاتل يعني: يميلون عن الإيمان بالقرآن، وقال الكلبي: يعني: يميلون في آياتنا بالتكذيب، وقال قتادة: الإلحاد التكذيب[1]، وقال الزجاج: أي يجعلون الكلام على غير

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٦٦ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة.

وجهه، ومن هذا سمي اللحد لحداً: لأنه في جانب القبر، قرأ حمزة (يَلْحَدُون) بنصب الحاء والياء، والباقون بضم الياء وكسر الحاء[١]، ومعناهما واحد، لحد وألحد بمعنى واحد، قوله ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ أي: لا يقدرون على أن يهربوا من عذابنا، ولا يستترون منا ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ﴾ يعني: أبا جهل وأصحابه ﴿خَيْرٌ أَمَّنْ يأتي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ويقال نزلت في شأن جميع الكفار وجميع المؤمنين، يعني: من كان مرجعه إلى النار حاله يكون خيراً، أم حال من يدخل الجنة، ثم قال لكفار مكة ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُم﴾ لفظه لفظ التخيير والإباحة، والمراد به التوبيخ والتهديد لأنه بين مغير كل عامل ثم قال تعالى ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ من الخير والشر قوله تعالى (بصير) أي عالم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يعني: جحدوا بالقرآن لما جاءهم ﴿وإنَّه﴾ يعني: القرآن ﴿لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ يعني: كريم عند المؤمنين، ويقال كريم على الله أنزله آخر الكتب، وقال مقاتل: كتاب عزيز: يعني: منيع عن الباطل ويقال،عزيز لا يوجد مثله في النظم وكثرة فوائده ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ قال الكلبي ومقاتل لا يأتيه الباطل أي لا يأتيه التكذيب من الكتاب الذي قبله كل يصدق هذا ولايجيء من بعده كتاب يكذبه وقال قتادة لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يعني لا يستطيع الشيطان أن يبطل منه حقاً، ولا يؤيد فيه باطلاً، قال أبو الليث حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا الباغندي[٢] قال حدثنا محمد بن سلمة[٣] عن أبي سنان عن عمرو بن مرة[٤] عن أبي البحتري عن الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب قال: قيل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «إن أمتك ستفترق من بعدك» فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلى، فقالوا ما المخرج منها، فقال جبريل لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: كتاب الله العزيز الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) من ابتغى العلم في غيره أضله الله، ومن حكم بغيره قصمه الله، وهو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، فيه خبر من كان قبلكم وبيان من بعدكم، والحكم فيما بينكم، هو الفصل المبين، وهو الفضل وليس بالهزل، وهو الذي سمعته الجن فقالوا (إنا سمعنا قرآنا عجبا) لا يخلق على طول الدهر ولا تنقضي عبره ولا تفنى عجائبه، ثم قال للحارث خذها إليك يا أعور، ثم قال ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٥] يعني: القرآن تنزيل من الله تعالى الحكيم في أمره المحمود في فعاله، وقال بعضهم: قوله (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم) لم يذكر جوابه، وجوابه مضمر، وقال بعضهم: جوابه في قوله (وذو عقاب أليم) ويقال جوابه في قوله (أولئك ينادون من مكان بعيد).

مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ

(١) انظر حجة القراءات ٦٣٦ ـ ٦٣٧ إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٤٤.

(٢) محمد بن محمد بن سليمان أبو بكر الأزدي الواسطي المعروف بابن الباغندي من حفاظ الحديث توفي سنة ٣١٢ هـ. الأعلام ٧/ ١٩.

(٣) محمد بن سلمة بن عبد الله الباهلي مولاهم الحرائي ثقة مات سنة إحدى وتسعين على الصحيح انظر التقريب ٢/ ١٦٦

(٤) عمرو بن مرة بن عبد الله بن طارق الجملي أبو عبد الله الكوفي الأعمى ثقة عابد رمي بالإرجاء. التقريب ٢/ ٧٨.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٩١ والدارمي في السنن ١/ ٤٣٥ وفيه الحارث الأعور وهو مختلف في توثيقه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني: اصبر على مقالة الكفار فإنهم لا يقولون من التكذيب لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك من التكذيب، ويقال معناه ما يقال لك يعني: لا يؤمر لك يعني في الرسالة إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، بأن يعبدوا الله، فيقال لك أن تعبد الله أيضاً، ويقال (مَا يُقَالُ لَكَ) إلا بأن تبلغ الرسالة ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ بأن يبلغوا الرسالة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ قال مقاتل: أي ذو تجاوز في تأخير العذاب عنهم إلى أجلهم، وقال الكلبي (إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ) لمن تاب من الشرك ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لمن لم يتب ومات على الكفر قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِياً﴾ يعني: لو أنزلناه بلسان العبرانية ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ يعني: هلا بين بالعربية ﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ ويقولون القرآن أعجمي والرسول عربي، فكان ذلك أشد لتكذيبهم، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر بهمزتين بغير مد، والباقون بهمزة واحدة مع المد، ومعناهما واحد ويكون على معنى الاستفهام وقرأ الحسن (أَعْجَمِيٌّ) بهمزة واحدة بغير مد، ويكون على غير وجه الاستفهام وقرأ بعضهم (أَعجَمِي) بنصب العين والجيم[1]، يقال رجل عجمي إذا كان من العجم وإن كان فصيحاً، ورجل أعجمي إذا كان لا يفصح وإن كان من العرب، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدَىً﴾ يعني: القرآن هدى للمؤمنين من الضلالة ﴿وَشِفَاءٌ﴾ أي: شفاء لما في الصدور من العمى ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالآخرة ﴿فِي آذَانِهِم وَقْرٌ﴾ يعني: ثقل وصم ﴿وَهُوَ عَلَيْهِم عَمىً﴾ عَمي: بالكسر على معنى النعت، وقراءة العامة بالنصب يعني: القرآن عليهم حجة وهذا قول الكلبي، وقال مقاتل يعني: عموا عنه فلا ينظرونه، ولا يفهمونه وروي عن ابن عباس أن قرأ (وَهُوَ عَلَيْهِم عمٍ) بالكسر على معنى النعت، وقراءة العامة بالنصب[2] على معنى المصدر، كما أنه قال (هدى وشفاء) على معنى: المصدر ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وهذا على سبيل المثل، يقال للرجل إذا قل فهمه إنك تنادي من مكان بعيد، يعني: إنك لا تفهم شيئاً، ويقال: ينادون من مكان بعيد: يعني: من السماء، وقال مجاهد يعني: بعيداً من قلوبهم، وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة من مكان بعيد، فينادى الرجل بأشنع أسمائه يعني: يقال له يا فاسق، يا منافق، يا كذا، يا كذا، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: أعطينا موسى التوراة ويقال الألواح، قوله ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ يعني: صدق بعضهم وكذب بعضهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني: وجبت بتأخير العذاب ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: لفرغ من أمرهم ولهلك المكذب ﴿وَإِنَّهُم لَفِي شَكٍ مِنْه مُرِيبٍ﴾ يعني: من العذاب بعد البعث (مريب) لا يعرفون شكهم، ويقال مريب: أي ظاهر الشك ويقال: (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ) بتأخير العذاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة لأتاهم العذاب إذ كذبوه كما فعل بغيرهم قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ﴾ يعني: ثوابه لنفسه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ يعني: العذاب على نفسه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ يعني: لا يعذب أحداً بغير ذنب.

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٣٧ النشر في القراءات العشر ٢/٣٦٧.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٤٤.

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ يعني: لا يعلم قيام الساعة أحد إلا الله، يعني: يرد الخلق كلهم علم قيام الساعة إلى ربهم ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ يعني: من أجوافها يعني حين تطلع، وغلاف كل شيء كمه أي تخرج من موضعها الذي كانت فيه، قرأ نافع وابن عامر وعاصم في إحدى رواية حفص (مِنْ ثَمَرَاتٍ) بلفظ الجمع، والباقون (مِنْ ثَمَرَةٍ)[1] بلفظ الواحد، ثم قال ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ يعني: إلَّا وهو يعلمه، ولا يعلم أحد قبل الولادة قبل صفته، ولا يعلم أحد بعد وضعه كم أجله ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ يعني: يدعوهم ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ يعني: الذين كنتم تدعون من دون الله ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ يعني: أعلمناك، وقلنا لك (مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ) يعني: يشهد بأن لك شريك، تبرؤوا من أن يكون مع الله شريك وقالوا ما منا من أحد يشهد لك أنه عبد أحد دونك، وقال القتبي: هذا قول الآلهة التي كانوا يعبدون في الدنيا (ما منا من شهيد: لهم، كما قالوا وادعوه في الدنيا فينا ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ يعني: بطل عنهم ﴿مَا كَانُوا يَدْعُون مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِن مَّحِيصٍ﴾ يعني: علموا واستيقنوا ما لهم من ملجأ ولا مفر من النار قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ﴾ يعني: لا يمل الكافر، قال الضحاك نزلت في شأن النضر بن الحارث ﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ يعني: من سؤال الخير، يعني العافية في الجسد والسعة في الرزق ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ يعني: أصابته الشدة والبلاء والفقر ﴿فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾ يعني: آيساً من الخير، قانطا من رحمة الله تعالى، ويقال: لا يمل من دعاء الخير، وإذا نزلت به شدة يقول اللهم عافني، وإذا مسه الشر فيؤوس قنوط، يعني آيساً من معبوده ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ يعني: أصبناه عافية منا وغِنىً ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ يعني: من بعد شدة أصابته ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ يعني: أنا أهل لهذا ومستحق له ويقال أنا أحق بهذا، ويقال هذا بعملي وأنا محقوق به ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ يعني: ما أحسب القيامة كائنة ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي﴾ يعني: يوم القيامة ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ يعني: الجنة، ولئن كان يوم القيامة كما يقول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلي الجنة، يقول الله تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: لنخبرنهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من أعمالهم الخبيثة ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ﴾ يعني: لنجزينهم ﴿مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يعني: عذاب شديد لا يفتر عنهم.

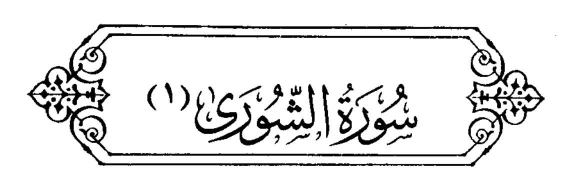
وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾

---

(١) انظر النشر ٢/٣٦٧.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ يعني: أعرض الكافر فلا يدعو ربه، وقال الكلبي أعرض عن الإيمان (وَنَأَى بِجَانِبِهِ) يعني: تباعد بجانبه عن الدعاء، وعن الإيمان ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ يعني: أصابته الشدة ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ قال مقاتل والكلبي يعني كثيراً، ويقال يعني طويلاً، فإن قيل قد قال في موضع (وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ) وقال في موضع آخر (فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ) مرة ذكر أنه يؤوس ومرة أخرى ذكر أنه يدعو فكيف هذا؟ قيل له: هذا في شأن رجل، وهذا في شأن رجل آخر، ويجوز أن يكون في شأن إنسان واحد (وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ) عن كل معبود دون الله فيدعو الله دائماً، فقال عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني: إن كان هذا الكتاب من عند الله ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾ يعني: جحدتم أنه ليس من عند الله ماذا تقولون؟ وماذا تجيبون؟ وماذا تحتالون إذا نزل بكم العذاب يوم القيامة؟ ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في خلاف طويل بعيد عن الحق قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ﴾ يعني: عذابنا في البلاد، مثل هلاك عاد وثمود وقوم لوط وهم يرون إذا سافروا آثارهم وديارهم ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يبتلون بأنفسهم من البلايا، ويقال: من قتل أصحابهم الكفار في الحرب ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ يعني: إن الذي قلت هو الحق فيصدقونك وقال مجاهد (سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ) يعني: ما يفتح الله عليهم من القرى (وَفِي أَنْفُسِهِمْ) قال فتح مكة، وقال الضحاك معناه: أن أبا جهل، قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ائتنا بعلامة فانشق القمر نصفين، فقال أبو جهل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن كان القمر قد انشق فهي آية، ثم قال يا معشر قريش إن محمداً قد سحر القمر، فوجهوا رسلكم إلى الآفاق هل عاينوا القمر إنْ كان كذلك فهي آية، وإلا فذلك سحر، فوجهوا فإذا أهل الآفاق يتحدثون بانشقاقه فقال أبو جهل عليه اللعنة (هَذَا سِحْرٌ مُسْتَمِر) يعني: ذاهباً في الدنيا، فنزل (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وقال بعض المتأخرين سنريهم أياتنا في الآفاق ما وضع في العالم من الدلائل، وفي أنفسهم: ما وضع فيها من الدلائل التي تدل على وحدانية الله تعالى، وأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسول صادق ينطق بالوحي فيما يقول، وهذا كما قال (وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوْقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُم أَفَلاَ تُبْصِرُونَ) قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ شاهداً أن القرآن من الله تعالى: ﴿أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: عالم بأعمالهم، بالبعث وغيره، وقال الكلبي (أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ) يعني: أنه قد أخبرهم بذلك وإن لم يسافروا ويقال (أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ) ومعنى: الكفاية هاهنا: أنه قد بين لهم ما فيه كفاية بالدلالة على توحيده وتثبيت رسله ثم قال: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنَ لِقَاءِ رَبِّهِم﴾ ألا: كلمة تنبيه يعني: اعلم أنهم في شك من البعث ﴿أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ يعني: ألا إن الله تعالى عالم بأعمالهم وعقوبتهم، والإحاطة: إدراك الشيء بكماله، يعني: أحاط علمه سبحانه وتعالى بكل شيء من البعث وغيره، والحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده وآله وسلم.



سورة الشورى(١)

وهي ثلاث وخمسون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ روي عن ابن عباس أنه قال: الحاء حكم الله والميم: ملك الله، والعين: علو الله، والسين: سناء الله، والقاف: قدرة الله. فكأنه يقول: فبحكمي وملكي وعلوي، وسنائي، وقدرتي، لا أعذب عبداً قال: لا إله إلا الله مخلصاً فلقيني بها، ومعنى قول ابن عباس لا يعذب عبداً، يعني لا يعذبه عذاباً دائماً خالداً، وروى المسيب عن رجل، عن أبي عبيدة قال: العين عذاب الله، والسين: سنون، والقاف: فيها القحط العجب (قال: وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال «افتحوا صبيانكم قول لا إله إلا الله، ولقنوا موتاكم لا إله إلا الله[٢] الحكمة في ذلك، لأن حال الصبيان حال حسن، لا غل ولا غش في قلوبهم، وحال الموتى حال

---

(١) من أغراض هذه السورة تحدي الطاعنين في أن القرآن وحي من الله بأن يأتوا بكلام مثله، فهذا التحدي لا تخلو عنه السور المفتتحة بالحروف الهجائية المقطعة، كما تقدم في سورة البقرة. واستدل الله على المعاندين بأن الوحي إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما هو إلا كالوحي إلى الرسل من قبله لينذر أهل مكة ومن حولها بيوم الحساب. وأن الله الذي له ما في السموات وما في الأرض لا تعارض قدرته ولا يشك في حكمته، وقد خضعت له العوالم العليا ومن فيها وهو فاطر المخلوقات فهو يجتبي من يشاء لرسالته فلا يدع أن يشرع للأمة المحمدية من الدين مثل ما شرع لمن قبله من الرسل، وما أرسل الله الرسل إلا من البشر يوحي إليهم فلم يسبق أن أرسل ملائكة لمخاطبة عموم الناس مباشرة. وأن المشركين بالله لا حجة لهم إلا تقليد أئمة الكفر الذين شرعوا لهم الإشراك وألقوا إليهم الشبهات. وحذرهم يوم الجزاء واقتراب الساعة وما سيلقى المشركون يوم الحساب من العذاب مع إدماج التعريض بالترغيب فيما سيلقاه المؤمنون من الكرامة، وأنهم لو تدبروا لعلموا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يأتي عن الله من تلقاء نفسه لأن الله لا يقره على أن يقول عليه ما لم يقله.

وذكرت دلائل الوحدانية وما هو من تلك الآيات نعمة على الناس مثل دليل السير في البحر وما أوتيه الناس من نعم الدنيا. وتسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن الله هو متولي جزاء المكذبين وما على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حسابهم من شيء فما عليه إلا الاستمرار على دعوتهم إلى الحق القويم. ونبههم إلى أنه لا يبتغي منهم جزاء على نصحه لهم وإنما يبتغي أن يراعوا أواصر القرابة بينه وبينهم. وذكرهم نعم الله عليهم، وحذرهم من التسبب في قطعها بسوء أعمالهم، وحرضهم على السعي في أسباب الفوز في الآخرة والمبادرة إلى ذلك قبل الفوات، فقد فاز المؤمنون المتوكلون، ونوه بجلايل أعمالهم وتجنبهم التعرض لغضب الله عليهم. وتخلل ذلك تنبيه على آيات كثيرة من آيات انفراده تعالى بالخلق والتصرف المقتضي انفراده بالإلهية إبطالاً للشرك. وختمها بتجدد المعجزة الأمية بأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاءهم بهدي عظيم من الدين وقد علموا أنه لم يكن ممن تصدى لذلك في سابق عمره وذلك أكبر دليل على أن ما جاء به أمر قد أوحي إليه به فعليهم أن يهتدوا بهديه فمن اهتدى بهديه فقد وافق مراد الله. وختم ذلك بكلمة جامعة تتضمن التفويض إلى الله وانتظار حكمه وهي كلمة «ألا إلى الله تصير الأمور». انظر التحرير ٢٥/٢٤ ـ ٢٥.

(٢) أخرجه مختصراً مسلم ٦٣١/٢ كتاب الجنائز (٩١٦/١) بلفظ «لقنوا موتاكم» فذكره لكن ذكر ابن عراق في تنزيه الشريعة ٣٦٤/٢=

الإضطرار، فإذا قلتم ذلك في أول ما يجري عليكم القلم، وآخر ما يجف القلم فعسى الله أن يتجاوز ما بين ذلك[١] قال المسيب: وحدثنا محدث قال: قاف قذف، وقال الضحاك في قوله (حَم عَسق) قال: قضى عذاب سيكون واقعاً، وأرجو أن يكون قد مضى يوم بدر، والسنون، وقال شهر بن حوشب (حم عَسَقَ) حرب يذل فيه العزيز ويعز فيه الذليل من قريش، ثم يفضي إلى العرب، ثم إلى العجم، ثم هي متصلة إلى خروج الدجال، وقال عطاء: الحاء حرب وهو موت ذريع في الناس وفي الحيوان حتى يبيدهم ويفنيهم، والميم تحويل ملك من قوم إلى قوم، والعين عدو لقريش يركبهم ثم ترجع الدولة إليهم بحرمة البيت، والسين هو استئصال بالسنين كسني يوسف، والقاف قدر من الله نافذ في ملكوت الأرض لا يخرجون من قدره وهو نافذ فيهم، وقال السدي: الحاء حلمه، والميم ملكه، والعين عظمته، والسين سناؤه، والقاف قدرته، وقال قتادة: هو اسم من أسماء الله تعالى، ويقال اسم من أسماء القرآن، ثم قال تعالى ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني أوحى الله إليك بـ (حم عسق) كما أوحى الله بها إلى الذين كانوا من قبلك وقال ابن عباس ليس من نبي وإلا وقد أوحَى الله تعالى إليه بـ (حم عسق) كما أوحى الله بها إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، قرأ ابن كثير (يُوحَى إِلَيْك) بالألف على معنى فعل ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون (يُوحِي) بالكسر[٢] يعني هكذا يوحي الله إليك، وقرىء في الشاذ (نوحي) بالنون ثم قال ﴿اللَّهُ العَزِيزُ﴾ بالنقمة على من لم يجب الرسل ﴿الحكيم﴾ حكم بإنزال الوحي عليك، وقال مقاتل (كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ) يعني في أمر العذاب قوله عز وجل ﴿لَهُ مَا في السَّمَوَات وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ يعني من خلق ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ يعني لرفعي ﴿الْعَظِيمُ﴾ فلا شيء أعظم منه، يعني عظيم قدرته.

تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

= الحديث بنحو لفظ المصنف وعزاه للجوزقاني من حديث ابن عباس وقال: وفيه محمد بن محمويه بن مسلم عن أبيه وهما مجهولان وإبراهيم بن المهاجر ضعفه البخاري (تعقب) بأن الحديث في المستدرك وأخرجه البيهقي في الشعب من طريق الحاكم وقال متن غريب لم نكتبه إلا بهذا الإسناد وأورده الحافظ ابن حجر في أماليه ولم يقدح في سنده بشيء إلا أنه قال إبراهيم فيه لين وقد أخرج له مسلم في المتابعات (قلت) قال الذهبي في تلخيص الموضوعات آفته محمويه أو ابنه والله تعالى أعلم. تنزيه الشريعة ٣٦٥/٢.

(١) سقط في ظ.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٣٩. النشر ٣٦٧/٢.

قوله تعالى ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ يعني يتشققن ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ يعني تكاد أن يتشققن من قدرة الله وهيبته يعني من هيبة الرحمن وجلاله وعظمته، قرأ ابن كثير وابن عامر، وحمزة، وعاصم، في رواية حفص (تَكَادُ السَّمَوَاتُ) بالتاء بلفظ التأنيث (يَتَفَطَّرْنَ) بالتاء بلفظ التأنيث، وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر (تَكَادُ) بالتاء بلفظ التأنيث (يَنْفَطِرْنَ) بالنون، وقرأ الباقون بالياء بلفظ التذكير (يَتَفَطَّرْنَ) بالياء[١] ثم قال ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يعني يسبحونه ويذكرونه ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني للمؤمنين، وروى داود بن قيس[٢] قال: دخلت على وهب بن منبه فَسُئِلَ عن قوله (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ) قال للمؤمنين منهم، وفي رواية أنه قال نسختها الآية التي في سورة المؤمن حيث قال (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا) وروى معمر عن قتادة قال (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ) قال للمؤمنين منهم[٣]، قال أبو الليث رحمه الله هذا الذي روي عن قتادة أصح، لأن النسخ في الأخبار لا يجوز، وإنما يجوز في الأمر والنهي ثم قال ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوبهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم في الرزق. ويقال (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ) يعني يسألون لهم الرزق قوله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني عبدوا من دون الله أولياء يعني أصناماً ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني يحفظ أعمالهم، ويقال شهيد عليهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ يعني بمسلط لتجبرهم على الإيمان، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال قوله عز وجل ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ يعني هكذا أنزلنا عليك جبريل بالقرآن ليقرأ عليك القرآن بلغتهم ليفهموه ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ يعني لتخوف بالقرآن أهل مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من البلدان ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ يعني لتنذرهم بيوم القيامة، والباء محذوفة منه كما قال (لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً) يعني ببأس شديد وإنما سمي يوم الجمع: لأنه يجتمع فيه أهل السماء وأهل الأرض كلهم، من الأولين، والآخرين ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يعني يوم القيامة لا شك فيه أنه كائن ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ﴾ وهم المؤمنون ﴿وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ وهم الكافرون قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني على ملة واحدة وهو الإسلام ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ يعني يكرم بدينه من يشاء، من كان أهلاً لذلك، ويدخله في الآخرة في رحمته أي في جنته ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يعني الكافرين ليس لهم مانع يمنعهم من العذاب، ولا ناصر ينصرهم قوله تعالى ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني عبدوا من دون الله أرباباً ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ يعني هو أولى أن يعبدوه، ويقال: الله هو الولي يعني هو الرب، وهو إله السموات وإله الأرض، ويقال هو الولي لمصالحهم ينزل المطر بعد المطر ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ يعني يحيهم بعد الموت، ويقال يحيي قلوبهم بالمعرفة ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني قادر على ما يشاء قوله تعالى ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني إذا اختلفتم في أمر الدين ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يعني علمه عند الله ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ يعني الذي ذكر هو الله ربي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يعني فوضت أمري إليه سبحانه ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ يعني أقبل إلى الله تعالى بالطاعة.

فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ

---

(١) من قرأ بالنون حجته قوله تعالى ﴿السماء منفطر به﴾ ولم يقل: متفطر والأمر في التاء والنون يرجع إلى معنى واحد إلا أن التاء للتكثير وذلك أن «ينفطرن» من فطرت فانفطرت مثل كسرت فانكسرت ويتفطره من قولك: فطرت فتفطرت مثل كسرت فتكسرت، فهذا لا يكون إلا للتكثير انظر حجة القراءات ٦٤٠.

(٢) داود بن قيس الفراء الدباغ أبو سليمان القرشي مولاهم ثقة فاضل» التقريب ١/٢٣٤.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة.

كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني هو خالق السموات والأرض ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ يعني أصنافاً، ذكراً وأنثى ﴿وَمِنْ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً﴾ يعني أصنافاً ذكراً وأنثى وقال القتبي (جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً) يعني من جنسكم إناثاً، (وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً) يعني إناثاً ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ يعني: يخلقكم فيه أي في الرحم، وقال الكلبي (يذرؤكم فيه) يعني يكثركم في التزويج، وقال مقاتل يعيشكم فيما جعل لكم من الذكور والإناث من الأنعام ثم قال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ في القدرة وقال أهل اللغة: هذا الكاف مؤكدة أي ليس مثله شيء، ويقال المثل صلة في الكلام يعني ليس هو كشيء ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ يعني هو السميع لمقالتهم، البصير بهم وبأعمالهم ومعنى الآية (ليس كمثله شيء) لأنه الخالق العالم بكل شيء، والقادر على ما يشاء «الحي القيوم» وهذه المعاني بعيدة من غيره، ثم قال عز وجل ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني خزائن السموات والأرض وهو المطر، وخزائن الأرض وهو النبات ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يعني يوسع الرزق على من كان صلاحه في ذلك ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يعني يقتر على من كان صلاحه في ذلك ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من البسط والتقتير. قوله تعالى ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ قال مقاتل أي بين لكم الدين وهو الإسلام ومن هاهنا صلة، وقال الكلبي: اختار لكم من الدين ومعناه اختار لكم ديناً من الأديان وأكرمكم به، ثم قال ﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾ يعني الدين الذي أمر به نوحاً أن يدعو الخلق إليه، وأن يستقيم عليه ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يعني الذي أوحينا إليك بأن تدعو الناس إليه ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ﴾ يعني والدين الذي أمرنا به ﴿إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ ثم بين ما أمرهم به فقال ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ يعني أقيموا التوحيد ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ يعني لا تختلفوا في التوحيد ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني على مشركي مكة ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ وهو التوحيد وقال أبو العالية أن أقيموا الدين قال الإخلاص لله في عبادته لا شريك له ولا تتفرقوا فيه قال لا تتعالوا فيه وكونوا عباد الله إخواناً كبر على المشركين ما تدعوهم إليه، يعني الإخلاص لله تعالى، ويقال (أن أقيموا الدين) يعني أرفقوا في الدين، اتفقوا ولا تتفرقوا فيه، يعني لا تختلفوا فيه كما اختلف أهل الكتاب ثم قال ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يختار لدينه من يشاء من كان أهلاً لذلك ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ يعني يرشد إلى دينه من يقبل إليه، ويقال يهدي من كان في علمه السابق أنه يتوب ويرجع ويقال (من ينيب) يعني من يجتهد بقلبه. كما قال (والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا) قوله تعالى ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ يعني مشركي مكة ما تفرقوا في الدين ﴿إِلَّا

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ في كتابهم يعني جاءهم محمد بالبينات، ويقال: وما تفرقوا، يعني أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم في كتابهم، يعني من نعت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ يعني حسداً فيما بينهم لأنه كان من العرب، وروى معمر عن قتادة أنه تلى (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ) قال إياكم والفرقة فإنها مهلكة وروي في الخبر «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ آفة وآفَةُ الدِّينِ الهَوَى» ثم قال ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني بتأخير العذاب إلى وقت معلوم ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني لفرغ منهم بالهلاك ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾ يعني أعطوا التوراة والإنجيل ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني من بعد نوح وإبراهيم، وقال مقاتل يعني من بعد الأنبياء ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ يعني: من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾أي ظاهر الشك وقوله تعالى ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ﴾ يعني فإلى ذلك ادعهم، يعني إلى القرآن، ويقال إلى التوحيد ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ يعني استقم عليه كما أمر ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني لا تعمل بهواهم، وذلك حين دعوه إلى ملة آبائه ﴿وَقُلْ آمَنْتُ﴾ يعني صدقت ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ يعني بجميع ما أنزل الله من الكتب عليَّ، وعلى من كان قبلي ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ وهو الدعوة إلى التوحيد وإلى قول لا إله إلا الله ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ يعني خالقنا وخالقكم ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ يعني لنا ديننا ولكم دينكم ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾يعني لا خصومة بيننا وبينكم يوم القيامة ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يعني إليه المرجع في الآخرة.

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ يعني يخاصمون في توحيد الله ودين الله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ يعني من بعد ما أجابوا إياه، أي: بعد ما أجاب المؤمنون بتوحيد الله لنبيه، وقال مجاهد: طمع رجال بأن يعودوا إلى الجاهلية[1] فنزل (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ) إلى قوله ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ وروى معمر عن قتادة قال: والذين يحاجون في الله، يعني في دينه قال هم اليهود والنصارى، قالوا كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير[2] منكم، فنزل (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ) أي في دين الله (مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ) يعني من بعد ما دخل الناس في الإسلام (حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ) يعني خصومتهم باطلة، ويقال احتجاجهم زائل ساقط، يقال: دحض أي زال، ومعناه ليس لهم حجة، وسمى قولهم حجة على وجه المجاز، يعني حجتهم كما قال (فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ) يعني الآلهة بزعمهم، ولم يكونوا آلِهَة في الحقيقة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ يعني كما يكابرون عقولهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بما كانوا يفعلون قوله عز وجل ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ أي لبيان الحق، وأنزل الميزان

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة.

وهو العدل، ويقال وأنزل الميزان في زمان نوح، ويقال هي الحدود، والأحكام، والأمر، والنهي قوله ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ يعني قيام الساعة قريب، وهذا كقوله (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) وقال تعالى (لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) ولم يقل قريبة؟ لأن تأنيثها ليس بحقيقي، ولأنه انصرف إلى المعنى يعني للبعث قوله تعالى ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ يعني إنَّ المشركين كانوا يقولون (مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ويقولون (رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ يعني خائفين من قيام الساعة لأنهم يعلمون أنهم مبعوثون محاسبون ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ يعني يعلمون أن الساعة كائنة ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ يعني يشكون ويخاصمون فيها ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي في خطأ طويل، بعيد عن الحق قوله عز وجل ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ يعني عالم بعباده، ويقال رحيم بعباده، ويقال اللطيف: الذي يرزقهم في الدنيا ولا يعاقبهم في الآخرة، ويقال: اللطيف بعباده، بالبر والفاجر، لا يهلكهم جوعاً ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بغير حساب، ويقال يرزق من يشاء مقدار ما يشاء في الوقت الذي يشاء ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ على هلاكهم ﴿الْعَزِيزُ﴾ يعني: المنيع لا يغلبه أحد قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ﴾ يعني: ثواب الآخرة بعمله ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ يعني ينال كليهما ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ يعني ثواب الدنيا بعمله ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ يعني نعطه منها ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ لأنه عمل لغير الله تعالى قال أبو الليث رحمه الله حدثنا الفقيه أبو جعفر قال حدثنا محمد بن عقيل[1] قال حدثنا محمد ابن إسماعيل الصايغ[2] قال حدثنا الحجاج قال حدثنا شعبة عن عمر بن سليمان عن عبد الرحمن بن أبان[3] عن أبيه عن زيد بن ثابت عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «من كانت نيته الآخرة جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله[4] له»، وقال القتبي: الحرث في اللغة العمل، يعني من كان يريد بحرثه، أي بعمله الآخرة نضاعف له الحسنات، ومن أراد بعمله الدنيا أعطيناه الدنيا ولا نصيب له في الآخرة.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَالِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَالِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

قوله عز وجل ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يعني ألهم آلهة دوني ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ أي بينوا لهم من الدين ﴿مَالَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ يعني ما لم يأمر به، ويقال معناه: ألهم آلهة ابتدعوا لهم من الدين أي من الشريعة والطريقة، ويقال

---

(١) محمد بن عقيل بن خويلد الخزاعي صدوق حدث من حفظة بأحاديث فأخطأ في بعضها مات سنة سبع وخمسين. التقريب ١٩١/٢.

(٢) محمد بن إسماعيل بن سالم الصائغ الكبير أبو جعفر البغدادي صدوق مات سنة ست وسبعين. التقريب ١٤٥/٢.

(٣) عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان الأموي المدني ثقة مقل عابد. التقريب ٤٧١/١.

(٤) أخرجه الترمذي ٦٤٢/٤ كتاب صفة القيامة (٢٤٦٥).

سنوا لهم ما لم يأذن به الله، يعني ما لم ينزل به الله من الكتاب والدين ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ يعني القضاء الذي سبق ألا يعذب هذه الأمة، ويؤخر عذابهم إلى الآخرة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني أنزل بهم العذاب في الدنيا ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ يعني المشركين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة قوله تعالى ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ يعني ترى الكافرين يوم القيامة ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ يعني خائفين مما عملوا في الدنيا ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ يعني نازل بهم ما كانوا يحذرون ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني الذين صدقوا بالتوحيد، وأدوا الفرائض والسنن ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ يعني في بساتين الجنة ﴿لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ من الكرامة ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ يعني: المن العظيم قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ﴾ يعني ذلك الثواب الذي يبشر الله ﴿عِبَادَهُ﴾ في الدنيا، قرأ حمزة والكسائي وابن كثير وأبو عمرو (يَبْشُر) بنصب الياء وجزم الباء وضم الشين مع التخفيف، والباقون بالتشديد[1] وقد ذكرناه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني يبشرهم بتلك الجنة، وبذلك الثواب ثم قال ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ يعني قل يا محمد لأهل مكة لا أسألكم عليه أجراً أي على ما جئتكم به أجراً ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ قال مقاتل يعني إلا أن تصلوا قرابتي، وتكفوا عني الأذى، ثم نسخ بقوله (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ) ويقال (إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) يعني إلَّا ألَّا تؤذونني بقرابتي منكم، قال ابن عباس ليس حي من أحياء العرب إلا وللنبي ـ عليه السلام ـ فيه قرابة[2]، وقال الحسن: إلا المودة في القربى، يعني إلا أن تتوددوا إلى الله تعالى بما يقربكم منه، وهكذا قال[3] مجاهد، وقال سعيد بن جبير: إلا المودة في القربى، يعني إلا أن تصلوا قرابة ما بيني وبينكم ثم قال ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ يعني يكتسب حسنة ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً﴾ يعني للواحد عشرة، ويقال: نزد له التوفيق في الدنيا، ونضاعف له الثواب في الآخرة ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يعني غفور لمن تاب، شكور يقبل اليسير ويعطي الجزيل.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ يعني تقوله من ذات نفسه ولم يأمره الله تعالى، قال الله تعالى ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ يعني يحفظ قلبك حتى لا تدخل في قلبك المشقة والأذى من قولهم ﴿وَيَمْحُو اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ يعني يهلك الله تعالى الشرك ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ يعني يظهر دينه الإسلام ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ يعني

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٤٠ ـ ٦٤١. إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٤٩

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٦ وعزاه لسعيد بن منصور وابن سعد وعبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد.

بتحقيقه وبنصرته وبالقرآن ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني يعلم ما في قلب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الحزن، ويعلم ما في قلوب الكافرين من التكذيب قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ حتى يتجاوز عما عملوا قبل التوبة، وروى عبد العزيز بن إسماعيل عن محمد بن مطرف[١] قال «يقول الله تعالى وَيْحَ ابْنَ آدَمَ يُذْنِب الذَّنْبَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِر فَأَغْفِرَ لَهُ، ثُمَّ يُذْنِبُ ذَنْباً، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ فَأَغْفِر لَهُ، ثُمَّ يُذْنِبُ ذَنْباً، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ فَأَغْفِرَ لَهُ لَا هُوَ يَتْرك ذُنُوبَهُ، وَلَا هُوَ يَيْأَس مِن رَّحْمَتِي، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ» ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من خير أو شر، قرأ حمزة والكسائي وعاصم، في رواية حفص (تفعلون) بالتاء على معنى المخاطبة والباقون بالياء[٢] على معنى الخبر عنهم ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني يجيب دعاءهم، ويعطيهم أكثر ما سألوا من المغفرة ﴿وَيَزِيدُهُم مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني يزيدهم على أعمالهم من الثواب ويقال يعطيهم الثواب في الجنة أكثر مما سألوا ﴿وَالْكَافِرِينَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يعني دائماً لا يفتر عنهم قوله تعالى ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾ يعني لو وسع الله تعالى عليهم المال ﴿لَبَغَوْا﴾ أي لطغوا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وعصوا ﴿وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ يعني يوسع على كل إنسان بمقدار صلاحه في ذلك، قال أبو الليث رحمه الله: حدثنا أبو القاسم حمزة بن محمد[٣] قال حدثنا أبو القاسم أحمد بن حمزة قال حدثنا نصر بن يحيى قال سمعت شقيق بن إبراهيم الزاهد يقول (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ) قال لو أن الله تعالى رزق العباد من غير كسب لتفرغوا، وتفاسدوا في الأرض، ولكن شغلهم بالكسب حتى لا يتفرغوا للفساد، ثم قال ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ يعني بالبر والفاجر، والمؤمن والكافر، ويقال يعني عالم بصلاح كل واحد منهم قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ يعني المطر ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي حبس عنهم ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ يعني المطر ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ يعني الولي للمطر يرسله مرة بعد مرة، الحميد يعني أهل أن يحمد على صنعه قوله عز وجل ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ يعني من علامات وحدانيته ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني خلقين عظيمين لا يقدر عليهما بنو آدم، ولا غيرهم ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ يعني ما خلق في السموات والأرض من خلق أو بشر فيهما ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ﴾ يعني على إحيائهم للبعث ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ يعني قادر على ذلك، ويقال (وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ) يعني في الأرض خاصة، كما قال (يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) يعني من أحدهما ثم قال ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِن مُّصِيبَةٍ﴾ يعني: ما تصابون من مصيبة في أنفسكم وأموالكم ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يعني يصيبكم بأعمالكم ومعاصيكم ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ يعني ما عفى الله عنه فهو أكثر، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال «ألا أخبركم بأرجى آية في كتاب الله أنزلت على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ؟ قالوا بلى، فقرأ عليهم «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير» قال: فالمصائب في الدنيا بكسب الأيدي، وما عفى الله تعالى عنه في الدنيا ولم يعاقب فهو أجود وأمجد، وأكرم من أن يعذب فيه يوم القيامة[٤]، وعن الضحاك قال: ما تعلم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب، ثم قرأ (وَمَا أَصَابَكُم مِن مُّصِيبَةٍ

---

(١) محمد بن مطرف بن داود الليثي أبو غسان المدني ثقة مات بعد الستين. التقريب ٢/٢٠٨.

(٢) حجتهم أنه تعالى أخبر عن عباده المذكورين في سياق الكلام فكأنه قال: وهو الذي يقبل التوبة، من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعل عباده، وحجة الباقين أن الخطاب يدخل فيه الغائب والحاضر. انظر حجة القراءات ٦٤١.

(٣) حمزة بن محمد بن حمزة بن عمرو الأسلمي مجهول الحال. التقريب ١/٢٠٠.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٩ وعزاه لأحمد وابن راهويه وابن منيع وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وأبي يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم.

فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن[١]، قرأ نافع وابن عامر «بما كسبت أيديكم» بحذف الفاء، ويكون [ما]: بمعنى الذي، ومعناه الذي أصابكم وقع بما كسبت أيدكم، وقرأ الباقون (فَبِمَا كَسَبَتْ) بالفاء[٢]، وتكون الفاء جواب الشرط، ومعناه ما يصيبكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم، ثم قال:

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني بفائتين من عذاب الله حتى يجزيكم به ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني من عذاب الله ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يعني من حافظ ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يعني مانع يمنعكم من عذاب الله تعالى قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ﴾ قرأ ابن كثير (الجَوَارِي) بالياء في الوقف والوصل، وقرأ نافع وأبو عمر بالياء في الوصل، وبغير الياء في الوقف، والباقون بغير ياء[٣] في الوقف والوصل، فمن قرأ بالياء فهو الأصل في اللغة، وهي جماعة السفن تجرين في الماء، واحدتها جارية، كقوله (حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ) يعني السفينة، ومن قرأ بغير ياء فلأن الكسر يدل عليه ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ يعني تسير في البحر كالجبال ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ يعني يبقين سواكن على ظهر الماء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ يعني لعلامات لوحدانيتي ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يعني الذي يصبر على طاعة الله (شَكُورٍ) لنعم الله قوله تعالى ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ يعني إن يشأ يهلك السفن بما عملوا من الشرك وعبادة الأوثان ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ ولا يجازيهم ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قرأ ابن عامر ونافع: بضم الميم، والباقون بالنصب[٤]، فمن قرأ بالضم فلأنه عطف على قوله (ويعف) وموضعه الرفع، وأصله (ويعفو) فاكتفى بضم الفاء، والذين، كان معطوفاً عليه رفع أيضاً، ومن قرأ بالنصب صار نصباً للصرف، يعني صرف الكلام عن الإعراب الأول، ومعناه ولكي يعلم الذين يجادلون في آياتنا، يعني في القرآن بالتكذيب ﴿مَالَهُمْ مِن مَّحِيصٍ﴾ يعني من مفر من الله.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٩ وعزاه لابن المبارك وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن الضحاك.

(٢) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٦٧. إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٥٠.

(٣) انظر المصدران السابقان وحجة القراءات ٦٤٢.

(٤) المصادر السابقة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٤٢﴾

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني ما أعطيتم من الدنيا **﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** أي منفعة الحياة الدنيا **﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾** أي ما عند الله في الآخرة من الثواب والكرامة خير وأبقى يعني أدوم، ثم بين لمن يكون ذلك الثواب فقال: **﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾** أي يثقون به تعالى ويفوضون الأمر إليه قوله تعالى **﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾** وهذا نعت المؤمنين أيضاً الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، قرأ حمزة والكسائي (كَبِيرَ الإِثْمِ) بغير ألف بلفظ الواحد، لأن الواحد يدل على الجمع، والباقون (كبائر)[1] وهو جمع كبيرة، والكبيرة: ما أوجب الله تعالى الحد عليها في الدنيا، أو العذاب في الآخرة، ثم قال **﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾** يعني إذا غضبوا على أحد يتجاوزون، ويكظمون الغيظ ثم قال **﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾** يعني أجابوا وأطاعوا ربهم فيما يدعوهم إليه ويأمرهم به **﴿وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾** يعني أتموا الصلوات الخمس في مواقيتها **﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾** يعني إذا أرادوا حاجة تشاوروا فيما بينهم، وروي عن الحسن أنه قال: هم الذين إذا حزبهم أمر استشاروا أولي الرأي منهم **﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾** يعني يتصدقون في طاعة الله ثم قال **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾** يعني الظلم **﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾** أي ينتقمون ويقتصون روى سفيان عن منصور عن إبراهيم أنه قال كانوا يكرهون أن يستذلوا، ويحبون العفو إذا قدروا[2]، قوله تعالى **﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾** يعني يعاقب مثل عقوبته لغيره **﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾** يعني عفا عن مظلمته، وأصلح بالعفو **﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾** يعني ثوابه على الله **﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾** يعني لمن يبدأ بالظلم، روي عن زيد بن أسلم أنه قال: كانوا ثلاث فرق، فرقة بالمدينة وفرقتان بمكة، إحداهم تصبر على الأذى، والثانية تنتصر والثالثة تكظم، فنزلت الآية (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ) نزلت في الذين بالمدينة (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) نزلت في الذين ينتصرون، وقوله (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ) نزلت في الذين يصبرون، فأثنى الله تعالى عليهم جميعاً قوله عز وجل **﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾** ثم نزل في الظالمين **﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾** وذكر أن أبا بكر رضي الله عنه كان عند النبي - صلى الله عليه وسلم -، ورجل من المنافقين يسبه وأبو بكر رضي الله عنه لم يجبه، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - ساكت يبتسم، فأجابه أبو بكر، فقام النبي - صلى الله عليه وسلم - وذهب، فقام إليه أبو بكر فقال: يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما دام يسبني كنت جالساً، فلما أجبته قمت، فقال - عليه السلام - إن الملك كان يجيبه عنك، فلما أجبته ذهب الملك وجاء الشيطان، وأنا لا أجلس في مجلس يكون فيه الشيطان[3] فنزل (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) وروى محمد بن المنكدر[4] قال: ينادي المنادي يوم القيامة من كان له عند الله حق

---

(١) حجة من قرأ «كبير» ما روي عن ابن عباس أنه قال: عنى بذلك الشرك بالله ويجوز أن تقول بالتوحيد لأن التوحيد يؤدي عن معنى الجمع فيكون المعنى كبير كل إثم وحجة الباقين ما في الآية وهو قوله «والفواحش» قالوا: ولو كان كبير الإثم لكان: والفحش، ويقوي الجمع أيضاً إجماع الجميع على قوله **﴿إن تجتنبوا كبائرما تنهون عنه﴾** انظر حجة القراءات ٦٤٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٠ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/٤٣٦ وانظر ابن كثير ٧/٢٠١.

(٤) محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهديز التيمي المدني ثقة فاضل. التقريب ٢/٢١٠.

فليقم، قال: فيقوم من عفا وأصلح[١]، قوله عز وجل (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ) يعني انتصف بعد ظلمه واقتص منه (فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ) يعني من مأثم، وقال قتادة: هذا فيما يكون بين الناس من القصاص، فأما لو ظلمك لا يحل لك أن تظلمه[٢]، يعني فيما لا يحتمل القصاص وقال الحسن: يعني إذا قال لعنك الله، أن تقول له يلعنك الله وإذا سبك فلك أن تسبه، ما لم يكن فيه حد، أو كلمة لا تصلح، ثم قال تعالى (إِنَّمَا السَّبِيلُ) يعني الإثم والحرج (عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ) يعني يبدؤون بالظلم ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يعني ويظلمون في الأرض، ويعملون المعاصي ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني وجيع

وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ يعن صبر عن مظلمته فلم يقتص من صاحبه (وغفر) يعني تجاوز عنه ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمورِ﴾ يعني الصبر والتجاوز من أفضل الأمور، وأصوب الأمور، قال بعضهم: هذه الآيات مدنيات، وقال بعضهم: مكيات قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ يعني يخذله الله عن الهدى، ويقال: من يخذله ويتركه على ما هو فيه من ظلم الناس ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعني ليس له قريب يهديه ويرشده إلى دينه، من بعده يعني من بعد خذلان الله تعالى إياه قوله ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ﴾ يعني المشركين والعاصين ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ في الآخرة ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ يعني هل من رجعة إلى الدنيا من حيلة فنؤمن بك، يتمنون الرجوع إلى الدنيا قوله تعالى ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ يعني يساقون إلى النار ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ أي خاضعين من الحزن، ويقال ساكتين ذليلين مقهورين من الحياء ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ قال الكلبي يعني ينظرون بقلوبهم ولا يرونها بأعينهم لأنهم يسحبون على وجوههم، وقال مقاتل: يعني يستخفون بالنظر إليها يعني إلى النار: قال القتبي يعني غضوا أبصارهم من الذل، وقال بعضهم مرة ينظرون إلى العرش بأطراف أعينهم ماذا يأمر الله تعالى بهم، ومرة ينظرون إلى النار ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني المؤمنين المظلومين ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني يظلمون غيرهم حتى تصير حسناتهم للمظلومين فخسروا أنفسهم ﴿وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال بعضهم هذه حكاية كلام المؤمنين في الآخرة، بأنهم يقولون ذلك حين رأوا الظالمين الذين خسروا أنفسهم، وقال بعضهم: هذه حكاية قولهم في الدنيا فحكى الله تعالى قولهم، وصدقهم على مقالتهم فقال ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ يعني دائم، وقال بعضهم: هذا اللفظ، لفظ الخبر عنهم والمراد به التعليم أنه ينبغي لهم أن يقولوا هكذا يعني يصبروا على ظلمهم قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني لا يكون للظالمين يوم القيامة مانع يمنعهم من عذاب الله

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١١ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١١ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان عن قتادة.

﴿يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني يمنعونهم من عذاب الله ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ يعني يضله الله عن الهدى ﴿فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ إلى الهدى من حجة، ويقال ما له من حيلة.

ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

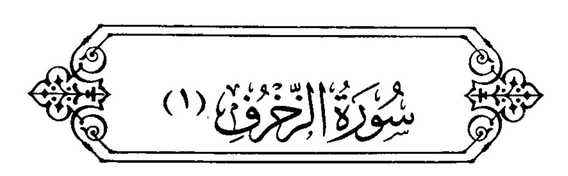
قوله عز وجل: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ يعني أجيبوا ربكم في الإيمان، وفيما أمركم به ﴿مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ﴾ يعني لا رجعة له إذا جاء لا يقدر أحد على دفعه ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ ويقال فيه تقديم: يعني من قبل أن يأتي من عذاب الله يوم لا مرد له، يعني لا مدفع له ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني ما لكم من مفر ولا حرز يحرزكم من عذابه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ يعني من مغير يغير العذاب عنكم قوله عز وجل ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان وعن الإجابة بعد ما دعوتهم ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ تحفظهم على الإيمان، وتجبرهم على ذلك ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ يعني ليس عليك إلا تبليغ الرسالة، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم قال ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ يعني أصبنا الإنسان منا رحمة ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أي بطر بالنعمة، قال بعضهم: يعني أبا جهل، وقال بعضهم: جميع الناس، والإنسان هو لفظ الجنس وأراد به جميع الكافرين بدليل أنه قال ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ﴾ ذكر بلفظ الجماعة يعني إن تصبهم ﴿سَيِّئَةٌ﴾ يعني القحط والشده ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني بما عملوا من المعاصي ﴿فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ لنعم الله، يعني يشكو ربه عند المصيبة، ولا يشكره عند النعمة قوله تعالى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني القدرة على أهل السموات والأرض ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ على أي صورة شاء ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً﴾ يعني من يشاء الأولاد الإناث فلا يجعل معهن ذكوراً ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ يعني يعطي من يشاء الأولاد الذكور ولا يكون معهم إناث ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً﴾ يعني يعطي من يشاء الأولاد الذكور والإناث ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً﴾ فلا يعطيه شيئاً من الولد، ويقال (يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً) كما وهب للوط النبي (وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ) كما وهب لإبراهيم ـ عليه السلام ـ (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً) كما جعل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وكما وهب ليعقوب ـ عليه السلام ـ (وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً) كما جعل ليحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ يعني عالم بما يصلح لكل واحد منهم، قادر على ذلك.

۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

قوله عز وجل ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ يعني لأحد من خلق الله ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً﴾ يعني يرسل إليه جبريل ليقرأ عليه، ويقال: إلا وحياً يعني إلهاماً، ويقال يسمع الصوت فيفهمه، وذلك أن اليهود قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا يكلمك الله، أو ينظر إليك إن كنت نبياً، كما كلم موسى فنزل (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ) يعني ما جاز لأحد من الآدميين أن يكلمه الله إلا وحياً، يعني يسمع الصوت أو يرى في المنام، ولا يجوز أن يكلمه مواجهة عياناً في الدنيا ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ فيكلمه كما كلم موسى ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾كما أرسل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ يعني فيرسل بأمره، ويقال: بإذنه ما يشاء من أمره، قرأ نافع وابن عامر (أَوْ يُرْسِلُ) بضم اللام، وقرأ الباقون بالنصب، فمن قرأ بالضم فمعناه: أو هو يرسل رسولاً، ومن قرأ بالنصب فعلى الإضمار أيضاً ومعناه أو يرسل رسولاً (فَيُوحِي) قرأ نافع وابن عامر فيوحي بسكون الياء، ومعناه أو هو يرسل رسولاً فيوحي، وقرأ الباقون بالنصب[1] (فَيُوحِيَ) لإضمار أن ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ يعني أعلى من أن يكلم أحداً في الدينا مواجهة، ولا يراه فيها أحد عياناً (حَكِيمٌ) حكم ألا يكلم أحداً في المواجهة، ولا يراه أحد قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ يعني جبريل بأمرنا، ويقال أوحينا إليك روحاً يعني القرآن، وقال القتبي: الروح روح الأجسام، ويسمى كلام الله تعالى روحاً لأن فيه حياة من الجهل وموت الكفر، كما قال (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) ثم قال (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾ يعني ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا تدري كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً﴾ يعني أنزلنا جبريل بالقرآن ضياءً من العمى، وبياناً من الضلالة، فإن قيل: سبق ذكر الكتاب والإيمان، ثم قال (وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً) ولم يقل جعلناهما؟ قيل له: لأن المعنى هو الكتاب وهو دليل على الإيمان، ويقال: لأن شأنهما واحد، كقوله (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً) ولم يقل آيتين، ويقال (وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً) يعني الإيمان كناية عنه، ولأنه أقرب ﴿نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يعني نوفق من نشاء للهدى من كان أهلاً لذلك ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني لتدعو الخلق إلى دين الإسلام قوله عز وجل ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ يعني دين الله ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من خلق ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أي ترجع إليه عواقب الأمور. والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

---

(١) قال سيبويه: سألت الخليل عن قوله «أو يرسل رسولاً» بالنصب فقال: «يرسل» محمول على (أن) سوى هذه التي في قوله: ﴿أن يكلمه الله﴾. قال: لأن ذلك غير وجه الكلام، لأنه يصير المعنى: (ما كان لبشر أن يرسل الله رسولاً) وذلك غير جائز، وإنما «يرسل» محمول على معنى «وحي». المعنى: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا بأن يوحي أو يرسل. ويجوز الرفع في «يرسل» على معنى الحال، ويكون المعنى ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا موحياً أو مرسلاً. ويجوز أن يرفع (أو يرسل) على (هو يرسل). وهذا قول الخليل وسيبويه. انظر الحجة (٦٤٤). وانظر الكتاب ١/٤٢٨.



وهي تسع وثمانون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿حمٓ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ يعني: أقسم بحمٓ، وبالكتاب الذي أبان طريق الهدى من طريق الضلالة، وأبان كل ما تحتاج إليه الأمة، ويقال مُبِين أي بين بلغة تعرفونها، يعني بين فيه الحلال والحرام ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ فهذا جواب القسم يعني: إنا جعلناه ووصفناه، أقسم بالكتاب المبين إِنَّا جَعَلْنَاهُ يعني: إنا قلناه ووصفناه وبيناه، ويقال: أنزلنا به جبريل ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ يعني: بلغة العرب ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يعني: لكي تعقلوا، وتفهموا ما فيه، ولو نزل بغير لغة العرب لم تفهموا ما فيه ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا﴾ يعني: إن كذبتم بالقرآن فإن نسخته في أصل الكتاب يعني: اللوح المحفوظ لدينا يعني: عندنا ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ يعني: شريف مرتفع، محكم من الباطل، ويقال حكيم أحكم حلاله وحرامه، ويقال: حَكِيمٌ، أي حاكم على الكتب كلها، ويقال: حكيم أي: ذو حكمة، كما قال تعالى ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾، قرأ حمزة والكسائي «في إم الكتاب» بكسر الألف في جميع القرآن، لأن الياء أخت الكسرة فاتبع الكسرة الكسرة، والباقون «أم» بضم الألف وهو الأصل في اللغة.

---

(١) من أغراض هذه السورة التحدي بإعجاز القرآن لأنه آية صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما جاء به والتنويه به عدة مرات وأنه أوحى الله به لتذكيرهم وتكرير تذكيرهم وإن أعرضوا كما أعرض من قبلهم عن رسلهم. وإذ قد كان باعثهم على الطعن في القرآن تعلقهم بعبادة الأصنام التي نهاهم القرآن عنها كان من أهم أغراض السورة التعجيب من حالهم إذ جمعوا بين الاعتراف بأن الله خالقهم والمنعم عليهم وخالق المخلوقات كلها. وبين اتخاذهم آلهة يعبدونها شركاء لله، حتى إذا انتقض أساس عنادهم اتضح لهم ولغيرهم باطلهم. وجعلوا بناتٍ لله مع اعتقادهم أن البنات أحط قدراً من الذكور فجمعوا بذلك بين الإشراك والتنقيص. وابطال عبادة كل ما دون الله على تفاوت درجات المعبودين في الشرف فإنهم سواء في عدم الإلهية للألوهية ولبنوة الله تعالى. وعرض على إبطال حججهم ومعاذيرهم، وسفه تخيلاتهم وترهاتهم. وذكرهم بأحوال الأمم السابقين مع رسلهم، وأنذرهم بمثل عواقبهم، وحذرهم من الاغترار بإمهال الله وخص بالذكر رسالة إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام. وخص إبراهيم بأنه جعل كلمة التوحيد باقية في جمع من عقبه وتوعد المشركين وأنذرهم بعذاب الآخرة بعد البعث الذي كان إنكارهم وقوعه من مغذيات كفرهم وإعراضهم لاعتقادهم أنهم في مأمن بعد الموت.

وقد رتبت هذه الأغراض وتفاريعها على نسج بديع وأسلوب رائع في التقديم والتأخير والأصالة والاستطراد على حسب دواعي المناسبات التي اقتضتها البلاغة، وتجديد نشاط السامع لقبول ما يلقى إليه. وتخلل في خلاله من الحجج والأمثال والمثل والقوارع والترغيب والترهيب، شيء عجيب، مع دحض شبه المعاندين بأفانين الإقناع بانحطاط ملة كفرهم وعسف معوج سلوكهم. وأدمج في خلال ذلك ما في دلائل الوحدانية من النعم على الناس والإنذار والتبشير. وقد جرت آيات هذه السورة على أسلوب نسبة الكلام إلى الله تعالى عدا ما قامت القرينة على الإسناد إلى غيره. انظر التحرير ٢٥/١٥٨ ـ ١٥٩.

أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

قوله عز وجل: ﴿**أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً**﴾ يعني: أفندع ونترك أن نرسل إليكم الوحي مبهماً لا آمركم ولا أنهاكم، وقال القتبي معناه: أن أمسك عنكم فلا أذكركم إعراضاً، يقال: صفحت عن فلان إذا أعرضت عنه، وقال مجاهد معناه: تكذبون بالقرآن ولا تعاقبون فيه،[1] قرأ ابن كثير وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر ﴿**أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ**﴾ بنصب الألف، وقرأ الباقون بالكسر[2] فمن قرأ بالنصب فمعناه: أفنضرب عنكم ذكر العذاب بأن أسرفتم يعني: أشركتم وعصيتم، ويقال: أفنضرب عنكم ذكر العذاب لأن أسرفتم وكفرتم، ومن قرأ بالكسر فمعناه: إن كنتم قوماً مسرفين، ويقال: هو على معنى: الاستقبال، ومعناه إن تكونوا مسرفين نضرب عنكم الذكر ثم قال عز وجل: ﴿**وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ**﴾ يعني: كم بعثنا من نبي في أمر الأمم الأولين كما أرسلنا إلى قومك ﴿**وَمَا يَأْتِيهِم مِن نَبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ يعني: يسخرون منه قوله تعالى: ﴿**فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً**﴾ يعني: من كان أشد منهم قوة ﴿**وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ**﴾ يعني: سنة الأولين بالهلاك قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم**﴾ يعني: المشركين ﴿**مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ**﴾ يعني: يقولون خلقهن الله تعالى الذي هو **العزيز** في ملكه، **العليم** بخلقه، فزادهم الله تعالى في جوابهم فقال: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً**﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم مَهْداً والباقون مهاداً بالألف[3]، يعني: قراراً للخلق ﴿**وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً**﴾ يعني: طرقاً ﴿**لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ يعني: لكي تعرفوا طرقها من بلد إلى بلد، ويقال: لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ يعني: لكي تعرفوا هذه النعم، وتأخذوا طريق الهدى، ثم ذكرهم النعم فقال عز وجل: ﴿**وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ**﴾ يعني: بمقدار ووزن ﴿**فَأَنْشَرْنَا بِهِ**﴾ يعني: أحيينا بالمطر ﴿**بَلْدَةً مَيْتاً**﴾ يعني: أرضاً ميتة لا نبات فيها ﴿**كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ**﴾ أنتم من قبوركم قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا**﴾ يعني: الأصناف كلها من النبات، والحيوان، وغير ذلك ﴿**وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ**﴾ يعني: جعل لبني آدم من السفن، والإبل والدواب ما يركبون عليها ثم قال: ﴿**لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ**﴾ يعني: لتركبوا ظهور الأنعام، ولم يقل ظهورها؟ لأنه انصرف إلى المعنى وهو جنس الأنعام ﴿**ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُم إِذَا اسْتَوَيْتُم عَلَيْهِ**﴾ يعني: إذا ركبتم فتحمدوا الله تعالى ﴿**وَتَقُولُوا**﴾ عند ذلك ﴿**سُبْحَانَ**

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٣ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٤٤. إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٥٣.

(٣) انظر حجة القراءات ٦٤٥ وقد تقدم.

﴿الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ يعني: ذلل لنا هذا **﴿وما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾** يعني: مطيعين وقال أهل اللغة: أنا مقر لك أي مطيق لك، ويقال مقرنين: أي مالكين، ويقال: ضابطين ثم قال: **﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾** يعني: راجعين إليه في الآخرة، وقد روى عثمان بن الأسود[1] عن مجاهد أنه قال: إذا ركب الرجل دابته ولم يذكر اسم الله تعالى ركب الشيطان من ورائه، ثم صك في قفاه، فإن كان يحسن الغناء قال له تغن، وإن كان لا يحسن الغناء قال له تمن، يعني: تكلم بالباطل وعن علي بن ربيعة[2] أنه قال: كنت رديفاً لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلمّا استوى، قال: الحمد لله، ثم قال سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ.

وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَـٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

قال الله تعالى: **﴿وَجَعَلُوا لَهُ مَنْ عِبَادِهِ جُزْءاً﴾** يعني: وصفوا لله من خلقه شريكاً وولداً **﴿إِنَّ الإنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾** يعني: كَفُورٌ لنعمه مُبِينٌ أي بين الكفر ثم قال تعالى: **﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾** وهو رد على بني مليح حيث قالوا الملائكة بنات الله معناه، اختار لكم البنين ولنفسه البنات، ثم وصف كراهيتهم البنات فقال: **﴿وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾** قوله عز وجل: **﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً﴾** يعني: بما وصفوا لله تعالى من البنات، وكرهوا لأنفسهم ذلك **﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾** يعني: تغير لونه وهو حزين مكروب، يعني: أترضون لله ما لا ترضون لأنفسكم قوله عز وجل: **﴿أَوَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾** يعني: يغذى في الذهب والفضة ويقال أفمن زين في الحلي والحلل **﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾** يعني: في الكلام غير فصيح، ويقال: هن في الخصومة غير مبينات في الحجة، ويقال أفمن زين في الحلي وهو في الخصومة غير مبين، لأن المرأة لا تبلغ بخصومتها وكلامها ما يبلغ الرجل، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص أو من يُنَشَّأُ بضم الياء ونصب النون وبشديد الشين، ومعناه أو

(١) عثمان بن الأسود بن موسى المكي ثقة ثبت. التقريب ٢/٦.

(٢) علي بن ربيعة بن نضلة أبو المغيرة الكوفي ثقة. التقريب ٢/٢٧.

من يربى في الحلية، لفظه لفظ الإستفهام والمراد به التوبيخ، وقرأ الباقون أَوَمَنْ يَنْشأ بنصب الياء وجزم النون مع التخفيف[١]، يعني يشب وينبت في الحلي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾ يعني: وصفوا الملائكة بالأنوثة، قرأ ابن كثير وابن عامر ونافع الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ (إِنَاثاً) يعني: وصفوا الملائكة بالأنوثة، قرأ ابن كثير وابن عامر ونافع عبيد. يعني: الملائكة الذين هم في السماء، والباقون عِبَادُ[٢] يعني: جمع عبد ثم قال: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ يعني: أحضروا خلق الملائكة حين خلقهم الله تعالى فعلموا أنهم ذكوراً أو إناثاً؟ هذا استفهام فيه نفي، يعني لم يشهدوا خلقهم، على وجه التوبيخ والتقريع ثم قال: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُم﴾ يعني: ستكتب مقالتهم ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عنه يوم القيامة، وروي عن الحسن أنه قرأ (سَتُكْتَبُ شَهَادَاتُهم) بالألف، يعني: أقوالهم، وقرأ عبد الرحمن الأعرج (سَنَكْتُبُ) بالنون[٣] قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ يعني: ما عبدنا الملائكة ويقال الأصنام ﴿مَالهم بِذَلِكَ مِن عِلْمٍ﴾ أي: ما لهم بذلك القول من حجة ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ يعني: يكذبون بغير حجة، وقال مقاتل: في الآية تقديم، يعني: عباد الرحمن إناثاً ما لهم بذلك من علم قوله عز وجل: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ﴾ يعني: أنزلنا عليهم كتاباً من قبل هذا القرآن ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ يعني: آخذون به عاملون، اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به النفي قوله عز وجل: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ يعني: لكنهم قالوا إنا وجدنا آباءنا على دين وملة، وقال القتبي: أصل الأمة الجماعة والصنف كقوله (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ) ثم يستعار في أشياء، منها الدين كقوله (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ) أي على دين، لأن القوم كانوا يجتمعون على دين واحد، فتقام الأمة مكان الدين، ولهذا قيل للمسلمين أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنهم على ملة واحدة وهي الإسلام، وروى مجاهد وعمر بن عبد العزيز أنهما قرآ (إِمَّةٍ) بكسر الألف أي على نعمة، ويقال على هيئة وقراءة العامة بالضمة[٤]، يعني: على دين، وروى أبو عبيدة عن بعض أهل اللغة أن الأُمَّةِ والأمة لغتان، ثم قال: ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ يعني: مستيقنين ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ يعني: جبابرتها ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ يعني: بسنتهم مقتدون، أي: بأعمالهم، قال الله تعالى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى﴾ يعني: أليس هذا الذي جئتكم به هو أهدى ﴿مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ يعني: بأصوب وأبين من ذلك، قرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص (قَالَ أَوَلَوْ) على معنى الخبر، والباقون (قُلْ)[٥] بلفظ الأمر، وقرأ أبو جعفر المدني (جِئْنَاكُم)[٦] بلفظ الجماعة ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ يعني: إن الجبابرة قالوا لرسلهم إنا بما أرسلتم به جاحدون.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٤٦. إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٥٤.

(٢) انظر النشر ٢/٣٦٨.

(٣) انظر تفسير القرطبي ١٦/٤٩.

(٤) انظر تفسير القرطبي ١٦/٥٠.

(٥) انظر حجة القراءات ٦٤٨ النشر في القراءات ٢/٣٦٩. إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٥٥.

(٦) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٥٥.

﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالعذاب ﴿فَانْظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني: آخر أمرهم قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ يعني: بريء من معبودكم، ذكر عن الفراء أنه قال براء : مصدر صرف أسماء، وكل مصدر صرف إلى اسم، فالواحد والجماعة، والذكر، والأنثى، فيه سواء قوله عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ يعني: إلا الذي خلقني فإني لا أتبرأ منه ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ ويقال: إلا بمعنى لكن، يعني لكن الذي خلقني فهو سيهدين يعني: يثبتني على دين الإسلام ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعني: جعل تلك الكلمة ثابتة في نسله وذريته، وهي كلمة التوحيد، لا إله إلا الله ﴿لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم إلى الإيمان، وقال قتادة: هو التوحيد والإخلاص، لا يزال في ذريته من يوحدوا الله تعالى ويعبدوه، وقال مجاهد: يعني: كلمة لا إله إلا الله في عقبه وولده[١]، ويقال: (إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ) يعني: ذو البراءة، كما يقال رجل عدل، ورجال عدل أي ذو عدل، قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: أجلت هؤلاء وأمهلتهم يعني قومك ﴿وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ يعني: القرآن، ويقال الدعوة إلى التوحيد ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ يعني: بين أمره بالدلائل والحجج، ويقال: مبين يعني: بين لهم الحق من الباطل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُم الْحَقُّ﴾ يعني: القرآن ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ يعني: جاحدون.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَقَالُوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ يعني: على رجل عظيم من رجلي القريتين وهو الوليد بن المغيرة من أهل مكة، وأبو مسعود الثقفي بالطائف، يعني لو كان حقاً لأنزل على أحد هذين الرجلين، وروى وكيع عن محمد بن عبد الله بن أفلح الطائفي قال: عن خالد بن عبد الله بن يزيد[٢] قال: كنت جالساً عند عبد الله بن عباس بالطائف فسأله رجل عن هذه الآية، وهي قوله (من القريتين) فقال القرية التي أنت فيها يعني: الطائف، والقرية التي جئت منها يعني مكة، وسئل عن الرجلين فقال: جبار من جبابرة قريش وهو الوليد بن المغيرة بمكة وعروة بن مسعود[٣] جد المختار يعني: أبا مسعود، يقال اسمه عمرو بن عمير قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ يعني: أبأيديهم مفاتيح الرسالة والنبوة فيضعوها حيث شاؤوا، ولكننا نختار للرسالة من نشاء من عبادنا ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: نحن قسمنا أرزاقهم فيما بينهم وهو أدنى من الرسالة، فلم نترك اختيارها إليهم فكيف نفوض إختيار ما هو أفضل منه وأعظم، وهي الرسالة إليهم ثم قال: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ يعني: فضلنا بعضهم على بعض بالمال في الدنيا ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٦/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري أمير الحجاز ثم الكوفة. انظر التقريب ١/٢١٥.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٦/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

﴿بَعْضاً سُخْرِيّاً﴾ يعني: الاستهزاء، ويقال فضل بعضهم على بعض في العز والرياسة ليستخدم بعضهم بعضاً ويستعبد الأحرار العبيد، ثم أخبر أن الآخرة أفضل مما أعطوا في الدنيا فقال ﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يعني: خير مما يجمع الكفار من المال في الدنيا.

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يقول: لولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكفار في سعة المال وقال الحسن لولا أن يتتابعوا في الكفر ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِم سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ﴾ وهي سماء البيت ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يعني: الدرج عليها يرتقون ويرتفعون، وقال الزجاج: يصلح أن يكون لبيوتهم بدلاً من قوله (لِمَنْ يَكْفُر) ويكون المعنى لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن، ويصلح أن يكون معناه لجعلنا لمن يكفر بالرحمن على بيوتهم، قرأ ابن كثير وأبو عمرو «لِبُيُوتِهِم سَقْفاً» بنصب السين وجزم القاف ويكون عبارة عن الواحد فدل على الجمع، والمعنى لجعلنا لبيت كل واحد منهم سقفاً من فضة، وقرأ الباقون سُقُفاً بالضم على معنى الجمع[1]، ويقال سقف ومسقف مثل رهن ورهن، قوله تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِم أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ يعني: يجلسون وينامون ﴿وَزُخْرُفاً﴾ وهو الذهب يعني: لجعلنا هذا كله من ذهب وفضة، وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «لولاَ أَنْ يَجْزَعَ عَبْدِي المُؤْمن لَعَصَّبْتُ الكَافِرَ بِعِصَابَةٍ مِن حَدِيدٍ وَلَصَبَبْتُ عَلَيه الدُّنْيَا صَباً» وإنما أراد بعصابة الحديد كناية عن صحة البدن يعني: لا يصدع رأسه، ثم أخبر أن ذلك كله مما يفنى فقال: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وما: ها هنا زيادة، ومعناه وإن كل ذلك لمتاع، ويقال وما ذلك إلا متاع الحياة الدنيا يفنى ولا يبقى (والآخِرَةُ) يعني: الجنة للذين يتقون الشرك، والمعاصي، والفواحش قرأ عاصم وابن عامر في رواية هشام[2] (وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا) بتشديد الميم، وقرأ الباقون بالتخفيف[3] فمن قرأ بالتخفيف فما: للصلة والتأكيد، ومن قرأ بالتشديد فمعناه وما كل ذلك إلا متاع، وقال مجاهد: كنت لا أعلم (ما) الزخرف حتى سمعت في قراءة عبد الله بيتاً من ذهب، قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ قال الكلبي يعني: يعرض عن الإيمان

---

(١) حجتهم قوله تعالى: ﴿ولبيوتهم أبواباً وسرراً﴾ ولم يقل باباً وسريراً، فدل على أن آخر الكلام منظوم على لفظ أوله ومن قرأ «سقفاً» بجزم القاف فهو واحد يدل على أن المعنى جعلنا لبيت كل واحد منهم سقفاً من فضة، ويجوز أن يوحد السقف لتوحيد لفظ «من» فيكون المعنى جعلنا لكل من يكفر بالرحمن سقفاً من فضة.

(٢) هشام بن عمار بن نصير بن ميسرة أبو الوليد السلمي وقيل: الظفري الدمشقي إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفتيهم ولد سنة ثلاث وخسمين ومائة مات سنة خمس وأربعين ومائتين. انظر طبقات القراء ٢/٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٣) انظر حجة القراءات ٦٤٩، المصدر السابق وإتحاف فضلاء البشر ٢/٤٥٦.

والقرآن، يعني لا يؤمن، ويقال: من يعمى بصره عن ذكر الرحمن، وقال أبو عبيدة: من يظلم بصره عن ذكر الرحمن ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً﴾ يعني: نسبب له شيطاناً مجازاة لإعراضه عن ذكر الله، ويقال نسلط عليه، ويقال نقدر له، ويقال نجعل له شيطاناً ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ يعني: يكون له صاحبا في الدنيا فيزين له الضلالة، ويقال فهو له قرين يعني قرينه في سلسلة واحدة لا يفارقه يعني في النار، وروي عن سفيان بن عيينة أنه قال: ليس مثل من أمثال العرب إلا وأصله في كتاب الله تعالى، قيل له من أين قول الناس أعطى أخاك تمرة، فإن أبى فجمرة. فقال قوله: (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّض لَهُ شَيْطَانَا) الآية ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُم عَنِ السَّبِيلِ﴾ يعني: الشياطين يصرفونهم عن الدين ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ يعني: الكفار يظنون أنهم على الحق ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا﴾ قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر (جَاءَانَا) بالمد بلفظ التثنية يعني الكافر وشيطانه الذي هو قرينه، وقرأ الباقون (جَاءَنَا) بغير[1] مد يعني الكافر يقول لقرينه ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ يعني: ما بين المشرق والمغرب، ويقال بين مشرق الشتاء ومشرق الصيف ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ يعني: بئس الصاحب معه في النار، ويقال هذا قول الله تعالى (فَبِئْسَ الْقَرِينُ) يعني: بئس الصاحب معه في النار، ويقال هذا قول الكافر يعني: بئس الصاحب كنت أنت في الدنيا وبئس الصاحب اليوم، فيقول الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ الاعتذار ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ يعني: كفرتم وأشركتم في الدنيا ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ يعني: أنكم جميعاً في النار التابع والمتبوع في العذاب سـواء. قوله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ إلى الهدى ﴿وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يعني: من كان في علم الله في الضلالة، ومعنى الآية: إنك لا تقدر أن تُفهم من كان أصم القلب، ويعمى عن الحق، ومن كان في ضلال مبين، يعني: ظاهر الضلالة قوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يعني: نميتك قبل أن نرينك الذي وعدناهم يعني قبل أن نريك النقمة ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُنْتَقِمُونَ﴾ يعني: ننتقم منهم بعد موتك، قال قتادة: ذهب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبقيت النقمة، قال: وذكر لنا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «أُرَى مَا يُصِيب أُمَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ فما رُؤي ضَاحِكاً مُسْتَبْشِراً حَتَّى[2] قُبِضَ» ثم قال: ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ يعني: في حياتك ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ يعني: إنا لقادرون على ذلك قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ يعني: اعمل بالذي أوحي إليك من القرآن ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني: على دين الإسلام ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ يعني: القرآن شرف لك ولمن آمن به ويقال (وَلِقَوْمِكَ) يعني: العرب لأن القرآن نزل بلغتهم ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عن هذه النعم، وعن شكر هذا الشرف يعني القرآن إذا أديتم شكره أو لم تؤدوه قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا﴾ قال مقاتل والكلبي:

---

(١) انـظر إتحاف فضـلاء البشر ٢/ ٤٥٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٨ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه.

يعني: سل مؤمني أهل الكتاب ﴿أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ يعني: هل جاءهم رسول يدعوهم إلى عبادة غير الله، ويقال (واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا) يعني: سل المرسلين، فلقي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأنبياء ليلة المعراج وصلى بهم ببيت المقدس، فقيل له فسلهم فلم يشك، ولم يسألهم، ويقال إنما خاطب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأراد أمته، يعني: سلوا أهل الكتاب كقوله (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب) الآية.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد ذكرناه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ يعني: باليد والعصى ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ يعني: يعجبون ويسخرون ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ يعني: أعظم من التي كانت قبلها، وهي السنين، والنقص من الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، فلم يؤمنوا بشيء ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعني: عاقبناهم بهذه العقوبات لكي يرجعوا، ويعرفوا ضعف معبودهم ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ وكان الساحر فيهم عظيم الشأن، يعني: قالوا لموسى يا أيها العالم ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي سل لنا ربك ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ يعني: بحق ما أمرك به ربك أن تدعو إليه ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ يعني: نؤمن بك ونوحد الله تعالى قوله تعالى: ﴿فَلَمَا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ يعني: ينقضون عهودهم ﴿وَنَادَى فِرْعَونُ فِي قَوْمِهِ﴾ يعني: خطب فرعون لقومه ﴿قَالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ وهي أربعون فرسخاً، في أربعين فرسخاً ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ يعني: من تحت يدي، ويقال من حولي، وحول قصوري وجناني ﴿أفلَا تُبْصِرُونَ﴾ فضلي على موسى ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ يعني: خير، وأم للصلة، من هذا الذي هو مهين يعني: ضعيف ذليل ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعني: لا يكاد يعبر حجة، ويقال معناه: ألا تنظرون إلى فصاحتي، وإلى عي كلام موسى ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِن ذَهَبٍ﴾ يعني: هلا أعطي أسورة من ذهب، يعني لو كان حقاً وكان رسولاً كما يقول لأعطي له المال فيكون حاله خيراً من هذا، وكان آل فرعون يلبسون الأساور، قرأ عاصم في رواية حفص (أَسْوِرَةٌ) بغير ألف، والباقون (أَسَاوِرَةٌ)[1] فمن قرأ أسورة، فهو جمع السوار،

(١) انظر حجة القراءات ٦٥١، النشر في القراءات العشر ٢/٣٦٩.

ومن قرأ أساورة، فهو جمع الجمع، ويقال أساور جمع سوار ثم قال: ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يعني: لو كان حقاً لأتته الملائكة متتابعين فيصدقون على مقالته، ويقال (مُقْتَرِنِينَ) أي: متعاونين ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ يعني: فاستذل قومه فأطاعوه، يعني: حملهم على الخفة فانقادوا له ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ يعني: كافرين عاصين، وذلك أن فرعون قال لهم مَا أُرِيكُم إِلَّا مَا أَرَى فأطاعوه على تكذيب موسى عليه السلام (إِنَّهُم كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ) يعني: ناقضي العهد قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ يعني: أغضبونا، قال أهل اللغة[١]: الأسف الغضب، وروى معمر عن سماك بن الفضل[٢] قال كنا عند عروة بن محمد [٣] وعنده وهب بن منبه فجاء قوم فشكوا عاملهم وأثبتوا على ذلك، فتناول وهب عصا كانت في يد عروة فضرب بها رأس العامل حتى أدماه فاستعابها عروة، وكان حليماً وقال: يعيب علينا أبو عبد الله، الغضب، وهو يغضب، فقال وهب: وما لي لا أغضب وقد غضب الذي خلق الأحلام، إن الله تعالى يقول (فلما آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُم) يعني: أغضبونا، ويقال فلما آسفونا يعني: وجب عليهم عذابنا ﴿انْتَقَمْنَا مِنْهُم﴾ يعني: أهلكناهم ﴿فَأَغْرَقْنَاهُم أَجْمَعِينَ﴾ يعني: لم نبق منهم أحداً قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُم سَلَفاً﴾ قال مجاهد يعني: كفار قوم فرعون سلفاً لكفار مكة، أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال قتادة: جعلناهم سلفاً إلى النار، قرأ حمزة والكسائي (سُلُفاً) بالضم، وقرأ الباقون (سَلَفاً) بنصب السين واللام[٤] فمن قرأ بالنصب فمعناه: جعلناهم سلفاً متقدمين ليتعظ بهم الآخرون، ومن قرأ بالضم، فهو جمع سليف أي جمع قد مضى ويقال سلفاً واحدها سلفة من الناس أي قطعة، قوله ﴿وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾ يعني: عبرة لمن بعدهم.

وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ يعني: وصف ابن مريم شبها ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ يعني: يعرضون عن ذكره، ويقال: لما قالت النصارى إن عيسى ابن الله، إذا قومك منه يصدون، قرأ ابن عامر والكسائي ونافع (يَصُدُّونَ) بضم الصاد، وقرأ الباقون (يَصِدُّونَ) بالكسر، فمن[٥] قرأ بالضم فمعناه: يعرضون، ومن قرأ

---

(١) انظر لسان العرب ١/٧٩.

(٢) سماك بن الفضل الخولاني اليماني ثقة. التقريب ١/٣٣٢.

(٣) عروة بن محمد بن عطية السعدي مقبول. التقريب ٢/١٩.

(٤) حجتهم في تلك القراءة قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للصبي الميت: اللهم ألحقه بالسلف الصالح، ومنه قول الناس: فلان يحج السلف، ويجوز أن يكون جمعاً مثل: «خادم خدم، وتابع تبع، وسالف سلف». انظر حجة القراءات ٦٥٢.

(٥) احتج بعض الناس بصحة الكسر وأنه بمعنى الضجيج بصحبة «منه» للفعل، قال: ولو كان بمعنى الصدود كان الأفصح أن يصحب الفعل (عنه) لا (منه)، لأن المستعمل من الكلام: (صد عنه) لا (صد منه)، فلما كان الكلام «منه يصدون» دل على أنه عن الصدود بمعزل، وأنه بمعنى الضجيج، ولو كان من الصدود لكانت (إذا قومك عنه يصدون) أو (منه يصدون عنك). وحجة من يضم ذكرها الكسائي قال: هما لغتان لا تختلفان في المعنى، والعرب تقول: (يصِدُّ عني ويصُدُّ عني) مثل (يشِدُّ ويشُدّ). قال الزجاج: معنى الضمومة: يُعرضون. وقال أبو عبيدة: (مجازها: يعدِلون).

بالكسر فمعناه يضجون ويرفعون أصواتهم تعجباً، وذلك أنهم قالوا لما جاز أن يكون عيسى ابن الله، جاز أن تكون الملائكة بناته، فعارضوه بذلك يعني: أهل مكة ورفعوا أصواتهم بذلك ويقال: إن عبد الله ابن الزبعرى، قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما ذكرنا في سورة الأنبياء ففرح المشركون بذلك، ورفعوا أصواتهم تعجباً من قوله آلهتنا خير، ثم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعني: أم عيسى، فإذا جاز أن يكون هو ولدا، جاز أن تكون الأصنام والملائكة كذلك، ويقال: فإذا جاز أن يكون هو في النار، جاز أن تكون معه الأصنام في النار قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ يعني: ما عارضوك بهذه المعارضة إلا جدلاً ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ يعني: يجادلونك شديد المجادلة بالباطل قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي ما كان عيسى إلا عبداً لله أنعم الله تعالى عليه بالنبوة، وأكرمه بها ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: عبرة لبني إسرائيل ليعتبروا به حين ولد ابن من غير أب ثم قال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ يعني: لو شاء الله لجعل مكانكم في الأرض ملائكة يخلفون، فكانوا خلفاً منكم ثم رجع إلى صفة عيسى عليه السلام فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ يعني: نزول عيسى علامة لقيام الساعة ويقال: نزول عيسى آية للناس، وروى وكيع عن سفيان عن عاصم عن أبي رزين[1]، عن أبي يحيى عن ابن عباس في قوله (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ) قال خروج عيسى ابن مريم[2] وروى معمر عن قتادة قال: نزول عيسى، وروى عبادة عن حميد عن أبي هريرة قال «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُرى عيسى عليه السلام فِي الْأَرْضِ إِمَاماً مُقْسِطاً وَكُنْتُ أَرْجُو أَلَّا أَمُوتَ حَتَّى كُلَ مع عِيسى عليه السلام عَلَى مَائِدَةٍ فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ فَلْيُقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامِ» قرأ بعضهم (وَإِنَّهُ لِعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ) بكسر العين أي بنزول المسيح يعلم أنه قد قربت الساعة، ومن قرأ (وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ) بالنصب فإنه بمعنى الدليل والعلامة، قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ يعني: لا تشكن في القيامة والبعث ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ يعني: أطيعونني ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يعني: هذا التوحيد صراط مستقيم ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ يعني: لا يصرفنكم الشيطان عن طريق الهدى ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ

(١) مسعود بن مالك الأسدي الكوفي وثقه النسائي الخلاصة ٣/٢٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٠ وعزاه للفريابي وسعيد بن منصور ومسدد وعبد ابن حميد وابن أبي حاتم والطبراني.

وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: بالآيات والعلامات، وهو إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ويقال: بالبينات يعني: بالإنجيل ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ يعني: بالنبوة ﴿وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال بعضهم يعني: كل الذي تختلفون فيه، وقال بعضهم: معناه لأبين تحليل بعض الذي تختلفون فيه، كقوله (وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُم) وكانوا في ذلك التحريم مختلفين، فمصدق ومكذب ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من التوحيد قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُم﴾ يعني: خالقي وخالقكم ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ يعني: وحدوه وأطيعوه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يعني: دين الإسلام ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِم﴾ أي تفرقوا في أمر عيسى، وهم النسطورية، والماريعقوبية، والملكانية، وقد ذكرناه من قبل، ويقال: الأحزاب، تحزبوا وتفرقوا في أمر عيسى، وهم اليهود فقالوا فيه قولاً عظيماً، وفي أمه فقالوا إنه ساحر، ويقال اختلفوا في قتله ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: أشركوا ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ يعني: عذاب يوم شديد قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ﴾ يعني: ما ينظرون إذا لم يؤمنوا إلا الساعة ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ يعني: فجأة ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ بقيامها قوله تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قال مجاهد: الأخلاء في معصية الله تعالى في الدنيا يومئذ متعادين في الآخرة[١] ﴿إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الموحدين قال مقاتل: نزلت في أبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وقال الكلبي: كل خليل في غير طاعة الله فهو عدوٌّ لخليله، وروى عبيد بن عمير قال: كان لرجل ثلاثة أخلاء بعضهم أخص به من بعض، فنزلت به نازلة، فلقي أخص الثلاثة فقال يا فلان إني قد نزل بي كذا وكذا، وإني أحب أن تعينني، فقال له ما أنا بالذي أعينك ولا أنفعك فانطلق إلى الذي يليه، فقال له: أنا معك حتى أبلغ المكان الذي تريده ثم رجعت وتركتك، فانطلق إلى الثالث فقال له أنا معك حيثما دخلت، قال: فالأول ماله، والثاني أهله وعشيرته، والثالث عمله، وروى أبو إسحاق عن الحارث عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سئل عن قوله (الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ) فقال: خليلان مؤمنان، وخليلان كافران، فتوفي أحد المؤمنين فيثني على صاحبه خيراً، ثم يموت الآخر فيجمع بين أرواحهما فيقول كل واحد منهما لصاحبه نعم الأخ ونعم الصاحب، ويموت أحد الكافرين فيثني على صاحبه شراً، ثم يموت الآخر، فيجمع بين أرواحهما فيقول كل واحد منهما لصاحبه بئس الأخ وبئس الصاحب[٢] قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ يعني: يوم القيامة، ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ يعني: مخلصين بالتوحيد قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُم تُحْبَرُونَ﴾ يعني: تكرمون وتنعمون، ويقال: ترون، والحبرة: السرور قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ قال كعب: يطاف عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب في كل صحفة لون وطعام ليس في الأخرى، والصحفة هي القصعة ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وهي الأباريق التي لا خراطيم لها يعني: مدورة الرأس، ويقال التي لا عُرى لها، واحدها كوب ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ﴾ يعني: تتمنى كل نفس ﴿وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ من النظر إليها ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ يعني: هذه الجنة ﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ يعني: أنزلتموها ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: دخلتموها برحمة الله تعالى، بإيمانكم، واقتسمتموها بأعمالكم ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ لا تنقطع، لقوله (لاَ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢١ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢١ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وحميد بن زنجويه في ترغيبه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

مَقْطُوعَةٌ وَلاَ مَمْنُوعَةٌ) ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: من الفواكه، متى تشاؤوا، ثم وصف المشركين فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: المشركين ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي دائمون لا يموتون ولا يخرجون ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُم﴾ يعني: لا ينقطع عنهم العذاب طرفة عين ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ يعني: آيسين من رحمة الله تعالى قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ يعني: لم نعذبهم بغير ذنب ﴿وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ لأنهم كانوا يستكبرون عن الإيمان.

وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ وذلك أنه لما يشتد عليهم العذاب يتمنون الموت ويقولون لخازن جهنم يا مالك ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ يعني: ادع ربك لقبض أرواحنا، فأجابهم بعد أربعين سنة ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ وروى عطاء بن السائب عن رجل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يجيبهم بعد ألف سنة (إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)[1]، ويقال إنهم ينادون (يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) فأوحى الله تعالى إلى مالك ليجيبهم فيقول لهم مالك قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ يعني: جاءكم جبريل في الدنيا بالقرآن والتوحيد ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ يعني: جاحدون وهو قوله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً﴾ قال مقاتل: وذلك حين اجتمعوا في دار الندوة ودخل إبليس عليهم، وقد ذكرناه في سورة الأنفال فنزل (أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ) يعني: أجمعوا أمرهم بالشر على النبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أي مجمعون أمرنا على ما يكرهون، وقال الكلبي: وذلك أن ثلاثة نفر اجتمعوا وقالوا إنه يقول: بأن ربي يعلم السر، أترى أنه يعلم مَا نقول بيننا؟ فنزل (أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً) يعني: أقاموا على المعصية (فَإِنَّا مُبْرِمُونَ) أي معذبون عليها، قال القتبي: أي أحكموه. والمبرم: المفتول على طاقين، قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ يعني: بل يظنون، ويقال أيظنون، والميم صلة ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُم وَنَجْوَاهُمْ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به التوبيخ، ومعناه إن الله تعالى يعلم سرهم ونجواهم، قال ابن عباس: الذين يتناجون خلف الكعبة، يعني الذين يقولون إن الله لا يسمع مقالتنا، قال الله تعالى: ﴿بَلَى﴾ يعني: نسمع ذلك ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِم يَكْتُبُونَ﴾ مقالتهم قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ يعني: الموحدين من أهل مكة[2]، قال مقاتل: لما نزلت هذه الآية وقرئت عليهم فقال النضر بن الحارث ألا ترونه صدقني فقال له الوليد ما صدقك، ولكنه يقول ما كان للرحمن ولد، يعني إِنَّ إِنْ بمعنى ما، قال (فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) يعني: الموحدين من أهل مكة، وقال الكلبي: أنا أول الآنفين أن لله ولداً، وقال القتبي: إن كان هذا في زعمكم، فأنا أول الموحدين لأنكم تزعمون أن له ولداً، فأَنَّا أَوَّلِ الآنِفين من ذلك فلم توحدوه، ومن وحد الله فقد عبده، ومن جعل له ولداً فليس من العابدين كقوله (وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدونِ) أي: ليوحدون، ثم نزه نفسه، فقال:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٣ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في صفة النار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في البعث والنشور.

(٢) سقط في ظ.

سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

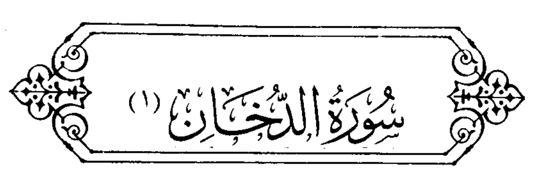
﴿**سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ يعني: عما يقولون إن لله ولداً ﴿**فَذَرْهُمْ**﴾ يعني: كفار مكة حين كذبوا بالعذاب ﴿**يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا**﴾ يعني: يخوضوا في أباطيلهم ويستهزئوا ﴿**حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ**﴾ يعني: حتى يعاينوا يومهم الذي يوعدون، وهو يوم القيامة قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ**﴾ يعني: إله كل شيء، ويعلم كل شيء، ويقال هو إله في السماء يعبد، وفي الأرض إله يعبد ويقال يوحد في السماء، ويوحد في الأرض ﴿**وَهُوَ الْحَكِيمُ**﴾ في أمره ﴿**الْعَلِيمُ**﴾ بخلقه وبمقالتهم، ثم عظم نفسه فقال تعالى: ﴿**وَتَبَارَكَ الَّذِي**﴾ يعني: تعالى عما وصفوه الَّذِي ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ يعني: خزائن السموات المطر، وخزائن الأرض النبات ﴿**وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ**﴾ يعني: قيام الساعة ﴿**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم (تُرْجَعُونَ) بالتاء على معنى المخاطبة، وقرأ الباقون بالياء[1] على معنى الخبر عنهم قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ**﴾ يعني: لا يقدر الذين يعبدون ﴿**مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ**﴾ يعني: بلا إله إلا الله مخلصاً ﴿**وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ أنه الحق حين شهدوا بها من قبل أنفسهم، وأنهم يشفعون لهؤلاء قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ يعني: كفار قريش ﴿**فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ يعني: أنى يصرفون بعد التصديق ثم قال: ﴿**وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ يعني: قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وَقِيلِهِ) يعني: وقوله، قرأ عاصم وحمزة (قِيلِهِ) بكسر اللام، والباقون بالنصب، وقرىء في الشاذ (وَقِيلُهُ) بضم اللام[2]، فمن قرأ بالنصب فنصبه من وجهين، أحدهما على العطف على قوله (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُم وَنَجْوَاهُمْ) (وقيله)، ومعنى آخر: وعنده علم الساعة، وعلم قيله يا رب، يعني يعلم الغيب، ومن قرأ بالكسر معناه: وعنده علم الساعة وعلم قيله يا رب، ومن قرأ بالرفع فمعناه: وقيله قول يا رب (إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ) يعني: لا يصدقون ﴿**فَاصْفَحْ عَنْهُمْ**﴾ يعني: أعرض عنهم، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ﴿**وَقُلْ سَلَامٌ**﴾ يعني: سداداً من القول ﴿**فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾ وهذا وعيد منه، قرأ نافع وابن عامر (تَعْلَمُونَ) بالتاء على معنى المخاطبة لهم، والباقون بالياء[3] على معنى الخبر عنهم. والله أعلم.

---

(١) حجة من قرأ بالياء أنه عقيب الخبر عنهم في قوله «فذرهم يخوضوا ويلعبوا» فأجروا الكلام على لفظ ما تقدمه إذ كان في سياقه، ليأتلف على نظام واحد. وحجة الباقين قوله تعالى قبلها: ﴿**لقد جئناكم بالحق**﴾. انظر حجة القراءات ٦٥٥.

(٢) المصدر السابق وإتحاف فضلاء البشر ٢/٤٦٠.

(٣) انظر حجة القراءات ٦٥٦. النشر في القراءات العشر ٢/٣٧٠.



سُورَةُ الدُّخَانِ(١)

وهي تسع وخمسون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿حمٓ والكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ يعني الكتاب أنزلناه في ليلة القدر، سميت مباركة لما فيها من البركة، والمغفرة للمؤمنين، وذلك أن القرآن أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر إلى السفرة، ثم أنزله جبريل متفرقاً إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، ويقال: كان ينزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر مقدار ما ينزل به جبريل عليه السلام متفرقاً إلى السنة الثانية، ثم قال ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ يعني مخوفين بالقرآن قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ يعني في ليلة القدر يقضى كل أمر محكم، ما يكون في تلك السنة إلى السنة الأخرى(٢)، وهذا قول عكرمة، وروى منصور عن مجاهد قال: فيها يقضي أمر السنة إلى السنة من المصائب والأرزاق وغير ذلك، وهذا موافق للقول الأول، ويقال في تلك الليلة: يفرق يعني ينسخ من اللوح المحفوظ ما يكون إلى العام القابل من الرزق، والأجل، والأمراض، والخصب، والشدة، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: إنك لتلقى الرجل في الأسواق وقد وقع اسمه في

---

(١) أشبه افتتاح هذه السورة فاتحة سورة الزخرف من التنويه بشأن القرآن وشرفه وشرف وقت ابتداء نزوله ليكون ذلك مؤذناً أنه من عند الله ودالاً على رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وليتخلص منه إلى أن المعرضين عن تدبر القرآن ألهاهم الاستهزاء واللمز عن التدبر فحق عليهم دعاء الرسول بعذاب الجوع، إيقاظاً لبصائرهم بالأدلة الحسية حين لم تنجح فيهم الدلائل العقلية، ليعلموا أن إجابة الله دعاء رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دليل على أنه أرسله ليبلغ عنه مراده. فأنذرهم بعذاب يحل بهم علاوة على ما دعا به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تأييداً من الله له بما هو زائد على مطلبه. وضرب لهم مثلاً بأمم أمثالهم عصوا رسل الله إليهم فحل بهم من العقاب من شأنه أن يكون عظة لهؤلاء، تفصيلاً بقوم فرعون مع موسى ومؤمني قومه، ودون التفصيل بقوم تبع، وإجمالاً وتعميماً بالذين من قبل هؤلاء. وإذ كان إنكار البعث وإحالته من أكبر الأسباب التي أغرتهم على إهمال التدبر في مراد الله تعالى انتقل الكلام إلى إثباته والتعريف بما يعقبه من عقوبة المعاندين ومثوبة المؤمنين ترهيباً وترغيباً. وأدمج فيها فضل الليلة التي أنزل فيها القرآن، أي ابتدأ إنزاله وهي ليلة القدر. وأدمج في خلال ذلك ما جرت إليه المناسبات من دلائل الوحدانية وتأييد الله من آمنوا بالرسل، ومن إثبات البعث. وختمت بالشد على قلب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بانتظار النصر وانتظار الكافرين القهر. التحرير ٢٥/٢٧٦ .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٥ وعزاه لابن أبي حاتم من طريق عطاء الخراساني عن عكرمة.

الأموات» ثم قرأ هذه الآية ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ يعني في تلك الليلة يفرق كل أمر الدنيا إلى مثلها إلى السنة من قابل[١] ﴿أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا﴾ يعني قضاء من عندنا ويقال معناه: بأمر من عندنا، فنزع حرف الخافض فصار نصباً ﴿إِنَّا كُنَّا مرسلين﴾ يعني الرسل إلى الخلق، ويقال يعني الملائكة في تلك الليلة ﴿رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ يعني إنزال الملائكة رحمة من الله تعالى، ويقال الرسالة [٢] رحمة من الله تعالى، ويقال هذا القرآن رحمة لمن آمن به ﴿إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولهم ﴿العليم﴾ بهم وبأعمالهم قوله عز وجل ﴿رب السموات والأرض﴾ قرأ أهل الكوفة رب بكسر الباء، والباقون بالضم[٣]، فمن قرأ بالكسر رده إلى قوله رحمة من ربك رب السموات، ومن قرأ بالضم رده إلى قوله (إنه هو السميع العليم) رب السموات، ويقال على الاستئناف، ومعناه، هو ربكم وهو رب السموات والأرض ﴿وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ يعني مؤمنين بتوحيد الله ﴿لا إله إلاّ هو يحيي ويميت﴾ وقد ذكرناه ﴿ربكم﴾ أي خالقكم ورازقكم ﴿ورب آبـائكم الأولين﴾ يعني هو خالقهم ورازقهم.

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

قوله عز وجل ﴿بل هم في شك يلعبون﴾ يعني: يستهزؤون ويقال هذا جواب قوله إن كنتم موقنين فكأنه قال لا يوقنون بل هم في شك يلعبون يعني: يخوضون في الباطل قوله تعالى: ﴿فارتقب﴾ يعني: فانتظر يا محمد ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ يعني الجدب والقحط، قال القتبي: سمي / الجدب، والقحط دخاناً وفيه قولان: أحدهما أن الجائع كأنه يرى بينه وبين السماء دخاناً من شدة الجوع والثاني: أنه سمي القحط دخاناً ليبس الأرض، وانقطاع النبات، وارتفاع الغبار، فشبه بالدخان، وروى الأعمش عن مسلم بن صبيح عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: «خمس مضين الدخان، واللزام، يعني العذاب الأكبر، والروم، والبطشة، والقمر[٤] وروي عن الأعمش عن أبي الضحى، عن مسروق قال: بينما رجل يحدث في المسجد فسئل عن قوله (يوم تأتي السماء بدخان مبين) فقال إذا كان يوم القيامة نزل دخان من السماء فأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، وأخذ المؤمنون منه بمنزلة الزكام، قال مسروق فدخلت على عبد الله فأخبرته وكان متكئاً فاستوى قاعداً ثم أنشأ فقال: يا أيها الناس من كان عنده علم فسئل عنه فليقل به، ومن لم يكن عنده علم فليقل الله أعلم، إن قريشاً حين كذبوه، يعني: ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا عليهم فقال «اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها سنين كسني يوسف عليه السلام

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٥/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) سقط في ظ.
(٣) انظر حجة القراءات (٦٥٦) النشر ٣٧١/٢.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٨/٦ وعزاه لسعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري وأبي نعيم والبيهقي معاً في الدلائل.

فأصابهم سنه، وشدة الجوع حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام حتى كان يرى أحدهم كان بينه وبين السماء دخاناً[١] . فذلك قوله ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ يعني انتظر بهلاكهم يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يعني أهل مكة ﴿هَذا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني يقولون هذا الجوع عذاب أليم، ثم إن أبا سفيان وعتبة بن ربيعة، والعاص بن وائل وأصحابهم قالوا يا رسول الله استسق الله لنا فقد أصابنا شدة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ﴾ يعني الجوع ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ يعني من أين لهم التوبة والعظة والتذكرة ﴿وَقَدْ جَاءَهُم رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ بلغتهم ومفقه لهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ يعني أعرضوا عما جاء به فلم يصدقوه، ومع ذلك ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ يعلمه جبر ويسار أسماء الرجلين غلامي الخضر ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُم عَائِدُونَ﴾ إلى المعصية، فعادوا، فانتقم منهم يوم بدر فذلك قوله ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ يعني نعاقب العقوبة العظمى ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ منهم بكفرهم، ويقال (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى) يعني يوم القيامة، ويقال آية الدخان لم تمض وستكون في آخر الزمان، وروى إسرائيل عن أبي إسحاق[٢] عن الحارث عن علي رضي الله عنه قال: لم تمض آية الدخان، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام، وينتفخ الكافر حتى يصير كهيئة الجمل[٣]، وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال: «أخبِرْتُ أَنَّ الْكَوْكَبَ ذَا الذَّنب قد طَلَعَ، فَخَشِيتُ أَنْ يَكونَ الدُّخَانَ قد طرقَ[٤]»، ويقال هذا كله يوم القيامة إذا خرجوا من قبورهم تأتي السماء بدخان مبين، محيط بالخلائق فيقول الكافرون (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ) أي ردنا إلى الدنيا (إِنَّا مُؤْمِنُونَ) يقول الله تعالى من أين لهم الرجعة وقد جاءهم رسول مبين فلم يجيبوه.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ يعني ابتلينا قبل قومك قوم فرعون ﴿وَجَاءَهُم رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على ربه وهو موسى عليه السلام، ويقال رسول كريم أي شريف ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ يعني أرسلوا معي بني إسرائيل، واتبعوني على ديني ﴿إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ قد جئتكم من عند الله تعالى، ويقال: كريم لأنه كان يتجاوز عنهم، ويقال: أمين فيكم قبل الوحي فكيف تتهموني اليوم، ويقال كريم: حيث يتجاوز عنهم، حين دعا

---

(١) انظر الدر المنثور ٦/٢٨.

(٢) عمرو بن عبد الله الهمداني أبو إسحاق السبيعي ثقة عابد اختلط بآخره. التقريب ٢/٧٣.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٩ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٩ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم بسند صحيح عن أبي مليكة.

موسى، ورفع عنهم الجراد والقمل والضفادع والدم (إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ) فيما بينكم وبين ربكم قوله تعالى ﴿وأن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ يعني لا تخالفوا أمر الله تعالى، ويقال لا تستكبروا عن الإيمان ولا تعلوا بالفساد لأن فرعون لعنه الله كان عالياً من المسرفين ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ يعني آتيكم بحجة بينة اليد والعصى، وغير ذلك ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ يعني أعوذ بالله ﴿أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ يعني أن تقتلون، ومعناه أسأل الله تعالى أن يحفظني لكي لا تقتلوني، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي (عُذْتُ) بإدغام الذال في التاء لقرب مخرجيهما، والباقون بغير إدغام[١] لتبيين الحرف، ثم قال ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ يعني إن لم تصدقوني فاتركوني قوله تعالى ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ يعني دعا موسى ربه كما ذكر في سورة يونس (رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِم) وقوله (وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) ﴿أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ يعني مشركون، فأبوا أن يطيعوني ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً﴾ فأوحى الله تعالى إليه أن أدلج ببني إسرائيل ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يعني إنَّ فرعون يتبع أثركم، فخرج موسى ببني إسرائيل، وضرب بعصاه البحر فصار طريقاً يابساً، وهذا كقوله تعالى (فَاضْرِبْ لَهُم طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً) فلما جاوز موسى مع بني إسرائيل البحر فأراد موسى أن يضرب بعصاه البحر ليعود إلى الحالة الأولى، فأوحى الله تعالى إليه بقوله ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً﴾ قال قتادة: يعني طريقاً يابساً واسعاً[٢] وقال الضحاك: رَهْواً يعني سهلاً، وقال مجاهد: يعني منفرجاً[٣]، وقال القتبي: يعني طريقاً سالكاً كما هو، ويقال رهواً: أي سككاً جدداً طريقاً يابساً ﴿إِنَّهُم جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ وذلك أن بني إسرائيل خشوا أن يدركهم فرعون، فقالوا لموسى: اجعل البحر كما كان فإننا نخشى أن يلحق بنا قال الله تعالى (إِنَّهُم جُنْدٌ مُغْرَقُونَ) يعني سيغرقون، فدخل فرعون وقومه البحر فأغرقهم الله تعالى، وبقيت قصورهم وبساتينهم، قوله تعالى ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني بساتين وأنهاراً جارية ﴿وَزُرُوعٍ﴾ يعني الحروق ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ يعني مساكن ومنازل حسنة كذلك، يعني هكذا أخرجناهم من النعم ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ يعني معجبين، وقال أهل اللغة[٤]: النِّعمة بكسر النون هي المنة واليد الصالحة، والنُّعمة بالضم هي الميسرة، وبالنصب هي السعة في العيش ثم قال (كَذَلِكَ) يعني هكذا أخرجناهم من السعة والنعمة ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ يعني جعلناها ميراثاً لبني إسرائيل قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ قال بعضهم هذا على سبيل المثل، والعرب إذا أرادت تعظيم ملك عظيم الشأن عظيم العطية تقول كَسَفَ القَمَرُ لِفَقْدِه، وبَكَت الرِّيحُ، والسَّمَاءُ، والأَرْضُ، وقد ذكروا ذلك في أشعارهم، فأخبر الله تعالى أن فرعون لم يكن ممن يجزع له جازع، ولم يقم لفقده فقد، وقال بعضهم (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ) يعني أهل السماء، وأهل الأرض، فأقام السماء والأرض مقام أهلها كما قال (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) وقال بعضهم يعني بكت السماء بعينها، وبكت الأرض، وقال ابن عباس «لِكُلِّ مُؤْمِنٍ بَابٌ فِي السَّمَاءِ يَصْعَدُ فِيهِ عَمَلُهُ، وَيَنْزِلُ مِنهُ رِزْقُهُ فَإِذا مَاتَ بَكَى عَلَيه بَابُه فِي السَّمَاءِ وَبَكَتْ عَلَيْهِ آثَارُهُ فِي الأَرْضِ» وذكر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه سئل أتبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم إذا مات المؤمن بكت عليه معادنه من الأرض التي كان يذكر الله تعالى فيها، ويصلي، وبكى عليه بابه الذي كان يرفع فيه عمله، فأخبر الله تعالى أن قوم فرعون لم تبك عليهم السماء والأرض[٥] ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ يعني مؤجلين.

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٦٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠ وعزاه لعبد بن حميد عن مجاهد.

(٤) انظر لسان العرب ٦/٤٤٧٨.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ يعني من العذاب الشديد، ويقال المهين: يعني الهوان وهو قتل الأبناء، واستخدام البنات ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ يعني من عذاب فرعون ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ يعني كان عاصياً عاتياً، مستكبراً متعظماً وكان من المسرفين يعني من المشركين ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُم﴾ يعني اصطفينا بني إسرائيل ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ يعني على علم من الله تعالى أنهم أهل لذلك، ويقال (عَلَى عِلْمٍ) علم الله فيهم من صبرهم ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يعني على عالمي زمانهم ﴿وَآتَيْنَاهُم مِنَ الآيَاتِ﴾ يعني أعطيناهم من العلامات ﴿مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ﴾ يعني ابتلاء بينا، مثل انفلاق البحر وأشباه ذلك، ثم ذكر كفار مكة فقال ﴿إِنَّ هَؤُلاَءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى﴾ يعني ما هي إلا موتتنا الأولى ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ بعدها ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُم صَادِقِينَ﴾ أنا نبعث بعد الموت، يعني قالوا ذلك للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، قال الله تعالى ﴿أَهُم خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ يعني قومك خير أم قوم تبع، وإنما ذكر قوم تبع لأنهم كانوا أقرب إلى أهل مكة في الهلاك من غيرهم، قال الكلبي وكانوا أشراف حمير ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُم﴾ فكيف لا نهلك قومك إذا كذبوك، قال: وكان تبع اسم ملك منهم، مثل فرعون، ويقال إنما سمي تبع لكثرة أتباعه، فأسلم فخالفوه فأهلكهم الله تعالى، وكان اسمه سعد بن ملكي كرب، وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أن عائشة رضي الله عنها قالت: إن تبع كان رجلاً صالحاً وكان كعب الأحبار يقول: ذم الله قومه ولم يذمه[1]، وقال سعيد بن جبير: إن تبعاً كسا البيت يعني الكعبة، وقال القتبي: هم ملوك اليمن، كل واحد منهم يسمى تبعاً، لأنه يتبع صاحبه، وكذلك الظل يسمى تبعاً لأنه يتبع الشمس، وموضع التبع في الجاهلية، موضع الخليفة في الإسلام وهم ملوك العرب، ثم قال ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني من قبل تبع ﴿أَهْلَكْنَاهُم﴾ يعني عذبناهم عند التكذيب ﴿إِنَّهُم كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ يعني: مشركين.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّموات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾ يعني عابثين لغير شيء ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ يعني إلا لأمر هو كائن، ويقال خلقناهما للعبرة ومنفعة الخلق، ويقال للأمر والنهي والترهيب والترغيب ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لاَ يَعْلَمُونَ﴾ يعني لا يصدقون ولا يفقهون قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ أي يوم القضاء بين الخلق، وهو يوم القيامة ﴿مِيقَاتُهُم أَجْمَعِينَ﴾ يعني ميعادهم أجمعين، الأولين والآخرين، ويقال يوم الفصل يعني يوم

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

يفصل بين الأب وابنه، والأخ وأخيه، والزوج والزوجة، والخليل والخليلة، ثم وصف ذلك اليوم فقال ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلىً عَنْ مولىً شَيْئاً﴾ يعني لا يدفع ولي عن ولي، ولا قريب عن قريب شيئاً في الشفاعة ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ يعني: لا يمنعون مما نزل بهم من العذاب، يعني الكافرين، ثم وصف المؤمنين فإنه يشفع بعضهم لبعض فقال ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ في نعمته للكافرين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ يعني الفاجر وهو الوليد وأبو جهل ومن كان مثل حالهما ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ يعني كالصفر المذاب، قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص (كَالْمُهْلِ يَغْلِي) بالياء بلفظ التذكير، والباقون بلفظ التأنيث[١] فمن قرأ بلفظ التذكير رده إلى المهل، ومن قرأ بلفظ التأنيث رده إلى الشجرة ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ يعني الماء الحار الذي قد انتهى حره، ثم قال للزبانية ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ يعني فسوقوه وادفعوه إلى وسط الجحيم، قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر (فَاعْتُلُوه) بضم التاء، والباقون بالكسر وهما لغتان، ومعناهما واحد، يعني امضوا به بالعنف والشدة، وقال مقاتل: يعني ادفعوه على وجهه، وقال القتبي: خذوه بالعنف ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ ويقال له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ وذلك أن أبا جهل قال: أنا في الدنيا أعز أهل هذا الوادي، وأكرمه، فيقال له في الآخرة ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ، يعني المتعزز المتكرم كما قلت في الدنيا قوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنْتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ يعني: تشكون في الدنيا، قرأ الكسائي (ذُقْ أَنَّك) بنصب الألف والباقون بالكسر[٢]، فمن قرأ بالنصب فمعناه: ذق يا أبا جهل لأنك قلت أنك أعز أهل هذا الوادي، فقال الله تعالى (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ) القائل أنا العزيز الكريم، ومن قرأ بالكسر فهو على الاستئناف، ثم وصف حال المؤمنين في الآخرة.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ يعني في منازل حسنة، آمنين من العذاب، قرأ نافع وابن عامر (فِي مُقَامٍ) بضم الميم، والباقون بالنصب[٣]، فمن قرأ بالنصب يعني المكان والموضع، ومن قرأ بالضم يعني

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٥٧. النشر في القراءات العشر ٢ / ٣٧١.

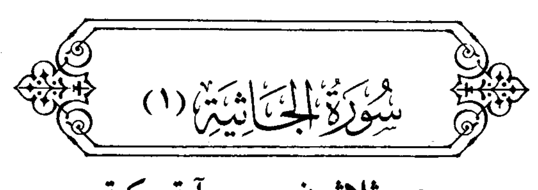
(٢) المصدران السابقان.

(٣) المصدران السابقان.

الإقامة ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيونٍ﴾ يعني في بساتين وأنهار جارية ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُنْدُسٍ﴾ يعني ما لطف من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ يعني : ما ثخن منه ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ يعني : متواجهين، كما قال في آية أخرى (إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) ثم قال ﴿كَذَلِكَ﴾ يعني : هكذا كما ذكرت لهم في الجنة. ثم قال عز وجل : ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ يعني : بيض الوجوه حسان الأعين ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ يعني ما يتمنون من الفواكهة، آمنين من الموت ومن زوال المملكة ويقال (آمِنِينَ) مما يلقى أهل النار ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ يعني : في الجنة ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ يعني : سوى ما قضى عليهم من الموتة الأولى في الدنيا ﴿وَوَقَاهُم عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ يعني : يصرف عنهم عذاب النار. قوله تعالى : ﴿فَضْلًا مِن رَّبِّكَ﴾ يعني هذا الثواب عطاء من ربك للمؤمنين المخلصين ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني النجاة الوافرة ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ يعني هَوَّنًا قراءة القرآن على لسانك لكي تقرأه وتخبرهم بذلك ﴿لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني : يتعظون بالقرآن ﴿فَارْتَقِبْ﴾ يعني : انتظر بهلاكهم ﴿إِنَّهُم مُرْتَقِبُونَ﴾ يعني : منتظرون بهلاكك، روى يعلى بن عبيد عن إسماعيل[1] عن عبد الله بن عيسى[2] قال : «أخبرت أنه من قرأ ليلة الجمعة سورة الدخان إيماناً واحتساباً وتصديقاً أصبح مغفوراً له».

والله أعلم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد النبي الأمي وآله. وأزواجه الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً دائماً.

(١) إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم الأسدي أبو بشر حافظ ثبت. تذكرة الحفاظ ١/ ٣٢٢.
(٢) عبد الله بن عيسى بن خالد الخزاز ضعيف. التقريب ١/ ٤٣٩.



وهي ثلاثون وسبع آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿حمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ يعني: هذا الكتاب تنزيل ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وقد ذكرناه ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: لعبرات للمؤمنين في خلقهن، ويقال: معناه أن ما في السموات من الشمس، والقمر والنجوم وفي الأرض من الجبال والأشجار والأنهار وغيرها من العجائب لعبرات ودلائل واضحات للمؤمنين، يعني للمقرين المصدقين، ويقال لِلْمُؤْمِنِينَ يعني: لمن أراد أن يؤمن ويتقي الشرك قوله عز وجل: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ﴾ يعني: وفيما خلق من الدواب ﴿آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني: عبرات ودلائل لمن كان له يقين، قرأ حمزة والكسائي (آيَاتٍ) بالكسر، والباقون بالضم[٢]، وكذلك الاختلاف في الذي بعده، فمن قرأ بالكسر فإن المعنى: إن في خلقكم آيات لقوم يوقنون، فهو في موضع النصب، إلاَّ أن هذه التاء تصير خفضاً في موضع النصب، وإنما أضمر فيه إنَّ لأَنَّ قوله (إِنَّ فـي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ) في موضع النصب، فكذلك في الثاني معناه: إن في خلقكم آيات، ومن قرأ بالضم فهو على الاستئناف على معنى وفي

(١) من أغراضها الابتداء بالتحدي بإعجاز القرآن وأنه جاء بالحق توطئة لما سيذكر أنه حق كما اقتضاه قوله «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق». وإثبات انفراد الله تعالى بالإلهية بدلائل ما في السماوات والأرض من آثار خلقه وقدرته في جواهر الموجودات وأعراضها وإدماج ما فيها مع ذلك من نعم يحق على الناس شكرها لا كفرها. ووعيد الذين كذبوا على الله والتزموا الآثام بالإصرار على الكفر والإعراض عن النظر في آيات القرآن والإستهزاء بها. والتنديد على المشركين إذ اتخذوا آلهه على حسب أهوائهم وإذ جحدوا البعث، وتهديدهم بالخسران يوم البعث، ووصف أهوال ذلك، وما أعد فيه من العذاب للمشركين ومن رحمة للمؤمنين. ودعاء المسلمين للإعراض عن إساءة الكفار لهم والوعد بأن الله سينخزي المشركين. ووصف بعض أحوال يوم الجزاء. ونظر الذين أهملوا النظر في آيات الله مع تبيانها وخالفوا على رسولهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما فيه صلاحهم بحال بني إسرائيل في اختلافهم في كتابهم بعد أن جاءهم العلم وبعد أن اتبعوه فما ظنك بمن خالف آيات الله من أول وهلة تحذيراً لهم من أن يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل من تسليط الأمم عليهم وذلك تحذير بليغ. وذلك تثبيت للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن شأن شرعه مع قومه كشأن شريعة موسى لا تسلم من مخالف، وأن ذلك لا يقدح فيها ولا في الذي جاء بها، وأن لا يعبأ بالمعاندين ولا بكثرتهم إذ لا وزن لهم عند الله. التحرير ٢٥/٣٢٤.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٥٨. النشر ٢/٣٧١.

خلقكم آيات ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يعني: في اختلاف الليل والنهار، في سواد الليل وبياض النهار، يعني في اختلاف ألوانهما، وذهاب الليل ومجيء النهار ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ﴾ وهو المطر ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعني بعد يبسها وقحطها ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ مرة رحمة، ومرة عذاباً، ويقال: مرة جنوباً ومرة شمالاً ثم قال ﴿آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تلك آيَاتُ اللَّهِ﴾ يعني هذه دلائل الله وعلامة وحدانيته ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ يعني يقرأ عليك جبريل من القرآن بأمر الله ﴿فبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ قال مقاتل: إن لم تؤمنوا بهذا القرآن فبأي حديث بعد توحيد الله وبعد القرآن تؤمنون يعني: تصدقون.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ يعني كذاب فاجر ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني القرآن ﴿تُتْلى عَلَيْهِ﴾ يعني: يعرض عليه ويقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً﴾ يعني: يقيم على الكفر متكبراً عن الإيمان ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يعني: كأن لم يعقلها، ولم يفهمها ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا محمد ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يعني: شديد، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر (وَآيَاتِهِ تُؤْمِنُونَ) بالتاء على معنى المخاطبة، والباقون بالياء[1] على معنى الخبر عنهم قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِن آيَاتِنَا شَيئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً﴾ يعني إذا سمع من آياتنا يعني من القرآن اتخذها هزءاً يعني سخرية، ويقال مثل حديث رستم، وإسنفديار، وهو النضر بن الحارث ﴿أُولَئِكَ لَهُم عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يهانون فيه قوله تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِم جَهَنَّمُ﴾ يعني: أمامهم جهنم ويقال من بعدهم في الآخرة جهنم ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَا كَسَبُوا شَيْئاً﴾ يعني: لا ينفعهم ما جمعوا من المال ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: لا ينفعهم ما عبدوا دونه من الأصنام ﴿وَلَهُم عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة. قوله تعالى: ﴿هَذَا هُدًى﴾ يعني: هذا القرآن بيان من الضلالة، ويقال هذا العذاب الذي حق ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني جحدوا ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِم﴾ يعني: بالقرآن ﴿لَهُم عَذَابٌ مِن رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ يعني: وجيع في الآخرة، قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص (أَلِيمٌ) بضم الميم، والباقون بكسر الميم، كما ذكرنا في سورة سبأ ثم ذكرهم النعم ليعتبروا.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ﴾ وقد ذكرناه ثم قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ يعني: ذلل لكم ما في السموات وما في الأرض

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٥٩. إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٦٦.

لصلاحكم ثم قال تعالى: ﴿جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ يعني: جميع ما سخر الله تعالى هو من قدرته ورحمته، ويقال (جَمِيعاً مِّنْهُ) يعني: مِنَّةً منه، قال مقاتل: يعني جميعاً من أمره وروى عكرمة عن ابن عباس قال: جميعاً منه، منه النور ومنه الشمس ومنه القمر[١] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني: فيما ذكر ﴿لآيَاتٍ﴾ يعني دلالات وعبرات ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يعتبرون في صنعه وتوحيده، وروى الأعمش عن عمرو بن مرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي الخَالِقِ، فَقَالَ تَفَكَّرُوا فِي الْخَلْقِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي الْخَالِقِ»[٢] وروى وكيع عن هشام عن عروة عن أبيه قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُم فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ السماء؟ فيقول الله، فيقول من خلق الأرض؟ فيقول الله، فيقول من خلق الله تعالى؟ فإذا افْتُتِنَ أَحَدُكُم بِذَلِكَ فليقل آمنت بالله ورسوله»[٣] قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال مقاتل والكلبي: وذلك أن رجلاً من الكفار من قريش شتم عمر رضي الله عنه بمكة، فهم عمر بأن يبطش به فأمره الله بأن يتجاوز عنه فقال: (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا) يعني: عمر ﴿يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ﴾ يعني يتجاوزوا ولا يعاقبوا الذين ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ يعني: لا يخافون عقوبته التي أهلك بها عادا وثمودا، والقرون التي أهلكت قبلهم يعني: لا يخشون مثل أيام الأمم الخالية، قال قتادة ثم نسختها آية القتال (اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) ثم قال: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني: يجزيهم بأعمالهم في الآخرة، قال مجاهد (لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ) يعني لا ينالون نعم الله، قرأ حمزة والكسائي وابن عامر (لِنَجْزِيَ) بالنون على الإضافة إلى نفسه، والباقون لِيَجْزِيَ بالياء[٤] أي ليجزي الله.

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

قوله عز وجل: ﴿مَنْ عمِلَ صَالِحَاً فَلِنَفْسِهِ﴾ يعني ثوابه لنفسه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ يعني عقوبته عليها ﴿ثُمَّ إلى رَبِّكُم تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني أولاد يعقوب ﴿الْكِتَابَ﴾ أي التوراة، والزبور والإنجيل، لأن موسى وداود وعيسى كانوا في بني إسرائيل ﴿وَالْحُكْمَ﴾ يعني الفهم

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٤ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وأبي الشيخ في العظمة.

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء وقال العراقي في تخريجه عليه ٤/٤٢٤ أخرجه أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر قلت: فيه الوازع بن نافع متروك.

(٣) أخرجه البخاري بنحوه ٦/٣٣٦ (٣٢٧٦) كتاب بدء الخلق ومسلم ١/١٢٠ كتاب الإيمان (٢٠٩ ـ ١٣٢).

(٤) حجة من قرأ بالنون قوله تعالى ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا﴾ وحجة الباقين أن ذكر الله قد تقدم في قوله ﴿لا يرجون أيام الله﴾ فيكون فاعل «يجزي». انظر حجة القراءات ٦٦٠.

والعلم ﴿**وَالنُّبُوَّةَ**﴾ يعني جعلنا فيهم النبوة، فكان فيهم ألف نبي ﴿**وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ**﴾ يعني الحلال من الرزق وهو المن والسلوى، ويقال رزقناهم من الطيبات يعني أورثناهم أموال فرعون ﴿**وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ يعني فضلناهم بالإسلام على عالمي زمانهم ﴿**وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ**﴾ يعني الحلال والحرام، وبيان ما كان قبلهم، ثم اختلفوا بعده، قوله تعالى ﴿**فَمَا اخْتَلَفُوا**﴾ يعني في الدين ﴿**إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ**﴾ أي صفة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كتبهم ﴿**بَغْياً بَيْنَهُمْ**﴾ يعني حسداً منهم وطلباً للعز والملك، ويقال اختلفوا في الدين فصاروا أحزاباً فيما بينهم، يلعن بعضهم بعضاً، ويتبرأ بعضهم من دين بعض ثم قال ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ يعني يحكم بينهم ﴿**فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ في الكتاب والدين قوله عز وجل ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ**﴾ يعني أمرناك وألزمناك وأثبتناك على شريعة، ويقال على سنة من الأمر، وذلك حين دعوه إلى ملتهم، ويقال على شريعة: يعني على ملة ومذهب، وقال قتادة: الشريعة الفرائض والحدود والأحكام[١]. ﴿**فَاتَّبِعْهَا**﴾ يعني اثبت عليها ﴿**وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ أي لا يصدقون بالتوحيد ﴿**إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً**﴾ يعني إن تركت الإسلام إنهم لا يمنعوك من عذاب الله شيئاً ﴿**وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾ يعني بعضهم على دين بعض ﴿**وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ أي ناصر الموحدين المخلصين ﴿**هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ**﴾ يعني يبصرهم ما لهم وما عليهم، والواحدة بصيرة يعني يبين لهم الحلال والحرام، ويقال: هذا القرآن دلائل للناس، ويقال: دعوة وكرامة ثم قال ﴿**وَهُدَىً وَرَحْمَةٌ**﴾ أي هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب ﴿**لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ يعني يصدقون بالرسل والكتاب، ويوقنون أن الله أنزله نعمة وفضلاً.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ**﴾ يعني اكتسبوا السيئات، وذلك أنهم كانوا يقولون إنا نعطى في الآخرة من الخير ما لم تعطوا، قال الله تعالى (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ) يعني أيظن الذين عملوا الشرك وهو عتبة وشيبة والوليد وغيرهم ﴿**أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ يعني علياً وحمزة وعبينة بن الحارث رضي الله عنهم ﴿**سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ**﴾ يعني يكونون سواء في نعم الآخرة، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص (سَوَاءً) بالنصب، والباقون بالضم[٢]، فمن قرأ بالنصب فمعناه أحسبوا أن نجعلهم سواء، أي مستوياً، فيجعل (أَن نَّجْعَلَهُمْ) متعدياً إلى مفعولين، ومن قرأ بالضم: جعل تمام الكلام عند قوله (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ثم ابتدأ فقال (سَوَاءٌ مَحْيَاهُم وَمَمَاتُهم) خبر الابتداء، وقال مجاهد (سَوَاءً مَحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ) قال: المؤمنون في الدنيا والآخرة مؤمن يكون على إيمانه، يموت على إيمانه ويبعث على إيمانه، والكافر في الدنيا والآخرة كافر يموت على

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٥ وعزاه لابن جرير.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٦١ النشر ٢/٣٧٢.

الكفر ويبعث على الكفر(١)، وروى أبو الزبير عن جابر قال: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ المُؤْمِنُ عَلَى إيمانِه والمُنَافِقُ عَلَى نِفَاقِه» ثم قال ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس ما يقضون الخير لأنفسهم حين يرون أن لهم ما في الآخرة ما للمؤمنين قوله عز وجل ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ وقد ذكرناه ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ يعني بما عملت ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يعني لا ينقصون من ثواب أعمالهم، ولا يُزادون على سيئاتهم قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ قال يعمل بهواه، ولا يهوى شيئاً إلا ركبه، ولا يخاف الله ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ يعني علم منه أنه ليس من أهل الهدى ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ يعني خذله الله فلم يسمع الهدى، وقلبه: يعني ختم على قلبه فلا يرغب في الحق ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ يعني غطاء كي لا يعتبر في دلائل الله تعالى، قرأ حمزة والكسائي (غَشْوة) بنصب الغين بغير ألف، والباقون (غِشَاوَةً)(٢)، كما اختلفوا في سورة البقرة، ومعناهما واحد ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ يعني من بعد ما أضله الله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أن من لا يقبل إلى دين الله، ولا يرغب في طاعته لا يكرمه بالهدى والتوحيد.

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِءَابَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ يعني آجالنا تنقضي نموت ويحيي آخرون، يعني نموت نحن ويحيا أولادنا، ويقال يموت قوم ويحيا آخرون، ووجه آخر: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يعني نحيا ونموت لأن الواو للجمع لا للتأخير، ووجه آخر: نموت ونحيا أي كنا أمواتاً في أصل الخلقة، ثم نحيا، ثم يهلكنا الدهر فذلك قوله ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ يعني لا يميتنا إلا مضي الأيام وطول العمر، قال الله تعالى ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني يقولون قولاً بغير حجة، ويتكلمون بالجهل ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ يعني ما هم إلا جاهلون قوله تعالى ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ يعني تعرض عليهم آيات القرآن واضحات، بين فيه الحلال والحرام ﴿مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ﴾ أي لم تكن حجتهم وجوابهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ يعني أحيوا لنا آباءنا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنا نبعث ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ يخلقكم من النطفة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني يوم القيامة يجمع أولكم وآخركم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه عند المؤمنين، ويقال: لا ينبغي أن يشك فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني البعث بعد الموت قوله عز وجل ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني خزائن السموات والأرض، ويقال له نفاذ الأمر في السموات والأرض ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ يعني يخسر المكذبون بالبعث، وهم أهل الباطل والكذب، ثم قال «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٥ وعزاه لابن جرير.

(٢) حجتهم قوله تعالى: ﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾ قال الفراء: كان «غشاوة» اسم و «غشوة» شيء يغشى البصر في مرة واحدة وفي وقعة واحدة مثل الرمية والوقعة. انظر حجة القراءات ٦٦٢.

وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾

﴿**وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً**﴾ يعني مجتمعة للحساب على الركب ﴿**كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا**﴾ يعني إلى ما في كتابها من خير أو شر، وهذا كقوله (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) يعني بكتابهم ﴿**الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ يعني يقال لهم اليوم تثابون بما كنتم تعملون في الدنيا من خير أو شر قوله تعالى ﴿**هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ**﴾ يعني هذا الذي كتب عليكم الحفظة (يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ) ﴿**بِالْحَقِّ**﴾ يعني يشهد عليكم بالحق ﴿**إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ يعني نستنسخ عملكم من اللوح المحفوظ، نسخة أعمالكم (مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) من الحسنات والسيئات، قال أبو الليث رحمه الله حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا الماسرخسي قال حدثنا إسحاق قال حدثنا بقية بن الوليد[1] قال حدثنا أرطأة بن المنذر قال عن مجاهد عن ابن عمر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «أول ما خلق الله القلم فكتب ما يكون في الدنيا من عملٍ معمول براً وفاجراً، وأحصاه في الذكر، فاقرؤوا إن شئتم (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) فهل يكون النسخ إلا من شيء قد فرغ[2] منه».

وروى الضحاك عن ابن عباس أن الله تعالى وكل ملائكته يستنسخون من ذلك الكتاب المكتوب عنده كل عام في شهر رمضان ما يكون في الأرض من حدث إلى مثلها من السنة المقبلة، فيعارضون به حفظة الله تعالى على عبادة كل عشية خميس، فيجدون ما رفع الحفظة موافقاً لما في كتابهم ذلك لا زيادة فيه ولا نقصان[3] وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ألستم قوماً عرباً، هل يكون النَّسخ إلاَّ مِن أَصْل كَان قَبْل ذَلِكَ وقال القتبي (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ) قال: إن الحفظة يكتبون جميع ما يكون من العبد[4] ثم يقابلونه بما في أم الكتاب فما فيه من ثواب أو عقاب أثبت، وما لم يكن فيه ثواب ولا عقاب محي، فذلك قوله (يَمْحُو اللَّهُ مَا يشاء وَيُثْبِتُ) الآية، وقال الكلبي يرفعان ما كتبا فينسخان ما فيها من خير أو شر، ويطرح ما سوى ذلك، قوله تعالى ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ**﴾ وقد ذكرناه قوله عز وجل ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ يعني جحدوا بالكتاب والرسل والتوحيد يقال لهم ﴿**أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ**﴾ يعني تقرأ عليكم في الدنيا ﴿**فَاسْتَكْبَرْتُمْ**﴾ يعني تكبرتم عن الإيمان والقرآن ﴿**وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ**﴾ يعني مشركين كافرين بالرسل والكتب.

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ

---

(١) بقية بن الوليد بن صائد بن كعب الكلاعي صدوق كثير التدليس عن الضعفاء. التقريب ١/١٠٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٦ وعزاه لابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٧ وعزاه للطبراني عن ابن عباس.

(٤) انظر الدر المنثور ٦/٣٦.

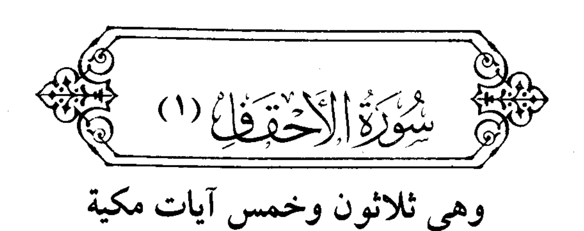
لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني إذا قال لكم الرسل في الدنيا إن البعث بعد الموت حق **﴿وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾** أي لا شك فيها، قرأ حمزة (والسَّاعَةَ) بالنصب عطف على قوله (إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) وَإِنَّ السَّاعَةَ، قرأ الباقون بالضم[١] ومعناه: (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) وقيل (وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا) أي لا شك فيها **﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾** يعني ما القيامة، وما البعث **﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾** يعني قلتم ما نظن إلا ظناً غير اليقين **﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾** أنها كائنة قوله عز وجل **﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾** أي ظهر لهم **﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾** يعني عقوبات ما عملوا في الدنيا ويقال تشهد عليهم جوارحهم **﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** يعني نزل بهم العذاب ووجب عليهم العذاب باستهزائهم أنه غير نازل بهم **﴿وَقِيلَ﴾** يعني قالت لهم الخزنة **﴿الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ﴾** يعني نتركك في النار **﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾** يعني كما تركتم الإيمان والعمل لحضور يومكم هذا **﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾** يعني مثواكم ومستقركم النار **﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾** يعني ليس لكم مانع يمنعكم مما نزل بكم من العذاب **﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً﴾** يعني هذا العذاب بأنكم لم تؤمنوا **﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾** يعني ما في الدنيا من زينتها وزهرتها **﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾** قرأ حمزة والكسائي بنصب الياء، فيجعلان الفعل لهم، والباقون بالضم على فعل ما لم يسم فاعله[٢] **﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾** يعني لا يرجعون إلى الدنيا، وقال الكلبي لا يعاتبون بعد هذا القول ويتركون في النار، ويقال لا يراجعون الكلام بعد دخولهم النار **﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾** يعني عند ذلك يحمد المؤمنون الله في الجنة كقوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ)، ويقال: فلله الحمد، يعني له آثار الحمد فعلى جميع الخلق أن يحمدوه، ويقال: فلله الحمد يعني الألوهية والربوبية **﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾** يعني الحمد لرب الأرض **﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** يعني لرب جميع الخلق الحمد والثناء **﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ﴾** يعني العظمة والقدرة والسلطان والعزة **﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾** في ملكه **﴿الْحَكِيمُ﴾** في أمره وقضائه. سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) يكون رفعها على وجهين: أحدهما أن تعطفه من الأول فتعطف جملة على جملة على معنى (وقيل: الساعة لا ريب فيها)، والوجه الآخر أن يكون المعطوف محمولاً على موضع «إن» وما عملت فيه، وموضعها رفع. وحجتهم إجماع الجميع على قوله **﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾**. ومن نصب حمله على لفظ الوعد، المعنى: وإذا قيل إن وعد الله حق وإن الساعة) مثل: إن زيداً منطلق وعمراً قائم. الحجة (٦٦٢).

(٢) حجتهم قوله تعالى: **﴿ربنا أخرجنا منها﴾**: ويقوى الرفع قوله **﴿ولا هم يستعتبون﴾** ليكون الكلام على نظام واحد. انظر حجة القراءات ٦٦٢.



وهي ثلاثون وخمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿حمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾ وقد ذكرناه ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الشمس والقمر، والنجوم، والرياح، والخلق ﴿إِلَّا بِالحَقِّ﴾ يعني إلا ببيان الحق لأمر عظيم هو كائن، ولم يخلقهن عبثاً ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني خلقهن لأجل أمر عظيم ينتهي إليه وهو يوم القيامة، وهو الأجل المعلوم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني مشركي مكة ﴿عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ يعني عما خوفوا به تاركون فلا يؤمنون به، ولا يتفكرون فيه.

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني ما تعبدون من الأصنام، قال القتبي: ما: هاهنا في موضع الجمع يعني الذين يدعون من الآلهة ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ يعني أخبروني ما الذي خلقوا من الأرض، كالذي خلق الله تعالى، إن كانوا آلهة ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ يعني أم لهم نصيب ودعوة في السموات، يعني في

(١) من الأغراض التي اشتملت عليها أنها افتتحت مثل سورة الجاثية بما يشير إلى إعجاز القرآن للاستدلال على أنه منزل من عند الله والاستدلال بإتقان خلق السموات والأرض على التفرد بالإلهية، وعلى إثبات جزاء الأعمال والإشارة إلى وقوع الجزاء بعد البعث وأن هذا العالم صائر إلى فناء. وإبطال الشركاء في الإلهية. والتدليل على خلوهم عن صفات الإلهية. وإبطال أن يكون القرآن من صنع غير الله. وإثبات رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستشهاد الله تعالى على صدق رسالته واستشهاد شاهد بني إسرائيل وهو عبد الله بن سلام. والثناء على الذين آمنوا بالقرآن وذكر بعض خصالهم الحميدة وما يضادها من خصال أهل الكفر وحسدهم الذي بعثهم على تكذيبه. وذكرت معجزة إيمان الجن بالقرآن. وختمت السورة بتثبيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وأقحم في ذلك معاملة الوالدين والذرية مما هو من خلق المؤمنين، وما هو من خلق أهل الضلالة. والعبرة بضلالهم مع ما كانوا عليه من القوة، وأن الله أخذهم بكفرهم وأهلك أمماً أخرى فجعلهم عظة للمكذبين وأن جميعهم لم تغن عنهم أربابهم المكذوبة. وقد أشبهت كثيراً من أغراض سورة الجاثية مع تفنن. التحرير ٢٦/٦ ـ ٧.

خلق السموات ثم قال ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي بحجة لعبادتكم الأصنام في كتاب الله، ويقال ائتوني بحجة من الله ومن الأنبياء من قبل هذا يعني من قبل هذا القرآن الذي أتيتكم به فيه بيان ما تقولون ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني رواية تروونها من الأنبياء والعلماء ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن الله تعالى أمركم بعبادة الأوثان، قرأ الحسن وأبو عبد الرحمن السلمي (أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ) قال القتبي هو اسم مبني على فعلة من ذلك والأول فعالة، والأثرة التذكرة، ومنه يقال فلان يأثر الحديث أي يرويه وقال قتادة (أَوْ أَثَارَةٍ) يعني خاصة من علم[1]، ويقال (أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ) يؤثر عن الأنبياء والعلماء، فلما قال لهم ذلك سكتوا قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني من أشد كفراً ممن يعبد من دون الله آلهة ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني لا يجيبه وإن دعاه إلى يوم القيامة ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ يعني عن عبادتهم، ثم بين إجابتهم وحالهم يوم القيامة فقال تعالى ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ يعني إلى البعث ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ يعني صارت الآلهة أعداء لمن عبدهم ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يعني جاحدين ويتبرؤون منهم ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ يعني تقرأ عليهم آياتنا واضحات، فيها الحلال والحرام، ويقال بينات فيها دلائل واضحات ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ يعني للقرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي حين جاءهم هذا سحر بين.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾

قوله عز وجل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعني اختلقه من ذات نفسه ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ يعني اختلقته من تلقاء نفسي يعذبني الله تعالى عليه ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ يعني لا تقدرون أن تمنعوا عذاب الله عني ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ يعني تخوضون فيه من الكذب في القرآن ﴿كَفَى بِهِ شَهِيداً﴾ يعني كفى بالله عالماً ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ويقال تفيضون: أي تقولون ثم قال ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يعني الغفور لمن تاب، الرحيم بهم قوله تعالى ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ﴾ يعني ما أنا أول رسول بعث ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ يعني يرحمني وإياكم، أو يعذبني وإياكم، وقال الحسن في قوله (وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ) يعني في الدنيا[2]، وقال الكلبي: وذلك أنه رأى في المنام أنه أخرج إلى أرض ذات نخل وشجر، فأخبر أصحابه، فظنوا أنه وحي أوحي إليه فاستبشروا، فمكثوا بذلك ما شاء فلم يروا شيئاً مما قال لهم، فقالوا يا رسول الله ما رأينا الذي قلت لنا؟ فقال: إنما كان رؤيا رأيتها ولم يأت وحي من السماء، وما أدري أيكون ذلك أو لا يكون، فنزل قوله (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ) يعني ما كنت أولهم، وقد بعث قبلي رسل كثير (وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِيَ وَلَا بِكُمْ ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ ويقال: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم، يرحمني وإياكم أو يعذبني وإياكم، فقالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم: إذاً لا فرق بيننا وبينك، كما نحن لا ندري ما يفعل بنا، ولا تدري ما يفعل بك وقد عير المشركون المسلمين فقالوا (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً) لا يدري ما يفعل

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٨ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٨ وعزاه لابن جرير.

به: فأنزل الله تبارك وتعالى (تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَكَ قُصُوراً) فلما قدم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة نزل عليه (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) وقد نسخت هذه الآية (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً) ثم قال تعالى ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ يعني مخوف مفقه لكم بلغة تعرفونها قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني إن كان القرآن من عند الله تعالى ﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ يعني جحدتم بالقرآن، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال مجاهد وعكرمة وقتادة: هو عبد الله بن سلام[١]، وروى عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «لا يشهد لأحد يمشي على الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام وفيه نزلت» (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) ﴿عَلَى مِثْلِهِ﴾[٢] أي على مثل شهادة عبد الله بن سلام، يعني بنيامين على مثله، يعني على مثل شهادة عبد الله بن سلام، وكان ابن أخ عبد الله بن سلام شهد على نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم، وروى وكيع عن ابن عون قال ذكر عندا الشعبي (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) أنه عبد الله بن سلام، فقال الشعبي: وكيف يكون عبد الله بن سلام هو الشاهد وهذه السورة مكية، وكان ابن سلام بالمدينة، قال ابن عون فثبت أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: صدق الشعبي، إن تلك السورة نزلت بمكة ، ولكن هذه الآية نزلت بالمدينة، فوضعت في هذه السورة، وروى داود بن أبي هند عن الشعبي، عن مسروق قال: والله ما هو عبد الله بن سلام ولقد أنزلت بمكة، فخاصم به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، الذين كفرُوا من أهل مكة[٣] أن التوراة مثل القرآن، وَمُوسى مثل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وكُل مؤمن بالتوراة فهو شاهد من بني إسرائيل، ثم قال ﴿فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ يعني تكبرتم وتعاظمتم عن الإيمان ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني الكافرين.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني قال رؤساء المشركين لضعفاء المسلمين ﴿لَوْ كَانَ خَيْراً﴾ يعني لو كان هذا الدين حقاً ﴿مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، وقال قتادة قال أناس من المشركين نحن أعز، ونحن أغنى ونحن أكرم، فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان[٤]، قال الله تعالى (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَّشَاءُ) يعني يختار لدينه من كان أهلاً لذلك ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ يعني لم يؤمنوا بهذا أي القرآن كما اهتدى به أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ يعني القرآن كذب قديم، أي تقادم من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله تعالى ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ يعني قد أنزل قبل هذا القرآن الكتاب على موسى، يعني التوراة ﴿إِمَاماً﴾ يقتدى به

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٩ وعزاه لابن سعد وابن عساكر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٩ وعزاه للبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٩ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٠ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

﴿وَرَحْمَةً﴾ من العذاب لمن آمن به ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ يعني وأنزل إليك هذا الكتاب مصدق للكتب التي قبله ﴿لِسَاناً عَرَبِيًّا﴾ بلغتكم لتفهموا ما فيه ﴿لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني مشركي مكة، قرأ نافع وابن عامر (لِتُنْذِرَ) بالتاء على معنى المخاطبة، يعني لتنذر أنت يا محمد والباقون بالياء[١] على معنى الخبر عنه، يعني ليخوف محمد - صلى الله عليه وسلم - بالقرآن ﴿وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني بشارة بالجنة للموحدين ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقد ذكرناه

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

ثم قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً﴾ يعني أمرنا الإنسان بالإحسان إلى والديه، قال مقاتل والكلبي: نزلت الآية في شأن أبي بكر[٢] الصديق رضي الله عنه، ويقال هذا أمر عام لجميع الناس، قرأ حمزة والكسائي وعاصم «إِحْسَاناً» بالألف، ومعناه: أمرناه بأن يحسن إليهما إحساناً، والباقون «حُسْناً» بغير ألف[٣] فجعلوه اسماً وأقاموه مقام الإحسان، ثم ذكر حق الوالدين فقال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً﴾ يعني في مشقة ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً﴾ يعني في مشقة ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ﴾ يعني حمله في بطن أمه، وفصاله ورضاعه ﴿ثَلَاثُونَ شَهْراً﴾ وروى وكيع بإسناده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إن رجلاً قال له إني تزوجت جارية سليمة، بكراً، لم أر منها ريبة، وإنها ولدت لستة أشهر، فقرأ علي (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ) وقرأ (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً) فالحمل ستة أشهر، والرضاع سنتين، والولد ولدك، وقال وكيع هذا أصل إذا جاءت بولد لأقل من ستة أشهر لم يلزمه فيفرق بينهما ثم قال ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ يعني بلغ ثلاثاً وثلاثين ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ صدق بالنبي - صلى الله عليه وسلم، يعني أبا بكر ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ يعني ألهمني ما أؤدي به شكر نعمتك، وما أوزعت به نفسي أن أكفها عن كفران نعمتك، وأصله من وزعته: أي دفعته، قال رب أوزعني أن أشكر، يعني أن أؤدي شكر نعمتك ﴿الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ بالإسلام ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ يعني تقبله ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ يعني أكرمهم بالتوحيد ويقال: اجعلهم أولاداً صالحين مسلمين، فأسلموا كلهم ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ يعني أقبلت إليك بالتوبة ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعني المخلصين الموحدين على دينهم قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني أهل هذه الصفة يعني أبا بكر ووالديه وذريته ومن كان في مثل حالهم ﴿الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ يعني سنجزيهم بإحسانهم، قرأ حمزة

---

(١) حجة من قرأ بالتاء قوله تعالى: ﴿وأنذر الناس﴾ وقال ﴿إنما أنت منذر﴾ وقال ﴿قل إنما أنذركم بالوحي﴾ فجعل الفعل للنبي - صلى الله عليه وسلم - فكذلك في قوله ﴿لتنذر﴾ وحجة الباقين قوله تعالى: ﴿لينذر بأساً شديداً﴾. انظر حجة القراءات ١٦٣ النشر ٢/٣٧٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٠ وعزاه لابن عساكر.

(٣) حجة من قرأ بالألف إجماع الجميع على قوله ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ وحجة الباقين قوله تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ قالوا: فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. انظر المصدران السابقان.

والكسائي وعاصم في رواية حفص (نَتَقَبَّل) بالنون ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾ بالنون، وقرأ الباقون بالياء والضم[١]، فمن قرأ بالنون فهو على معنى الإضافة إلى نفسه، يعني نتقبل نحن، ونصب أحسن لوقوع الفعل عليه ومن قرأ بالياء والضم فهو على معنى فعل ما لم يسم فاعله، ولهذا رفع قوله (أَحْسَنُ) لأنه مفعول ما لم يسم فاعله ثم قال (وَنَتَجَاوَزُ) ﴿عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يعني ما فعلوا قبل التوبة فلا يعاقبون عليها ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ يعني هم مع أصحاب الجنة، وروى أبو معاوية[٢] عن عاصم الأحول[٣] عن الحسن قال (مَن يَعْمَل سُوءاً يُجْزَ بِهِ) إنما ذلك لمن أراد الله هوانه، وأما من أراد الله كرامته فإنه يتجاوز عن سيئاته (فِي أَصْحَابِ الجَنَّةِ) ثم قال ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ يعني وعد الصدق في الجنة قوله تعالى ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ يعني عبد الرحمن بن أبي بكر، قال لوالديه أف لكما يعني قدراً لكما، وهو الرديء من الكلام، وقد ذكرنا الاختلاف في موضع آخر، وقد قرىء على سبع قراءات: بالنصب، والضم، والكسر، وكل قراءة تكون بالتنوين وبغير تنوين، فتلك ست قراءات، والسابع أفْ بالسكون، ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ يعني أن أبعث بعد الموت، وذلك قبل أن يسلم ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ أي مضت الأمم ولم يبعث أحدهم ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ يعني أبويه يدعوان الله تعالى له بالهدى، اللهم آهده وآرزقه الإيمان، ويقولان له ﴿وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني ويحك أسلم وصدق بالبعث، فإن البعث كائن ﴿فَيَقُولُ﴾ لهما ﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني كذبهم، فقال عبد الرحمن إن كنتما صادقين فأخرجا فلاناً وفلاناً من قبورهما فنزل ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني القرون التي ذكر ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي وجب عليهم العذاب ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني في أمم قد مضت من قبلهم من كفار ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ في الآخرة بالعقوبة، فأسلم عبد الرحمن وحسن إسلامه، وذكر في الخبر أن مروان بن الحكم قال نزلت هذه الآية في شأن عبد الرحمن أخ عائشة، فبلغ ذلك عائشة فقالت: بل نزلت في أبيك وأخيك قوله عز وجل ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ يعني فضائل في الثواب مما عملوا ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أجورهم ﴿وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ﴾ يعني لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً، ولا يزادون على سيئات أعمالهم قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ يعني يكشف الغطاء

---

(١) حجة من قرأ بالنون أن الكلام أتى عقيب قوله ﴿ووصينا الإنسان﴾ فأجرى ما بعده بلفظه إذ كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد وحجة الباقين قوله: ﴿فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض﴾ و ﴿لن تقبل توبتهم﴾ و ﴿ما تقبل منهم﴾ فأجري هذا مجرى نظائره ليأتلف الكلام على نظم واحد. الحجة (٦٦٤).

(٢) عمرو بن عبد الله بن وهب النخعي الكوفي ثقة. التقريب ٢/٧٤.

(٣) عاصم بن سليمان الأحول أبو عبد الرحمن البصري ثقة. التقريب ١/٣٨٤.

عنها، فينظرون إليها، فيقال لهم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ يعني أكلتم حسناتكم ﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ يعني انتفعتم بها في الدنيا، وقرأ ابن عامر (أَأَذْهَبْتُم) بهمزتين، وقرأ ابن كثير (آذْهَبْتُم) بالمد ومعناهما واحد، ويكون استفهاماً على وجه التوبيخ، والباقون (أَذْهَبْتُم) بهمزة واحدة بغير مد[١] على معنى الخبر وروي عن عمر أنه اشتهى شراباً فأتي بقدح فيه عسل، فأدار القدح في يده قال: أشربها فتذهب حلاوتها، أوتبقى نقمتها، ثم ناول القدح رجلاً، فسئل عن ذلك فقال: خشيت أن أكون من أهل هذه الآية (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) وروي عن عمر أنه دخل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو على حصير وقد أثر بجنبه الشريط، فبكى عمر، فقال: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: ذكرت كسرى وقيصر وما كانا فيه من الدنيا، وأنت رسول رب العالمين قد أثر بجنبك الشريط، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، ونحن قوم أُخِرَتْ لَنا طَيِّباتنا في الآخرة»[٢] قوله ﴿فَالْيَوْمَ تُجزَوْنَ عَذَابَ الْهُوْنِ﴾ يعني العذاب الشديد ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يعني تستكبرون عن الإيمان ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ يعني تعصون الله تعالى.

وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يعني واذكر لأهل مكة، ويقال معناه واصبر على ما يقولون واذكر هود ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ يعني خوف قومه بموضع يقال له الأحقاف روى منصور عن مجاهد قال: الأحقاف الأرض[٣]، ويقال: جبل بالشام ويسمى الأحقاف، وقال القتبي: الأحقاف: جمع حقف وهو من الرمل ما أشرف من كثبانه واستطال وانحنى ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ يعني مضت من قبل هود ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني ومن بعده ﴿أَلَّا

(١) انظر الحجة ٦٦٥ وإتحاف فضلاء البشر ٢/٤٧٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/١٤٠.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٣ وعزاه لابن جرير.

﴿تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ يعني خوفهم ألا تعبدوا إلا الله ووحدوه **﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾** يعني أعلم أنكم إن لم تؤمنوا يصبكم عذاب يوم كبير **﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾** يعني لتصرفنا عن عبادة آلهتنا **﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾** من العذاب **﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾** أنَ العذاب نازل بنا **﴿قَالَ﴾** هود **﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾** يعني علم العذاب عند الله يجيء بأمر الله، وإنَّما عليَّ تبليغ الرسالة، وليس بيدي إتيان العذاب، فذلك قوله **﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾** يعني ما يوحي الله إليَّ لأدعوكم إلى التوحيد **﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾** لما قيل لكم، ولما يراد بكم من العذاب **﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾** يعني لما رأوا العذاب مقبلاً، وكانت السحابة إذا جاءت من قبل ذلك الوادي أمطروا، وقال القتبي: العارض: السحاب **﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾** يعني هذه سحابة وغيم ممطرنا، أي تمطر به حروثنا، لأن المطر كان حبس عنهم فقال هود: ليس هذا عارض **﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾** يعني الريح والعذاب **﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** أي متلف، وروى عطاء عن عائشة قالت: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا رأى رياحاً مختلفة تلون وجهه وتغير وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فذكرت ذلك له فقال: وما يدريك لعله كما قال الله (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) فإذا أمطرت سري عنه، ويقول (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ)[1] ثم قال تعالى **﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾** يعني تهلك الريح كل شيء بأمر ربها، أي بإذنه تعالى **﴿فَأَصْبَحُوا﴾** أي فصاروا من العذاب بحال **﴿لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾** وقد ذكرناه في سورة الأعراف، قرأ حمزة وعاصم (لَا يُرَى) بضم الياء (مَسَاكِنُهُم) بضم النون على معنى: فعل ما لم يسم فاعله، يعني: لا يرى شيء وقد هلكوا كلهم، وقرأ الباقون (لَا تَرى) بالتاء على معنى المخاطبة[2]، ومعناه لا ترى شيئاً أيها المخاطب لو كنت حاضراً ما رأيت إلا مساكنهم، ثم قال **﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾** يعني هكذا نعاقب القوم المشركين عند التكذيب **﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾** يعني أعطيناهم الملك والتمكين **﴿فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾** يعني ما لم نمكن لكم، ولم نعطكم يا أهل مكة، وقال القتبي إن الخفيفة قد تزاد في الكلام كقول الشاعر: ما إن رأيت ولا سمعت به، يعني ما رأيت ولا سمعت به يعني ما لم نمكن لكم ومعنى الآية ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه، وقال الزجاج: إنْ هاهنا مكان ما، يعني فيما مكناكم فيه، ويقال معناه ولقد مكناهم في الذي مكناكم فيه **﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً﴾** يعني جعلنا لهم سمعاً ليسمعوا المواعظ، وأبصاراً لينظروا في الدلائل وأفئدة ليتفكروا في خلق الله تعالى **﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾** يعني لم ينفعهم من العذاب **﴿سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾** إذ لم يسمعوا الهدى، ولم ينظروا في الدلائل، ولم يتفكروا في خلقه **﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾** يعني بدلائله **﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾** يعني نزل بهم من العذاب **﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** يعني العذاب الذي كانوا يجحدون به ويستهزئون قوله تعالى **﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾** يعني أهلكنا قبلكم يا أهل مكة بالعذاب ما حولكم من القرى **﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾** أي بينا لهم الدلائل والحجج والعلامات **﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾** أي يرجعون عن كفرهم قبل أن يهلكوا قوله تعالى **﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾** يعني فهلا نصرهم، يعني كيف لم يمنعهم من العذاب **﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً﴾** يعني عبدوا من دون الله ما يتقربون بها إلى الله **﴿آلِهَةً﴾** يعني أصناماً كما قال في آية أخرى (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) **﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾** يعني الآلهة لم تنفعهم شيئاً، ويقال اشتغلوا بأنفسهم، ويقال بطلت عنهم **﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾** يعني كذبهم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٣ وعزاه لعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٦٦، النشر ٢/٣٧٣.

﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني يختلقون، وذكر أبو عبيدة بإسناده عن عبد الله بن عباس أنه قرأ (أَفَكَهُمْ) بنصب الألف والفاء والكاف، يعني ذلك الفعل أضلهم وأهلكهم وصرفهم عن الحق، وقراءة العامة بضده (وَذَلِكَ إِفْكُهم) يعني ذلك الفعل: وهو عبادتهم وقولهم وكذبهم، ويقال (وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ) اليوم كما كان إفك من كان قبلهم.

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نفراً مِّنَ الْجِنِّ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما بعث خرت الأصنام على وجوهها في تلك الليلة، فصاح إبليس صيحة فاجتمع إليه جنوده فقال لهم: قد عرض أمر عظيم امضوا فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، يعني امشوا وانظروا ماذا حدث من الأمر، وروى ابن عباس، أنه لما بعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيل بين الشياطين وبين السماء وأرسل عليهم الشهب، فجاؤوا إلى إبليس فأخبروه بذلك، قال هذا الأمر حادث اضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فجاء نفر منهم فوجدوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلي تحت نخلة في سوق عكاظ ومعه ابن مسعود وأصحابه، وكان يقرأ سورة طه في الصلاة، وروى وكيع عن سفيان عن عاصم، عن رجل، عن زر بن حبيش في قوله تعالى (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ) قال كانوا تسعة أحدهم زوبعة أتوه ببطن نخلة ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ وروى عكرمة عن الزبير قال: كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ في العشاء الأخيرة، فلما حضروا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال بعضهم لبعض: أنصتوا للقرآن واستمعوا ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ يعني فرغ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من القراءة والصلاة ﴿وَلَّوْا﴾ يعني رجعوا ﴿إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ قال مقاتل يعني المؤمنين، وقال الكلبي يعني مخوفين، وقال مجاهد: ليس في الجن رسل، وإنما الرسل في الإنس والنذارة في الجن، ثم قرأ (فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنْذِرِينَ) يعني أنذروا قومهم من الجن ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿كِتَاباً﴾ يعني قراءة القرآن ﴿أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ يعني أنزل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني موافقاً لما قبله من الكتب ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ يعني يدعو إلى توحيد الله تعالى من الشرك كما هو في سائر الكتب ﴿وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لا عوج فيه، يعني دين الله تعالى وهو الإسلام ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ يعني النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَآمِنُوا

بِهِ﴾ يعني صدقوا به وبكتابه **﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾** وَمِنْ: صلة في الكلام، يعني يغفر لكم ذنوبكم إن صدقتم وآمنتم **﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** يعني يؤمنكم من عذاب النار **﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ﴾** يعني من لم يجب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما يدعو إليه من الإيمان **﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾** يعني لا يستطيع أن يهرب في الأرض من عذاب الله تعالى، ويقال معناه فلن يجد الله عاجزاً عن طلبه **﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾** يعني ليس له أنصار يمنعونه مما نزل به من العذاب **﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ﴾** يعني في خطأ **﴿مُّبِينٍ﴾** وذكر في الخبر: أنهم لما أنذرهم وخوفهم جاء جماعة منهم إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة فلقيهم بالبطحاء، فقرأ عليهم القرآن، فأمرهم ونهاهم وكان معه عبد الله بن مسعود وَخَطَّ له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطاً وقال له لا تخرج من هذا الخط، فإنك إنْ خَرَجْتَ لَنْ تَرَانِي إلى يَوم القيامة، فلما رجع إليه قال: يا نبي الله سمعت هَدَّتين أي صوتين، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أما إحداهما فإني سلمت عليهم فردوا عليَّ السلام، وأما الثانية فإنهم سألوا الرزق فأعطيتهم عظماً رزقاً لهم، وأعطيتهم روثاً رزقاً لدوابهم[1] ثم قال تعالى **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾** يعني أولم يعتبروا ويتفكروا، ويقال أولم يخبروا **﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ﴾** يعني: لم يعجز عن خلق السموات والأرض، فكيف يعجز عن بعث الموتى، ويقال: (وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ) يعني: لم يعيه خلقهن، ولم يعي بخلقهن بِقَادِرٍ **﴿عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ﴾** لأنهم كانوا مقرين بأن الله هو الذي خلق السموات والأرض، وكانوا منكرين للبعث بعد مماتهم، فأخبرهم الله تعالى بأن الذي كان قادراً على خلق السموات والأرض يكون قادراً على إحيائهم بعد الموت، ثم قال (بلى) يعني: هو قادر على البعث **﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** من الإحياء والبعث **﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾** يعني: يكشف الغطاء عنها، ويقال يساق الذين كفروا إلى النار، ويقال لهم **﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾** يعني: أليس هذا العذاب الذي ترون حقاً وكنتم تكذبون به **﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾** إنه الحق (وَرَبِّنَا) هو الله، ويقال: والله إنه لحق، فيقرون حين لا ينفعهم إقرارهم، قال فيقال لهم **﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾** أي تجحدون **﴿فَاصْبِرْ﴾** يا محمد يعني: اصبر على أذى أهل مكة وتكذيبهم **﴿كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾** يعني: أولو الحزم، وهو أن يصبر في الأمور ويثبت عليها، وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراد أن يدعو عليهم، فأمره الله تعالى بالصبر كما صبر نوح، وكما صبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وغيرهم من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وقال السدي: أولو العزم: الذين أمروا بالقتال من الرسل، وقال أبو العالية: أولو العزم من الرسل كانوا ثلاثة، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رابعهم، إبراهيم وهود ونوح، فأمره الله تعالى أن يصبر كما صبروا[2] وقال مقاتل: أولو العزم من الرسل اثني عشر نبياً في بيت المقدس، فأوحى الله إليهم ثلاث مرات أن اخرجوا من بين أقوامكم، فلم يخرجوا، فقال الله تعالى يمضي العذاب عليكم مع قومكم، فتشاوروا فاختاروا هلاك أنفسهم بينهم **﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾** يعني: لا تستعجل لهم بالعذاب **﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾** يعني: العذاب قد أتاهم من قريب في الآخرة، فلقربه كأنهم يرونه في الحال، ويقال: في الآية تقديم وتأخير، كأنهم لم يلبثوا إلا ساعة في الدنيا، يعني: إذا أتاهم ذلك اليوم يرون أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا القليل فذلك قوله: **﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾** يعني: من نهار الدنيا، ويقال يعني: في القبور، وقال أبو العالية: معناه كأنهم يرون حين يظنون أنهم لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ثم قال: **﴿بَلَاغٌ﴾** يعني: ذلك بلاغ وبلغه

---

(١) أخرجه الخطيب في التاريخ ٣/٣٩٨. انظر مجمع الزوائد ٨/٣١٦ ـ ٣١٧.

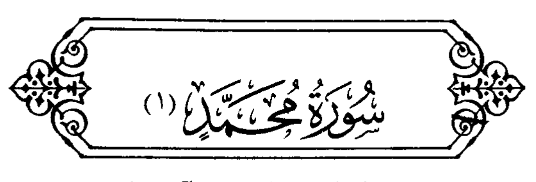
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٥ وعزاه لعبد بن حميد وأبي الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر.

وأجل، فإذا بلغوا أجلهم ذلك ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ يعني هل يهلك في العذاب إذا جاء العذاب إلا القوم العاصون، ويقال معناه: لا يهلك مع رحمة الله وفضله، إلا القوم الفاسقون، ويقال: بلاغ يعني: هذا الذي ذكر بلاغ أي تمام العظة، ويقال هو من الإبلاغ، أي هذا إرسال وبيان لهم كقوله (هذا بلاغ للناس)[1].

والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) في أ و ط زيادة قوله [قرأ ابن عامر ﴿أأذهبتم طيباتكم﴾ بهمزتين وقرأ ابن كثير﴿أذهبتم﴾بالمد، ومعناهما واحد ويكون الاستفهام على وجه التوبيخ، وقرأ الباقون ﴿أذهبتم﴾ بهمزة واحدة بغير مد على معنى الخبر] هذا، وقد آثرنا حذف ذلك من النص لأنه مكرر فيما قبل عند قوله تعالى: ﴿أذهبتم طيباتكم﴾.



سُورَةُ مُحَمَّدٍ(١)

وهي ثمان وثلاثون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي جحدوا بتوحيد الله تعالى وبالقرآن ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي صرفوا الناس عن طاعة الله، وهو الجهاد ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُم﴾ يعني أبْطَلَ الله حسناتهم التي عملوا في الدنيا، لأنهم عملوا بغير إيمان، وكل عمل يكون بغير إيمان فهو باطل، كما قال (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ) الآية، قال الكلبي نزلت في مطعمي بدر، وهم رؤساء مكة الذين كانوا يطعمون الناس في حال خروجهم إلى بدر، منهم أبو جهل والحارث ابنا هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبي وأمية ابنا خلف، ومنبه ونبيه ابنا الحجاج وغيرهم، ويقال هذا في عامة الكفار، وهذا كقوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُم كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ) الآية وروى مجاهد عن ابن عباس قال (الَّذِينَ كَفَرُوا) هم أهل مكة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال هم الأنصار[٢]، الذين آمنوا يعني: صدقوا بالله تعالى وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وبالقرآن، وعملوا الصالحات: يعني أدوا الفرائض والسنن وهم أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن كان في مثل حالهم ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحَقُّ مِن رَّبِهِمْ﴾ يعني: صدقوا بما أنزل جبريل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وهو الحق وليس فيه باطل ولا تناقض ﴿كَفَّرَ عَنْهُم سَيِّئَاتِهِم﴾ يعني: محا عنهم ذنوبهم التي عملوا في الشرك بإيمانهم بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وطاعتهم لله تعالى فيما يأمرهم به من الجهاد ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُم﴾ يعني:[٣] حالهم، وهذا قول قتادة، وقال مقاتل:

---

(١) معظم ما في هذه السورة التحريض على قتال المشركين، وترغيب المسلمين في ثواب الجهاد. افتتحت بما يثير حنق المؤمنين على المشركين لأنهم كفروا بالله وصدوا عن سبيله، أي دينه. وأعلم الله المؤمنين بأنه لا يسدد المشركين في أعمالهم وأنه مصلح المؤمنين فكان ذلك كفالة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم. وانتقل من ذلك إلى الأمر بقتالهم وعدم الإبقاء عليهم. وفيها وعد المجاهدين بالجنة، وأمر المسلمين بمجاهدة الكفار وأن لا يدعوهم إلى السلم وإنذار المشركين بأن يصيبهم ما أصاب الأمم المكذبين من قبلهم. ووصف الجنة ونعيمها، ووصف جهنم وعذابها. ووصف المنافقين وحال اندهاشهم إذا نزلت سورة فيها الحض على القتال، وقلة تدبرهم القرآن وموالاتهم المشركين. وتهديد المنافقين بأن الله ينبىء رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسيماهم وتحذير المسلمين من أن يروج عليهم نفاق المنافقين. وختمت بالإشارة إلى وعد المسلمين بنوال السلطان وحذرهم إن صار إليهم الأمر من الفساد والقطيعة. التحرير ٢٦/ ٧٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٦ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

يعني: بين أمورهم في الإسلام، وعملهم وحالهم حتى يدخلوا الجنة، وروى مجاهد (وَأَصْلَحَ بَالَهُم) يعني شأنهم[١]، وقال القتبي (كَفَّرَ عَنْهُم سَيِّئَاتِهِمْ) أي سترها (وَأَصْلَحَ بَالَهُم) أي حالهم ويقال: أصلح بالهم يعني: أظهر الله تعالى أمرهم في الإسلام حتى يقتدى بهم، ثم بين المعنى الذي أحبط أعمال الكافرين، وأصلح شأن المؤمنين فقال ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: ذلك الإبطال بأن الذين كفروا ﴿اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ يعني: اختاروا الشرك وثبتوا عليه، ولم يرغبوا في الإسلام، ويقال: معناه لأنهم اختاروا الباطل على الحق، واتباع الهوى على اتباع رضي الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يعني: اتبعوا القرآن وعملوا به، ويقال: معناه اختاروا الإيمان على الكفر، واتباع القرآن واتباع رضى الله تعالى، على اتباع الهوى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ يعني: هكذا يبين الله صفة أعمالهم، ثم حرض المؤمنين على القتال فقال:

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ يعني: اضربوا الرقاب، صار نصباً بالأمر، ومعناه اضربوا الأعناق ضرباً، وروى وكيع عن المسعودي عن القاسم بن عبد الرحمن[٢] عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «إِنّي لَمْ أُبْعَثْ لأُعَذِّبَ بِعَذَابِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ بِضَرْبِ الرِّقَابِ وَشَدِّ[٣] الوَثَاقِ» ﴿حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُم فَشُدُّوا الوَثَاقَ﴾ يعني: حتى إذا قهرتموهم وأسرتموهم فشدوا الوثاق يعني: فاستوثقوا أيديهم من خلفهم، ويقال الإثخان: أن يعطوا أيديهم ويستسلموا، وقال الزجاج (حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُم) يعني: أكثرتم فيهم القتل والأسر بعد المبالغة في القتل، وقال مقاتل: حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُم بالسيف فظفرتم عليهم (فَشُدُّوا الوَثَاقَ) يعني: الأسر ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ﴾ يعني: عتقاً بعد الأسر بغير فداء ﴿وَإِمَّا فِدَاءً﴾ يعني: يفادي نفسه بماله، وروي عن إبراهيم النخعي أنه قال: الإمام بالخيار في الأسرى إن شاء فادى وإن شاء قتل، وإن شاء استرق، وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: لا أفادي وإن طلبوا بمدين من ذهب، وذكر عن أبي بكر أنه كتب إليه في أسير التمسوا منه الفداء فقال اقتلوه، لأَنْ أقتل رجلاً من المشركين أحب إليَّ من كذا وكذا، قال أبو الليث: وقد كره بعض الناس قتل الأسير، واحتج بظاهر هذه الآية (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وإِمَّا فِدَاءً)، وقال أَصْحَابُنَا: لا بأس بقتله بالخبر الذي روي عن أبي بكر رضي الله عنهم وروي عن ابن جريج[٤]، وغيره من أهل التفسير أن هذه الآية منسوخة بقوله (فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُم)، وقد قتل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابن خطل يوم فتح مكة بعدما وقع في منعة المسلمين فهو كالأسير، وأما الفداء: فإن فادوا بأسير من المسلمين فلا بأس به، كما قال إبراهيم النخعي إن شاء فادى بالأسير، وإن أراد أن يفتدي بمال

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.
(٢) القاسم بن عبد الرحمن بن مسعود الهزلي أبو عبد الرحمن قاضي الكوفة وثقة ابن معين الخلاصة ٢/٣٤٤.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٧ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير.
(٤) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي توفي سنة خمسين ومائة الخلاصة ٢/١٧٨.

لا يجوز إلا عند الضرورة، لأن في رد الأسير إلى دار الحرب قوة لهم في الحرب فكره ذلك كما يكره أن يحمل إليهم السلاح للبيع ثم قال (حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا) روي عن ابن عباس أنه قال حتى تترك الكفار إشراكها، ويوحدوا الرب تبارك وتعالى، حتى لا يبقى إلا مسلم، أو مسالم يعني: في ذمة المسلمين، الذين يعطون الجزية، وعن سعيد بن جبير قال: ﴿حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قال: خروج عيسى عليه السلام يكسر[١] الصليب، فيلقى الذئب الغنم فلا يأخذها ولا تكون عداوة بين اثنين، وهكذا قال مجاهد، وقال مقاتل (حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا) يعني: في مكان يقاتل سَمَّاهُم حرباً، وقال القتبي: حتى تضع الحرب، يعني: حتى يضع أهل الحرب السلاح. ثم قال عز وجل: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني: افعلوا ذلك، ثم استأنف فقال: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُم﴾ بغير قتال يعني: يهلكهم ﴿وَلَكِن لِيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ يعني: لم يهلكهم لكي يختبرهم بالقتال، حتى يتبين فضلهم ويستوجبوا الثواب ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: جاهدوا عدوهم في طاعة الله تعالى ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُم﴾ يعني: لن يبطل ثواب أعمالهم، قرأ أبو عمرو (قُتِلُوا) بضم القاف بغير ألف، وهكذا روي عن عاصم في إحدى الروايتين، يعني: الذين قتلوا يوم أحد، ويوم بدر، وفي سائر الحروب، وقرأ الباقون (وَالَّذِينَ قَاتَلُوا في سبيل الله) بالنصب[٢] يعني: جاهدوا الكفار وحاربوهم ثم قال ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ يعني: يجنبهم من أهوال الآخرة، ويقال: سيهديهم: يعني: يثبتهم على الهدى ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُم﴾ وقد ذكرناه ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ﴾ في الآخرة ﴿عَرَّفَهَا لَهُم﴾ يعني هداهم الله تعالى إلى منازلهم، وروى أبو المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال « إِذَا أُذِنَ لأَهْلِ الجَنَّةِ فِي دُخُولِهَا (لأَحَدهم أَهْدَى أي أعرف بِمَنْزِلِهِ في الجَنَّةِ، من منزله الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا)[٣] وعن ابن مسعود أنه قال ما أشبههم إلَّا أهل الجمعة حين انصرفوا من جمعتهم، يعني إن كل واحد منهم يهتدي إلى منزله، وقال الزجاج في قوله (سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُم) أي يصلح لهم أمر معايشهم في الدنيا، مع ما يجازيهم في الآخرة، وهذا كما قال تعالى (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّه كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً) الآية ويقال (عَرَّفَهَا لَهُم) أي طيبها لهم، يقال طعام معرف أي مطيب، ثم حث المؤمنين على الجهاد.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٧ وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) حجة من قرأ على ما لم يسم فاعله أن هذه الآية مخصوص بها الشهداء المقتلون في سبيل الله الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾ وقوله سيهديهم إلى طريق الجنة ويصلح شأنهم في الآخرة ويدخلهم الجنة وحجة الباقين أن قاتلوا أعم ثواباً وأبلغ للمدوح في المجاهدين في سبيل الله. لأنه إذا فعل ذلك بالمقاتل في سبيله وأن لم يُقْتَل ولم يَقْتُل كان أعم من أن يكون ذلك الوعد منه لمن قتل دون من قاتل. وحجة أخرى: أن الله جل وعز أخبر أنه «يهديهم ويصلح بالهم» بعدما أخبرنا عنهم بالقتال (في سبيله)، فلو كان المراد من الكلام القتل لم يكن في ظاهر قوله ﴿سيهديهم ويصلح بالهم﴾ كبير معنى لأنهم قُتلوا، بل إنما يدل الظاهر على أنه وعدهم الهداية وإصلاح البال جزاء لهم في الدنيا على قتالهم أعداءه وأن يدخلهم في الآخرة الجنة، وهذا أوضح الوجهين. حجة القراءات ٦٦٦ ـ ٦٦٧.

(٣) سقط في ظ.

مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾

فقال ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُم﴾ يعني: إن تنصروا دين الله بقتال الكفار (يَنْصُرْكُم) بالغلبة على أعدائكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾ فلا تزول في الحرب ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا تَعْساً لَهُم﴾ يعني: بعدا ونكساً وخيبة لهم، وهو من قولك: تعست أي عثرت وسقطت ﴿وَأَضَلَّ أَعْمالَهُم﴾ يعني: أبطل ثواب حسناتهم فلم يقبلها منهم، ثم بين المعنى الذي أبطل به حسناتهم فقال ﴿ذَلِكَ﴾ يعني: ذلك الإبطال ﴿بِأَنَّهُم كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعني أنكروا وكرهوا الإيمان بما أنزل الله على محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ﴾ يعني: ثواب أعمالهم، ثم خوفهم ليعتبروا فقال عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ يعني: أفلم يسافروا في الأرض ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ يعني: فيعتبروا ﴿كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كيف كان آخر أمرهم ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ يعني أهلكهم الله تعالى بالعذاب ﴿وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها﴾ يعني: للكافرين من هذه الأمة أمثالها من العذاب، وهذا وعيد لكفار قريش ثم قال: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني: النصرة التي ذكر في قوله (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُم) ﴿بِأَنَّ اللَّه مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: إن الله تبارك وتعالى ناصر أولياءه بالغلبة على أعدائهم ﴿وَأَنَّ الكافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ يعني لا ناصر ولا ولي لهم لا تنصرهم آلهتهم، ولا تمنعهم مما نزل بهم من العذاب، ثم ذكر مستقر المؤمنين، ومستقر الكافرين فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ﴾ وقد ذكرناه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ يعني: يعيشون بما أعطوا في الدنيا ﴿وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الأَنْعامُ﴾ ليس لهم هَمٌّ إلاّ الأكل والشرب والجماع ﴿وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُم﴾ أي منزلاً ومستقراً لهم.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ يعني: وكم من قرية فيما مضى، يعني: أهل قرية ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً﴾ يعني: أشد منعة وأكثر عدداً، وأكثر أموالاً. ﴿مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ يعني: أهل مكة الذين أخرجوك من مكة إلى المدينة ﴿أَهْلَكْناهُم﴾ يعني: عذبناهم عند التكذيب ﴿فَلا ناصِرَ لَهُم﴾ يعني: لم يكن لهم مانع مما نزل بهم من العذاب، وهذا تخويف لأهل مكة قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ قال مقاتل والكلبي يعني محمداً - صلى الله عليه وسلم -، وأبا جهل بن هشام، يعني لا يكون حال من كان على بيان من الله

تعالى كمن حسن له قبح عمله ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ بعبادة الأوثان، ويقال هـذا في جميع المسلمين، وجميع الكـافرين، لا يكون حال الكفار مثل حال المؤمنين في الثواب قوله تعالى ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ يعني: صفة الجنة ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ الذين يتقون الشرك والفواحش ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ قرأ ابن كثير (مِن مَّاءٍ غَيْرِ أَسِنٍ) بغير مد، والباقون بالمد[١]، ومعناهما واحد، يعني ماء غير منتن ولا متغير الطعم والريح ﴿وَأَنْهَارٌ مِن لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ إلى الحموضة كما يتغير لبن أهل الدنيا من الحالة الأولى ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ يعني: لذيذة، ويقال (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ) ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ ليس فيها العكر ولا الكدرة، ولا الدردي كعسل أهل الدنيا، قال مقاتل: هذه الأنهار الأربعة تتفجر من الكوثر إلى أهل الجنة، ويقال من تحت شجرة طوبى إلى أهل الجنة ﴿وَلَهُم فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يعني: من ألوان الثمرات ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِمْ﴾ لذنوبهم في الآخـرة، ويقال في الدنيا ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ يعني: هل يكون حال من هو في هذه النعم كمن هو في النار أبداً ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً﴾ أي حاراً قد انتهى حره ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ من شدة الحر فذابت أمعاؤهم، كقوله تعالى: (يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِم والجلود) ثم قال: ﴿وَمِنْهُم مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يعني: من المنافقين من يستمع إليك ﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطب الناس يوم الجمعة، وعاب في خطبته المنافقين، فلما خرجوا من عنده، قال بعض المنافقين لعبد الله بن مسعود وهو الذي أوتي العلم: ماذا قال آنفاً يعني الساعة على جهة الاستهزاء، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِم﴾ مجازاة لهم ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ يعني: عملوا بهوى أنفسهم، ثم ذكـر المؤمنين المصدقين فقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُم هُدىً﴾ يعني: آمنوا بالله تعالى، وأحسنوا الإستماع إلى ما قال النبي ـ صلى الله عليـه وسلم ـ (زَادَهُمْ هُدَىً) يعني: زادهم الله بصيرة في دينهم، وتصديقاً لنبيهم، ويقال: زادهم بما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هدى، ويقال زادهم قول المنافقيـن، واستهزاؤهم (هُدًى) يعني: تصديقـاً وثباتـاً على الإسلام، وشكر الله تعـالى ﴿وَآتَاهُم تَقْوَاهُم﴾ حين بين لهم التقوى، ويقال ألهمهم قبول الناسخ وترك المنسوخ.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ أي: ما ينتظر قومك إلا قيام الساعة، يعني: فما ينتظر قومك إن لم يؤمنوا إلا الساعة ﴿أَنْ تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ يعني: فجأة ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ يعني: علاماتها وهو: انشقاق القمر والدخان وخروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وروى مكحول عن حذيفة قال سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: متى الساعة، فقـال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ولكن لها أشراط، تقارب الأسواق يعني: كسادها، ومطر ولا نبات يعني: مطر في غير حينه، وتفشـو الفتنة، وتظهر أولاد البغية، ويعظم رب المال، وتعلـو أصوات الفسقة في المساجد، ويظهر أهل المنكر على أهل الحق»[٢] ثم قال ﴿فَأَنَّى لَهُم إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُم﴾ يعني: من أين لهم التوبة إذا جاءتهم الساعة، وقال قتادة: فأنى لهم أن يتذكروا أو يتذاكروا إذا جاءتهم الساعة، وقال مقاتل: فيـه تقديم: يعني: أنى لهم التذكرة والتوبة عند الساعة إذا جاءتهم وقد فرطوا فيها.

فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٦٧. النشر ٢/٣٧٤.

(٢) أخرجه البخاري بنحوه ١/١١٤ كتاب الإيمان (٣٧) ومسلم بنحوه ١/٤٠ كتاب الإيمان (٧/١٠).

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾

قوله عز وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال الزجاج هذه الفاء جواب الجزاء، ومعناه: قد بينا ما يدل على توحيد الله فاعلم أنه لا إله إلا الله، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد علم أن الله تعالى واحد، إنما خاطبه والمراد به أمته ويقال هذا الأمر للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة، ومعناه: فاثبت على إظهار قول لا إله إلا الله، يعني: ادع الناس إلى ذلك، ويقال كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: ليتني أعلم أي الكلام أفضل، وأي الدعاء أفضل، فأعلمه الله تعالى أن أفضل الكلام التوحيد، وأفضل الدعاء الاستغفار، ثم قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ روى الزهري أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في كل يوم سبعين مرة أو أكثر»[1] وروى أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إني أستغفر الله تعالى وأتوب إليه في كل يوم مائة مرة وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: أستغفر للمؤمنين في المكتوبة؟ قال نعم، قلت فمن أبتدىء؟ قال فبنفسك كما قال الله تعالى: واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴿واللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ يعني: منتشركم بالنهار، ومأواكم بالليل، ويقال ذهابكم ومجيئكم قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِلَتْ سُورَةٌ﴾ وذلك أنهم كانوا يأنسون بالوحي ويستوحشون إذا أبطأ، فاشتاقوا إلى الوحي فقالوا لولا نزلت، هلا نزلت سورة، قال الله تعالى ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ يعني: مبينة الحلال والحرام ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ يعني: أمروا فيها بالقتال، وقال قتادة: كل سورة ذكر فيها ذكر القتال فهي محكمة[2]، وقال القتبي في قراءة ابن مسعود سورة محدثة، وتسمى المحدثة محكمة لأنها إذا نزلت تكون محكمة ما لم ينسخ منها شيء، ويقال (فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ فِيهَا ذكر القتال، وطاعة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرح بها المؤمنون، وكره المنافقون فذلك قوله ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني: الشك والنفاق ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ كراهية لنزول القرآن، يعني إنهم يشخصون نحوك بأبصارهم وينظرون نظراً شديداً من شدة العداوة، كما ينظر المريض عند الموت ﴿فَأَوْلَى لَهُم﴾ فهذا تهديد ووعيد، يعني: وليهم المكروه، يعني: قل لهم احذروا العذاب، وقد تم الكلام ثم قال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ قال القتبي هذا مخصوص، يعني: قولهم قبل نزول الفرض سمعاً لك وطاعة، فإذا أمروا به كرهوا ذلك، ويقال: معناه طاعة وقول معروف أمثل لهم، ويقال معناه: فإذا أنزلت سورة ذات طاعة يؤمر فيها بالطاعة، وقول معروف ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ﴾ أي جاء الجد ووقت القتال، فلم يذكر في الآية جوابه، والجواب فيه مضمر معناه: فإذا عزم الأمر يعني: وجب الأمر، وجد الأمر، كرهوا ذلك، ثم ابتدأ فقال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴾ يعني: لو صدقوا الله في النبي وما جاء به، لكان خيراً لهم من الشرك والنفاق، قوله ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُم﴾ يعني: لعلكم وإن وليتم أمر هذه الأمة ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ بالمعاصي يعني: أن

---

(١) أخرجه البخاري ١١/١٠١ كتاب الدعوات (٦٣٠٧).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٦٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

تعصوا الله في الأرض ﴿وَتقطِّعُوا أرْحَامَكم﴾ قال السدي: فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض، بالمعاصي، وتقطعوا أرحامكم، فإن المؤمنين إخوة فإذا قتلوهم فقد قطعوا أرحامهم، وروى جبير عن الضحاك قال: نزلت في الأمراء إن تَوَلَّيتم، أمر الناس أن تفسدوا في الأرض، ويقال: معناه إن أعرضتم عن دين الإسلام، وعما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء ودفن البنات، وقطع الأرحام (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إنْ تَوَلَّيْتُمْ) يعني: هل تريدون إذا أنتم تركتم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أمركم به إلَّا أن تعودوا إلى مثل ما كنتم عليه من الكفر والمعاصي وقطع الأرحام، قرأ نافع (فَهَل عَسِيتُم) بكسر السين والباقون بالنصب[1]، وهما لغتان إلا أن النصب أظهر عند أهل اللغة، قوله عز وجل: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ يعني: أهل هذه الصفة خذلهم الله وطردهم من رحمته، قوله ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن الهدى فلا يعقلونه ﴿وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ عن الهدى فلا يبصرونه عقوبة لهم.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ﴾ يعني: أفلا يسمعون القرآن ويعتبرون به، ويتفكرون فيما أنزل الله تعالى فيه من وعد ووعيد، وكثرة عجائبه، حتى يعلموا أنه من الله تعالى وتقدس ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ يعني: بل على قلوب أقفالها، يعني: أقفل على قلوبهم ومعناه أن أعمالهم لغير الله ختم على قلوبهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ﴾ يعني: رجعوا إلى الشرك ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ يعني: من بعد ما ظهر لهم الإسلام، قال قتادة (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم) وهم أهل الكتاب عرفوا نعت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكفروا به، ويقال نزلت في المرتدين ثم قال عز وجل: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ يعني: زين لهم ترك الهدى، وزين لهم الضلالة ﴿وَأَمْلَى لَهُم ذَلِكَ﴾ قرأ أبو عمرو (وَأُملِيَ) بضم الألف وكسر اللام وفتح الياء على معنى فعل ما لم يسم فاعله، والباقون (وَأَملَى) بنصب اللام والألف، يعني: أمهل الله لهم فلم يعاقبهم حين كذبوا محمداً ـ صلى الله

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢ / ٤٧٧.

عليه وسلم ـ، ويقال زين لهم الشيطان وأملى لهم الشيطان يعني: خيل لهم تطويل المدة والبقاء، وقرأ يعقوب الحضرمي (وَأُملِي) بضم الألف وكسر اللام وسكون الياء[1]، ومعناه أنا أملي يعني: أطول لهم المدة، كما قال (إِنَّمَا نُمْلِي لَهُم لِيَزْدَادُوا إِثْماً) ثم قال ذلك يعني: اللعن والصمم والعمى والتزين والإملاء ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ وهم المنافقون قالوا ليهود بني قريظة والنضير، وهم الذين كرهوا ما نزل الله، يعني تركوا الإيمان بما أنزل الله من القرآن ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ يعني: سنغنيكم في بعض الأمر ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُم﴾ فيما قالوا فيما بينهم قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص (إِسْرَارَهُم) بكسر الألف، والباقون بالنصب[2] فمن قرأ بالنصب فهو جمع السر، ومن قرأ بالكسر فهو مصدر أسررت إسراراً، ويقال: سر وأسرار، ثم خوفهم فقال الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ﴾ يعني: كيف يصنعون ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني: تقبض أرواحهم الملائكة، ملك الموت وأعوانه ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُم﴾ يعني: عند قبض الأرواح، ويقال يعني يوم القيامة في النار ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك الضرب الذي نزل بهم عند الموت وفي النار ﴿بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ يعني: اتبعوا الكفر، وتكذيب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ يعني: عملوا بما لم يرض الله به، وتركوا العمل بما يرضي الله تعالى ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُم﴾ يعني: أبطل ثواب أعمالهم قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ يعني: أيظن أهل النفاق والشك ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ يعني: لم يظهر الله نفاقهم، ويقال: يعني الغش الذي في قلوبهم للمؤمنين وعداوتهم للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُم﴾ يعني: لعرفتك المنافقين وأعلمتك ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُم﴾ يعني: بعلاماتهم الخبيثة، ويقال (فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُم) إذا رأيتهم، ويقال: لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة فلعرفتهم بسيماهم، يعني: حتى عرفتهم ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُم فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ يعني: ستعرفهم يا محمد بعد هذا اليوم في لحن القول يعني في محاورة الكلام، ويقال (فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) يعني: كذبهم إذا تكلموا، فلم يخفَ على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد نزول هذه الآية منافق عنده إلا عرفه بكلامه ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُم﴾ يعني: لم يخف عليه أعمالكم قبل أن تعملوها فكيف يخفى عليه إذا عملتموها ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ يعني لنختبرنكم عند القتال ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ أي نميز ﴿الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ يعني: صبر الصابرين عند القتال ﴿وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُم﴾ يعني: نختبر أعمالكم، ويقال أسراركم، قرأ عاصم في رواية أبي بكر (وَلَيَبْلُوَنَّكُم حَتَّى يَعْلَمَ وَيَبْلُوَا) الثلاثة كلها بالياء، يعني: يختبركم الله والباقون الثلاثة كلها بالنون[3] على معنى الإضافة إلى نفسه قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: جحدوا ﴿وَصَدُّوا﴾ يعني: صرفوا الناس عن دين الإسلام ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال مقاتل: يعني: اليهود، وقال الكلبي: يعني رؤساء قريش حيث شاقوا أهل التوحيد

---

(١) حجة أبي عمرو قوله: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أن ما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم﴾ فكأن أبا عمرو لما كان القارىء إذا قرأ «وأملى» بالفتح جاز أن يقع في الوهم أن الإملاء مسند إلى الشيطان لأن ذكره قد تقدم الفعل ولم يجر لله قبل الفعل ذكر فقرأ «وأملى» ليزيل التوهم. إن الإملاء إلى الله لا إلى الشيطان كما قال جل وعز «فأمليت / للكافرين». وأصل الإملاء: الإطالة في العمر يقال: تملى فلان منزلة إذا طالت إقامته فيه. وحجة الباقين في هذا قوله: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه﴾ = هذه الهاء أعني «تسبحوه» عائدة على الله وقوله ﴿تعزروه وتوقروه﴾ عائدة على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فكذلك قوله: ﴿الشيطان سول لهم وأملى لهم﴾ التسويل راجع إلى الشيطان، والإملاء إلى الله. حجة القراءات ٦٦٨ ـ ٦٦٩.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٦٩. النشر ٢/٣٧٤.

(٣) حجة من قرأ بالياء قوله تعالى ﴿والله يعلم أعمالكم﴾ وحجة الباقين أن قبله ﴿ولو نشاء لأريناكم﴾ فأخبر عن نفسه بلفظ الجمع. انظر حجة القراءات ٦٧٠.

﴿**وَشَاقُّوا الرَّسُولَ**﴾ يعني: عادوا الله تعالى ورسوله، وخالفوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الدين ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى**﴾ يعني: الإسلام وأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه الحق ﴿**لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً**﴾ يعني: لن ينقصوا الله من ملكه شيئاً، بكفرهم، بل يضروا بأنفسهم ﴿**وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُم**﴾ يعني: يبطل ثواب أعمالهم التي عملوا في الدنيا فلا يقبلها منهم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾ يعني: أطيعوه في السر كما في العلانية، ويقال: أطيعوا الله في الفرائض وأطيعوا الرسول في السنن، وفيما يأمركم من الجهاد ﴿**وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُم**﴾ يعني: حسناتكم بالرياء، وقال أبو العالية: كان أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرون أنه لا يضر مع قول لا إله إلا الله ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزل «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» فخافوا أن تبطل الذنوب الأعمال[(١)]، وقال مقاتل: نزلت في الذين يمنون عليك أن أسلموا ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ قال مقاتل وذلك أن رجلاً سأله عن والده أنه كان محسناً في كفره، قال: هو في النار، فولى الرجل يبكي، فدعاه فقال له «والدك ووالدي ووالد إبراهيم في النار» فنزل (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴿**ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ**﴾ قال الكلبي: نزلت الآية في رؤساء أهل بدر قوله تعالى: ﴿**فَلَا تَهِنُوا**﴾ يعني: لا تضعفوا عن عدوكم: ﴿**وَتَدْعُو إِلَى السَّلْمِ**﴾ يعني: إلى الصلح، أي لا تهنوا ولا تدعوا إلى الصلح نظير قوله تعالى: (وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ) يعني: ولا تكتموا الحق، وفي هذه الآية دليل على أن أيدي المسلمين إذا كانت عالية على المشركين لا ينبغي لهم أن يجيبوهم إلى الصلح لأن فيه ترك الجهاد، وإن لم تكن يدهم عالية عليهم فلا بأس بالصلح لقوله تعالى: (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا) يعني: إن مالوا للصلح فمل إليه، قرأ حمزة في رواية أبي بكر: إلى السِلم بكسر السين، والباقون بالنصب[(٢)] قال بعضهم: وهما لغتان، وقال بعضهم: أحدهما صلح، والآخر استسلام، ثم قال: ﴿**وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ**﴾ يعني: العالين يكون آخر الأمر لكم ﴿**وَاللَّهُ مَعَكُم**﴾ يعني: معينكم وناصركم ﴿**وَلَنْ يَتِرَكُم أَعْمَالَكُمْ**﴾ يعني: لن ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً، يقال وترتني حقي يعني: بخستني فيه، وقال مجاهد: لن ينقصكم[(٣)]، وقال قتادة: لن يظلمكم[(٤)] ﴿**إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٦٧ وعزاه لعبد بن حميد ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة وابن أبي حاتم.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٧٠، إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٧٩.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٦٧ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٦٧ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير.

﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ يعني: باطل وفرح ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾ أي تستقيموا على التوحيد ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النفاق ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُم﴾ يعني: يعطكم ثواب أعمالكم ﴿وَلَا يَسْأَلْكُم أَمْوَالَكُمْ﴾ يعني: لا يسألكم جميع أموالكم، ولكن ما فضل منها ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا﴾ يعني: جميع الأموال ﴿فَيُحْفِكُم تَبْخَلُوا﴾ يعني: إن يلح عليكم بما يوجبه في أموالكم، ويقال فيحفكم: يعني يجهدكم كثرة المسألة، تبخلوا بالدفع ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُم﴾ يعني: يظهر بغضكم وعداوتكم لله تعالى، ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين، ويقال ويخرج ما في قلوبكم من حب المال، يقول هذا للمسلمين، ويقال هذا للمنافقين، يعني يظهر نفاقكم، وقال قتادة علم الله أن في مسألة الأموال خروج الأضغان[1].

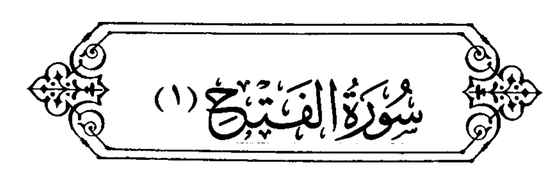
قوله عز وجل: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو (هَا أَنْتُمْ) بمدة طويلة بغير همز، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بالمد والهمز، فَهَا: تنبيه، وأنتم كلمة على حدة، وإنما مد ليفصل ألف هاء من ألف أنتم، وقرأ ابن كثير بالهمز بغير مد[2]، ومعناه: أأنتم ثم قلبت إحدى الهمزتين هاء، ومعنى هذه القراءات كلها: أنتم يا معشر المؤمنين ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني لتتصدقوا في سبيل الله، وتعينوا الضعفاء ﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ﴾ بالنفقة في سبيل الله ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ﴾ بالنفقة ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ يعني لا يكون له ثواب النفقة ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ عما عندكم من الأموال، وعن أعمالكم ﴿وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ إلى ما عند الله من الثواب، والرحمة، والمغفرة ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ يعني تعرضوا عما أمركم الله به من الصدقة وغير ذلك مما افترض الله عليكم من حق ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ يعني يهلككم ويأت بخير منكم، وأطوع لله تعالى منكم، ثم لا يكونوا أمثالكم، يعني أشباهكم في معصية الله تعالى، قال بعضهم: لم يتولوا، ولم يستبدل بهم، وقال بعضهم استبدل بهم أناس من كندا وغيرها، وروى أبو هريرة قال: لما نزلت هذه الآية، قالوا يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من هؤلاء الذين إنْ تولينا استبدلوا بِنَا قال وَعنده سلمان فوضع النبي - صلى الله عليه وسلم - يده عليه ثم قال: هذا وقومه ثم قال: «لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس»[3] وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٦٧ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٧٩.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٦٧ وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.



سُورَةُ الفَتْحِ (١)

وهي عشرون وتسع آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾ يعني قضينا لك قضاء بيناً، أكرمناك بالإسلام والنبوة، وأمرناك بأن تدعـو الخلق إليه، قال مقاتل: وذلك أنه لما نزل بمكة (وَمَا أَدْرِيَ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ) وكان المشركون يقولون لم تتبعون رجلاً لا يدري ما يفعل به ولا بمن تابعه، فلما قدم المدينة، عيرهم بذلك المنافقون أيضاً، فعلم الله تعالى ما في قلوب المؤمنين من الحزم وما في قلوب الكافرين من الفرح فنزل (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً) يعني قضينا لك قضاء بيناً ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فقال المؤمنون: هذا لك، فما لنا؟ فنزل (لِيُـدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) الآية، فقال المنافقون فما لنا؟ فنزل (وَيُعَـذِّبَ الْمُنَافِقِيـنَ وَالْمُنَافِقَاتِ) الآية، وقال الزجاج: إنا فتحنا لك، يعني فتح الحديبية، والحديبية بئر سمي المكان بها، والفتح: هو الظفر بالمكان كان بحرب أو بغير حرب، قال ومعنى الفتح: الهداية إلى الإسلام، وكان في فتح الحديبية معجزة من معجزات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك أنها بئر فاستسقى جميع ما فيها من الماء، ولم يبق فيها شيء فمضمض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم مجه فيها فدرّت البئر بالماء، ثم قال (لِيَغْفِرَ لَكَ) قال بعضهم هذه لام كي، فكأنه قال: لكي يغفر لك (الله ما تقدم من ذنبك) يعني ذنب آدم (وَمَا تَأَخَّرَ) يعني ذنب أمتك، وقال القتبي: هذه لام القسم فكأنه قال (لِيَغْفِر لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) ويقال ما كان قبل نزول الوحي وما كان بعده قوله تعالى ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بالنبوة وبإظهار الدين ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾ يعني يثبتك على الهدى وهو طريق الأنبياء ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ﴾ يعني لكي ينصرك الله على عدوك ﴿نَصْراً عَزِيزاً﴾ بإظهار الإسلام.

---

(١) تضمنت هذه السورة بشارة المؤمنين بحسن عاقبة صلح الحديبية وأنه نصر وفتح فنزلت به السكينة في قلوب المسلمين وأزال حزنهم من صدهم عن الاعتمار بالبيت وكان المسلمون عدة لا تغلب من قلة فرأوا أنهم عادوا كالخائبين فأعلمهم الله بأن العاقبة لهم، وأن دائرة السوء عل المشركين والمنافقين. والتنويه بكرامة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند ربه ووعده بنصر متعاقب. والثناء على المؤمنين الذين عذروه وبايعوه، وأن الله قدم مثلهم في التوراة وفي الإنجيل ثم ذكر بيعة الحديبية والتنويه بشأن من حضرها. وفضح الذين تخلفوا عنها من الأعراب ولمزهم بالجبن والطمع وسوء الظن بالله وبالكذب على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ومنعهم من المشاركة في غزوة خيبر، وإنبائهم بأنهم سيدعون إلى جهاد آخر فإن استجابوا غفر لهم تخلفهم عن الحديبية. ووعد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بفتح آخر يعقبه فتح أعظم منه وبفتح مكة. وفيها ذكر بفتح من خيبر كما سيأتي في قوله تعالى ﴿فعجل لكم هذه﴾ التحرير ٢٦/١٤٢ ـ ١٤٣.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تجهز في سنة ست في ذي القعدة فخرج إلى العمرة معه ألف وستمائة رجل، ويقال: ألف وأربعمائة وساق سبعين بدنة فبلغ قريشاً خبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه، فبعثوا خالد بن الوليد في عصابة منهم ليصدوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه عن البيت، فلما نزل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعسفان قال إن قريشاً جعلت لي عيوناً فمن يدلني على طريق الثنية، فقال رجل من المسلمين أنا يا رسول الله، فخرج بهم وانتهوا إلى الثنية، وصعدوا فيها، فلما هبط رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الثنية بركت ناقته القصواء، فلم تنبعث فزجرها، وزجرها الناس وضربوها فلم تنبعث، فقال الناس خلأت القصواء أي صارت حرونا، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما خلأت القصواء وما كان ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل ثم قال لا يسألونني فيما بيني وبينهم شيئاً يعظمون به حرماتهم إلا قبلته منهم ثم زجرها فانبعثت، فلما نزلوا على القليب بالحديبية لم يكن في البئر إلا ماء وشيك يعني قليل متغير فاستسقوا فلم يبق في البئر ماء، فقال مَن رجل يهيج لنا الماء، فقال رجل أنا يا رسول الله، فقال: ما اسمك؟ قال: مرة، فقال تأخر، فقال رجل آخر أنا يا رسول الله، فقال ما اسمك؟ قال: ناجيه فقال: انزل، فنزل فأعطاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مشقصاً[1] فبحث[2] به البئر فنبع الماء، وقال في رواية عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: كان ماء الحديبية قد قل، فأتى بدلو من ماء فتوضأ منه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، وجعل منه في فيه ثم مجه في الدلو، ثم أمرهم بأن يجعلوه في البئر ففعلوا فامتلأت البئر حتى كادوا يغرقون منها وهم جلوس ففزع المشركون لنزول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه في الحديبية، فجاؤوه واستعدوا ليصدوه فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمر يا عمر: اذهب فاستأذن لنا عليهم حتى نعتمر، ويخلوا بيني وبين البيت، لا أريد منهم غيره، فقال عمر يا رسول الله ليس ثم أحد من قومي يمنعني، فأرسل عثمان فإن هناك ناساً من بني عمه يمنعونه، فذهب عثمان فتلقاه أبان بن سعيد بن العاص، فقال له أجرني من قومك حتى أبلغ رسالة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، فأجاره وحمله على فرسه وراءه ودخل به مكة، فاستأذن عثمان قريشاً فأبوا أن يأذنوا له، فقال أبان لعثمان طف أنت إن شئت، فقال لما كنت لأتقدم بين يدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، وبقي هناك ثلاثة أيام، فذكر للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن عثمان قد قتل، فقال لأصحابه بايعوني على الموت، فجلس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحت الشجرة فبايعه أصحابه على الموت فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إني أخاف ألا يدرك عثمان هذه البيعة فأنا أبايع له يميني بشمالي، ثم رجع عثمان فأخبر أنهم قد أبوا ذلك، وبلغت قريشاً البيعة، فكبرت تلك البيعة عندهم، وقالوا ليزيد بن الحارث الكناني أردده عنا، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابعثوا الهدى في وجهه يراها فإنهم قوم يعظمون الهدي، فبعثوا الهدي في وجهه، فلما رأى يزيد بن الحارث الهدي قال: ما أرى أحداً يفلح برد هذا الهدي، ورجع إلى قريش فقال لهم: لا تردوا هذا الهدي فإني أخشى أن يصيبكم عذاب من السماء، فأرسلوا عروة بن مسعود الثقفي فجاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم،

---

(١) المشقص هو نصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض. انظر لسان العرب ٤/٢٢٩٩.

(٢) بحث بمعنى كشف. انظر لسان العرب ١/٢١٤.

فجلس إليه فقال يا محمد: ارجع عن قومك هذه المرة، فجعل يكلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويومىء بيديه إلى لحيته، وكان المغيرة قائماً عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضربه بالسوط على يده، وقال اكفف يدك عن لحية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن يصل إليك ما تكره، فقال عروة: من هذا يا محمد؟ فقال: ابن أخيك المغيرة بن شعبة، فقال يا غدر ما غسلت سلحتك عني بعد، أفتضرب يدي؟ قال: اكففها قبل أن لا تصل إليك، فرجع عروة إلى قريش، فقالوا له ما ورائك يا أبا يعقوب، فقال خلوا سبيل الرجل يعتمر، فإني حضرت كسرى وقيصر والنجاشي فما رأيت ملكاً قط أصحابه أطوع من هذا الملك، والله إنه ليتنخم فيبتدرون نخامته، والله إنه ليجلس فيبتدرون التراب الذي يجلس عليه، وإنه ليتوضأ فيبتدرون وضوءه، فقالوا جننت وانتفخ سحرك، ثم قالوا لسهيل بن عمرو اذهب واردده عنا وصالحه، فلما رآه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: قد سهل أمرهم، فجاءه سهيل في نفر من قريش فقال: يا محمد ارجع عن قومك هذه المرة على أن لك أن تأتيهم من العام المقبل فتعتمر أنت وأصحابك، ويدخل كل إنسان منكم بسلاحه راكباً، فتصالحنا على أن لا تقاتلنا ولا نقاتلك سنتين، فرضي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك، فقال اكتب بيننا وبينك كتاباً، فأمر علياً رضي الله عنه أن يكتب فكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا أعرف الرحمن، قال فكيف أكتب؟ قال: اكتب باسمك اللهم، فكتب باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال سهيل لو أعلم أنك رسول الله لاتبعتك، أفترغب عن اسم أبيك؟ فقال علي رضي الله عنه: فوالله إنه لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على رغم أنفك، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: أنا محمد رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله، اكتب محمد بن عبد الله لأنه كان عهد أن لا يسألوه عن شيئاً يعظمون به حرماتهم إلا قبله، فكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو، ألا تقاتلنا ولا نقاتلك سنتين، وندخل في حلفنا من نشاء، وتدخلوا في حلفكم من شئتم، وعلى أنكم تأتون من العام المقبل وتقيمون ثلاثة أيام ثم ترجعون، وعلى أن من جاء منا إليكم لا تقبلوه وتردوه إلينا، ومن جاء منكم إلينا فهو منا فلا نرده إليكم، فشق ذلك الشرط على المسلمين فقالوا يا رسول الله: من لحق بنا منهم لم نقبله، ومن لحق بهم منا فهو لهم، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأما من لحق بهم منا فأبعده الله وأولى بمن كفر وأما من أراد أن يلحق بنا منهم فسيجعل الله له مخرجاً، فجاء أبو جندل بن سهيل يوسف في الحديد، يعني يمشي مشي الأعرج قد أسلم فأوثقه أبوه حين خشي أن يذهب إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم، فلما وقع في ظهراني المسلمين، قال إني مسلم فجاء أبوه، فقال: إنما كتبنا الكتاب الساعة، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يا رسول الله أليس الله حق وأنت نبيه؟ قال: بلى، قال: ونحن قوم مؤمنون؟ وهم كفار؟ قال بلى، قال فلم نُعْطِي الدنية في ديننا، قال إنما كتبنا الكتاب الساعة، فتحول عمر إلى أبي جندل فقال: يا أبا جندل إن الرجل يقتل أباه في الله، وإن دم الكافر لا يساوي دم كلب، وجعل عمر يقرب إليه سيفه كيما يأخذه ويضرب به أباه، فقال أبو جندل مالك لا تقتله أنت؟ فقال عمر: نهاني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، فقال: ما أنت بأحق بطاعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مني، لا أقتل أبي، فأخذ سهيل بن عمرو غصن من أغصان تلك الشجرة فضرب به وجه أبا جندل، والمسلمون يبكون، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلوا بينه وبين ابنه، فإن يعلم الله من أبي جندل الصدق ينجيه منهم، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لسهيل هبه لي فقال سهيل لا، فقال مكرز بن حفص قد أجرته يعني أمنته فآمنه حتى رده إلى مكة فأنجى الله تعالى أبا جندل من أيديهم بعد ما رجع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة، فخرج إلى شط البحر واجتمع إليه قريباً من سبعين رجلاً كرهوا أن يقيموا مع المشركين، وعلموا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لن يقبلهم حتى تنقضي المدة، فعمدوا إلى عير

لقريش مقبلة إلى الشام أو مدبرة فأخذوها، وجعلوا يقطعون الطريق على المشركين، فأرسل المشركون إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يناشدونه إلا قبضهم إليه، وقالوا له أنت في حل منهم، فالتحقوا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، فعلم الذين كرهوا الصلح أن الخير فيما رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، ثم أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه أن ينحروا البدن، ويحلقوا الرؤوس فلم يفعل ذلك منهم أحد، فدخل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أم سلمة فقال: ألا تعجبين، أمرت الناس أن ينحروا البدن ويحلقوا فلم يفعل أحد منهم، فقالت أم سلمة قم أنت يا رسول الله وانحر بدنك، واحلق رأسك فإنهم سيقتدون بك، فنحر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ البدن وحلق رأسه ففعل القوم كلهم، فحلق بعضهم وقصر بعضهم، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، يرحم الله المحلقين، فقالوا والمقصرين يا رسول الله، فقال يرحم الله المحلقين والمقصرين، فرجع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة فنزل (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً) إلى قوله (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ) يعني السكون والطمأنينة في البيعة في قلوب المؤمنين ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ يعني تصديقاً مع تصديقهم الذي هم عليه، ويقال تصديقاً بما أمرهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في البيعة، ويقال يعني إقراراً بالفرائض مع إقرارهم بالله تعالى، وروي عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ) قال يعني الرحمة (فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً) قال إن الله تعالى بعث رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، كما قال (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ) فلما صدقوا بها زادهم الصلاة، فلما صدقوا بها زادهم الزكاة، فلما صدقوا بها زادهم الصوم، فلما صدقوا بها زادهم الحج، فلما صدقوا به زادهم الجهاد، يعني إن في كل ذلك يزيد تصديقاً مع تصديقهم[1]، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فجنود السموات الملائكة، وجنود الأرض المؤمنون من الجن والإنس ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً﴾ بخلقه ﴿حَكِيماً﴾ في أمره حيث حكم بالنصر للمؤمنين يوم بدر.

لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

قوله عز وجل ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ يعني المصدقين والمصدقات ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ يعني من تحت غرفها وأشجارها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني دائمين مقيمين لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يعني يمحو ويتجاوز عن سيئاتهم، يعني عن ذنوبهم ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٧١ وعزاه لابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

في الآخرة أي نجاة وافرة من العذاب ثم قال ﴿وَيعذب الْمُنَـافِقِينَ وَالْمُنَافِقَـاتِ﴾ يعني ولكن يعذب المنـافقين والمنافقات من أهل المدينة ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ من أهل مكة ﴿وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ الذين أقاموا على عبادة الأصنام، قوله ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ وظنهم ترك التصديق بالله تعالى ورسوله مخافة ألا ينصر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما قال تعالى (بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ) ثم قال ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ يعني عاقبة العذاب والهـزيمة ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ يعني بئس المصير الذي صاروا إليه قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً﴾ بالنقمة لمن مات على كفره ونفاقه ﴿حَكِيماً﴾ في أمره وقضائه حكم بالنصرة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾ يعني بعثناك شاهداً بالبلاغ إلى أمتك ﴿وَمُبَشِّراً﴾ لمن أجابك بالجنة ﴿وَنَذِيراً﴾ يعني مخـوفاً للكفـار بالنـار ﴿لِتُؤْمِنُـوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني لتصدقوا بالله فيما يأمركم، وتصدقوا برسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ يعني لكي تعينوه وتنصروه على عدوه بالسيف ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي تعظموا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ يعني تصلوا لله تبارك وتعالى ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ يعني غدوة وعشياً، فكأنه قال: لتؤمنوا بالله وتسبحوه، وتؤمنوا برسوله وتعزروه وتوقروه، قرأ ابن كثير وأبو عمرو (لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُعَزِّرُوهُ وَيُوَقِّرُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ) كلها بالياء على معنى الخبر عنهم، وقرأ الباقون بالتاء[1] على معنى المخاطبة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (دَائِرَةُ السُّوءِ) بضم السين، وقرأ الباقون بالنصب[2] كقولك: رجل سوء وعمل سوء، وقد روي عن ابن كثير وأبي عمرو بالنصب أيضاً.

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾

قوله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يعني يوم الحديبية تحت الشجرة، وهي بيعة الرضوان، قال الكلبي: بايعوا تحت الشجرة، وهي شجرة السَمرة[3] وهم يومئذ ألف وخمسمائة وأربعون رجلاً، وروى هشام عن محمد بن الحسن قال: كانت الشجرة أم غيلان ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ يعني كأنهم يبايعون الله، لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما بايعهم بأمر الله تعالى، ويقال (إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ) أي لأجله وطلب رضاه ثم قال ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم﴾ يعني يد الله بالنصرة والغلبة والمغفرة (فَوْقَ أَيْدِيهِم) بالطاعة، وقال الزجاج (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم) يحتمل ثلاثة أوجه

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٧١، النشر في القراءات العشر ٢/٣٧٥.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٨١.

(٣) السمرة بضم الميم من شجر الطلع. لسان العرب ٣/٢٠٩٢.

أحدها: يد الله فوق أيديهم بالوفاء، ويحتمل يد الله فوق أيديهم بالثواب، فهذان وجهان جاءا في التفسير، ويحتمل أيضاً: يد الله فوق أيديهم في المِنَّة عليهم وفي الهداية، فوق أيديهم في الطاعة ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ يعني نقض العهد والبيعة ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [يعني عقوبته على نفسه ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾ قرأ حفص برفع الهاء[1] أي وفي بما عاهد عليه من البيعة فيتم ذلك مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، يعني أوفى بما عاهد الله عليه][2] من البيعة والتمام في ذلك مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ في الجنة، قرأ نافع وابن كثير وابن عامر (فَسَنُؤْتِيهِ) بالنون والباقون بالياء[3]، وكلاهما يرجع إلى معنى واحد، يعني سيؤتيه الله ثواباً عظيماً قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ﴾ وهم أسلم وأشجع وعقار وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين خرج إلى مكة عام الحديبية، فاستتبعهم وكانت منازلهم بين مكة والمدينة، فقالوا فيما بينهم نذهب معه إلى قوم جاؤوه فقتلوا أصحابه فقاتلهم، فاعتلوا عليه بالشغل حتى رجع، فأخبر الله تعالى رسوله قبل ذلك أنه إذا رجع إليهم استقبلوه بالعذر وهم كاذبون، فقال (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ) يعني الدين تخلفوا عن بيعة الحديبية ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ يعني خفنا عليهم الضيعة ولولا ذلك لخرجنا معك ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ في التخلف ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني من طلب الاستغفار، وهم لا يبالون أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ يعني من يقدر أن يمنع عنكم من عذاب الله شيئاً ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ يعني قتلاً أو هزيمة ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾ يعني النصرة، قرأ حمزة والكسائي (ضُرًّا) بضم الضاد وهو سوء الحال، والمرض وما أشبه ذلك والباقون بالنصب[4] وهو ضد النفع، اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التقرير، يعني لا يقدر أحد على دفع الضر، ومنع النفع غير الله، ثم استأنف الكلام فقال ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ يعني عالماً بتخلفكم ومرادكم قوله عز وجل ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ﴾ يعني بل منعكم من السير معه لأنكم ظننتم أن لن ينقلب الرسول ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ من الحديبية ﴿إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يعني حُسن التخلف في قلوبكم ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ يعني حسبتم الظن القبيح ﴿وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً﴾ يعني هلكى، وروي عن ابن عباس أنه قال: البور في لغة أزد وعمان ـ الشيء الفاسد ـ والبور في كلام العرب: لا شيء، يعني أعمالهم بور، أي مبطلة قوله عز وجل ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني من لم يصدق بالله في السر كما صدقه في العلانية ﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً﴾ يعني هيأنا لهم عذاب السعير قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني خزائن السموات والأرض، ويقال ونفاذ الأمر في السموات والأرض ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ وهو فضل: منه المغفرة، ويعذب من يشاء على الذنب الصغير وهو عدل منه ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً﴾ لذنوبهم ﴿رَّحِيماً﴾ بهم.

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٨٢.

(٢) سقط في ظ.

(٣) انظر حجة القراءات ٦٧٢، إتحاف فضلاء البشر الموضع السابق.

(٤) حجتهم في الآية وذلك أنه ذكر النفع وهو ضد الضر، وهو قوله تعالى: ﴿إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً﴾ وهذا موضعه قالوا: لا نجد مقروناً بـ (نفع) إلا مفتوحاً وفي التنزيل: ﴿مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً﴾ وقال: ﴿لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً﴾ في غير موضع من القرآن. والضر بالضم هو السقم والبؤس والبلاء كقوله «مسني الضر ولم يقل (الضر). وحجتهما قوله: ﴿إن أرادنا الله بضر هل هن كاشفات ضره﴾ وقد أجمعوا على ضم الضاد ها هنا، فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. وقال قوم: هما لغتان كالفقر والفُقْر والضَعف والضُعف. حجة القراءات ٦٧٢ ـ ٦٧٣.

سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ يعني الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني إلى غنائم خيبر ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُم﴾ يعني اتركونا نتبعكم في ذلك الغزو ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ يعني يغيروا كلام الله، يعني ما قال الله لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تأذن لهم في غزاة أخرى، قرأ حمزة والكسائي (كَلِمَ اللَّهِ) وهو جمع بكلمة، والباقون (كَلَامَ اللَّهِ)[1] والكلام: اسم لكل ما يتكلم به ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ في المسير إلى خيبر إلَّا متطوعين من غير أن يكون لكم شرك في الغنيمة ﴿كَذَلِكُم قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يعني من قبل الحديبية ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ يعني يقولون للمؤمنين إن الله لم ينهكم عن ذلك بل تحسدوننا على ما نصيب معكم من الغنائم، قال الله تعالى ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي لا يعقلون ولا يرغبون في ترك النفاق لا قليلاً ولا كثيراً، ويقال بل كانوا لا يفقهون النهي من الله تعالى إلا قليلاً منهم قوله عز وجل ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ﴾ يعني الذين تخلفوا عن الحديبية مخافة القتال ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعني قتال شديد، قال بعضهم: يعني قتال أهل اليمامة بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، قاتلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقال مجاهد: (إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ) يعني أهل الأوثان[2]، وقال أيضاً هم أهل فارس وكذا قال عطاء، وقال سعيد بن جبير: هوازن وثقيف[3]، وقال الحسن: فارس والروم ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ قرأ بعضهم (أَوْ يُسْلِمُوا) بألف من غير نون، وقراءة العامة بالنون[4]، فمن قرأ (أَوْ يُسْلِمُوا) يعني حتى يسلموا أو إلى أن يسلموا، ومن قرأ بالنون فمعناه: تقاتلونهم أو هم يسلمون ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾ يعني تجيبوا وتوقعوا القتال، وتخصلوا لله تعالى ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً﴾

---

(١) حجتهم إجماع الجميع على قوله ﴿يسمعون كلام الله﴾ و﴿حتى يسمع كلام الله﴾ فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه. انظر حجة القراءات ٦٧٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٧٣ وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٧٣ وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والبيهقي.

(٤) انظر تفسير القرطبي ١٦/١٨٠.

يعني ثواباً حسناً في الآخرة ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني تعرضوا عن الإجابة كما أعرضتم يوم الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ يعني شديداً دائماً، فلما نزلت هذه الآية قال أهل الزمانة والضعفاء فكيف بنا إذا دعينا إلى قتالهم ولا نستطيع الخروج، فيعذبنا الله؟ فنزل قوله ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ﴾ وهذا قول الكلبي، وقال مقاتل: نزل العذر في الذين تخلفوا عن الحديبية (لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ) يعني ليس عليهم إثم في التخلف ﴿وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ﴾ يعني إثم ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الغزو، ويقال: ومن يطع الله ورسوله في الغزو في السر والعلانية ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ وقد ذكرناه ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ يعني يعرض عن ذلك، يعني عن طاعة الله ورسوله بالتخلف ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً﴾ يعني شديداً دائماً، قرأ نافع وابن عامر (نُدْخِلْهُ وَنُعَذِّبْهُ) كلاهما بالنون، والباقون كلاهما بالياء[1]، وكلاهما يرجع إلى معنى واحد قوله تعالى ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يعني شجرة السمرة، ويقال: أم غيلان، قال قتادة: بايعوهُ يومئذ وهم ألف وأربعمائة رجل، وكان عثمان يومئذ بمكة، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن عثمان في حاجة الله، وحاجة رسوله، وحاجة المؤمنين، ثم وضع إحدى يديه على الأخرى وقال هـذه بيعة عثمـان[2] ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي ما في قلوبهم من الصدق والوفاء وهذا قول ابن عباس، وقال مقاتل: فعلم ما في قلوبهم من الكراهية للبيعة على أن يقاتلوا ولا يفروا ﴿فَأَنْزَلَ﴾ الله ﴿السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني أنزل الله تعالى الطمأنينة والرضى عليهم ﴿وَأَثَابَهُمْ﴾ يعني أعطاهم ﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾ يعني فتح خيبر ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني يغنمونها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ حكم عليهم بالقتل والسبي، ويقال حكم الغنيمة للمؤمنين، والهزيمة للكافرين ثم قال ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ يعني تغنمونها، وهو ما أصابوا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، وبعده إلى يوم القيامة، وقال ابن عباس: هي هذه الفتوح التي تفتح لكم[3] ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني فتح خيبر، قرأ بعضهم (وَآتَاهُمْ) أي أعطاهم، وقراءة العامة (وأثابهم)[4] يعني كافأهم قوله تعالى ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ يعني أيدي أهل مكة ويقال: أسد وغطفان أرادوا أن يعينوا أهل خيبر فدفعهم الله عن المؤمنين، فصالحوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ألا يكونوا له ولا عليه ثم قال ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني عبرة للمؤمنين، وهو فتح خيبر، لأن المسلمين كانوا ثمانية آلاف، وأهل خيبر كانوا سبعين ألفاً ثم قال ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ يعني يرشدكم ديناً قيماً وهو دين الإسلام.

وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ

(١) انظر حجة القراءات ٦٧٤.

(٢) أخرجه أبو داود بنحوه ٣/٧٤ كتاب الجهاد (٢٧٢٦).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٧٥ وعزاه لابن جرير وابن مردويه.

(٤) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٨٢. تفسير القرطبي ١٦/١٨٣.

مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

ثم قال ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ يعني وعدكم الله غنيمة أخرى لم تقدروا عليها، يعني لم تملكوها بعد، وهو فتح مكة، ويقال هو فتح قرى فارس والروم ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ يعني علم الله أنكم ستفتحونها وتستغنمونها فجمعها وأحرزها لكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ من الفتح وغيره ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني كفار مكة يوم الحديبية، ويقال أسد وغطفان يوم خيبر ﴿لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ﴾ منهزمين ﴿ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً﴾ يعني قريباً ينفعهم ولا مانعاً يمنعهم من الهزيمة قوله عز وجل ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني هكذا سنة الله بالغلبة والنصرة لأوليائه، والقهر لأعدائه ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ يعني تغييراً وتحويلاً ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُم عَنْكُمْ﴾ يعني أيدي أهل مكة ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ يعني أيديكم عن أهل مكة من بعد أن أظفركم عليهم وذلك أن جماعة من أهل مكة خرجوا يوم الحديبية يرمون المسلمين، فرماهم المسلمون بالحجارة، حتى أدخلوهم بيوت مكة، وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال: طلع قوم وهم ثمانون رجلاً على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، من قبل التنعيم عند صلاة الصبح ليأخذوه، فأخذهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُم عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُم عَنْهُمْ ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾[1] يعني بوسط مكة ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُم عَلَيْهِمْ﴾ يعني سلطكم عليهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ بحرب بعضكم بعضاً.

قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: جحدوا بوحدانية الله تعالى ﴿وَصَدُّوكُم عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أن تطوفوا به ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً﴾ يعني: محبوساً، يقال عكفته عن كذا إذا حبسته، ومن العاكف في المسجد لأنه حبس نفسه، يعني: صيروا الهدي محبوساً عن دخول مكة، وهي سبعون بدنة، ويقال: مائة بدنة ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ يعني: منحره، ومنحرة: منى للحاج، وعند الصفا للمعتمر ثم قال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾ بمكة ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أنهم مؤمنون، يعني لم تعرفوا المؤمنين من المشركين ﴿أَنْ تَطَؤُوهُمْ﴾ يعني: تحت أقدامكم، ويقال فتضربوهم بالسيف ﴿فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ﴾ يعني: تلزمكم الدية ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني: بغير علم منكم لهم، ولا ذنب لكم، وذلك أن بعض المؤمنين كانوا مختلطين بالمشركين، غير متميزين ولا معروفي الأماكن، ثم قال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُم أَنْ تَطَؤُوهُمْ﴾ لو دخلتموها أن تقتلوهم ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ لو فعلتم فيصيبكم من قتلهم معرة، يعني يعيركم المشركون بذلك ويقولون قتلوا أهل دينهم، كما قتلونا، فتلزمكم الديات ثم قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي تميزوا من المشركين ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: لو تميزوا بالسيف، وقال القتبي: صار قوله (لعذبنا) جواباً لكلامين: أحدهما ـ لولا رجال مؤمنون، والآخر: لو تزيلوا: يعني: لو تفرقوا واعتزلوا يعني: المؤمنين من الكافرين ـ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ يعني: شديداً وهو القتل قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ﴾ وذلك أنهم قالوا قتل آباءنا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٧٥ وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

وإخواننا ثم أتانا يدخل علينا في منازلنا، والله لا يدخل علينا، فهذه الحمية التي في قلوبهم ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ يعني: طمأنينته ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأذهب عنهم الحمية حتى اطمأنوا وسكتوا ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ يعني: ألهمهم كلمة لا إله إلا الله[1] حتى قالوا ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ يعني: كانوا في علم الله تعالى أحق بهذه الكلمة من كفار مكة ﴿وَأَهْلَهَا﴾ يعني: وكانوا أهل هذه الكلمة عند الله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ يعني: عليماً بمن كان أهلاً لذلك وغيره.

لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالحَقِّ﴾ يعني: حقق الله تعالى رؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالوفاء والصدق، وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رأى في المنام قبل الخروج إلى الحديبية أنهم يدخلون المسجد الحرام، فأخبر الناس بذلك فاستبشروا، فلما صدهم المشركون، قالت المنافقون في ذلك ما قالت، فنزل لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ يعني: يصدق رؤياه بالحق ﴿لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ﴾ يعني: ما أخبر أصحابه أنهم يدخلون المسجد الحرام في العام الثاني، ويقال نزلت الآية بعد ما دخلوا في العام الثاني لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ يعني: ما أخبر أصحابه أنهم يدخلون المسجد الحرام ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ يعني: لتدخلن إن شاء الله آمنين، يعني بإذن الله وأمره، ويقال هذا اللفظ حكاية الرؤيا، وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حين رأى في المنام، رأى كأن ملكاً ينادي وهو يقول لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله، فأنزل الله تعالى لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالحَقِّ وهو قول الملك «لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ» من العدو ﴿مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ يعني: منهم من يحلق ومنهم من يقصر ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ العدو ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ قال مقاتل: فعلم أن يفتح عليهم خيبر قبل ذلك، فوعد لهم الفتح، ثم دخول مكة ففتحوا خيبر ثم رجعوا ثم دخلوا مكة وأتوا عمرة القضاء، وقال الكلبي في قوله «فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا» يعني: علم الله أنه سيكون في السنة الثانية، ولم تعلموا أنتم فلذلك وقع في أنفسكم ما وقع ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ يعني: فتح خيبر ثم قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى﴾ يعني: بالتوحيد شهادة أن لا إله إلا الله ﴿وَدِينِ الحَقِّ﴾ وهو الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ يعني: على الأديان كلها قبل أن تقوم الساعة فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام «وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً» بأن محمداً رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإن لم يشهد كفار مكة،

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٨٠ وعزاه لابن مردويه عن أبي هريرة.

وذلك حين أراد أن يكتب محمد رسول الله، فقال سهيل بن عمرو: إنا لا نعرف بأنك رسول الله ولا نشهد، قال الله عز وجل: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ وإن لم يشهد سهيل وأهل مكة، قال عز وجل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ بالغلظة ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُم﴾ يعني: متوادين فيما بينهم ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً﴾ يعني: يكثرون الصلاة ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾ يعني: يلتمسون من الحلال، وقال بعضهم «وَالَّذِينَ مَعَهُ» يعني: أبا بكر «أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ» يعني: عمر «رُحَمَاءُ بَيْنَهُم» يعني: عثمان «تَرَاهُم رُكَّعاً سُجَّداً» يعني: علياً رضوان الله عليهم أجمعين «يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً» يعني: الزبير، وعبد الرحمن بن عوف ﴿سِيمَاهُم فِي وُجُوهِهِم﴾ يعني: علاماتهم وهي الصفرة في وجوههم ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ يعني: من السهر بالليل، ويقال يعرفون غراً محجلين يوم القيامة من أثر الوضوء، وقال مجاهد (سِيمَاهُم فِي وُجُوهِهِمْ) قال: الخشوع والوقار[١]، وقال منصور: قلت لمجاهد أهذا الذي يكون بين عيني الرجل؟ قال: إن ذلك قد يكون للرجل وهو أقسى قلباً من فرعون ثم قال: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُم فِي التَّوْرَاةِ﴾ يعني: هذا الذي ذكره من نعتهم وصفتهم في التوراة، ثم ذكر نعتهم في الإنجيل فقال: ﴿وَمَثَلُهُم فِي الإنْجِيلِ﴾ يعني: مثل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: مثلهم في التوراة والإنجيل واحد، قال (مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُم فِي الإنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ) قرأ ابن كثير وابن عامر شَطَأَهُ بنصب الشين والطاء والباقون بنصب الشين[٢] وجزم الطاء، ومعناهما واحد، وهو فراخ الزرع، وقال مجاهد: شطأه يعني: قوائمه[٣] قرأ ابن عامر ﴿فَأَزَرَهُ﴾ بغير مد والباقون بالمدة[٤] ومعناهما واحد، يعني: قواه ومنه قوله عز وجل «أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي» يعني: قوى به ظهري، ويقال (كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ يعني: سنبله فَآزَرَهُ يعني: أعانه وقواه ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ يعني: غلظ الزرع واستوى ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ وهو جماعة الساق ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ يعني: الزارع إذا نظر في زرعه بعدما استغلظ واستوى يعجبه ذلك، فكذلك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، تبعه أبو بكر ثم تبعه عمر، ثم تبعه واحد بعد واحد من أصحابه، حتى كثروا ففرح النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك لكثرتهم ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ يعني: أهل مكة يكرهون ذلك لما رأوا من كثرة المسلمين وقوتهم، وروى خيثمة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرئهم القرآن في المسجد، فأتى على هذه الآية «كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ» فقال: أنتم الزرع وقد دنا حصادكم[٥]، ويقال كَزَرْعٍ يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم «أَخْرَجَ شَطْأَهُ» يعني: أبا بكر «فَآزَرَهُ» يعني: أعانه عمر على كفار مكة «فَاسْتَغْلَظَ» يعني: تقوى بنفقة عثمان «فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ» يعني: قام على أمره علي بن أبي طالب يعينه وينصره على أعدائه (يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ) يعني: طلحة والزبير، وكان الكفار يكرهون إيمان طلحة والزبير لشدة قوتهما، وكثرة أموالهما ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾ يعني: لهم، ويقال فيما بينهم وبين ربهم، ويقال: مِنْ: ها هنا لإبانة الجنس يعني: وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم، أي من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿مَغْفِرَةً﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْراً عَظِيماً﴾ يعني: ثواباً وافراً في الجنة (روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «من قرأ سورة الفتح فكأنما شهد فتح مكة مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٦] والله سبحانه أعلم.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٨٢ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن نصر وابن جرير

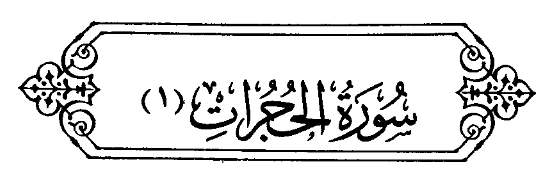
(٢) انظر حجة القراءات ٦٧٤. النشر في القراءات العشر ٢/٣٧٥.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٨٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٤) المصدران السابقان.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٨٣ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي في سننه.

(٦) سقط في ظ.



وهي ثمان عشرة آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ①﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يقال (يـا) نداء و(هـا) تنبيه و(الَّذِينَ) إشارة و(آمَنُوا) مدحه وروي عن الضحاك أنه كان يقرأ (لَا تَقَدَّمُوا) بنصب التاء والدال، وقراءة العامة (لَا تُقَدِّمُوا) برفع التاء وكسر الدال[٢]، فمن قرأ بالنصب فهو في الأصل: لا تتقدموا، فحذفت إحدى التاءين لتكون أخف، ومن قرأ بالضم فهو: من قدم تقدم، يقال فلان تقدم بين يدي أبيه، وبين يدي الإمام، يعني تعجل بالأمر وانتهى دونه، يعني لا تقدموا الكلام بين يدي الله ورسوله، ومعناه لا تقولوا قبل أن يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال معناه: إذا أمرتم بأمر فلا تفعلوه قبل الوقت الذي أمرتم به، وقال الحسن: إن قوماً ذبحوا قبل أن يصلي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم النحر، فأمرهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يذبحوا آخر فنزل «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ»[٣] وقال مسروق كنا عند عائشة يوم الشك فأُتي بلبن فناولتني، فقلت إني صائم، فقالت عائشة رضي الله عنها وقد نهي عن هذا، وقرأت هذه الآية، وقالت هذه الآية نزلت في الصوم وغيره، وقال مقاتل نزلت الآية في ثلاثة نفر وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث سرية وأمر عليهم المنذر بن عمرو، فخرج بنو عامر بن صعصعة عند بئر معونة فرصدوهم على الطريق وقتلوهم فرجع ثلاثة منهم، فلما

---

(١) تتعلق أغراض هذه السورة بحوادث جدت متقاربة كانت سبباً لنزول ما فيها من أحكام وآداب. وأولها تعليم المسلمين بعض ما يجب عليهم من الأدب مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في معاملته وخطابه وندائه، دعا إلى تعليمهم إياها ما ارتكبه وفد بني تميم من جفاء الأعراب لما نادوا والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بيوته كما سيأتي عند قوله تعالى: **﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾**. ووجوب صدق المسلمين فيما يخبرون به، والتثبت في نقل الخبر مطلقاً وأن ذلك من خلق المؤمنين، ومجانبة أخلاق الكافرين والفاسقين، وتطرق إلى ما يحدث من التقاتل بين المسلمين، والإصلاح بينهم لأنهم إخوة، وما أمر الله به من آداب حسن المعاملة بين المسلمين في أحوالهم في السر والعلانية، وتخلص من ذلك إلى التحذير من بقايا خلق الكفر في بعض جفات الأعراب تقويماً لأود نفوسهم.

وقال فخر الدين عند تفسير قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾** هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إما مع الله أو مع رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو مع غيرهما من أبناء الجنس، وهم على صنفين: إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة أو خارجين عنها وهو الفسوق والداخل في طائفتهم: إما أن يكون حاضراً عندهم أو غائباً عنهم فهذه خمسة أقسام، قال: فذكر الله في هذه السورة خمس مرات: **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** وأرشد بعد كل مرة إلى مكرمة من قسم من الأقسام الخمسة، وسنأتي على بقية كلامه عند تفسير الآية الأولى من هذه السورة. التحرير ٢٦/٢١٣ ـ ٢١٤.

(٢) قراءة الفتح للضحاك ويعقوب الحضرمي، انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٨٥. تفسير القرطبي ١٦/١٨٩.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٨٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

دنـوا إلى المدينة خرج رجلان من بني سليم صلحاً لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وقد كان أهداهمـا، وكساهما فقالا نحن من بني عامر، لأن بني عامر كانوا أقرب إلى المدينة، فقتلوهما وأخذوا من ثيابهما وجاؤوا بها إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» يعني: لا تعجلوا بقتل ولا بأمر حتى تستأمروا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وروي عن الحسن في رواية أخرى، أنه قال لا تعملوا بخلاف الكتاب والسنة، ثم قال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني: اخشوا الله عز وجل فيما يأمركم وينهاكم، ولا تخالفوا أمر الله ورسوله وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني: سميع الدعاء عليم بخلقه، ويقال: سميع لقول المستأمنين، عليم بنيات الذين قتلوهما، وفي الآية بيان رأفة الله عز وجل على عباده حيث سماهم مؤمنين مع معصيتهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم يقل يا أيها الذين عصوا، وقد ذكرنا من قبل أن النداء على ست مراتب وهذا نداء مدح قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكم فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ نزلت في وفد بني تميم قدموا على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم سبعون أو ثمانون منهم الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وعطارد بن الحجاب وذلك حين قالوا ائذن لشاعرنا وخطيبنا في الكلام، فعلت الأصوات واللغط، فنزلت الآية ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُم فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ويقال نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وكان في أذنه وقر، فكان إذا تكلم رفع صوته، ثم قال: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُم لِبَعْضٍ﴾ يعني: لا تدعوه باسمه كما يدعو الرجل الرجل منكم باسمه، ولكن عظموه ووقروه وقولوا: يا نبي الله، ويـا رسول الله ثم قـال: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُم لَا تَشْعُرُونَ﴾ أن ذلـك يحبطها، يعني: إن فعلتم ذلك فتحبط حسناتكم، وقال بعضهم من عمل كبيرة من الكبائر حبط جميع ما عمل من الحسنات، واحتج بهذه الآية «أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ». ولكن نحن نقول: الكبيرة لا تبطل العمل ما لم يكفر، وإنما ذكر ها هنا إبطال العمل: لأن في ذلك استخفافاً بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ومن قصد الاستخفاف بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كفر، فلما نزلت هذه الآية دخل ثابت بن قيس بيته وجعل يبكي ويقول أنا من أهل النار، فذكر ذلك للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فبعث إليه وقال إنك من أهل الجنة، بل غيرك من أهل النار» فقال يا رسول الله لا أتكلم بعد ذلك إلا سراً أو ما كان يشبه السر فنزل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُم عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ ـ صلى الله عليه وسلم ـ. روى ثابت عن أنس قال: لما نزل لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُم وكان ثابت بن قيس رفيع الصوت فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي، وحبط عملي، أنا من أهل النارِ وجلس في بيته يبكي، ففقده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فأخبروه بما قال، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل هو من أهل الجنة، فقال أنس: لكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة فكان فينا بعض الانكشاف فجاء ثابت بن قيس وقد تحنط ولبس كفنه فقال بئس ما تعودون أقرانكم، فقاتلهم حتى[1] قتل، ثم قال:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٨٤ وعزاه لأحمد والبخاري ومسلم وأبي يعلى في معجم الصحابة وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

«إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُم عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ» ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُم لِلتَّقْوَى﴾ يعني: أخلص الله قلوبهم، ويقال أصفى الله عز وجل قلوبهم للتقوى من المعصية، يعني: جعل قلوبهم موضعاً للتقوى ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي ثواب وافر في الجنة، يعني: يجعل ثوابهم في الدنيا، أن يخلص قلوبهم للتقوى، وفي الآخرة أجر عظيم.

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ﴾ فالحجرات: جمع الحجرة، يقال حجرة وحجرات مثل ظلمة وظلمات، وقرىء في الشاذ الحجَرات بنصب الجيم، وقرأة العامة بالضم،[1] ومعناهما واحد، نزلت الآية في شأن نفر من بني تميم، وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث أسامة بن زيد، فانتهى إلى قبيلة وكانت تسمى بني العنبر، فأغار عليهم وسبى زراريهم، فجاء جماعة منهم ليشتروا أسراهم، أو يفدوهم فنادوه وكان وقت الظهيرة وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الحجرة فنادوه من وراء الحجرة، وكان لأزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حجرات، فلما خرج النبي كلموه في أمر الزراري فقال لواحد منهم احكم، فقال: حكمت أن تخلى نصف الأسارى وتبيع النصف منا، ففعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت الآية إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ ﴿أَكْثَرُهُم لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُم صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِم لَكَانَ خَيْراً لَهُم﴾ لأنهم لو لم ينادوه لكان يعتقهم كلهم وروى معمر عن قتادة أن رجلاً جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فناداه من وراء الحجرات فقال يا محمد: إِنَّ مَدْحِي زَيْن، وإن شَتْمِي شَيْن، فخرج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: وَيْلَكَ ذَلَّكَ اللَّهُ عز وجل فنزل[2] إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ الآية ثم قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم بعد التوبة قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُم فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ الآية نزلت في الوليد بن عقبة، بعثه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بني المصطلق ليقبض الصدقات، فخرجوا إليه ليبجلوه ويعظموه، فخشى منهم لأنه كان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فرجع إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: خرجوا إليَّ بأسلحتهم، ومنعوا مني الصدقات، وأطرحوني وأرادوا قتلي، فهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبعث لقتالهم. فجاؤوا إلى المدينة وقالوا يا رسول الله: لما بلغنا قدوم رسولك خرجنا نبجله ونعظمه فانصرف عنا، فاغتم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما فعل الوليد بن عقبة فنزل «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ» يعني: بحديث كذب، وبخبر كذب ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ يعني: وتعرفوا ولا تعجلوا ﴿أَنْ تُصِيبُوا﴾ يعني: كيلا تصيبوا ﴿قَوْماً بِجَهَالَةٍ﴾ وأنتم لا تعلمون بأمرهم

---

(١) قرأ أبو جعفر بفتح الجيم. انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٨٥ ـ ٤٨٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٨٦ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير.

﴿فَتُصْبِحُوا﴾ يعني: فتصيروا ﴿عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ قرأ حمزة والكسائي «فَتَثَبَّتُوا» بالثاء، وقرأ الباقون «فَتَبَيَّنُوا»[1] مثل ما في سورة النساء، ثم قال للمؤمنين رضي الله عنهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُم رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُم فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ﴾ يعني: ما أمرتم به، لأن الناس كانوا قد حرضوه على إرسالهم لقتال بني المصطلق ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ يعني: لأثمتم، وروى أبو نضرة[2] عن أبي سعيد الخدري أنه قرأ هذه الآية «لَوْ يُطِيعُكُم فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمرِ لَعَنِتُّمْ» يعني: هذا نبيكم وخياركم لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم فكيف بكم اليوم[3]، ويقال: لعنتم أي لهلكتم، وأصله من عنت البعير إذا انكسرت رجله، ثم ذكر لهم النعم فقال ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾ يعني؛ جعل حب الإيمان في قلوبكم ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يعني: حسنه للثواب الذي وعدكم، ويقال: دلكم عليه بالحجج القاطعة، ويقال: زينه في قلوبكم بتوفيقه إياكم لقبوله ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُم الكُفْرَ والفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ﴾ يعني: بغض إليكم المعاصي والكفر. لما بينه من العقوبة. ثم قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ يعني: المهتدون، فذكر أول الآية على وجه المخاطبة، وآخر الآية بالمغايبة، ثم قال أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ليعلم أن جميع من كان حاله هكذا، فقد دخل في هذا المدح، وفي الآية دليل أن من كان مؤمناً فإنه لا يحب الفسوق والمعصية، لأن الله تعالى قال «وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ والفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ» والمؤمن إذا ابتلي بالمعصية فإن شهوته وغفلته تحمله على ذلك، لا لحبه للمعصية ثم قال، أي ذلك التحبيب والتبغيض[4] ﴿فضلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً﴾ يعني: كان الإيمان الذي حببه إليكم، والكفر الذي بغضه إليكم كان فضلاً من الله ونعمة يعني رحمة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره وقضائه.

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - خرج إلى الأنصار ليكلمهم في أمر من الأمور، وهو على حماره فبال الحمار وهو راكب عليه يكلم الأنصار، فقال عبد الله بن أُبيّ المنافق: خل للناس سبيل الريح من نتن هذا الحمار، ثم قال أف وأمسك على أنفه، فشق على النبي - صلى الله عليه وسلم - قوله، فانصرف عبد الله بن رواحة، فقال: اتقوا هذا، لحمار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والله لبوله أطيب ريحاً منك، فاقتتلا، فاجتمع قوم ابن رواحة وهم الأوس، وقوم عبد الله بن أبي وهم الخزرج، فكان بينهم ضرب النعال والأيدي والسعف، ورجع النبي - صلى الله عليه وسلم - فأصلح بينهم، فأنزل الله تعالى «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا» بالعدل، فكره بعضهم الصلح فنزل قوله ﴿فَإِنْ بَغَتْ

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٨٦.

(٢) المنذر بن مالك بن قطعة العبدي البصري أبو نضرة مشهور بكنيته ثقة. انظر التقريب ٢/٢٧٥.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٨٩ وعزاه لعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن مردويه عن أبي نضر.

(٤) سقط في ظ.

﴿إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى﴾ يعني: استطالت فلم ترجع إلى الصّلح ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ يعني: تظلم ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ يعني: ترجع إلى ما أمر الله عز وجل، وروى أسباط عن السدي قال: كانت امرأة من الأنصار يقال لها أم زيد، فأبغضت زوجها، وأرادت أن تلحق بأهلها وكان قد جعلها في غرفة له، وأمر أهله أن يحفظوها، وخرج إلى حاجة له، فأرسلت إلى أهلها، فجاء ناس من أهلها وأرادوا أن يذهبوا بها فاقتتلوا بالنعال والتلاطم، فنزل قوله تعالى: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا»[١] الآية ثم صارت الآية عامة في جميع المسلمين، إذا اقتتل فريقان من المسلمين وجب على المؤمنين الإصلاح بين الفريقين، فإن ظهر أن أحد الفريقين ظالم، فإنه يقاتل ذلك الفريق حتى يرجع إلى حكم الله ثم قال: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ يعني؛ رجعت إلى الصلح ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ﴾ يعني: بالحق ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ يعني؛ أعدلوا بين الفريقين ولا تميلوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ يعني: العادلين ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ يعني: كالأخوة في التعاون، لأنهم على دين واحد، كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «الْمُؤْمِنَ للمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعْضاً[٢]» وَرُوِي عنه أنه قال «الْمُؤْمِنُونَ كَعُضْوٍ وَاحِدٍ إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ تَدَاعَى سَائِر الأَعْضَاءِ إِلى الحُمَّى وَالسَّهَرِ[٣]» (ثم قال ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم﴾ يعني: الفريقين من المؤمنين مثل الأوس والخزرج فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم)[٤] قرأ ابن سيرين إِخْوَانِكُم بالنون، وقرأ يعقوب الحضرمي بَيْنَ إِخْوَتِكُم بالتاء، يعني جمع الأخ، وقراءة العامة أَخَوَيْكُم بالياء[٥] على تثنية الأخ، يعني: بين كل أخوين ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾ يعني اخشوا الله عز وجل ولا تعصوه لكي ترحموا فلا تعذبوا قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ﴾ يعني: لا يستهزىء الرجل من أخيه، وقال بعضهم: الآية نزلت في ثابت بن قيس، حيث عير الذي لم يوسع له في المكان، وقال بعضهم: الآية نزلت في الذين ينادونه من وراء الحجرات، استهزؤوا من ضعفاء المسلمين: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُم﴾ يعني: أفضل منهم وأكرم على الله تعالى: ﴿وَلاَ نِسَاءٌ مِن نِسَاءٍ﴾ يعني: لا تستهزىء امرأة من امرأة، وذلك أن عائشة رضي الله عنها قالت إن أم سلمة جميلة لولا أنها قصيرة ﴿عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ﴾ يعني أفضل، ثم صارت الآية عامة في الرجال والنساء، فلا يجوز أحد أن يسخر من صاحبه، أو من أحد من خلق الله تعالى، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: البلاء موكل بالقول لو سخرت من كلب خشيت أن أكون مثله ثم قال: ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني: لا يطعن بعضكم بعضاً، وقال القتبي: ولا تغتابوا إخوانكم من المسلمين لأنهم كأنفسكم، كما قال «ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِم خَيْراً» يعني بأمثالهم ثم قال ﴿وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ يعني: لا تسموا باللقب، وقال محمد بن كعب القرظي: هو الرجل يكون على دين من الأديان فيسلم فيدعونه بدينه الأول، يا يهودي ويا نصراني، ويقال: لا تعيروا المسلم بالملة التي كان عليها، ولا تسموه بغير دين الإسلام، وقال أهل اللغة[٦]: الألقاب والأنباز واحد، ومنه قيل في الحديث: قوم نَبزُهم الرافضة أي لقبهم (وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ) أي لا تداعوا بها، ويقال: هو اللقب الذي يكرهه الرجل، يعني أنه ينبغي للمؤمن

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٩٠ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه البخاري ١٠/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠ كتاب الأدب (٦٠٢٦) ومسلم ٤/ ١٩٩٩ كتاب البر (٦٥/ ٢٥٨٥).

(٣) أخرجه البخاري ١٠/ ٤٣٨ كتاب الأدب (٦٠١١) ومسلم ٤/ ١٩٩ كتاب البر (٦٦/ ٢٥٨٦).

(٤) سقط في ظ.

(٥) حجة من قرأ بالتاء أن الطائفة جمع وإن كان واحداً في اللفظ كما قال «خصمان اختصموا» وقال ها هنا قبلها «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا» على المعنى لا على اللفظ. انظر حجة القراءات ٦٧٥ إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٨٦.

(٦) قرأ «ولا تلمزوا» بضم الميم يعقوب ووافقه الحسن. انظر إتحاف فضلاء البشر الموضع السابق.

أن يخاطب أخاه بأحب الأسماء إليه، وقرأ بعضهم «وَلاَ تَلْمِزُوا» بضم الميم، وقراءة العامة بالكسر، وهما لغتان، يقال لمز فلان فلاناً يلمز ويلمزه إذا عابه، وذكر في التفسير أن الآية نزلت في مالك بن أبي مالك، وعبد الله بن أبي حدرد، وذلك أن أبا مالك كان على المقاسم، فقال لعبد الله بن أبي حدرد الأسلمي: يا أعرابي، فقال له عبد الله يا يهودي، فأمرهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدخلا عليه حتى تظهر توبتهما، فنزل ﴿بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمانِ﴾ يعني: بئس التسمية لإخوانكم بالكفر وهم مؤمنون ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ من قوله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. فأوثقا أنفسهما حتى قبلت توبتهما.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ﴾ يعني: لا تحققوا الظن: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ يعني: معصية، أي إنَّ ظن السوء بالمسلم معصية، وقال سفيان الثوري: الظن ظنان، ظن فيه إثم، وظن لا إثم فيه، فالظن الذي فيه إثم: أن يظن ويتكلم به، وأما الظن الذي لا إثم فيه: فهو أن يظن ولا يتكلم به، لأنه قال (إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) ولم يقل جميع الظن إثم ثم قال: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾ يعني: لا تطلبوا ولا تبحثوا عن عيب أخيكم ﴿وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ روى أسباط عن السدي قال: كان سلمان الفارسي في سفر مع ناس فيهم عمر، فنزلوا منزلاً فضربوا خيامهم، وصنعوا طعامهم، ونام سلمان فقال بعض القوم لبعض: ما يريد هذا العبد إلا أن يجد خياماً مضروبة، وطعاماً مصنوعاً، فلما استيقظ سلمان قالوا له: انطلق إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتمس لنا إداماً نأتدم به، فأتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال عليه السلام أخبرهم أنهم قد ائتدموا، فأخبرهم، فقالوا ما طعمنا بعد، وما كذب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فأتوه فقال: ائتدمتم من صاحبكم حين قلتم ما قلتم وهو نائم، ثم قرأ وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُم أَنْ يَأْكُلَ لَحمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[1] يعني: فكما تكرهون أكل لحمه ميتاً، فكذلك اجتنبوا ذكره بالسوء وهو غائب، ويقال: كان سلمان في سفر مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وكان يطبخ لهما فنزلوا منزلاً، فلم يجد ما يصلح لهم أمر الطعام، فبعثاه إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لينظر عنده شيئاً من الطعام، فقال أسامة: لم يبق عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيء من الطعام، فرجع إليهما فقالا إنه لو ذهب إلى بئر كذا ليبس ماؤها[2]، فنزلت هذه الآية، ويقال نزلت في شأن زيد بن ثابت،

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٧/٣٦٣. الدر المنثور ٦/٩٤.

(٢) ذهب قوم إلى أن الغيبة لا تكون إلا في الدين ولا تكون في الخلقة والحسب. وقالوا: ذلك فعل الله به. وذهب آخرون إلى عكس هذا فقالوا: لا تكون الغيبة إلا في الخَلْق والخُلُق والحسب. والغيبة في الخَلْق أشد، لأن من عيب صنعه فإنما عيب صانعها. وهذا كله مردود. أما الأول فيرده حديث عائشة حين قالت في صفية: إنها امرأة قصيرة، وقال لها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (لقد قلت كلمة لو مزج بها البحر لمزجته). خرجه أبو داود. وقال فيه الترمذي: حديث حسن صحيح، وما كان في معناه حسب ما=

وذلك أن نفراً ذكروا فيه شيئاً فنزل (وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُم بَعْضاً) قرأ نافع (مَيِّتاً) بتشديد الياء والخفض، والباقون بالجزم[١]، وقال أهل اللغة: الميت والميت واحد مثل ضيق وضيق، وهين وهين، ولين ولين ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الغيبة وتوبوا إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ يعني: قابل التوبة ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم بعد التوبة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قال مقاتل: وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما فتح مكة أمر بلالاً ليؤذن، فقال الحارث بن هشام أما وجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير هذا الغراب، يعني بلال فنزل يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ يعني: آدم وحواء ﴿وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وقَبَائِلَ﴾ يعني: رؤوس القبائل مثل مضر وربيعة، وقبائل يعني: الأفخاذ مثل بني سعد وبني عامر ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ في النسب ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم﴾ يعني: وإن كان عبداً حبشياً أسود مثل بلال، وقال في رواية الكلبي نزلت في ثابت بن قيس، كان في أذنيه ثقل، وكان يدنو من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليسمع كلامه، فأبطأ يوماً واحداً وقد أخذ الناس مجالسهم فجاء فتخطى رقابهم حتى جلس قريباً من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقال رجل من القوم هذا يتخطى رقابنا فلم لا يجلس حيث وجد المكان، فقال ثابت: من هذا؟ فقالوا فلان، فقال ثابت: يا ابن فلانة وكان يعير بأمه فخجل، فنزلت هذه الآية، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: من عير فلاناً بأمه؟ فقال ثابت بن قيس:[٢] أنا قد ذكرت شيئاً، فقرأ هذه الآية عليه فاستغفر ثابت، وروي سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: القبائل والأفخاذ الصغار، والشعوب: الجمهور مثل مضر، وقال الضحاك: الشعوب: الأفخاذ الصغار، والقبائل مثل بني تميم وبني أسد، وقال القتبي: الشعوب: أكثر من القبيلة وقال الزجاج: الشعب أعظم من القبيلة، ومعناه: إني لم أخلقكم شعوباً وقبائل لتتفاخروا وإنما خلقناكم كذلك لتعارفوا، روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ يقول عز وجل: إنكم جعلتم لأنفسكم نسبا وجعلت لنفسي نسباً[٣] فرفَعْتُم نَسَبَكُم وَوَضَعْتُمْ نَسَبي، فَالْيَوْمَ أَرْفَعُ نَسَبِي وَأَضَعُ نَسَبَكُم[٤]»، يعني: قلت إِنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم وَقلتم أنتم فلان وفلان ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأتقيائكم ﴿خَبِيرٌ﴾ بافتخاركم ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَا﴾ قال ابن عباس: نزلت في بني أسد، قدموا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قحط أصابهم، فجاؤوا بأهاليهم، وذراريهم يطلبون الصدقة، وأظهروا الإسلام، وقالوا يا رسول الله نحن أسلمنا طوعاً، وقدمنا بأهالينا فأعطنا من الغنيمة أكثر مما تعطي غيرنا، ويقال كانت قبيلتان، جهينة، ومزينة قدموا بأهاليهم فنزلت الآية «قالت الأعراب آمنا» يعني: صدقنا ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنوا﴾ يعني: لم تصدقوا في السر كما صدقتم

= تقدم. وإجماع العلماء قديماً على أن ذلك غيبة إذا أريد به العيب. وأما الثاني فمردود أيضاً عند جميع العلماء، لأن العلماء من أول الدهر من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتابعين بعدهم لم تكن الغيبة عندهم في شيء أعظم من الغيبة في الدين، لأن عيب الدين أعظم العيب، فكل مؤمن يكره أن يذكر في دينه أشد مما يكره في بدنه. وكفى رداً لمن قال هذا القول قوله عليه السلام: (إذا قلت في أخيك ما يكره فقد اغتبته) الحديث. فمن زعم أن ذلك ليس بغيبة فقد رد ما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نصاً. وكفى بعموم قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام) وذلك عام للدين والدنيا. وقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (من كانت عنده لأخيه مظلمة في عرضه أو ماله فليتحلله منه). فعم كل عرض، فمن خص من ذلك شيئاً دون شيء فقد عارض ما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ. انظر تفسير القرطبي ١٦/ ٢٢٠. وانظر ابن كثير الموضع السابق.

(١) هما لغتان الأصل التشديد، ومن خفف استثقل التشديد فحذف الباء كما قالوا: هين لين، وهين لين. انظر حجة القراءات ٦٧٧.

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٦/ ٢٢٢.

(٣) في أ [إني جعلت نسباً وجعلتم نسباً].

(٤) انظر تفسير القرطبي ١٦/ ٢٢٥.

في العلانية ﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنا﴾ يعني: دخلنا في الانقياد والخضوع، ويقال: استسلمنا مخافة القتل والسبي ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ فِي قُلُوبِكُم﴾ يعني: التصديق، ويقال: لم يدخل حب الإيمان في قلوبكم ﴿وَإِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في السر كما تطيعونه في العلانية ﴿لاَ يَلِتْكُم مِنْ أَعْمَالِكُـمْ شَيْئاً﴾ يعني: لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً، قرأ أبو عمرو (لاَ يَأْلِتْكُم) بالألف والهمز، والباقون (لاَ يَلِتْكُم) بغير ألف ولا همز[١]، ومعناهما واحد، يقال: لاته يلته، وألته يألته إذا نقص حقه. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لو صدقوا بقلوبهم ، ثم بين الله عز وجل لهم من المصدق.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

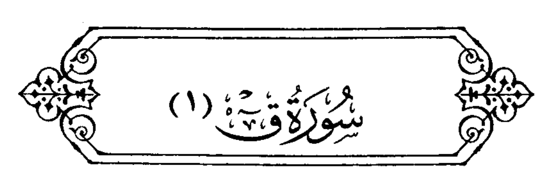
فقال عزوجل ﴿إِنَّما المُؤْمِنونَ﴾ يعني المصدقون في إيمانهم ﴿الَّذينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُونَ﴾ يعني لم يشكوا في إيمانهم ﴿وَجَاهَدُوا﴾ الأعداء ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في طاعة الله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم فلما نزلت هذه الآية أتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، فحلفوا بالله أنهم لمصدقوه في السر، فنـزل ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهِ بِدِينِكُم﴾ الذي أنتم عليه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْض﴾ يعني سر أهل السموات وسر أهل الأرض ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم ما في قلوبكم من التصديق وغيره قوله عز وجل ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ يعني بقولهم: جئناك بأهـالينا وأولادنـا ﴿قُل لاَّ تَمُنُّـوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَـلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ يعني وفقكم للإيمان ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنكم مخلصون في السر والعلانية قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني سر أهل السموات وسر أهل الأرض ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير وعاصم في رواية إبان (يَعْمَلُونَ) بالياء على معنى الخبر عنهم، وقرأ الباقون بالتاء[٢] على معنى المخاطبة، [أي بصير بما يعملون من التصديق وغيره، والخير والشر، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم][٣].

---

(١) حجة أبي عمرو إجماع الجميع على قوله «وما التناهم من عملهم» فرد ما اختلف فيه إلى ما أجمع عليه أولى وحجة الباقين اتباع مرسوم المصحف وذلك أنها مكتوبة بغير الألف، ولو كانت بألف لكتبت الألف كما تكتب في (تأمر وتأكل). وأخرى: أن في حرف ابن مسعود «وما لتناهم»، حكاه الكسائي. وأخرى وهي أنهم جمعوا بين اللغتين فقرأوا ها هنا «لا يلتكم» وفي (والطور): «وما ألتناهم كما قال: «كيف يبدىء الله الخلق» فهذه من (أبدأت، ثم قال: «كيف بدأ الخلق» فهذه من بدأت، ولم يحمل أحد بعض هذه اللغات على بعض فكذلك قوله: «لا يلتكم» من (لات)، «وما ألتناهم» من (ألت) و«لا يألتكم» جزم لأنها جواب الشرط، وعلامة الجزم سكون التاء. حجة القراءات ٦٧٧.

(٢) حجة من قرأ بالياء قوله قبلها ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا﴾ أي والله بصير بما يعمل المؤمنون. وحجة الباقين قوله تعالى قبلها ﴿لا تمنوا علي إسلامكم﴾ فخاطبهم ثم قال ﴿والله بصير بما تعملون﴾. انظر حجة القراءات ٦٧٧.

(٣) سقط في ظ.



وهي أربعون وخمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿قٓ﴾ قال قتادة هو اسم من أسماء الله تعالى. كقوله قادر وقاهر ويقال: هو اسم من أسماء القرآن، وقال مجاهد: هو افتتاح السورة، وقال بعضهم «ق» يعني قضي الأمر، كما قال في «حٰمٓ» حم الأمر، والدليل عليه قول الشاعر:

فقلت لها قفي قالت قاف.

يعني وقفت، فذكر القاف، وأراد به تمام الكلام، وقال ابن عباس: هو جبل من زمردة خضراء، محيط بالعالم، فخضرة السماء منها، وهي من وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من وراءه، والحجاب دون «ق» بمسيرة سنة، وما بينهما ظلمة وأطراف السماء ملتصقة بها، ويقال خضرة السماء من ذلك الجبل، ويقال «ق» يعني إن الله عز وجل قائم بالقسط، ثم قال ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ يعني الشريف وقال الضحاك: هو جبل محدق بالدنيا من زبرجدة خضراء، وخضرة السماء منها، ليس في الأرض بلدة من البلدان، ولا مدينة من المدائن، ولا قرية من القرى إلا وفيها عرق من عروقها، وملك موكل عليها واضع كفه بها، فإذا أراد الله عز وجل بقوم هلاكهم أوحى الله عز وجل إلى ذلك الملك، فحرك منها عرقاً فخسف بهم، فأقسم الله عز وجل بقاف والقرآن المجيد، يعني الشريف، إنكم لمبعوثون يوم القيامة، لأن أهل مكة أنكروا البعث فصار جواب القسم مضمراً فيه وهو ما ذكرناه:

---

(١) من أغراض هذه السورة

أولها: التنويه بشأن القرآن.

ثانيها: أنهم كذبوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه من البشر.

وثالثها: الاستدلال على إثبات البعث وأنه ليس بأعظم من ابتداء خلق السموات وما فيها وخلق الأرض وما عليها، ونشأة النبات والثمار من ماء السماء وأن ذلك مثل للإحياء بعد الموت.

الرابع: تنظير المشركين في تكذيبهم بالرسالة والبعث ببعض الأمم الخالية المعلومة لديهم، ووعيد هؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك.

الخامس: الوعيد بعذاب الآخرة ابتداء من وقت احتضار الواحد، وذكر هول يوم الحساب.

السادس: وعد المؤمنين بنعيم الآخرة.

السابع: تسلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على تكذيبهم إياه وأمره بالإقبال على طاعة ربه وإرجاء أمر المكذبين إلى يوم القيامة وأن الله لو شاء لأخذهم من الآن ولكن حكمة الله قضت بإرجائهم وأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكلف بأن يكرههم على الإسلام وإنما أمر بالتذكير بالقرآن.

الثامن: الثناء على المؤمنين بالبعث بأنهم الذين يتذكرون بالقرآن.

التاسع: إحاطة علم الله تعالى بخفيات الأشياء وخواطر النفوس. التحرير ٢٦/٢٧٥.

إنكم مبعوثون، ويجوز أن يكون جواب القسم ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ﴾ فيكون معناه: ق والقرآن المجيد، لقد علمنا ما تنقص الأرض، فحذف اللام لأن ما قبلها عوض عنها، كما قال ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ يعني لقد أفلح، وقال القتبي: هذا من الاختصار فكأنه قال: قٓ والقُرْآنِ المَجِيدِ لتبعثن.

بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾

قوله عز وجل ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ يعني من أهل مكة ﴿فَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ يعني أمر عجيب أن يكون محمد رسولاً وهو من نسبهم قوله تعالى ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً﴾ بعد الموت نجدد، بعدما متنا نصير خلقاً جديداً ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ يعني رد طويل لا يكون أبداً، ويقال رجع يرجع رجعاً، إذا رجعه غيره، ورجع يرجع رجوعاً إذا رجع بنفسه، كقوله صد يصد صدوداً، وصد يصد صداً، «ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» أي ذلك صرف بعيد، قوله تعالى ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ يعني ما تأكل الأرض من لحومهم وعروقهم، وما بقي منهم، ويقال: تأكل الأرض جميع البدن إلا العصعص، وهو عجب الذنب، وذلك العظم آخر ما يبقى من البدن، فأول ما يعود ذلك العظم، ويركب عليه سائر البدن ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ يعني اللوح المحفوظ قوله عز وجل ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالحَقِّ﴾ يعني كذبوا بالقرآن، وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم، والبعث ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي حين جاءهم ﴿فَهُمْ﴾ يعني قريش ﴿فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ يعني في قول مختلف ملتبس، المريج: أن يقلق الشيء فلا يستقر، ويقال: مرج الخاتم في يدي مرجاً: إذا قلق للهزال، وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال (فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ) أي من ترك الحق، يقال: من ترك الحق أمرج عليه رأيه والتبس عليه دينه، ثم دلهم على قدرته على بعثهم بعد الموت بعظيم خلقه الذي يدل على وحدانيته فقال ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ بغير عمد ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالكواكب ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ يعني شقوق وصدوع وخلل قوله تعالى ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ يعني بسطناها مسير خمسمائة عام من تحت الكعبة ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ يعني الجبال الثوابت، قوله ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ يعني حسن طيب من الثمار والنبات قوله تعالى ﴿تَبْصِرَةً﴾ يعني في هذا الذي ذكره من خلقه تبصرة لتبصروا به، ويقال: عبرة، ﴿وَذِكْرَى﴾ يعني تفكراً وعظة ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ يعني مخلص بالتوحيد، ويقال: راجع إلى ربه قوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّماءِ مَاءً مُبَارَكاً﴾ يعني المطر، فيه البركة، حياة لكل شيء ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ يعني البساتين ﴿وحب الحصيد﴾ يعني حين ما يخرج من سنبله، ويقال: ما يحصد وما لا يحصد كل ما كان له حب، ويقال هي الحبوب التي تحصد قوله عز وجل ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ يعني أطوال ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ يعني الكفري، نضيد يعني: مجتمع، يقال: نضد بعضه على بعض، ويقال ثمر منضود إذا كان متراكباً بعضه على بعض، ويقال إنما يسمى

نضيداً ما كان في الغلاف، ﴿رِزْقاً لِلْعِبَادِ﴾ يعني جعلناه طعاماً للخلق، يعني الحبوب والثمر ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ يعني بالماء ﴿بَلْدَةً مَيْتاً﴾ إذا لم يكن فيها نبات، فهذا كله صفات بركة المطر ثم قال ﴿كذلك الخروج﴾ يعني هكذا الخروج من القبر، كما أحييت الأرض الميتة بالنبات، فكذلك لما ماتوا وبقيت الأرض خالية أمطرت السماء أربعين ليلة كمني الرجل فدخل في الأرض، فتنبت لحومهم وعروقهم وعظامهم من ذلك ثم يحييهم، فذلك قوله (كذلك الخروج) ثم عزى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصبر على إيذاء الكفار يعني لا تحزن بتكذيب الكفار إياك لأنك لست بأول نبي وكل أمة كذبت رسلها مثل نوح وهود عليهم السلام وغيرهم فقال عز وجل

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ والرس: بئر دون اليمامة، وإن عليها قوماً كذبوا رسلهم فأهلكهم الله تعالى ﴿وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط﴾ يعني قومه ﴿وأصحاب الأيكة﴾ يعني قوم شعيب ﴿وقوم تبع﴾ يعني قوم حمير، ويقال: تبع كان اسم ملك، وروى وكيع عن عمران بن جرير عن أبي مجلز قال جاء عبد الله بن عباس، إلى عبد الله بن سلام فسأله عن تبع فقال: كان تبع رجلاً من العرب ظهر على الناس وسبا[1] على فتية من الأحبار، فكان يحدثهم ويحدثونه، فقال قومه إن تبعاً ترك دينكم، وتابع الفتية، فقال تبع للفتية: ألا ترون إلى ما قال هؤلاء؟ فقالوا: بيننا وبينهم النار التي تحرق الكاذب، وينجو منها الصادق، قال نعم، فقال تبع للفتية: ادخلوها، فتقلدوا مصاحفهم ثم دخلوها، فانفرجت لهم حتى قطعوها، ثم قال لقومه ادخلوها فلما دخلوا وجدوا حر النار، كفوا، فقال لهم لتدخلنها، فدخلوها فلما توسطوا، أحاطت بهم النار فأحرقتهم، وأسلم تبع وكان رجلاً صالحاً، ويقال كان اسمه سعد بن ملكي كرب، وكنيته أبو كرب ﴿كل كذب الرسل﴾ يعني جميع هؤلاء كذبوا رسلهم ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ يعني وجب عليهم عذابي، معناه: فاحذروا يا أهل مكة مثل عذاب الأمم الخالية فلا تكذبوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال عز وجل ﴿أَفَعَيِينَا بِالخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ قال مقاتل: يعني أعجزنا عن الخلق الأول حين خلقناهم ولم يكونوا شيئاً، [فكذلك نخلقهم ونبعثهم، أي ما عيينا عن ذلك، فكيف نعيي عن بعثهم، ويقال: معناه أعيينا خلقهم الأول ولم يكونوا شيئاً لأن الذي قد كان فإعادته أيسر في رأي العين، من الابتداء، يقال: عييت بالأمر إذا لم تعرف وجهه، وقال الزجاج: هذا تقرير تقرر لأنهم اعترفوا في الابتداء أن الله عز وجل خلقهم ولم يكونوا شيئاً، ثم قال ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعني في شك من البعث بعد الموت، ويقال بل أقاموا على شكهم قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ﴾ يعني جنس الإنسان، وأراد به جميع الخلق ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ يعني ما

---

(١) السبي والسباء. الأسر معروف سبى العدو وغيره سبياً وسباء إذا أسره فهو سبي انظر لسان العرب ١٩٣٢/٣.

يحدث به قلبه، ويتفكر في قلبه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعني في القدرة عليه، وحبل الوريد: عرق يخالط القلب ويقال هو العرق الذي داخل العنق، الذي هو عرق الروح فأعلمه الله تعالى أنه أقرب إليه من ذلك العرق، ويقال: الوريدان عرقان بين الحلقوم والعلباوين، والحبل هو الوريد، وأضيف إلى نفسه لاختلاف لفظي اسميه قوله عز وجل ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني يكتب الملكان عمله ومنطقه، يعني يتلقيان منه ويكتبان، وقال أهل اللغة: تلقى وتلقف بمعنى واحد ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ يعني عن يمين ابن آدم وعن شماله قاعدان، أحدهما عن يمينه. والآخر عن شماله، وصاحب اليمين موكل على صاحب الشمال، إثنان بالليل واثنان بالنهار، وكان في الأصل قعيدان ولكن اكتفى بذكر أحدهما فقال: قعيد ثم قال عز وجل ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ يعني ما يتكلم ابن آدم بقول ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ يعني عنده حافظ حاضر، وقال الزجاج: عتيد أي ثابت لازم قوله تعالى ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ يعني جاءت غمرته بالحق أنه كائن، ويقال: جاءت نزعات الموت بالحق، يعني بالسعادة والشقاوة، يعني يتبين له عند الموت، ويقال فيه تقديم ومعناه: جاءت سكرة الحق بالموت، روي عن أبي بكر الصديق أنه كان يقرأ «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الحَقِّ بِالمَوْتِ ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ يعني يقال له هذا الذي كنت تخاف منه وتكره، ويقال ذلك اليوم الذي كنت تفر منه ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يعني النفخة الأخيرة وهي نفخة البعث ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ يعني العذاب في الآخرة ﴿وَجَاءَتْ﴾ أي جاءت يوم القيامة ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ سائق: يسوقها إلى المحشر، ويسوقها إلى الجنة أو إلى النار، وشهيد: يعني الملك يشهد عليها، وقال القتبي: السائق هاهنا: قرينها من الشياطين يسوقها، سمي سائقاً لأنه يتبعها، والشهيد: الملك، ويقال: الشاهد أعضاؤه، ويقال: الليل والنهار والبقعة تشهد عليه، ويقال له ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ يعني من هذا اليوم فلم تؤمن به، وقد ظهر عندك بالمعاينة ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ يعني غطاء الآخرة، ويقال أريناك ما كان مستوراً عنك في الدنيا، ويقال: أريناك الغطاء الذي على أبصارهم، كما قال: «على أبصارهم غشاوة» حيث لم يعقلوا ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي نافذ، ويقال: شاخص بصره لا يطرف يديم النظر حين يعاين في الآخرة ما كان مكذباً به، ويقال حديد: أي حاد، كما يقال حفيظ يعني حافظ، وقعيد بمعنى قاعد، وقال الزجاج: هذا مثل ومعناه: إنك كنت بمنزلة من عليه غطاء فبصرك اليوم حديد، يعني علمك بما أنت فيه نافذ.

وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾

قوله عز وجل ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ يعني ملكه الذي كان يكتب عمله ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ يعني هذا الذي وكلتني به قد أتيتك به، وهو حاضر، يقول الله عز وجل: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ يعني يقول للملكين: ألقيا في جهنم ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وقال بعضهم هذا أمر للملك الواحد بلفظ الاثنين، وقال الفراء: يرى أصل هذا أن الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة نفر، فجرى كلام الواحد على صاحبيه، ألا ترى أن الشعراء أكثر شيء قيلاً: يا صاحبي، ويا خليلي، قال الشاعر: فقلت لصاحبي لا تحبساني، وأدنى ما يكون الأمر والنهي في الإعراب اثنان، فجرى كلامهم على ذلك، ومثل هذا قول

امرىء القيس: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل، ويقال «أَلْقِيَا فِي جَهَنَّم» على معنى تكرير الأمر يعني ألق ألق، وهو على معنى التأكيد، وكذلك في قوله: قفا معناه: قف قف، وقال الزجاج عندي أن قوله أَلْقِيَا أمر للملكين، وقال بعضهم الأمر للواحد بلفظ الإثنين واقع في إطلاق العرب، وكان الحجاج: يقول يا حرسي اضربا عنقه «كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ» يعني كل جاحد بتوحيد الله تعالى، معرض عن الإيمان، وقال مقاتل يعني الوليد بن المغيرة، ويقال: هذا في جميع الكفار الذين ذكر صفتهم في هذه الآية، وهي قوله ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ يعني بخيلاً لا يخرج حق الله من ماله، ويقال «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ» يعني يمتنع عن الإسلام ﴿مُعْتَدٍ مُرِيبٍ﴾ المعتدي: هو الظلوم الغشوم، والمريب: الشاك في توحيد الله تعالى قوله تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ يعني أشرك بالله عز وجل ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي العَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ يعني في النار ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ يعني شيطانه ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ يعني لم يكن لي قوة أن أضله ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ يعني في خطأ طويل بعيد عن الحق، يقول الله تعالى لابن آدم وشيطانه ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي لا تختصموا عندي ﴿وَقَد قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ يعني أخذت عليكم الحجة، وأخبرتكم بالكتاب والرسول ﴿مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ﴾ يعني لا يغير قضائي وحكمي الذي حكمت، ويقال: لا يكذب وعيدي ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ يعني لا أعذب أحداً بغير ذنب، ويقال «مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ» يعني لا يغير عن جهته، ولا يحذف منه، ولا يزاد فيه لأني أعلم كيف ضلوا، وكيف أضللتموهم، وروى سالم عن أبيه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة، قالوا: وإياك يا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ؟ قال وإياي، ولكن الله عز وجل أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير[1]، وعن الربيع عن أنس قال: سألت أبا العالية عن قوله عز وجل «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ» وها هنا يقول «لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ» فقال: لا تختصموا لدي، في أهل النار، والأخرى في المؤمنين في المظالم فيما بينهم، وقال مجاهد مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ يعني لقد قضيت ما أنا قاض[2] قوله عز وجل ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّم﴾ قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر يَقُولُ بالياء، يعني يقول الله تعالى، قرأ الباقون بالنون[3]، ومعناه كذلك يومَ صار نصباً على معنى مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ في ذلك اليوم، ويقال: على معنى أنذرهم يوم، كقوله وَأَنْذِرْهُم يَوْمَ الحَسْرَةِ ثم قال ﴿هَلِ امْتَلأْتِ﴾ يعني هل أوفيتك ما وعدتك، وهو قوله لأملأن جَهَنَّمَ ﴿فتقول﴾ النار ﴿هَلْ مِن مَزِيدٍ﴾ يعني هل من زيادة، وقال عطية: هل من موضع، ويقال معناه: هل امتلأت، أي قد امتلأت، فليس من مزيد، ويقال أنا طلبت الزيادة تغيظاً لمن فيها، وروى وكيع بإسناده عن أبي هريرة قال «لَا تَزَالُ جَهَنَّم تَسْأَلِ الزِّيَادةَ، حَتى يَضَع اللَّهُ فِيهَا قَدمه، فَتَقُولُ جَهَنَّم يَا رَبَّ قَط قَط» أي حسبي حسبي، وقال في رواية الكلبي نحو هذا، ويقال تضيق بأهلها حتى لا يكون فيها مدخل لرجل واحد، قال أبو الليث: قد تكلم الناس في مثل هذا الخبر، قال بعضهم نؤمن به ولا نفسره، وقال بعضهم نفسره على ما جاء بظاهر لفظه، وتأوله بعضهم، وقال معنى الخبر، بكسر القاف يضع قدمه، وهم أقوام سالفة فتمتلىء بذلك.

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ

(١) أخرجه مسلم ٤/٢١٦٧ كتاب صفات المنافقين (٦٩ ـ ٢٨١٤) وأحمد في المسند ١/٣٨٥، ٤٠١ والدر المنثور ٦/١٨ والطبراني في الدليل ١٠/٢٦٩ وابن كثير في التفسير ٤/٣٦١.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٠٦ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٣) حجتهم قبلها «وما أنا بظلام للعبيد» فقال: أنا فأخبر عن نفسه. انظر حجة القراءات ٦٧٧ ـ ٦٧٨.

وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾

قوله عز وجل ﴿وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ﴾ يعني قربت وأدنيت الجنة ﴿لِلمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الشرك والكبائر، ويقال زينت الجنة ثم قال عز وجل ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ يعني ينظرون إليها قبل دخولها، ويقال غَيْرَ بَعِيدٍ يعني دخولهم غير بعيد، فيقال لهم ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي مقبل إلى طاعة الله، حفيظ لأمر الله تعالى في الخلوات وغيرها، ويقال الأواب الحفيظ: الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها[1] وروى مجاهد عن عبيد بن عمير مثل هذا قوله عز وجل ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ﴾ يعني يخاف الله عز وجل، فيعمل بما أمره الله، وانتهى عما نهاه، وهو في غيب منه ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ يعني مقبلاً إلى طاعة الله مخلصاً، ويقال لهم ﴿آدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ ذكر في أول الآية بلفظ الواحدان، وهو قوله «وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ» ثم ذكر بلفظ الجماعة وهو قوله «آدخُلُوهَا» لأن لفظه من اسم جنس يقع على الواحد وعلى الجماعة، مرة تكون عبارة عن الجماعة، ومرة تكون عن الواحدان «آدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ» يعني بسلامة من العذاب والموت والأمراض والآفات ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الخُلُودِ﴾ أي لا خروج منه قوله عز وجل ﴿لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا﴾ يعني يتمنون فيها ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يعني زيادة على ما يتمنون، من التحف والكرامات، ويقال هو الرؤية، وكقوله «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ» ثم قال عز وجل ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ يعني قبل أهل مكة ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً﴾ يعني أشد من أهل مكة قوة ﴿فَنَقَّبُوا فِي البِلَادِ﴾ يعني طافوا وتقلبوا في أسفارهم وتجاراتهم، ويقال تغربوا في البلاد ﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ يعني هل من فرار، وهل من ملجأ من عذاب الله.

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

قوله عز وجل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ يعني فيما صنع لقومك ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ يعني عقل، لأنه يعقل بالقلب فكني عنه ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ يعني استمع إلى القرآن ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ يعني قلبه حاضر غير غائب عنه، وقال القتبي: وهو شهيد: يعني استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه، وروى معمر عن قتادة قال: لمن كان له قلب من هذه الأمة، أو ألقى السمع، قال رجل من أهل الكتاب: استمع إلى القرآن وهو شهيد على ما في يديه من كتاب الله تعالى[2]، وروي عن عمر أنه قرأ «فَنَقَبُوا» بالتخفيف يعني «فتبينوا» ونظروا، وذكروا،

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٠٧ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٠ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير.

ومنه قيل للعريف نقيب القوم، لأنه يتعرف أمرهم ويبحث عنهم، وقرأ يحيى بن يعمر[١] «فَنُقِبوا» بضم النون وكسر القاف يعني «تبينوا» وقرأ الباقون بالتشديد[٢]، يعني طوفوا، وقوله «هَل مِن مَحِيص» يعني هل من ملجأ من الموت قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ وذلك أن اليهود قالوا: لما خلق الله السموات والأرض وفرغ منهما، استراح في يوم السبت فنزل قوله وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُغُوبٍ﴾ يعني ما أصابنا من إعياء، وإنما يستريح من يعيى قوله عز وجل ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ من المنكر، وهو قولهم استراح ويقال فاصبر على ما يقولون من التكذيب، وقال في رواية الكلبي: نزلت في المستهزئين من قريش، وفي أذاهم للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُرُوبِ﴾ يعني صل لربك صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ يعني المغرب والعشاء ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ يعني صل له وهو المغرب والعشاء ﴿وَأدبار السجود﴾ يعني ركعتي المغرب، قرأ ابن كثير ونافع وحمزة وَإدبَارَ بكسر الألف، والباقون بالنصب[٣] فهو جمع الدبر، ومن قرأ بالكسر فعلى مصدر أدبر يدبر إدباراً، قال أبو عبيدة هكذا نقرأ يعني بالنصب، لأنه جمع الدبر، وإنما الإدبار هو المصدر، كقولك أدبر يدبر إدباراً، ولا إدبار للسجود، وإنما ذلك للنجوم قوله عز وجل ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ المُنَادِ﴾ قرأ أبو عمرو ونافع وابن كثير (المُنَادِي بالياء في الوصل، وهو الأصل في اللغة، والباقون بغير ياء[٤]، لأن الكسر يدل عليه، فاكتفى به، ومعنى الآية: اعمل واجتهد واستعد ليوم القيامة، يعني استمع صوت إسرافيل ﴿مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ يعني من صخرة بيت المقدس ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالحَقِّ﴾ يعني نفخة إسرافيل بالحق أنها كائنة، وقال مقاتل في قوله «مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ» قال: صخرة بيت المقدس، وهي أقرب الأرض من السماء بثمانية عشر ميلاً، وقال الكلبي باثنى عشر ميلاً ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الخُرُوجِ﴾ من قبورهم إلى المحاسبة، ثم إلى إحدى الدارين، إما إلى الجنة وإما إلى النار، وقال أبو عبيدة: يوم الخروج اسم من أسماء يوم القيامة، واستشهد بقول العجاج[٥]: أليس يوم سميت خروجاً: أعظم يوماً سميت عروجاً. قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ يعني نحيي في الآخرة، ونميت في الدنيا الأحياء، ويقال إنا نحن نحيي الموتى، ونميت الأحياء ﴿وَإِلَيْنَا المَصِيرُ﴾ يعني المرجع في الآخرة، يعني مصير الخلائق كلهم قوله عز وجل ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً﴾ يعني تصدع الأرض عنهم، قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «تَشَّقَّقُ» بتشديد الشين، والباقون بالتخفيف[٦]، لأنه لما حذف إحدى التائين ترك الشين على حالها، ثم قال «سِرَاعاً» يعني خروجهم من القبور سراعاً ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ يعني جمع الخلائق علينا هين ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ في البعث من التكذيب ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ يعني بمسلط، يعني لم تبعث لتجبرهم على الإسلام، وإنما بعثت بشيراً ونذيراً، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم قال ﴿فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ﴾ يعني فعظ بالقرآن بما وعد الله فيه ﴿مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ يعني من يخاف عقوبتي، وعذابي. والله أعلم.

---

(١) يحيى بن يعمر الوشقي العدواني أبو سليمان أول من نقط المصاحف كان عارفاً بالحديث والفقه ولغات العرب توفي سنة ١٢٩ هـ انظر الأعلام ٨/١٧٧.

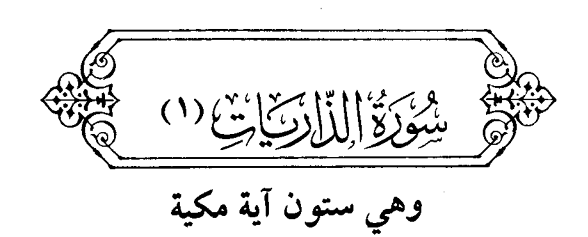
(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٨٩.

(٣) انظر حجة القراءات ٦٧٨، النشر في القراءات العشر ٢/٣٧٦.

(٤) حجة القراءات الموضع السابق. إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٩٠

(٥) عبد الله بن رؤبة بن لبيد بن صخر السعدي التميمي أبو الشعثاء من الشعراء توفي سنة ٩٠ هـ الأعلام ٤/٨٦.

(٦) المصدران السابقان.



سورة الذاريات (١)

وهي ستون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾

قوله تعالى ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً﴾ أقسم الله عز وجل بالرياح إذا أذرت ذرواً، وروى يعلى بن عطاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال الرياح ثمانية أربعة منها رحمة وأربعة منها عذاب فالرحمة منها الناشرات والمبشرات والذاريات والمرسلات وأما العذاب العاصف والقاصف والصرصر والعقيم وعن أبي الطفيل قال شهدت علياً رضي الله عنه وهو يخطب ويقول سلوني عن كتاب الله عز وجل فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بالليل أم بالنهار فسأله ابن الكواء فقال: له ما الذاريات ذرواً قال الرياح قال ﴿فَالْحَامِلاَتِ وِقْراً﴾ قال السحاب قال فما ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً﴾ قال السفن جرت بالتسيير على الماء ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾ قال الملائكة وعن ابن عباس رضي الله عنه قال والذاريات الرياح قال ما ذرت الريح فالحاملات وقراً يعني السحاب الثقال الموقرة من الماء فالجاريات يسراً يعني السفن جرت بالتسيير على الماء فالمقسمات أمراً[٢] يعني أربعة من الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت لكل واحد منهم أمر مقسوم وهم المدبرات أمراً، أقسم الله تعالى بهذه الآية ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني الذي توعدون من قيام الساعة ﴿لَصَادِقٌ﴾ يعني لكائن، ويقال في الآية مضمر فأقسم الله تعالى برب الذاريات يعني ورب الرياح الذاريات ورب السحاب الحاملات ورب السفن الجاريات ورب الملائكة المقسمات إنما توعدون لصادق ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ يعني المجازات على أعمالهم لواقع ثم بين في آخر الآية ما لكل فريق من الجزاء فبين جزاء أهل النار أنهم يفتنون وبين جزاء المتقين أنهم في جنات وعيون ثم قال عز وجل ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾[٣] أقسم بالسماء ذات الحسن والجمال وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه يعني ذات الخلق الحسن وقال مجاهد المتقن من البنيان

---

(١) من أغراض هذه السورة تحقيق وقوع البعث والجزاء. وإبطال مزاعم المكذبين به وبرسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورميهم لأنهم يقولون بغير تثبت. ووعيدهم بعذاب يفتنهم. ووعد المؤمنين بنعيم الخلد وذكر ما استحقوا به تلك الدرجة من الإيمان والإحسان. ثم الاستدلال على وحدانية الله والاستدلال على إمكان البعث وعلى أنه واقع لا محالة بما في بعض المخلوقات التي يشاهدونها ويحسون بها دالة على سعة قدرة الله تعالى وحكمته على ما هو أعظم من إعادة خلق الإنسان بعد فنائه وعلى أنه لم يخلق إلا لجزائه والتعريض بالإنذار بما حاق بالأمم التي كذبت رسل الله، وبيان الشبه التام بينهم وبين أولئك. وتلقين هؤلاء المكذبين الرجوع إلى الله وتصديق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونبذ الشرك ومعذرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تبعة إعراضهم والتسجيل عليهم بكفران نعمة الخلق والرزق. ووعيدهم على ذلك بمثل ما حل بأمثالهم. التحرير ٢٦/٣٣٥ ـ ٣٣٦.

(٢) سقط في أ.

(٣) حبك السماء: طرائقها وفي التنزيل «والسماء ذات الحبك» يعني ترائق النجوم واحدتها حبيكة. لسان العرب ٢/٧٥٨.

يعني البناء[١] المحكم ويقال الحبك يعني ذات الطرائق ويقال للماء القائم إذا ضربته الريح فصارت فيه الطرائق له حبك وكذلك الرمل إذا هبت عليه الريح فرأيت فيه كالطرائق فبذلك حبك قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ يعني متناقض مرة قالوا ساحراً ومرة قالوا مجنون والساحر عندهم من كان عالماً غاية في العلم، والمجنون من كان جاحداً غاية في الجهل فتحيروا فقالوا مرة مجنون ومرة ساحر ويقال إنكم لفي قول مختلف يعني مصدقاً ومكذباً يعني يؤمن به بعضهم ويكفر به بعضهم ثم قال عز وجل ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يعني يصرف عنه من صرف[٢] وذلك إن أهل مكة أقاموا رجالاً على عقاب مكة يصرفون الناس فمنهم من يأخذ بقولهم ويرجع ومنهم من لا يرجع فقال يصرف عنه من قد صرفه الله عن الإيمان وخذله، ويقال يصرف عنه من قد صرفه يوم الميثاق، ويقال يصرف عنه من كان مخذولاً لم يكن من أهل الإيمان.

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

ثم قال عز وجل ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ يعني لعن الكاذبون ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ يعني في جهالة وعمي وغفلة عن أمر الآخرة ساهون يعني لاهين عن الإيمان وعن أمر الله تعالى ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ يعني أي أوان يوم الحساب استهزاء منهم به فأخبر الله تعالى عن ذلك اليوم فقال ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يعني بالنار يحرقون ويعذبون ويقول لهم الخزنة ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يعني هذا العذاب الذي كنتم به تستهزئون يعني تستعجلون على وجه الاستهزاء ثم بين ثواب المتقين فقال عز وجل ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني في بساتين وأنهار قوله تعالى ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ يعني قابضين ما أعطاهم ربهم من الثواب ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ بأعمالهم، قرأ عاصم آخذين نصب على الحال، ومعنى، في جنات وعيون في حال آخذين ما آتاهم ربهم ثم قال ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ يعني قليل من الليل ما ينامون وقال بعضهم كانوا قليلاً ثم الكلام، يعني مثل هؤلاء المتقين كانوا قليلاً ثم أخبر عن أعمالهم فقال من الليل ما يهجعون يعني لا ينامون بالليل كقوله والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً وقال الضحاك كانوا من النائمين وقال[٣] الحسن لا ينامون إلا قليلاً وقال الربيع بن أنس لا ينامون بالليل إلا قليلاً. ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني يصلون عند السحر، ويقال يصلون بالليل ويستغفرون عند السحر عن ذنوبهم ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ يعني نصيب للفقراء ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ السائل المسكين الذي يسأل الناس والمحروم المتعفف الذي لا يسأل الناس ويقال

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٢ وعزاه لابن جرير.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٢ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن الحسن.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٣ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

المحروم المحترف الذي لا يبلغ عيشه وقال الشعبي أعياني أن أعلم من المحروم روى سفيان عن ابن إسحاق عن قيس قال سألت ابن عباس من السائل والمحروم فقال السائل الذي يسأل والمحروم المحارب الذي ليس له سهم في[1] الغنيمة وهكذا قال إبراهيم النخعي ومجاهد والربيع بن أنس وروى عكرمة عن ابن عباس قال المحروم الفقير الذي إذا خرج إلى الناس استعف ولم يعرف مكانه ولا يسأل الناس فيعطونه وقال الزجاج المحروم الذي لا ينمو له مال ويقال هي بالفارسية بي دولة يعني لا إقبال له قوله ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ يعني فيمن أهلك قبلهم لهم عبرة، ويقال فيها علامة وحدانية الله تعالى كأنه قال جعلت جميع الأشياء مرآتك لتنظر إليها وترى ما فيها ومراد النظر في المرآة رؤية من لم يـر فكأنه قال وانظر في آيات صنعي لتعلم أفي صانع كمل الأشياء فإذا نظرت إلى النقش والنقش يدل إلى نقاشه وإذا نظرت إلى النفس وعجائب تركيبها يدل على خالقها، وإذا نظرت في الأرض فمختلف الأشياء عليها يدل إلى ربها وهي البحار والجبال والأنهار والأثمار ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني وعلامة وحدانيته في أنفسكم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يعني تتفكرون في خلق أنفسكم كيف خلقكم وهو قادر على أن يبعثكم. قوله عز وجل ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ يعني من السماء يأتي سبب رزقكم وهو المطر ، ويقال وعلى خالق السماء رزقكم ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني ما توعدون من الثواب والعقاب والخير والشر قال مجاهد وما توعدون يعني الجنة والنار[2] وهكذا قال الضحاك.

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧)﴾

ثم قال عز وجل ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أقسم الرب بنفسه ﴿إنه لَحَقٌّ﴾ يعني ما قسمت من الرزق لكائن ﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ يعني كما تقولون لا إله إلا الله أو يعني كما أن قولكم لا إله إلا الله حق كذلك قولي سأرزقكم حق، ويقال معناه كما أن الشهادة واجبة عليكم فكذلك رزقكم واجب علي ويقال معناه هو الذي ذكر في أمر الآيات والرزق حق يعين صدق مثل ما أنكم تنطقون وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال أبى ابن آدم أن يصدق ربه حتى أقسم له فورب السماء والأرض إنه[3] لحق، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٣ وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٤ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٣) أخرجه بنحوه مرسلاً ابن جرير الطبري انظر تفسير ابن كثير ٧/٣٩٧.

«مثل ما أنكم تنطقون» بضم اللام والباقون بالنصب[١] فمن قرأ بالضم فهو نعت بالحق وصفه له، ومن قرأ بالنصب فهو على التوكيد على معنى أنه لحق حقاً مثل نطقكم قوله عز وجل ﴿هَلْ آتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ يعني جاء جبريل مع أحد عشر ملكاً ـ عليهم السلام ـ المكرمين أكرمهم الله تعالى ويقال أكرمهم إبراهيم وأحسن عليهم القيام. ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً﴾ فسلموا عليه فرد عليهم السلام ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي قال سلم أي أمري سلم والباقون سلام[٢] أي أمري سلام أي صلح ثم قال ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ يعني أنكرهم ولم يعرفهم وقال كانوا لا يسلمون في ذلك الوقت فلما سمع منهم السلام أنكرهم ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ يعني عهد إلى أهله، ويقال عدل ومال إلى أهله، ويقال عدل من حيث لا يعلمون لأي شيءٍ عدل، يقال راغ فلان عنا إذا عدل عنهم من حيث لا يعلمون ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ قال بعضهم كان لبن البقرة كله سمناً فلهذا كان العجل سميناً ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ فلم يأكلوا ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فقالوا نحن لا نأكل بغير ثمن فقال إبراهيم كلوا فاعطوا الثمن قالوا وما ثمنه فقال إذا أكلتم فقولوا بسم الله وإذا فرغتم فقولوا الحمد لله فتعجبت الملائكة ـ عليهم السلام ـ لقوله فلما رآهم لا يأكلون ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ يعني أظهر في نفسه خيفة، ويقال ملأ عنهم خيفة فلما رأوه يخاف ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ منا يعني لا تخشى منا ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ يعني إسحاق ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ يعني أخذت امرأته في صيحة. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ يعني ضربت بيديها خديها تعجباً ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ يعني عجوزاً عاقراً لم تلد قط كيف يكون لها ولد فقال لها جبريل ﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ﴾ يكون لك ولد ﴿هُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أمره حكم بالولد بعد الكبر ﴿الْعَلِيمُ﴾ عليم بخلقه ويقال عليم بوقت الولادة فلما رآهم أنهم الملائكة ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ يعني ما أمركم وما شأنكم ولماذا جئتم أيها المرسلون ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾ يعني قال جبريل أرسلنا الله تعالى ﴿إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ يعني قوم كفار مشركين ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني لكي نرسل عليهم ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ مطبوخ كما يطبخ الآجر ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ يعني معلمة، وقال: مخططة بسواد وحمرة، ويقال: مكتوب على كل واحد اسم صاحب الذي يصيبه ثم قال عند ربك يعني جاءت الحجارة من عند ربك للمشركين فاغتم إبراهيم لأجل لوط، قال الله تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا﴾ أي في قريات لوط ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني من المصدقين ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعني غير بيت لوط قوله عز وجل ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ يعني أبقينا في قريات لوط آية يعني عبرة في هلاكهم من بعدهم ثم قال ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ يعني العذاب الشديد

وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٧٩، إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٩٢.

(٢) المصدران السابقان.

شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾

ثم قال ﴿وَفِي مُوسَى﴾ عطف على قوله وفي أنفسكم أفلا تبصرون وفي موسى ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ يعني حجة بينة وهي اليد والعصا. ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ يعني أعرض عنه فرعون بجموعه يعني مع جموعه وجنوده ويقال فتولى بركنه يعني أعرض بجانبه ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُون فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ يعني عاقبناه وجموعه ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ قال الكلبي يعني أغرقناهم في البحر، وقال مقاتل يعني في النيل ﴿وَهُوَ مُلِيْم﴾ يعني يلوم نفسه ويلومه الناس، وقال مليم أي مذنب وقال أهل اللغة ألام الرجل إذا أتى بذنب يلام عليه ثم قال ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيْم﴾ يعني سلطنا عليهم الريح الشديد وإنما سميت عقيماً لأنها لا تأتي على شيء إلا جعلته كالرميم لا خير فيه ويقال سميت عقيماً لأنها لا تلقح الأشجار ولا تثير السحاب وهي الدبور، وروى شهر بن حوشب عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما أنزل الله قطرة من ماء إلا بمثقال ولا أنزل سفرة من ريح إلا بمكيال إلا قوم نوح طغى على خزانة الماء فلم يكن لهم عليه سبيل وعتت الريح يوم عاد على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل وروى عكرمة عن ابن عباس قال العقيم الذي لا منفعة لها[1] ثم قال ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني ما تترك من شيء هو لهم ولا منهم ﴿أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيم﴾ يعني مرت عليه إلا جعلته كالرماد ويقال الرميم الورق الجاف المتحطم مثل الهشيم المحتظر، كما قال كهشيم المحتظر بعد ما كانوا كنخل متقصر وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ما أرسل على عاد من الريح إلا مثل خاتمي هذا يعني إن الريح العقيم تحت الأرض فأخرج منها مثل ما يخرج من ثقب الخاتم فأهلكهم ثم قال ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ يعني قوم صالح ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ﴾ يعني قال لهم نبيهم صالح ـ عليه السلام ـ عيشوا إلى منتهى آجالكم ولا تعصوا أمر الله ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ يعني تركوا طاعة ربهم ﴿فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ﴾ يعني العذاب قرأ الكسائي فأخذتهم الصعقة بغير ألف وجزم العين والباقون بألف[2] وهي الصيحة التي أهلكتهم بالصعقة قوله من قولك صعقتهم الصاعقة يعني أهلكتهم وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قرأ صعقة مثل الكسائي ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ يعني ظهرت النار من تحت أرجلهم وهم يرونها بأعينهم ويقال سمعوا الصيحة وهم ينظرون متحيرون ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ يعني ما استطاعوا أن يقوموا لعذاب الله تعالى حتى أهلكوا ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ يعني ممتنعين من العذاب ثم قال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وقوم نوح بكسرالميم يعني في قوم نوح كما قال وفي ثمود والباقون بالنصب[3] يعني وأهلكنا قوم نوح ويقال معناه فأخذناه وأخذنا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ هؤلاء الذين سميناهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ يعني قوم نوح مِنْ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٥ وعزاه لأبي الشيخ في العظمة.

(٢) حجة الكسائي أن الصعقة هي المرة الواحدة بدلالة قوله «فأخذتهم الرجفة» ولم يقل الراجفة، وقوله «ومنهم من أخذته الصيحة» يعني المرة الواحدة، فلما كان المعنى في الصيحة المرة الواحدة رد ما اختلف فيه إلى ما أجمع عليه وحجة الباقين أن جميع ما في القرآن من ذكر الصاعقة جاء على هذا الوزن «مثل: الراجفة، الرادفة، الطامة، الصاخة»، فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمع عليه. انظر حجة القراءات ٦٨٠، النشر ٢/٣٧٧.

(٣) المصدران السابقان.

قَبْل يعني عاصين قوله عز وجل ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ يعني خلقناها بقوة وقدرة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ يعني نحن قادرون على أن نوسعها كما نريد ويقال والسماء صار نصباً لنزع الخافض ومعناه وفي السماء آية ثم قال: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ يعني وفي الأرض آية بسطناها مسيرة خمسمائة عام من تحت الكعبة ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ يعني نعم الماهدون نحن ويقال في قوله وإنا لموسعون يعني نحن جعلنا بينهما وبين الأرض سعة ثم قال عز وجل ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ يعني صنفين الذكر والأنثى والأحمر والأبيض والليل والنهار والدنيا والآخرة والشمس والقمر والشتاء والصيف ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يعني تتعظون فيما خلق الله فتوحدوه قوله عز وجل ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ يعني توبوا إلى الله من ذنوبكم، ويقال: معناه ففروا من الله إلى الله، أو ففروا من عذاب الله إلى رحمة الله، أو ففروا من معصيته إلى طاعته ومن الذنوب إلى التوبة، ﴿إِنِّي لَكُم مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يعني مخوفاً من عذاب الله تعالى بالنار ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ يعني لا تقولوا له شريكاً وولداً ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يعني فإن فعلتم فإني لكم مخوف من عذابه فلم يقبلوا قوله وقالوا هذا ساحر أو مجنون يقول الله تعالى تعزية لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ يعني هكذا ما أتى في الأمم الخالية من رسول ﴿إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ كقول كفار مكة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ يعني توافقوا وتواطؤوا فيما بينهم وأوصى الأول الآخر أن يقولوا ذلك ويقال: توافقوا وتواطؤوا به كل قوم وجعلوا كلمتهم واحدة أن يقولوا ساحر أو مجنون قال الله عز وجل ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ يعني عاتين في معصية الله تعالى

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

ثم قال ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ يعني فأعرض عنهم يا محمد بعد ما بلغت الرسالة وأعذرت ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ يعني لا تلام على ذلك لأنك قد فعلت ما عليك ﴿وَذَكِّرْ﴾ يعني عظ أصحابك بالقرآن ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني المصدقين تنفعهم العظة ويقال فعظ أهل مكة فإن الذكرى تنفع المؤمنين يعني من قدر لهم الإيمان ثم قال عز وجل ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] يعني ما خلقتهم إلا أمرتهم بالعبادة فلو أنهم خلقوا للعبادة لما عصوا طرفة عين وقال مجاهد: يعني ما خلقتهم إلا لآمرهم وأنهاهم ويقال إلا ليعبدون يعني إلا ليوحدون وهم المؤمنون وهم خلقوا للتوحيد والعبادة وخلق بعضهم لجهنم كما قال، ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس فقد خلق كل صنف للأمر والنهي الذي يصلح له ثم قال ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ يعني ما خلقتهم لأن يرزقوا أنفسهم ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ يعني لا أكلفهم أن يطعموا أحداً من خلقي وأصل هذا أن الخلق عباد الله وعياله فمن أطعم عيال رجل ورزقهم فقد رزقه إذا كان رزقهم عليه ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ يعني الرزاق لجميع خلقه ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾

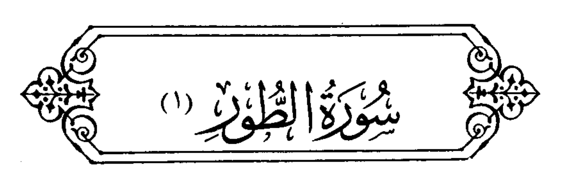
(١) في أ [قال مقاتل].

يعني ذو القوة على أعدائه الشديد العقوبة لهم والمتين في اللغة[١] الشديد القوي قرأ الأعمش ذو القـوة المتين بكسر النون جعله من نعت القوة وقراءة العامة بالضم[٢] ومعناه إن الله هو الرزاق وهو ذو القوة المتين قوله عز وجل ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني أشركوا وهم مشركو مكة ﴿ذَنُوباً﴾ يعني نصيباً من العذاب ﴿مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ يعني مثل نصيب أصحاب من عذاب الذين مضوا وأصل الذنوب في اللغة هو الدلو الكبير فكيف عنه لأنه تتابع يعني مثل عذاب الذين أهلكوا نحو قوم عاد وثمود وغيرهم ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ يعني بالعذاب لأن النضر بن الحارث كان يستعجل بالعذاب فأمهله إلى يوم بدر ثم قتل في ذلك اليوم وصار إلى النار. قوله عز وجل ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يعني من عذاب يوم القيامة والويل الشدة من العذاب، يقال الويل واد في جهنم.

---

(١) انظر لسان العرب ٦/٤١٣٠.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٩٤.



سُورَةُ الطُّورِ (١)

وهي أربعون وتسع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى ﴿**وَالطُّورِ**﴾ أقسم الله تعالى بالجبل وكل جبل فهو طور بلغة النبط ويقال بلغة السريانية ولكن عني به الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام بمدين ثم قال: ﴿**وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ**﴾ يعني: في اللوح المحفوظ ويقال أعمال بني آدم ﴿**في رق منشور**﴾ يعني: في صحيفة منشورة كما قال ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. يعني: مفتوحاً يقرؤونه ويقال كتاب مسطور يعني: القرآن في رق منشور يعني: المصاحف ويقال في اللوح المحفوظ ثم قال: ﴿**والبيت المعمور**﴾ وهو في السماء السابعة ويقال في السماء السادسة، ويقال في السماء الرابعة وروى وكيع بإسناده عن علي وابن عباس في قوله والبيت المعمور قالا هو بيت في السماء حيال الكعبة يزوره كل يوم سبعون ألف ملك ولا يعودون إليه إلى يوم القيامة(٢) قال بعضهم بناه الملائكة قبل أن يخلق آدم عليه السلام وقال بعضهم هو البيت الذي بناه آدم بمكة فرفعه الله تعالى في أيام الطوفان إلى السماء بحيال الكعبة، وقال بعضهم أنزل الله بيتاً من ياقوتة في زمان آدم عليه السلام ووضع بمكة فكان آدم يطوف به وذريته من بعده إلى زمن الطوفان فرفع إلى السماء وهو البيت المعمور طوله كما بين السماء والأرض ثم قال ﴿**وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ**﴾ يعني: السماء

---

(١) أول أغراض هذه السورة التهديد بتحقيق وقوع العذاب يوم القيامة للمشركين المكذبين بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما جاء به من إثبات البعث وبالقرآن المتضمن ذلك فقالوا: هو سحر. ومقابلة وعيدهم بوعد المتقين المؤمنين وصفة نعيمهم ووصف تذكرهم خشية، وثنائهم على الله بما من عليهم فانتقل إلى تسلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإبطال أقوالهم فيه وانتظارهم موته. وتحديهم بأنهم عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن. وإبطال خليط من تكاذيبهم بإعادة الخلق وببعثة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس من كبرائهم وبكون الملائكة بنات الله. وإبطال تعدد الألهة وذكر استهزائهم بالوعيد. وأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتركهم وأن لا يحزن لذلك، فإن الوعيد حال بهم في الدنيا ثم في الآخرة وأمره بالصبر، ووعده بالتأييد، وأمر بشكر ربه في جميع الأوقات. انظر التحرير ٢٧/٣٦.

(٢) انظر الدر المنثور ٦/١١٧.

المرتفعة من الأرض مقدار خمسمائة عام ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ يعني: البحر الممتلىء تحت العرش وهو بحر مكفوف يقال له الحيوان يحمي الله به الموتى يوم القيامة فأقسم الله تعالى بهذه الأشياء ويقال أقسم بخالق هذه الأشياء ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ يعني: العذاب الذي أوقع الكفار فهو كائن ﴿مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ يعني: لا يقدر أحد أن يرفع عنهم العذاب ثم بين أن ذلك العذاب في أي يوم يكون فقال ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً﴾ يعني: تدور السماء بأهلها دوراً وتموج بعضهم في بعض من الخوف صار اليوم نصباً لنزع الخافض ومعناه أن عذاب ربك لواقع في يوم تمور السماء موراً يعني: في يوم القيامة ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً﴾ يعني: تسير على وجه الأرض سيراً مثل السحاب حتى تستوي بالأرض ﴿فَوَيْلٌ﴾ الشدة من العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بيوم القيامة ثم نعتهم فقال ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ يعني: في باطل يلهون ويستهزئون قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ يعني: تدفعهم خزنة جهنم، ويقال يدعون يعني يزعجون إليها إزعاجاً شديداً ويدفعون دفعاً عنيفاً ومنه قوله تعالى ـ يدع اليتيم أي يدفع عما يجب ويقال دعا يعني دفعاً على وجوههم يجرون فإذا دنوا منها قالت لهم الخزنة ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ يعني: لم تصدقوا بها ولم تأمنوا بها (في الدنيا) ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾ العذاب الذي ترون لأنفسكم لأنكم قلتم في الدنيا للرسول ساحراً ومجنون ﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ النار ويقال: بل أنتم لا تعقلون ثم قال لهم ﴿اَصْلوها﴾ يعني: ادخلوا فيها ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ يعني: فإن صبرتم أو لم تصبروا فهو ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ اللفظ لفظ الأمر المراد به الخبر يعني إن صبرتم أو لم تصبروا فلا تنجون منها أبداً ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الكفر والتكذيب.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

ثم بين حال المتقين فقال ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ﴾ يعني: الذين يتقون الشرك والفواحش في بساتين ﴿وَنَعِيمٍ فَاكِهِينَ﴾ يعني: معجبين ويقال ناعمين ويقال فرحين ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ في الجنة من الكرامة ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ يعني: دفع عنهم عذاب النار ويقول لهم الخزنة ﴿كلوا واشربوا﴾ يعني: كلوا من ألوان الطعام والثمار واشربوا من ألوان الشراب ﴿هنيئاً﴾ يعني: لا داء ولا غائلة فيه ولا يخاف في الأكل والشرب من الآفات ما يكون في الدنيا ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: هذا الثواب لأعمالكم التي عملتم في الدنيا ثم قال: ﴿متكئين على سرر﴾ يعني: نائمين على سرر ﴿مصفوفة﴾ قد صف بعضها إلى بعض فكانوا على سرر وكل من كان اشتاق إلى صديقه يلتقيان. قوله تعالى ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ يعني: بيض الوجوه

العين حسان الأعين قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا﴾ يعني: صدقوا بالله ورسوله وصدقوا بالبعث ﴿وَاتَّبَعْتُهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يعني: ألحقناهم ذرياتهم قرأ أبو عمرو واتبعناهم ذرياتهم الحقنا بهم ذرياتهم الثلاثة كلها بالألف وقرأ نافع اثنان بغير ألف[١] والآخر بالألف، وقرأ ابن عامر الأول بغير ألف والاخران بالألف والباقون كلها ألف فمن قرأ اتبعناهم معناه ألحقناهم يعني: الذين آمنوا وجعلنا ذريتهم مؤمنين ألحقنا بهم ذريتهم في الجنة في درجتهم ومن قرأ واتبعتهم بغير ألف يعني: ذريتهم معهم، ومن قرأ ذرياتهم بالألف فهو جمع الذرية، ومن قرأ بغير ألف فهو عبارة عن الجنس ويقع على الجماعة أيضاً وقال مقاتل معناه الذين أدركوا مع آبائهم وعملوا خيراً في الجنة ألحقنا بهم ذريتهم الصغار الذين لم يبلغوا العمل فهم معهم في الجنة ويقال إن أحدهم إذا كان أسفل منه يلحق بهم لكي تقر عينه وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال يرفع الله المسلم ذريته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه[٢] ثم قال: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: ما نقصناهم من عمل الآباء إذا كانوا مع الأبناء حتى يبلغ بهم ذريتهم من غير أن ينقص من أجر أولئك شيئاً ولا من ذريتهم ﴿كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ يعني: كل نفس مرتهنة بعملها يوم القيامة ثم رجع إلى صفة المتقين في التقديم وكرامتهم قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ﴾ يعني: أعطيناهم من ألوان الفاكهة ﴿وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ يعني: يتمنون، قرأ ابن كثير أَلِتناهم بكسر اللام، وهي لغة لبعض العرب واللغة الظاهرة بالفتح وهي من آلت يألت وهو النقصان قوله عز وجل: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً﴾ يعني: يتعاطون في الجنة تعطيهم الخدم قدح الشراب ولا يكون كأساً، إلا مع الشراب ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا﴾ يعني: لا باطل في الجنة ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ يعني: لا إثم في شرب الخمر ويقال لا تأثيم يعني لا تكذيب فيما بينهم، قرأ ابن كثير وأبو عمرو لا لغواً فيها بنصب الواو ولا تأثيماً بنصب الميم والباقون بالضم مع التنوين[٣] فمن قرأ بالنصب فهو على التبرئة ومن قرأ بالضم فهو على معنى الخبر يعني ليس فيها لغو ولا تأثيم كما قال لا فيها غول ثم قال عز وجل: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ يعني: في الحسن والبياض مثل اللؤلؤ في الصدف لم تمسه الأيدي ولم تره الأعين، وروى سعيد عن قتادة قال ذكر لنا أن رجلاً قال يا نبي الله هذا الخادم فكيف المخدوم فقال والذي نفسي بيده إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر[٤] الكواكب ثم قال ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يعني: يتحدثون ويتساءلون في الجنة عن أحوالهم التي كانت في الدنيا ثم يقول صرت إلى هذه المنزلة الرفيعة. قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ يعني: في الدنيا ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ يعني: خائفين من العذاب ثم قال: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ يعني: من علينا بالمغفرة والرحمة ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ يعني: دفع عنا عذاب النار قوله عز وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ يعني: في الدنيا ندعو الرب ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ الصادق في قوله وفيا وعد لأوليائه، ويقال البر بمعنى: البار ﴿الرحيم﴾، قرأ نافع والكسائي أنه بالنصب ومعناه إنا كنا

---

(١) حجة أبي عمرو قوله ﴿ألحقنا بهم﴾ ولم يقل: لحقت فذهب أبو عمرو إلى أنه لما أتى عقيب الفعل فعل بلفظ الجمع وفق بين اللفظين لأنه في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد، وتبعت يتعدى إلى مفعول واحد، فإذا نقل بالهمزة تعدى إلى مفعولين، فالمفعول الأول الهاء والميم في قوله ﴿واتبعناهم﴾ والمفعول الثاني «ذرياتهم» ونافع جمع وأفرد لأن كل واحد منها جائز ألا ترى أن الذرية قد تكون جمعاً فإذا أجمعت فلأن الجموع قد تجمع نحو: أقوام. انظر حجة القراءات ٦٨١ ـ ٦٨٢، النشر ٢/ ٣٧٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٩ وعزاه للبزار وابن مردويه.

(٣) انظر حجة القراءات ٦٨٣، إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٩١.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٩ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر.

من قبل ندعوه بأنه هو البر، وقرأ الباقون بالكسر[1] على معنى الاستئناف ثم أمر الله تعالى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يعظ الناس ولا يبالي في قولهم.

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

فقال عز وجل: ﴿فَذَكِّرْ﴾ يعني: فعظ بالقرآن ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ يعني: برحمة ربك ويقال هو كقوله ما أنت بحمد الله مجنون وقال أبو سهل متعظ بالقرآن ولست أنت والحمد لله ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنونٍ﴾ ويقال فذكر يعني: ذكرهم بما أعتدنا للمؤمنين المتقين وبما أعتدنا للضالين الكافرين فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون يعني لست تقول بقول الكهنة ولا تنطق إلا بالوحي ثم قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ يعني: أيقولون هو شاعر يأتي من قبل نفسه وهو قول الوليد بن المغيرة. وأبي جهل وأصحابها ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ يعني: أوجاع الموت وحوادثه، قال قتادة ريب المنون الموت، وقال مجاهد ريب المنون حوادث الدهر[2] وقال القتبي حوادث الدهر وأوجاعه ومصايبه ويقال إنهم كانوا يقولون قد مات أبوه شاباً وهم ينتظرون موته. ﴿قُلْ تَرَبَّصوا﴾ يعني: انتظروا هلاكي ﴿فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ وذكر في التفسير أن الذين قالوا هكذا ماتوا كلهم قبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا﴾ يعني: أتأمرهم عقولهم وتدلهم على التكذيب والإيذاء بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ يعني: بل هم قوم عاتون في معصية الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ يعني: أيقولون أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول من ذات نفسه واللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الزجر والوعيد ثم قال: ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: لا يصدقون بالرسول والكتاب عناداً وحسداً منهم، قوله عز وجل: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ يعني: إن قلتم إن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول من ذات نفسه فأتوا بمثل هذا القرآن كما جاء به ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في قولهم. ثم قال ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ يعني: من غير رب، كانوا هكذا خلقاً من غير شيء ومعناه كيف لا يعتبرون بأن الله تعالى خلقهم فيوحدونه ويعبدونه ويقال أم خلقوا من غير شيء يعني لغير شيء، ومعناه أخلقوا باطلاً لا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون ثم قال ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ يعني: أهم خلقوا الخلق أم الله تعالى ومعناه أن الله تعالى خلق الخلق وهو الذي يبعثهم يوم القيامة ثم قال ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمـوَاتِ والأَرْضَ﴾ يعني: بل الله تعالى خلقهم ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ بتوحيد الله الذي خلقهما أنه واحد لا شريك له ثم قال ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ يعني: مفاتيح رزق ربك، ويقال: مفاتيح ربك الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا ولكن الله يختار من يشاء كقولهم أألقي عليه الذكر من بيننا ثم قال ﴿أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ يعني: أهم المسلطون عليهم يحملونهم حيث شاؤوا

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٨٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٢٠ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

على الناس فيجبرونهم بما شاؤوا، قرأ ابن كثير وابن عامر والكسائي في إحدى الروايتين المسيطرون بالسين والباقون بالصاد وقرأ حمزة المزيطرون بإشمام الزاء[١] وقال الزجاج تسيطر علينا وتصيطر وأصله السين وكل سين بعدها طاء يجوز أن تقلب صاداً مثل مسيطر ويبسط ثم قالوا ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ يعني: سبباً إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ يعني: يرتقون عليه فيستمعون القول من رب العالمين ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي بحجة بينة.

أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُم الْبَنُونَ﴾ ثم بين جهلهم. وقلة أحلامهم أنهم يجعلون لله ما يكرهون لأنفسهم ثم قال عز وجل ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً﴾ ومعناه أن الحجة واجبة عليهم من كل وجه لأنك قد أتيتهم بالبيان والبرهان ولم تسألهم على ذلك أجراً، فقال أم تسألهم يعني: أتطلب منهم أجراً بما تعلمهم من الأحكام والشرائع ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ يعني: من أجل المغرم يمتنعون عن الإيمان يعني: لا حجة لهم في الامتناع لأنك لا تسأل منهم أجراً فيثقل عليهم لأجل الأجر قوله عز وجل: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ يعني: عندهم الغيب بأن الله لا يبعثهم ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ يعني: أمعهم كتاب يكتبون بما شاؤوا يعني: ما في اللوح المحفوظ فهذا كله لفظ الاستفهام والمراد به الزجر ثم قال عز وجل: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً﴾ بل يريدون وعيداً بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَالَّذِينَ كَفَروا هُمُ الْمَكِيْدُونَ﴾ يعني: بل هم المعذبون الهالكون قوله عز وجل: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرَ اللَّهِ﴾ يعني: ألهم خالق غير الله يخلق ويرزق ويمنعهم من عذابنا ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني: تنزيهاً لله تعالى عما يصفون من الشريك والولد ثم ذكر قسوة قلوبهم فقال ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ يعني: جانباً من السماء ساقطاً عليهم ﴿يَقُولُوا﴾ يعني: لقالوا من تكذيبهم ﴿سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ يعني: متراكماً بعضه على بعض لأنهم كانوا يقولون لا نؤمن بك حتى تسقط علينا كسفاً ثم قال الله تعالى لو فعلنا ذلك لم يؤمنوا ولا ينفعهم من قسوة قلوبهم. ثم قال: ﴿فذرهم﴾ يعني: فتخل عنهم يا محمد ﴿حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ﴾ يعني: يعاينوا يومهم ﴿الذي فيه يُصْعَقُونَ﴾ يعني: يموتون ويقال يعذبون قرأ عاصم وابن عامر يصعقون بضم الياء والباقون يصعقون بنصب الياء[٢] وكلاهما واحد وهما لغتان ثم وصف حالهم في ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ يعني: لا ينفعهم صنيعهم شيئاً

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٨٤، النشر في القراءات العشر ٢/٢/٣٧٨.

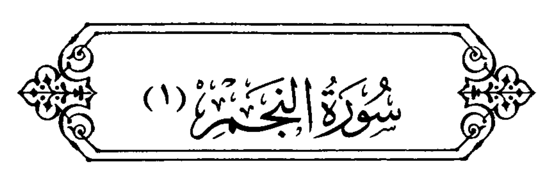
(٢) حجة من فتح قوله تعالى ﴿فصعق من في السموات ومن في الأرض﴾ فأما من قرأ ﴿يُصْعَقُونَ﴾ فإنه نقل الفعل بالهمز: تقول: صعق هو وأصعقه غيره فـ «يصعقون» من باب يكرمون لمكان النقل بالهمز. انظر حجة القراءات ٦٨٤.

﴿ولا هم ينصرون﴾ يعني: لا يمنعون مما نزل بهم من العذاب. ثم قال عز وجل: **﴿وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك﴾** يعني: من قبل عذاب النار، قد روى عبد الله بـن عباس رضي الله عنهما قال: عذاب القبر[1]، وقال معمر عن قتادة قال عذاب القبر في القرآن ثم قرأ وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك، ويقال عذاباً دون ذلك يعني: القتل ويقال الشدائد والعقوبات في الدنيا **﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** يعني: لا يصدقون بالعذاب ثم عزى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصبر على أذاهم فقال **﴿واصبر لحكم ربك﴾** يعني: لما أمرك ربك ونهاك عنه، ويقال: واصبر على تكذيبهم وأذاهم **﴿فإنك بأعْيُنِنَا﴾** يعني: فإنك بمنظر منا والله تعالى يرى أحوالك ولا يخفى عليه شيء، وقال الزجاج: فإنك بأعيننا بمعنى: فإنك بحيث نراك ونحفظك ولا يصلون إلى مكرك ويقال نرى ما يصنع بك **﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾** يعني: صل بأمر ربك قبل طلوع الشمس يعني: صلاة الفجر وقبل الغروب يعني صلاة العصر **﴿ومن الليل فسبحه﴾** يعني: صل صلاة المغرب والعشاء ويقال: حين تقوم صلاة الفجر والظهر والعصر ومعناه صل صلاة النهار وصلاة الليل، ويقال: سبح بحمد ربك حين تقوم يعني: قل سبحانك اللهم وبحمدك إذا قمت إلى الصلاة وهذا قول ربيع بن أنس **﴿وإدبار النجوم﴾** يعني: ركعتي الفجر وروى سعيد بن جبير عن زاذان عن عمر رضي الله عنه لا صلاة بعد طلوع الفجر إلا ركعتي الفجر وهما إدبار النجوم وروي أبو إسحق عن الحارث عن علي رضي الله عنه قال إدبار السجود الركعتان بعد المغرب وإدبار النجوم الركعتان قبل الفجر وروى وكيع عن ابن عباس أنه قال بت ذات ليلة عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصلى ركعتي الفجر ثم خرج إلى الصلاة فقال ابن عباس الركعتان اللتان قبل الفجر إدبار النجوم واللاتي بعد المغرب بإدبار السجود وفي الآية دليل على أن تأخير صلاة الفجر أفضل لأنه أمر بركعتي الفجر بعد ما أدبرت النجوم، وإنما أدبرت النجوم بعد ما أسفر[2] والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٠ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٢) انظر الدر المنثور ٦/ ١٢١.



وهي ستون واثنتان(٢) آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾

قوله تعالى: **﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾** قال ابن عباس رضي الله عنه ـ أقسم الله تعالى بالقرآن إذا نزل نجوماً على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقتا بعد وقت الآية والآيتان والسورة والسورتان وكان بين أوله وآخره إحدى وعشرون سنة، قال مجاهد: أقسم الله بالثريا إذا غابت وسقطت والعرب تسمي الثريا نجماً ويقال أقسم بالكواكب المضيئة ويقال أقسم بجميع الكواكب **﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾** وذلك أن قريشاً قالوا له قد تركت دين آباءك، وخرجت من الطريق وتقول شيئاً من ذات نفسك فنزل (والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم) يعني: ما ترك دين أبيه إبراهيم **﴿وما غوى﴾** يعني: لم يضل قوماً، والغاوي والضال واحد يقال: الضلال قبل البيان والفساد بعد البيان، قرأ حمزة والكسائي إذا هوى وما غوى كله بالإمالة في جميع السورة، وقرأ نافع وأبو عمرو بين الإمالة والفتح في جميع السورة والباقون بالتخفيف وكل ذلك جائز في اللغة ثم قال **﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾** يعني: ما ينطق بهذا القرآن بهوى نفسه، والعرب تجعل عن مكان الباء تقول رميت عن القوس أي بالقوس وما ينطق عن الهوى أي بالهوى **﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾** يعني: ما هذا القرآن إلا وحي يوحى إليه **﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾** يعني: أتاه جبريل عليه السلام وعلمه وهو شديد القوى وأصله في اللغة(٣) من قوى الجبل وهو طاقاته والواحد قوة ويقال علمه شديد القوى يعني الله تعالى يعلمه بالوحي وهو ذو القوة المتين قوله عز وجل: **﴿ذُو مِرَّةٍ﴾** يعني: ذي قوة وأصل المرة القتل فيعبر به عن القوة ومنه الحديث (لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي) ثم قال عز وجل: **﴿فَاسْتَوَىٰ﴾** يعني: جبريل

---

(١) أول أغراض هذه السورة تحقيق أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ صادق فيما يبلغه عن الله تعالى وأنه منزه عما ادعوه. وإثبات أن القرآن وحي من عند الله بواسطة جبريل. وتقريب صفة نزول جبريل بالوحي في حالين زيادة في تقرير أنه وحي من الله واقع لا محالة. وإبطال إلهية أصنام المشركين وإبطال قولهم في اللات والعزى ومناة بنات الله وأنها أوهام لا حقائق لها وتنظير قولهم فيها بقولهم في الملائكة أنهم إناث. وذكر جزاء المعرضين والمهتدين وتحذيرهم من القول في هذه الأمور بالظن دون حجة. وإبطال قياسهم عالم الغيب على عالم الشهادة وأن ذلك ضلال في الرأي قد جاءهم بضده الهدى من الله، وذكر لذلك مثال من قصة الوليد بن المغيرة، أو قصة ابن أبي سرح. وإثبات البعث والجزاء. وتذكيرهم بما حل بالأمم ذات الشرك من قبلهم وبمن جاء قبل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الرسل أهل الشرائع. وإنذارهم بحادثة تحل بهم قريباً. وما تخلل ذلك من معترضات ومستطردات لمناسبات ذكرهم عن أن يتركوا أنفسهم. وأن القرآن حوى كتب الأنبياء السابقين. انظر التحرير ٢٧/٨٨، ٨٩.

(٢) في أ [ستون وست].

(٣) انظر لسان العرب ٥/٣٧٨٧.

عليه السلام ويقال فاستوى يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ **﴿وهو بالأفق الأعلى﴾** يعني: من قبل مطلع الشمس جبريل فرآه على صورته، وله جناحان أحدهما بالمشرق، والآخر بالمغرب **﴿ثم دنا فتدلى﴾** إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكل ما دنا منه انتقص حتى إذا قرب منه مقدار قوسين رآه كما رآه في سائر الأوقات حتى لا يشك جبريل **﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾** يعني: في القرب مقدار قوسين وقال بعضهم: يعني: ليلة المعراج دنا من العرش مقدار قوسين وإنما ذكر القوسين لأن القرآن نزل بلغة العرب، والعرب تجعل مساحة الأشياء بالقوس ويقال: فكان قاب قوسين يعني: قدر ذراعين وإنما سمي الذراع قوساً لأنه تقاس به الأشياء. **﴿أَوْ أَدْنَى﴾** يعني: بل أدنى، ويقال أو بمعنى واو العطف يعني: مقدار قوسين أو أقرب من ذلك.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: **﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾** يعني: أوحى الله تعالى إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقرأ عليه جبريل ما قرأ، ويقال: تكلم مع عبده ليلة المعراج ما تكلم ويقال: أمر عبده بما أمر ثم قال **﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾** يعني: ما كذب قلب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما رأى بصره من أمر ربه في رؤية جبريل عليه السلام، ويقال في رؤية الله تعالى بقلبه، قال محمد بن كعب القرظي، والربيع بن أنس سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل رأيت ربك فقال رأيته بفؤادي ولم أره[1] بعيني، قرأ الحسن ما كذّب بتشديد الذال وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس ومعناه لم يجعل الفؤاد رؤية العين كذباً، والباقون بالتخفيف[2] يعني: ما كذب فؤاد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رأى ثم قال عز وجل: **﴿أَفَتُمَارُونَه عَلَى مَا يَرَى﴾** قرأ حمزة أفتمرونه بنصب التاء وجزم الميم بغير ألف وهكذا روي عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما ومعناه أفتجحدونه فيما رأى والباقون أفتمارونه[3] يعني: أفتجادلونه لأنه رأى من آيات ربه الكبرى. ثم قال: **﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾** يعني: لقد رأى جبريل مرة أخرى، وروي عن كعب الأحبار أنه قال رأى ربه مرة فقال: إن الله كلم موسى مرتين، ورأى محمداً مرتين فبلغ ذلك إلى عائشة رضي الله عنها وعن أبيها. فقالت قد اقشعر جلدي من هيبة هذا الكلام فقيل لها يا أم المؤمنين أليس يقول الله تعالى ولقد رآه نزلة أخرى، فقالت: أنا سألت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك فقال: رأيت جبريل نازلاً في الأفق على خلقته وصورته[4] ويقال: ولقد رآه نزلة أخرى يعني رآه بفؤاده وأكثر المفسرين يقولون إن المراد به جبريل يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما رجع من عند ربه ليلة أسري به رأى جبريل **﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾** فقال مقاتل السدرة هي شجرة طوبى ولو أن رجلاً ركب نجيبه وطاف على ساقها حتى أدركه الهرم لما وصل إلى المكان الذي ركب منه تحمل لأهل الجنة الحلي والحلل وجميع ألوان الثمار، ويقال: هي شجرة غير

---

(١) ذكره في مناهل الصفا (٣٢). وفي الدر المنثور بنحوه ٦/١٢٥.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٨٥، إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٩٩.

(٣) المصدران السابقان.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٢٤ وعزاه لعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر والحاكم وابن مردويه.

شجرة طوبى، وهي شجرة عن يمين العرش فوق السماء السابعة تخرج أنهار الجنة من أصل تلك الشجرة، وإنما سميت سدرة المنتهى لأن أرواح المؤمنين تنتهي إليها ويقال أرواح الشهداء تنتهي إليها ويقال الملائكة ينتهون إليها ولا يجاوزنها ويقال لأن علم كل واحد ينتهي إليها ولا يتجاوزنها ولا يدري ما فوق ذلك وروي عن طلحة بن مطرف عن مرة عن عبد الله قال لما أسري برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انتهي به إلى سدرة المنتهى وإليها ينتهي ما عرف من تحتها وإليها ينتهي ما هبط من فوقها وهي النهاية التي ينتهي إليها من فوق ومن تحت ولا يتجاوز عن ذلك ثم قال عز وجل ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى﴾ وإنما سميت المأوى لأنه يأوي إليها أرواح الشهداء قرأ سعد بن أبي وقاص وعائشة رضي الله عنهما جنة المأوى بالتاء وقيل لسعد أن فلاناً يقرأ عندها جَنَّهُ المأوى بالهاء قال سعد ماله أجنه الله، وعن أبي العالية قال سألني ابن عباس كيف تقرأها ياأبي العالية قال قلت له جنة، قال: صدقت هي مثل قوله «جنات المأوى» وقراءة العامة «جنة» وهي من جنات ثم قال ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ يعني: يغشاها من الملائكة ما يغشى وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سئل ماذا يغشى قال: جراد من ذهب(١)، ويقال فراش من ذهب، وقال الحسن يغشاها نور مثل الجراد من ذهب ثم قال: ﴿مَا زَاغَ البَصَرُ﴾ يعني: ما مال وما عدل بصر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما رأى ﴿وَمَا طَغَى﴾ وما تعدى وما جاوز إلى غيره ويقال وما طغى يعني: وما ظلم صدق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رأى تلك الليلة التي عرج به إلى السماء ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى﴾ وهو الرفرف الأخضر قد غطى الأفق فجلس عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه وجاوز سدرة المنتهى، وقال ابن مسعود رأى جبريل وله ستمائة جناح وهم من آيات ربه الكبرى وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما أخبر برؤية جبريل تعجبوا منه وأنكروا فأخبر الله تعالى أنه قد رآه مرة أخرى وأنه قد رأى من آيات ربه الكبرى.

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أفرأَيْتُمْ اللاتَ وَالعُزَى﴾ قرأ مجاهد اللات بتشديد التاء. يقال كان رجلاً يلت السويق بالزيت ويطعم الناس، وقال السدي كان رجلاً يقوم على آلهتهم ويلت السويق لهم، ويقال كانت حجارة يعبدونها وينزل عندها رجل يبيع السويق ويلته فسميت تلك الحجارة باللات وقرأه العامة بغير تشديد،(٢) قال مقاتل وإنما سمي اللات والعزى لأنهم قالوا هكذا أسماء الملائكة وهم بناته فنزل «ألكم الذكر وله الأنثى» وقال قتادة اللات كان لأهل الطائف والعزى لقريش ومناة للأنصار(٣) ويقال: إن المشركين أرادوا أن يجعلوا من الهتهم من أسماء الحسنى

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٢٦/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.
(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٥٠١/٢.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٢٦/٦ ـ ١٢٧ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

فأرادوا أن يسموا الواحد منها الله فجرى على لسانهم اللات، وأرادوا أن يسموا الواحد منها العزيز فجرى على لسانهم العزى، وأرادوا أن يسموا الواحد منها المنان فجرى على لسانهم مناة، ويقال: إن العزى كانت نخلة بالطائف يعبدونها فبعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خالد بن الوليد حتى قطع تلك النخلة فخرجت منها امرأة تجر شعرها على الأرض فأتبعها بفأس فقتلها فأخبر بذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال تلك العزى قتلها فلا تعبد العزى[1] أبداً، ويقال: أول الأصنام كانت اللات ثم العزى ثم مناة وهو قوله أفرأيتم اللات والعزى ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةِ الأُخْرَى﴾ يعني: أفرأيتم عبادتها تنفعهم في الآخرة ثم قال ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى﴾ يعني: بني مدلج، ويعبدون الملائكة ويقولون هم بناته فيشفعوا لنا ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ أي: جائرة معوجة قرأ ابن كثير بهمز الألف والمد والباقون بغير همز ومعناهما واحد وهو اسم الصنم وقرأ ابن كثير ضئزى بالهمزة والباقون بغير همزة، ومعناهما واحد،[2] بقال ضازه يضيزه إذا نقصه حقه يقال ضزت في الحكم أي جرت ثم قال ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ يعني: الأصنام ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ بالتقليد ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يعني: من عذر وحجة لكم بما تقولون ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ يعني: ما يعبدون وما يتبعون إلا الظن ولا تعرفونها أنها يقيناً آلهة ﴿وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ﴾ يعني: يتبعون ما تشتهي أنفسهم وعبدوه وتركوا دين الله ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ يعني: أتاهم الكتاب والرسول وبين لهم طريق الهدى ثم قال عز وجل: ﴿أَمْ لِلأِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ يعني: ما يتمنى بأن الملائكة تشفع له فيكون الأمر بتمنيه ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى﴾ يعني: ثواب الآخرة والأولى، ويقال: أهل السموات وأهل الأرض كلهم عبيده، ويقال: له نفاذ الأمر في الآخرة والأولى، ويقال: جميع ما فيها يدل على وحدانيته ثم قال: ﴿وَكَم مِن مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ يعني: لا تنقطع شفاعتهم رداً لقولهم إنهم يشفعون لنا ثم استثنى فقال ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ يعني: من كان معه التوحيد فيشفع له بإذن الله تعالى ثم قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ يعني: لا يصدقون بالبعث ﴿لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى﴾ باسم البنات وفيه تنبيه للمؤمنين لكي لا يقولوا مثل مقالتهم وزجراً للكافرين عن تلك المقالة.

وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾

قال عز وجل: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني: ليس لهم حجة على مقالتهم ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ يعني: ما

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٢٦/٦ وعزاه للنسائي وابن مردويه عن أبي الطفيل.

(٢) أجمع النحويون على أن وزنه (فُعْلَى)، وأن أصل (ضيزى): (ضُوزَى) بالضم مثل (حبلى). لأن الصفات لا تأتي إلا على (فَعْلَى) بالفتح نحو سكْرَى وغَضْبَى، أو بالضم نحو (حُبْلى والفضلى والحسنى)، ولا تأتي بالكسر. والواو الأصل في (ضيزى) فلو تركت

يتبعون إلا الظن يعني: على غير يقين ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ يعني: لا يمنعهم من عذاب الله شيئاً ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ يعني: اترك من أعرض عن القرآن ولا يؤمن به ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يعني: لم يرد بعلمه الدار الآخرة إنما يريد به منفعة الدنيا ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ يعني: غاية علمهم الحياة الدنيا، ويقال: ذلك منتهى علمهم لا يعلمون من أمر الآخرة شيئاً وهذا كقوله «يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ».

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ يعني: هو أعلم بمن ترك طريق الهدى ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ يعني: من تمسك بدين الإسلام، ومعناه فأعرض عنهم ولا تعاقبهم فإن الله عليم بعقوبة المشركين وبثواب المؤمنين، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم عظم نفسه بأنه غني عن عبادتهم فقال ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ من الخلق ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أساؤوا بِمَا عَمِلُوا﴾ يعني: ليعاقب في الآخرة الذين أشركوا وعملوا المعاصي ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ يعني: ويثيب الذين آمنوا وأدوا الفرائض الخمسة بإحسانهم ثم نعت المحسنين فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ قرأ حمزة والكسائي كبير الإثم والفحش بلفظ الوحدان والمراد به الجنس والباقون كبائر الإثم[1] بلفظ الجماعة، قال بعضهم كبائر الإثم يعني: الشرك بالله، والفواحش يعني: المعاصي وقال بعضهم: كبائر الإثم والفواحش بمعنى واحد، لأن كل فاحشة كبيرة، وكل كبيرة فاحشة وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «الكبائر أربعة الشرك بالله واليأس من روح الله والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله»[2]، وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: الكبائر سبعة فبلغ ذلك إلى عبد الله بن عباس فقال هي إلى السبعين أقرب، ويقال كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، وقيل كل ما أصر العبد عليه فهو كبيرة، كما روي عن بعضهم أنه قال لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار. قال ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ وقال بعضهم: اللمم هو الصغائر من الذنوب يعني: إذا اجتنبت الكبائر يغفر الله صغار الذنوب من الصلاة إلى الصلاة ومن الجمعة إلى الجمعة وهو كقوله تعالى: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ قال مقاتل نزلت في شأن نبهان[3] التمار وذلك أن امرأة أتت لتشتري التمر فقال لها ادخلي الحانوت فعانقها وقبلها فقالت المرأة خنت أخاك ولم تصب حاجتك فندم وذهب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وروى مسروق عن ابن مسعود قال زنا العينين النظر وزنا اليدين البطش وزنا الرجلين المشي، وإنما يصدق ذلك الفرج، أو يكذبه فإن تقدم كان زنا وإن تأخر كان لمماً[4]. وقال عكرمة اللمم النظر وحديث النفس ونحو ذلك، وروى طاووس عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا فزنا العينين نظر الناظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه[5] وقال عبد الله بن الزبير ـ اللمم القبلة واللمس باليد وقال بعضهم اللمم كل ذنب يتوب عنه ولا يصر عليه وروى منصور

= الضاد على ضمتها لانقلبت الياء واواً لانضمام ما قبلها فكسرت لتصح الياء كما قالوا: أبيض وبيض. انظر حجة القراءات ٦٨٦، النشر ٢/٣٧٩.

(١) حجتهم ذكرها اليزيدي فقال «لو كان كبير الإثم» لكان والفحش أو الفاحشة. انظر حجة القراءات ٦٨٦.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/٢٠٢.

(٣) نبهان الجمحي أبو صالح المدني والد صالح مولى التوأمة التهذيب ١٠/٤١٦.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٢٧ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٥) أخرجه البخاري ١١/٢٦ كتاب الاستئذان (٦٣٤٣)، ومسلم ٤/٢٠٤٦ كتاب القدر (٢٠/٢٦٥٧).

عن مجاهد قال في قوله «إلا اللمم» هو الرجل يذنب الذنب ثم ينزع عنه، وروي عن أبي هريرة قال اللمم النكاح وذكر ذلك لزيد بن أسلم فقال صدق إنما اللمم لمم أهل الجاهلية يقول الله تعالى في كتابه «وأن تجمعوا بين الأختين إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» وروي عن الحسن أنه قال: اللمم هو أن يصيب النظرة من المرأة والشربة من الخمر ثم[1] ينزع عنه وروي عن مجاهد أنه قال الذي يلم بالذنب ثم يدعه، وقد قال الشاعر:

إن تـغـفـر الـلهـم تـغـفـر جـمـا وأي عـبـد لـلّه لا ألـمـا

وقال بعضهم «إلا اللممّ» ومعناه: ولا اللمم ومعناه: أن تجتنبوا صغائر الذنوب وكبائرها كما قال القائل وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير[2] والعيش[3] يعني: ولا اليعافير ولا العيس ـ وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال إياكم والمحقرات من الذنوب[4]، وسئل زيد بن ثابت عن قوله إلا اللمم قال حرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ يعني: واسع الفضل غافر الذنوب للذين يتوبون ويقال معناه رحمته واسعة على الذين يجتنبون الكبائر ثم قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ يعني: هو أعلم بحالكم منكم ﴿إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعني: إذ هو خلقكم من الأرض يعني: خلق آدم من تراب وأنتم من ذريته ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ يعني: كنتم صغاراً ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ كان هو أعلم بحالكم منكم في ذلك كله ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ﴾ يعني: لا تبرؤوا أنفسكم من الذنوب ولا تمدحوها، ويقال: ولا تزكوا أنفسكم يعني: لا يمدح بعضكم بعضاً، وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب[5] والمدح على ثلاثة أوجه أوله ـ أن يمدحه في وجهه فهو الذي نهي عنه، والثاني أن يمدحه بغير حضرته ويعلم أنه يبلغه فهو أيضاً منهي عنه، والثالث أن يمدحه في حال غيبته وهو لا يبالي بلغه أو لم يبلغه ويمدحه بما هو فيه فلا بأس بهذا، ويقال فلا تزكوا أنفسكم يعني: لا تطهروا أنفسكم من العيوب وهذا كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «الناس كإبل مائة لم يكن فيها راحلة»[6] ﴿بِمَنِ اتَّقَى﴾ يعني: من يستحق المدح ومن لا يستحق المدح.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٢٨ وعزاه لابن مردويه.

(٢) ذكره ابن منظور في لسان العرب ١/٦٨٦ ونسبه لأبي خراش الهذلي.

وقال في اللسان: الجم والجمم: الكثير من كل شيء. ومال جم: كثير، وفي التنزيل «ويحبون المال حباً جماً» أي كثيراً.

(٣) اليعفور: الظبي الذي لونه كلون العفر وهو التراب، وقيل: هو الظبي عامة. انظر لسان العرب ٤/٣٠٠٩.

(٤) والعيساء: الإبل البيض يخالط بياضها شيء من الشقرة واحدها أعيس. انظر لسان العرب ٤/٣١٨٩.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ١/٤٠٢ والطبراني في الكبير ١٠/٢٦١.

(٦) أخرجه مسلم ٤/٢٢٩٧ كتاب الزهد (٦٩/٣٠٠٢).

(٧) أخرجه ابن ماجه ٢/١٣٢١ كتاب الفتن (٣٩٩٠) وعبد الرزاق في المصنف (٢٠٤٤٧) وأبو نعيم في الحلية ٩/٢٣١ وقال البوصيري في الزوائد إسناده صحيح، رجاله ثقات إن ثبت سماع زيد بن أسلم من عبد الله بن عمر.

ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ يعني: أعرض عن الحق وهو الوليد بن المغيرة ومن كان في مثل حاله ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا﴾ يعني: وأنفق قليلاً من ماله ﴿وَأَكْدَى﴾ يعني: هو أمسك عن النفقة قال مقاتل أنفق الوليد بن المغيرة على أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفقة قليلة ثم انتهى عن ذلك، وقال القتبي وأكدى[1] أصله من كديه الذكية وهي الصلابة فيها فإذا بلغها الحافر يبس حفرها فقطع الحفرة يعني: تركها فقيل لمن طلب شيئاً ولم يدرك أخره وأعطى شيئاً. ولم يتم وأكدى ثم قال عز وجل: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ يعني: أعنده علم الآخرة فهو يرى صنيعه، وقيل يعلم ما في اللوح المحفوظ فيرى صنيعه ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ يعني: ألم يخبر بما بين الله تعالى في صحف موسى، قال بعضهم: صحف موسى يعني: التوراة وقال بعضهم: هو كتاب أنزل عليه قبل التوراة ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ يعني: في كتاب إبراهيم الذي وفى يعني: بلغ الرسالة، ويقال: وفى بمعنى عمل ما أمر به وذلك أن الوليد بن عقبة بن أبي معيط قال لعثمان إنك تنفق مالك فعن قريب تفتقر فقال عثمان إن لي ذنوباً فقال الوليد ادفع إلي بعض المال حتى أدفع ذنوبك فدفع إليه فأنزل الله تعالى أم لم ينبأ بما في صحف موسى يعني: ألم يبين الله تعالى في كتاب موسى وكتاب إبراهيم ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ يعني: لا تحمل نفس خطيئة نفس أخرى، ويقال «وابراهيم الذي وفى» يعني: بما ابتلاه الله تعالى بعشر كلمات ويقال بذبح الولد ويقال كان يصلي كل غداة أربع ركعات صلاة الضحى فسماه وفيا، ثم قال عز وجل: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ يعني: ليس للإنسان في الآخرة إلا ما عمل في الدنيا من خير أو شر ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ يعني: يرى ثواب عمله في الآخرة قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ يعني: يعطي ثوابه كاملاً ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ يعني: إليه ينتهي أعمال العباد وإليه يرجع الخلق كلهم فهذا كله في مصحف موسى وإبراهيم.

وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾

ثم قال ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ يعني: أضحك أهل الجنة في الجنة قال وأبكى أهل النار في النار، ويقال أضحك في الدنيا أهل النعمة، وأبكى أهل الشدة والمعصية ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ يعني: يميت في الدنيا ويحيي في الآخرة للبعث ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾ يعني: اللونين والصنفين ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ يعني: تهراق في رحم الأنثى، وقال القتبي: من نطفة إذا تمنى يعني: تقدر وتخلق، ويقال ما تدري ما يمني لك الماني يعني: ما يقدر لك المقدر ثم قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ يعني: البعث بعد الموت، يعني: ذلك إليه وبيده وهو قادر على ذلك فاستدل عليهم بالفعل الآخر بالفعل الأول أنه خلقهم في الابتداء من النطفة، وهو الذي يحيهم بعد الموت ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ يعني: حول وأعطى المال وأقنى يعني أفقر، ويقال:

(١) انظر لسان العرب ٥/ ٣٨٣٩.

أغنىٰ يعني يعطي وأقنى يعني: يُرضي بما يُعطي، ويقال أغنى نفسه عن الخلق، وأقنى يعني: أفقر الخلق إلى نفسه، وروى السدي عن أبي صالح أغنى بالمال وأقنى يعني: بالقنية، وقال الضحاك أغنى بالذهب وبالفضة والثياب، والمسكن وأقنى بالإبل والبقر والغنم والدواب، وقال عكرمة أغنى يعني: أرضى وأقنى يعني: وأقنع ثم قال: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ يعني: وأن الله هو خالق الشعرى قال ابن عباس هو كوكب تعبده خزاعة يطلع بعد الجوزاء[1] يقول الله تعالى وأنا ربها وأنا خلقتها فاعبدوني، ثم خوفهم فقال عز وجل: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الأُولى﴾ بالعذاب وهم قوم هود عليه السلام وكان بعدهم عاد آخر سواهم فلهذا سماهم عاد الأُولى، ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾ يعني: قوم صالح عليه السلام فأهلكهم الله وما بقي منهم أحد قرأ نافع وأبو عمرو عاد الأولى ـ بحذف الهمزة وإدغام التنوين والباقون عادا بالتنوين الأولى بالهمزة وكلاهما جائز عند العرب وقرأ حمزة وعاصم رواية حفص وثمود بغير تنوين والباقون ثموداً بالتنوين[2] قال أبو عبيد نقرأ بالتنوين مكان الألف الثانية في المصحف ثم قال: ﴿وَقَوْمَ نوحٍ من قبل﴾ يعني: أهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ يعني: أشد في كفرهم وطغيانهم لأنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فدعاهم فلم يجيبوا وكان الآباء يوصون الأبناء بتكذيبه ثم قال عز وجل: ﴿وَالمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ يعني: مدينة قوم لوط وسماها مؤتفكة لأنها ائتفكت أي انقلبت أهوى أي أسقط ويقال: المؤتفكة يعني: المكذبة أهوى يعني: أهوى من السماء إلى الأرض وذلك أن جبريل عليه السلام حيث قلع تلك المدائن فرفعها إلى قريب من السماء ثم قلبها وأهواها إلى الأرض ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ يعني: فغشاها من الحجارة ما غشى كقوله وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ يعني: بأي نعمة من نعماء ربك تتجاحد أيها الإنسان بأنها ليست من الله تعالى قوله عز وجل: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولى﴾ يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ نذير مثل النذر الأولى يعني: رسولاً مثل الرسل الأولى مثل نوح وهود وصالح صلوات الله عليهم وقد خوفهم الله ليحذروا معصيته ويتبعوا ما أمرهم الله تعالى ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال ﴿أزفت الآزفة﴾ يعني: دنت القيامة. ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ﴾ يعني: ليس للساعة من دون الله كاشفة عن علم قيامها، وهذا كقوله «قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو».

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ يعني: من القرآن تعجبون تكذيباً ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءاً

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٣١ وعزاه للفاكهي.

(٢) قال أبو عثمان: أساء عندي أبو عمرو في قراءته لأنه أدغم النون في لام المعرفة، واللام إنما تحركت بحركة الهمزة وليس بحركة لازمة. والدليل على ذلك أنك تقول (الأحمر) فإذا طرحت حركة الهمزة على اللام تقول الأحمر: (اَلَحْمَر) ولم تحذف ألف الوصل لأنها ليست بحركة لازمة. قال أبو عثمان: (ولكن كان أبو الحسن روى عن بعض العرب أنه يقول: (هذا لَحْمَرُ قد جاء) فتحذف ألف الوصل لحركة اللام. فهذا حجة لقراءة أبي عمرو لأن الحركة قد صارت لازمة لأنك حذفت ألف الوصل، ولو لم تكن لازمة لما حذفت. قال الزجاج: أما «الأولى» ففيها ثلاث لغات: الأولى: بسكون اللام وإثبات الهمزة وهي أجود اللغات، والتي تليها في الجودة (الولي) بضم اللام وطرح الهمزة، ومن العرب من يقول (لولي) فيطرح الهمز لتحرك اللام، على هذه اللغة قرأ أبو عمرو: «عادَ لُولى» والقول في «عاد الأولى» أن من حقق الهمزة في «الأولى» سكنت له لام المعرفة (والتنوين)، وإذا سكنت لام المعرفة و(التنوين من قولك عاداً) ساكن، التقى ساكنان: النون التي في «عادا» ولام المعرفة، فحركت التنوين بالكسر لالتقاء الساكنين. انظر حجة القراءات ٦٨٧، النشر ٢/٣٧٩.

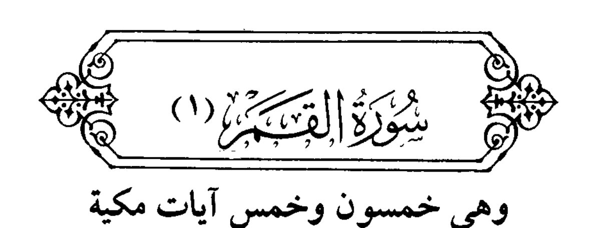
﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ مما فيه من الوعد ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ يعني: لاهين عن القرآن، روي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال هو الغناء كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا وهي بلغة أهل اليمن[١] وقال قتادة سامدون يعني غافلون[٢] ثم قال عز وجل: ﴿فاسجدوا لله﴾ يعني: صلوا لله ويقال اخضعوا لله ﴿واعبدوا﴾ يعني: أطيعوا ويقال فاسجدوا لله في الصلاة واعبدوا يعني: وحدوه، ويقال: هو سجدة التلاوة بعينها، وروي عن الشعبي أنه قال إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سجد في النجم وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن[٣] والأنس.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٣٢ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وأبي عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٣١ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير.

(٣) أخرجه البخاري ٢/٥٥٣ كتاب سجود القرآن باب سجدة النجم ومسلم ١/٤٠٥.



سورة القمر (١)

وهي خمسون وخمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ يعني دني قيام الساعة لأن خروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان من علامات الساعة ﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وذلك أن أهل مكة سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ علامة لنبوته فانشق القمر نصفين، وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال كنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانشق القمر نصفين فرأيت حراء بين فلقتي القمر أي شقتي القمر[٢]، وعن جبير بن مطعم قال انشق القمر ونحن مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة، وروى قتادة عن أنس قال سأل أهل مكة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ آية فانشق القمر[٣] بمكة وقال[٤] بعضهم اقتربت الساعة وانشق القمر يعني تقوم الساعة وينشق القمر يوم القيامة وأكثر المفسرين قالوا: إن هذا قد مضى، وقال عبد الله بن مسعود ما وعد الله ورسوله من أشراط الساعة كلها قد مضى إلا أربعة طلوع الشمس من مغربها، ودابة الأرض وخروج الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج ثم قال ﴿وَإِنْ يَرَوا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ يعني إذا رأوا آية من آيات الله مثل انشقاق القمر يعرضوا عنها ولا يتفكروا فيها ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ يعني مصنوعاً سيذهب، ويقال معناه ذاهباً يذهب ثم التئام القمر وقال القتبي: سحر مستمر يعني شديد القوى، وهو من المرة وهو القتـل وقال الزجاج في مستمر قولان قـول: ذاهب وقول دائم وقال الضحاك لما رأى أهل مكة انشقاق القمر، وقال أبو جهل هذا سحر مستمر فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى ينظروا إذا رأوا القمر منشقاً أم لا فأخبر أهل الآفاق أنهم رأوه منشقاً قالوا: هذا سحر مستمر يعني استمر سحره في الآفاق قوله عز وجل ﴿وَكَذَّبُوا﴾ يعني كذبوا بالآية وبقيام الساعة ﴿واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ في عبادة الأصنام ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ يعني كل قول من الله له حقيقة

---

(١) اشتملت هذه السورة على تسجيل مكابرة المشركين في الآيات البينة، وأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإعراض عن مكابرتهم. وإنذارهم باقتراب القيامة وبما يلقونه حين البعث من الشدائد. وتذكيرهم بما لقيته الأمم أمثالهم من عذاب الدنيا لتكذيبهم رسل الله وأنهم سيلقون مثلما لقي أولئك الذين ليسوا خيراً من كفار الأمم الماضية. وإنذارهم بقتال يهزمون فيه، ثم لهم عذاب في الآخرة وهو أشد. وإعلامهم بإحاطة الله علماً بأفعالهم وأنه مجازيهم شر الجزاء ومجاز المتقين خير الجزاء وإثبات البعث، ووصف بعض أحواله. وفي خلال ذلك تكرير التنويه بهدي القرآن وحكمته. انظر التحرير ٢٧/١٦٦.

(٢) أخرجه البخاري ٦/٦٣١ كتاب المناقب (٣٦٣٦)، ومسلم ٤/٢١٥٨ كتاب صفة القيامة (٤٣/٢٨٠٠).

(٣) أخرجه البخاري ٦/٦٣١ كتاب المناقب (٣٦٣٧)، ومسلم ٤/٢١٥٩ كتاب صفة القيامة (٤٦ ـ ٢٨٠٢).

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٣٢ وعزاه لعبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر والترمذي وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

منه في الدنيا سيظهر وما كان منه في الآخرة سيعرف يعني ما وعد لهم من العقوبة ويقال: معناه مستقر لأهل النار عملهم ولأهل الجنة عملهم يعني يعطي لكل فريق جزاء أعمالهم ثم قال ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ﴾ يعني جاء لأهل مكة من الأخبار عن الأمم الخالية ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ يعني ما فيه موعظة لهم وزجر عن الشرك والمعاصي.

حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤)

قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ يعني جاءهم كلمة بالغة وهو القرآن يعني حكمة وثيقة ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ يعني لا تنفعهم النذر إن لم يؤمنوا كقوله «وما تغن الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون» ويقال: «فما تغن النذر» لم تنفعهم الرسل إذا نزل بهم العذاب إن لم يؤمنوا قوله تعالى ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ يعني اتركهم وأعرض عنهم بعدما أقمت عليهم الحجة ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ يعني يدعو إسرافيل على صخرة بيت المقدس ﴿إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ يعني إلى أمر فظيع شديد منكر ﴿خُشَّعاً﴾ يعني ذليلة ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ خاشعاً نصب على الحال يعني يخرجون خاشعاً قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو خاشعاً بالألف مع النصب والباقون خُشعاً بضم الخاء بغير ألف وتشديد الشين[1] بلفظ الجمع، لأنه نعت للجماعة، ومن قرأ بلفظ الواحد فلأجل تقديم النعت، وقرأ ابن مسعود خاشعة بلفظ التأنيث، وقرأ ابن كثير إلى شيء نكْر بجزم الكاف، والباقون بالضم[2]، وهما لغتان ثم قال عز وجل ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ يعني من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ يعني انتشروا عن معدنهم ويجول بعضهم في بعض قوله تعالى ﴿مُهْطِعِينَ[3] إِلَى الدَّاعِ﴾ يعني مقبلين إلى صوت إسرافيل ﴿يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ يعني شديد عَسِر عليه، وروي في الخبر أنهم إذا خرجوا من قبورهم يمكثون واقفين أربعين سنة، ويقال: مائة سنة حتى يقولوا أرحنا من هذا ولو إلى النار ثم يؤمرون بالحساب ثم عزى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصبر على أذى قومه كما لقي الرسل من قومهم فقال ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ يعني قبل قومك يا محمد ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ حين أتاهم بالرسالة ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحاً ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ يعني قالوا لنوح إنك مجنون ﴿وَازْدُجِرَ﴾ يعني أوعد بالوعيد ويقال: صاحوا به حتى غشي عليه، وقال القتبي: وازدجر أي زجر وهو افتعل من ذلك فلما ضاق صدره ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ يعني مقهور فيما بينهم ﴿فَانْتَصِرْ﴾ يعني أعني عليهم بالعذاب فأجابه الله كما في سورة الصافات «وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ» قوله عز وجل ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ يعني طرق السماء ﴿بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ يعني منصباً كثيراً، وقال القتبي بماء منهمر أي كثير سريع الانصباب

---

(١) حجة أبي عمرو من تبعه حرف ابن مسعود «خاشعة أبصارهم» على التوحيد، والعرب تجتزىء في مثل هذا وتختار التوحيد لأنه قد جرى مجرى الفعل إذا كان ما بعده قد ارتفع به نحو (مررت بقوم حسن وجوههم) والتقدير: حسُن وجوههم. انظر الحجة ٦٨٨.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٠٦.

(٣) قال في اللسان ٦/٤٦٧٤: هطع أقبل على الشيء ببصره فلم يرفعه عنه وقيل: المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع.

ومنه يقال همر للرجل إذا كثر من الكلام وأسرع فيه، قرأ ابن عامر ففتَّحنا بتشديد التاء على تكثير الفعل،وقرأ الباقون بالتخفيف[١] لأنها فتحت فتحاً واحداً، قوله عز وجل ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً﴾ يعني أخرجنا من الأرض عيوناً مثل الأنهار الجارية ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ يعني ماء السماء وماء الأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ يعني على وقت قد قضى ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ يعني حملنا نوحاً ﴿عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾ يعني على سفينة قد اتخذت بألواح ﴿وَدُسُرٍ﴾ يعني سفينة قد شدت بالمسامير، وقال بعضهم: كانت سفينة نوح من صاج، وقال بعضهم: من خشب شمشار، ويقال: من الجوز، وقال القتبي: الدسر المسامير واحدها دسار وهي أيضاً الشريط الذي يشد بها السفينة ثم قال ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ يعني تسير السفينة بمنظر منا وأمرنا، ويقال بمراد وحفظ منا وقال الزجاج في قوله «فالتقى الماء» ولم يقل: الماءان لأن الماء اسم لجميع ماء السماء وماء الأرض فلو قال ماءان لكان جائزاً لكنه لم يقل ثم قال ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ يعني الحمل على السفينة ثواب لنوح الذي كفر به قومه، وقرأ بعضهم جزاء لمن كان كفر بالنصب يعني الفرق عقوبة لمن كذب بالله تعالى وبنوح.

وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ أي سفينة نوح أبقيناها عبرة للخلق، وقال بعضهم: يعني تلك السفينة بعينها كانت باقية على الجبل إلى قريب من خروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم يعني جنس السفينة صارت عبرة لأن الناس لم يعرفوا قبل ذلك سفينة فاتخذت الناس السفن بعد ذلك في البحر فلذلك كانت آية للناس ثم قال: ﴿فَهَلْ مِنْ مَدَّكِرٍ﴾ يعني هل من معتبر يعتبر بما صنع الله تعالى بقوم نوح فيترك المعصية، ويقال: فهل من مذكر يتعظ بأنه حق ويؤمن به، وقال أهل اللغة[٢] أصل مدكر مفتعل من الذكر مذتكر فأدغمت الذال في التاء ثم قلبت دالاً مشددة ثم قال ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ يعني كيف رأيت عذابي وإنذاري لمن أنذرهم الرسل فلم يؤمنوا والنذر بمعنى الإنذار قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ يعني هونا القرآن ﴿لِلذِّكْرِ﴾ يعني للحفظ، ويقال: هونا قراءاته، وروى الحسن عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال لولا قول الله تعالى «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ما طاقت الألسن أن تتكلم به»، ويقال هوناه لكي يذكروا به[٣]. ثم قال ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ يعني متعظ يتعظ بما هون من قراءة القرآن، وروى الأسود[٤] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال قرأت على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهل من مـذكر بالذال فقال النبي عليه السلام فهل[٥] من مذكر يعني بالذال قوله تعالى

---

(١) حجة ابن عامر قوله تعالى: ﴿مفتحة لهم الأبواب﴾ جمعوا على التشديد لأنه ذكر الأبواب كما ذكر عند قولـه ﴿ففتحنا أبـواب السماء﴾. انظر حجة القراءات ٦٨٩، إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٠٦.

(٢) انظر لسان العرب.

(٣) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/٤٥٣ من طريق الضحاك عن ابن عباس موقوفاً.

(٤) الأسود بن سفيان بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي انظر أسد الغابة ١/١٠٤.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٣٥ وعزاه لأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن جرير والحاكم وابن مردويه.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ يعني كذبوا رسولهم هود ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ يعني أليس وجوده حقاً ونذر جمع نذير، قال القتبي النذر جمع النذير والنذير بمعنى الإنذار مثل التنكير بمعنى الإنكار يعني كيف كان عذابي وإنكاري ثم بين عذابه فقال عز وجل ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾ يعني سلطنا عليهم ريحاً باردة ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ يعني شديدة استمرت عليهم لا تفتر عنهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً دائمة ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ يعني تنزع أرواحهم من أجسادهم وهذا قول مقاتل ويقال في يوم نحس يعني يوم مشؤوم عليهم مستمر يعني استمر عليهم بالنحوسة، وقال القتبي الصرصر ريح شديدة ذات صوت تنزع الناس يعني تقلعهم من مواضعهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ يعني صرعهم فكبهم على وجوههم كأنهم أصول نخل منقلعة من الأرض فشبههم لطولهم بالنخيل الساقطة. وقال مقاتل كان طول كل واحد منهم اثنى عشر ذراعاً، وقال في رواية الكلبي كان طول كل واحد منهم سبعين ذراعاً فاستهزؤوا حين ذكر لهم الريح فخرجوا إلى الفضاء فضربوا بأرجلهم وغيبوها في الأرض إلى قريب من ركبهم فقالوا قل للريح حتى ترفعنا فجاءت الريح فدخلت تحت الأرض وجعلت ترفع كل اثنين وتضرب أحدهما على الأخر بعدما ترفعهما في الهواء ثم تلقيه في الأرض، والباقون ينظرون إليهم حتى رفعتهم كلهم ثم رمت بالرمل والتراب عليهم وكان يسمع أنينهم من تحت التراب كذا وكذا يوماً.

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾

قال الله تعالى ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ وقد ذكرناه ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ يعني صالحاً حين أتاهم ﴿فقالوا أبشراً مِنَّا واحداً﴾ يعني خلقاً مثلنا ﴿نَتَّبِعُهُ﴾ في أمره ﴿إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَال وَسُعُرٍ﴾ يعني إنا إذا فعلنا ذلك لفي خطأ وعناء، وقال الزجاج: يعني إنا إذا فعلنا ذلك لفي ضلال وجنون وهذا كما يقال ناقة مسعورة إذا كان بها جنون، ويجوز أن يكون وسعر جمع في معنى العذاب ثم قال عز وجل ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا﴾ يعني اختص بالنبوة والرسالة من بيننا ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ يعني كاذباً على الله أشر يعني بطراً متكبراً قوله عز وجل ﴿سَيَعْلَمُونَ غَداً﴾ قرأ ابن عامر وحمزة ستعلمون بالتاء على معنى المخاطبة يعني أن صالحاً قال لهم ستعلمون غداً، والباقون بالياء[1] على معنى الخبر عنهم من الله تعالى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم يعلمون غداً يعني يوم القيامة ﴿مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ أهم أم صالح، ومعناه أنه يتبين لهم أنهم هم الكاذبون، وكان صالحاً صادقاً في مقالته ثم قال ﴿إِنَّا مُرْسِلُو﴾ يعني نخرج لهم ﴿النَّاقَةِ﴾ وذلك حين سألوا صالحاً بأن يخرج لهم ناقة من الحجر فدعا صالح ربه فأوحى الله تعالى إليه أني مخرج الناقة ﴿فِتْنَةً﴾ يعني بلية ﴿لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ﴾ يعني انتظر هلاكهم ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ على الإيذاء قوله تعالى ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ يعني وأخبرهم ﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ يوم للناقة ويوم

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٨٩، النشر في القراءات العشر ٢/ ٣٨٠.

لأهل القرية ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ يعني إذا كان يوم الناقة تحضر الناقة ولا يحضرون وإذا كان يومهم لا تحضر الناقة وكل فريق يحضر في نوبته ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ يعني مصدع أو قذار ﴿فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ يتناول الناقة بالسهم يعقرها ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يعني صيحة جبريل عليه السلام ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ قال قتادة يعني كرماد محترق[1]، وقال الزجاج الهشيم ما يبس من الورق وتحطم وتكسر قرأ بعضهم كهشيم المحتظر بنصب الظاء، وقراءة العامة بالكسر[2] فمن قرأ بالنصب فهو اسم الحظيرة ومعناه كهشيم المكان الذي يحضر فيه الهشيم ومن قرأ بالكسر فهو صاحب الحظيرة يعني يجمع الحشيش في الحظيرة لغنمه فداسته الغنم.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

ثم قال عز وجل ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعني سهلناه للحفظ لأن كُتب الأولين يقرؤها أهلها نظراً ولا يكادون يحفظون من أولها إلى آخرها كما يحفظ القرآن ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ يعني متعظ به قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ يعني بالرسل لأن لوطاً عليه السلام يدعوهم إلى الإيمان بجميع الرسل فكذبوهم ولم يؤمنوا فأهلكهم الله تعالى وهو قوله ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً﴾ يعني حجارة من فوقهم ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ يعني وقت السحر قوله تعالى ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ يعني رحمة من عندنا على آل لوط صار نعمة نصباً لأنه مفعول ومعناه ونجيناهم بالإنعام عليهم ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ يعني هكذا يجزي الله تعالى من شكر نعمته ولم يكفرها. ويقال من شكر يعني من وحد الله تعالى لم يعذبه في الآخرة مع المشركين فكما أنجاهم في الدنيا ينجيهم في الآخرة ولا يجعلهم مع المشركين قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا﴾ يعني خوفهم لوط عقوبتنا ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ يعني شكوا بالرسل فكذبوا يعني لوط ويقال معناه شكوا بالعذاب الذي أخبرهم به الرسل أنه نازل بهم قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ يعني طلبوا منه الضيافة، وكانت أضيافه جبريل مع الملائكة فمسح جبريل بجناحه على أعينهم فذهب أبصارهم وذلك قوله ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ يعني أذهبنا أعينهم وأبصارهم ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الخبر يعني فذوقوا عذاب الله تعالى أي عقوبة الله ما أخبر الله تعالى ثم قال ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ يعني أخذهم وقت الصبح عذاب دائم يعني عذاب الدنيا موصولة بعذاب الأخرة ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ يقال لهم ذوقوا عذاب الله تعالى وإنذاره ثم قال ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ وقد ذكرناها.

وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ

---

(١) انظر الدر المنثور ٦/١٣٦.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٠٧.

﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ يعني الرسل وهو موسى وهارون ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ يعني بالآيات التسع ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ يعني عاقبناهم عند التكذيب ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ يعني عقوبة منيع بالنقمة على عقوبة الكفار مقتدراً يعني قادراً على عقوبتهم وهلاكهم ثم خوف كفار مكة فقال. ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ يعني أكفاركم أقوى في النذر من الذين ذكرناهم فأهلكهم الله تعالى وهو قادر على إهلاكهم ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ يعني براءة في الكتب من العذاب، اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به الزجر يعني ليس لكم براءة ونجاة من العذاب ثم قال عز وجل ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ يعني ممتنع من العذاب يقول الله تعالى ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ يعني سيهزم جمع أهل مكة في الحرب، ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ يعني ينصرفون من الحرب منهزمين يعني به يوم بدر وفي هذا علامة من علامات النبوة لأن هذه الآية نزلت بمكة وأخبرهم أنهم سيهزمون في الحرب فكان كما قال، وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أن عمر رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية سيهزم الجمع ويولون الدبر فكنت لم أعلم ما هي وكنت أقول أي جمع يهزم فلما كان يوم بدر رأيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يثبت في الدرع ويقول سيهزم الجمع ويولون[1] الدبر، وقال الزجاج: ويولون الدبر يعني الإدبار كقوله تعالى «وَيُوَلُّوكُمْ الأَدْبَارَ» لأن اسم الواحد يدل على الجمع وكذلك قوله تعالى في جنات ونهر أي أنهار وذكر عن الفراء أنه قال إنما وحّد لأنه رأس آية تقابل بالتوحيد رؤوس الآي وكذلك في الدبر لموافقته رؤوس الآي ثم قال: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ يعني مجمعهم ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ يعني عذاب الساعة أعظم وأشد من عذاب الدنيا، ثم وصف عذاب الآخرة فقال ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ يعني المشركين في الدنيا في ضلالة وخطأ وخلاف وفي سعير في الآخرة والسعر جماعة السعير ويقال السعر يعني في عناء ثم أخبرهم بمستقرهم فقال عز وجل ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ يعني يجرون في النار على وجوههم ويقول لهم الخزنة ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ يعني عذاب النار.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾

ثم قال ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ يعني خلقنا لكل شيء شكله مما يوافقه وروي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال هذه الآية نزلت في أهل القدر يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر وقال محمد بن كعب القرظي «إنا كل شيء خلقناه بقدر» نزلت تعبيراً لأهل[2] القدر.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٤٨٥ (٤٨٧٥) وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٧/ ٤٥٦.

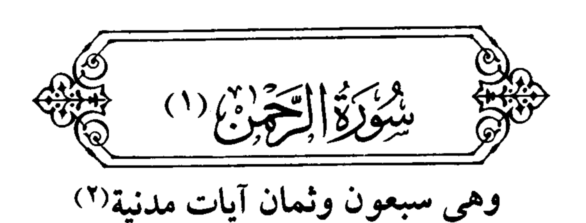
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٨ وعزاه لسفيان بن عيينة في جامعه.

قال أبو الليث حدثنا أبو جعفر قال حدثنا أبو القاسم حدثنا محمد بن الحسن حدثنا سفيان عن وكيع عن زياد بن إسماعيل عن محمد بن عبادة عن أبي هريرة قال جاء مشركو قريش إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخاصمونه في القدر فنزلت الآية يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر(١). وروى الضحاك عن ابن عباس في قوله إنا كل شيء خلقناه بقدر قال خلق لكل شيء من خلقه ما يصلحهم من رزق ومن الدواب وخلق لدواب البر ولغيرها من الرزق ما يصلحها وكذلك لسائر خلقه قوله عز وجل ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ يعني وَمَا أمرنا بقيام الساعة إلا مرة واحدة ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ يعني كرجع البصر ومعناه إذا أمرنا بقيام الساعة واحدة فنقول كن فيكون أقرب من طرف البصر ثم قال ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ يعني عَذَّبنا أشباهكم وأهل ملتكم ويقال إخوانكم حين كذبوا رسلهم ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ يعني معتبر يعتبر فيكم فيعلم أن ذلك حق ويخاف عقوبة الله. ثم قال عز وجل ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ يعني وكل شيء عملوه في الكتاب يحصى عليهم ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ يعني مكتوباً في اللوح المحفوظ ثم قال ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني الذين يتقون الشرك والفواحش ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ يعني في بساتين وأنهار جارية ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ يعني في أرض كريمة ويقال: في مجلس حسن وهي أرض (الجنة) ﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ يعني في جوار مليك قادر على الثواب قادر على خلقه مثيب ومعاقب وقال القتبي النهر الضياء والسعة من قولك انهرت الطعنة إذا وسعتها. (قال أبي بن كعب رضي الله عنه. من قرأ سورة اقتربت الساعة في كل غب بعثه الله تعالى ووجهه مثل القمر ليلة البدر، وإن قرأ بها في كل ليلة كان أفضل)(٢) والله أعلم بالصواب.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/٤٤٤، ٤٧٦، وانظر تفسير ابن كثير ٧/٤٥٨.

(٢) سقط في أ.



سورة الرحمن(١)

وهي سبعون وثمان آيات مدنية(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿**الرحمن علم القرآن**﴾ وذلك أنه لما نزل قوله تعالى اسجدوا للرحمن قال كفار مكة وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا، وقالوا ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة الكذاب فأنزل الله تعالى «الرحمن» فأخبر عن نفسه وذكر صفة توحيده فقال «الرحمن» يعني الرحمن الذي أنكروه علم القرآن يعني أنزل القرآن على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليقرأه عليه جبريل عليه السلام ويعلمه ﴿**خَلَقَ الإِنْسَانَ**﴾ يعني الذي خلق آدم من أديم الأرض ويقال خلق محمداً، ويقال خلق الإنسان أراد به جنس الإنسان يعني جعله مخبراً مميزاً حتى يميز الإنسان من جميع الحيوان ﴿**عَلَّمَهُ البَيَانَ**﴾ يعني الكلام ويقال يعني الفصاحة ويقال الفهم ثم قال ﴿**الشمس والقمر بحسبان**﴾ يعني بحساب ومنازل ولا يتعدانها، ويقال: بحسبان يعني يدلان على عدد الشهور والأوقات ويعرف منها الحساب ﴿**وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ**﴾ والنجم كل نبات ينبسط على وجه الأرض ليس له ساق مثل الكرم والقرع(٣) ونحو

---

(١) ابتدئت هذه السورة بالتنويه بالقرآن قال في الكشاف «أراد الله أن يقدم في عدد آلائه أول شيء ما هو أسبق قدماً من ضروب آلائه وأصناف نعمائه وهي نعمة الدين فقدم من نعمة الدين ما هو أعلى مراتبها وأقصى مراقبها وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه، وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره ثم أتبعه إياه ثـم ذكـر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان» اهـ.

وتبع ذلك من التنويه بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن الله هو الذي علمه القرآن رداً على مزاعم المشركين الذين يقولون ﴿**إنما يعلمه بشر**﴾، ورداً على مزاعمهم أن القرآن أساطير الأولين أو أنه سحر أو كلام كاهن أو شعر. ثم التذكير بدلائل قدرة الله تعالى فيما أتقن صنعه مدمجاً في ذلك التذكير بما في ذلك كله من نعم على الناس. وخلق الجن وإثبات جزائهم. والموعظة بالفناء وتخلص من ذلك إلى التذكير بيوم الحشر والجزاء. وختمت بتعظيم الله والثناء عليه. وتخلل ذلك إدماج التنويه بشأن العدل، والأمر بتوفية أصحاب الحقوق حقوقهم، وحاجة الناس إلى رحمة الله فيما خلق لهم، ومن أهمها نعمة العلم ونعمة البيان وما أعد من الجزاء للمجرمين ومن الثواب والكرامة للمتقين ووصف نعيم المتقين. ومن بديع أسلوبها افتتاحها الباهر باسمه «الرحمن» وهي السورة الوحيدة المفتتحة باسم من أسماء الله لم يتقدمه غيره. ومنه التعداد في مقام الامتنان والتعظيم بقوله ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ إذ تكـرر فيها إحدى وثلاثين مرة وذلك أسلوب عربي جليل. انظر التحرير ٢٧/٢٢٩.

(٢) في أ سبعون وست آيات وهي مكية.

(٣) القرع: جنس نباتات زراعية من الفصيلة القرعية، فيه أنواع تزرع لثمارها، وأصناف تزرع للتزيين واحدته قرعة، وأكثر ما تسميه العرب الدباء. انظر المعجم الوسيط ٢/٧٣٥.

ذلك أو الشجر كل نبات له ساق يسجدان يعني ظلهما يسجدان لله تعالى في أول النهار وآخره ويقال يسجدان يعني يسبحان الله تعالى كما قال «وإن من شيء إلا يسبح بحمده» ويقال: خلقهما على خلقه فيها دليل لربوبيته ويدل الخلق على سجوده، وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله والنجم والشجر يسجدان قال نجوم السماء وأشجار الأرض يسجدان بكرة وعشياً[1] ثم قال عز وجل ﴿**والسماء رفعها**﴾ يعني من الأرض مسيرة خمسمائة عام ﴿**ووضع الميزان**﴾ يعني أنزل الميزان للخلق يوزن به وإنما أنزل في زمان نوح عليه السلام ولم يكن قبل ذلك ميزان ﴿**ألا تطغوا في الميزان**﴾ يعني لكي لا تظلموا في الميزان، ويقال ووضع الميزان يعني أنزل العدل في الأرض ألا تطغوا في الميزان يعني لكي لا تميلوا عن العدل ﴿**وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالقِسْطِ**﴾ يعني اعدلوا في الوزن ﴿**وَلَا تُخْسِرُوا المِيزَانَ**﴾ يعني لا تنقصوا حقوق الناس في الوزن، ويقال وأقيموا الوزن يعني أقيموا اللسان بالقول ولا تخسروا الميزان يعني لا تقولوا بغير حق ﴿**وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ**﴾ يعني بسط الأرض للخلق. ﴿**فِيهَا فَاكِهَةٌ**﴾ يعني وخلق من الأرض من ألوان الفاكهة ﴿**وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ**﴾ يعني ذات النخيل الطويل الموقرة بالطلع ذات الخلق، وإنما العجائب في خلقه وما يتولد منه لأنه يتولد من النخيل من المنافع ما لا يحصى، وقال القتبي: «ذات الأكمام» يعني ذات الكوى قبل أن تتفتق وغلاف كل شيء أكمه (ذات الأكمام) يعني ذات الغلاف.

وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾

ثم قال ﴿**وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ**﴾ يعني: ذو الورق ﴿**وَالرَّيْحَانُ**﴾ يعني ثمره، وقال مجاهد: العصف يعني ورق الحنطة، والريحان الرزق، وقال الضحاك: الحب الحنطة، والشعير والعصف التبن. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: العصف الزرع، والريحان الورق بلسان حمير، ويقال: العصف السنبل، والريحان ثمرته وما ينتفع به. ويقال الريحان يعني الرياحين جمع الريحان وهو نبت لا ساق له قرأ ابن عامر والحب ذو العصف بنصب الباء وإنما نصبه لأنه عطف على قوله (الأرض وضعها للأنام) (والحب) يعني وخلق الحب ذا العصف والريحان، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم (والحب ذو العصف والريحان) بضم النون والباء لأنه عطف على قوله (فيها فاكهة) وقرأ حمزة والكسائي هكذا إلا أنهما كسرا النون في قوله (والريحان) عطفا على (العصف) على وجه المجاورة وقد ذكر الله تعالى من أول السورة نعماءه ثم خاطب الإنس والجن فقال ﴿**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ وإن لم يسبق ذكرهما لأن في الكلام دليلاً وقد ذكرهما من بعده وهو قوله (يا معشر الجن والإنس) وقال (فبأي آلاء ربكما تكذبان) يعني فبأي نعمة من نعماء ربكما أيها الجن والإنس تكذبان يعني تتجاحدان بأنها ليست من الله تعالى، قال بعضهم آلاء الله ونعماء الله واحد إلا أن الآلاء أعم والنعماء أخص، ويقال الآلاء النعمة الظاهرة وهو التوحيد والنعماء النعمة الباطنة وهو المعرفة بالقلب كقوله «وَاسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً».

وقال بعضهم الآلاء إيصال النعم، والنعماء رفع البلايا، مثاله أن رجلاً لو كانت له يد شلاء فله الآلاء وليست النعماء، وكذلك لسان الأخرس ورجل مقعد فله الآلاء وليست له النعماء وأكثر المفسرين لم يفصلوا بينهما وقد ذكر

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٤١ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

في هذه السورة دفع البلية وإيصال النعمة فكل ذلك سماه الآلاء، وروى محمد بن المنذر عن جابر بن عبد الله أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ على أصحابه سورة الرحمن فسكت القوم فقال النبي عليه السلام الجن كانوا أحسن رداً منكم ما قرأت عليهم فبأي آلاء ربكما تكذبان إلا قالوا ولا بواحدة منها فلك الحمد[1] وفي رواية أخرى أنه قال ما قرأت عليهم إلا قالوا ولا بواحدة منها فلك الحمد ثم قال: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ﴾ يعني آدم ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ يعني الطين اليابس الذي يتصلصل أي يصوت كما يصوت الفخار، ويقال الصلصال الطين الجيد الذي ذهب عنه الماء وتشقق﴿كَالْفَخَّارِ﴾ يعني الطين الذي يصنع به الفخار وقال في موضع آخر (خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) وقال في موضع آخر (من طين) وقال في موضع آخر (من صلصال) فهذا كله قد كان حالاً بعد حال ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ يعني أبا الجن ثم قال هو إبليس ﴿مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ يعني من لهب من نار وليس لها دخان.

وقال بعضهم خلق من نار جهنم وقال بعضهم من النار التي بين الكلة الرقيقة بين السماء ومنها يكون البرق ولا يرى السماء إلا من وراء تلك الكلة ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني فبأي نعمة أنتم يعني خلقكم أيها الإنس من نفس واحدة وخلقكم أيها الجن من نفس واحدة فكيف تنكرون هذه النعمة أنها ليست من الله تعالى ثم قال ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ يعني هو رب المشرقين مشرق الشمس ومشرق القمر وقيل مشرق الشتاء ومشرق الصيف ورب المغربين يعني مغرب الشتاء والصيف ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني نعمة أنتم من نعمائه أيها الجن والإنس تتجاحدان؟ ومعناه أنتم حيث ما كنتم من مشارق الأرض ومغاربها في ملك الله تعالى وتأكلون رزقه وهو عالم حيث ما كنتم وهو حافظكم وناصركم فكيف تنكرون هذه النعم.

مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾

قوله عز وجل: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ يعني أرسل البحرين ويقال خلّى البحرين ويقال خلق البحرين يلتقيان يعني مالح وعذب ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ يعني حاجز ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ يعني لا يختلطان فيغير طعمه وأصل البغي التطاول والجَوْرُ والظلم، وقال بعضهم بينهما حاجز لطيف لا يراه الخلق وإنما العبرة في ذلك أنه لا يرى ويقال بعضهم ليس هناك شيء وإنما تمنعهما من الاختلاط قدرة الله تعالى ويقال يلتقيان أي يتقابلان أحدهما بحر الروم والآخر بحر فارس وقيل بحر الهند وبينهما برزخ لا يبغيان أي لا يختلطان ؛(بينهما برزخ) بلطف الله تعالى أي باللطف تمنع عن الامتزاج وهما بحر واحد لن يمس أحدهما بالآخر وقال الزجاج: البرزخ الحاجز[2] فهما من دموع العين مختلطان وفي قدرة الله منفصلان وقيل بينهما برزخ أي جزيرة العرب، وقيل بحر السماء والأرض كقوله تعالى

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٤٦٦/٧ وفي البداية والنهاية ٥٧/١.
(٢) انظر لسان العرب ٢٥٦/١.

فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وبينهما برزخ الهواء والأرض وسكان الأرض ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني خلق البحرين لمنفعة الخلق وبين لكم العبرة وقدرته ولطفه لتعتبروا به وتوحدوه فكيف تنكرون هذه النعمة بأنها ليست من الله تعالى ثم قال ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ﴾ يعني من بحر مالح اللؤلؤ ﴿وَالْمَرْجَانُ﴾ ما صغر منه ويقال اللؤلؤ يعني الصغار والمرجان يعني العظام.

وقرأ نافع وأبو عمرو يُخْرَج بضم الياء ونصب الراء على فعل ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون بنصب الياء وضم الراء، وقرأ بعضهم بكسر الراء[1] يعني يخرج الله تعالى ونصب اللؤلؤ والمرجان لأنه مفعول به. ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني خلق في البحر اللؤلؤ لمنفعة الخلق ولصلاحهم ولكي تعتبروا به فكيف تنكرون هذه النعمة ثم قال عز وجل ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ﴾ يعني السفن التي تجري في الماء ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ يعني كالجبال فشبه السفن في البحر بالجبال في البر وقرأ حمزة المنشئات بكسر الشين والباقون بالنصب[2] فمن قرأ بالكسر يعني المبتدئات في السير ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أنه جعل السفن في البحر لمنفعة الخلق فكيف تنكرون هذه النعمة بأنها ليست من الله تعالى ثم قال عز جل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ يعني كل شيء على وجه الأرض يفنى ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ يعني ذو الملك والعظمة والإكرام ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ يعني ذو الملك والعظمة والإكرام يعني ذو الكرم والتجاوز فلما نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلكت بنو آدم فلما نزل (كل نفس ذائقة الموت) أيقنوا بهلاك أنفسهم وهذا من النعم لأنه يحذرهم وبين لهم ليتهيئوا لذلك ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ومعناه إن الله تعالى يعينكم فتوكلوا عليه ولا تعتمدوا على الناس لأنهم لا يقدرون على دفع الهلاك عن أنفسهم والله هو الباقي بعد فناء الخلق وهو الذي يتجاوز عنكم ويعينكم فكيف تنكرون ربكم الذي خلقكم وأحسن إليكم، قوله تعالى ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني الملائكة يسألون لأهل الأرض المغفرة ويسأل أهل الأرض جميع حوائجهم من الله تعالى ثم قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يعني في كل يوم يُعز ويذل، ويحيي ويميت، ويعطي ويمنع، وذلك أن اليهود قالوا إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً فنزل (كل يوم هو في شأن) فأخبر الله تعالى أنه يقضي في جميع الأيام وكان هذا من النعم، وذكر أن الحجاج بن يوسف الثقفي أرسل إلى محمد ابن الحنفية يتوعده قال لأفعلن بك كذا وكذا فأرسل إليه محمد ابن الحنفية وقال إن الله تعالى ينظر في كل يوم ثلاث مائة وستين نظرة إلى اللوح المحفوظ وكل يوم يعز ويذل ويعطي ويمنع فأرجو أن يرزقني الله تعالى ببعض نظراته أن لا يجعل لك علي سلطان فكتب بها الحجاج إلى عبد الملك بن مروان فكتب عبد الملك بهذه الكلمات التي قالها محمد ابن الحنفية ووضعها في خزانته فكتب إليه ملك الروم يتوعده في شيء فكتب إليه عبد الملك بتلك الكلمات التي قالها محمد ابن الحنفية فكتب إليه صاحب الروم والله ما هذا من كنزك ولا من كنز أهل بيتك ولكنها من كنز أهل بيت النبوة

ثم قال عز وجل ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني تجحدون نعمته وأنتم تسألون حوائجكم منه

قوله عز وجل: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ أي سنحفظ عليكم أعمالكم أيها الجن والإنس فنجازيكم بذلك، وروى جبير عن الضحاك في قوله سنفرغ لكم أيها الثقلان قال هذا وعيد من غير شغل إن الله تعالى لا

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٩١، النشر في القراءات العشر ٢/ ٣٨٠.

(٢) المصدران السابقان.

يشغل[١] بشيء وقال الزجاج الفارغ في اللغة على ضربين أحدهما الفراغ من الشغل والآخر القصد للشيء كما تقول سأفرغ لفلان أي سأجعل قصدي له

قرأ حمزة والكسائي (سيفرغ لكم) بالياء والباقون بالنون[٢] وكلاهما يرجع إلى معنى واحد يعني سيحفظ الله عليكم أعمالكم ويحاسبكم بما تعملون. ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني ما عملتم فإنه لا ينسى ولا يمنح ثوابه وينصفكم من ظلمكم فكيف تنكرون هذه النعم بأنها ليست من الله تعالى واعلموا أن هذه النعم كلها من الله فاشكروه فكيف تنكرون من هو يجازيكم بأعمالكم ولا يمنع ثواب حسناتكم وينصركم على أعدائكم فهذه النعم كلها من الله فاشكروه ووحدوه.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾

ثم قال ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ يعني إن قدرتم ﴿أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني أن تخرجوا من أطراف السَّمَوَاتِ والأرض ونواحيها ﴿فَانْفُذُوا﴾ يعني فاخرجوا إن استطعتم قال مقاتل: هذا الخطاب للجن والإنس في الدنيا يعني إن استطعتم أن تخرجوا من أقطار السماوات والأرض هروباً من الموت فانفذوا ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ يعني أينما أدرككم الموت، وروي عن ابن عباس أنه قال هذا الخطاب في يوم القيامة وذلك أن السماء تتشقق بالغمام وتنزل ملائكة السَّمَوَات ويقومون حول الدنيا محيطاً بها وجاء الروح وهو ملك يقوم صفا وهو أكبر من جميع الخلق فحينئذ يقال لهم إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السَّمَوَات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان يعني لا تنجون إلا بحجة وبرهان ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني فبأي نعمة من نعمائه تجحدون حيث بين لكم أحوال يوم القيامة حتى تتوبوا وترجعوا، ويقال معناه ذلك اليوم لا يفوته أحد ولا يعينكم أحد غيره فكيف تجحدون هذه النعم ثم قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ﴾ يعني يرسل على كفار الجن وكفار الإنس لهب من النار ﴿وَنُحَاسٌ﴾ يعني الصُّفْر المذاب يعذبون بهما ويقال دخان لهب فيه ويقال

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٤٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٢) حجة من قرأ بالياء أنه أتى عقيب ذكر الله بلفظ التوحيد وهو قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ في السمواتِ والأرض كل يومٍ هو في شأن﴾ فأجريا الفعل بعده على لفظ ما تقدمه إذ كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظم واحد. وحجة من قرأ بالنون أن ما جرى في القرآن من إسناد الأفعال إلى الله: بلفظ الجمع، وشبيه به قوله ﴿وقدمنا إلى ما عملوا﴾ قالوا: لأن معنى «سنفرُغ»: سنقصد بحسابكم. انظر حجة القراءات ٦٩٢.

(٣) الصُّفْرُ هو النحاس الأصفر المذاب. انظر المعجم الوسيط ١/٥١٩.

النحاس هو لباس أهل النار ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ يعني لا تُمنعان من ذلك قرأ ابن كثير (يرسل عليكما شِواظ) بكسر الشين والباقون[1] بالضم فهما لغتان ومعناهما واحد وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (ونحاسٍ) بكسر السين والباقون بالضم[2] فمن قرأ بالكسر عطف على قوله من نار ومن قرأ بالضم عطف على قوله شواظ ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني لا يعينكم أحد غير الله ولا يحفظكم حين يرسل عليكم العذاب إلا الله فكيف تنكرون قدرته وتوحيده ثم قال عز وجل ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يعني انفرجت السماء لنزول الملائكة كقوله ويوم (تشقق السماء بالغمام) ثم قال: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ يعني صارت كدهن الورد الصافي، وهذا قول مقاتل وقال القتبي صارت حمراء في لون الفرس يعني بمنزلة الدابة الجُلّجُون الذي تغير لونه في كل وقت يرى لونه على خلاف اللون الأول، ويقال له المورد، ويقال الدهن الأديم الأحمر بلغة الفارسي يعني الفرس الذي يكون لونه لون الورد الأحمر يعنون أخضر يضرب إلى سواد يتغير لونه بياض، ويقال من هيبة ذلك زاغ فيرى أنه كالدهن. ثم قال عز وجل ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني إذا كان يوم القيامة تغيرت السمٰوات من هيبته ويأمر الخلق بالحساب فهو الذي ينجيكم من هول ذلك اليوم فكيف تنكرون هذه النعمة ثم قال عز وجل ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ﴾ يعني عن علمه ﴿إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ يعني إنسياً ولا جنياً لأن الله تعالى قد أحصى عليه ويقال لا يسأل سؤال استفهام ولكم يسأل سؤال التوبيخ والزجر، كقوله تعالى (فَوَرَبك لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) ويقال لا يسأل الكافر لأنه عرف بعلامته ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني إذا كان يوم القيامة أعطاكم الثواب وأدخلكم في جنته فكيف تنكرون وحدانيته ويقال معناه: إن الله قد بين لكم أنه يعلم أعمالكم ونهاكم عن الذنوب وتجاوز عنكم فكيف تنكرون وحدانيته قوله عز وجل ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ يعني يُعرف الكافر بسواد الوجوه وزرقة الأعين ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ وذلك أن خزنة جهنم بعد الحساب يغلون أيديهم إلى أعناقهم ويجمعون بين نواصيهم إلى أقدامهم ثم يدفعونهم على وجوههم فيطرحونهم في النار ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني هو الذي يدفع عنكم ذلك العذاب إن آمنتم به وأطعتموه ووحدتموه فكيف تنكرون هذه النعمة ثم قال عز وجل ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾ وذلك أن الكفار إذا دنوا من النار تقول لهم الخزنة هذه جهنم ﴿الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني جهنم التي كنتم بها تكذبون في الدنيا ثم أخبر عن حالهم فيها فقال: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ يعني الشراب الحار الذي قد انتهى حره وذلك أنه يسلط عليهم الجوع فيؤتى بهم إلى الزقوم الذي طلعه كرؤوس الشياطين فأكلوا منه فأخذ في حلقهم فاستغاثوا بالماء فأتوا من الحميم فإذا قربوا إلى وجوههم تناثر لحم وجوههم فيشربون فيغلي في أجوافهم ويخرج جميع ما فيها ثم يلقى عليهم الجوع فمرة يذهب بهم إلى الحميم ومرة إلى الزقوم فذلك قوله تعالى (يطوفون بينها وبين حميم آن).

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٩٣، النشر في القراءات العشر ٢ / ٣٨١.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢ / ٥١١.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١﴾

ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني هو الذي ينجيكم من عذاب الآخرة إن أطعتم أمره وآمنتم برسله فكيف تنكرون وحدانية الله تعالى؟ ويقال معناه إن إخباري إياكم بهذه العقوبة نعمة لكم لكي تنتهوا عن الكفر والمعاصي فلا تنكروا نعمتي عليكم فقد ذكر الله في هذه الآيات دفع البلاء ثم ذكر إيصال النعم لمن اتقاه وأطاع أمره فقال ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ يعني من خاف عند المعصية مقام يوم القيامة بين يدي ربه فانتهى عن المعصية فله في الآخرة جنتان يعني بستانان، وقال مجاهد هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر الله عندها فيدعها فله[1] أجران.

وذكر عن الفراء أنه قال «جنتان» أراد به جنة واحدة وإنما ذكر «جنتان» للقوافي، والقوافي تحتمل الزيادة والنقصان ما لا يحتمل الكلام. وقال القتبي هذا لا يجوز لأن الله قد وعد ببستانين فلا يجوز أن يريد بهما واحداً فلو جاز هذا لجاز أن يقال في قوله تسعة عشر إنما هم عشرون ولكن ذكر للقوافي. ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني بأي نعمة من نعماء الله تعالى تتجاحدان إذ جعل الجنة ثواب أعمالكم فكيف تنكرون وحدانية الله تعالى ونعمته قوله تعالى ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ يعني ذواتا ألوان يعني البساتين فيها ألوان من الثمرات ويقال ذواتا أغصان وقال الزجاج الأفنان ألوان وهي الأغصان أيضاً واحدها فَنَنٌ ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني قد وُعِدْتُمُ الجنة والراحة فكيف تنكرون وحدانيته ونعمته ثم قال عز وجل ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ يعني في البساتين نهران من ماء غير آسن أي غير متغير ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني جعل الأنهار نزاهة لكم زيادة في النعمة فكيف تنكرون قدرة الله تعالى ونعمته ثم قال ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، يعني في هذين البستانين من كل لون من الفاكهة صنفان الحلو والحامض ويقال لونان ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني جعل فيهما من الراحة والنزاهة من كل نوع من الفاكهة فكيف تنكرون نعمته وقدرته قوله عز وجل ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ﴾ يعني ناعمين على فرش ﴿بَطَائِنُهَا مِنِ اسْتَبْرَقٍ﴾ هو الديباج الغليظ الأخضر بلغة فارس وقال مقاتل بطائنها يعني ظواهرها وذكر عن الفراء أنه قال بطائنها يعني الظهارة وقد تكون الظهارة بطانة والبطانة ظهارة لأن كل واحد منهما يكون وجهاً واحداً وقال القتبي هذا لا يصح ولكن ذكر البطانة تعليماً أن البطانة إذا كانت من استبرق فالظهارة تكون أجود وروي عن ابن عباس أنه سئل أن بطائنها من استبرق فما الظواهر؟ قال هو مما قال الله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة[2] أعين) ثم قال ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ يعني اجتناؤهما قريب إن شاء تناولهما قائماً وإن شاء تناولهما قاعداً وإن شاء متكئاً ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني جعل لكم مجالس الملوك مع الفراش المرتفعة فكيف تنكرون وحدانية الله ونعمته ثم قال عز وجل ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ يعني في الجنان من الزوجات غاضات البصر قانعات بأزواجهن لا يشتهين غيرهم ولا ينظرون إلى غيرهم قوله تعالى ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ﴾ يعني لم يمسسهن إنس ﴿قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ﴾ يعني لا إنساً ولا جنياً ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني جعل لكم أزواجاً موافقة لطبعكم وهن لا يرون غيركم فكيف تنكرون الله تعالى؟ ثم وصف الزوجات فقال ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ يعني: في الصفاء كالياقوت،

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٤٦ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد وابن أبي الدنيا في التوبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٤٧ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

وفي البياض كالمرجان ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني جعلهن بحال تتلذذ أعينكم بالنظر إليهن فكيف تنكرون وحدانية الله تعالى ونعمته؟ ثم قال عز وجل ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ يعني هل جزاء التوحيد وهو قول لا إله إلا الله إلا الجنة، ويقال هل جزاء من خاف مقام ربه إلا هاتان الجنتان التي ذكرناها في الآية ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني فكيف تنكرون نعمة ربكم حيث جعل ثواب إحسانكم الجنة وبين لكم لكي تحسنوا وتنالوا ثواب الله وإحسانه.

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

ثم قال عز وجل ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ يعني من دون الجنتين اللتين ذكرهما جنتان أخروان، فالأوليان جنة النعيم وجنة عدن والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني قد ذكر للمتقين جنتين وجنتان أخريان زيادة على الكرامة فكيف تنكرون فضل ربكم وكرامته ثم وصف الجنتين الأخريين فقال ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ يعني خضراوان ويقال التي تضرب خضرها إلى السواد ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني جعل لكم الجنان المخضرة لأن النظر في الخضرة يُجلي البصر فكيف تنكرون وحدانيته ثم قال ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ يعني ممتلئتان فوارتان وقال القتبي، يعني تفوران بالماء والنضخ أكثر من النضح وقال مجاهد نضاختان يعني مملوءتان من الخير لا ينقطعان[1] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ يعني كيف تنكرون من جعل لكم فيهما عينان تفوران على الدوام ولا انقطاع لهما ثم قال عز وجل ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ يعني في الجنتين الأخريين من ألوان الفاكهة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ معناه في الجنتين الأخريين من ألوان الفاكهة كمثل ما في الأوليين فأنتم تجدون فيها ألواناً من الثمار والفواكه فكيف تنكرون هذه النعمة ثم قال عز وجل ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ يعني في الجنان كلها زوجات حسان وقال الزجاج أصله في اللغة[2] خيرات وقد قرىء بالتشديد وقراءة العامة بالتخفيف[3] وقال

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٥٠ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد.

(٢) اختلف أيهما أكثر حسناً وأبهر جمالاً الحور أو الآدميات فقيل الحور لما ذكر من وصفهن في القرآن والسنة، ولقوله عليه الصلاة والسلام في دعائه على الميت في الجنازة: (وأبدله زوجاً خيراً من زوجه). وقيل: الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف، وروي مرفوعاً. وذكر ابن المبارك: وأخبرنا رشدين عن ابن أنعم عن حبان بن أبي جبلة، قال: إن نساء الدنيا من دخل منهن الجنة فُضِّلن على الحور العين بما عملن في الدنيا. وقد قيل: إن الحور العين المذكورات في القرآن هي المؤمنات من أزواج المحسنين والمؤمنين يُخْلَقن في الآخرة على أحسن صورة، قاله الحسن البصري والمشهور أن الحور العين لسن من نساء أهل الدنيا وإنما هن مخلوقات في الجنة، لأن الله تعالى قال: ﴿لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان﴾ وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات، ولأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «إن أقل ساكني الجنة النساء» فلا يصيب كل واحد منهم امرأة، ووعد الحور العين لجماعتهم، فثبت أنهن من غير نساء الدنيا. انظر تفسير القرطبي ١٧/١٢٢.

(٣) انظر حجة القراءات ٦٩٤.

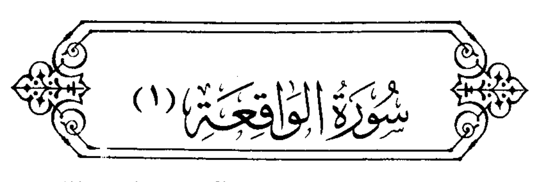
مقاتل خَيِّرات الأخلاق حسان الوجوه ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني في هذه الجنان الأربعة في كل واحدة منها تجدون خيرة زوجة هي أُحسن بما في الأخرى فكيف تنكرون عزة ربكم ولا تشكرونه ثم وصف الخيرات فقال ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ﴾ يعني محبوسات ﴿فِي الْخِيَامِ﴾ على أزواجهن وقال ابن عباس الخيمة الواحدة من لؤلؤة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب[1] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني فكيف تنكرون هذه النعمة حين حَبَس الأزواج الطيبات لكم إن أطعتم الله ثم قال عز وجل ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ يعني لم يمسسهن إنس قبلهم ولا جان قرأ الكسائي (لم يطمثـهن) بضم الميم والباقون بالكسر وهما لغتان ومعناهما واحد ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ثم قال ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ﴾ يعني نائمين على المجالس الخضر على السرر الحسان ويقال على رياض ﴿خُضْرٍ وعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ يعني الزرابيّ الكثيرة الألوان وهي الطنافس الحسان وقال مجاهد وعبقري حسان يعني[2] الديباج وقال الزجاج وإنما قال (عبقري حسان) ولم يقل حسن لأن العبقري جماعة يقال للواحدة عبقرية كما تقول ثمرة وثمر لوزة ولوز وأيضاً يكون العبقري اسم جنس والعبقري كل شيء بولغ في وصفه والعبقري البُسُط ويقال الطنافس المبسوطة ثم قال عز وجل ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني فبأي نعمة من نعماء ربكما أيها الجن والإنس تتجاحدان مع هذه الكرامات التي بين الله تعالى لكم لتعلموا فتنالوا تلك الكرامات ما شاء الله ثم قال عز وجل ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ﴾ يعني ذي الارتفاع يعني ارتفاع المنزلة والقدرة ﴿وَالإِكرام﴾ يعني الكريم المتجاوز عن المذنبين ويقال الاسم زيادة في الكلام ومعناه تبارك ربك.

قرأ ابن عامر (ذو الجلال) بـالـواو والباقون (ذي الجلال) بالياء فمن قرأ (ذو) جعله نعتاً للاسم والاسم رفع ومن قرأ بالكسر جعله نعتاً للرب عز وجل والله أعلم.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٥١/٦ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٥٢/٦ وعزاه لابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.



وهي تسعون وست آيات مكية[٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣)﴾

قوله تعالى ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ يعني قامت القيامة وإنما سميت القيامة الواقعة لثبوتها وهي النفخة الآخرة، وقال قتادة هي الصيحة أسمعت القريب والبعيد ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ يعني ليس لها مثوبة ولا ارتداد ويقال ليس لقيامها تكذيب ـ ثم وصف القيامة فقال ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ يعني خفضت أقواماً بأعمالهم فأدخلتهم النار ورفعت أقواماً بأعمالهم فأدخلتهم الجنة.

وقال قتادة في قوله (خافضة رافعة) يعني خفضت أقواماً في عذاب الله ورفعت أقواماً في كرامات الله[٣].

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩)﴾

ثم قال عز وجل: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ يعني زلزلت الأرض زلزلة وحركت تحريكاً شديداً لا تسكن حتى تلقي جميع ما في بطنها على ظهرها ثم قال ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً﴾ يعني فتتت الجبال فتاً، ويقال قُلِعت الجبال قَلْعاً ويقال كُسِرت الجبال كسراً ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً﴾ يعني تراباً وهو ما يسطع من سنابك الخيل، ويقال الغبار الذي في شعاع الكوة، وقال القتبي وبست الجبال بساً ـ يعني فتتت حتى صارت كالدقيق والسويق المبثوث، ثم وصف حال الخلق في يوم القيامة وأخبر أنهم ثلاثة أصناف اثنان في الجنة وواحدة في النار ثم نعت كل صنف من الثلاثة على حده فقال ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً﴾ يعني تكونون يوم القيامة ثلاث أصناف ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ يعني الذين يعطون كتابهم بأيمانهم ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ يعني ما تدري ما لأَصْحاب الميمنة من الخير والكرامات ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ﴾ يعني الذين يعطون كتابهم بشمالهم ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ﴾ يعني ما تدري ما لأصحاب المشئمة من

---

(١) من أغراض هذه السورة التذكير بيوم القيامة وتحقيق وقوعه. ووصف ما يعرض وهذا العالم الأرضي عند ساعة القيامة. ثم صفة أهل الجنة وبعض نعيمهم. وصفة أهل النار وما هم فيه من العذاب وأن ذلك لتكذيبهم بالبعث. وإثبات الحشر والجزاء والاستدلال على إمكان الخلق الثاني بما أبدعه الله من الموجودات بعد أن لم تكن والاستدلال بدلائل قدرة الله تعالى. والاستدلال بنزع الله الأرواح من الأجساد والناس كارهون لا يستطيع أحد منعها من الخروج، على أن الذي قدر على نزعها بدون مدافع قادر على إرجاعها متى أراد على أن يميتهم. وتأكيد أن القرآن منزل من عند الله وأنه نعمة أنعم الله بها عليهم فلم يشكروها وكذبوا بما فيه. التحرير ٢٧/٢٨٠.

(٢) في أ [تسعون وسبع آيات وهي مكية].

(٣) انظر الدر المنثور ٦/١٥٣.

الشرب والعذاب، ويقال أصحاب الميمنة يعني الذين كانوا يوم الميثاق على يمين آدم عليه السلام ويقال على يمين العرش وأصحاب المشئمة الذين كانوا على شمال آدم عليه السلام. ويقال على شمال العرش، ويقال أصحاب الميمنة الذين يكونون يوم القيامة على يمين العرش ويأخذون طريق الجنة وأصحاب المشئمة الذين يأخذون طريق الشمال فيفضي بهم إلى النار.

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا (٢٦) وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ (٢٧) فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً (٣٥) فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦)

ثم قال عز وجل ﴿والسَابِقُونَ السابقون﴾ يعني السابقين إلى الإيمان والجهاد والطاعات السابقون يعني هم السَّابِقُونَ إلى الجنة فذكر الأصناف الثلاثة ـ أحدها ـ أصحاب اليمين ـ الثاني أصحاب الشمال، والثالث السابقون ثم وصف كل صنف منهم بصفة فبدأ بصفة السابقين فقال ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ يعني المقربين عند الله في الدرجات ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ يعني في جنات عدن. ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ يعني إن السابقين تكون جماعة من الأولين يعني من أول هذه الأمة مثل الصحابة والتابعين وقليل من الآخرين يعني إن السابقين في آخر هذه الأمة يكون قليلاً وقال بعضهم ثلة من الأولين يعني جمعاً من الأمم الخالية وقليل من الآخرين يعني من هذه الأمة فحزن المسلمون بذلك حتى نزلت (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) فطابت أنفسهم، والطريق الأول أصح وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال ـ كلتا الثُّلَّتين من أمتي[١]، وروي عن عبد الله بن يزيد قال ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهل الجنة عشرون ومائة صنف هذه الأمة منها ثمانون صنفاً[٢] ثم قال ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ يعني إن السابقين في الجنة على سرر منسوجة بالدر والياقوت وقال مجاهد موضونة[٣] بالذهب وقال القتبي موضونة أي منسوجة كأن بعضها أدخل في بعض أو نضد بعضها على بعض ومنه قيل للدرع (موضونة) ثم قال ﴿مُتَّكِئِينَ

---

(١) ذكره القرطبي من حديث أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ١٧/ ١٣٠ ذكره الحافظ في تخريجه على الكشاف ٤/ ٤٥٨ وعزاه للطبري وابن عدي، وأبان هو ابن عياش متروك، ورواه إسحاق وسنده إلى الطيالسي وإبراهيم الحربي والطبراني من رواية زيد بن صهبان عن أبي بكرة مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف أولى بالصواب وعلى ضعيف.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٤٦) وابن ماجه (٤٢٨٩) وأحمد في المسند ٥/ ٣٤٧، ٣٥٥ والدارمي ٢/ ٣٣٧ والحاكم في المستدرك ١/ ٨٢ وابن كثير ٢/ ٨٤.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٥٥ وعزاه لسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث.

عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ يعني ناعمين على سرر متقابلين في الزيادة وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ متكئين عليها ناعمين وقال مجاهد متقابلين يعني لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض[١] ثم قال عز وجل ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني في الخدمة ﴿وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ يعني غلماناً خلدوا في الجنة، ويقال على سن واحد لا يتغيرون لأنهم خلقوا للبقاء ومن خلق للبقاء لا يتغير، ويقال مخلدون يعني لا يكبرون ويقال هم أولاد الكفار لم يكن لهم ذنب يعذبون ولا طاعة يثابون فيكونون خداماً لأهل الجنة قوله تعالى ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ هي التي لها عرى ثم قال ﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ يعني خمراً بيضاء من نهر جار ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ يعني لا يصدع رؤوسهم بشرب الخمر في الآخرة ﴿وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ يعني لا تذهب عقولهم ولا ينفد شرابهم ثم قال ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ يعني ما يتمنون ويختارون من ألوان الفاكهة ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ يعني إن شاء شوياً وإن شاء مطبوخاً ثم قال عز وجل ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحور عين بالكسر عطفاً على قوله (بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ) والباقون وحور عين بالضم[٢] ومعناها ولهم حور عين ـ والحور البيض والعين الحسان الأعين ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ يعني اللؤلؤ الذي في الصدف لم تمسه الأيدي ولم تره الأعين ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني هذه الجنة مع هذه الكرامات ثواباً لأعمالهم ثم قال ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً﴾ يعني في الجنة خلفاً وكذباً ﴿وَلَا تَأْثِيماً﴾ يعني كلاماً فيها عند الشرب كما يكون في الدنيا ويقال ولا تأثيماً يعني ولا إثم عليهم فيما شربوا ﴿إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً﴾ يعني إلا قولاً وكلاماً يسلم بعضهم على بعض ويبعث الله تعالى إليهم الملائكة بالسلام فهذا كله نعت السابقين.

ثم ذكر الصنف الثاني فقال ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ يعني ما لأصحاب اليمين من الخير والكرامة على وجه التعجب ثم وصف حالهم فقال ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ يعني لا شوك له كالدر الذي يكون في الدنيا وقال قتادة (في سدر مخضود) يعني كثير الحمل أي ليس له شوك، وقال القتبي كأنه نضد شوكه يعني قطع، وروي في الخبر أنه لما نزل ذكر السدر قال أهل الطائف إنها سِدْرنا هذا فنزل مخضود يعني موقر بلا شوك ثم قال: ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ وقال مقاتل يعني الموز المتراكم بعضه على بعض وقال قتادة هو الموز[٣] وهذا روي عن ابن عباس والمنضود الذي نضد بالحمل من أوله إلى آخره ويروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قرأ (وطلع منضود)[٤] كقوله تعالى (طلع نضيد) كقوله تعالى ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ يعني دائماً لا يزول، وروي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها اقرؤوا إن

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٥٥/٦ وعزاه لابن جرير.

(٢) حجتهم في ذلك: أن الحور لا يطاف بهن، وإنما يطاف بالخمر، فرفعوه على الابتداء. قال الفراء: الرفع على قولك: (ولهم حور عين). وقال أبو عبيد: (وعندهم حور عين). ووجه الجر تحمله على قوله: ﴿أولئك المقربون في جناتِ النعيم﴾ (التقدير: أولئك المقربون في جنات النعيم) وفي حور عين: أي: في مقارنة حور عين أو مباشرة حور عين، فحذفت المضاف. وقال الفراء: والخفض إن تتبع آخر الكلام أوله وإن لم يحسن في آخره ما حسن في أوله: أنشدني بعض العرب:

إذا ما الغانيات برزن يوماً وزجّجْنَ الحواجب والعيونا

فالعين لا تُزجّج وإنما تُكحّل، فردَّها على الحواجب لأن المعنى يعرف، وقال:

علفتُها تبناً وماءً بارداً

والماء لا يعلف، فجعله تابعاً للتبن. انظر حجة القراءات ٦٩٥.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٧٥/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٥٧/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم.

شتتم[١] (وظل ممدود) ثم قال ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ يعني منصباً كثيراً ويقال يعني منصباً من ساق العرش ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ يعني ألوان الفاكهة كثيرة ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ﴾ يعني لا مقطوعة يعني لا ينقطع عنهم في حين كما يكون في فواكه الدنيا بل توجد في جميع الأوقات ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ يعني لا يمنع منهم والممنوعة أن ينظر إليها ولا يقدر أن يأكلها. كأشجار الدنيا ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ بعضها فوق بعض مرتفعة ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ يعني الجواري والزوجات، يقال نساء الدنيا خلقناهن خلقاً بعد خلق الدنيا، ويقال إنهن أفضل وأحسن من حور الجنة لأنهن عملن في الدنيا والحور لم يعملن، وعن أنس بن مالك قال قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنا أنشأناهن إنشاء قال إن من المنشآت التي كن في الدنيا عجايز عمشاً[٢] رمصاً[٣] زمناً ثم قال ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾ يعني خلقناهن أبكاراً عذارى

عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾

﴿عُرُباً﴾ يعني محبات عاشقات لأزواجهن لا يردن غيرهم قرأ حمزة وعاصم في إحدى الروايتين عُرْباً بجزم الراء والباقون بالضم[٤] ومعناهما واحد وقال أبو عبيد نقرأ بالضم لأنها أقيس في العربية لأن واحدتها عَرُوب وجمعها عرب مثل صَبُور وصُبُر وشكور وشكر ثم قال ﴿أَتْرَاباً﴾ يعني مستويات في السن كأنهن على ميلاد واحد بنات ثلاث وثلاثين، وروي عن عكرمة أنه قال أهل الجنة ميلاد ثلاثين سنة رجالهم ونساؤهم قامة أحدهم ستون ذراعاً على قامة أبيهم آدم عليه السلام شاب جرد مكملون أحسنهم يرى كالقمر ليلة البدر وأخرهم كالكوكب الدري في السماء يبصر وجهه في وجهها وكبده في كبدها وفي مخ ساقها وتبصر هي وجهها في وجهه وفي كبده وفي مخ ساقه ولا يبزقون ولا يتمخطون وما كان فوق ذلك من الأذى فهو أبعد ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ يعني هـذا الذي ذكـر كرامـة لأصحاب اليمين ثم قال عز وجل: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ يعني جماعة من أول هذه الأمة وجماعة من الآخرين فذكر في السابقين أنهم جماعة من الأولين وقليل من الآخرين لأن السابق في أخر الأمة قليل وأما أصحاب

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٥٧ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه.

(٢) العمش ألا تزال العين تسيل الدمع ولا يكاد الأعمش يبصر بها، وقيل: العمش ضعف رؤية العين مع سيل دمعها في أكثر أوقاتها. انظر لسان العرب ٤/٣١٠٦.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٥٨ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وهناد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث، وقوله (رمصاً رمصت العين رمصاً اجتمع في موقها وسخ أبيض انظر المعجم الوسيط ١/٣٧٤.

(٤) انظر حجة القراءات ٦٩٦، إتحاف فضلاء البشر ٢/٥١٥.

اليمين يكون جماعة من أول الأمة وجماعة من آخر الأمة ثم ذكر الصنف الثالث فقال ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ يعني ما لأصحاب الشمال من شدة وشر وهوان ثم وصف حالهم فقال ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ والسموم الزمهرير يقطع الوجوه وسائر الجسوم ويقال السموم النار الموقدة والحميم الماء الحار الشديد ﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ واليحموم الدخان يعني دخان جهنم أسود ﴿لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ يعني لا بارد شرابهم ولا كريم منقلبهم ثم بين أعمالهم التي استحقوا بها العقوبة بأعمالهم الباطل فقال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ يعني كانوا في الدنيا متكبرين في ترك أمر الله تعالى ويقال كانوا مشركين ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ يعني يثبتون على الذنب العظيم وهو الشرك وإنما سمي الشرك حنثاً لأنهم كانوا يحلفون بالله لا يبعث الله من يموت وكانوا يصرون على ذلك، وقال القتبي الحنث العظيم اليمين الغموس وقال مجاهد الذنب العظيم، وقال ابن عباس الحنث العظيم هو الشرك ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ﴾ مع شركهم ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ يعني بعد ما صرنا تراباً وعظاماً بالياً صرنا أحياء بعد الموت ﴿وَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ الذين مضوا قبلنا وصاروا تراباً قال الله تعالى قل يا محمد ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ يعني الأمم الخالية ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ وهذه الأمة لمجموعة ﴿إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ في يوم القيامة يجتمعون فيه ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أيها الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ بالبعث ﴿لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فمالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ يعني يملؤون من طلعها البطون ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ يعني على إثره يشربون من الحميم ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ يعني كشرب الهيم وهو الإبل الذي يصيبها داء فلا تروا من الشراب ويقال الأرض التى أصابتها الشمس، وهي أرض سهلة من الرملة قرأ نافع وعاصم وحمزة (شُرب الهيم) بضم الشين والباقون بالنصب[1] فمن قرأ بالضم فهو اسم ومن قرأ بالنصب فهو المصدر ويقال كلاهما مصدر شربت ثم قال ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ يعني جزاءهم يوم الجزاء ويقال معناه هو الذي ذكرناه من الزقوم والشراب طعامهم وشربهم يوم الحساب.

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾

ثم قال ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني خلقناكم ولم تكونوا شيئاً وأنتم تعلمون ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ يعني أفلا تصدقون بالبعث وبالرسل ثم أخبر عن صنعه ليعتبروا فقال ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ يعني ما خرج منكم من النطفة ويقع في الأرحام ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ يعني منه بشراً في بطون النساء ذكراً أو أنثى ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ يعني بل نحن نخلقه

(١) هما لغتان العرب تقول «أريد شُرب الماء وشَرب الماء». وقال آخرون: الشرب: المصدر، والشَرب بالضم: الاسم. واحتج من فتح بالخبر: قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (لأنها أيام أكل وشَرب وبعال). حجة القراءات ٦٩٦.

﴿نحنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ يعني نحن قسمنا بينكم الآجال فمنكم من يموت صغيراً ومنكم من يموت شاباً ومنكم من يموت شيخاً، قرأ ابن كثير (نحن قَدَرْنا) بالتخفيف وقرأ الباقون (قدّرنا) بالتشديد[١] ومعناهما واحد لأن التشديد للتكثير ثم قال ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ يعني وما نحن بعاجزين إن أردنا أن نأتي بخلق مثلكم وأمثل منكم وأطوع لله تعالى ﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني ونخلقكم سوى خلقكم من الصور فيما لا تعلمون من الصور مثل القردة والخنازير ويقال وما نحن بعاجزين على أن نرد أرواحكم إلى أجسامكم بعد الموت ثم قال عز وجل ﴿وَلَقَد عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأولَى﴾ يعني علمتم ابتداء خلقكم إذ خلقناكم في بطون أمهاتكم ثم أنكرتم البعث ﴿فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ يعني فهل لا تتعظون وتعتبرون بالخلق الأول أنه قادر على أن يبعثكم كما خلقكم أول مرة ولم تكونوا شيئاً ثم قال ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ﴾ يعني فهل لا تعتبروا بالزرع الذي تزرعونه في الأرض ﴿ءَأَنْتُم تَزْرَعُونَهُ﴾ يعني تنبتونه ﴿أَمْ نَحْنَ الزَّارِعُونَ﴾ يعني أم نحن المنبتون يعني بل الله تعالى أنبته ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطاماً﴾ يعني يابساً هالكاً بعدما بلغ ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ يعني فصرتم تندمون ويقال يعني تتعجبون من يبسه بعد خضرته ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ يعني معذبون ﴿بَلْ نَحنَ مَحْرُومُونَ﴾ يعني حرمنا منفقة زرعنا قرأ عاصم في رواية أبي بكر إنا لمغرمون بهمزتين على الاستفهام وقرأ الباقون بهمزة واحدة[٢] على معنى الخبر ثم قال ﴿أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ءَأَنْتُمْ أَنـزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ يعني من السماء ﴿أَمْ نَحْنُ الْمَنْزِلُونَ﴾ يعني بل نحن المنزلون عليكم ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجاً﴾ يعني مرّاً مالحاً لا تقدرون على شربه ﴿فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾ يعني هلا تشكرون رب هذه النعمة وتوحدونه حين سقاكم ماء عذباً ثم قال عز وجل ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ يعني تقدمون والعرب تقدح بالزند والزند خشبة يحك بعضه على بعض فيخرج منه النار ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ يعني خلقتم شجرها ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ يعني الخالقون يعني الله أنشأها وخلقها لمنفعة الخلق ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ يعني النار موعظة وعبرة في الدنيا من نار جهنم، وقال مجاهد نحن جعلناها تذكرة يعني النار الصغرى للنار الكبرى ﴿وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾ يعني منفعة لمن كان ساخراً[٣]، وقال قتادة المقوي الذي قد فنى زاده وقال الزجاج المقوي الذي قد نزل بالقوى وهي الأرض الخالية[٤].

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٩٦.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٩٧، إتحاف فضلاء البشر ٢/٥١٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٦١ وعزاه لهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٤) انظر لسان العرب ٣٧٩٠.

نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

ثم قال عز وجل ﴿**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾ يعني اذكر التوحيد باسم ربك يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرب العظيم، ويقال صل بأمر ربك ويقال سبح لله واذكره قوله عز وجل ﴿**فَلَا أُقْسِمُ**﴾ قال بعضهم يعني أقسم و (لا) زيادة في الكلام وقال بعضهم «لا» رد لقول الكفار ثم قال ﴿**بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ**﴾ يعني بنزول القرآن نزل نجوماً آية بعد آية. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال (مواقع النجوم) يعني بحكم القرآن ﴿**وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾ يعني القسم بالقرآن عظيم لو تعلمون ذلك ويقال لو تعلمون يعني لو تصدقون ذلك قرأ حمزة والكسائي (بموقع النجوم) بغير ألف وقرأ الباقون بمواقع النجوم بلفظ الجماعة[1] فمن قرأ بموقع فهو واحد دل على الجماعة ويقال بمواقع النجوم يعني بمساقط النجوم يعني الكواكب ـ ثم قال عز وجل ﴿**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ**﴾ يعني الذي يقرأ عليك يا محمد لقرآن شريف كريم على ربه ﴿**فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ**﴾ يعني مستور من خلق الله وهو اللوح المحفوظ ﴿**لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾ يعني اللوح المحفوظ ويقال لا تمسه إلا الملائكة المطهرون من الذنب ولا يقرؤه إلا الطاهرون، ويقال لا يمس المصحف إلا الطاهر وروى معمر عن محمد بن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتب كتاباً فيه «لا يمس القرآن إلا على طهور»[2] وروى إبراهيم عن عبد الرحمن بن يزيد قال «كنا مع سلمان فخرج يقضي حاجته ثم جاء فقلنا يا عبد الله لو توضأت لعلنا نسألك عن آيات الله فقال إني لست أمسه لأنه لا يمسه إلا المطهرون فقرأ علينا ما نسينا»[3]، يعني يجوز للمحدث أن يقرأ ولا يجوز أن يمس المصحف، وأما الجنب لا يجوز له أن يمس المصحف ولا يقرأ آية تامة. ثم قال ﴿**تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ يعني أنزل الله تعالى جبريل عليه السلام على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا القرآن يقرأه عليه من رب العالمين ثم قال عز وجل ﴿**أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ**﴾ يعني تكفرون وقال الزجاج المدهن والمداهن الكذاب المنافق. وقال بعض أهل اللغة[4] أصله من الدهن لأنه يلين في دينه يعني ينافق ويرى كل واحد أنه على دينه ويقال (أنتم مدهنون) يعني مكذبون ﴿**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ**﴾ يعني شكر رزقكم ﴿**أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾ يعني تقولون للمطر إذا مطرتم مُطِرْنا بنوء كذا وروي عن عاصم في بعض الروايات أنكم تكذبون بالتخفيف يعني تجعلون شكر رزقكم الكذب وهو أن يقولوا مُطِرنا بنوء كذا وقرأ الباقون تكذبون بالتشديد[5] يعني تجعلون شكر رزقكم التكذيب ولا تنسبون السقيا إلى

(١) قالوا: الجمع أولى لأنه مضاف إلى جمع. وروي عن الحسن أنه قال: انتشارها يوم القيامة. وعنه أيضاً قال: مغايبها. وعن ابن عباس قال: (مواقع النجوم: نزول القرآن، كان ينزل نجوماً شيئاً بعد شيء). فهذا دليل على معنى الجمع. لأن القرآن نزل في زمان طويل. وحجة من قرأ: (بموقع النجوم) أن الموقع في معنى المصدر، وهو يصلح للقليل والكثير، لأن معناه (بوقوع)، ويجري مجرى قول الرجل: عملت عمل الرجال، وأخرى وهي ما روي عن عبد الله قال: «فلا أقسم بموقع النجوم» أي: بمحكم القرآن. حجة القرآن ٦٩٧.

(٢) انظر تخريجه في الاعتناء في الفرق والاستثناء بتحقيقنا. وتفسير ابن كثير ٢٢/٨ وانظر تنوير الحوالك ١٥٧/١.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٦٢/٦ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر والحاكم وصححه.

(٤) انظر لسان العرب ١٤٤٧.

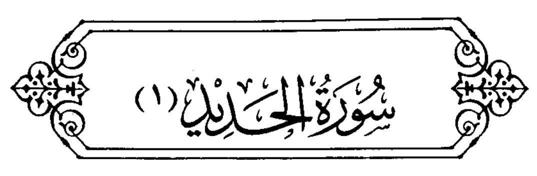
(٥) قراءة التخفيف هي قراءة المفضل عن عاصم ويحيى بن وقاب، انظر تفسير القرطبي ١٤٩/١٧.

الله تعالى الذي رزقكم ثم قال ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ يعني بلغ الروح الحلقوم ﴿وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾ إلى الميت ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ يعني أمر الله تعالى وهو ملك الموت أقرب إليه منكم حين أتاه لقبض روحه ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ما حضر الميت ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ يعني غير محاسبين، ويقال غير مملوكين أذلاء عن قولك دِنْتُ له بالطاعة وإنما سمي (يوم الدين) لأنه يوم الإذلال والهوان ويقال (غير مدينين) يعني غير مجزيين ﴿تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني إنكم غير محاسبين فهلا رددتم عنه الموت. ثم ذكر الأصناف الثلاثة الذين ذكرهم في أول السورة فقال ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ يعني إذا كان هذا الميت من المقربين عند الله من السابقين ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ قرأ الحسن (فَرُوحٌ) بضم الراء المهملة وقراءة العامة بالنصب[1] وقال أبو عبيد لولا خلاف الأمة لقرأته بالضم، وروت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قرأ بالضم، وقال القتبي الروح يعبر عن معان فالروح روح الأجسام الذي يقبض عند الممات وفيه حياة النفس، والروح جبريل. وكلام الله روح لأنه حياة من الجهل وموت الكفر ورحمة الله روح كقوله (وأيدهم بروح منه) أي برحمة والروح الرحمة والرزق ويقال الروح حياة دائمة لا موت فيها (والريحان) الرزق، ويقال هي النبات بعينها ومن قرأ بالنصب فهو الفرح ويقال الراحة، ويقال هي الرحمة ثم قال ﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ يعني لا انقطاع ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ يعني إن كان الميت من أصحاب اليمين ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ يعني سلام الله لهم ويقال يسلمون عليك من الجنة، ويقال سلام عليك منهم، ويقال ترى منهم ما تحب من السلام، ويقال (فسلام لك) يعني يقال له ثوابه عند الموت وفي القبر وعلى الصراط وعند الميزان بشارة لك، إنك من أهل الجنة ثم قال عز وجل ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني إن كان الميت (من المكذبين) بالبعث ﴿الضَّالِّينَ﴾ عن الهدى. ﴿فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ يعني جزاؤهم وثوابهم من حميم ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ يعني يدخلون الجحيم وهي ما عظم من النار ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ يعني إن هذا الذي قصصنا عليك في هذه السورة من الأقاصيص وما أعد الله لأوليائه وأعدائه وما ذكر مما يدل على وحدانيته لهو حق اليقين ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ يعني اذكر اسم ربك بالتوحيد ويقال نزه الله تعالى عن السوء يعني قل سبحان الله ويقال اثن على الله تعالى ويقال صل لله تعالى وروي عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) أنه قال سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال من قرأ سورة الواقعة في كل يوم لم تصبه فاقة[2] والله أعلم بالصواب.

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥١٧. تفسير القرطبي ١٧/١٥٠.

(٢) أخرجه ابن حجر في المطالب العالية ٣/٢٨٣ (٣٧٦٥) وذكره العراقي في تخريجه على الإحياء ١/٣٤٢ وضعف إسناده وهو في كنز العمال (٢٦٤٠ ـ ٢٧٠١).



سورة الحديد(١)

وهي تسع وعشرون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ يعني: صلى لله ما في السموات من الملائكة ﴿وَالأَرْضِ﴾ من المؤمنين فسمى الصلاة تسبيحاً لأنه يجري فيها التسبيح ويقال (سبح لله) يعني: ذكر الله ما فِي السَّموات يعني: جميع ما في السَّموات من الشمس والقمر والنجوم والأرض يعني: جميع ما في الأرض من الإنس والأشجار والأنهار والجبال وغير ذلك، ويقال (سبح لله) يعني: خضع لله جميع ما في السَّموات والأرض وقال بعضهم التسبيح أثار صنعه يعني: في كل شيء دليل لربوبيته ووحدانيته ويقال هو التسبيح بعينه يعني: يسبح جميع الأشياء كقوله (وَإِنْ مِن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بحمده)، وقال الحسن البصري(٢) (لولا ما يخفى عليكم من تسبيح من معكم في البيوت ما تقادرتم)، وروى سمرة بن جندب عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال (أفضل الكلام أربعة سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) ولا يضرك بأيهن(٣) بدأت ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمِ﴾ يعني: العزيز

---

(١) من الأغراض التي اشتملت عليها هذه السورة التذكير بجلال الله تعالى، وصفاته العظيمة وسعة قدرته وملكوته، وعموم تصرفه، ووجوب وجوده، وسعة عمله، والأمر بالإيمان بوجوده، وبما جاء به رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وما أنزل عليه من الآيات البينات. والتنبيه لما في القرآن من الهدي وسبيل النجاة، والتذكير برحمة الله ورأفته بخلقه. والتحريض على الإنفاق في سبيل الله، وأن المال عرض زائل لا يبقى منه لصاحبه إلا ثواب ما أنفق منه في مرضاة الله. والتخلص إلى ما أعد الله للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة من خيرٍ وضد ذلك للمنافقين والمنافقات. وتحذير المسلمين من الوقوع في مهواة قساوة القلوب التي وقع فيها أهل الكتاب من قبلهم من إهمال ما جاءهم من الهدى حتى قست قلوبهم وجر ذلك إلى الفسوق كثيراً منهم والتذكير بالبعث. والدعوة إلى قلة الاكتراث بالحياة الفانية. والأمر بالصبر على النوائب والتنويه بحكمة إرسال الرسل والكتب لإقامة أمور الناس على العدل العام والإيماء إلى فضل الجهاد في سبيل الله وتنظير رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ برسالة نوح وإبراهيم عليهما السلام على أن في ذريتهما مهتدين وفاسقين. وأن الله أتبعهما برسل آخرين منهم عيسى عليه السلام الذي كان آخر رسول أرسل بشرع قبل الإسلام، وأن أتباعه كانوا على سنة من سبقهم، منهم مؤمن ومنهم كافر. ثم أهاب بالمسلمين أن يخلصوا الإيمان تعريضاً بالمنافقين ووعدهم بحسن العاقبة وأن الله فضلهم على الأمم لأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء. التحرير ٢٧/٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٢) سقط في أ.

(٣) أخرجه البخاري معلقاً ١١/٥٧٦ كتاب الإيمان وقال الحافظ هذا من الأحاديث التي لم يصلها البخاري في موضع آخر، وقد وصله النسائي من طريق ضرار بن مرة عن أبي صالح عن أبي سعيد وأبي هريرة مرفوعاً بلفظه، وأخرجه مسلم من حديث سمرة بن جندب لكن بلفظ «أحب» بدل «أفضل» وأخرجه ابن حبان من هذا الطريق بلفظ «أفضل» ولحديث أبي هريرة طريق أخرى أخرجها النسائي وصححها ابن حبان من طريق أبي حمزة السكري عن الأعمش عن أبي صالح عنه بلفظ «خير الكلام أربع لا يضرك بأيهن بدأت» فذكره، وأخرجه أحمد عن وكيع عن الأعمش فأبهم الصحابي، وأخرجه النسائي من طريق سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن السلولي عن كعب الأحبار من قوله.

بالنقمة لمن لا يوحّده والعزيز في اللغة: الذي لا يعجزه عما أراد ويقال العزيز الذي لا يوجد مثله الحكيم في أمره وقضائه.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾

ثم قال عز وجل: **﴿لَهُ مُلْكُ السَّمـوات والأَرْضِ﴾** يعني: له خـزائن السَّموات والأرض يعني: خـزائن السَّموات المطر وخزائن الأرض النبات، ويقال معناه: له نفاذ الأمر في السَّمـوات والأرض ثم قـال: **﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾** يعني: يحيي للبعث ويميت في الدنيا **﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** من الإحياء والإماتة ثم قال عز وجل: **﴿هُوَ الأَوَّلُ﴾** يعني: الأول قبل كل أحد **﴿والآخِرُ﴾** بعد كل أحد **﴿والـظَّاهِرُ﴾** يعني: الغـالب على كل شيء **﴿وَالْبَاطِنُ﴾** يعني: العالم بكل ويقال (هو الأول) يعني: مؤول كل شيء (والآخر) يعني: مؤخر كل شيء (والظاهر) يعني: المظهر (والباطن: يعني: المبطن، ويقال هو (الأول) يعني: خالق الأولين (والآخر) يعني: خالق الآخرين والظاهر يعني خالق الآدميين وهم ظاهرون (والباطن) يعني: خالق الجن والشياطين الذين لا يظهرون ويقال (هو الأول) يعني: خالق الدنيا والآخر يعني: خالق الآخرة (والظاهر والباطن) يعني: عالم بالظاهر والباطن، ويقال هو الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء والظاهر والباطن يعني: منه نعمة ظاهرة، ويقـال هو (الأول والآخـر والظاهـر والباطن) يعني: هو الرب الواحد ثم قال **﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ﴾** يعني: من أمر الدنيا والآخرة ثم قال عز وجل: **﴿هُـوَ الَّـذِي خَلَقَ السَّمَـواتِ وَالأَرْضِ فِي سِتَّـة أَيَّـامٍ ثم اسْتَـوى على الـعَـرْشِ يَعْـلَمُ مـا يلج فـي الأَرْضَ﴾** يعني ما يدخل في الأرض من الماء والكنوز والأموات **﴿وَمَا يَخْرِجُ مِنْهَا﴾** من النبات والكنوز والأموات **﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾** وهو المطر والثلج والرزق والملائكة **﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾** يعني: ما يصعد فيها من الملائكة وأعمال العباد والأرواح **﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾** يعني: عالم بكم وبأعمالكم أينمـا كنتم في الأرض **﴿واللَّهُ بِمَـا تعْمَلُونَ بَصِيـرٌ﴾** فيجـازيكم بـالخيـر خيراً وبـالشر شـراً. ثم قـال عـز وجل: **﴿لَـهُ مُلْكُ السَّمَواتِ والأَرْضِ وَإِلى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ﴾** ثم قال عز وجل: **﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾** يعني: يُدخل الليل في النهار إذا جاء الليل ذهب النهار **﴿وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ﴾** يعني: يُدخل النهار في الليل إذا جاء النهار ذهب الليل ومعنى آخر يعني: يدخل زيادة الليل في النهار يعني: يصير الليل أطول ما يكون خمسة عشر ساعة والنهار أقصر ما يكون تسع ساعات والليل والنهار أربع عشرون ساعة، ثم قال عز وجل: **﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بذات الصدور﴾** يعني: بما في القلوب من الخير والشر.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

ثم قال ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني: صدقوا بوحدانية الله تعالى وصدقوا برسوله ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ يعني: تصدقوا في طاعة الله تعالى: ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يعني: مما جعلكم مالكين من المال، ويقال معناه إن الأموال والدنيا كلها لله تعالى فيجعل العباد مستخلفين على أمواله وأمرهم بالنفقة مما جعلهم خليفة فيها ثم بين ثواب الذين آمنوا فقال ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا﴾ يعني: صدقوا بوحدانية الله تعالى وتصدقوا ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يعني: عظيم وهو الثواب الحسن في الجنة، ويقال إن هذه الآية نسخت بآية الزكاة ويقال إنها ليست بمنسوخة ولكنها حث على الصدقة والنفقة في طاعة الله تعالى ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يعني: مالكم لا تصدقون بوحدانية الله تعالى ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ قرأ بعضهم (والرسولُ) بضم اللام يعني: ما لكم لا تؤمنون بالله وتم الكلام ثم قال والرسول يدعوكم إلى توحيد الله تعالى وقراءة العامة والرسول بكسر اللام يعني: مالكم لا تصدقون بالله وبرسوله حين يدعوكم. ﴿لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ يعني: لتصدقوا بوحدانية الله تعالى ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ يعني: أخذ الله تعالى إقراركم والميثاق حين أخرجكم من صلب آدم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: مصدقين قرأ أبو عمرو وقد أخذ ميثاقكم بضم القاف وكسر الخاء على معنى: فعل ما لم يسم فاعله والباقون[1] يعني: أخذ الله ميثاقكم ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ﴾ هو الذي ينزل جبريل على عبده محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ عليه ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يعني: آيات القرآن واضحات بين فيه الحلال والحرام والأمر والنهي ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني: يدعوكم من الشرك إلى الإيمان ويقال آيات بينات يعني: واضحات ويقال آيات يعني: علامات النبوة ليخرجكم من الظلمات إلى النور يعني: ليوفقكم الله تعالى للهدى ويخرجكم من الكفر ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ يعني: هداكم لدينه وأنزل عليكم ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: ما لكم لا تصدقوا أو لا تنفقوا أموالكم في طاعة الله ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: إلى الله يرجع ميراث السموات والأرض أي شيء ينفعكم ترك الإنفاق وأنتم ميتون تاركون أموالكم ويقال: معناه وما لكم ألا تنفقوا والأموال كلها لله تعالى وهو يأمركم بالنفقة، ويقال أنفقوا ما دمتم في الحياة فإنكم إن بخلتم فإن الله هو يرثكم ويرث أهل السموات يعني: أنفقوا قبل أن تفنوا وتصير كلها ميراثاً لله تعالى بعد فنائكم وإنما ذكر لفظ الميراث لأن العرب تعرف ما ترك الإنسان ميراثاً فخاطبهم بما يعرفون فيما بينهم ثم قال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ﴾ يعني: لا يستوي منكم في الفضل والثواب عند الله تعالى ﴿مَنْ أَنْفَقَ﴾ ماله في طاعة الله ﴿مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ يعني: قاتل العدو ـ وفي الآية

(١) حجة من قرأ على ما لم يسم فاعله إجماع الجميع على قوله تعالى: ﴿ألم يؤخذ عليكم ميثاق الكتاب﴾ وحجة من قرأ بفتح الألف والقاف أنه قرب من ذكر الله في قوله ﴿لتؤمنوا بربكم﴾ فأجروا الفعل إلى الله أي وقد أخذ ربكم ميثاقكم. انظر حجة القراءات ٦٩٨.

تقديم يعني: من أنفق وقاتل من قبل الفتح يعني: فتح مكة ونزلت الآية في شأن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المهاجرين والأنصار يعني: الذين أنفقوا أموالهم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقاتلوا الكفار لا يستوي حالهم وحال غيرهم، ويقال نزلت الآية في شأن أبي بكر رضي الله عنه كان جالساً مع نفر من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوقعت بينهم منازعة في شيء فنزل في تفضيل أبي بكر رضي الله عنه (لا يستوي منكم من أنفق) ماله (من قبل الفتح)[1] يعني: من قبل ظهور الإسلام ﴿وَقَاتَلَ﴾[2] يعني: وجاهد ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ يعني: أبي بكر رضي الله عنه ﴿مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ العدو مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ويقال هذا التفضيل لجميع أصحابه رضي الله عنهم أجمعين، وروى سفيان عن زيد بن أسلم قال - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «سيأتي قوم بعدكم يحقرون أعمالكم مع أعمالهم قالوا يا رسول الله نحن أفضل أم هم فقال لو أن أحدهم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك فضل أحدكم ولا نصفه»[3]. (أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً) قال الفقيه حدثني الخليل بن أحمد ثنا الدبيلي ثنا عبيد الله عن سفيان عن زيد بن أسلم (مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ قرأ ابن عامر وكلٌّ وعد الله الحسنى بضم اللام والباقون بالنصب[4] فمن قرأ بالضم صار ضماً لمضمر فيه فكأنه قال أولئك وعد الله الحسنى ومن نصب معناه وعد الله كلا الحسنى يعني: الجنة ثم قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يعني: ما أنفقتم ثم قال ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ يعني: من ذا الذي يعطي من أموال الله قرضاً حسناً يعني: وفقاً بالإخلاص وطلب ثواب الله تعالى: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ في الحسنات ويعطي من الثواب ما لا يحصى ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: ثواباً حسناً في الآخرة ويقال نزلت الآية في شأن أبي الدحداح ويقال هو حث لجميع المسلمين.

يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٧/١٥٦.

(٢) روى أشهب عن مالك قال: ينبغي أن يقدم أهل الفضل والعزم والتقدم والتأخير قد يكون في أحكام الدنيا، فأما في أحكام الدين فقد قالت عائشة ضي الله عنها، أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن ننزل الناس منازلهم. وأعظم المنازل مرتبة الصلاة وقد قال - صلى الله عليه وسلم - في مرضه: (مُرُوا أبا بكر فليصل بالناس) الحديث وقال يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله وقال: (وليؤمكما أكبركما) من حديث مالك بن الحويرث. وفهم منه البخاري وغيره من العلماء أنه أراد كبر المنزلة، كما قال - صلى الله عليه وسلم -: (الولاء للكبر) ولم يعن كبر السن. وقد قال مالك وغيره: إن للسن حقاً وراعاه الشافعي وأبو حنيفة وهو أحق بالمراعاة، لأنه إذا اجتمع العلم والسن في خيرين قدم العلم، وأما أحكام الدنيا فهي مرتبة على أحكام الدين، فمن قُدِّم في الدين قدم في الدنيا وفي الآثار: (ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه). ومن الحديث الثابت في الأفراد (ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له عند سنه من يكرمه). انظر القرطبي ١٧/١٥٦ - ١٥٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٧٢ وعزاه لسعيد بن منصور.

(٤) حجة ابن عامر أن الفعل إذا تقدم عليه مفعوله لم يقو عمله فيه قوته إذا تأخر، ألا ترى أنهم قالوا: زيد ضربت. وحجة النصب بينة لأنه بمنزلة: زيداً وعدت خيراً فهو مفعول وعدت وتقول: ضربت زيداً وزيداً ضربت سواء. انظر حجة القراءات ٦٩٨، النشر في القراءات العشر ٢/٣٨٤.

مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

ثم قال عز وجل: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ يعني: في يوم القيامة على الصراط. ﴿**يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ**﴾ يعني: بتصديقهم في الدنيا وبأعمالهم الصالحة فيعطى لهم النور يمضون به على الصراط فيكون النور بين أيديهم وأيمانهم وعن شمائلهم إلا أن ذكر الشمائل مضمر وتقول لهم الملائكة ﴿**بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ**﴾ يعني: أبشروا هذا اليوم بكرامة الله تعالى: ﴿**جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ يعني: مقيمين في الجنة ونجوا مِن العذابِ ﴿**ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ**﴾ يعني: نُصِبْ من نوركم فتضيء معكم، وروي عن أبي أمامة الباهلي أنه قال «بينما العباد يوم القيامة عند الصراط إذ غشيتهم ظلمة ثم يقسم الله تعالى النور بين عباده فيعطي الله المؤمن نوراً ويبقى الكافر والمنافق لا يعطيان نوراً فكما لا يستضيء الأعمى بنور البصر كذلك لا يستضيء الكافر والمنافق بنور الإيمان فيقولان انظروا نقتبس من نوركم فيقال لهم ﴿**قِيلَ ارْجِعُوا**﴾ حيث قسم النور فيرجعون فلا يجدون شيئاً فيرجعون وقد ضرب بينهم بسور»[1]، وعن الحسن البصري قال إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم لأنه يعطي المؤمن والمنافق نوراً فإذا بلغوا الصراط اطفىء نور المنافق فيقول المنافقون انظروا نقتبس من نوركم قال فيشفق المؤمنون حين طفى نور المنافقين فيقولون عند ذلك ـ (ربنا أتمم لنا نورنا)، قرأ حمزة أنظرونا بنصب الألف وكسر الظاء المعجمية والباقون بالضم[2] فمن قرأ بالنصب فمعناه أمهلونا ومن قرأ بالضم فمعناه انتظرونا فقال لهم المؤمنون. ارجعوا ﴿**وَرَائَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً**﴾ يعني: ارجعوا إلى الدنيا فإنا جعلنا النور في الدنيا ويقال ارجعوا إلى المحشر حيث أعطينا النور واطلبوا نوراً فيرجعون في طلب النور فلم يجدوا شيئاً ﴿**فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ**﴾ يعني: ظهر لهم ويقال بين أيديهم بسور يعني: بحائط بين أهل الجنة وأهل النار ﴿**لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ**﴾ يعني: باطن السور ﴿**فِيهِ الرَّحْمَةُ**﴾ يعني: الجنة ﴿**وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ**﴾ يعني: النار ويقال هو السور الذي عليه أصحاب الأعراف فيظهر بين الجنة والنار باب يعني عليه باب فيجاوز فيه المؤمنون ويبقى المنافقون على الصراط في الظلمة ﴿**يُنَادُونَهُمْ**﴾ من وراء السور ﴿**أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ**﴾ يعني: ألم نكن معكم في الدنيا على دينكم وكنا معكم في الجماعات والصلوات فيجيبهم المؤمنون ﴿**قَالُوا بَلَى**﴾ يعني: قد كنتم معنا في الدنيا أو في الظاهر ﴿**وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ**﴾ يعني: قد أصبتم أنفسكم حيث كفرتم في السر، ويقال فتنتم أنفسكم يعني: ثبتم على الكفر الأول في السر ﴿**وَتَرَبَّصْتُمْ**﴾ يعني: انتظرتم موت نبيكم، ويقال تربصتم يعني: أخرتم التوبة وسوّفْتُمْ فيها ﴿**وَارْتَبْتُمْ**﴾ يعني: شككتم في الدين وشككتم في البعث ﴿**وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ**﴾ يعني: أباطيل الدنيا ﴿**حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ**﴾ يعني: القيامة ﴿**وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ**﴾ يعني: الشياطين وقال الزجاج الغرور على ميزان فعول وهو من أسماء المبالغة وكذلك الشياطين الغرور لأنه يغري ابن آدم كثيراً. ثم قال: ﴿**فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ**﴾ يعني: في هذا اليوم وهو يوم القيامة، وقرأ ابن

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٧٣ وعزاه لابن المبارك وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٢) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٨٤.

عامر فاليوم لا تؤخذ بالتاء لأن الفدية مؤنثة وقرأ الباقون بالياء[١] ـ وجمع على المعنى لأن معنى الفدية فداء ومعناه (لا يؤخذ منكم) الفداء يعني المنافقين ﴿ولا من الذين كفروا﴾ يعني الذين جحدوا بتوحيد الله تعالى ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ يعني: مصيركم إلى النار يعني المنافقين والكافرين ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ يعني: هي أولى بكم بما أسلفتم من الذنوب ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ يعني: بئس المرجع النار للكافرين والمنافقين.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قلوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ يعني: ألم يجيء وقت تخاف قلوبهم فترق قلوبهم يقال أنا يأني إناءاً إذا حان وجاء وقته وأوانه قال الفقيه حدثنا الخليل بن أحمد ثنا أبو جعفر محمد بن إبراهيم الدبيلي قال حدثنا أبو عبيد الله قال ثنا سفيان عن عبد الرحمن بن عبد الله عن القاسم قال ـ ملَّ أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ملة فقالوا حدِّثنا يا رسول الله فأنزل الله تعالى: (الَّذِي نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً) ثم ملوا ملَّة أخرى فقالوا)[٢] حدثنا يا رسول الله فأنزل الله تعالى: (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله)[٣]، ويقال إن المسلمين قالوا لسلمان الفارسي حدّثنا عن التوراة فإن فيها عجائب فنزل (نَحْنُ نَقُصّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصَ) فكفوا عن السؤال ثم سألوه عن ذلك فنزلت هذه الآية (أَلَمْ يَأنِ للذين آمنوا أن تخشَع قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ) يعني: ترق قلوبهم لذكر الله. ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني: القرآن بذكر الحلال والحرام قرأ نافع وعاصم في رواية حفص وما نزَل ـ بالتخفيف والباقون بالتشديد[٤] على معنى التكثير والمبالغة ثم وعظهم فقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: ولا تكونوا في القسوة كاليهود والنصارى من قبل خروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ﴾ يعني: الأجل ويقال خروج النبي عليه السلام ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: جفّت ويبست قلوبهم عن الإيمان فلم يؤمنوا بالقرآن إلا قليل منهم ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني: عاصون، ويقال (أَلم يأن للذين آمنوا) يعني: المنافقين الذين آمنوا بلسانهم دون قلوبهم. وقال أبو الدرداء استعيذوا بالله من خشوع النفاق قيل وما خشوع النفاق؟ قال أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع.

قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ﴾ يعني: يصلح الأرض فاعتبروا بذلك ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعني:

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٠٠.

(٢) سقط في أ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٥ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٤) حجة من خفف قوله تعالى: ﴿وبالحق نزل﴾ فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. وحجة الباقين ذكر الله قبله في قوله «أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل» أي وما نزل الله من الحق. انظر حجة القراءات ٧٠٠.

بعد يبسها وقحطها فكذلك يحيي القلوب بالقرآن ويصلح بعد قساوتها حتى تلين كما أحيا الأرض كذلك بعد موتها بالمطر. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ﴾ يعني: العلامات في القرآن ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يعني: لكي تعقلوا أمر البعث كذلك إنكم أيضاً تبعثون قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ قرأ ابن كثير وعاصم رواية أبي بكر (إن المصدقين والمصدقات) كليهما بالتخفيف والباقون بالتشديد[1] فمن قرأ بالتخفيف فمعناه إن المؤمنين من الرجال والمؤمنات من النساء فمن صدق الله ورسوله ورضي بما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم -، ومن قرأ بالتشديد يعني: المتصدقين من الرجال والمتصدقات من النساء فأدغمت التاء في الصاد وشددت ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ يعني: يتصدقون محتسبين بطيبة أنفسهم صادقين من قلوبهم ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ الحسنات والثواب بكل واحد عشرة إلى سبعمائة إلى ما لا يحصى ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: ثواباً حسناً في الجنة ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ يعني: صدّقوا بتوحيد الله وصدقوا بجميع الرسل ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ والصديق اسم المبالغة في الفعل يقال رجل صديق كثير الصدق وقال ابن عباس رضي الله عنه فمن آمن بالله ورسله فهو من الصديقين ثم قال. ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال مقاتل هذا استئناف فقال (الشهداء) يعني: من استشهد عند ربهم يعني: يطلب شهادة على الأمم ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ يعني: ثوابهم ﴿وَنُورُهُمْ﴾ ويقال هذا بناء على الأول يعني: (أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم) يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة ويقال معناه (أولئك هم الصديقون) (وأولئك هم الشهداء) عند ربهم، ويكون لهم أجرهم ونورهم، قال مجاهد كل مؤمن صديق شهيد[2] ثم وصف حال الكفار فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: بوحدانية الله تعالى ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: جحدوا بالقرآن ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾

ثم قال عز وجل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ يعني: باطلاً ولهواً يعني: فرحاً يلهون فيها

---

(١) حجتهم أن في حرف أُبيّ: «إن المتصدقين والمتصدقات» بتاء ظاهرة. فهي حجة لمن قرأ بالتشديد. وأخرى وهي في قوله «وأقرضوا الله قرضاً حسناً» وذلك أن القرض هو أشبه بالصدقة من التصديق. وحجة من خفف هي أن التخفيف في قوله ﴿المصدقين﴾ أعم من التشديد. ألا ترى أن ﴿المصدقين﴾ بالتشديد مقصورة على الصدقة و﴿المصدقين﴾ بالتخفيف يعم التصديق والصدقة لأن الصدقة من الإيمان، فهو أوجب في باب المدح. انظر حجة القراءات ٧٠١.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٧٦ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.

﴿وَزِينَةٌ﴾ يعني: زينة الدنيا ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ عن الحسب ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ﴾ تفتخرون بذلك، وروى إبراهيم عن علقمة عن عبد الله عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قام في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها» ثم ضرب للدنيا مثلاً آخر فقال ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ يعني: كمثل مطر نزل من السماء فينبت به الزرع والنبات ﴿أَعْجَبَ الكفَّار نَبَاتُه﴾ يعني: فرح الزارع بنباته، ويقال أعجب الكفار يعني: الكفار بالله لأنهم أشد إعْجاباً بزينة الدنيا من المؤمنين ويقال الكفار كناية عن الزراع لأن الكَفْر في اللغة هو التغطية، ولهذا سمي الكافر كافراً لأنه يغطي الحق بالباطل فسمي الزراع كفاراً لأنهم يغطون الحب تحت الأرض وليس ذلك الكفر الذي هو ضد الإيمان، والطريقة الأولى أحسن إن أراد به الكفار لأن ميلهم إلى الدنيا أشد ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يعني: ييبس فيتغير ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً﴾ بعد خضرته ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً﴾ يعني: يابساً ويقال حطاماً يعني: هالكاً فشبه الدنيا بذلك لأنه لا يبقى ما فيها كما لا يبقى هذا النبت ﴿وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لمن افتخر بالدنيا واختارها ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ لمن ترك الدنيا واختار الآخرة على الدنيا ويقال عذاب شديد لأعدائه ومغفرة من الله لأوليائه ثم قال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ يعني: كمتاع الغرور يعني: كالمتاع الذي يتخذ من الزجاج والخزف يسرع إلى الفناء ولا يبقى ثم قال عز وجل: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: سارعوا بالأعمال الصالحة، ويقال بادروا بالتوبة، وقال مكحول سابقوا إلى تكبيرة الافتتاح ﴿وَجَنَّةٍ﴾ يعني: إلى جنة ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: لو ألصقت بعضها على بعض يعني: سبع سموات وسبع أراضين ومدت مد الأديم لكان عرض الجنة أوسع من ذلك وإنما بين عرضها ولم يبين طولها ويقال لو جعلت السموات والأرض لكانت الجنة بعد ذلك هذا مثل يعني إنها أوسع شيء رأيتموه. ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ يعني: خلقت وهيئت للذين صدقوا بوحدانية الله تعالى وصدقوا برسله ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ يعني: ذلك الثواب فضل الله على العباد ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: يعطيه من يشاء من عباده وهم المؤمنون ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ يعني: ذو العطاء العظيم وذو المَنّ الجسيم قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني: من قحط المطر وغلاء السعر وقلة النبات ونقص الثمار ولا في أنفسكم من البلايا والأمراض والأوجاع ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ يعني: إلا في اللوح المحفوظ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ يعني: من قبل أن نخلق تلك النسمة، وذكر الربيع بن أبي صالح الأسلمي قال دخلت على سعيد بن جبير حين جيء به إلى الحَجَّاج أراد قتله فبكى رجل من قومه فقال سعيد ما يبكيك قال لما أصابك من مصيبة قال فلا تبك قد كان في علم الله تعالى أن يكون هذا ألم تسمع قول الله تعالى (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها)[1] يعني: من قبل أن نخلقها. ويقال قبل أن نخلق تلك النفس ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني: هيناً ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ يعني: لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق والعافية إذا علمتم أنها مكتوبة عليكم قبل خلقكم ﴿وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ يعني: بما أعطاكم في الدنيا ولا تفتخروا بذلك. ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ يعني: متكبراً فخوراً بنعم الله تعالى ولا يشكروه قرأ أبو عمرو بما أتاكم بغير مد والباقون بالمد[2] فمن قرأ بغير مد فمعناه لكيلا تفرحوا بما جاءكم من

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٧٧ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) حجة أبي عمرو في ذلك أن «فاتكم» معادل به «آتاكم» فكما أن الفعل للفائت في قوله «فاتكم» كذلك يكون الفعل للآتي في قوله «بما آتاكم». قال أبو عمرو: وتصديقها في آل عمران ﴿ولا ما أصابكم﴾ قال: فـ ﴿أصابكم وجاءكم﴾ سواء. وحجة الباقين أن في حرف أُبيّ وابن مسعود «بما أوتيتم» أي: أعطيتم. انظر حجة القراءات ٧٠١ ـ ٧٠٢.

حطام الدنيا فإنه إلى نفاذ ومن قرأ بالمد بما أعطاكم وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح ولكن المؤمن من جعل الفرح والمصيبة صَبْراً.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ يعني: لا يحب الذين يبخلون يعني يمسكون أموالهم ولا يخرجون منها حق الله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ ويقال الذين يبخلون يعني يكتمون صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويأمرون الناس بالبخل يعني: يكتمون صفة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونعته ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ يعني: يعرض عن النفقة، ويقال يعرض عن الإيمان ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ يعني: غنيٌّ عن نفقتهم وعن إيمانهم (الحميد) في فعاله قرأ حمزة والكسائي ويأمرون الناس بالبخل بنصب الخاء والباء وقرأ الباقون بضم الباء وإسكان الخاء[1] ومعناهما واحد. قرأ نافع وابن عامر فإن الله الغني الحميد الذي لا غني مثله والباقون[2] (فإن الله هو الغني الحميد) بإثبات هو ثم قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: بالأمر والنهي والحلال والحرام ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني: أنزلنا عليهم الكتاب ليعلموا أمتهم ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ يعني: العدل ويقال هو الميزان بعينه أنزل على عهد نوح عليه السلام. ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ يعني: لكي يقوم الناس بالقسط يعني: بالعدل ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ يعني وجعلنا الحديد ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني فيه قوة شديدة في الحرب وعن عكرمة أنه قال (وأنزلنا الحديد) يعني: أنزل الله تعالى الحديد لآدم عليه السلام العلاة والمطرقة والكلبتين فيه بأس شديد[3] ثم قال عز وجل: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ يعني: في الحديد منافع للناس مثل السكين والفأس والإبرة يعني: من معايشهم ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ يعني: ولكن يعلم الله من ينصره على عدوه. ﴿وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ بقتل أعدائه كقوله إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ويقال لكي يرى الله من استعمل هذا السلاح في طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالغيب

---

(١) انظر المصدر السابق والنشر ٢/٢٨٤.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٧٧ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

يعني: يصدق بالقلب ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ في أمره ﴿عَزِيزٌ﴾ في ملكه ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ﴾ يعني: بعثناهمـا إلى قومهما ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَتِهِمَا﴾ يعني: في نسليهما ﴿النُّبُوَةَ وَالْكِتَابَ﴾ وكان فيهم الأنبياء مثل موسى وهارون وداود ويونس وسليمان وصالح ونوح وإبراهيم عليهم السلام ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني: كثير من ذريتهم تاركون للكتاب. قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ﴾ يعني: وصلنا وأَتْبَعْنَا على آثارهم ﴿بِرُسُلِنَا﴾ واحداً بعد واحد ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ يعني: وأرسلنا على آثـارهم بعيسى بن مريم ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ﴾ يعني: أعطيناه الأنجيل ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ يعني: الذين آمنوا به وصدقوه واتبعوا دينه ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ يعني: المودة والمتوادين الذين يود بعضهم بعضاً، ويقال الرأفة على أهل دينهـم يرحم بعضهم بعضاً وهم الذين كانوا على دين عيسى لم يتهوَّدوا ولم يتنصروا ثم استأنف الكلام فقال ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ يعني: ابتدعوا رهبانية ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِـم﴾ يعنـي: لم تكتب عليهم الرهبانية ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ وذلك أنه لما كثر المشركون خرج المسلمون منهم فهربوا واعتزلوا في الغيران واتبعوا الصوامع فطال عليهم الأمد ورجع بعضهم عن دين عيسى ابن مريم وابتدعوا النصرانية قال الله تعالى ابتدعوها يعني الرهبانية والخروج إلى الصوامع والتبتل للعبادة ما كتبناها عليهم يعني ما أوجبنا عليهـم ولم نأمرهم إلا ابتغاء رضوان الله يعني أمرناهـم بما يرضي الله تعالى لا غير ذلك ويقال ابتدعوها لطلب رضى الله تعالى ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ يعني: لم يحافظوا على ما أوجبوا على أنفسهم، ويقال فمـــا أطاعوا الله حين تهودوا وتنصَّروا قال الله تعالى: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني: عاصين وهم الذين تهودوا وفي هذه الآية دليل وتنبيه للمؤمنين أن من أوجب على نفسه شيئاً لم يكن واجباً عليه أن يتبعه ولا يتركه فيستحق اسم الفسق وروي عن بعض الصحابة أنه قال عليكم بإتمام هذه التراويح لأنها لم تكن واجبة عليكم فقد أوجبتموها على أنفسكم فإنكم إن تركتموها صرتم فاسقين ثم قرأ هذه الآية (وكثير منهم فاسقون).

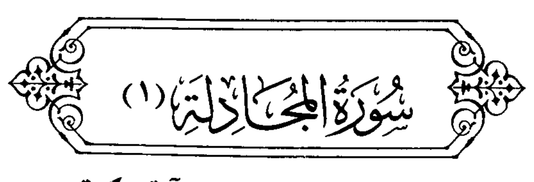
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

ثم قـــال عز وجل: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُوا اتَّقُـوا اللَّهَ﴾ يعني: أطيعـوه فيمـا يأمركـم به وفيمـا ينهاكم عنه ﴿وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعني: اثبتوا على الإسلام بعد نبيكم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال يا أيها الذين آمنوا بعيسى ابن مريم آمنوا بالله ورسولـه محمد ـ صلى الله عليـه وسلم ـ ﴿يُؤْتِكُـمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني: أجرين من فضله ويقال «لما نزلت في أهل مكة أولئـك يؤتون أجرهم مرتين حزن المسلمون فنزل فيهم (يؤتكم كفلين من رحمته) وأصل الكِفْل النصيب يعني: نصيبين من رحمته أحدهما بإيمان نبيّه قبل خروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والآخر الإيمان بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. ثم قال عز وجل: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ يعني: يجعل لكم سبيلاً واضحاً تهتدون به ﴿وَيَـغْفِرْ لَكُم﴾ يعني: يغفر

---

(١) سقط في أ.

لكم ذنوبكم ﴿واللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعني: يغفر الذنوب للمؤمنين (رحيم) بهم ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ ولا مؤكدة في الكلام ومعناه لأن يعلموا أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله ورحمته يعني مؤمني أهل الكتاب يعملون أنهم لا يقدرون من فضل الله إلا برحمته لا برحمته ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ يعني: الثواب من الله تعالى ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ من كان أهلاً لذلك من العبادة ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ يعني: هو المعطي وهو المانع والله أعلم بالصواب.



وهي اثنتان وعشرون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ يعني تخاصمك ﴿فِي زَوْجِهَا﴾ يعني من قبل زوجها وروى أبو العالية الرياحي أن الآية نزلت في شأن أوس بن الصامت وفي امرأته خويلة بنت دعلج وعن عكرمة أنه قال نزلت في امرأة اسمها خويلة بنت ثعلبة وفي زوجها أوس بن الصامت جاءت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت إن زوجها جعلها عليه كظهر أمه فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أراك إلا وقد حرمت عليه قالت انظر يا نبي الله جعلني الله فداك يا نبي الله في شأني وجعلت تجادله وعائشة رضي الله عنها تغسل رأس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت عائشة رضي الله عنها اقصري حديثك ومجادلتك يا خويلة أما ترين وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد تربّد ليوحى إليه فأنزل الله تعالى (قد سمع[2] اللّه قول التي تجادلك) وروى سفيان عن خالد عن أبي قلابة قال كان طلاقهم في الجاهلية الظهار والإيلاء فلما جاء الإسلام جعل الله تعالى في الظهار ما جعل، وجعل في الإيلاء ما جعل ثم قال ﴿وتشتكي إلى اللّه﴾ يعني تتضرع المرأة إلى الله مخافة الفرقة ﴿واللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ يعني محاورتكما ومراجعتكما. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يعني سميعاً لمقالة خويلة بصير بأمرها وقال مقاتل فهي خويلة بنت ثعلبة

الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ
مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا
قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا

---

(١) اشتملت هذه السورة على الحكم في قضية مظاهرة أوس ابن الصّامت من زوجه خولة، وإبطال ما كان في الجاهلية من تحريم المرأة إذا ظاهر منها زوجها وأن عملهم مخالف لما أراده الله وأنه من أوهامهم وزورهم التي كبتهم الله بإبطالها. وتخلص من ذلك إلى ضلالات المنافقين ومنها مناجاتهم بمرأى المؤمنين ليغيظوهم ويحزنوهم ومنها موالاتهم اليهود. وحلفهم على الكذب. وتخلل ذلك التعرض لآداب مجلس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وشرع التصدق قبل مناجاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والثناء على المؤمنين في مجافاتهم اليهود والمشركين. وأن الله ورسوله وحزبهما هم الغالبون. انظر التحرير ٢٨/٦.

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٧/١٧٥ ـ ١٧٦.

﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ قرأ عاصم يظاهرون بضم الياء وكسر الهاء والتخفيف من ظاهر يظاهر، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويظهرون بنصب الياء مع التشديد وهو[١] في الأصل يتظهرون فأدغمت التاء في الظاء والمعنى في هذا كله واحد يقال ظاهر من امرأته وتظهَّر منها وأظهر منها إذا قال لها أنت علي كظهر أمي ثم قال ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ وروى الفضل عن عاصم أمهاتُهم بضم التاء لأنه خبر ما كقولك ما زيد عالم، وقرأ الباقون بالكسر[٢] لأن التاء في موضع النصب فصار خفضاً لأنها تاء الجماعة وهي لغة أهل الحجاز فينصبون خبر «ما» كقوله ما هذا بشراً ما هن كأمهاتهم في الحرمة ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ يعني ما أمهاتهم ﴿إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ يعني الأم التي ولدته والأم التي أرضعته لأنه قال في موضع آخر وأمهاتكم اللّائِي أرضعنكم ثم قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً﴾ يعني قولاً منكراً وكذباً ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ يعني ذو تجاوز (غفور) حيث جعل الكفارة لرفع الحرمة، ولم يجعل فرقة بينهما ثم قال ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾[٣] يعني يعودون لنقض ما قالوا ولرفع ما قالوا في الجاهلية ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ يعني فعليه تحرير رقبة ويقال (ثم يعودون لما قالوا) فيه تقديم وتأخير يعني (ثم يعودون فتحرير رقبة لما قالوا). ويقال معناه ثم يعودون لما قالوا في الجاهلية وذلك أنهم كانوا يتكلمون بهذا القول فيرجعون إلى ذلك القول بعد الإسلام وقال بعضهم لا تجب الكفارة حتى يقول مرتين لأنه قال ثم يعودون لما قالوا يعني يعودون مرة أخرى (فتحرير رقبة) هذا القول خلاف جميع أهل العلم وإنما تجب الكفارة إذا قال مرة واحدة.

والكفارة ما قال الله تعالى فتحرير رقبة يعني عتق رقبة ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ يعني من قبل أن يجامعها، ويقال من قبل أن يمس كل واحد منهما صاحبه ﴿ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾ يعني هذا الحكم الذي تؤمرون به ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من الوفاء وغيره وقوله تعالى ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ يعني من لم يجد الرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ يعني فعليه صيام شهرين متتابعين لا يفصل بينهما. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ يعني من قبل أن يمس كل واحد منهما صاحبه.

وفي الآية دليل أن المرأة لا يسعها أن تدعِ الزوج يقربها قبل الكفارة لأنه نهاهما جميعاً عن المسيس قبل

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٠٣، النشر في القراءات العشر ٢/٣٨٥.

(٢) وجه الرفع في قوله ﴿ما هن أماتُهم﴾ أنه لغة تميم. قال سيبويه: وهو أقيس الوجهين، وذلك أن النفي كالاستفهام، فكما لا يغير الاستفهام الكلام عما كان عليه في الواجب... ينبغي ألا يغيره النفي كما كان عليه في الواجب. ووجه النصب أنه لغة أهل الحجاز، والأخذ بلغتهم في القرآن أولى، وعليها جاء: «ما هذا بشراً» كما أشار المصنف.

(٣) حقيقة الظهار.

حقيقة الظهار تشبيه ظهر بظهر، والموجب للحكم منه تشبيه ظهرٍ محلل بظهر محرم، ولهذا أجمع الفقهاء عى أن من قال لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي أنه مظاهر. وأكثرهم على أنه إن قال لها: أنت عليّ كظهر ابنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم أنه مظاهر. وهو مذهب أبي حنيفة ومالك وغيرهما واختلف فيه عن الشافعي رضي الله عنه، فروي عنه نحو قول أبي حنيفة، لأنه شبه امرأته بظهر محرّم عليه مؤبّد كالأم. وروى عنه أبو ثور: أن الظهار لا يكون إلا بالأم وحدها. وهو مذهب قتادة والشعبي. والأول قول الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري. «القرطبي ١٧/١٧٧ ـ ١٧٨» وانظر ما يتعلق بأحكام الظهار في حاشية ابن عابدين ٣/٤٨٩ فتح القدير ٤/٨٥.

الكفارة واتفقوا على أنه إذا أفطر في شهرين يوماً بغير عذر عليه أن يستقبل واختلفوا فيمن أفطر لمرض أو عذر أو غيره قال عطاء إذا أفطر من مرض فالله أعذره بالعذر يبدله ولا يستأنف، وقال طاووس يقضي ولا يستأنف، وهكذا قال سعيد بن المسيب فهؤلاء كلهم قالوا لا يستقبل وقال إبراهيم النخعي والزهري والشعبي يستقبل وهكذا قال عطاء الخراساني والحكم بن كيسان وبه قال أبو حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم ثم قال: ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصيام ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً﴾ يعني فعليه في قول أهل المدينة لكل مسكين صاع من الحنطة أو التمر وفي قول أهل العراق منوان من حنطة أو صاع من تمر بدليل ما روى سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر البياض قال: كنت أصيب من النساء مالا يصيب غيري فلما دخل شهر رمضان خفت أن أصيب من أهلي فتظاهرت من أهلي حتى ينسلخ الشهر فبينما هي تخدمني ذات ليلة إذ إنكشف لي منها شيء فواقعتها فلما أصبحت أخبرت قومي فقلت اذهبوا معي إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما نذهب ومانأمن أن ينزل فيك قرآن فاتيته فأخبرته. فقال حرِّر رقبة فقلت ما أملك إلا رقبتي قال فصم شهرين قلت وهل أصابني إلا من قبل الصيام قال فأطعم وسقا من تمر ستين مسكيناً قلت والذي بعثك بالحق نبياً لقريش مالنا طعام ثم قال انطلق إلى صاحب صدقة بني زريق فليدفعها إليك فرجعت إلى قومي فقلت وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ووجدت عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ السعة وحسن الرأي وقد أمر لي بصدقتكم فقد[1] بين في هذا الخبر أنه يجب وسقا من تمر والوسق ستون صاعاً بالاتفاق ثم قال ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ يعني لتصدقوا بوحدانية الله تعالى ﴿وَرَسُولِهِ﴾ يعني وتصدقوا برسوله ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ يعني هذه فرائض الله وأحكامه ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني الذين لا يؤمنون بالله وبرسوله وروي عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها إن المرأة لتناجي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسمع بعض كلامها ويخفى عليه بعضه إذ أنزل الله تعالى (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها)[2] وهكذا قال الأعمش.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٨٣ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وأحمد وأبي داود والترمذي وحسنه وابن ماجه والطبراني والبغوي في معجمه والحاكم وصححه والبيهقي.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٧٩ وعزاه لابن ماجه وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي.

تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ يعني يعادون ويشاقون الله ورسوله ويقال يشاقون أولياء الله ورسوله يعني الذين يشاقون أولياء الله لأن أحداً لا يعادي الله ولكن من عادى أولياء الله فقد عادى الله تعالى ثم قال ﴿**كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ قال مقاتل أخذوا كما أخذ الذين من قبلهم من الأمر ويقال عذبوا كما عذب الذين من قبلهم وقال أبو عبيد أهلكوا، ويقال غيظوا كما غيظ الذين من قبلهم، والكبت هو الغيظ ويقال أحزنوا وقال الزجاج أذلوا وغلبوا ﴿**وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ**﴾ يعني القرآن فيه البيان أمره ونهيه، ويقال آيات واضحات ﴿**وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾ يهانون فيه ثم قال ﴿**يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً**﴾ الأولين والآخرين يبعثهم الله من قبورهم ﴿**فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا**﴾ من خير أو شر ليعلموا وجوب الحجة عليهم ﴿**أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ**﴾ يعني حفظ الله عليهم أعمالهم وهم نسوا أعمالهم، ويقال ونسوه يعني وتركوا العمل في الدنيا ﴿**وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ يعني شاهداً بأعمالهم. ثم قال ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ**﴾ يعني ألم تعلم، اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التقرير يعني أنك تعلم ويقال معناه إني أعلمتك أن الله يعلم ﴿**مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾ يعني سر أهل السموات وسر أهل الأرض ﴿**مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ**﴾ يعني لا يتناجى ثلاثة فيما بينهم ولا يتكلمون فيما بينهم بكلام الشر إلا هو رابعهم لأنه يعلم ما يقولون فيما بينهم ﴿**وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ**﴾ يعني كان هو سادسهم لأنه يعلم ما يقولون فيما بينهم ﴿**وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ**﴾ يعني عالم بهم وبأحوالهم ﴿**أَيْنَمَا كَانُوا**﴾ في الأرض ﴿**ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا**﴾ يعني يخبرهم بما عملوا يوم القيامة من خير أو شر.

وذلك أن نفراً كانوا يتناجون عند الكعبة قال بعضهم لبعض لا ترفعوا أصواتكم حتى لا يسمع رب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال إن المنافقين واليهود كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين فامتنعوا من ذلك ثم عادوا إلى النجوى ﴿**يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى**﴾ يعني عن قول السر فيما بينهم ﴿**ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجُونَ بِالْأَثْمِ**﴾ يعني بالكذب ﴿**وَالْعُدْوَانِ**﴾ يعني بالجَوْرِ والظلم ﴿**وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ**﴾ يعني خلاف أمر الله وأمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ حمزة (وينْجونَ) والباقون (ويتناجون)[1] وهما لغتان يقال تناجي القوم وانتجوا ثم قال ﴿**وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوكَ**﴾ يعني إذا جاؤوك اليهود حيوكَ ﴿**بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ**﴾ وذلك أنهم كانوا يقولون إذا دخلوا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ السام عليكم فيقول وعليكم فقالت عائشة رضي الله عنها وعليكم السام لعنكم الله وغضب عليكم فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مهلاً يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش قالت أو لم تسمع ما قالوا؟ قال أولم تسمعي ما رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم فيّ

فقالت اليهود فيما بينهم لو كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما يقول لاستجيب دعاؤه علينا حيث قال عليكم فنزل (وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوكَ) يعني سلموا عليك بما لم يحيك به الله يعني بما لم يأمرك به الله أن تحيي به ويقال

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٠٤.

بما لم يسلم عليك به الله ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني فيما بينهم ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ﴾ يعني هلا يعذبنا الله ﴿بِمَا نَقُولُ﴾ لنبيه يقول الله تعالى ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يعني مصيرهم إلى جهنم ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يعني يدخلونها ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ما صاروا إليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ﴾ قال مقاتل يا أيها الذين آمنوا باللسان دون القلب إذا تناجيتم فيما بينكم ﴿فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا بعث سرية كان المنافقون يتناجون فيما بينهم ليحزنوا المؤمنين وهذا الخطاب للمخلصين في قول بعضهم لأن الله تعالى أمرهم أن لا يتناجوا بالإثم والعدوان كفعل المنافقين يعني بالعداوة والظلم. ﴿وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ يعني خلاف أمر الرسول أي لا تخالفوا أمره ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ يعني بالذي أمركم الله تعالى به بالطاعة والتقى يعني ترك المعصية ثم خوفهم فقال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني اخشوا الله فلا تتناجوا بمثل ما تتناجى اليهود والمنافقون ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ بعد الموت فيجازيكم بأعمالكم ثم قال عز وجل ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ يعني نجوى المنافقين من تزيين الشيطان، قال قتادة إذا رأى المسلمون المنافقين جاؤوا متناجين فشق عليهم فنزل إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ[1] يعني نجوى المنافقين في المعصية من الشيطان ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قرأ نافع (ليحزُن الذين آمنوا) بضم الزاء والباقون بالنصب ومعناهما واحد ثم قال ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا﴾ يعني ليس نجوى المنافقين يضر شيئاً للمؤمنين أي لا يضرهم ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلا أن يشاء الله ثم أمر المؤمنين بأن يتوكلوا على الله وهو قوله تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

ثم قال عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ قرأ عاصم في المجالس بلفظ الجمع[2] والباقون في المجلس يعني في مجلس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ. نزلت في ثابت بن قيس وكان في أذنيه شيء من الثقل فحضر مجلس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد أخذوا مجالسهم فبقي قائماً فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رحم الله من وسّع لأخيه[3] فنزلت الآية وروى معمر عن قتادة أنه قال كان الناس يتنافسون في مجلس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقيل لهم إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس ﴿فَافْسَحُوا﴾[4] يعني وسعوا المجلس ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا﴾ يعني إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا وروى معمر عن الحسن قال

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٨٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) من جمع جعله عاماً أي: إذا قيل لكم توسعوا في المجالس أي مجالس العلماء والعلم فتفسحوا. انظر حجة القراءات ٧٠٤.

(٣) انظر تفسير القرطبي ١٧/١٩٢.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٨٤ وعزاه لعبد بن حميد وعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

هذا في الغزاة[١]، وقال مجاهد تفسحوا في المجلس يعني مجلس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة[٢] وإذا قيل انشزوا إلى كل خير وقتال عدو وأمر بالمعروف وروي عن ابن عمر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لا يقيم الرجل الرجل في مجلسه ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا[٣]. قرأ نافع وابن عامر وعاصم في إحدى الروايتين انشزوا بالضم للشين والباقون بالكسر[٤] وهما لغتان يقال نشز ينشز يعني إذ قيل لكم انهضوا يعني قوموا لا تتثاقلوا، ويقال انشزوا يعني قوموا للصلاة وقضاء حق أو شهادة فانشزوا يعني انهضوا ثم قال ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ يعني من كان له إيمان وعلم وكان له فضائل على الذين يقومون وليس بعالم. قال الضحاك (يرفع اللّه الذين آمنوا منكم) وقد تم الكلام ثم قال (وَالَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) يعني لأهل العلم درجات أي الذين أوتوا العلم في الدنيا ولهم درجات في العقبى قال وللعلماء مثل درجة الشهداء وقال مقاتل إذا انتهى المؤمن إلى باب الجنة يقال للمؤمن الذي ليس بعالم أدخل الجنة بعملك ويقال للعالم أقم على باب الجنة واشفع للناس وقال ابن مسعود يرفع الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ على الذين آمنوا منكم ولم يؤتوا العلم درجات[٥] ثم قال ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من التفسح في المجلس وغيره قوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ يعني إذا كلمتم الرسول سراً ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَي نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ يعني تصدقوا قبل كلامكم بصدقة ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يعني التصدق خير لكم من إمساكه ﴿وأَطْهَرُ﴾ لقلوبكم وأزكى من المعصية ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا﴾ ما تتصدقون ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِمَنْ لم يجد الصدقة وذلك أن الأغنياء كانوا يكثرون مناجاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يمكنوا الفقراء من سماع كلامه وكان يكره طول مجالستهم وكثرة نجواهم فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند المناجاة فانتهوا عن ذلك فقدرت الفقراء على سماع كلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومجالسته وقال مجاهد نُهوا عن مناجاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يتصدقوا فلم يناجه إلاَّ عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه قدم ديناراً تصدق به وكلم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عشر كلمات ثم أنزلت الرخصة[٦] بالآية التي بعدها وهو قوله ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ يعني أبخلتم يا أهل الميسرة ﴿أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ فلو فعلتم كان خيراً لكم ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ وتكرهوا ذلك فإن الله تعالى غني عن صدقاتكم ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُم﴾ يعني تجاوز عنكم ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فَنَسَخَت الزكاةُ الصدقة التي عند المناجاة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما يأمركم وينهاكم عنه ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر والتصدق والنجوى.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٨٤ وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٨٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) أخرجه البخاري ١١/٦٢ كتاب الاستئذان (٦٢٦٩) ومسلم ٤/١٧١٤ كتاب السلام (٢٧ ـ ٢١٧٧).

(٤) انظر حجة القراءات (٧٠٥)، النشر ٢/٣٨٥.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٨٥ وعزاه لابن المنذر.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٨٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوا قَوْماً غضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ**﴾ يعني المنافقين اتخذوا اليهود أولياء وتولَّوهم وناصحوهم وهم اليهود وغضب الله عليهم ثم قال ﴿**مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ**﴾ يعني ليسوا منكم في الحقيقة ولا من اليهود في العلانية وهذا كقوله لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وكانوا إذا سألهم المسلمون إنكم تتولون اليهود كانوا يحلفون بالله إنهم من المؤمنين كما قال الله تعالى في آية أخرى (يحلفون بالله إنهم منكم وما هم منكم) فأخبر الله تعالى أنهم لكاذبون في إيمانهم فقال: ﴿**وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ يعني يحلفون أنهم مصدقون في السر وهم يعلمون أنهم مكذبون ﴿**أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً**﴾ في الآخرة ﴿**إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ يعني بئس ما كانوا يعملون بولايتهم اليهود وكذبهم وحلفهم ثم قال عز وجل ﴿**اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً**﴾ يعني جعلوا حلفهم بدلاً عن القتل ليأمنوا بها عن القتل والسبي ﴿**فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ يعني صدوا وصرفوا الناس عن دين الله تعالى في السر ﴿**فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾ يهانون فيه قوله تعالى ﴿**لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً**﴾ يعني لم تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً ﴿**أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ يعني دائمين ثم قال عز وجل ﴿**يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً**﴾ يعني المنافقين واليهود ﴿**فَيَحلفون لَهُ**﴾ يعني يحلفون لله تعالى في الآخرة ﴿**كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ**﴾ في الدنيا، وحَلفهم في الآخرة ما قال الله تعالى في سورة الأنعام (واللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)، وروى معمر عن قتادة قال: المنافق يحلف لله تعالى يوم القيامة كما كان حلف لأوليائه[1] في الدنيا ثم قال ﴿**وَيُحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ**﴾ يعني يحسبون أن يمينهم تنفعهم شيئاً ﴿**أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الكَاذِبُونَ**﴾ في قولهم ويقال ويحسبون إنهم على شيء من الدين ويقال ويحسبون يعني يحسب المؤمنون أنهم على شيء يعني إن المنافقين على شيء من الدين يعني إذا سمعوا حلفهم قال الله تعالى من الدين يعني إذا سمعوا حلفهم قال الله تعالى ألا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ في حلفهم وهم كافرون في السر ثم قال ﴿**اسْتَحْوَذَ**﴾ يعني غلب ﴿**عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ**﴾ ويقال استولى عليهم الشيطان ﴿**أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ**﴾ يعني جند الشيطان ﴿**أَلَا إِنْ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ يعني خسروا أنفسهم وأموالهم في الآخرة.

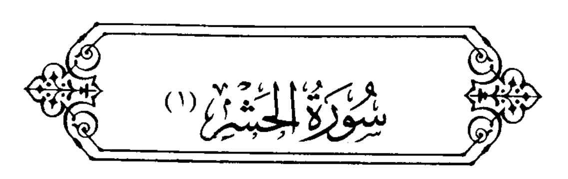
إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

قوله عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ يعني يعادون الله ويخالفون الله ورسوله ﴿**أُولَئِكَ فِي**

﴿الأَذَلِّينَ﴾ يعني في الأسفلين في الدرك الأسفل من النار وهم المنافقون ويقال (أولئك في الأذلين) يعني في الهالكين قوله تعالى **﴿كتب اللَّهُ﴾** يعني قضى الله **﴿لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾** يعني لأغلبن في الدنيا بالحجة والدلائل في الآخرة ويقال لأغلبن يعني لأقهرن أنا ورسلي فتكون العاقبة للمؤمنين **﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** ويقال كتب الله يعني قضى الله ذلك قضاء ثابتاً لأغلبن أنا ورسلي وغلبة الرسل تكون على نوعين:

من بعث منهم في الحرب فغلب في الحرب، ومن بعث منهم بغير حرب فهو غالب بالحجة (إن الله قوي عزيز) أي مانع حزبه من أن يذل (والعزيز) الذي لا يغلب ولا يقهر. ثم قال **﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾** يعني البعث بعد الموت **﴿يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾** يعني يتخذون خلة وصداقة مع الكافرين.

نزلت في «حاطب بن أبي بلتعة» وفيه نزل (لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) ثم قال عز وجل **﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَو إِخْوَانَهُمْ أَو عَشِيرَتَهُمْ﴾** يعني لا تتخذوا مع الكافرين صداقة وإن كانوا من أقربائه ثم قال **﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيْمَانَ﴾** يعني الذين لا يتخذون مع الكافرين صداقة هم الذين جعل في قلوبهم الإيمان يعني التصديق **﴿وَأَيَّدَهُمْ﴾** يعني أعانهم **﴿بِرُوحٍ مِنْهُ﴾** أي قوَّاهم بنور الإيمان وبإحياء الإيمان وذلك يوصلهم إلى الجنة **﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾** يعني في الآخرة **﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾** يعني في الجنة **﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾** بإيمانهم وطاعتهم **﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾** بالثواب والجنة **﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾** يعني جند الله **﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** يعني جند الله هم الناجون الذين فازوا بالجنة وبنعمة الله تعالى وفضله والله أعلم بالصواب.



وهي أربع وعشرون آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾

قوله تبارك وتعالى **﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰواتِ﴾** يعني صلى لله ويقال خضع لله ويقال هو التسبيح بعينه ما في السموات من الملائكة **﴿وما في الأرض﴾** يعني من الخلق **﴿وهو العزيزُ﴾** في ملكه **﴿الحكيمُ﴾** في أمره ثم قال عز وجل **﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** يعني يهود بني النضير **﴿مِنْ أَهْلِ الكِتابِ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾** وكان بدأ أمر بني النضير أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث ثلاثة بعوث أحد البعوث مرشد بن أبي مرشد الغنوي وأمره على سبعة نفر إلى بعض النواحي فساروا حتى جاءوا بطن الرجيع فنزلوا عند شجرة فأكلوا من تمر عجوة كانت معهم فسقطت نوايات بالأرض وكانوا يسيرون بالليل ويكمنون بالنهار فكمنوا بالجبل فجاءت امرأة من هذيل ترعى الغنم فرأت النوايات التي سقطت في الأرض فأنكرت صفرهن فعرفت أنها تمر المدينة فصاحت في قومها أنتم أتيتم فجاؤوا يطلبونها فوجدوهم قد كمنوا في الجبل فقالوا لهم انزلوا ولكم الأمان فقالوا لا نعطي بأيدينا فقاتلوهم فقتلوا كلهم إلا عبد الله بن طارق فجرحوه وحسبوا أنه قد مات فتركوه فنجا من بينهم وبقي أخوهم عاصم بن ثابت بن الأفلح ففرغ

---

(١) قال الشيخ ابن عاشور في تفسيره ٢٨ / ٦٣ : وقع الاتفاق على أنها نزلت في شأن بني النضير ولم يعينوا ما هو الغرض الذي نزل فيه ـ ويظهر أن المقصد منها حكم أموال بني النضير بعد الانتصار عليهم. وقد اشتملت على أن ما في السموات وما في الأرض دال على تنزيه الله، وكون ما في السموات والأرض ملكه، وأنه الغالب المدبر. وعلى ذكر نعمة الله على ما يسر من إجلاء بني النضير مع ما كانوا عليه من المنعة والحصون والعدة. وتلك آية من آيات تأييد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وغلبته على أعدائه وذكر ما أجراه المسلمون من إتلاف أموال بني النضير وأحكام ذلك في أموالهم وتعيين مستحقيه من المسلمين. وتعظيم شأن المهاجرين والأنصار والذين يجيئون بعدهم من المؤمنين. وكشف دخائل المنافقين ومواعيدهم لبني النضير أن ينصروهم وكيف كذبوا وعدهم وأنحى على بني النضير والمنافقين بالجبن وتفرق الكلمة وتنظير حال تغرير المنافقين لليهود بتغرير الشيطان للذين يكفرون بالله، وتنصله من ذلك يوم القيامة فكان عاقبة الجميع الخلود في النار. ثم خاطب المؤمنين بالأمر بالتقوى والحذر من أحوال أصحاب النار والتذكير بتفاوت حال الفريقين. وبيان عظمة القرآن وجلالته واقتضاءه خشوع أهله. وتخلل ذلك إيماء إلى حكمه شرائع انتقال الأموال بين المسلمين بالوجوه التي نظمها الإسلام بحيث لا تشق على أصحاب الأموال. والأمر باتباع ما يشرعه الله على لسان رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وختمت بصفات عظيمة من الصفات الإلهية وأنه يسبح له ما في السموات والأرض تزكية لحال المؤمنين وتعريضاً بالكافرين. انظر التحرير ٢٨ / ٦٣ ـ ٦٤.

جعبته ثم جعل يرميهم ويرتجز ويقاتلهم حتى فنيت سبله ثم طاعن بالرمح حتى انكسر الرمح وبقي السيف ثم قال اللهم إني قد حميت دينك أول النهار فاحم جسدي في آخره وكانوا يجردون من قتل أصحابه فلما قتلوا عاصماً حمته الدبر وهي الذنابير حتى جاء السيل من الليل فذهب به الدبر وأسروا خبيب بن عدي ورجل آخر اسمه زيد بن الديشة، فأما خبيب فذهبوا به إلى مكة فاشترته امرأة ومعها أناس من قريش قتل لهم قتيل يوم بدر فلما جـيء بخبيب أتي به في الشهر الحرام فحبس حتى انسلخ الشهر الحرام ثم خرجوا به من الحرم ليصلبوه فقال لهم اتركوني أصلي ركعتين فصلاهما ثم قال لولا خشيت أن يقولوا جزع من الموت لأزددت فقال اللهم ليس هاهنا أحد أن يبلغ عني رسولك السلام فبلغ أنت عني السلام ثم التفت إلى وجوههم وقال اللهم أحصهم عدداً وأهلكهم بدناً يعني متفرقين ولا تبقي منهم أحداً ثم صلبوه وأما صاحبه الذي أسر معه اشتراه صفوان بن أمية وأما البعث الثاني فإنه بعث محمد بن سلمة مع أصحابه فقتل أصحابه عن نحو طريق العراق وارتث هو من وسط القتلى فنجا وأما البعث الثالث فإن عمرو بن مالك كتب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ابعث إلي رجالاً يعلموننا القرآن ويفقهوننا في الدين فهم في ذمتي وجواري فبعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المنذر بن عمرو الساعدي في أربعة عشر من المهاجرين والأنصار فساروا نحو بئر معونة فلما ساروا ليلة من المدينة بلغهم أن عمرو بن مالك مات فكتب المنذر بن عمرو إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستمده فأمده ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأربعة نفر منهم عمرو بن أمية الضمري والحارث بن الصمة وسعد بن أبي وقاص ورجل آخر فساروا حتى بلغوا بئر معونة وكتبوا إلى ربيعة بن عامر بن مالك نحن في ذمتك وذمة أبيك أفنقدم إليك أم لا فقال أنتم في ذمتي وجواري فأقدموا فخرج إليهم عامر بن الطفيل واستعان برعل وذكوان وعصية فخرجوا إلى المسلمين فقاتلوهم فقتلوا كلهم إلا عمرو بن أمية الضمري والحارث بن الصمة وسعد بن أبي وقاص كانوا تخلفوا فنزلوا تحت شجرة إذ وقع على الشجرة طير فرمى عليهم بعلقة دم فعرفوا أن الطير قد شرب الدم فقال بعضهم لبعض قد قتل أصحابنا فصعدوا أعلى الجبل فنظروا فإذا القوم صرعى وقد اعتكفت عليهم الطير فقال الحارث بن الصمة أنا لا أنتهي حتى أبلغ مصارع أصحابي فخرج إليهم فقاتل القوم فقتل منهم رجلين ثم أخذوه فقالوا له ما تحب أن نصنع بك فقال لهم بلغوا بي مصارع قومي فلما بلغ مصارع أصحابه أرسلوه فقاتلهم فقتل منهم اثنين ثم قتل فرجع عمرو بن أمية الضمري ورجع معه الرجلان الأخران إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فخرج رجلان من عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مستأمنين قد كساهما وحملهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال من أنتما قال كلابيان فقتلهما عمرو بن أمية الضمري وأخذ سلبهما ودخل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبره الخبر فقال بئس ما صنعت حين قتلتهما فلما جاء إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبره خبر هذه البعوث الثلاثة في ليلة واحدة صلى الصبح في ذلك اليوم وقال في الركعة الثانية اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف اللهم العن رعلان وذكوان وبني لحيان اللهم غفار غفر الله لها وسالم سالمها الله وعصية عصت الله ورسوله فجاء أناس من بني كلاب يلتمسون من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دية الكلابيين وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قدم المدينة صالح بني النضير على أن لا يكونوا معه ولا عليه فاستعان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عقل الكلابيين قبائل الأنصار فلما بلغ العالية استعان من بني النضير فقال أعينوني في عقل أصابني فقال هؤلاء حلفائي فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم إلى بني النضير فقال حيي بن أخطب اجلس يا أبا القاسم حتى نطعمك ونعطيك ما سألتنا فجلس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صفه ومعه أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم فقال حيي بن أخطب لأصحابه إنما هو في ثلاثة نفر لا ترونه أقرب من الآن فقتلوه

لا تروا شراً أبداً فنزل جبريل عليه السلام وأخبره فقام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأنه يريد حاجة حتى دخل المدينة فجاء إنسان فسألوه عنه فقال رأيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل أول البيوت فقاموا من هناك فقال حيي بن أخطب عجل أبو القاسم عليه فقد أردنا أن نطعمه ونعطيه الذي سأل فلما رجع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة جمع الناس وجاء بالجيش واختلفوا في قتل كعب بن الأشرف فقال بعضهم لبعض قد كان قتل قبل ذلك، وقال بعضهم قتل في هذا الوقت فبعث محمد بن سلمة فخرج محمد بن سلمة وأبو نائلة ورجلان وآخران فأتوه بالليل وقالوا أتيناك نستقرض منك شيئاً من التمر فخرج إليهم فقتلوه ورجعوا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فخرج إليهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الجيش إلى بني النضير فقال لهم اخرجوا منها فإذا جاء وقت الجذاذ فجذوا ثماركم فقالوا لا نفعل فحاصرهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا يا أبا القاسم نحن نعطيك الذي سألتنا قال لا ولكن اخرجوا منها ولكم ما حملت الإبل إلا الحلقة يعني السلاح قالوا لا فحاصرهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خمس عشرة ليلة وأمر بقطع نخيلهم ونقب بيوتهم فلما رأت اليهود ما يصنعون بهم فكلما نقب المسلمون بيت فروا إلى بيت آخر ينتظرون المنافقين وقد قال المنافقون لهم لئن أخرجتم لنخرجن معكم وإن قوتلتم لننصرنكم فلما رأوا أنه لا يأتيهم أحد من المنافقين ولاحقهم من الشر مما لحقهم قال بعضهم لبعض ليس لنا مقام بعد النخيل فنحن نعطيك يا أبا القاسم على أن تعتق رقابنا إلا الحلقة ونخرج فأجلاهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المدينة ولهم ما حملت الإبل إلا الحلقة فأخذ أموالهم فقسمها بين المهاجرين ولم يعطها أحداً من الأنصار إلا رجلين كانا محتاجين مثل حاجة المهاجرين وهما سهل بن حنيف وسماك بن خرشة أبو دجانة فنزلت هذه الآية وهو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم يعني بني النضير ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ يعني أول الإجلاء من المدينة وقال عكرمة من شك بأن الحشر هو الشام فليقرأ هذه الآية (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) فلما قال لهم اخرجوا من المدينة قالوا إلى أين قال إلى أرض المحشر فقال لهم إنهم أول من يحشر وأخرج من ديارهم ثم قال ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ يعني ما ظننتم أيها المؤمنين أن يخرجوا من ديارهم وذلك إن بني النضير كان لهم عز ومنعة وظن الناس أنهم بعزهم ومنعتهم لا يخرجون ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ﴾ يعني وحسبوا بني النضير أنهم ﴿مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني أن حصونهم تمنعهم من عذاب الله ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ﴾ يعني أتاهم أمر الله ويقال فأتاهم الله بما وعد لهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ يعني لم يظنوا إنه ينزل بهم وهو قتل كعب بن الأشرف ويقال خروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الجيش إليهم ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ يعني جعل في قلوبهم الخوف ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنهم حصنوا أزقتهم بالدروب وكان المسلمون ينقبون بيوتهم ويدخلونها وكان اليهود ينقبون بيوتهم من الجانب الآخر ويخرجون منها. ويقال كان اليهود ينقبون بيوتهم ليرموا بها على المسلمين وكان المسلمون يخربون نواحي بيوتهم ليتمكنوا من الحرب ويقال كان اليهود أنفقوا في بيوتهم فلما علموا أنهم يخرجون منها جعلوا يخربونها كيلا يسكنها المسلمون وكان المؤمنون يخربونها ليدخلوا عليهم قرأ أبو عمرو يخربون بالتشديد والباقون بالتخفيف[1] قال بعضهم هما لغتان خرب وأخرب وروي عن الفراء

---

(١) حجة من قرأ قوله ﴿بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ فذكر البيوت والأيدي للتكثير وتردد الفعل كما قال: «وغلقت الأبواب» وقد أجمعوا على التشديد في هذا الحرف. وفي التخفيف وجهان: أحدهما أن يكون الاخراب يعني به الترك، تقول: أخربت المكان: إذا خرجت عنه وتركته. فمعنى «يخربون» أي يتركون بيوتهم. والوجه الآخر أن يراد معنى الهدم فيجري ذلك مجرى (أوفيت ووفيت، وأكرمت وكرمت، وأذكرته وذكرته) وكذلك (خربت وأخربت). والأصل أن تقول: خرب المنزل وأخربه صاحبه وخربه أيضاً. انظر حجة القراءات ٧٠٥.

أنه قال من قرأ بالتشديد فمعناه يهدمون ومن قرأ بالتخفيف فمعناه يعطلون. ثم قال ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ يعني من له البصارة في أمر الله.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

قوله عز وجل ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجَلاءَ﴾ يعني لولا أن قضى الله عليهم الإخراج من جزيرة العرب إلى الشام ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني لعذبهم بالقتل والسبي ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ يعني ذلك الذي أصابهم من الجلاء في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ﴾ يعني خالفوا الله ورسوله في الدين، ويقال عادوا الله ورسوله (ومن يشاق الله) وأصله من يشاقق الله إلا أن إحدى القافين أدغمت في الأخرى وشددت يعني من يخالف الله ورسوله في الدين ﴿فَإِنَّ اللهَ شَدِيْدُ العِقَابِ﴾ يعني إذا عاقب فعقوبته شديدة قوله عز وجل ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ﴾ يعني من نخلة ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا﴾ فلم تقطعوها ﴿فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ يعني بأمر الله، وقال عكرمة لما دخل المسلمون على بني النضير أخذوا يقطعون النخل فنهاهم بعضهم وتأولوا قوله قوله تعالى (وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل) وقال بعضهم يقطع ويتأول قوله تعالى (ولا ينالون من عدو نيلاً» فأنزل الله تعالى «ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله»[1] وقال الزهري في قوله «ما قطعتم من لينة» اللينة ألوان النخل كلها إلا العجوة وقال الضحاك اللينة النخلة الكرمة والشجرة الطيبة المثمرة وقال مجاهد اللينة الشجرة المثمرة وروى بن أبي نجيح عن مجاهد قال نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل وقالوا إنما هي مغانم المسلمين فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعها وبتحليل من قطعها وإنما قطعها وتركها بإذن الله تعالى وعن ابن عباس أنه قال أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقطع النخل فشق ذلك على بني النضير مشقة شديدة فقالوا للمؤمنين تزعمون أنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون في الأرض فدعوها قائمة فإنما هي لمن غلب فنزل «ما قطعتم من لينة[2] واللينة هي النخلة كلها ما خلا العجوة» أو تركتموها قائمة على أصولها» وهي العجوة فبإذن الله يعني القطع والترك بإذن الله وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه أمر عبد الله بن سلام وأبا ليلى المازني بقطع النخل فكان أبو ليلى يقطع العجوة وكان عبد الله بن سلام يقطع اللون فقيل لأبي ليلى لم تقطع العجوة قال لأن فيه كبت العدو وقيل لابن سلام لم تقطع اللون قال لأني أريد أن تبقى العجوة للمسلمين فأنزل الله تعالى رضاً بما فعل الفريقان فقال الله تعالى «ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله» ثم قال عز وجل ﴿وليخزي الفاسقين﴾ يعني وليذل العاصين الناقضين العهد.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٩١ وعزاه لعبد بن حميد في حديث طويل عن عكرمة.
(٢) تفسير القرطبي ١٨/٨.

وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

ثم قال عز وجل ﴿**وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ**﴾ يعني ما أعطى الله ورسوله من بني النضير وذلك أنهم طلبوا من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقسم أموالهم بين جميع المسلمين كما قسم أموال بدر فلم يفعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقسم بين فقراء المهاجرين فنزل «وما أفاء الله على رسوله» ﴿**مِنْهُمْ**﴾ يعني ما أعطى الله ورسوله من أموال بني النضير ﴿**فَمَا أَوْجَفْتُمْ**﴾ يعني ما أجريتم ﴿**عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ**﴾ يعني لا على خيل ولا على إبل أتيتم بل إنكم مشيتم مشياً حتى فتحتموها ويقال أوجف الفرس والبعير إذا أسرعا يعني لم يكن عن غزوة أوجفتم خيلاً ولا ركاباً ﴿**وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ**﴾ يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿**على من يشاء**﴾ من بني النضير ﴿**وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ من النصرة والغنيمة ثم بين لمن يعطي تلك الغنائم فقال ﴿**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى**﴾ يعني من بني النضير وفدك ويقال بني قريظة والنضير وخيبر ﴿**فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ**﴾ يعني لله أن يأمركم فيه بما أحب وروى عبد الرازق عن معمر عن الزهري قال كانت بنو النضير للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خالصاً لم يفتحوها عنوة ولكن افتتحوها على صلح فقسمها بين[1] المهاجرين ثم قال ﴿**وَلِذِي الْقُرْبَى**﴾ يعن قرابة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿**واليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وابنِ السَّبِيلِ**﴾ وروى مالك بـن أنس عن عمر قال كانت للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلث صفايا بني النضير وخيبر وفدك فأما بنو النضير فكانت حبساً لنوائبه وأما فدك فكانت لابن السبيل وأما خيبر فجزأها ثلاثة أجزاء فقسم جزأين بين المسلمين وحبس جزءاً للنفقة فما فضل عن أهله رده إلى فقراء المسلمين[2] ثم قال ﴿**كَيْ لَا يَكُونَ**﴾ المال ﴿**دولة**﴾ قرأ أبو جعفر المدني بالضم وجعله اسم يكون وقراءة العامة بالنصب يعني لكي لا يكون دولة وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي دولة بنصب الدال والباقون بالضم[3] فمن قرأ بالضم فهو اسم المال الذي يتداول فيكون مرة لهذا ومرة لهذا وأما النصب فهو النقل والانتقال من حال إلى حال ﴿**بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ**﴾ يعني لكيلا يغلب الأغنياء على الفقراء ليقسمونه بينهم ثم قال ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ**﴾ يعني ما أعطاكم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الغنيمة فخذوه وما أمركم الرسول فاعملوا به ﴿**وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾ يعني فامتنعوا عنه ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ لمن عصاه ثم ذكر أن الفيء للمهاجرين فقال تعالى ﴿**لِلْفُقَرَاءِ**

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٩٢/٦ وعزاه لعبد الرزاق والبيهقي وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٩٢/٦ وعزاه لأبي داود وابن مردويه.

(٣) إتحاف فضلاء البشر ٥٣٠/٢.

﴿الْمُهَاجِرِينَ﴾ يعني الغنائم للفقراء المهاجرين **﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾** يعني تركوا أموالهم وديارهم في بلادهم وهاجروا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال هذا ابتداء ومعناه عليكم بالفقراء المهاجرين يعني اعرفوا حقهم وصلوهم الذين أخرجوا من ديارهم يعني أخرجهم أهل مكة من ديارهم وأموالهم **﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ ورِضْوَاناً﴾** يعني يطلبون رزقاً في الجنة ورضوان الله تعالى **﴿وينصرون الله ورسوله﴾** يعني يطيعون الله فيما أمرهم بطاعته **﴿أولئك هم الصادقون﴾** يعني الصادقين في إيمانهم فطابت أنفس الأنصار بذلك فقالوا هذا كله لهم وأموالنا أيضاً لهم فأثنى الله تعالى على الأنصار فقال عز وجل **﴿والَّذِيْنَ تبوَّؤُوا الدارَ والإيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾** يعني استوطنوا الدار يعني دار المدينة من قبل هجرتهم يعني نزلوا دار الهجرة في المدينة والإيمان يعني «تبؤوا الإيمان» أي كانوا مؤمنين من قبل أن هاجر إليهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه قال الله تعالى **﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾** يعني يحبون من يقدم إليهم من المؤمنين **﴿وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾** يعني لا يكون في قلوبهم حسداً مما أعطوا يعني المهاجرين ويقال حاجة يعني حزازة، وهو الحزن، ويقال ولا يجدون في صدورهم بخلاً وكراهة بما أعطوا **﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهُمْ﴾** في القسمة يعني الغنيمة يعني تركوها للمهاجرين **﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾** يعني حاجة وروى وكيع عن فضيل بن عمران عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً من الأنصار نزل به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه فقال لامرأته نومي الصبية وأطفئي السراج وقربي إلى الضيف ما عندك[1] فنزل (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ويقال إن رجلاً من الأنصار أهدي له براً من مشوي فقال لعل جاري أحوج مني فبعث إليه ثم إن جاره بعثه إلى آخر فطاف سبعة أبيات ثم عاد إلى الأول فنزل ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة قال الله تعالى **﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾** يعني ومن يمنع بخل نفسه **﴿فَأُولئِكَ هُمُ المفلحون﴾** يعني الناجين وروي وكيع بإسناده عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال بريء من الشح من أدى الزكاة وأقرى الضيف وأعطى في[2] النائبة وقد أثنى الله تعالى على المهاجرين وعلى الأنصار ثم أثنى على الذين من بعدهم على طريقتهم فقال **﴿والذين جاؤوُا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾** يعني التابعين ويقال يعني الذين هاجروا من بعد الأولين **﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾** يعني أظهروا الإيمان قبلنا يعني المهاجرين والأنصار **﴿وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ﴾** يعني غشاً وحسداً وعداوة **﴿لِلَّذِيْنَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ﴾** يعني رحيم بعبادك المؤمنين وفي الآية دليل أن من ترحم على الصحابة واستغفر لهم ولم يكن في قلبه غل لهم فله حظ في المسلمين وله أجر مثل أجر الصحابة ومن شتم أو لم يترحم عليهم أو كان في قلبه غل لهم ليس له حظ في المسلمين لأنه ذكر للمهاجرين فيه حظ ثم ذكر الأنصار ثم ذكر الذين جاؤوا من بعدهم وقد وصفهم الله بصفة الأولين إذ دعا لهم وفي الآية دليل أن الواجب على المؤمنين أن يستغفروا لإخوانهم الماضين وينبغي للمؤمنين أن يستغفروا لآبائهم ولمعلميهم الذين علموهم أمور الدين ثم نزل في شأن المنافقين.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٩٥ وعزاه لابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٤/٢٤١ والسيوطي في الدر المنثور ٦/١٩٦ ـ ١٩٧ وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٨/٢١٦، وابن كثير ٤/٢٤١.

لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾

فقال عز وجل **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾** يعني منافقي المدينة **﴿يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الذين كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ﴾** يعني من بني النضير **﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحداً أَبداً﴾** يعني ولا نطيع محمداً - صلى الله عليه وسلم - في خذلانكم **﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرنَّكُمْ﴾** يعني لنعينكم **﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾** في مقالتهم وإنما قالوا ذلك بلسانهم في غير حقيقة قلوبهم فقال الله تعالى **﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرجُونَ مَعَهُمْ﴾** يعني لئن أخرج بنو النضير لا يخرج المنافقين معهم **﴿وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرونَهُمْ﴾** يعني لا يمنعونهم من ذلك **﴿ولئن نصروهم لَيولن الأدبار﴾** يعني ولو أعانوهم لا يثبتون على ذلك ولئن نصروهم ليولن الأدبار يعني رجعوا منهزمين **﴿ثم لا ينصرون﴾** ثم لا يثبتون يعني لا يمنعون من الهزيمة ثم قال عز وجل **﴿لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾** يعني أنتم يا معشر المسلمين أشد رهبة **﴿فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ﴾** يعني خوفهم منكم أشد من عذاب الله في الآخرة **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ﴾** يعني لا يعقلون أمر الله تعالى ثم أخبر عن ضعف اليهود في الحرب فقال عز وجل **﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً﴾** يعني لا يخرجون إلى الصحراء لقتالكم **﴿إِلاَّ فِي قُرى مُحَصَّنَة﴾** يعني حصينة **﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾** يعني يقاتلونكم من وراء جدر فحذف الألف وهو جمع الجدار قرأ ابن كثير وأبو عمرو من وراء جدار بالألف والباقون جدر[1] بحذف الألف وهو جماعة وممن قرأ جدار فهو واحد يريد به الجمع ثم قال **﴿بأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾** يعني قتالهم فيما بينهم إذا اقتتلوا شديد وأما مع المؤمنين فلا ثم قال **﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً﴾** يعني تظن أن المنافقين واليهود على أمر واحد وكلمتهم واحدة. **﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾** يعني قلوب اليهود مختلفة ولم يكونوا على كلمة واحدة **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾** يعني ذلك الاختلاف بأنهم **﴿قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ﴾** يعني لا يعقلون أمر الله تعالى ثم ضرب لهم مثلاً فقال عز وجل **﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾** يعني مثل بني النضير مثل الذين من قبلهم يعني أهل بدر **﴿قَرِيباً﴾** يعني كان قتال بدر قبل ذلك بقريب وهو مقدار سنتين أو نحو ذلك قريباً **﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾** يعني عقوبة ذنبهم **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾**

---

(١) حجتهم أنه أتى عقيب قوله: «إلا في قرى محصنة» فأخرجوا القرى بلفظ الجمع ثم عطفوا بقوله «أو من وراء جدر» فكان الجمع أشبه بلفظ ما تقدمه من التوحيد ليأتلف الكلام على نظم واحد. ومن قرأ «جدار» فهو واحد يؤدي معنى الجمع. انظر حجة القراءات ٧٠٦.

﴿أَلِيمٌ﴾ يعني عذاباً شديداً في الآخرة ثم ضرب لهم مثلاً آخر في الآخرة وهو مثل المنافقين مع اليهود حين خذلوهم ولم يعينوهم ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ يعني برصيصا الراهب وروى عدي بن ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان في بني إسرائيل راهب عبد الله تعالى زماناً من الدهر حتى كان يؤتى بالمجانين فيعودهم ويداويهم فيبرؤون على يديه وأنه أتى بامرأة قد جنت وكان لها أخوة فأتوه بها فكانت عنده فلم يزل به الشيطان يزين له حتى وقع عليها فحملت فلما استبان حملها لم يزل به الشيطان يخوفه ويزين له حتى قتلها ودفنها ثم ذهب الشيطان إلى إخوتها في صورة رجل حتى لقي أحداً من أخوتها فأخبره بالذي فعل الراهب وأنه دفنها في مكان كذا فبلغ ذلك ملكهم فسار الملك مع الناس فأتوه فاستنزلوه من الصومعة فأقر لهم بالذي فعل فأمر به فصلب فلما رفع على خشبة تمثل له الشيطان فقال أنا الذي زينت لك هذا وألقيتك فيه فهل لك أن تطيعني فيما أقول لك وأخلصك مما أنت فيه فقال نعم قال اسجد لي سجدة واحدة فسجد[1] له فذلك قوله كمثل الشيطان إذ قال لِلإِنْسَانِ اكفُرْ يعني اسجد ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ يعني سجد ﴿قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قال ذلك على وجه الاستهزاء كذلك المنافقون خذلوهم اليهود كما خذل الشيطان الراهب ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا﴾ يعني عاقبة الشيطان والراهب ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ يعني مقيمين فيها وكان ابن مسعود يقرأ (خالدان فيها) وقراءة العامة بعده خالدين فيها بالنصب[2] وإنما هو نصب على الحال ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ يعني الخلود في النار جزاء المنافقين والكافرين.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني اخشوا الله ويقال أطيعوا الله ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعني ما عملت لغد وأسلفت لغدٍ أي ليوم القيامة ومعناه تصدقوا واعملوا بالطاعة لتجدوا ثوابه يوم القيامة ثم قال ﴿واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر ثم وعظ المؤمنين بأن لا يتركوا أمره ونهيه كاليهود ويوحدوه في السر والعلانية ولا يكونوا في المعصية كالمنافقين فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ يعني تركوا أمر الله تعالى ﴿فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني خذلهم الله تعالى حتى تركوا حظ أنفسهم أن يقدموا خيراً لها ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ يعني العاصين ويقال ولا تكونوا كالذين نسوا الله أي تركوا ذكر الله وما أمرهم به فأنساهم أنفسهم يعني فترك ذكرهم بالرحمة والتوفيق، ويقال ولا تكونوا كالذين نسوا الله يعني تركوا عهد الله ونبذوا كتابه وراء ظهورهم فأنساهم أنفسهم يعني أنساهم حالهم حتى لم يعملوا لأنفسهم ولم يقدموا لها خيراً أولئك هم الفاسقون يعني الناقضين للعهد ثم ذكر مستقر الفريقين فقال ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ يعني لا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٩٩ ـ ٢٠٠ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٥٣١.

يستوي في الكرامة والهوان في الدنيا والآخرة لأن أصحاب الجنة في الدنيا موفقون منعمون معتصمون وفي الآخرة لهم الثواب والكرامة وأصحاب النار مخذولون في الدنيا معذبون في الآخرة، ويقال لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة في الآخرة لأن أصحاب الجنة يتقلبون في النعيم وأصحاب النار يتقلبون في النار والهوان ثم قال ﴿**أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾ يعني المستعدون الناجون وأصحاب النار الهالكون ثم وعظهم ليعتبروا بالقرآن فقال عز وجل ﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ**﴾ يعني القرآن الذي فيه وعده ووعيده لو أنزلناه على جبل ﴿**لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾ يعني خاضعاً متصدعاً، ويقال يندق من خوف عذاب الله فكيف لا يندق ولا يرق هذا الإنسان ويخشع ويقال هذا على وجه المثل يعني لو كان الجبل له تميز عقل لتصدع من الخشية ثم قال عز وجل ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ**﴾ يعني نبينها للناس ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ يعني لكي يتعظوا في أمثال الله يعني يعتبرون ولا يعصون الله تعالى ثم قال ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾ يعني لا خالق ولا رازق غيره ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾ يعني عالم السر والعلانية ويقال الغيب ما غاب عن العباد والشهادة ما شاهدوه وعاينوه ويقال عالم بما كان وبما يكون ويقال عالم بأمر الآخرة وبأمر الدنيا ثم قال ﴿**هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾ يعني العاطف على جميع الخلق بالرزق ـ (الرحيم) بالمؤمنين.

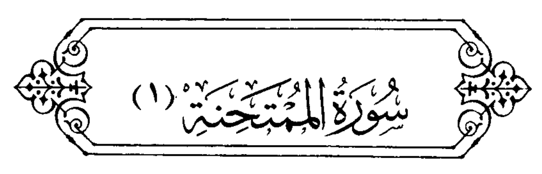
هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

ثم قال عز وجل: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِله إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ**﴾ يعني: مالك كل شيء وهو الملك الدائم الذي لا يزول ملكه أبداً ثم قال القدوس يعني: الطاهر عما وصفه الكفار ولهذا سمي بيت المقدس يعني المكان الذي يتطهر فيه من الذنوب ثم قال ﴿**السَّلَامُ**﴾ يعني: يسلم عباده من ظلمه ويقال سمى نفسه سلاماً لسلامته مما يلحق الخلق من العيب والنقص والفناء ثم قال ﴿**الْمُؤْمِنُ**﴾ يعني: يؤمن أولياؤه من عذابه، ويقال المؤمن أي يصدق في وعده ووعيده ويقال المؤمن يعني: قابل إيمان المؤمنين ثم قال: ﴿**الْمُهَيمِنُ**﴾ يعني: الشهيد على عباده بأعمالهم ويقال المهيمن يعني المويمن فقلبت الواو هاء وهو بمعنى الأمين ثم قال ﴿**الْعَزِيزُ**﴾ يعني: الذي لا يعجزه شيء عما أراد ويقال العزيز الذي لا يوجد مثله ثم قال ﴿**الْجَبَّارُ**﴾ يعني: القاهر لخلقه على ما أراده، ويقال الغالب على خلقه ومعناهما واحد ثم قال ﴿**الْمُتَكَبِّرُ**﴾ يعني: المتعظم على كل شيء، ويقال المتكبر الذي تكبر عن ظلم عباده. ثم قال: ﴿**سُبْحَانَ اللَّهِ**﴾ يعني: تنزيهاً لله تعالى ﴿**عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ يعني: عما وصفه الكفار من الشريك والولد، ويقال سبحان الله بمعنى التعجب يعني عجباً عما وصفه الكفار من الشريك قوله تعالى: ﴿**هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ**﴾ يعني: خالق الخلق في أرحام النساء، ويقال خالق النطف في أصلاب الآباء المصور للولد في أرحام الأمهات ويقال الخالق يعني المقدر ﴿**الْبَارِىءُ**﴾ الذي يجعل الروح في الجسد، ويقال الباريء يعني: خالق الأشياء ابتداء ثم قال: ﴿**الْمُصَوِّرُ**﴾ للولد في أصلاب الآباء ﴿**لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ يعني: الصفات العلي ويقال له الأسماء الحسنى وهي تسعة وتسعون اسماً مائة غير واحد من أحصاها دخل الجنة، وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه

وسلم ـ أنه قال (إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسماً مائةً غيْرَ واحد من أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّة)[1] ثم قال ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوات وَالْأَرْضِ﴾ يعني: يخضع له ما في السموات والأرض يعني: جميع الأشياء كقوله وإن من شيء إلا يسبح بحمده ثم قال ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يعني: العزيز في ملكه الحكيم في أمره فإن قال قائل قد قال الله تعالى (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ) فما الحكمة في أنه نهى عباده عن مدح أنفسهم ومدح نفسه قيل له عن هذا السؤال جوابان ـ أحدهما ـ أن العبد وإن كان فيه خصال الخير فهو ناقص وإن كان ناقصاً لا يجوز له أن يمدح نفسه والله سبحانه وتعالى: تام الملك والقدرة فيستوجب به المدح فمدح نفسه ليعلم عباده فيمدحوه، وجواب آخر أن العبد وإن كان فيه خصال الخير فتلك الخصال أفضال من الله تعالى ولم يكن ذلك بقدرة العبد فلهذا لا يجوز له أن يمدح نفسه والله سبحانه وتعالى إنما قدرته وملكه له ليس لغيره فيستوجب به المدح ومثال هذا أن الله تعالى نهى عباده أن لا يمنوا على أحد بالمعروف وقد من الله تعالى على عباده للمعنى الذي ذكرناه في المدح والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

---

(١) أخرجه البخاري ١٣/٣٧٧ كتاب التوحيد (٧٣٩٢) ومسلم ٤/٢٠٦٣ كتاب الذكر (٦/٢٦٧٧).



سورة الممتحنة (١)

وهي ثلاث عشرة آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾

قوله سبحانه وتعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عدوي وعدوكم أولياء﴾**[٢] نزلت في حاطب بن أبي بلتعة العبسي ذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يجهز الجيش للخروج إلى فتح مكة وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أراد أن يخرج إلى الغزو ورى بغيره يعني: يظهر من نفسه أنه يريد الخروج إلى ناحية أخرى وكان الناس لا يعلمون إلى أي ناحية يريد الخروج فأمر الناس بأن يتجهزوا للخروج إلى الغزو ولم يعلموا إلى أين يخرج إلا الخواص من أصحابه فبينما الناس يتجهزون إذ قدمت امرأة من مكة يقال لها سارة مولاة بني عمر بن الصيف بن هشام بن عبد مناف وكانت امرأة مغنية فقال لها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لماذا جئت فقالت جئت لتعطيني شيئاً فقال لها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما فعلت بحطباتك من شبان قريش فقالت منذ قتلتهم ببدر لم يصل إلى شيء

---

(١) اشتملت من الأغراض على تحذير المؤمنين من اتخاذ المشركين أولياء مع أنهم كفروا بالدين الحق وأخرجوهم من بلادهم. وإعلامهم بأن اتخاذهم أولياء ضلال وأنهم لو تمكنوا من المؤمنين لأساؤوا إليهم بالفعل والقول، وأن ما بينهم وبين المشركين من أواصر القرابة لا يعتد به تجاه العداوة في الدين، وضرب لهم مثلاً في ذلك قطيعة إبراهيم لأبيه وقومه. وأردف ذلك باستئناس المؤمنين برجاء أن تحل مودة بينهم وبين الذين أمرهم الله بمعاداتهم أي هذه معاداة غير دائمة. وأردف بالرخصة في حسن معاملة الكفرة الذين لم يقاتلوا المسلمين قتال عداوة في دين ولا أخرجوهم من ديارهم. وهذه الأحكام إلى نهاية الآية التاسعة. وحكم المؤمنات اللاء يأتين مهاجرات واختبار صدق إيمانهن وأن يحفظن من الرجوع إلى دار الشرك ويعوض أزواجهن المشركون ما أعطوهن من المهور ويقع التراد كذلك مع المشركين. ومبايعة المؤمنات المهاجرات ليعرف التزامهن لأحكام الشريعة الإسلامية. وهي الآية الثانية عشرة. وتحريم تزوج المسلمين المشركات وهذا في الآيتين العاشرة والحادية عشرة. والنهي عن موالاة اليهود وأنهم أشبهوا المشركين وهي الآية الثالثة عشرة. انظر التحرير ٢٨/١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) السورة أصل في النهي عن موالاة الكفار. من ذلك قوله تعالى: **﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾** **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾** (آل عمران: ١١٨) **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾** ومثله كثير. وذكر أن حاطباً لما سمع **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** غشي عليه من الفرح بخطاب الإيمان.

إلا القليل فأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن تعطى شيئاً لترجع فلما أرادت الخروج أتاها حاطب بن أبي بلتعة فقال لها إني معطيك عشرة دنانير وكساء على أن تبلغي إلى أهل مكة كتاباً فأجابته إلى ذلك فخرجت إلى مكة فنزل جبريل عليه السلام في آثرها بالخبر فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلي والزبير والمقداد انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة معها كتاب فخذوه منها فخرجوا حتى أتوا الروضة فإذا هي سارة هناك فقالوا لها أخرجي الكتاب. فقالت ما معي كتاب فألحوا عليها فحلفت أنه ليس معها كتاب فلم يصدقوها حتى نزعت جميع ثيابها فرمت بها إليهم فنظروا إلى ثيابها فلم يجدوا فيها الكتاب ونظروا في راحلتها وأمتعتها فلم يجدوا فيها الكتاب فقال بعضهم لبعض تعالوا حتى نرجع فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إن جبريل نزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبره بذلك فقول المرأة أصدق أم قول جبريل فوالله لا أرجع حتى آخذ منها الكتاب ولأحملن رأسها إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسل السيف ليضرب رأسها فأخرجت الكتاب من عقاصها[1] فأتوا به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقرأ الكتاب فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة وأخبرهم بأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريد الخروج إليهم وذكر أن محمداً يقصدكم فخذوا حذركم وإنه أراد بالكتاب إليهم مودتهم فقام إليه عمر رضي الله عنه وقال دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما هذا يا حاطب فقال لا تعجل علي يا رسول الله إني كنت ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسهم وكل من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهاليهم فأردت أن أتخذ فيهم يداً يحمون قرابتي وما فعلت هذا كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا أرضى بالكفر بعد الإسلام وقد علمت أن الله تعالى منجز وعده ما وعد إلا نصر نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعوه إنه يشهد بدراً وما يدريك يا عمر لعل الله تعالى قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت[2] لكم فنزل يا أيها الذين آمنوا فسماهم مؤمنين لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء يعني في العون والنصرة. ﴿**تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ**﴾ يعني: تكتبون وتبعثون إليهم بالصحيفة والنصيحة ويقال معناه تخبرونهم كما يخبر الرجل أهل مودته حيث توجهون إليهم بالكتاب والمودة والنصيحة ﴿**وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ**﴾ يعني: من القرآن والرسول ﴿**يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ**﴾ يعني: أخرجوكم من مكة ﴿**أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ**﴾ يعني: لأجل الإيمان بربكم يعني بوحدانية ربكم ﴿**إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ**﴾ يعني: لا تلقون إليهم بالمودة إن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ مجاهدين في سبيلي وطلب رضاي ﴿**وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ**﴾ يعني: ما أسررتم وما أظهرتم يعني: أسررتم من المودة لأهل الكفر وأعلنتم الاقرار بالتوحيد ﴿**وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ يعني: من يفعل منكم بعد هذا فقد خطا قصد الطريق ثم قال عز وجل: ﴿**إِن يَثْقَفُوكُمْ**﴾ وهذا إخبار من الله تعالى للمؤمنين بعداوة كفار مكة إياهم لكيلا يميلوا إليهم فقال «إن يثقفوكم» يعني: أن يظهروا عليكم ويقال إن يأخذوكم ويقال إن يقهروكم ويغلبوكم ﴿**يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً**﴾ يعني: يتبين لكم أنهم أعداؤكم فيظهر لكم عداوتهم عند ذلك ﴿**وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ**﴾ بالقتل والتعذيب ﴿**وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ**﴾ يعني: بالشتم ﴿**وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ**﴾ يعني: تمنوا أن ترجعوا إلى دينهم فإن فعلتم ذلك بسبب قرابتكم ﴿**لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ**﴾ يعني: قرابتكم ﴿**وَلَا أَوْلَادُكُمْ**﴾ الذين كانوا بمكة ﴿**يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ**﴾ يعني: يفرق بينكم وبينهم يوم القيامة قرأ عاصم بنصب الياء وكسر الصاد مع التخفيف يعني: يفصل الله بينكم يوم

---

(١) عقاصها أي ضفائرها. انظر لسان العرب ٤/٣٠٤١.

(٢) أخرجه البخاري ٦/١٤٣ كتاب الجهاد (٣٠٠٧) ومسلم ٤/١٩٤١ كتاب فضائل الصحابة (١٦١ ـ ٢٤٩٤).

القيامة وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو يفصل بينكم بضم الياء ونصب الصاد مع التخفيف على معنى فعل ما لم يسم فاعله، والمعنى مثل الأول وقرأ حمزة والكسائي يفصل بينكم بضم الياء وكسر الصاد مع التشديد يعني يفصل الله بينكم والتشديد للتكثير وقرأ ابن عامر يفصل بينكم بضم الياء ونصب الصاد مع التشديد[1] على معنى فعل ما لم يسم فاعله والتشديد للتكثير ويقال الفصل هو القضاء يعني: يقضي بينكم على هذا ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعني: عالم بأعمالكم.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦)﴾

قوله عز وجل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني: هلا فعلتم كما فعل إبراهيم تبرأ من أبيه لأجل كفره ويقال قد كانت لكم أسوة حسنة يعني قدوة حسنة وسنة صالحة في إبراهيم فاقتدوا به ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ يعني: من كان مع إبراهيم من المؤمنين ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ أي: لمن كفر من قومهم ﴿إِنَّا بُـرَآءُ مِنْكُمْ﴾ يعني: من دينكم ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ يعني: برأوا مما تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الآلهة ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ يعني تبرأنا منكم قرأ عاصم أسوة حسنة بضم الألف والباقون بالكسر وهما لغتان أسوة وأسوة وهما بمعنى الاقتداء ثم قال: ﴿وَبَدا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبداً حَتَّى تُؤْمِنوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ يعني: حتى تصدقوا بالله وحده فأعلم الله تعالى أن أصحاب إبراهيم تبرءوا من قومهم وعادوهم لأجل كفرهم فأمر الله تعالى أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقتدوا بهم ثم قال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني: اقتدوا بهم إلا قول إبراهيم ﴿لأبيه لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ يعني: لأدعون لك أن يهديك الله ويكون على هذا التفسير إلا بمعنى لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك يعني: لأدعون لك أن يهديك الله يعني إبراهيم تبرأ من قومه لكنه يدعو لأبيه بالهدى ثم قال: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: ما أقدر أن أمنعك من عذاب الله من شيء إن لم تؤمن ثم علمهم ما يقولون فقال قولوا ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ يعني: فوضنا أمرنا إليك وأمر أهالينا ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ يعني: اقبلنا إليك بالطاعة ﴿وَإِلَيْكَ المصيرُ﴾ يعني: المرجع في الآخرة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فتقتر علينا الرزق وتبسط عليهم فيظنوا أنهم على الحق ونحن على الباطل ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وفي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إنك أنت الغفور الرحيم، وقال بعضهم هذا كله حكاية عن قول إبراهيم إنه دعا ربه بذلك ويقال هذا تعليم لحاطب بن أبي بلتعة هل لأدعون بهذا الدعاء حتى ينجو أهلك ولا يسلط عليهم عدوك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ يعني: في إبراهيم وقومه في الاقتداء ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ يعني: لمن يخاف الله ويخاف البعث ويقال لمن كان يرجو ثواب الله وثواب يوم القيامة ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ يعني: يعرض عن الحق ويقال يأبى عن أمر الله تعالى ﴿فَإِنَّ

---

(١) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٨٧، حجة القراءات ٧٠٦.

﴿اللَّهَ هُوَ الغَنِيُّ الْحَميدُ﴾ يعني: الغني عن عباده الحميد في فعاله.

عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

ثم قال عز وجل: **﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ﴾** يعني: لعل الله أن يجعل بينكم **﴿وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ﴾** من كفار مكة **﴿منهم مودة﴾** وذلك أنه لما أخبرهم عن إبراهيم بعداوته مع أبيه فأظهر المسلمون العداوة مع أرحامهم فشق ذلك على بعضهم فنزل (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) يعني: صلة قال مقاتل فلما أسلم أهل مكة خالطوهم وناكحوهم فتزوج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أم حبيبة بنت أبي سفيان وأسلمت وأسلم أبوها ويقال يسلم منهم فيقع بينكم وبينهم مودة بالإسلام وهذا القول أصح لأنه كان قد تزوج بأم حبيبة قبل ذلك **﴿والله قَديرٌ﴾** على المودة ويقال قدير بقضائه وهو ظهور النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أهل مكة **﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾** لمن تاب منهم **﴿رَحِيمٌ﴾** بهم بعد التوبة ثم رخص في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم وهم خزاعة وبني مدلج فقال عز وجل: **﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين﴾** يعني: عن صلة الذين لم يقاتلوكم في الدين **﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبرؤهُمْ﴾** يعني: أن تصلوهم **﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾** يعني: تعدلوا معهم بوفاء عهدهم **﴿إِنَّ اللَّه يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾** يعني: العادلين بوفاء العهد يقال أقسط الرجل فهو مقسط وإذا عدل وقسط بقسط فهو قاسط إذا جار.

ثم قال عز وجل: **﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتِلُوكُمْ فِي الدِّيْنِ﴾** يعني: عن صلة الذين قاتلوكم في الدين وهم أهل مكة ومن كان في مثل حالهم من أهل الحرب **﴿وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ﴾** يعني: عاونوا على إخراجكم من دياركم **﴿أَنْ تولُوهُمْ﴾** يعني: أن تناصحوهم **﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ﴾** منكم يعني: يناصحهم ويحبهم منكم **﴿فَأُولئكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** يعني: الكافرون الظالمون بأنفسهم. قوله عز وجل: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا جاءَكُمُ المُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾**[1] وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ صالح أهل مكة يوم الحديبية وكتب بينه

---

(١) جاءت زينب بنت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسلمة ولحق بها زوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بعد سنين مشركاً ثم أسلم في المدينة فردها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه. وقد اختلف: هل كان النهي في شأن المؤمنات المهاجرات أن يرجعوهن إلى الكفار نسخاً لما تضمنه شرط الصلح الذي بين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين المشركين أوكان الصلح غير مصرح فيه بإرجاع النساء لأن الصيغة صيغة جمع المذكر فاعتبر مجملاً وكان النهي الذي في هذه الآية بياناً لذلك المجمل. وقد قيل: إن الصلح صرح فيه بأن من جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غير إذن وليه من رجل أو امرأة يرد إلى وليه. فإذا صح =

وبينهم كتاباً إن من لحق من المسلمين بأهل مكة فهو منهم ومن لحق منهم بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رده عليهم فجاءت امرأة إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اسمها سبيعة بنت الحارث الأسلمية فجاء زوجها في طلبها فقال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اردها فإن بيننا وبينك شرطاً فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما كان الشرط في الرجال ولم يكن في النساء[1] فأنزل الله تعالى إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات نصب على الحال **﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾** يعني: اختبروهن ما أخرجكن من بيوتكن ويقال فامتحنوهن يعني: اسألوهن ويقال استخلفوهن ما خرجنا إلا حرصاً على الإسلام ولم تكن لكراهية الزوج ولا لغير ذلك **﴿اللهُ أَعْلَمُ بإيمانِهِنَّ﴾** يعني: أعلم بسرائرهن **﴿فإن عَلِمْتُمُوهُنَّ مؤمناتٍ﴾** يعني: إذا ظهر عندكم إنها خرجت لأجل الإسلام ولم يكن خروجها لعداوة وقعت بينها وبين زوجها **﴿فلا ترجعوهن إلى الكفار﴾** يعني: لا تردوهن إلى أزواجهن **﴿لا هُنَّ حلٌّ لَهُمْ﴾** يعني: لا تحل مؤمنة لكافر **﴿ولا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾** يعني: ولا نكاح كافر لمسلمة قوله تعالى: **﴿وآتوهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾** يعني: أعطوا أزواجهن الكفار ما أنفقوا عليهن من المهر قال مقاتل يعني: إن تزوجها أحد من المسلمين يدفع المهر إلى الزوج فإن لم يتزوجها أحد من المسلمين فليس لزوجها الكافر شيء ثم قال **﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ﴾** يعني: لا حرج على المسلمين أن يتزوجوهن **﴿إذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾** يعني: مهورهن فرد المهر على الزوج الكافر منسوخ وفي الآية دليل أن المرأة إذا خرجت من دار الحرب بانت من زوجها وفي الآية تأييد لقول أبي حنيفة أنه لا عدة عليها وفي أقوال أبي يوسف ومحمد عليها العدة. ثم قال: **﴿ولا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكَوَافِرِ﴾** قرأ أبو عمرو ولا تمسكوا بالتشديد والباقون بالتخفيف[2] فمن قرأ بالتخفيف فهو من أمسك يمسك ومن قرأ بالتشديد فهو من مسك بالشيء يمسكه تمسيكاً ومعناهما واحد وهو أن المرأة إذا كفرت ولحقت بدار الحرب فقد زالت العصمة بينهما فنهى أن يقبضها من بعد انقطاعها وجاز له أن يتزوج أختها أو أربعاً سواها وأصل العصمة الحبل ومن أمسك بالشيء فقد عصمه[3] وقال معناه لا ترغبوا فيهن ولا تعتدوا فيهن ويقال لا تعتد بامرأتك الكافرة فإنها ليست لك بامرأة وكان للمسلمين نساءاً في دار الحرب فتزوجهن هناك ثم قال **﴿واسْأَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ﴾** يعني: اسألوا من أزواجهن ما أنفقتم عليهن من المهر **﴿وَلْيَسْأَلُوا﴾** منكم **﴿ما أنفقوا﴾** يعني: ما أعطوا من مهر المرأة التي أسلمت وهذه الآية نسخت إلا قوله (لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) ثم قال **﴿ذلكُمْ حُكْمُ اللهِ﴾** يعني: أمره ونهيه **﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾** يعني: يقضي بينكم **﴿والله عَلِيمٌ حكيمٌ﴾**.

= ذلك كان صريحاً وكانت الآية ناسخة لما فعله النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذي في سيرة ابن إسحاق من رواية ابن هشام خلي من هذا التصريح ولذلك كان لفظ الصلح محتملاً لإرادة الرجال لأن الضمائر التي اشتمل عليها ضمائر تذكير. وقد روي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للذين سألوه إرجاع النساء المؤمنات وطلبوا تنفيذ شروط الصلح: إنما الشرط في الرجال لا في النساء فكانت هذه الآية تشريعاً للمسلمين فيما يفعلونه إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات وإيذاناً للمشركين بأن شرطهم غير نص. وشأن شروط الصلح الصراحة لعظم أمر المصالحات والحقوق المترتبة عليها، وقد أذهل الله المشركين عن الاحتياط في شرطهم ليكون ذلك رحمة بالنساء المهاجرات إذ جعل لهن مخرجاً وتأييداً لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما في الآية التي بعدها لقصد أن يشترك من يمكنه الإطلاع من المؤمنين على صدق إيمان المؤمنات المهاجرات تعاوناً على إظهار الحق ولأن ما فيها من التكليف يرجع كثير منه إلى أحوال المؤمنين مع نسائهم. التحرير ٢٨/١٥٥.

(١) انظر تفسير القرطبي ١٨/٤١.

(٢) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٨٧، حجة القراءات ٧٠٧.

(٣) انظر لسان العرب ٤/٢٩٧٧.

وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

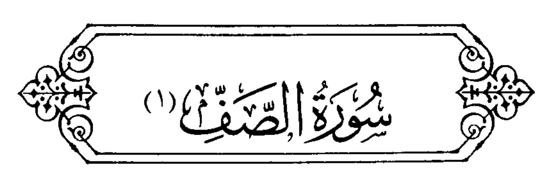
قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الكُفَّارِ﴾ يعني: إذا ارتدت امرأة ولحقت بدار الحرب (فعاقبتم) يعني: فغنم من المشركين شيئاً ﴿فأتوا الذينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ﴾ من الغنيمة ﴿مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ من الغنيمة مثل الذين أعطوا نسائهم من المهر وهذه الآية منسوخة بالإجماع قرأ إبراهيم النخعي (فعقبتم) بغير ألف وعن مجاهد أنه قرأ ﴿فعاقبتم﴾ وقراءة العامة (فعاقبتم)[1] فذلك كله يرجع إلى معنى واحد يعني إذا غلبتم العدو واعتصمتم واصبتموهم في القتال ﴿واتَّقُوا اللهَ﴾ يعني: أخشوا الله فلا تعصوه فيما أمركم ﴿الذي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ يعني: مصدقين ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذا جَاءَكَ المُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ يعني: النساء إذا أسلمن فبايعهن ﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شيئاً﴾ يعني: لا يعبدون غير الله ﴿ولا يسرقن﴾ يعني: لا يأخذن مال أحد بغير حق ﴿وَلَا يَزْنِينَ ولا يَقْتُلن أَوْلَادهُنَّ﴾ يعني: ولا يقتلن بناتهن كما قتلن في الجاهلية ويقال لا يشربن دواءاً فيسقطن حملهن ثم اختلفوا في مبايعة النساء وقال بعضهم وضع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثوباً وأخذ في الثوب وقال بعضهم كان يشيرهن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويصافحهن عمر وذكر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما فتح مكة وفرغ من مبايعة الرجال وهو على الصفا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أسفل منه فبايع النساء على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن فقالت هند امرأة أبي سفيان إني قد أصبت من مال أبي سفيان فلا أدري أحلال أم لا فقال أبو سفيان نعم ما أصبت فيما مضى وفيما غبر فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عفا الله عما سلف وفي خبر آخر أنها قالت أرأيت لو لم يعطني ما يكفيني ولولدي هل يحل لي أن آخذ من ماله فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خذي من ماله ما يكفيك ولولدك بالمعروف[2]. ثم قال ولا يزنين فلما قال ذلك قالت هند أو تزني الحرة فضحك عمر عند ذلك ثم قال تعالى «ولا يقتلن أولادهن» يعني: لا يقتلن بناتهن الصغار فقالت هند ربيناهم صغاراً أفنقتلهم كباراً فتبسم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وأَرْجُلِهِنَّ﴾ يعني: لا يجيئن بصبي من غير زوجها فيقلن للزوج هو منك فقالت هند إن البهتان أفحش وما تأمرنا إلا بالرشد ثم قال عز وجل: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ يعني: في طاعة مما أمر الله تعالى ويقال ولا يعصينك في معروف يعني فيما نهيتهن عن النوح وتمزيق الثياب أو تخلو مع الأجنبي أو نحو ذلك فقالت هند ما جلسنا هذا المجلس وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء ثم قال: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ﴾ يعني: إذا بايعن على ذلك فاسأل الله لهن المغفرة لما كان في الشرك ﴿إِنَّ الله غفور رحيم﴾ غفور لهن كان في الشرك رحيم فيما بقي قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٨/٤٦.

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٨/٤٧.

قوماً غضب الله عليهم) وذلك أن ناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود بأمر المسلمين يتواصلون إليهم بذلك فيصيبون من ثمارهم وطعامهم وشرابهم فنهاهم الله تعالى عن ذلك فقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾** يعني: لا تتخذوا الصداقة مع قوم غضب الله عليهم ويقال هذا أيضاً في حاطب بن أبي بلتعة. ثم قال عز وجل: **﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الكُفَارُ مِنْ أَصْحَابِ القُبُورِ﴾** قال مقاتل وذلك أن الكافر إذا وضع في قبره أتاه ملك شديد الانتهار فيجلسه ثم يسئله من ربك وما دينك ومن رسولك فيقول لا أدري فيقول الملك أبعدك الله انظر يا عدو الله إلى منزلك فينظر إليه من النار فيدعو بالويل والثبور فيقول هذا لك يا عدو الله فيفتح له باب إلى الجنة فيقول هذا لمن آمن بالله تعالى فلو كنت آمنت بربك نزلت الجنة فيكون حسرة عليه وينقطع رجاؤه منها وعلم أنه أبعد له فيها ويئس من خير الجنة فذلك قوله تعالى للكفار أهل الدنيا الأحياء منهم قد يئسوا من الآخرة يعني: من خير الآخرة لأنهم كذبوا بالثواب والعقاب وهم آيسون من الجنة كما يئس الكفار من أصحاب القبور، إذا عرف منازله ويقال إن الكفار إذا مات منهم أحد يئسوا من رجوعه فيقال قد يئس هؤلاء من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور من رجوعهم ويقال يئسوا من الآخرة يعني هؤلاء الكفار كما يئس الكفار الذين كانوا قبلهم من الآخرة وهو اليوم من أصحاب القبور والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.



(١)

وهي أربع عشرة آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾[٢] وذلك أن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا بعدما فروا يوم أحد لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى وأفضل لفعلناه فنزل لم تقولون ما لا تفعلون ويقال قالوا ذلك قبل يوم أحد فابتلوا بذلك وفروا فنزل تيسيراً لهم بترك الوفاء فقال لم تقولون ما لا تفعلون ﴿**كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ**﴾ يعني: عظم بغضاً عند الله ﴿**أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُون إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**﴾ يعني: يصفون بمنزلة الصف في الصلاة وملتزمة بعضهم في بعض لا يتأخر أحدهم عن صاحبه بمنزلة البنيان الذي بني بالرصاص ويقال

---

(١) أول أغراض هذه السورة التحذير من إخلاف الوعد والالتزام بواجبات الدين. والتحريض على الجهاد في سبيل الله والثبات فيه، وصدق الإيمان والثبات في نصرة الدين. والاتساء بالصادقين مثل الحواريين، والتحذير من أذى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعريضاً باليهود مثل كعب بن الأشرف. وضرب المثل لذلك بفعل اليهود مع موسى وعيسى عليهما السلام والتعريض بالمنافقين. والوعد على إخلاص الإيمان والجهاد بحسن مثوبة الآخرة والنصر والفتح. التحرير ٢٨/١٧٣.

(٢) هذه الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملاً فيه طاعة أن يفي بها. والملْتَزَم على قسمين: أحدهما: النذر، وهو على قسمين، نذر تقرب مبتدأ كقوله لله علي صلاة وصوم وصدقة، ونحوه من القُرب. فهذا يلزم الوفاء به إجماعاً. ونذر مباح وهو ما علق بشرط رغبة، كقوله: إن قدم غائبي فعليّ صدقة. أو علق بشرط رهبة، كقوله: إن كفاني الله شر كذا فعلي صدقة، فاختلف العلماء فيه، فقال مالك وأبو حنيفة يلزمه الوفاء به، وقال الشافعي في أحد أقواله: إنه لا يلزمه الوفاء به. وقوله تعالى: ﴿**لم تقولون ما لا تفعلون**﴾ استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ، على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله، أما في الماضي فيكون كذباً، وأما في المستقبل فيكون خلفاً، وكلاهما مذموم، وتأول سفيان بن عيينة قوله تعالى: ﴿**لم تقولون ما لا تفعلون**﴾ أي لم تقولون ما لَبس الأمر فيه إليكم، فلا تدرون هل تفعلون أو لا تفعلون، فعلى هذا يكون الكلام محمولاً على ظاهره في إنكار القول. انظر تفسير القرطبي ١٨/٥٢، ٥٣.

كأنهم بنيان مرصوص أي متفقي الكلمة بعضهم على بعض على عدوهم فلا يخالف بعضهم بعضاً وروي في الخبر أنه كان يوم مؤتة وكان عبد الله بن رواحة أحد الأمراء الذين أمرهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ناداهم يا أهل المجلس الذين وعدتم ربكم قولكم ثم مشى فقاتل حتى قتل[1] قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ وقد قال موسى ﴿لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ بالتكذيب وذلك أنهم كذبوه وقالوا إنه أدبر ويقال: إنه حين مات هارون ويقال إنه قال لقومه الكفار لم تؤذونني بالتكذيب والشتم ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا﴾ يعني: مالوا عن الحق وعدلوا عنه ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ يعني: خذلهم عن الهدى فثبتوا على اليهودية ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ يعني: لا يرشد إلى دينه ﴿الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني: العاصين المكذبين الذين لا يرغبون في الحق. ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ يعني: وقد قال عيسى ابن مريم ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ يعني: أرسلني الله تعالى إليكم لأدعوكم إلى الإسلام ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ يعني: أقرأ عليكم الإنجيل موافقاً للتوراة في التوحيد وفي بعض الشرائع ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ﴾ يعني: أبشركم برسول الله ﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ وروى ثور بن يزيد[2] عن خالد[3] بن معدان عن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم قالوا يا رسول الله أخبرنا عن نفسك فقال أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى صلوات الله عليهم ورأت أمي رؤياها حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى في[4] أرض الشام ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: جاءهم عيسى بالبينات التي كان يريهم من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعني: بيناً ظاهراً قرأ حمزة والكسائي ساحر بالألف والباقون سحر بغير ألف فمن[5] قرأ ساحر فهو فاعل ومن قرأ سحر فهو نعت الفعل.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ۖ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢١٢ ـ ٢١٣ وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن عبد الرحمن بن سابط.

(٢) ثور بن يزيد الكلاعي أبو خالد الحمصي أحد الحفاظ قال ابن معين: ما رأيت أحد يشك أنه قدري وهو صحيح الحديث مات سنة ثلاث وخمسين ومائتين انظر ميزان الاعتدال ١/٣٧٤.

(٣) خالد بن معدان الكلاعي الحمصي أبو عبد الله ثقة عابد، يرسل كثير مات سنة ثلاث ومائة. التقريب ١/٢١٨.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ١/٤٣٥، والبغوي في التفسير ١/١١١، والدر المنثور ٥/٢٠٧.

(٥) انظر حجة القراءات ٧٠٧.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يعني: من أشد في كفره ﴿مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللَّهِ﴾ يعني: اختلق على الله ﴿الكذِبَ﴾ وهم اليهود ﴿وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلَامِ﴾ يعني: إلى دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿واللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: لا يرشدهم ويقال لا يرحمهم ما داموا على كفرهم. ثم قال عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئوا نُورَ اللَّهِ بأَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني: ليبطلوا دين الله بقولهم ﴿وَاللَّهُ متم نُورِهِ﴾ يعني: مظهر توحيده وكتابه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾ يعني: وإن كره اليهود والنصارى، قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية حفص والله متم نوره على معنى الإضافة والباقون متم بالتنوين نوره بالنصب[1] فمتم فاعل ونصب نوره لأنه مفعول به، ثم قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ يعني: بالتوحيد ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ يعني: الشهادة أن لا إله إلا الله ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه﴾ يعني: على الأديان كلها، قال مقاتل: وقد فعل: ويقال: إنه يكون في آخر الزمان لا يبقى أحد إلا مسلم أو ذمة للمسلم ﴿وَلَوْ كَرِه الْمُشْرِكُونَ﴾ يعني: وإن كرهوا ذلك ثم قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يعني: من عذاب دائم، قرأ ابن عامر تنجيكم بالتشديد والباقون بالتخفيف[2] وهما لغتان أنجاه ونجاه بمعنى واحد: ثم بين لهم تلك التجارة فقال عز وجل ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يعني: تصدقون بتوحيد الله ﴿وَرَسُولِهِ﴾ يعني: وتصدقون برسوله وبما جاء به من عنده ﴿وَتُجَاهِدُونَ في سَبِيل اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وأَنفُسِكُمْ﴾ فقدم ذكر المال لأن الإنسان ربما يضر بماله ما لا يضر بنفسه ولأنه إذا كان له مال فإنه يؤخذ به النفس ليغزو ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يعني: التصديق والجهاد خير لكم من تركهما ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: تعلمون ثواب الله تعالى ويقال: يعلمون يعني يصدقون ثم بين ثواب ذلك العمل فقال ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ يعني: إن فعلتم ذلك العمل يغفر لكم ذنوبكم ﴿وَيُدْخلكُمُ جَنَّاتٍ تجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً﴾ يعني: يدخلكم منازل الجنة ﴿في جَنّاتِ عَدْن ذَلِكَ الفوز العظيم﴾ يعني: النجاة الوافرة ثم قال عز وجل ﴿وأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني: تجارة أخرى تحبونها نصر من الله يعني: ولكم سوى الجنة أيضاً عدة أخرى في الدنيا تحبونها ويقال معناه ونجاة أخرى تحبونها نصر من الله يعني هي النصرة من الله تعالى على عدوكم ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ يعني: ظفراً سريعاً عاجلاً في الدنيا والجنة في الآخرة ثم قال﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: بشرهم بالجنة ثم قال عز وجل﴿يا أيها الذين آمَنوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو أنصاراً الله بالتنوين والباقون أنصار الله بالإضافة[3]، ومعناهما واحد، يعني: كونوا أعوان الله بالسيف على أعدائه ومعناه: انصروا الله وانصروا دين الله وانصروا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما نصر الحواريون عيسى ابن مريم وهو قوله تعالى:

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾ يعني: من أعواني إلى الله ويقال إنما سموا

---

(١) حجة من قرأ على معنى الإضافة أن الفعل منتظر فالتنوين الأصل وهو وعد من الله فيما يستقبل وفي حال الفعل كما تقول: أنا ضارب زيداً.

وقد ذكر في قراة الباقين أن فيها وجهان: أحدهما أن الإضافة قد استعملتها العرب في الماضي والمنتظر، وأن التنوين لم يستعمل إلا في المنتظر خاصة، فلما كانا مستعملين وقد نزل بهم القرآن، أخذ بأكثر الوجهين أصلاً. والوجه الآخر: أن يراد به التنوين ثم يحذف التنوين طلباً للتخفيف كما قال جل وعز: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ وقوله: ﴿إنكم لذائقو العذاب الأليم﴾. انظر حجة القراءات ٧٠٨.

(٢) انظر المصدران السابقان.

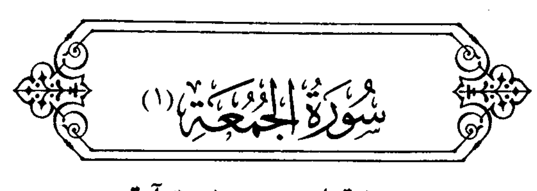
(٣) حجتهم إجماع الجميع على الإضافة في قوله «نحن أنصار الله» ولم يقل «نحن أنصار لله» فكان رد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. انظر حجة القراءات ٧٠٩.

الحواريون لبياض ثيابهم: ويقال كانوا قصارين ويقال: خلصاؤه وصفوته كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: الزبير ابن عمتي وحواري من أمتي[١] وتأويل الحواري في اللغة: الذين أخلصوا وتبرؤوا من كل عيب وكذلك الدقيق الحواري لأنه ينتقى من لباب البرّ وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال إنما سموا الحواريين لبياض ثيابهم وكانوا صيادين وروى عبد الرزاق عن معمر قال: تلا قتادة: (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله) قال وقد كان ذلك بحمد الله جاءه السبعون فبايعوه عند العقبة فنصروه وآووه حتى أظهر الله دينه[٢] **﴿قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾** يعني: نحن أعوانك مع الله **﴿فَآمَنت طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾** يعني: بعيسى عليه السلام ويقال فآمنت طائفة بني إسرائيل بمحمد - صلى الله عليه وسلم - **﴿وكفرت طائفة﴾** يعني: جماعة منهم **﴿فَأَيَّدْنَا الذينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾** يعني: قوينا الذين آمنوا على عدوهم من الكفار **﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾** فصاروا غالبين بالنصرة والحجة والله أعلم بالصواب.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/٣١٤ والخطيب في التاريخ ٥/٢٦، ٨/٩٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢١٤ وعزاه لعبد بن حميد وعبد الرزاق وابن المنذر.



مدنية إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾ وقد ذكرناه ﴿**الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ**﴾ يعني الملك الذي يملك كل شيء ولا يزال ملكه القدوس يعني الطاهر عن الشريك والولد قرىء في الشاذ الملك القدوس بالضم ومعناه هو الملك القدوس وقرأه العامة بالكسر[٢] فيكون نعتاً لله تعالى ﴿**العزيز**﴾ في ملكه ﴿**الحكيم**﴾ في أمرهِ ثم قال: ﴿**هو الذي بَعَثَ في الأميين**﴾ يعني في العرب والأميون الذين لا يكتبون وهو ما خلقت عليه الأمة قبل تعلم الكتابة ﴿**رَسُولاً مِنْهُمْ**﴾ يعني من قومهم من العرب ﴿**يَتْلُو عليهم**﴾ يعني يقرأ عليهم ﴿**آياتِهِ**﴾ يعني القرآن ﴿**وَيُزَكِّيهِمْ**﴾ يعني يدعوهم إلى التوحيد ويطهرهم به من عبادة الأوثان ويقال ويزكيهم يعني يصلحهم ويقال يأمرهم

---

(١) أول أغراض هذه السورة ما نزلت لأجله وهو التحذير من التخلف عن صلاة الجمعة والأمر بترك ما يشغل عنها في وقت أداءها. وقدم لذلك: التنويه بجلال الله تعالى.

والتنويه بالرسول ﷺ. وأنه رسول إلى العرب ومن سيلحق بهم وأن رسالته لهم فضل من الله.

وفي هذا توطئة لذم اليهود لأنهم حسدوا المسلمين على تشريفهم بهذا الدين ومن جملة ما حسدوهم عليه ونقموه أن جُعل يوم الجمعة اليوم الفاضل في الأسبوع بعد أن كان يوم السبت وهو المعروف في تلك البلاد. وإبطال زعمهم أنهم أولياء الله.

وتوبيخ قوم انصرفوا عنها لمجيء عير تجارة من الشام. انظر التحرير ٢٨/٢٠٥، ٢٠٦.

(٢) هي قراءة أبي العالية ونصر بن عاصم انظر تفسير القرطبي ١٨/٦٠.

بالزكاة ﴿ويعلمهم الكتاب﴾ يعني القرآن ﴿والحكمة﴾ يعني الحلال والحرام ﴿وإن كانوا﴾ يعني وقد كانوا ﴿من قبل﴾ أن يبعث إليهم محمداً - صلى الله عليه وسلم - ﴿لفي ضلال مبين﴾ يعني لفي خطأ بين يعني الشرك ﴿وآخرين منهم﴾ يعني التابعين من هذه الأمة ممن بقي ﴿لما يلحقوا بهم﴾ يعني لم يكونوا بعد فسيكونون، وروى جويبر عن الضحاك في قوله آخرين منهم لما يلحقوا بهم قال يعني من أسلم من الناس وعمل صالحاً إلى يوم القيامة من عربي وعجمي[1] ثم قال: ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ يعني العزيز في ملكه الحكيم في أمره قوله تعالى ﴿ذلك فضل الله يؤتيه﴾ يعني الإسلام فضل الله يؤتيه ﴿من يشاء﴾ يعني يعطيه من يشاء ويكرم به من يشاء من كان أهلاً لذلك ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ يعني ذو المن العظيم لمن اختصه بالإسلام.

ثم قال: ﴿مثل الذين حملوا التوراة﴾ يعني صفة الذين علموا التوراة وأمروا بأن يعملوا ما فيها ﴿ثم لم يحملوها﴾ أي لم يعملوا بما أمروا فيها من الأمر والنهي وبيان صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - ويقال مثل الذين حملوا التوراة وأمروا بأن يحملوا تفسيرها ثم لم يحملوها يعني لم يعلموا تفسيرها فمثلهم ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ يعني يحمل كتباً ولا يدري ما فيها كما لا يدري اليهود ما حملوا من التوراة ثم قال ﴿بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله﴾ يعني بئس مثل القوم ضربنا لهم الأمثال ويقال بئس صفة القوم الذين كذبوا بآيات الله يعني: جحدوا بالقرآن وبمحمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يعني إلى طريق الجنة اليهود الذين لا يرغبون في الحق وقوله تعالى ﴿قل يا أيها الذين هادوا﴾ يعني: مالوا عن الإسلام والحق إلى اليهودية ﴿إن زعمتم أنكم﴾ يعني إن أدعيتم وقلتم إنكم ﴿أولياء لله﴾ يعني: أحباباً لله ﴿من دون الناس﴾ يعني من دون المؤمنين ﴿فتمنوا الموت﴾ يعني سلوا الموت فقولوا اللهم أمتنا ﴿إن كنتم صادقين﴾ بأنكم أولياء الله من دون المؤمنين ﴿ولا يتمنونه أبداً﴾ يعني لا يسألون أبداً ﴿بما قدمت أيديهم﴾ يعني بما عملت وأسلفت أيديهم ﴿والله عليم بالظالمين﴾ يعني عليماً بحالهم بأنهم لا يتمنون الموت ﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم﴾ أي تكرهوا الموت يعني نازل بكم لا محالة ﴿ثم تردون﴾ يعني ترجعون في الآخرة ﴿إلى عالم الغيب والشهادة﴾ وقد ذكرناه ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ يعني يخبركم ويجازيكم بما كنتم تعملون في الدنيا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

قوله عز وجل ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة﴾ يعني إذا أذن للصلاة ﴿من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله﴾ يعني امضوا إلى الصلاة فصلوها، ويقال: إلى ذكر الله يعني الخطبة فاستمعوها، وروى الأعمش عن إبراهيم قال كان ابن مسعود يقرأ فامضوا إلى ذكر الله ويقول لو قرأتها فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائي[2]، وقال القتبي

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢١٥ وعزاه لابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢١٩ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وأبي عبيد وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري والطبراني.

السعي على وجوه الإسراع في المشي كقوله تعالى (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) والسعي العمل كقوله تعالى، وسعى لها سعيها وقال إن سعيكم لشتى والسعي المشي كقوله تعالى (يأتينك سعياً)، وكقوله تعالى (فاسعوا إلى ذكر الله) وقال الحسن في قوله تعالى (فاسعوا إلى ذكر الله) قال ليس سعي بالأقدام ولكن السعي بالنية[1] وسعي بالقلب وسعي بالرغبة ثم قال ﴿وذَرُوا البَيْعَ﴾ ولم يذكر الشراء لأنه لما ذكر البيع فقد دل على الشراء ومعناه اتركوا البيع والشراء، وقال جماعة من العلماء لو باع بعد الأذان يوم الجمعة لم يجز البيع، وقال الزهري يحرم البيع يوم الجمعة عند خروج الإمام، وروى جويبر عن الضحاك أنه قال إذا زالت الشمس يوم الجمعة حرم الشراء والبيع ولو كنت قاضياً لرددته[2] وروى معمر عن الزهري قال الأذان الذي يحرم نية البيع عند خروج الإمام وقت الخطبة[3]، وقال الحسن إذا زالت الشمس فلا تشترِ ولا تبع وقال محمد يحرم البيع عند النداء يوم الجمعة عند الصلاة وروى عكرمة عن ابن عباس قال لا يصح البيع والشراء يوم الجمعة حين ينادى بالصلاة حتى تنقضي وقال عامة أهل الفتوى من الفقهاء إن البيع جائز في الحكم لأن النهي لأجل الصلاة وليس بمانع لمعنى في البيع ثم قال ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني السعي إلى الصلاة وترك الشراء والبيع والاستماع إلى الخطبة خير لكم من الشراء والبيع ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني فاعلموا ذلك وكل ما في القرآن إن كنتم تعلمون إن كنتم مؤمنين، فهو بمعنى التقرير والأمر ثم قال عز وجل ﴿فَإِذَا قَضِيَتِ الصَّلاةُ﴾ يعني فرغتم من الصلاة ﴿فانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ يعني: اطلبوا الرزق من الله تعالى بالتجارة والكسب اللفظ لفظ الأمر والمراد به: الرخصة كقوله: وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا، وهي رخصة بعد النهي ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ يعني: واذكروا الله باللسان ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يعني لكي تنجوا ثم قال عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً﴾ قال مجاهد: اللهو هو الضرب بالطبل: فنزلت الآية حين قدم دحيه ابن خليفة الكلبي، وروى سالم عن جابر قال: أقبلت عير ونحن مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن نصلي الجمعة فانفض الناس إليها فما بقي غير اثني عشر رجلاً فنزلت الآية وإذا رأَوُا تِجَارَةً[4] أَوْ لَهْواً ﴿انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً﴾ وروى معمر عن الحسن أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء سعر فقدمت عير والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائماً يخطب يوم الجمعة فسمعوا بها فخرجوا إليها والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم قال الله تعالى وتركوك قائماً فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «ولو اتبع آخرهم أولهم لالتهب الوادي عليهم ناراً»[5].

قال معمر عن قتادة قال لم يبق يومئذ معه إلا إثنى عشر رجلاً وامرأة ويقال إن أهل المدينة كانوا إذا قدمت عير ضربوا بالطبل وخرج الناس فنزل (وإذا رأوا تجارة أو لهواً) انفضوا إليها. والمعنى خرجوا إليها يعني: إلى التجارة، ويقال إليها يعني جملة ما رأوا من اللهو والتجارة، وتركوك قائماً على المنبر ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ﴾ يعني: ثواب الله تعالى خير من اللهو ﴿وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وخير المعطين. والله أعلم بالصواب. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

---

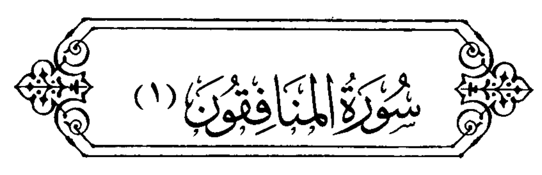
(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢١٩ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢١٩ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢١٩ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) أخرجه مسلم ٢/٥٩٠ كتاب الجمعة (٣٦ ـ ٨٦٣).

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور عن قتادة ٦/٢٢١ وعزاه لعبد بن حميد.



سورة المنافقون (١)

وهي إحدى عشرة آية مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾

قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ إذا حرف من حروف التوقيت: وجوابه قوله: فاحذرهم، وهذا أعلام من الله تعالى بنفاقهم وكذبهم وغرورهم ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ يعني: يقولون ذلك بلسانهم دون قلوبهم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ من غير قولهم ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾ يعني: يبين ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ يعني إنهم مصدقون في قولهم ولكنهم كاذبون بأنهم أرادوا به الإيمان ثم قال عز وجل ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ يعني حلفهم جُنَّة من القتل: وقرأ بعضهم (اتخذوا إيمانهم) بكسر الألف يعني اتخذوا إظهارهم الإسلام وتصديقهم ستراً لأنفسهم وقراءة العامة اتخذوا إيمانهم بالنصب[٢] يعني: استتروا بالحلف وكلما ظهر نفاقهم حلفوا كاذبين ثم قال ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني صرفوا الناس عن دين الله وهو الإسلام ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني بئس ما كانوا يعملون حيث أظهروا الإيمان وأسروا الكفر وصدوا الناس عن الإيمان ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ يعني ذلك الحلف وصرف الناس عن الإيمان بأنهم ﴿آمَنُوا﴾ يعني: أقروا باللسان علانية ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ يعني كفروا في السر ﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بالكفر ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الهدى ولا يرغبون فيه، قوله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ يعني المنافقين ﴿تُعْجِبُكَ

---

(١) أغراض هذه السورة فضح أحوال المنافقين بعد كثير من دخائلهم وتولد بعضها عن بعض من كذب، وخيس بعهد الله، واضطراب في العقيدة، ومن سفالة نفوس في أجسام ثغر وتعجب، ومن تصميم على الإعراض عن طلب الحق والهدى، وعلى صد الناس عنه وكان كل قسم من آيات السورة المفتتح بـ «إذا» خص بغرض من هذه الأغراض. وقد علمت أن ذلك جرت إليه الإشارة إلى تكذيب عبد الله بن أبي بن سلول فيما حلف عليه من التنصل مما قاله.

وختمت بموعظة المؤمنين وحثهم على الإنفاق والادخار للآخرة قبل حلول الأجل. التحرير ٢٨/٢٣٣.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٣٩.

﴿أَجْسَامُهُمْ﴾ يعني عبد الله بن أبي بن سلول المنافق كان رجلاً جسيماً فصيحاً يعني يعجبك منظرهم وفصاحتهم، **﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾** يعني تصدقهم فتحسب أنهم محقون **﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾** قال مقاتل فيها تقديم يقول كأن أجسامهم خشب مسنده بعضها على بعض قائماً وإنها لا تسمع ولا تعقل ويقال خشب مسنده يعني خشب أسند إلى الحائط ليس فيها أرواح فكذلك المنافقون لا يسمعون الإيمان ولا يعقلون قرأ الكسائي وأبو عمرو وابن كثير في إحدى الروايتين (كأنهم خشب) بجزم الشين والباقون بالضم[1] ومعناهما واحد، وهو جماعة الخشب فوصفهم بتمام الصور ثم اعلم أنهم في ترك التفهم بمنزلة الخشب ثم قال **﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾** فوصفهم بالجبن أي كلما صاح صائح ظنوا أن ذلك لأمر عليهم ويقال إن كل من خاطب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا يخافون ويظنون أنه مخاطب يخاطبه في أمرهم وكشف نفاقهم ثم أمر أن يحذرهم وبين أنهم أعداؤه فقال **﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾** يعني هم أعداؤك **﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾** ولا تأمن من شرهم ثم قال **﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾** يعني لعنهم **﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾** يعني من أين يكذبون، ويقال من أين يصرفون عن الحق ثم قال عز وجل **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤوسَهُمْ﴾** يعني: عطفوا رؤوسهم رغبة عن الاستغفار وأعرضوا عنه وذلك أن عبد الله بن أبي بن سلول قيل له يا أبا الحباب قد أنزل فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستغفر لك فلوى رأسه ثم قال أمرتموني أن أؤمن فقد آمنت وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت وما بقي إلا أن أسجد لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ نافع لووا رؤوسهم بالتخفيف والباقون بالتشديد[2] ومن قرأ بالتخفيف فهو من لوى يلوي ومن قرأ بالتشديد فهو للتكثير ثم قال **﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾** يعني يعرضون عن الاستغفار مستكبرين عن الإيمان في السر.

ثم أخبر أن الاستغفار لا ينفعهم ما داموا على نفاقهم فقال **﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾** لأنهم منافقون **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾** يعني لا يرشدهم إلى دينه لأنهم لا يرغبون فيه.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾

ثم قال **﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾** يعني: يتفرقوا وروى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال سمعت جابر بن عبد الله يقول كنا في غزوة فكسح رجل من المهاجرين رجلاً من

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٠٩.

(٢) حجة القراءات الموضوع السابق.

الأنصار فقال الأنصاري يآل الأنصار، وقال المهاجري يال المهاجرين فسمع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال ما بال دعوى الجاهلية دعوها فإنها فتنة فقال عبد الله بن أبي والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فقال عمر دعني يا رسول الله أضرب رأس هذا المنافق فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل[١] أصحابه[٢] وروى معمر عن قتادة أن عبد الله بن أبي قال لأصحابه لا تنفقوا على من عند رسول الله فإنكم لو لم تنفقوا عليهم قد انفضوا قال فاقتتل رجلان أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حليف الأنصار فظهر عليهم الغفاري فقال رجل منهم عظيم النفاق يعني عبد الله بن أبي عليكم صاحبكم حليفكم فوالله ما مثلنا ومثل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذلّ. وروى معمر عن الحسن أن غلاماً جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا نبي الله إني سمعت أن عبد الله بن أبي يقول كذا فقال. فلعلك غضبت عليه فقال أما والله يا نبي الله فلقد سمعته يقـول: فلعله أخطأ سمعك فقال: لا، والله يا نبي الله لقد سمعته يقول فأنزل الله تعالى تصديقاً للغلام لئن رجعنا إلى المدينة فأخذ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأذن الغلام وقال وعت أذنك يا غلام[٣] فنزل قوله تعالى: هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا قال الله تعالى ﴿**وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ يعني مفاتيح السموات، وهي المطر والرزق ومفاتيح الأرض وهي النبات ﴿**وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ**﴾ أمر الله تعالى ﴿**يَقُولُونَ لَئِنْ رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ**﴾ يعني القوي منها يعني من المدينة الذليل: يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه قال الله تعالى ﴿**ولِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ**﴾ يعني: المقدرة والمنعة لله ولرسوله ﴿**وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ حيث قواهم الله تعالى ونصرهم ﴿**وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ يعني: لا يصدقون في السر ويقال: ولله العزة يعني القدرة ويقال نفاذ الأمر ولرسوله وهو عزة النبوة والرسالة وللمؤمنين وهو عز الإيمان والإسلام أعزهم الله في الدنيا والأخرة ولكن المنافقين لا يعلمون.

ثم قال عز وجل ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ**﴾ يعني: لا تشغلكم أموالكم ﴿**وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ يعني عن طاعة الله تعالى ﴿**وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ**﴾ يعني من لم يعمل بطاعته ولم يؤمن بوحدانيته ﴿**فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ يعني: المغبونين بذهاب الدنيا وحرمان الآخرة ثم قال عز وجـل ﴿**وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ يعني: تصدقوا مما رزقناكم أي مما رزقكم الله من الأموال ﴿**مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ**﴾ يعني يقول يا سيدي ردني إلى الدنيـا ﴿**فَأَصَّدَّقَ**﴾ يعني فأتصـدق ويقال أصـدق بالله ﴿**وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ يعني أفعل كما فعل المؤمنون وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال من كان له مال يجب فيه الزكاة فلم يزكه أو مال يبلغه بيـت الله فلم يحج سأل عند الموت الرجعة قال ـ فقال رجل اتق الله يا ابن عباس سألت الكفار الرجعة قال إني أقرأ عليك بهذا القرآن ثم قرأ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) إِلَى قَوله (فَأَصَّدَقَ وأَكُنْ مَن الصَّالِحِينَ)[٤].

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٢٥ وعزاه لسعيد بن منصور والبخاري ومسلم والترمذي وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل، هو عند البخاري في (٤٩٠٥)، ومسلم في البر والصلة (٦٣/٢٥٨٤) والترمذي (٣٣١٥).

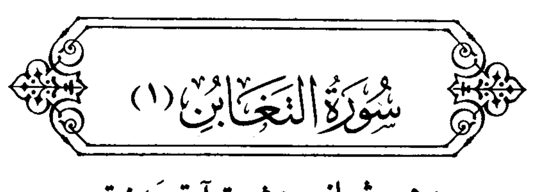
(٢) انظر تفسير الطبري ٢٨/١١٠.

(٣) انظر أسباب النـزول للواحدي ٣٢١.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٢٦ وعزاه لعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه.

فقال رجل يا ابن عباس وما يوجب الزكاة قال مائتان فصاعداً قال فما يوجب الحج قال الزاد والراحلة، قرأ أبو عمرو (فأصدق وأكون) بالواو وفتح النون والباقون (وأكن) بحذف الواو بالجزم[١] فمن قرأ (أكون) لأن قوله فأصدق جواب (لولا أخرتني) بالفاء فأكون معطوفاً عليه، ومن قرأ (فاكن) فإنه عطفه على موضع فأصدق لأنه على معنى إن أخرتني أصدق وأكن ولم يعطفه على اللفظ قال أبو عبيدة: قرأت في مصحف عثمان هكذا بغير واو ثم قال: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ يعني: إذا جاء وقتها ﴿واللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ من الخير والشر فيجازيكم قرأ عاصم في رواية أبي بكر يعلمون بالياء على معنى الخبر عنهم والباقون بالتاء على معنى المخاطبة والله أعلم.

(١) انظر حجة القراءات الموضع السابق وإتحاف فضلاء البشر ٢/ ٥٤٠.



سورة التغابن (١)

وهي ثماني عشرة آية مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)﴾

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي له الملك الدائم الذي لا يزول يعني: يحمده المؤمنون في الدنيا وفي الجنة كما قال ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ في الأولَىٰ والآخِرةِ ويقال له الحمد يعني: هو المحمود في شأنه وهو أهل أن يحمد لأن الخلق كلهم في نعمته فالواجب عليهم أن يحمدوه ثم قال ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني: قادر على ما يشاء ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ يعني: يخلقكم من نفس واحدة ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ يعني: منكم من يصير كافراً، ومنكم من يصير أهلاً للإيمان، ويؤمن بتوفيق الله تعالى، ويقال منكم من خلقه كافراً

---

(١) اشتملت هذه السورة على التذكير بأن من في السماء ومن في الأرض يسبحون لله، أي ينزهونه عن النقائص تسبيحاً متجدداً.

وأن الملك لله وحده فهو الحقيق بإفراده بالحمد لأنه خالق الناس كلهم فآمن بوحدانيته ناس وكفر ناس ولم يشكروا نعمة إذ خلقهم في أحسن صورة وتحذيرهم من إنكار رسالة محمد ﷺ، وإنذارهم على ذلك ليعتبروا بما حل بالأمم الذين كذبوا رسلهم وجحدوا بيناتهم تكبراً أن يهتدوا بإرشاد بشر مثلهم.

والإعلام بأن الله عليم بالظاهر والخفي في السموات والأرض فلا يجري أمر في العالم إلا على ما اقتضته حكمته.

وأنحى عليهم إنكار البعث وبين لهم عدم استحالته وهددهم بأنهم يلقون حين يبعثون جزاء أعمالهم، فإن أرادوا النجاة فليؤمنوا بالله وحده وليصدقوا رسوله ﷺ والكتاب الذي جاء به ويؤمنوا بالبعث فإنهم إن آمنوا كفرت عنهم سياتهم وإلا فجزاءهم النار خالدين فيها.

ثم تثبيت المؤمنين على ما يلاقونه من ضر أهل الكفر بهم فليتوكلوا على الله في أمورهم وتحذير المؤمنين من بعض قرابتهم الذين تغلغل الإشراك في نفوسهم تحذيراً من أن يثبطوهم عن الإيمان والهجرة.

وعرض لهم بالصبر على أموالهم التي صادرها المشركون. وأمرهم بإنفاق المال في وجوه الخير التي يرضون بها وبهم وبتقوى الله والسمع له والطاعة. انظر التحرير ٢٨/٢٥٩.

ومنكم من خلقه مؤمناً، كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى وإلى[1] هذا ذهب أهل الجبر، ويقال فمنكم كافر يعني: كافر بأن الله تعالى خلقه وهو كقوله: (قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه) وكقوله (أكفرت بالذي خلقك من تراب)، ويقال (فمنكم كافر) يعني كافراً في السر وهم المنافقون (ومنكم مؤمن) وهم المخلصون ويقال: هذا الخطاب لجميع الخلق، ومعناه: هو الذي خلقكم فمنكم كافر بالله وهم المشركون ومنكم مؤمن وهم المؤمنون يعني: استويتم في خلق الله إياكم واختلفتم في أحوالكم فمنكم من آمن وبالله ومنكم من كفر ثم قال ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْلَمُونَ بَصِيرٌ﴾ يعني: عليماً بما تعملون من الخير والشر ثم قال عز وجل: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: بالحق والحجة والثواب والعقاب ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ يعني: خلقكم ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ يعني: خلقكم على أجمل صورة وهذا كقوله (ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)، وكقوله (ولقد كرمنا بني آدم) ثم قال ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يعني: إليه المرجع في الآخرة فهذا التهديد يعني: كونوا على الحذر لأن مرجعكم إليه ثم قال ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: من كل موجود ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ يعني: ما تخفون وما تضمرون في قلوبكم وما تظهرون وتعلنون بألسنتكم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني: عليماً بسرائركم ثم قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به: التوبيخ والتقريع يعني: قد أتاكم خبر الذين كفروا من قبلكم ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ يعني: أصابتهم عقوبة ذنبهم في الدنيا ثم أخبر أن ما أصابهم في الدنيا لم يكن كفارة لذنوبهم فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة ثم بين السبب الذي أصابهم به العذاب فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب ﴿بِأَنَّه كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: بالأمر والنهي، ويقال بالبينات يعني: بالدلائل والحجج ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ يعني آدمياً مثلنا يرشدنا ويأتينا بدين غير دين آبائنا ﴿فَكَفَرُوا﴾ يعني: جحدوا بالرسل والكتاب ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ يعني: أعرضوا عن الإيمان ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ تعالى عن إيمانهم ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ عن إيمان العباد، حميد في فعاله يقبل اليسير، ويعطي الجزيل.

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

ثم قال عز وجل: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ يعني: مشركي العرب زعموا أن لن يبعثوا بعد الموت ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ فهذا قسم أقسم أنهم يبعثون بعد الموت ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ يعني: تخبرون بما عملتم في دار الدنيا ويجزون على ذلك ثم قال ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني: البعث والجزاء على الله هين قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني: صدقوا بوحدانية الله تعالى. وصدقوا برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ يعني؛ صدقوا بالقرآن الذي نزل به جبريل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(١) أخرجه الترمذي ٤/ ٤١٩ (٢١٩١). وأحمد في المسند ٣/ ١٩ والحاكم في المستدرك ٤/ ٥٠٥ والخطيب في التاريخ ١٠/ ٢٣٨ وذكره في الدر المنثور ٤/ ٧٤ وزاد نسبته إلى الطيالسي والبيهقي عن أبي سعيد الخدري.

فسمى القرآن نوراً لأنه يهتدى به في ظلمة الجهالة والضلالة ويعرف به الحلال والحرام ثم قال ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يعني: عالم بأعمالكم فيجازيكم بها ثم قال ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ يعني: تبعثن في يوم يجمعكم ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ يعني: يوم تجمع فيه أهل السماء وأهل الأرض ويجمع فيه الأولون والآخرون، قرأ يعقوب الحضرمي يوم نجمعكم بالنون وقراءة العامة بالياء[1] ومعناهما واحد ثم قال ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ يعني: يغبن فيه الكافر نفسه وأصله ومنازله في الجنة يعني: يكون له النار مكان الجنة وذلك هو الغبن والخسران ثم قال ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً﴾ يعني: يوحد الله تعالى ويؤدي الفرائض ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ يعني: ذنوبه ﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني: النجاة الوافرة قرأ نافع وابن عامر نكفّر وندخله كلاهما بالنون والباقون: كلاهما بالياء[2] ومعناهما واحد.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

ثم وصف حال الكافرين فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: بالكتاب والرسول ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ يعني: بئس المرجع الذي صاروا إليه المغبونين ثم قال عز وجل: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ يعني: ما أصاب بني آدم من شدة ومرض وموت الأهلين ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني: إلا بإرادة الله تعالى وبعلمه ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ يعني: يصدق بالله على المصيبة ويعلم أنها من الله تعالى: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يعني: إذا ابتلي صبر وإذا أنعم عليه شكر وإذا ظلم غفر وروي عن علقمة بن قيس أن رجلاً قرأ عنده هذه الآية فقال أتدرون ما تفسيرها وهو أن الرجل المسلم يصاب بالمصيبة في نفسه وماله يعلم أنها من عند الله تعالى فيسلم[3] ويرضى ويقال، من يؤمن بالله يهدي قلبه للاسترجاع يعني يوفقه الله تعالى لذلك ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عالم بثواب من صبر على المصيبة ثم قال عز وجل: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ يعني: أطيعوا الله في الفرائض ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في السنن ويقال أطيعوا الله في الرضا بما يقضي عليكم من المصيبة وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الصبر وترك الجذع ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يعني: أبيتم وأعرضتم عن طاعة الله وطاعة رسوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٤٢.

(٢) حجتهم أن الاسم الظاهر قد تقدم وهو قوله ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً﴾ فكذلك قوله: ﴿يكفر الله عن سيئاته﴾ ويدخله حجة النون ما تقدم أيضاً وهو قوله: ﴿والنور الذي أنزلنا﴾. ويجوز أن يكون النون كقوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ ثم جاء ﴿وآتينا موسى الكتاب﴾.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٢٧ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان.

ليس عليه أكثر من التبليغ ثم وحد نفسه فقال عز وجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني لا ضار ولا نافع ولا كاشف إلّا هو ﴿وعلى الله فليتوكّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: على المؤمنين أن يتوكلوا على الله ويفوضوا أمرهم إليه. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُم وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ﴾[1] حين يمنعونكم الهجرة ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ أن تطيعوهم في ترك الهجرة روى سماك عن عكرمة عن ابن عباس أن قوماً أسلموا بمكة فأرادوا أن يخرجوا إلى المدينة فمنعهم أزواجهم وأولادهم فلما قدموا على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأوا الناس قد فقهوا في الدين فأرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم[2] فنزل قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُم عَدُواً لَكُم فَاحْذَرُوهُمْ» ﴿وإِنْ تَعْفُوا﴾ يعني: تتركوا عقابهم ﴿وَتَصْفَحُوا﴾ يعني: وتتجاوزوا ﴿وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لذنوب المؤمنين رحيم بهم ثم قال ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ يعني: الذين بمكة بلية لا يقدر الرجل على الهجرة، روي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطبنا فأقبل الحسن والحسين يمشيان ويعثران فلما رآهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نزل إليهما وأخذهما واحداً من هذا الجانب وواحداً من هذا الجانب ثم صعد المنبر فقال صدق الله (إنَّما أموالكم وأولادكم فتنة) لما رأيت هذين الغلامين لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما ثم أتم الخطبة ثم قال[3] ﴿واللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي ثواب عظيم لمن آمن ولمن لم يعص الله تعالى لأجل الأموال والأولاد وأحسن إليهم.

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

ثم قال عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ يعني: على قدر ما أطقتم ﴿واسْمَعُوا﴾[4] يعني: يعني اسمعوا

---

(١) قال أبو بكر بن العربي في هذا يبين وجه العداوة فإن العدو لم يكن عدواً لذاته وإنما كان عدواً بفعله، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدواً، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة، وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: (إن الشيطان قعد لابن آدم في طريق الإيمان فقال له أتؤمن وتذر دينك ودين آبائك فخالفه فآمن ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له أتهاجر وتترك مالك وأهلك فخالفه فهاجر ثم قعد له على طريق الجهاد فقال له أتجاهد فتقتل نفسك فتنكح نساؤك ويقسم مالك فخالفه فجاهد فقتل، فحق على الله أن يدخله الجنة). وقعود الشيطان يكون بوجهين: أحدهما: يكون بالوسوسة، والثاني بأن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب قال الله تعالى: ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ وفي حكمة عيسى عليه السلام: من اتخذ أهلاً ومالاً وولداً كان للدنيا عبداً. وفي صحيح الحديث بيان أدنى من ذلك في حال العبد، قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة تعس عبد القطيفة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش) ولا دناءة أعظم من عبادة الدينار والدرهم، ولا همة أخس من همة ترتفع بثوب جديد. انظر القرطبي ١٨/ ٩٣.

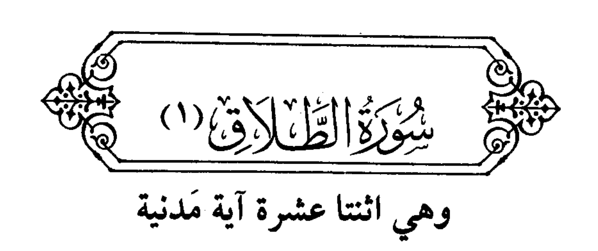
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٢٨ وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم وابن مردويه.

(٤) ذهب جماعة من أهل التأويل إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ منهم قتادة والربيع بن أنس والسدي وابن زيد. ذكر الطبري: وحدثني يونس بن عبد الأعلى قال أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا =

ما تؤمرون به من المواعظ ﴿وَأَطِيعُوا﴾ يعني: وأطيعوا الله والرسول ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْراً لأَنْفسِكُم﴾ يعني: تصدقوا خيراً: يعني: وأنفقوا من أموالكم في حق الله تعالى لأنفسكم يعني ثوابه لأنفسكم ويكون زاداً لكم إلى الجنة، ويقال معناه: تصدقوا خيراً لأنفسكم من إمساك الصدقة ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ يعني: يدفع البخل عن نفسه ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني الناجين السعداء وقوله تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ يعني: صادقاً من قلوبكم ﴿يُضَاعِفه لَكُمْ﴾ يعني؛ القرض يضاعف حسناتكم ويقال يضاعفه لكم يعني الله تعالى يضاعف القرض لكم فيعطي للواحد عشرة إلى سبعمائة إلى ما لا يحصى ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ يعني: يغفر لكم ذنوبكم ﴿واللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعني: يقبل اليسير ويعطي الجزيل ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعجل بالعقوبة لمن يبخل ثم قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ وقد ذكرناه ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يعني العزيز في ملكه الحكيم في أمره. سبحانه وتعالى - وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

= اتقوا الله حق تقاته﴾ قال: جاء أمر شديد قالوا: ومن يعرف قدر هذا أو يبلغه؟ فلما عرف الله أنه قد اشتد ذلك عليهم نسخها عنهم وجاء بهذه الآية الأخرى فقال: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وقيل: هي محكمة لا نسخ فيها. وقال ابن عباس: قوله تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾. إنها لم تنسخ. ولكن حق تقاته أن يجاهد لله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم. انظر القرطبي ١٨/ ٩٥.



سورة الطلاق (١)

وهي اثنتا عشرة آية مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ**﴾ فالخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمراد به هو وأمته بدليل قوله «إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ» فذكر بلفظ الجماعة فكأنه قال يا أيها النبي ومن آمن بك إذا طلقتم النساء يعني: أنت وأمتك إذا أردتم أن تطلقوا النساء وقال الكلبي نزلت في النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: حين غضب على حفصة بنت عمر فقال: فطلقوهن لعدتهن وقال طاهرات: من غير جماع، وروى أبو إسحاق عن أبي الأحوص عن

---

(١) الغرض من هذه السورة تحديد أحكام الطلاق وما يعقبه من العدة والإرضاع والإنفاق والإسكان. تتميماً للأحكام المذكورة في سورة البقرة. والإيماء إلى حكمة شرع العدة. والنهي عن الإضرار بالمطلقات والتضييق عليهن. والإشهاد على التطليق وعلى المراجعة. وإرضاع المطلقة ابنها بأجر على الله. والأمر بالائتمار والتشاور بين الأبوين في شأن أولادهما. وتخلل ذلك الأمر بالمحافظة على الوعد بأن الله يؤيد من يتقي الله ويتبع حدوده ويجعل له من أمره يسراً ويكفر له سيئاته.
وأن الله وضع لكل شيء حكمه لا يعجزه تنفيذ أحكامه.
وأعقب ذلك بالموعظة بحال الأمم الذين عتوا عن أمر الله ورسله وهو حث للمسلمين على العمل بما أمرهم به الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لئلا يحق عليهم وصف العتو عن الأمر وتشريف وحي الله تعالى ـ بأنه منزل من السماء وصادر عن علم الله وقدرته تعالى. التحرير ٢٨/٢٩٣ ـ ٢٩٤.

عبد الله بن مسعود قال ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ طاهرات من غير جماع[١] روى سفيان عن عمرو بن دينار أن ابن عباس رضي الله عنهما قرأ فطلقوهن لقبل عدتهن وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال لو أن الناس أصابوا حد الطلاق لما ندم رجل على امرأته يطلقها وهي طاهرة لم يجامعها فإن بدا أن يمسكها فأمسكها وإن بدا له أن يخلي سبيلها خلى سبيلها وروى عكرمة عن ابن عباس قال: الطلاق على أربعة أوجه: وجهان حلال، ووجهان حرام فأما الحلال بأن يطلقها، من غير جماع أو يطلقها حاملاً، وأما الحرام بأن يطلقها حائضاً أو يطلقها حين جامعها[٣]، وقال الحسن فطلقوهن لعدتهن قال إذا طهرن من الحيض من غير جماع، وقال الزهري وقتادة يطلقها لقبيل عدتها وروى ابن طاوس عن أبيه قال حد الطلاق أن يطلقها قبل عدتها قلت: وما قبل عدتها قال طاهرة من غير جماع ثم قال ﴿وأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ يعني: واحتفظوا العدة: فأمر الرجل بحفظ العدة لأن في النساء غفلة فربما لا تحفظ عدتها. ثم قال ﴿واتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ يعني: واخشوا الله ربكم: فأطيعوه فيما أمركم ولا تطلقوا النساء في غير طهورهن فلو طلقها في الحيض فقد أساء والطلاق واقع عليها في قول عامة الفقهاء ثم قال ﴿لَا تُخرجوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ يعني اتقوا الله في إخراجهن من بيوتهن لأن سكناها على الزوج ما لم تنقض عدتها ثم قال ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ يعني: ليس لهن أن يخرجن من البيوت، ثم قال: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ يعني: إلا أن تزني فتخرج لأجل إقامة الحد عليها وهو قول ابن مسعود، وقال الشعبي وقتادة: خروجها في العدة فاحشة وإخراج الزوج لها في العدة معصية، وهكذا روي عن ابن عمرو وإبراهيم النخعي وقال ابن عباس الفاحشة: أن تبذو على زوجها فتخرج[٢].

ثم قال ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ يعني: الطلاق بالسنة وإحصاء العدة من أحكام الله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدودَ اللَّهِ﴾ يعني: يترك حكم الله فيما أمر من أمر الطلاق ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ يعني: أضر بنفسه: ثم قال ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً﴾ يعني: لا تطلقها ثلاثاً: فلعله يحدث من الحب أو الولد خير فيريد أن يراجعها فلا يمكنه مراجعتها وإن طلقها واحدة يمكنه أن يراجعها ثم قال ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ يعني: إذا بلغن وقت انقضاء عدتهن وهو مضي ثلاث حيض ولم تغتسل من الحيضة الثالثة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ يعني: راجعوهن بإحسان: يعني: أن تمسكوهن بغير إضرار ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ يعني: اتركوهن بإحسان ويقال: فإذا بلغن أجلهن يعني؛ انقضت عدتهن فأمسكوهن بمعروف يعني بنكاح جديد إذا طلقها واحدة أو اثنتين ثم قال عز وجل: ﴿وأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ يعني: أشهدوا على الطلاق والمراجعة فهو على الاستحباب ويقال على النكاح المستقبل: فإن أراد به الإشهاد على الطلاق والمراجعة فهو على الاستحباب ولو ترك الإشهاد بالمراجعة جاز الطلاق والمراجعة فإن أراد به الإشهاد على النكاح فهو واجب، لأنه لا نكاح إلاَّ بشهود ثم قال ﴿وأَقيموا الشهادةَ لِلَّهِ﴾ يعني؛ يا معشر الشهود أدوا الشهادة عند الحاكم بالعدل على وجهها لحق الله تعالى ولسبب أمر الله تعالى ثم قال ﴿ذَلِكُمْ يوعَظُ بِهِ﴾ يعني: هذا الذي يؤمر به ﴿مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي لا يكْتم الشهادة ثم قال ﴿وَمَنْ يتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ يعني: يخشى الله ويطلق امرأته للسنة يجعل له مخرجاً يعني: المراجعة. ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ يعني: في شأن المراجعة، ويقال يجعل له مخرجاً يعني: ينجو من ظلمات يوم القيامة ويرزقه الجنة، ووجه آخر أن من اتقى الله عند الشدة وصبر يجعل له مخرجاً من الشدة ويرزقه من حيث لا يحتسب يعني يوسع عليه من الرزق، وقال مسروق يجعل له مخرجاً قال مخرجه أن يعلم أن الله هو يرزقه وهو يمنحه ويعطيها

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٣٠ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد والطبراني والبيهقي.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٣١ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر.

(٤) انظر تفسير الطبري ٢٨/١٣٤.

لأنه هو الرازق وهو المعطي وهو المانع كما قال الله تعالى: (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ)[1] الآية ثم قال عز وجل ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ يعني من يثق بالله في الرزق فهو حسبه يعني الله كافيه، وروى سالم بن أبي الجعد أن رجلاً من أشجع أسره العدو فجاء أبوه إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فشكا إليه فقال اصبر فأصاب ابنه غنيمة فجاء بهما جبريل ـ عليه السلام ـ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً الآية[2] وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا رسول الله إن ابني أسره العدو وجزعت الأم فما تأمرني فقال آمرك وإياها أن تستكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فرجع إلى منزله فقالت له بماذا أمرك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال بكذا فقالت نعم ما أمرك به فجعلا يقولان ذلك فخرج إبنه بغنيمة كثيرةفنزل[3] قوله تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) يعني من يثق بالله في الشدة يجعل له مخرجاً من الشدة ويقال المخرج على وجهين أحدهما أن يخرجه من تلك الشدة، والثاني أن يكرمه فيها بالرضا والصبر ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِ﴾ يعني: قاضياً أمره: قرأ عاصم في رواية حفص بالغ أمره بغير تنوين بكسر الراء على الإضافة، والباقون بالتنوين[4] أمره بالنصب، نصبه بالفعل بمعنى يمضي أمره في الشدة والرخاء أجلاً ووقتاً ثم قال: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ يعني: جعل لكل شيء من الشدة والرخاء أجلاً ووقتاً لا يتقدم ولا يتأخر قوله تعالى: ﴿وَالَّـٰئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما لما نـزل قوله (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) قال معاذ بن جبل يا رسول الله لو كانت المرأة آيسة لا تحيض كيف تعتد فنزل (واللائي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِّسَائِكُمْ) والآية أن تبلغ ستين سنة ويقال خمسين ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ إن شككتم في عدتهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ فقام رجل آخر فقال: لو كانت صغيرة كيف عدتها وقام آخر وقال لو كانت حاملاً كيف عدتها فنزل ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ يعني: المرأة التي لم تحض فعدتها ثلاثة أشهر مثل عدة الآيسة ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ يعني عدتهن. ﴿أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وقال عمر لو وضعت ما في بطنها وزوجها على سريره قبل أن يدفن في حفرته لانقضت عدتها وحلت للأزواج[5] وروى الزهري عن عبد الله عن أبيه أن سبيعة بنت الحارث قد وضعت بعد وفاة زوجها بعشرين يوماً فمر بها السنابل بن بعكك فقال لها أتريدين أن نتزوج فقالت نعم قال: لا حتى يأتي عليك أربعة أشهر وعشر فأتت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لها قد حللت للزواج يعني انقضت عدتك ثم قال[6]: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ يعني: يصبر على طاعة الله تعالى ﴿يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ يعني: ييسر عليه أمره ويوفقه ليعمل على طاعة الله تعالى ويعصمه عن معاصيه ثم قال ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يعني: هذا الذي ذكره حكم الله وفريضته ﴿أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ يعني: أنزله في القرآن على نبيكم ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ ويعمل بأحكامه وفريضته ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ في الدنيا ﴿وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ يعني ثواباً في الجنة قرأ نافع وابن عامر نكفر عنه بالنون والباقون بالياء ومعناهما يرجع إلى شيء واحد ثم رجع إلى ذكر المطلقات

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٣٢ وعزاه لسعيد بن منصور والبيهقي في شعب الإيمان.

(٢) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٢٣.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٣٣ وعزاه لابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٤) انظر حجة القراءات ٧١٢، النشر ٢/٣٨٨.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٣٦ ـ ٢٣٧ وعزاه لابن أبي شيبة.

(٦) أخرجه البخاري ٨/٥٢١ كتاب التفسير (٤٩٠٩).

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

فقال عز وجل: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ يعني أنزلوهن من حيث تسكنوا فيه ﴿مِّنْ وُجْدكم﴾ يعني: من سعتكم والوجد القدرة والغنى ويقال: افتقر فلان بعد وجده ثم قال ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ﴾ يعني لا تظلموهن ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ في النفقة والسكنى ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ﴾ يعني إن كن المطلقات ذوات حمل ﴿فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وقد أجمعوا: أن المطلقة إذا كانت حاملاً فلها النفقة وأما إذا لم تكن حاملاً فإن كان الطلاق رجعياً فلها النفقة. والسكنى بالإجماع، وإن كان الطلاق بائناً فلها السكنى والنفقة في قول أهل العراق وقال بعضهم لها السكنى ولا نفقة ثم قال ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يعني: المطلقات إذا أرضعن أولادكم فأعطوهن أجورهن لأن النفقة على الأب وأجر الرضاع من النفقة فهو على الأب إذا كانت المرأة مطلقة ثم قال ﴿وأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ هموا به وعزموا عليه ويقال هو أن لا تضار المرأة بالزوج ولا الزوج بالمرأة في الرضاع ويقال: وأتمروا بينكم يعني: اتفقوا فيما بينكم يعني الزوج والمرأة يتفقان على أمر واحد بمعروف يعني بإحسان ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ﴾ يعني تضايقتم وهو أن يأبى أن يؤتي المرأة لأجل رضاعها وأبت المرأة أن ترضعه ويقال: يعني أراد الرجل أقل مما طلبت المرأة من النفقة ولم يتفقا على شيء واحد ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ يعني يدفع الزوج الصبي إلى امرأة أخرى إن أرضعت بأقل مما ترضع الأم به ثم قال عز وجل ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ يعني ينفق على المرأة ذو الغنى على قدر غناه وعلى قدر عيشه وسعته ويسره ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ يعني ضيق عليه رزقه ﴿فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ يعني على قدر ما أعطاه الله من المال ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ يعني: لا يأمر الله نفساً في النفقة إلا ما أعطاها من المال ﴿سَيَجْعَلُ اللَّه بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ يعني العسر ينتظر اليسر.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ يعني فكم من أهل قرية قرأ ابن كثير وكأين بغير الألف والباقون بغير مد مع تشديد الياء، وهما لغتان ومعناهما واحد يعني وكم من قرية ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ يعين أبت وعصت عن أمر ربها

يعني: عن طاعة ربها قال مقاتل: عتت عن أمر ربها يعني خالفت وعصت وقال الكلبي: العتو المعصية وقال أهل اللغة[١] العتو مجاوزة الحد في المعصية ثم قال ﴿وَرُسُلِهِ﴾ يعني: عن طاعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً﴾ يعني جازاها الله بعملها ويقال حاسبناها في الآخرة حساباً شديداً ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً﴾ يعني عذاباً منكراً على معنى التقديم يعني عذبناها في الدنيا عذاباً شديداً وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً ويقال وحاسبناها يعني في الدنيا يعني جازيناها وخذلناها وحرمناها ثم قال عز وجل ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ يعني: جزاء ذنبها ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً﴾ يعني: أهل القرية يعني إن آخر أمرهم صار إلى الخسران والندامة ثم قال: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ يعني ما أصابهم في الدنيا لم يكن كفارة لذنوبهم ولكن مع ما أصابهم في الدنيا أعد الله لهم عذاباً شديداً في الآخرة لأنهم لم يرجعوا عن كفرهم ثم أمر المؤمنين بأن يعتبروا بهم ويثبتوا على إيمانهم فقال ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ يعني، اخشوا الله وأطيعوه يا ذوي العقول من الناس ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله يعني الذين صدقوا بالله ورسوله ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً﴾ يعني كتاباً ويقال شرفاً وعزاً وهو القرآن. ثم قال ﴿رَسُولاً﴾ يعني أرسل إليكم رسولاً ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾ يعني يقرأ عليكم ويعرض عليكم ويقال: قد أنزل إليكم ذكراً ورسولاً يعني كتاباً مع رسوله ليتلو عليكم يعني يقرأ عليكم ﴿آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ يعني: واضحات ويقال: بين فيه الحلال والحرام ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: الذين صدقوا بتوحيد الله وطاعته ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني الطاعات ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني من الجهالة إلى البيان ويقال: ليخرج الذين آمنوا اللفظ لفظ المستقبل والمراد به الماضي يعني أخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور يعني من الكفر إلى الإيمان ويقال: هو المستقبل يعني يخرجهم من الشبهات والجهالات إلى الدلالات والبراهين، ويقال: ليدعو النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان من قدرة الله الإيمان في سابق علمه ثم قال عز وجل ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ يعني: يصدق بالله ويقال: يثبت على الإيمان ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحاً﴾ يعني فرائض الله وسنن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ قرأ نافع وابن عامر ندخله بالنون والباقون بالياء يعني[٢] يدخله الله تعالى في الآخرة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني مقيمين في الجنة دائمين فيها ﴿أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴾ يعني أعد الله له ثواباً في الجنة ثم قال عز وجل ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ يعني خلق سبع أراضين مثل عدد السماوات ﴿يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ يعني ينزل الوحي من السموات، ويقال: في كل سماء وفي كل أرض أمره نافذ، وقال القتبي الأمر على وجوه الأمر أي القضاء كقوله يدبر الأمر ويعني يقضي القضاء وكقوله ألا له الخلق والأمر أي القضاء والأمر الدين كقوله (وتقطعوا أمرهم بينهم) وكقوله (وظهر أمر الله) أي دين الله والأمر القول كقوله (يتنازعون بينهم أمرهم) أي قولهم، الأمر، العذاب، كقوله (إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ) والأمر القيامة، كقوله (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) والأمر الوحي كقوله (يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) يعني: الوحي والأمر: الذنب كقوله: (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا) أي جزاء ذنبها. وأصل هذا كله، واحد لأن الأشياء كلها بأمر الله تعالى فسميت الأشياء أموراً ثم قال ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني يمكنكم أن تعلموا أن الله على كل شيء قدير ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ يعني أحاط علمه بكل شيء وروى معمر عن قتادة في قوله (سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) قال في كل سماء وفي كل أرض من أرضه وخلق من خلقه أمر من أموره وقضاء من قضائه سبحانه وتعالى[٣].

---

(١) انظر لسان العرب ٤/٢٨٠٤، ترتيب القاموس ٣/١٥٣.
(٢) انظر حجة القراءات ٧١٢.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٣٨ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.



سورة التحريم (١)

وهي اثنتا عشرة آية مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢)﴾

قوله تعالى: ﴿﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلا في يوم لعائشة رضي الله عنها مع جاريته مارية القبطية فوقعت حفصة على ذلك فقال لها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تعلمي عائشة وحرم مارية على نفسه فأخبرت حفصة عائشة بذلك فأطلع الله تعالى نبيه على ذلك فطلق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حفصة فأمر الله تعالى رسوله بكفارة اليمين لتحريم جاريته على نفسه وأمره بأن يراجع حفصة فقال له جبريل: راجع حفصة فإنها صوامة قوامه ونزلت هذه الآية يا أيها النبي تحرم ماأحل الله لك[٢] يعني مارية ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ يعني تطلب رضا زوجتك عائشة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ فيما حرم على نفسه ويقال غفور لذنب حفصة ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث لم يعاقبها ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ إِيْمَانِكُمْ﴾ يعني بين الله لكم كفارة أيمانكم، ويقال أوجب الله عليكم كفارة أيمانكم، وفي الآية وجه آخر روى هشام بن عروة عن أميه عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالت كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب الحلو والعسل وكان إذا صلى العصر دار على نسائه فيدنو منهن فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس فسألت عائشة عن ذلك فقيل لها أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل فسقت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منه فقالت أما والله لنحتالن فذكرت ذلك لسودة،

---

(١) من أغراض هذه السورة ما تضمنه سبب نزولها أن أحداً لا يحرم على نفسه ما أحل الله له لإرضاء أحد إذ ليس ذلك بمصلحة له ولا للذي يسترضيه فلا ينبغي أن يجعل كالنذر إذ لا قربة فيه وما هو بطلاق لأن التي حرمها جارية ليست بزوجة، فإنما صلاح كل جانب فيما يعود بنفع على نفسه أو ينفع به غيره نفعاً مرضياً عند الله وتنبيه نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أن غيرة الله على نبيه أعظم من غيرتهن عليه وأسمى مقصداً.

وأن الله يطلعه على ما يخصه من الحادثات.

وأن من حلف على يمين فرأى حنثها خيراً من برّها أن يكفر عنها ويفعل الذي هو خير وقد ورد التصريح بذلك في حديث وفد عبد القيس عن رواية أبي موسى الأشعري، وتقدم في سورة براءة.

وتعليم الأزواج أن لا يكثرن من مضايقة أزواجهن فإنها ربما أدت إلى الملال فالكراهية فالفراق. وموعظة الناس بتربية بعض الأهل بعضاً ووعظ بعضهم بعضاً.

وأتبع ذلك بوصف عذاب الآخرة ونعيمها وما يفضي إلى كليهما من أعمال الناس صالحاتها وسيئاتها.

وذيل ذلك بضرب مثلين من صالحات النساء وضدهم لما في ذلك من العظة لنساء المؤمنين ولأمهاتهم. التحرير ٢٨/٣٤٥.

(٢) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٢٥.

وقالت إذا دخل فإنه سيدنـو منك فقولي له أكلت المغافير[1] فإنه سيقول لك لا فقولي له ما هذه الريح وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشتد عليه إذا وجد منه الريح فإنه سيقول لك حفصة سقتني شربة عسل فقولي له جرست نحله العُرُفطُ[2] يعني أن تلك النحلة أكلت العرفط وهو نبات به رائحة منكرة وسأقول له ذلك وقولي له أنت يا صفية فلما دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على سودة قالت سودة لقد كدت أن أناديه وأنه لعلى الباب فرقا منك فلما دنا مني قلت أكلت المغافير قال لا فما هذه الريح قال سقتني حفصة شربة عسل قلت جرست نحله العرفط فلما دخل على صفية قالت له مثل ذلك فلما دخل على حفصة قالت له يا رسول الله ألا أسقيك منه قال[3] لا حاجة لي به وروى بن أبي ملكية عن عبد الله بن عباس قال كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شرب من شراب عند سودة من العسل فدخل على عائشة فقالت له إني أجد منك ريحاً ثم دخل على حفصة فقالت إني أجد منك ريحاً قال أراه من شـراب شربته عند سودة والله[4] لا أشربه فنزل (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) ثم قال (قد فرض اللّه لكم تحلة أيمانكم) يعني أوجب عليكم كفارة ايمانكم ﴿وَاللَّهُ مَولَـٰكُمْ﴾ يعني ناصركم وحافظكم ﴿وَهُوَ العَلِيمُ﴾ بما قالت حفصة لعائشة في أمر مارية ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ حكم بكفارة اليمين

وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾

ثم قال عز وجل ﴿وَإِذْ أَسرَ النَّبِيُّ﴾ يعني أخفى النبي ﴿إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً﴾ يعني كلاماً ﴿فلمّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ يعني أخبرت بذلك الخبر حفصة عائشة ﴿وأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يعني أظهر الله قولها لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حفصة فأخبرها ببعض ما أخبرت عائشة ولم يخبرها عن الجميع فذلك قوله ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ يعني سكت عن بعض، ومن هذا قيل: إن الكريم لا يبالغ في العتاب، قرأ الكسائي عرف بعضه بالتخفيف يعني جازاها ببعضه، والباقون (عرّف) بالتشديد[5] يعني عرف حفصه

---

(١) واحده مغفار وهو صمغ حلو يسيل من شجر العرفط يؤكل، أو يوضع في ثوب ثم ينقع بالمـاء فيشرب. انـظر المعجم الوسيط ٦٦٣/٢.

(٢) هي شجرة تخرج المغفار كما سبق انظر المصدر السابق.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٣٩/٦ وعزاه لابن سعد وعبد بن حميد والبخاري وابن المنذر وابن مردويه هو عند البخاري في ٥٢٤/٨ (٤٩١٢).

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٣٩/٦ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس.

(٥) هذا من قولك (عرفتك الشيء) أي: أخبرتك به. فالمعنى: عرف حفصه (بعض الحديث) وأعرض عن بعض فلم يعرف أياها على وجه التكرم والإرضاء وألا يبلغ أقصى ما كان منها. وجاء في التفسير أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبرها ببعض ما أعلمه الله عنها أنها قالت. وحجتهم قوله: «فلما نبأها به (أي خبّرها) فهذا دليل على التعريف ويقوى ذلك قوله: «وأعرض عن بعض» يعني أنه لم يعرفها أياه، ولو كان عرف لكان الإنكار ضده فقيل (وأنكر بعضاً) ولم يقل: وأعرض عنه.

ووجه التخفيف لقراءة الكسائي «عرف بعضاً» أي: جازى عليه وغضب من ذلك وحجته في ذلك أنه جاء في التفسير: أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جازى حفصة بطلاقها. قال الزجاج: وتأويل هذا حسن بين. معنى «عرّف بعضه» أي: جازى عليه، كما =

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ﴾ يعني لما أخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك الخبر حفصة ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا﴾ يعني من أخبرك بهذا ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ﴾ يعني أخبرني ﴿الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ قوله تعالى ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ يعني عائشة وحفصة ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ يعني مالت قلوبكما عن الحق وذكر عن الفراء أنه قال: معناه إن لا تتوبا إلى الله فقد مالت قلوبكما عن الحق، ويقال: فيه مضمر، ومعناه: إن تتوبا إلى الله يقبل الله توبتكما، ويقال معناه إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما يعني مالت إلى الحق، وروى الزهري عن عبد الله بن عباس قال كنت مع عمر رضي الله عنه حين حج فلما كنا في بعض الطريق نزل في موضع فقلت يا أمير المؤمنين من المرأتان اللتان قال الله تعالى (إن تتوبا إلى الله) فقال عمر رضي الله عنه واعجباً لك يا ابن عباس، قال الزهري كأنه كره ما سأله عنه ولم يكتمه قال هي حفصة وعائشة رضي الله عنهما ثم قال: كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفقن نساؤنا يتعلمن من نسائهم فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فقالت ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل فدخل على حفصة فذكرت لها، فقالت: نعم، فقلت قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله لا تراجعي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا تسأليه شيئاً واسأليني ما بدا لك، قالت كان لي جار من الأنصار يأتيني بخبر الوحي وأتاه بمثل ذلك ـ قالت فأتاني يوماً فناداني فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم، فقلت: ماذا قال طلق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نساءه فقلت خابت حفصة وخسرت فدخل على حفصة وهي تبكي فقلت أطلقكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت: لا أدري هوذا معتزلاً في هذه المشربة فأتيته فدخلت فسلمت عليه فإذا هو متكيء على رمل حصير قد أثر في جنبه فقلت أطلقت نساءك يا رسول الله قال لا فقلت الله أكبر لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن فتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان أقسم أن لا يدخل شهراً عليهن حتى نزل (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) إلى قوله تعالى (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)[١].

ثم قال ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ يعني تعاونا على أذاه ومعصيته فيكون مثلكما كمثل امرأة نوح وامرأة لوط تعملان عملاً تؤذيان بذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ عاصم وحمزة والكسائي تظاهر بالتخفيف وقرأ نافع وأبو عمرو بالتشديد وكذلك ابن كثير وابن عامر في إحدى الروايتين[٢] لأن أصله تتظاهر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ يعني وليه وناصره ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعلي وأصحابه رضي الله عنهم قال حدثنا الفقيه ابن جعفر حدثنا أبو بكر أحمد بن حمدان حدثنا أحمد بن جرير قال: حدثنا سعيد بن هشام قال حدثنا هشام بن عبدالملك عن محمد بن أبان[٣] عن عبد الله[٤] بن عثمان عن عكرمة في قوله (وصالح المؤمنين) قال أبو بكر وعمر

= تقول لمن تتوعده: قد علمت ما عملت وقد عرفت ما صنعت. وتأويله (فسأجازيك عليه) لا أنك تقصد إلى أن تعرِّفه أنك قد علمت فقط. ومثله قوله تعالى: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ فتأويله يعلمه الله ويجازي عليه، والله يعلم كل ما يُعمل. فقيل إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ طلق حفصة تطليقة، فكان ذلك جزاءها عنده: وكانت صوامة قوامة، فأمر الله عز وجل أن يراجعها فراجعها. حجة القراءات ٧١٣ ـ ٧١٤.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٢ وعزاه لعبد الرزاق وابن سعد وأحمد والعدني وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن حبان وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) انظر حجة القراءات ٧١٤.

(٣) محمد بن أبان بن وزير البلخي أبو بكر بن إبراهيم المستملي ثقة حافظ. التقريب ٢/١٤٠.

(٤) عبد الله بن عثمان بن عطاء بن أبي مسلم الخراساني أبو محمد لين الحديث. التقريب ١/٤٣٢.

رضي الله عنهما قال عبد الله فذكرت ذلك لسعيد بن جبير قال صدق عكرمة[١]، ويقال صالح المؤمنين يعني خيار أصحابه ثم قال ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ يعني الملائكة أيضاً أنصار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك يعني مع ذلك أعوان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

ثم قال: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ فخوفهن الله تعالى بفراق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياهن وعسى من الله واجب يعني إن طلقكن عسى ربه ﴿أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً﴾ قرأ نافع وأبو عمرو (يبدله) بتشديد الدال والباقون بالتخفيف[٢] ومعناهما واحد يقال بدل وأبدل ﴿خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ﴾ يعني مستسلمات لأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال يعني معينات ثم قال ﴿مُؤْمِنَاتٍ﴾ يعني مصدقات في إيمانهن ﴿قَانِتَاتٍ﴾ يعني مطيعات لله تعالى ولرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿تَائِبَاتٍ﴾ يعني راجعات عن الذنوب ﴿عَابِدَاتٍ﴾ يعني موحدات مطيعات ﴿سَائِحَاتٍ﴾ يعني صائمات وقال أهل اللغة إنما سمي الصائم سائحاً لأن الذي يسيح للعبادة لا زاد معه يمضي نهاره لا يطعم شيئاً ولذلك سمي الصائم سائحاً ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾ الثيبات جميع الثيب والأبكار جمع البكر وهن العذارى، ويقال: هذا وعد من الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يزوجه في الجنة والثيب هي آسية امرأة فرعون، والبكر هي مريم أم عيسى عليه السلام وهي ابنة عمران تكون وليته في الجنة، ويجتمع عليها أهل الجنة فيزوج الله تعالى هاتين المرأتين محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني بعدوا أنفسكم عن النار بطاعة الله وطاعة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ يعني أهليكم ﴿نَاراً﴾ بتعليمهم ما ينجيهم منها، وقال قتادة: مروهم بطاعة الله تعالى وانهوهم عن معصية الله وقال مجاهد[٣] يعني أوصوا أهليكم بتقوى الله[٤] ويقال: أدبوهم وعلموهم خيراً تقوهم بذلك ناراً ﴿وَقُودُهَا﴾ يعني حطبها، والوقود: ما توقد به النار يعني حطبها ﴿النَّاسُ﴾ إذا صاروا إليها وحطبها

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٣ وعزاه لابن عساكر.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٤ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٤ وعزاه لعبد بن حميد.

﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ قبل أن يصير الناس إليها وهي حجارة الكبريت ثم قال ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ يعني على النار ملائكة موكلين غلاظ يعني أقوياء يعملون بأرجلهم كما يعملون بأيديهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ﴾ يعني ليسوا كأعوان ملوك الدنيا يمتنعون بالرشوة ولكن يفعلون ﴿مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يعني لا يفعلون غير ما أمرهم الله تعالى ثم قال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ يعني يقول لهم الملائكة يوم القيامة حين يعتذرون لا تعتذروا اليوم يعني لا يقبل منكم العذر ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني تعاقبون بما كنتم تعملون في الدنيا من المعاصي ثم أمر المؤمنين بالتوبة عن الذنوب فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ يعني صادقاً في توبته، ويقال: تنصحون لله فيها من غير مداهنة، وروى سماك بن حرب عن النعمان بن بشير، قال: سئل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن التوبة النصوح فقال هو الرجل يتوب من عمل السوء ثم لا يعود إليه[1] أبداً، وروي عن ابن عباس أنه قال توبة النصوح الندم بالقلب والاستغفار باللسان والإضمار أن لا يعود إليها، قرأ نافع وعاصم في إحدى الروايتين توبة نصوحاً بضم النون والباقون بالنصب[2] فمن قرأ بالنصب فهو صفة التوبة يعني توبة بالغة في النصح، كما يقال: رجل صبور وشكور ومن قرأ بالضم يعني ينصحوا بها نصوحاً كما يقال نصحت له نصحاً ونصوحاً. ثم قال ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ يعني يغفر لكم ما مضى من ذنوبكم إن تبتم ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾ صار اليوم نصباً لنزع الخافض يعني يكفر عنكم في يوم لا يخزي الله النبي قال الكلبي يعني لا يعذب الله النبي ويقال يوم لا يخزيه فيما أراد من الشفاعة وغيره وتم الكلام ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني على الصراط وروى الحسن عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال من المؤمنين من نوره أبعد ما بيننا وبين عدن أبين ومنهم من نوره لا يجاوز قدميه فقال: نورهم يسعى بين أيديهم[3] يعني يضيء بين أيديهم ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ يعني عن أيمانهم وعن شمائلهم على وجه الإضمار ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ ذلك حين طفئت أنوار المنافقين أشفق المؤمنون على نورهم ويتفكرون فيما مضى منهم من العذاب فيقولون ربنا أتمم لنا نورنا يعني احفظ علينا نورنا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما مضى من ذنوبنا ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من إتمام النور والمغفرة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٥ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٢) انظر حجة القراءات ٧١٤، النشر ٢/٣٨٨.

(٣) انظر الدر المنثور ٦/٢٤٥.

فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾ يعني جاهد الكفار بالسيف وجاهد المنافقين بالقول والتهديد ﴿**وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**﴾ يعني اشدد عليهم يعني على كلا الفريقين يعني على الكفار بالسيف وعلى المنافقين باللسان ﴿**وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ**﴾ يعني إن لم يرجعوا ولم يتوبوا فمرجعهم إلى جهنم ﴿**وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ يعني بئس القرار وبئس المرجع.

قوله تعالى ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً**﴾ يعني وصف الله شبهاً لكفار مكة وذلك أنهم استهزؤوا وقالوا إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - يشفع لنا فبين الله تعالى إن شفاعته عليه السلام لا تنفع لكفار مكة كما لا تنفع شفاعة نوح لامرأته وشفاعة لوط لامرأته وذلك قوله ﴿**لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ**﴾ واسمها واعلة ﴿**وَامْرَأَةَ لُوطٍ**﴾ واسمها داهلة ويقال فيه تخويف لأزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - ليثبتن على دينه وطاعته ثم قال ﴿**كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ**﴾ يعني نوحاً ولوطاً عليهما السلام ﴿**فَخَانَتَاهُمَا**﴾ يعني خالفتاهما في الدين، وروي عن ابن عباس أنه قال ما زنت امرأة نبي قط وما كانت خيانتهما إلا في الدين، فأما امرأة نوح كانت تخبر الناس أنه مجنون وأما امرأة لوط كانت تدل على الأضياف[1]، وقال عكرمة الخيانة في كل شيء ليس في الزنا ﴿**فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً**﴾ يعني لم يمنعهما صلاح زوجهما مع كفرهما من الله شيئاً يعني من عذاب الله شيئاً ﴿**وَقِيلَ**﴾ لهما في الآخرة ﴿**ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾ فكذلك كفار مكة وإن كانوا أقرباء النبي - صلى الله عليه وسلم - لا ينفعهم صلاح النبي - صلى الله عليه وسلم - وكذلك أزواجه إذا خالفته ثم ضرب الله مثلاً للمؤمنين فقال عز وجل ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا**﴾ يعني بين الله شبهاً وصفة للمؤمنين الذين آمنوا ﴿**امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ**﴾ فإنها كانت صالحة لم يضرها كفر فرعون فكذلك من كان مطيعاً لله لا يضره شر غيره، ويقال: هذا حث للمؤمنين على الصبر في الشدة يعني لا تكونوا في الصبر عند الشدة أضعف من امرأة فرعون صبرت على إيذاء فرعون ﴿**إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ**﴾ وذلك أن فرعون: لما علم بإيمانها فطلب منها أن ترجع فأبت ولم ترجع عن إيمانها فوتدها بأربعة أوتاد في يديها ورجليها وربطها وجعل على صدرها حجر الرحاء وجعلها في الشمس فأراها الله تعالى بيتها في الجنة ونسيت ما هي فيه من العذاب وضحكت فقالوا عند ذلك هي مجنونة تضحك وهي في العذاب وروى أبو عثمان النهدي عن سلمان الفارسي قالت كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس فإذا ذرت أي طلعت الشمس وارتفعت أظلتها الملائكة بأجنحتها وأريت مقعدها[2] من الجنة وروى قتادة عن أنس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال - حسبك من نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد - صلى الله عليه وسلم - وآسية امرأة فرعون ثُمّ قال الله عز وجل (رَبِّ ابن لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ)[3] يعني ارزقني في الجنة ﴿**وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ**

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٥ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

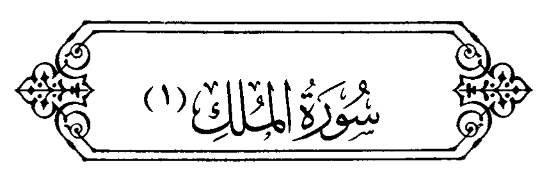
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٥ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٣) أخرجه الترمذي ٥/٦٦٠ (٣٨٧٨). وأحمد في المسند ٣/١٣٥، والحاكم في المستدرك ٣/١٥٧ وعبد الرزاق في المصنف (٢٠٩١٩).

﴿وَعَمَلِهِ﴾ يعني من عذاب فرعون وظلمه ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني من قوم فرعون يعني من تعييرهم وشماتتهم ثم قال عز وجل ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ يعني واذكر مريم، ويقال: معناه وضرب الله مثلاً مريم ابنة عمران وصبرها على إيذاء اليهود ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يعني عفت نفسها عن الفواحش ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ يعني أرسلنا جبريل عليه السلام فنفخ في جيب درعها وذلك قوله «فنفخنا فيه من روحنا» أي في جيبها أي روحاً من أرواحنا وهي روح عيسى عليه السلام ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ أي صدقت بعيسى عليه السلام ويقال صدقت بالبشارات التي بشرها بها جبريل ﴿وَكُتُبِهِ﴾ يعني آمنت بكتاب الله تعالى، وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية حفص وكتبه يعني الكتب التي أنزلت على الأنبياء والباقون بكتابه[1] يعني الإنجيل وقرأ بعضهم وصدقت بكلمة ربها يعني صار عيسى مخلوقاً بكلمة الله فصدقت بذلك ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ يعني المطيعين لله.

---

(١) حجتها أنها صدقت بجميع كتب الله فالجمع أولى وأحسن وقراءة الباقين على إرادة الجنس انظر حجة القراءات ٧١٥.



وتسمى الواقية والمنجيّة وهي ثلاثون آية مَكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

قوله تعالى ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ**﴾ يعني تعالى وتعظم وهذا قول ابن عباس وقيل تفاعل من البركة وقال الحسن تبارك يعني تقدس الذي بيده الملك يعني الذي له الملك كما قال له ملك السموات والأرض ويقال الذي

(١) الأغراض التي في هذه السورة جارية على سَنن الأغراض في السور المكية. ابتدأت بتعريف المؤمنين معاني من العلم بعظمة الله تعالى وتفرده بالملك الحق، والنظر في إتقان صنعه الدال على تفرده بالإلهية فبذلك يكون في تلك الآيات حظ لعظة المشركين ومن ذلك التذكير بأنه أقام نظام الموت والحياة لتظهر في الحالين مجاري أعمال العباد في ميادين السبق إلى أحسن الأعمال ونتائج مجاريها. وأنه الذي يجازي عليها.

وانفراده بخلق العوالم العليا خلقاً بالغاً غاية الإتقان فيما تراد له. وأتبعه بالأمر بالنظر في ذلك وبالإرشاد إلى دلائله الإجمالية وتلك دلائل على انفراده بالإلهية.

متخلصاً من ذلك إلى تحذير الناس من كيد الشياطين، والارتباق معهم في ربقة عذاب جهنم وأن في اتباع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نجاة من ذلك وفي تكذيبه الخسران وتنبيه المعاندين للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى علم الله بما يحوكونه للرسول ظاهراً وخفية بأن علم الله محيط بمخلوقاته.

والتذكير بمنة خلق العالم الأرضي، ودقه نظامة، وملاءمته لحياة الناس، وفيها سعيهم ومنها رزقهم.

والموعظة بين الله قادر على إفساد ذلك النظام فيصبح الناس في كرب وعناء ليذكروا قيمة النعم بتصور زوالها. وضرب لهم مثلاً في لطفه تعالى بهم بلطفه بالطير في طيرانها.

وآيسهم من التوكل على نصرة الأصنام أو على أن ترزقهم رزقاً. وفظع لهم حالة الضلال التي ورطوا أنفسهم فيها. ثم وبخ =

بيده الملك يعني الذي له القدرة ونفاذ الأمر ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني في العز والذل يعز من يشاء ويذل من يشاء ثم قال ﴿الذي خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ قال مقاتل خلق الموت يعني (النطفة والعلقة والمضغة وخلق الحياة)[1] يعني خلق إنساناً ونفخ فيه الروح فصار حياً وقال الكلبي: خلق الموت بمنزلة كبش أملح لا يمر على شيء ولا يجد ريحه شيء إلا مات والحياة شيء كهيئة الفرس البلقاء الأنثى التي يركب عليها جبريل والأنبياء، وقال قتادة في قوله (خلق الموت والحياة) يعني أذل الله ابن آدم بالموت وجعل الدنيا دار حياة وفناء وجعل الآخرة دار جزاء[2] وبقاء ويقال خلق الموت والحياة يعني قدر الحياة ثم قدر الموت بعد الحياة ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ يعني ليختبركم ما بين الحياة والموت ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ في حياته ويقال أيكم أكمل عملاً وأخلص عملاً ويقال خلق الموت والحياة أي خلق الحياة للامتحان وخلق الموت للجزاء كما قيل لولا المحن لقدمنا مفاليس. وذلك أن الله تعالى خلق الجنة وخلق لها أهلاً وخلق النار وخلق لها أهلاً وابتلاهم بالعمل والأمر والنهي فيستوجبون بفعلهم الثواب والعقاب والابتلاء من الله تعالى أن يظهر من العبد ما كان يعلم منه في الغيب ثم قال ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الغَفُورُ﴾ يعني العزيز بالنقمة للكافر والغفور لمن تاب منهم ثم قال ﴿الذي خَلَقَ﴾ يعني تبارك الذي خلق ﴿سَبْعَ سَمَـواتٍ طِبَاقاً﴾ يعني مطبقاً بعضها فوق بعض مثل القبة ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي من تفوت بغير ألف والباقون بالألف وهما لغتان تفاوت الشيء وتفوت إذا اختلف يعني ما ترى في خلق الرحمن اختلافاً واضطراباً ويقال ما ترى فيها من اعوجاج ولكنه مستوى ويقال معناه ما ترى في خلق السموات من عيب وأصله من الفوت أن يفوت الشيء فيقع فيه الخلل ولكنه متصل بعضها ببعض ثم أمر بأن ينظروا في خلقه ليعتبروا به ويتفكروا في قدرته فقال عز وجل ﴿فارجع البصر﴾ يعني رد البصر إلى السماء ويقال قلب البصر في السماء ويقال اجتهد بالنظر إلى السماء ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ يعني هل ترى فيها من شقوق ويقال هل ترى فروجاً أو صدوعاً أو خللاً ﴿ثُم ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ يعني انظر إليها وإنما أمر بالنظر إلى السماء مرتين لأن الإنسان إذا نظر في الشيء مرة لا يرى أثر عيبه ما لم ينظر فيه مرة أخرى فأخبر الله تعالى أنه وإن نظر إلى السماء مرتين لا يرى فيها عيباً بل يتحير بالنظر إليها فذلك قوله ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً﴾ يعني يرجع البصر ذليلاً. ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ يعني قد أعيا من قبل أن يرى في السماء خللاً وقال القتبي خاسئاً أي مبعداً وهو حسير[3] أي كليل منقطع عن أن يلحق ما نظر إليه قبل أن يرى شيئاً من الخلل ثم قال ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ يعني بالنجوم والكواكب ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينَ﴾ يعني جعلنا بعض النجوم رمياً للشياطين إذا تصدوا استراق السمع ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ يعني للشياطين ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ يعني الوقود ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أعتدنا للذين جحدوا ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ يعني بوحدانية الله تعالى ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ قرىء في الشاذ

= المشركين على كفرهم نعمة الله تعالى وعلى وقاحتهم في الاستخفاف بوعيده وأنه وشيك الوقوع بهم. ووبخهم على استعجالهم موت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليستريحوا من دعوته. وأوعدهم بأنهم سيعلمون ضلالهم حين لا ينفعهم العلم، وأنذرهم بما قد يحل بهم من قحط وغيره. التحرير ٢٩/٧ ـ ٨.

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٤٧/٦ وعزاه لعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) قال سيبويه: (فاعل وفعّل بمعنى واحد) تقول (ضاعف وضعّف، وتعاهد وتعهّد) فعلى هذا القياس يكون تفاوت تفوّت) بمعنى. يقال: تفاوت الشيء تفاوتاً وتفوّت تفوّتاً إذا اختلفت، والمعنى: ما ترى في خلقه السماء اختلافاً ولا اضطراباً. قالوا: وتفاوت أجود، لأنهم يقولون: (تفاوت الأمر) ولا يكادون يقولون: تفوّت الأمر. حجة القراءات ٧١٥.

(٤) حسر فلان حسراً أسف وحسر على الشيء تلهف فهو حسران وهي حسرى. انظر المعجم الوسيط ١٧٢/١.

خبر الابتداء ثم قال ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ يعني المرجع ثم قال ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ يعني ألقوا الكفار في نار جهنم ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ يعني سمعوا منها ﴿شَهِيقاً﴾ يعني صوتاً كصوت الحمار ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ يعني تغلي كغلي المرجل[1] ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ يعني تكاد تتفرق من غيظها على أعداء الله تعالى ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ يعني من النار فوج يعني أمة من الأمم ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني رسولاً يخبركم ويخوفكم ﴿قَالُوا بَلَى﴾ يعني يقولون بلى ﴿قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ يعني الرسول ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ الرسول ﴿وَقُلْنَا﴾ إنكم لكاذبون على الله تعالى ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني كتاباً ولا رسولاً ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ يعني قلنا لهم ما أنتم إلا في خطأ عظيم ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ يعني لو كنا نسمع إلى الحق أو نعقل يعني نرغب في الهدى ونتفكر في الخلق ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ يعني مع أصحاب الزقوم في النار، ويقال: يعني ما كنا في أهل النار ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ﴾ يعني أقروا بشركهم ﴿فَسُحْقاً﴾ يعني فبعداً من رحمة الله تعالى ﴿لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ يعني الوقود، وقال الزجاج: فسحقاً نصب على المصدر، فمعناه أسحقهم الله سحقاً فباعدهم من رحمته ـ والسحق البعيد كقوله (في مَكَانٍ سَحِيقٍ) أي بعيد قرأ الكسائي بضم السين والحاء وجزم الحاء والباقون بضم السين وهما لغتان[2] معناهما واحد، ثم بين حال المؤمنين.

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾

فقال عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ يعني يخافون الله تعالى ويخافون عذابه الذي هو ﴿بِالْغَيْبِ﴾ فهو عذاب يوم القيامة ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ يعني مغفرة لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يعني ثواباً عظيماً في الجنة ثم قال ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ اللفظ لفظ الأمر والمراد به الخبر يعني إن أخفيتم كلامكم في أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو جهرتم به ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني بما في القلوب من الخير والشر وذلك أن جماعة من الكفار كانوا يتشاورون فيما بينهم فقال بعضهم لبعض لا تجهروا بأصواتكم فإن رب محمد يسمع فيخبره.

قال الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قل لهم يا محمد أسروا قولكم أو اجهروا به فإنه يعلم به ثم أخبر بما هو أخفى من هاتين الحالتين فقال إنه عليم بذات الصدور يعني فكيف لا يعلم قول السر ثم قال عز وجل ﴿ألا يعلم من خلق﴾ يعني ألا يعلم السر من خلق السر يعني هو خلق السر في قلوب العباد فكيف لا يعلم بما في قلوب

---

(١) المرجل: القدر من الطين المطبوخ أو النحاس انظر المعجم الوسيط ١/٣٣٢.

(٢) انظر حجة القراءات ٧١٦.

العباد ثم قال ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ يعني: لطف علمه بكل شيء يعني يرى [illegible]
الخير والشر ويقال لطيف يرى أثر النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء (خبير) يعني عالم بأفعال العباد وأقوالهم. ثم ذكر نعمه على خلقه ليعرفوا نعمته فيشكروه ويوحدوه فقال ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذُلُولاً﴾ يعني خلق لكم الأرض ذلولاً ومدها وذللها وجعلها لينة لكي تزرعوا فيها وتنتفعوا منها بألوان المنافع ﴿فامشوا في مناكبها﴾ يعني لكي تمشوا في أطرافها ونواحيها وجبالها وهذا خبر بلفظ الأمر وقال القتبي فامشوا في مناكبها يعني جوانبها ومنكبا الرجل جانباه وقال قتادة مناكبها جبالها قال وكان لبشر بن كعب سرية فقال لها إن أخبرتيني ما مناكب الأرض فأنت حرة لوجه الله فقالت مناكبها جبالها فصارت حرة ـ فأراد أن يتزوجها فسأل أبو الدرداء فقال له دع ما يريبك إلى ما لا يريبك[1] ويقال هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً أي سهل لكم السلوك فامشوا في مناكبها أي ـ تمشون فيها ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ يعني تأكلون من رزق الله تعالى وتشكرونه ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ يعني إلى الله تبعثون من قبوركم ويقال معناه هو الذي ذلل لكم الأرض قادر على أن يبعثكم لأنه ذكر أولاً خلق السماء ثم ذكر خلق السماء ثم ذكر خلق الأرض ثم ذكر النشور ثم خوفهم فقال عز وجل ﴿ءَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ قال الكلبي ومقاتل يعني أمنتم عقوبة من في السماء يعني الرب تعالى إن عصيتموه ويقال هذا على الاختصار ويقال أمنتم عقوبة من هو جار حكمه في السماء.

قرأ أبو عمرو ونافع آمنتم بالمد والباقون بغير مد بهمزتين ومعناهما[2] واحد وهو الاستفهام والمراد به التوبيخ وقرأ ابن كثير بهمزة واحدة بغير مد على لفظ الخبر ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾ يعني يغور بكم الأرض كما فعل بقارون ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ يعني تدور بكم إلى الأرض السفلى ﴿أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ يعني عذاب من في السماء ﴿أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾ يعني حجارة كما أرسلنا إلى قوم لوط وقال القتبي أم على وجهين مرة يراد بها الاستفهام كقوله ـ (أم يحسدون الناس) ومرة يراد بها «أو» كقوله (أم أمنتم) ويعني أو أمنتم وهذا كقوله أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم قال ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ يعني تعبيري عليهم بالعذاب ويقال معناه سيظهر لكم كيف عذابي ثم قال ﴿ولقد كذب الذين من قبلهم﴾ يعني الأمم الخالية كذبوا رسلهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يعني كيف كانت عقوبتي إياهم وإنكاري لهم ثم قال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ يعني أو لم يعتبروا في خلق الله تعالى كيف خلق الطيور ﴿فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ يعني باسطات اجنحتها في الهواء ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ يعني ويضممن أجنحتهن ويضربن بها ﴿ما يمسكهن﴾ يعني ما يحفظهن في الهواء عند القبض والبسط ﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ يعني عالماً بصلاح كل شيء.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٨ وعزاه لابن المنذر.

(٢) انظر حجة القراءات ٧١٦.

قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ﴾ يعني حزب لكم ومنفعة لكم ﴿يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ يعني من عذاب الرحمن ومعناه هاتوا أخبروني من الذي يمنعكم من عذاب الله تعالى إن عصيتموه ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إلا في غُرُورٍ﴾ يعني ما الكافرون إلا في خداع وأباطيل ثم قال عز وجل ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ يعني من الذي يرزقكم إن حبس الله رزقه وهذا كقوله ـ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ثم قال ﴿بَلْ لَجُّوا﴾ يعني تمادوا في الذنب، ويقال تمادوا في الكفر ويقال بل مضوا ﴿في عُتُوٍّ﴾ يعني في تكبر ﴿وَنُفُورٍ﴾ يعني تباعداً من الإيمان ثم قال عز وجل ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه﴾ يعني الكافر يمشي ضالاً في الظلمة أعمى القلب ﴿أهدى﴾ يعني هو أصوب ديناً ﴿أَفَمَنْ يَمشِي سَوِيّاً عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو المؤمن يعمل بطاعة الله يعني على دين الإسلام، وقال قتادة أفمن يمشي مكباً على وجهه قال هو الكافر عمل بمعصية الله يحشره الله تعالى يوم القيامة على وجهه أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم هو المؤمن يعمل بطاعة الله تعالى يسلك به يوم القيامة طريق الجنة[1] وقال الزجاج أعلم الله تعالى أن المؤمن يسلك الطريق المستقيم وإن كان الكافر في ضلال بمنزلة الذي يمشي مكباً على وجهه، قال مقاتل نزلت في شأن أبي جهل وقال بعضهم هو وجميع الكفار ثم قال ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ يعني خلقكم ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ لكي تسمعوا بها الحق ﴿وَالأَبْصَارَ﴾ يعني لكي تبصروا ﴿وَالأَفْئِدَةَ﴾ يعني القلوب لكي تعقلوا بها الهدى ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ يعني شكركم فيما صنع إليكم قليلاً، ويقال معناه خلق لكم السمع والأبصار والأفئدة آلة لطاعات ربكم وقطعاً لحجتكم وقدرة على ما أمركم فاستعملتم الآلات في طاعة غيره ولم توحدوه. ثم قال عز وجل ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ يعني خلقكم ويقال كثركم في الأرض، وأنزلكم في الأرض ﴿وإليه تحشرون﴾ يعني إليه ترجعون بعد الموت فيجازيكم بأعمالكم قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هَذَا الوَعْدَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني البعث بعد الموت إن كنتم صادقين أنَّا نبعث خاطبوا به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلفظ الجماعة ويقال أراد به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ﴿قُلْ إِنَّمَا العِلْمُ عِنْدَ اللهِ﴾ يعني علم قيام الساعة عند الله ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ يعني مخوف أخوفكم بلغة تعرفونها قوله تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ﴾ يعني لما رأوا العذاب قريباً ويقال لما رأوا القيامة قريبة وسيئت ﴿وُجُوهُ الذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني ذللت ويقال قبحت وسودت.

وقال القتبي فلما رأوه زلفة يعني لما رأوا ما وعدهم الله قريباً منهم وقال الزجاج سيئت أي تبين فيها السوء في وجوه الذين كفروا ﴿وَقِيلَ هَذَا الذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ أي تشكون في الدنيا قرأ قتادة والضحاك ويعقوب الحضرمي تدعون بالتخفيف يعني تستعجلون وتدعون إليه في قولكم فأمطر علينا حجارة من السماء وقراءة العامة تدعون

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٩ وعزاه لعبد بن حميد وعبد الرزاق وابن المنذر.

بالتشديد[١] يعني تكذبون ويقال من آجله تدعون الأباطيل يعني تدعون أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً لا ترجعون ولا تجازون، ويقال تدعون أي تتمنون قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ﴾ يعني إن عذبنا الله ﴿أو رحمنا﴾ يعني غفر لنا ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الكَافِرِينَ﴾ يعني من ينجيهم ويغيثهم ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يعني أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لهم نحن مؤمنون بالله ونتوسل بعبادته إليه لا نأمن عذابه على معصيته فكيف تؤمنون مع كفركم به من عذابه وعقوبته فمن يجير الكافرين من عذاب أليم. ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ﴾ يعني قل هو الرحمن بفضله إن شاء عذبنا وإن شاء رحمنا ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ يعني فوضنا إليه أمورنا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يعني فستعرفون عند نزول العذاب من هو في خطأ بين قرأ الكسائي فسيعلمون بالياء بلفظ الخبر والباقون بالتاء[٢] على معنى المخاطبة يعني سوف تعلمون يا كفار مكة ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً﴾ يعني إن صار ماؤكم غائراً لا تناله الأيدي ولا الدلاء ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ يعني بماء طاهر والغور والغائر يقال ماء غور ومياه غور وهو مصدر لا يثنى ولا يجمع وقال مجاهد بماء معين يعني جار وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما يعني الطاهر وروى أبو هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: سورة في القرآن ثلاثون شفعت لصاحبها حتى غفر له ﴿تبارك الذي بيده[٣] الملك﴾ وروى زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود قال يؤتى بالرجل في قبره من قبل رأسه فيقول له ليس لك علي من سبيل قد كان يقرأ على سورة الملك فيؤتى من قبل رجليه فيقول: ليس لك علي سبيل كان يقوم بسورة الملك فيؤتى من قبل جوفه فيقول: ليس لك علي سبيل قد أوعاني سورة الملك قال: وهي المنجية تنجي صاحبها من عذاب القبر وروى ابن الزبير عن جابر قال كان النبي - صلى الله عليه وسلم - لا ينام - حتى يقرأ سورة ألّم تنزيل الكتاب لا ريب فيه وتبارك[٤] الذي بيده الملك والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

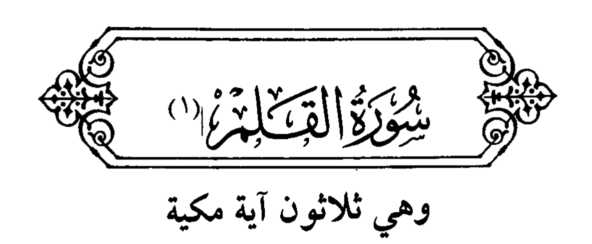
---

(١) انظر النشر في القراءات العشر ٢/ ٣٨٩.

(٢) انظر المصدر السابق وحجة القراءات ٧١٦.

(٣) أخرجه ابن حبان ذكره الهيثمي في الموارد ٤٣٨ كتاب التفسير (١٧٦٦). والتمهيد لابن عبد البر ٧/ ٢٦٢ وذكره في الكنز (٢٧٠٥).

(٤) أخرجه الترمذي ٥/ ١٥٢ (٢٨٩٢) وقال: هذا حديث رواه غير واحد عن ليث بن أبي سليم.



سورة القلم(١)

وهي ثلاثون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿نٓ والقَلَم﴾ ـ قرأ الكسائي ونافع وعاصم في إحدى الروايتين بالإدغام والباقون بإظهار النون(٢) وهما لغتان ومعناهما واحد قال ابن عباس هي السمكة التي تحت الأرضين وروى الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس قال أول ما خلق الله تعالى من شيء القلم فقال اكتب قال بما أكتب قال اكتب القدر فيجري بما هو كائن إلى قيام الساعة ثم خلق النون يعني السمكة فدحا الأرض عليها فارتفع بخار الماء ففتق منه السموات فاضطربت النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال وإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة(٣) وقال سعيد بن

---

(١) جاء في هذه السورة الإيماء بالحرف الذي في أولها إلى تحدي المعاندين بالتعجيز عن الاتيان بمثل سور القرآن، وهذا أول التحدي الواقع في القرآن إذ ليس في سورة العلق ولا في المزمل ولا في المدثر إشارة إلى التحدي ولا تصريح. وفيها إشارة إلى التحدي بمعجزة الأمية بقوله «والقلم وما يسطرون». وابتدأت بخطاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تأنيساً له وتسلية عما يلاقيه من أذى المشركين وإبطال مطاعن المشركين في النبي صلى الله عليه وسلم. وإثبات كمالاته في الدنيا والآخرة وهديه وضلال معانديه وتثبيته. وأكد ذلك بالقسم بما هو من مظاهر حكمة الله تعالى في تعليم الإنسان الكتابة فتتضمن تشريف حروف الهجاء والكتابة والعلم لتهيئة الأمة لخلع دثار الأمية عنهم وإقبالهم على الكتابة والعلم لتكون الكتابة والعلم سبباً لحفظ القرآن.

ثم أنحى على زعماء المشركين مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة بمزمات كثيرة وتوعدهم بعذاب الآخرة وبلايا الدنيا بأن ضرب لهم مثلاً بمن غرهم عزّهم وثرائهم، فأزال الله ذلك عنهم وأباد نعمتهم.

وقابل ذلك بحال المؤمنين المتقين وأن الله اجتباهم بالإسلام، وأن آلهتهم لا يغنون عنهم شيئاً من العذاب في الدنيا ولا في الآخرة.

ووعظهم بأن ما هم فيه من النعمة استدراج وإملاء جزاء كيدهم. وأنهم لا معذرة لهم فيما قابلوا به دعوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من طغيانهم ولا حرج عليهم في الإنصات إليها وأمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصبر في تبليغ الدعوى وتلقي أذى قومه وأن لا يضجر في ذلك ضجراً عاتب الله عليه نبيه يونس عليه السلام. التحرير ٢٩/٥٨ ـ ٥٩.

(٢) من أظهر قال: هو حرف هجاء، وحكمه أنه ينفصل عما بعده، فبني الكلام فيه على الوقف لا على الوصل. والباقون بنوا الكلام على الوصل. قال الزجاج: والذي أختار إدغام النون في الواو، كانت النون ساكنة أو متحركة. لأن الذي جاء في التفسير يباعدها من الإسكان والتبيين. لأن من أسكنها وبينها فإنما يجعلها حرف هجاء، والذي يدغمها فجائز أن يدغمها وهي مفتوحة. وجاء في التفسير أن (نون): الحوت التي دُحِيَتْ عليها الأرضون السبع، وجاء في التفسير أن (نون): الدواة انظر الحجة ٧١٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٩/ ٢٥٠ وعزاه لعبد الرزاق الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في العظمة والحاكم وصححه البيهقي في الأسماء والصفات والخطيب في تاريخه والضياء في المختارة.

جبير والحسن وقتادة النون[١] الدواة وقال قتادة الدواة والقلم ما قام لله وبه لإصلاح عيش خلقه والله يعلم ما يصلح خلقه. ويقال النون افتتاح اسم الله تعالى وهو النون ويقال هو آخر اسمه من الرحمن وهذا قسم أقسم الله تعالى بالنون والقلم وجواب القسم ما أنت بنعمة ربك بمجنون. فذلك قوله نون ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ يكتُب الحفظة من أعمال بني آدم ويقال وما يسطرون يعني تكتب الحفظة في اللوح المحفوظ ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ يعني ما أنت بحمد الله تعالى بمجنون وما أنت بنعمة ربك بمجنون كما يزعمون وذلك أن أول ما نزل من القرآن قوله تعالى اقرأ باسم ربك الذي خلق إلى قوله (علم الإنسان ما لم يعلم) وعلمه جبريل الصلاة فقال أهل مكة: جن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان النبي يفر من الشاعر والمجنون فلما نسبوه إلى الجنون شق ذلك عليه فنزل (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) ويقال بل أنت رسول الله تعالى ثم قال ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ يعني غير مقطوع ويقال: غير محسوب ويقال: لا يمن عليك ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ يعني على خلق حسن، وقال مقاتل يعني: على دين الإسلام وقال عطية يعني: على آدب القرآن ثم قال ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ يعني: سترى ويرون، ويقال فستعلم ويعلمون ﴿بأيكم المفتون﴾ يعني: إذا نزل بهم العذاب تعلمون أيكم المفتون يعني بأيكم المجنون ويقال الباء زيادة، ومعناه أيكم المفتون يعني أيكم المجنون، وقال قتادة يعني أيكم أولى بالسلطة وقال أبو عبيدة أيكم المجنون والباء زيادة واحتج بقول القائل ـ نضرب بالسيف ونرجو بالفرج يعني نرجو الفرج.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

ثم قال ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ يعني: هو عالم بمن أخطأ الطريق عن دينه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِيْنَ﴾ لدينه ثم قال ﴿فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ وذلك أنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه فأمره الله تعالى أن يثبت على دينه فقال لا تطع المكذبين بوحدانية الله تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ قال مجاهد ودوا لو تركن إليهم وتترك ما أنت عليه من الحق فيميلون إليك[٢]، وقال السدي ودوا لو تكفر فيكفرون وقال القتبي ودوا لو تداهن في دينك فيداهنون في أديانهم، وكانوا أرادوا أن يعبدوا آلهتهم مدة ويعبدون الله مدة ثم قال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾ يعني: كذاباً في دين الله، والحلاف مكثار الحلف، مهين ضعيف فاجر نزلت في الوليد بن المغيرة، وقال القتبي، المهين الحقير الدنيء وقال الزجاج وهو فعيل من المهانة وهي القلة ومعناه في هذا الموضع القلة في الرأي والتمييز ثم قال ﴿هَمَّازٍ﴾ يعني؛ الوليد بن المغيرة طعان لعان مغتاب ﴿مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ يعني: يمشي بين لناس بالنميمة وقال القتبي هماز يعني عياب ثم قال: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ يعني: بخيلاً لا ينتفع بماله لنفسه وكان ينفق أمواله على غيره ويقال معناه مناع للخير يعني التوحيد ويمنع الناس عن التوحيد ﴿مُعْتَدٍ﴾ يعني ظلوماً لنفسه ﴿أَثِيمٍ﴾ يعني: فاجراً

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥٠ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥١ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

قوله تعالى ﴿**عُتُلٍّ**﴾ يعني؛ شديد الخصومة بالباطل ويقال: عتل يعني أكول شروب صحيح الجسم رحيب البطن ﴿**بَعْدَ ذَلِكَ**﴾ يعني مع ذلك ﴿**زَنِيمٍ**﴾ يعني: ملصق، وقال ابن عباس الزنيم الدعي الملصق ويستدل بقول القائل: .

زنيم[1] تداعاه الرجال زيادة كما زيد في عرض الأديم الأكارع[2]

ويقال الزنيم الشديد الخلق، وروى شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم يرفعه إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: لا يدخل الجنة جواظ ولا جعظري ولا العتل الزنيم قال أما الجواظ فالذي جمع ومنع وتدعوه لظى نزاعة للشوى أي الشديد الخلق رحيب الجوف وأما الجعظري فالفظ الغليظ وأما العتل الزنيم صحيح أكول شروب ظلوم[3] للناس، ويقال الزنيم الدعي وذكر أنه لما نزلت هذه الآية قال لأمه إن محمداً لصادق وأنه قال كذا وكذا فأقرت والدته له بذلك ثم قال ﴿**أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينٍ**﴾ يعني: فلا تطعه وإن كان ذا مال وبنين يعني لا تطعه بسبب ماله ثم قال ﴿**إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا**﴾ يعني القرآن ﴿**قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**﴾ يعني: كذبهم وأباطيلهم وقال السدي يعني أساجيع الأولين ثم قال ﴿**سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ**﴾ يعني: سنضربه على الوجه، ويقال سنسود وجهه يوم القيامة ويقال: سنسمه على أنفه وقال القتبي: للعرب في هذا مذاهب يقولون للرجال إذا سبه سبة قبيحة أو يثني عليه فاحشة قد وسم ميسم سوء يريد أنه ألصق به عاراً لا يفارقه كما أن السمة لا يعفو أثرها وقد وصف الله تعالى الوليد بالحلف والمهانة والمشي بالنميمة والبخل والظلم والاثم والدعوى فألحق به العار لا يفارقه في الدنيا والآخرة قال والذي يدل على هذا ما روي عن الشعبي في قوله عتل بعد ذلك زنيم يعني القتل الشديد والزنيم له زنمة من الشر يعرف بها كما تعرف الشاة.

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

ثم قال: ﴿**إِنَّا بَلَوناهُمْ**﴾ يعني: اختبرنا أهل مكة بترك الاستثناء ويقال ابتليناهم بالجوع والشدة ثم قال ﴿**كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنَّةِ**﴾ يعني: أهل ضيروان وهي قبيلة باليمن. وروى أسباط عن السدي قال كان قوم باليمن وكان

---

(١) الزنيم: قال الفراء: الزنيم الدعي الملصق بالقوم وليس منهم، وقيل الزنيم الذي يعرف بالشر واللؤم كما تعرف الشاة بزنمتها ـ لسان العرب ٣/١٨٧٤ ـ مادة (زنم).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٥٢ وعزاه لعبد بن حميد وابن عساكر، الأكارع قيل الناس السفلة شبهوا بأكارع الدواب وهي قوائمها. انظر لسان العرب ٥/٣٨٥٩ وتفسير القرطبي ١٨/١٥٣.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٥٢ وعزاه لأحمد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر.

أبوهم رجلاً صالحاً وكان إذا بلغ ثماره فأتاه المساكين فلم يمنعهم من دخولها وأن يأكلوا منها وأن يتزودوا فيها فلما مات أبوهم قال بنوه بعضهم لبعض على ما نعطي أموالنا هؤلاء المساكين فقالوا فلندع من يصرفها قبل أن يعلم المساكين ولم يستثنوا فانطلقوا وهم يتخافتون ويقول بعضهم لبعض خفياً أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين فذلك قوله: ﴿إذ أقسموا﴾ يعني حلفوا فيما بينهم ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ يعني: ليُجدنَّها وقت الصبح أي ليقطعنها قبل أن يخرج المساكين ﴿وَلاَ يَسْتَثْنُونَ﴾ يعني: لم يقولوا إن شاء الله تعالى وروي في الخبر أن أباهم كان إذا أراد أن يصرم النخل اجتمع هناك مساكين كثيرة وقد جعل له علامة فكل ثمرة تسقط وراء العلامات كانت للمساكين فكانوا يأخذون الثمر قدر ما يتزودون به أياماً كثيرة فلما مات الرجل قال بنوه فيما بينهم إن أبانا كان عياله أقل وحاجته أقل فصار عيالنا أكثر وحاجتنا أكثر فخرجوا بالليل كي لا يشعر بهم المساكين فاحترقت نخيلهم في تلك الليلة فذلك قوله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ﴾ يعني: بعث الله تعالى ناراً على حديقتهم بالليل والطائف الذي أتاك ليلاً فأحرقها وهم نائمون ﴿مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كالصـرِيم﴾ يعني صارت الحديقة كالليل المظلم، وقال القتبي الصريم من أسماء الأضداد يسمى الليل صريماً والصبح صريماً لأن الليل ينصرم عن النهار والنهار ينصرم عن الليل ويقال الصريم يعني ذهب ما فيها فكأنه صرم أي قطع وجز. ثم قال ﴿فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ﴾ يعني: نادى بعضهم لبعض ﴿أَن اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ يعني: اخرجوا بالغداة جذوا زروعكم وصرام نخيلكم ﴿إِن كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ يعني: إن أردتم أن تصرموها قبل أن يحضرها المساكين ﴿فَانْطَلَقُوا﴾ يعني: ذهبوا إلى نخيلهم ﴿وَهُمْ يَتخافَتُونَ﴾ يعني: يتشاورون فيما بينهم بكلام خفي ﴿أَنْ لاَ يَدْخُلَنَّهَا اليَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ﴾ قال مقاتل: يعني على جد في أنفسهم ﴿قادرين﴾ على جنتهم وقال الزجاج: معناه على قصد وقال القتبي: الحرد: المنع، ويقال الحرد: القصد قادرين: واجدين، ويقال على قوة ونشاط، ويقال على طريق جنتهم، ويقال الحرد اسم تلك الجنة ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ يعني: فلما رأوها يعني: أتوها ورأوها مسودة أنكروها ﴿قالوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ يعني: أخطأنا الطريق وليست هذه جنتنا فلما تفحصوا وعلموا أنها جنتهم وأنها عقوبة لهم فقالوا ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ يعني: حُرمْنا منفعتها ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ يعني: أعدلهم وأعقلهم ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ﴾ يعني: هلا تستثنون في أيمانكم ويقال: كان استثناؤهم التسبيح يعني: لولا قلتم سبحان الله؟ فندموا على فعلهم ﴿قالوا سُبْحَانَ رَبِّنا﴾ يعني: نزهوه وعظموه تائبين عن ذنوبهم ويقال نستغفر ربنا ﴿إنا كنا ظالمين﴾ يعني: ضارين بأنفسنا بمنعنا المساكين ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ﴾ يعني: جعل يلوم بعضهم بعضاً لصنيعهم ذلك ثم ﴿قالوا﴾ بأجمعهم ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ يعني: عاصين بمنعنا المساكين ثم قالوا: ﴿عَسى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْها﴾ يعني: يعوضنا خيراً منها في الجنة ﴿إِنَّا إِلى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ يعني: راجين مما عنده قال الله تعالى ﴿كَذٰلِكَ العَذَابُ﴾ يعني: هكذا عذاب الدنيا لمن منع حق الله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ لمن لم يتب ولم يرجع عن ذنبه ويقال: هكذا العذاب في الدنيا لأهل مكة بالجوع ولعذاب الآخرة أعظم ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: لو كانوا يفقهون ويقال لو كانوا يصدقون، ثم ذكر ما للمتقين من الثواب.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

فقال عز وجل: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: في الآخرة ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ فلما ذكر الله تعالى نعيم الجنة قال عتبة بن ربيعة: إن كان كما يقول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن لنا في الآخرة أكثر ما للمسلمين لأن فضلنا وشرفنا أكثر فنزل ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ يعني لا يكون حال المسلمين في الهوان والذل كالمشركين ﴿مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يعني وَيْحَكم كيف تقضون بالجَوْر ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ يعني: ألكم كتاب تقرأون فيه ﴿إن لكم فيه لما تخيرون﴾ يعني: في الكتاب مما تتمنون ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ﴾ يعني: ألكم عهد عندنا وثيق ﴿إلى يوم القيامة﴾ يعني: في يوم القيامة ﴿إن لكم لما تحكمون﴾ يعني: ما تقضون لأنفسكم في الآخرة؟ قوله تعالى ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ يعني: أيهم كفيل لهم بذلك؟ ثم قال ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يعني: شهداء يشهدون أن الذي قالوا لهم حق ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ يعني يشهدون أن لهم في الآخرة ما للمسلمين فهذا كله لفظ الاستفهام والمراد به الزجر واليأس يعني ليس لهم ذلك. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ يعني اذكر ذلك اليوم ويقال معناه إن الثواب والعقاب الذي ذكر في يوم يكشف عن ساق قال ابن عباس يعني يظهر قيام الساعة، وروى سفيان عن مغيرة عن إبراهيم عن ابن عباس قال عن ساق يعني عن أمر عظيم[1] وقال مجاهد يوم يكشف عن ساق عن بلاء عظيم[2] وقال قتادة يكشف الأمر عن شدة الأمر[3] ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ قال الفقيه حدثنا الخليل بن أحمد ثنا ابن منيع[4] حدثنا هدبة ثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن عمارة القرشي عن أبي بردة بن أبي موسى قال حدثنا أبي قال سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول إذا كان يوم القيامة مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون في الدنيا فذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون في الدنيا ويبقى أهل التوحيد فيقال لهم كيف بقيتم وقد ذهب الناس فيقولون إن لنا رباً كنا نعبده في الدنيا ولم نره قال أوتعرفونه إذا رأيتموه فيقولون نعم فيقال لهم وكيف تعرفونه ولم تروه قالوا لا شبه له فيكشف لهم الحجاب فينظرون إلى الله تعالى فيخرون له سجداً ويبقى أقوام ظهورهم مثل صياصي البقر فيريدون السجود فلا يستطيعون فيقول الله تعالى عبادي ارفعوا رؤوسكم قد جعلت بدل كل رجل منكم رجلاً من اليهود والنصارى في النار[5]. قال أبو بردة فحدثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز فقال والله الذي لا إله إلا هو أحدثك أبوك بهذا الحديث فحلفت له ثلاثة أيمان فقال عمر ما سمعت في أهل التوحيد حديثاً هو أحب إلي من هذا الحديث وقال القتبي يوم يكشف عن ساق هذا من الاستعارة فسمى الشدة ساقاً، لأن الرجل إذا وقع في الشدة شمر عن ساقه فاستعيرت في موضع الشدة ويقال يكشف ما كان خفياً ويقال يبدؤا عن أمر شديد وهو عذاب عظيم يوم القيامة. ثم قال: عز وجل: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ يعني: ذليلة أبصارهم ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يعني: تغشاهم وتعلوهم كآبة وكشوف وسواد وذلك أن المسلمين إذا رفعوا رؤوسهم من السجود صارت وجوههم بيضاء كالثلج فلما نظر اليهود والنصارى والمنافقون وهم عجزوا عن السجود حزنوا واغتموا فسودت وجوههم ثم بَيَّنَ المعنى الذي عجزهم عن السجود فقال ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ يعني: يدعون إلى السجود في الدنيا وهم أصحاء معافون فلم يسجدوا.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٥٤ وعزاه للفريابي وسعيد بن منصور وابن منده والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٥٥ وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٥٥ وعزاه لعبد بن حميد.

(٤) أحمد بن منيع بن عبد الرحمن أبو جعفر البغوي ثقة حافظ مات سنة أربع وأربعين. التقريب ١/٢٧.

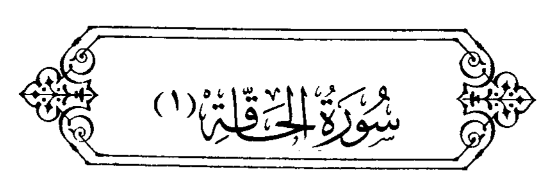
(٥) انظر تفسير القرطبي.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿**فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ**﴾ يعني: دع هؤلاء الذين لا يؤمنون بالقرآن ويقال فوض أمرهم إليَّ فإني قادر على أخذهم متى شئت ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُمْ**﴾ يعني: سنأخذهم وسنأتيهم بالعذاب ﴿**مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ يعني: نذيقهم من العذاب درجة من حيث لا يعلمون أن العذاب نازل بهم وأصله في اللغة[١] من الارتقاء في الدرجة وقال السدي: كلما جددوا معصية جدد لهم نعمة وأنساهم شكرها فذلك الاستدراج ﴿**وَأُمْلِي لَهُمْ**﴾ يعني: أمهل لهم وأؤجل لهم إلى وقت ﴿**إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾ يعني: عقوبتي شديدة إذا نزلت بهم لا يقدرون على دفعها ثم قال ﴿**أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا**﴾ يعني: أتسألهم على الإيمان جعلاً ﴿**فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ**﴾ يعني لأجل الغرم يمتنعون وهذا يرجع إلى قوله أم لكم كتاب فيه تدرسون ثم قال ﴿**أم عندهم الغيب**﴾ يعني: اللوح المحفوظ ﴿**فهم يكتبون**﴾ يعني: ما يقولون ثم قال عز وجل: ﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**﴾ يعني على أمر ربك ولقضاء ربك ﴿**وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ**﴾ يعني: لا تكن في قلة الصبر والضجر مثل يونس عليه السلام ﴿**إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ**﴾ يعني: مكروباً في بطن الحوت وقال الزجاج مكظوم أي مملوء غماً ﴿**لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ**﴾ يعني: لولا النعمة والرحمة التي أدركته من الله تعالى ﴿**لَنُبِذَ بِالعَرَاءِ**﴾ يعني: لطرح بالصحراء والصحراء هي الأرض التي لا يكون فيها نخل ولا شجر يوارى فيها ﴿**وهو مذموم**﴾ يعني: يذم ويلام ولكن كان رحمة من الله تعالى حيث نبذ بالعراء وهو سقيم وليس بمذموم قوله تعالى: ﴿**فاجْتَباه رَبُّهُ**﴾ يعني: اختاره ربه للنبوة ﴿**فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ يعني: من المرسلين كقوله (وإن يونس لمن المرسلين) ثم قال عز وجل: ﴿**وَإِنْ يَكَادُ الذين كَفَرُوا**﴾ يعني: أراد الذين كفروا ﴿**لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ**﴾ يعني: ليرهقونك بأبصارهم إن قدروا على ذلك ويقال معناه إذا قرأت القرآن فينظرون إليك نظراً شديداً بالعداوة يكاد يزلقك أي بالعداوة يسقطك من شدة النظر وذكر عن الفراء أنه قال: ليزلقونك بأبصارهم يعني: يعتانونك يعني: يصيبونك بعيونهم وذلك أن رجلاً من العرب كان إذا أراد أن يعتان شيئاً يقبل على طريق الإبل إذا صدرت عن الماء فيصيب منها ما أراد بعينه فأرادوا أن يصيبوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، قال الكلبي ليزلقونك يعني ليصرعونك ﴿**لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْر**﴾ يعني: قراءتك القرآن ﴿**وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**﴾ يعني: ما هذا القرآن إلَّا عظة للجن والإنس ويقال عز وشرف للعالمين ـ قرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر (آن كان ذا مال وبنين) بهمزتين والباقون بهمزة واحدة[٢] إلا ابن عامر فإنه يقرأ آن كان بالمد فمن قرأ بهمزتين فالألف الأولى للاستفهام والثانية ألف إن ومن قرأ بهمزة واحدة معناه لأن كان ذا مال أي لا تطعه لماله وتحمل لأن كان ذا مال قال أساطير الأولين قرأ نافع. ليزلقونك بنصب الياء والباقون بالضم[٣] وهما لغتان ومعناهما واحد. والله أعلم بالصواب.

---

(١) انظر لسان العرب ٢/١٣٥١.
(٢) انظر حجة القراءات ٧١٨.
(٣) المصدر السابق والنشر ٢/٣٨٩.



وهي اثنان وخمسون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾

قوله تعالى: **﴿الحَاقَّةُ مَا الحَاقَّةُ﴾** وهو إسم من أسماء القيامة ومعناه القيامة ما القيامة تعظيماً لأمرها وقال قتادة في قوله (الحاقة) يعني: حقت لكل قوم أعمالهم[٢] يعني: حقت للمؤمنين أعمالهم وللكفارين أعمالهم من حق يحق إذا صح وذكر عن الفراء أنه قال إنما قيل لها الحاقة لأن فيها حواق الأمور يقال لقد حق عليك الشيء أي وجب ثم قال: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ﴾** يعني: ما تدري أي يوم هو تعظيماً لأمرها ثم وصف القيامة في قوله فإذا نفخ في الصور ثم ذكر من كذب بالساعة والقيامة وما نزل بهم فقال: **﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالقَارِعَةِ﴾** يعني: كذبت قوم صالح وقوم هود بالقيامة وإنما سميت قارعة لأنها تقرع قلوب الخلق ثم أخبر عن عقوبتهم في الدنيا فقال: **﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾** يعني: بطغيانهم ومعناه وطغيانهم حملهم على التكذيب فأهلكوا ويقال أهلكوا بالرجفة الطاغية كما قال في قصته بريح صرصر عاتية يعني عتت على خزانها فذلك قوله: **﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتية﴾** يعني: باردة يعني شديدة البرد **﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾** يعني: سلطها عليهم **﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أيام حُسُوماً﴾** يعني: دائمة متتابعة ويقال عاتية يعني: شديدة حسوماً يعني: كاملة دائمة لا يفتر عنهم وقال القتبي حسوماً أي متتابعة وأصله من حسم الداء لأنه يكون مرة بعد مرة **﴿فَتَرَى القَوْمَ فِيهَا صَرْعَى﴾** يعني: في الريح ويقال في الأيام ويقال في القرية صرعى يعني: موتى ويقال هلكى ويقال قلعى مطروحين **﴿كأنهم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ﴾** يعني:

---

(١) اشتملت هذه السورة على تهويل يوم القيامة. وتهديد المكذبين بوقوعه، وتذكيرهم بما حل بالأمم التي كذبت به من عذاب في الدنيا ثم عذاب الآخرة وتهديد المكذبين لرسل الله تعالى بالأمم التي أشركت وكذبت. وأدمج في ذلك أن الله نجى المؤمنين من العذاب وفي ذلك تذكير بنعمة الله على البشر إذ أبقى نوعهم بالإنجاء من الطوفان. ووصف أهوال من الجزاء وتفاوت الناس يومئذ فيه. ووصف فظاعة حال العقاب على الكفر وعلى نبذ شريعة الإسلام. والتنويه بالقرآن. وتنزيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن أن يكون غير رسول. وتنزيه الله تعالى عن أن يقر من يتقول عليه. وتثبيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وإنذار المشركين بتحقيق الوعيد الذي في القرآن. انظر التحرير ١١١/١٩.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٥٨/٦ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم.

منقلعة ساقطة وروى شهر بن حوشب عن ابن عباس قال ما أنزل الله تعالى قطرة من ماء إلا بمثقال ولا شعرة من الريح إلا بمكيال إلا يوم[١] عاد ونوح وأما الريح فعتت على خزائنها يوم عاد فلم يكن لهم عليها سبيل وأما الماء طغى على خزانه يوم نوح فلم يكن لهم عليه سبيلاً كما قال الله تعالى (إنا لما طغى الماء) الاية. ثم قال عز وجل: **﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِنْ بَاقِيَةٍ﴾** يعني: لم يبق أحداً منهم ثم قال عز وجل **﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾** قرأ أبو عمرو والكسائي ومن قبله بكسر القاف ونصب الباء الموحدة يعني: ظهر فرعون وأتباعه وأشياعه والباقون بنصب القاف وجزم الباء[٢] يعني: من تقدمه من عتاب الكفار ثم قال **﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالخَاطِئَةِ﴾** يعني: قريات قوم لوط يعني؛ جاء فرعون وقوم لوط بالخـاطئة يعني: بالشرك وبأعمالهم الخبيثة **﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾** يعني: كذبوا رسلـهم **﴿فأخذهم أَخْذَةً رَابِيَةً﴾** يعني عاقبهم الله عقوبة شديدة.

إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾

ثم قال عز وجل: **﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى المَاءُ﴾** يعني طغى على خزانه يوم نوح كما روي عن ابن عباس ويقال طغى الماء أي ارتفع ويقال في اللغة طغى[٣] الشيء إذا ارتفع جداً وقال قتادة إنه طغى فوق كل شيء خمسة عشر ذراعاً[٤]. **﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾** يعني: السفينة ومعناه حين غرق الله تعالى قوم نوح حملناكم يا محمـد في السفينة في أصلاب آبائكم **﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾** يعني: لنجعل هلاك قوم نوح لكم عبرة لتعتبروا بها **﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾** يعني: يسمع هذا الخبر أذن سامعة ويحفظها قلب حافظ على معنى الإضمار ثم رجع إلى أول السورة فقال **﴿فإذا نُفِخَ فِي الصُّـورِ نَفْخَةٌ وَاحِـدَةٌ﴾** يعني: نفخ إسـرافيل في الصـور نفخة واحدة ثم قال **﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالجِبَالُ﴾** يعني: قلعت ما على الأرض من نباتها وشجرها وحملت الجبال عن أماكنها **﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾** يعني: فضربت على الأرض مرة واحدة وهذا قول مقاتل وقال الكلبي يعني رفعت الأرض والجبال فزلزلتا زلزلة واحدة. ويقال فدكتا دكة واحدة أي كسرتا كسرة واحـدة **﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الـوَاقِعَةُ﴾** يعني في ذلـك اليوم قـامت القيامـة **﴿وانْشَقَتِ السَّمَاءُ﴾** يعني انفرجت السماء بنزول الملائكة **﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾** يعني: ضعيفة منشقة متمزقة من الخوف **﴿وَالمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾** يعني الملائكة على نواحيها وأطرافها يعني صفوف المـلائكة حـول العرش. **﴿وَيُحَمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾** يعني فوق الخلائق **﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾** يعني ثمانية أجزاء من المقربين لا يعلم كثرة عددهم إلا الله وروى عطاء بن السائب عن ميسره في قوله ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يعني: ثمانية من الملائكة أرجلهم في تخوم الأرض السابعة وقال وهب بن منبه أربعة من الملائكة يحملون العرش على أكتافهم لكل

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٥٩ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن جرير.

(٢) انظر حجة القراءات ٧١٨.

(٣) انظر لسان العرب ٤/٢٦٧٧.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٦٠ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

واحد منهم أربعة وجوه وجه ثور ووجه[1] أسد ووجه إنسان روى الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب في قوله تعالى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية.

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾

ثم قال عز وجل: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أي تساقون إلى الحساب والقصاص وقراءة الكتب، ويقال تعرضون على الله تعالى كقوله وعرضوا على ربك صفا ثم قال: ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ يعني لا يخفى على الله منكم ولا من أعمالكم شيء قرأ حمزة والكسائي (لا يخفى) والباقون بالتاء[2] بلفظ التأنيث لأن لفظ خافية مؤنث ومن قرأ بالياء انصرف إلى المعنى يعني لا يخفى منكم خاف والهاء ألحقت للمبالغة ثم قال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه﴾ يعني: كتابه الذي عمله فرأى فيه الحسنات فسر بذلك ﴿فَيَقُولُ﴾ لأصحابه ﴿هاؤُمُ﴾ يعني تعالوا ﴿اقرؤوا كِتَابِيه﴾ قال القتبي هاؤم في اللغة[3] بمنزلة خذ وتناول ويقال للاثنين هاؤما وللجماعة هاؤموا والأصل هاكم فحذفوا الكاف وأبدلوها همزة، وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال بلغني أنهم يعرضون ثلاث عرضات فأما عرضتان فهما الخصومات والمعاذير وأما الثالثة فتطاير الصحف في الأيدي، وروى عبد الله بن مسعود نحو هذا[4] ثم قال: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ﴾ يعني: أيقنت وعلمت أني أحاسب قال الله تعالى - ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ يعني: في عيش مرضي ﴿في جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ يعني مرتفعة ﴿قُطُوفُها دَانِيَةٌ﴾ يعني اجتناء ثمارها قريب يعني شجرها قريب يتناوله القائم والقاعد فيقال لهم ﴿كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً﴾ يعني كلوا من ثمار الجنة واشربوا من شرابها هنيئاً يعني طيباً بلا داء، ويقال حلال لا إثم فيه ﴿بِمَا أَسْلَفْتُم﴾ يعني: بما عملتم وقدمتم ﴿في الأَيَّامِ الْخَالِيَة﴾ يعني: في الدنيا، ويقال بما عملتم من الأعمال الصالحة في الأيام الماضية يعني في الدنيا ﴿وأما مَنْ أوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَاله﴾ روي عن ابن عباس أنه قال: الآية الأولى نزلت في أبي سلمة بن عبد الأسد وهذه الآية في الأسود بن عبد الأسد، ويقال في جميع المؤمنين وفي جميع الكفار ﴿فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ﴾ يعني: لم أعط كتابيه ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه﴾ يعني: لم أعلم ما حسابي قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَها كَانَتِ الْقَاضِيَةُ﴾ يا ليتني تركت على الموتة الأولى بين النفختين،

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٦١ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) انظر حجة القراءات ٧١٨.

(٣) انظر لسان العرب ٦/٤٥٩٩.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٦١ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٦١ وعزاه لابن جرير والبيهقي في البعث.

ويقال يا ليتها كانت القاضية يعني المنية، قال مقاتل: يتمنى الموت ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه﴾ يعني ما أرى ينفعني مالي الذي جمعت في الدنيا ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ يعني: بطل عني عذري وحجتي يقول الله تعالى ﴿خُذُوه فَغُلُّوهْ﴾ يعني؛ بالأغلال الثقال ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ يعني أدخلوه ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾ يعني: أدخلوه في تلك السلسلة ﴿إِنَّه كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ يعني: لا يصدق بالله العظيم ﴿وَلَا يحضُّ﴾ يعني لا يحث نفسه ولا غيره ﴿عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ يعني؛ لا يطعم المسكين في الدنيا ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوم هَهُنَا حَمِيمٌ﴾ يعني: قريب يمنع منه شيئاً يعني أحداً يمنع من العذاب ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ يعني؛ ليس له فيها طعام إلا من غسلين، وروى عكرمة عن ابن عباس قال لا أدري ما الغسلين، وروي عنه أنه قال الغسلين ما يسقط عن عروقهم وذاب من أجسادهم، وقال القتبي هو فعلين من غسلت فكأنه غسالة ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُون﴾ يعني: المشركين وروى عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً قرأ عنده لا يأكله إلا الخاطئون وقال ابن عباس كلنا نخطىء ولكن لا يأكله إلا الخاطئون يعني: العاصين الكافرين.

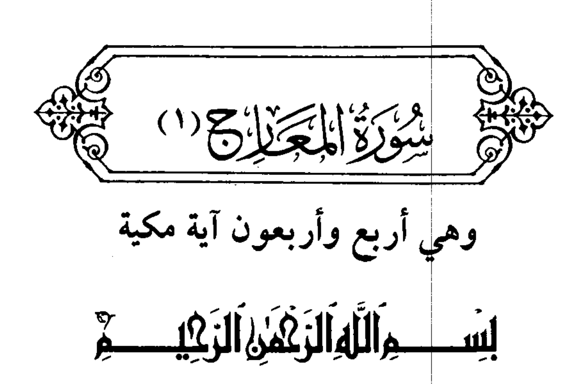
فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

ثم قال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ يعني: أقسم بما تبصرون من شيء، ومن الخلق ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ من الخلق ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: هذا القرآن قول رسول كريم على الله تعالى، يعني جبريل وهذا قول مقاتل ويقال: قول رسول كريم يعني قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعني: محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال أبو العالية، إنه يعني القرآن لقول رسول كريم يقرأ عليك يا محمد ـ ويقال معناه إن الذي ينزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقرآن ويقرؤه عليه جبريل الكريم على الله تعالى ليس الشياطين كما يقولون ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ يعني: القرآن ليس هو بقول شاعر ﴿قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ﴾ يعني: قليلاً ما تؤمنون، وما صلة، قرأ ابن كثير وابن عامر في رواية هشام قليلاً ما يؤمنون بالياء وقليلاً ما يذكرون بالياء والباقون بالتاء على معنى المخاطبة[1] ثم قال ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ يعني: ليس بقول كاهن ليس بقول شيطان أي عراف كاذب ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ يعني: قليلاً ما تتعظون ثم قال عز وجل: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني القرآن هو كلام رب العالمين أنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال ﴿وَلَوْ تَقَولَ عَلَيْنَا بَعضَ الأَقَاوِيل﴾ يعني أن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لو قال من ذات نفسه ﴿لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ يعني: لعاقبناه فأعلم الله تعالى أنه لا محاباه لأحد إذا عصاه بالقرآن وإن كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعنى: قوله باليمين يعني بالقوة، وقال القتبي إنما قام اليمين مقام القوة لأن قوة كل شيء في يمينه ولأهل اللغة في هذا مذاهب أخر وهو قولهم إذا أرادوا عقوبة أحد فيقولون خذ بيده وافعل به كذا وكذا،

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٥٩.

قال الله تعالى لو كذب علينا لأمرنا بالأخذ بيده ثم عاقبناه، ويقال لو تقول علينا بعض الأقاويل معناه لو زاد حرفاً واحداً على ما أوحيته إليه أو نقص لعاقبته وكان هو أكرم الناس عليَّ وفي الآية تنبيه لغيره لكيلا يغيروا شيئاً من كتاب الله تعالى ولا يتقولوا فيه شيئاً من ذات أنفسهم ويقال باليمين يعني بالحق، ويقال بالحجة ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنه الْوَتِينَ﴾ وهو عرق يتعلق به القلب إذا انقطع مات صاحبه يعني لأهلكناه ﴿فَمَا مِنْكُم مِنْ أَحدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ يعني: ليس أحد منكم يمنعنا من عذابه ﴿وَإِنَّـهُ﴾ يعني: القرآن ﴿لَتَذْكِـرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: عظة للذين يتقون الشرك والفواحش ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُم مُكَذِّبِينَ﴾ يعني: وإنا لنعلم أن منكم أيها المؤمنون مكذبون بالقرآن يعني: المنافقين ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ يعني: إن هذا القرآن ندامة على الكافرين يوم القيامة لأنه يقال لهم ألم يقرأ عليكم القرآن فيكون لهم حسرة وندامة بترك الإيمان ﴿وإِنَّه لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ يعني: إن تلك الندامة لحق اليقين ويقال إن القرآن من الله تعالى حقاً يقيناً ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ يعني: صلِ لله تعالى ويقال سبحه باللسان والله تعالى أعلم والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.



سُورَةُ المَعَارِج [١]

وهي أربع وأربعون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى ﴿**سأل سائل**﴾ قرأ نافع بغير همزة والباقون بالهمزة[١] فمن قرأ بغير همزة فهو من سال يسال، يعني جرى واد بعذاب الله تعالى ومن قرأ بالهمزة فهو من سأل يسأل بمعنى دعا داع ﴿**بِعَذَابٍ وَاقِعٍ**﴾ وهو النضر بن الحارث فوقع به العذاب فقتل يوم بدر في الدنيا، وقال مجاهد دعا داع بعذاب يقع في الآخرة وهو قولهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة[٣] من السماء ويقال سأل سائل عن عذاب واقع والجواب ﴿**للكافرين لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ**﴾ يعني أن ذلك العذاب من الله واقع للكافرين ﴿**مِنَ اللَّهِ**﴾ الذي هو ﴿**ذِي المَعَارِجِ**﴾ قال مقاتل: يعني ذي الدرجات يعني السموات السبع وقال القتبي يعني معارج الملائكة أي تصعد ﴿**تَعْرُجُ المَلَائِكَةُ والرُّوحُ إليه**﴾ يعني جبريل ﴿**فِي يَوْمٍ كان مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ**﴾ يعني ذلك العذاب واقع في يوم القيامة مقداره خمسين[٤] ألف سنة ويقال: يعني يعرج جبريل والملائكة في يوم واحد كان مقداره لو صعد غيرهم خمسين ألف سنة وقال

---

(١) حوت من الأغراض تهديد الكافرين بعذاب يوم القيامة، وإثبات ذلك اليوم ووصف أهواله ووصف شيء من جلال الله فيه، وتهويل دار العذاب وهي جهنم. وذكر أسباب استحقاق عذابها.
ومقابلة ذلك بأعمال المؤمنين التي أوجبت لهم دار الكرامة وهي أضداد صفات الكافرين. وتثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتسليته على ما يلقاه من المشركين. ووصف كثير من خصال المسلمين التي بثها الإسلام فيهم، وتحذير المشركين من استئصالهم وتبديلهم بخير منهم. التحرير ٢٩/١٥٣.

(٢) قال محمد بن يزيد المبرد: من لم يهمز فعلى أحد وجهين إما أن يأخذها من (سال يسيل) من السيل، والوجه الثاني أن يكون من (سِلْتُ أسال)كما تقول (خفت أخاف ونمت أنام). و (سِلْتُ أسال) في معنى سألت أسأل وهي لغة معروفة. والعرب تقول: (سألت أسأل). ويقوى الوجه الأول ما روي عن ابن عباس أنه قال: (من قرأها بلا همزة فإنه واد في جهنم). ومن قرأها مهموزة يريد (النضر). فعلى هذا القول (سائل) واد في جهنم، كما قال: «فسوف يلقون غيا» والغي واد. انظر حجة القراءات ٧٢١.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٦٤ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) سقط في ظ.

محمد بن كعب في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة قال هو يوم الفصل بين الدنيا والآخرة ثم قال عز وجل ﴿فاصْبِرْ صبراً جميلاً﴾ يعني اصبر صبراً حسناً لا جزع فيه ثم أخبر متى يقع العذاب فقال ﴿إنهم يرَوْنَهُ بعيداً﴾ يعني يوم القيامة غير كائن عندهم. ﴿وَنَرَاهُ قريباً﴾ لا خلف فيه ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كالمُهل﴾ يعني اليوم الذي تكون السماء كالمهل أي كدردي الزيت من الخوف ويقال ما أذيب من الفضة أو النحاس ﴿وتكونُ الجِبالُ كَالعِهْنِ﴾ يعني كالصوف المندوف قرأ الكسائي يعرج الملائكة بالياء والباقون بالتاء[1] بلفظ التأنيث لأنها جمع الملائكة ومن قرأ بالياء فلتقديم الفعل وروي عن ابن كثير أنه قرأ ﴿ولا يُسأل حميم﴾ بضم الياء والباقون بالنصب ومن قرأ بالضم فمعناه أنه لا يسأل قريب عن ذي قرابته لأن كل إنسان يعرف بعضهم بعضاً قوله تعالى ﴿يُبَصَّرونهم﴾ يعني يعرفونهم ملائكة الله تعالى ومن قرأ بالنصب معناه لا يسأل قريب عن قريبه لأنه يعرف بعضهم بعضاً يبصرونهم يعني يعرفونهم ويقال مرة يعرفونهم ويقال ومرة لا يعرفونهم ثم قال عز وجل ﴿يَوَدُّ المُجْرم﴾ أي يتمنى الكافر ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عذاب يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ يعني ينادي نفسه بولده ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ يعني وزوجته ﴿وأخيه وَفَصِيلَتِهِ التي تُؤْوِيهِ﴾ يعني عشيرته التي يأوى إليهم وقال مجاهد وفصيلته أي قبيلته[2] هكذا روي عن قتادة وقال الضحاك يعني عشيرته ﴿وَمَنْ فِي الأَرضِ جَميعاً﴾ يعني يفادي نفسه بجميع من في الأرض ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ يعني ينجي نفسه من العذاب.

كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

قال الله تعالى ﴿كَلَّا﴾ أي حقاً لا ينجيه وإن فادى جميع الخلق ولا يفادي نفسه وقال أهل اللغة كلا ردع وتنبيه يعني لا يكون كما تمنى. ثم استأنف الكلام فقال ﴿كَلَّا إِنَّها لَظَى﴾ يعني النار والعقوبة لظى اسم من أسماء النار ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوى﴾ يعني قلاعة للأعضاء ويقال حراقة للأعضاء والجسد، وقال القتبي الشوى جلود الرأس وأحدها شواة ويعني أن النار تنزع جلود الرأس وعن أبي صالح قال نزاعة للشوى أطراف اليدين والرجلين[3] وقال مقاتل

---

(١) الجموع تذكر إذا قدرت بها الجمع وتؤنث إذا أريد بها الجماعة نحو: قال الرجال وقالت الرجال. قال الله: «كذبت قوم نوح المرسلين» وقال: «إذ قالت الملائكة». فمن قرأ «تعرج» بالتاء فإنه ذهب إلى جماعة الملائكة، ومن قرأ بالياء فإنه ذهب إلى جمع الملائكة. انظر حجة القراءات ٧٢١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٥ وعزاه لابن المنذر.

يعني تنزع النار الهامة والأطراف قرأ عاصم في رواية حفص نزاعة نصباً على الحال والباقون بالضم[١] يعني إنها نزاعة للشوى ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ يعني لظى تدعو إلى نفسه تنادي من أعرض عن التوحيد وأعرض عن الإيمان، ويقال إن لظى تنادي وتقول أيها الكافر تعال إلي فإن مستقرك فيّ وتقول أيها المنافق تعال إلي فإن مستقرك فيّ فذلك قوله (تدعو من أدبر وتولى) ثم قال ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ يعني جمع المال ومنع حق الله تعالى قال مقاتل فأوعى يعني فأمسكه فلم يؤد حق الله تعالى ثم قال ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ يعني حريصاً ضجوراً بخيلاً ممسكاً فخوراً، وقال القتبي هلوعاً يعني شديد الجزع يقال ناقة هلوع إذا كانت شديدة النفس ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ يعني الفقر ﴿جَزُوعاً﴾ يعني لا يصبر على الشدة ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ يعني إذا أصابه الغنى يمنع حق الله تعالى ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾ فإنهم ليسوا هكذا وهم يؤدون حق الله تعالى ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ يعني يحافظون على الصلوات ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ يعني معروفاً. ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ يعني للسائل الذي يسأل الناس والمحروم الذي لا يشهد الغنيمة ولا يسهم له وروى وكيع عن سفيان عن قيس عن محمد بن الحسن قال بعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سرية ففتحت فجاء آخرون[٢] بعد ذلك فنزل (وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) وقال الشعبي أعياني أن أعلم ما المحروم ثم قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ يعني بيوم الحساب ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ يعني خائفين ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ يعني لم يأت لأحد الأمان من عذاب الله تعالى، ويقال لا ينبغي لأحد أن يأمن من عذاب الله تعالى ثم قال ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانهم فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ وقد ذكرناه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ يعني الأمانات التي فيما بينهم وبين الله تعالى والعهد الذي بينهم وبين الله تعالى والأمانات والعهد التي بينهم وبين الناس حافظون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ يعني يؤدون الشهادة عند الحاكم ولا يكتمونها إذا دعوا إليها فيؤدون الشهادة على الوجه الذي علموها وحملوها ـ قرأ عاصم في رواية حفص وأبو عمرو في إحدى الروايتين بشهاداتهم وهو جمع الشهادة والباقون بشهادتهم[٣] وهي شهادة واحدة وإنما تقع على الجنس ثم قال ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يعني يداومون عليها ويحافظون عليها في مواقيتها ﴿أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ يعني أهل هذه الصفة في جنات مكرمون بثواب من الله تعالى بالتحف والهدايا.

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ﴿٣٨﴾ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ

---

(١) قال الزجاج: من نصب فعلى أنها حال مؤكدة كما قال: «هو الحق مصدقاً». وكما تقول: (أنا زيد معروفاً). فتكون «نزاعة» منصوبة مؤكدة لأمر النار. ومن رفعها جعلها بدلاً من «لظى» على تقدير: كلا إنها لظى، وكلا إنها نزاعة للشوى. كذا ذكر الفراء.

وقال الزجاج: والرفع أن تكون «لظى» و «نزاعة» خبرا عن الهاء والألف كما تقول: إنه حلو حامض. تريد أنه قد جمع الطعمين، وتكون الهاء والألف إضماراً للقصة. المعنى: أن القصة نزاعة للشوى. انظر حجة القراءات ٧٢٣ ـ ٧٢٤.

(٢) انظر تفسير الطبري ٢٩/ ٨٢.

(٣) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٦١.

سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

ثم قال تعالى ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ يعني حولك ويقال عندك ناظرين والمهطع المقبل ببصره على الشيء كانوا ينظرون إليه نظرة عداوة يعني كفار مكة وإنما قولهم مهطعين نصباً على الحال ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ يعني حلقاً حلقاً جلوساً لا يدنون منه فينتفعون بمجلسه، ويقال: عزين يعني متفرقين، وروى تميم[١] عن طرفه عن جابر بن سمرة قال: دخل علينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن جلوس متفرقين فقال مالي أراكم[٢] عزين يعني متفرقين[٣] ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ يعني يتمنى كل واحد منهم أن يدخل الجنة كما يدخل المسلمون قال الله تعالى ﴿كَلَّا﴾ يعني لا يدخلون ما داموا على كفرهم ثم قال ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ يعني من النطفة وقال الزجاج معناه أنهم خلقوا من تراب ثم من نطفة فأي شيء لهم يدخلون به الجنة ويقال إنا خلقناهم مما يعلمون فبماذا يتكبرون ويتجبرون. ثم قال عز وجل ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ﴾ يعني أقسم برب المشارق، وقال في آية (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) وإنما أراد به الناحية التي تطلع الشمس والناحية التي تغرب الشمس منها وقال في أية أخرى (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ) يعني مشرق الشتاء ومشرق الصيف ورب المغربين لذلك وقال في هذا الموضع رب المشارق يعني مشرق كل يوم وهي ثمانون ومائة مشرق في الشتاء ومشرق مثلها في الصيف ﴿وَالْمَغَارِبِ﴾ يعني مغرب كل يوم ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ﴾ يعني على أن نهلكهم ونخلق خلقاً خيراً منهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ يعني عاجزين ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يعني اتركهم وأعرض عنهم ﴿يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ يعني حتى يخوضوا، ويلعبوا في الباطل ويستهزئوا ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾ يعني يعاينوا يومهم ﴿الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً﴾ يعني في اليوم الذي يوعدون وفي اليوم الذي يخرجون من القبور سراعاً يعني يسرعون إلى الصوت ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ يعني كأنهم إلى علم منصوب يمضون قرأ بن عامر وعاصم في رواية حفص إلى نصب بضم النون والصاد يعني أصناماً لهم كقوله وما ذبح على النصب والباقون إلى نصب[٤] يعني إلى علم يستبقون وقال أهل اللغة الإيفاض الإسراع ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ يعني ذليلة أبصارهم ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يعني تغشاهم مذلة ثم قال ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ يعني يوعدون فيه العذاب. وهم له منكرون وصلى الله على سيدنا محمد.

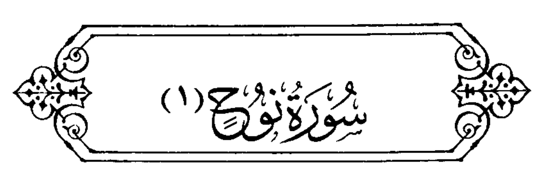
---

(١) تميم بن طرفة الطائي ثقة. التقريب ١/١١٣.

(٢) أخرجه أبو داود ٤/٢٥٨ كتاب الأدب (٤٨٢٣) وأحمد في المسند ٥/٩٢ ـ ٩٣، والبيهقي في السنن ٣/٢٣٤ والطبراني في الكبير ٢/٢٢٢، ٢٢٤.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٦٧ وعزاه لعبد بن حميد ومسلم وأبي داود والنسائي وابن مردويه.

(٤) من قرأ بضم النون والصاد جعلاه جمع نِصاب، كما يقول: حمار وحُمُر، ونصاب ونُصُب. والنصب: حجارة كانت لهم يعبدونها وهي الأوثان. فقوله «كأنهما إلى نصب» أي: إلى أصنام لهم. وحجتهما قوله: «وما ذبح على النصب» قال الفراء: النصب واحد وجمعه أنصاب. قال الله تعالى: «والأنصاب والأزلام» فهو واحد الأنصاب. قال الحسن: كأنهم يبدرون إلى نصبهم: أيهم يستلمها. وقال أبو عبيدة: من قرأ بضمتين جعله جمع (نَصْب) كرهْن ورُهُن وسقف وسُقُف. والنَّصْب: العلم يعني الصنم الذي نصبوه. حجة القراءات ٧٢٤ ـ ٧٢٥.



وهي ثمان وعشرون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ**﴾ يعني: جعله الله رسولاً إلى قومه ﴿**أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ**﴾ يعني أن خوف قومك بالنار لكن يؤمنوا بالله ﴿**مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**﴾ يعني: الطوفان والغرق ﴿**قَالَ**﴾ لهم نوح عليه السلام ﴿**يَا قَوْمِ إِنّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾ يعني قال نوح لقومه أنبئكم بلغة تعرفونها ﴿**إِنِ اعْبُدُوا اللَّهَ**﴾ يعني أنذركم وأقول لكم اعبدوا الله يعني وحدوا الله ﴿**واتَّقُوهُ**﴾ يعني واخشوه واجتنبوا معاصيه ﴿**وأَطِيعُونِ**﴾ فيما آمركم ﴿**يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ**﴾ يعني ذنوبكم ومن صلة ﴿**وَيُؤَخِرْكُمْ**﴾ يعني يؤجلكم ﴿**إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾ يعني إلى منتهى آجالكم ﴿**إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ**﴾ يعني إن عذاب الله ﴿**إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَرُ**﴾ يعني لا يستطيع أن يؤخره أحد ﴿**لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ يعني لو كان لكم علم تنتفعون به قوله تعالى ﴿**قَالَ رَبِّ**﴾ يعني دعا نوح بعد ما كذبوه في طول المدة قال رب يعني يا رب ﴿**إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي**﴾ إلى التوحيد ﴿**لَيْلاً وَنَهاراً**﴾ يعني في كل وقت سراً وعلانية ﴿**فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاّ فِراراً**﴾ يعني إلى التوحيد تباعداً من الإيمان قال عز وجل ﴿**وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ**﴾ إلى التوحيد ﴿**لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ في**

---

(١) أعظم مقاصد السورة ضرب المثل للمشركين بقوم نوح وهم أول المشركين الذين سلط عليهم عقاب في الدنيا، وهو أعظم عقاب أعني الطوفان. وفي ذلك تمثيل لحال النبي - صلى الله عليه وسلم - مع قومه بحالهم.

وفيها تفصيل كثير من دعوة نوح عليه السلام إلى توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام وإنذاره قومه بعذاب أليم واستدلاله لهم ببدائع صنع الله تعالى وتذكيرهم بيوم البعث. وتصميم قومه على عصيانه وعلى تصلبهم في شركهم. وتسمية الأصنام التي كانوا يعبدونها. ودعوة نوح إلى قومه بالاستئصال. وأشارت إلى الطوفان. ودعاء نوح بالمغفرة له وللمؤمنين، وبالتبار للكافرين كلهم.

وتخلل ذلك إدماج وعد المطيعين بسعة الأرزاق وإكثار النسل ونعيم الجنة. التحرير ٢٩/١٨٥ - ١٨٦.

آذَانِهِمْ﴾ يعني لا يسمعون دعائي ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ يعني غطوا رؤوسهم بثيابهم لكي لا يسمعوا كلامي ﴿وَأَصَرُّوا﴾ يعني أقاموا على الكفر والشرك ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾ يعني تكبروا عن الإيمان تكبراً. قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً﴾ يعني دعوتهم إلى الإيمان علانية من غير خفية ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ﴾ يعني صحت لهم ﴿وَأَسْرَرْتَ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾ يعني خلطت دعاءهم بالعلانية بدعائهم في السر ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ يعني توبوا وارجعوا من ذنوبكم يعني الشرك والفواحش ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ يعني غفاراً لمن تاب من الشرك ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ يعني المطر دائماً كلما احتاجوا إليه ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ يعني يعطيكم أموالاً وأولاداً ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ يعني البساتين ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ يعني في الجنات قوله تعالى ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ مالكم لا تخافون لله عظمة في التوحيد وهو قول الكلبي ومقاتل، وقال قتادة مالكم لا ترجون لله عاقبة، ويقال مالكم لا ترجون عاقبة الإيمان يعني في الجنة، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال مالكم لا تعلمون حق عظمته[1]، وقال مجاهد مالكم لا ترجون لله عظمة ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ يعني خلقاً بعد خلق، وحالاً بعد حال نطفة ثم علقة ثم مضغة[2]. فمعناه مالكم لا توحدون وقد خلقكم يعني ضروباً، ويقال أراد به اختلاف الأخلاق والمنطق، ويقال أراد به المناظرة.

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

ثم وعظهم ليعتبروا فقال عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ﴾ يعني ألم تنظروا فتعتبروا كيف خلق الله تعالى ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً﴾ يعني مطبقاً بعضها فوق بعض ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً﴾ يعني ضياءاً لبني آدم وإنما قال فيهن أراد به سماء الدنيا لأنها إحداهن ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ يعني نوراً للخلق، ويقال وجعل القمر فيهن نوراً يعني في جميع السموات لأن إحداهن مضيء لأهل السموات وظهره لأهل الأرض، ويقال وجعل القمر فيهن نوراً يعني معهن نوراً ثم قال عز وجل ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً﴾ يعني خلقكم في الأرض خلقاً، ويقال يعني خلقكم من الأرض وهو آدم عليه السلام وأنتم من ذريته ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ يعني بعد الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٦٨ وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ في العظمة.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٥٨ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد والبيهقي.

إِخْرَاجاً يعني يخرجكم من الأرض يوم القيامة قوله تعالى ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً**﴾ يعني فراشاً ﴿**لِتَسْلُكُوا مِنْهَا**﴾ يعني فتمضوا فيها وتأخذوا فيها ﴿**سُبُلاً فِجَاجاً**﴾ يعني طرقاً بين الجبال والرمال، ويقال طرقاً واسعة قوله تعالى ﴿**قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي**﴾ فيما أمرتهم من توحيد الله تعالى ﴿**وَاتَّبَعُوا**﴾ يعني أطاعوا ﴿**مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ**﴾ يعني أطاعوا من لم يزده ماله يعني كثرة أمواله ﴿**وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً**﴾ أي خسراناً في الآخرة ﴿**وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً**﴾ يعني مكراً عظيماً، ويقال مكروا مكراً كبيراً ويعني قالوا كلمة الشرك والكبير والكبار بمعنى واحد ﴿**وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ**﴾ يعني قال بعضهم لبعض ويقال قال الرؤساء للسفلة لا تذرن يعني لا تتركوا عبادة آلهتكم ﴿**وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً**﴾ فهذه أسماء الأصنام التي كانوا يعبدونها يعني لا تتركوا عبادة هذه الأصنام، قرأ نافع وداً بضم الواو والباقون بالنصب[1] ومعناهما واحد وهو اسم الصنم، وقال قتادة: هذه الآلهة كان يعبدها قوم نوح ثم عبدها العرب بعد ذلك وقال القتبي الود صنم، ومنه كانت العرب تسمي عبد ود وكذلك تسمى عبد يغوث.

ثم قال: ﴿**وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً**﴾ يعني: هذه الأصنام أضلوا كثيراً من الناس يعني: ضلوا بهن كثيراً من الناس كقوله: إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كثيراً من الناس ثم قال: ﴿**وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً**﴾ يعني: خساراً وغبناً ثم قال عز وجل: ﴿**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا**﴾ (يعني: بشركهم بالله تعالى أغرقوا في الدنيا)[2] ﴿**فَأُدْخِلُوا نَاراً**﴾ في الآخرة، قال مقاتل: مما خطيئاتهم أغرقوا بخطياتهم، وقال القتبي: بما خطياتهم أغرقوا يعني من خطيئاتهم أغرقوا والميم زيادة ثم قال: ﴿**فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً**﴾ يعني: أعواناً يمنعونهم من العذاب قرأ أبو عمرو خطاياهم والباقون خطيئاتهم[3] ومعناهما واحد وهو جمع خطيئة قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً**﴾ يعني: لا تدع على ظهر الأرض من الكافرين دياراً يعني: أحداً منهم، ويقال: أصله من الدار يعني نازلاً بها، ويقال في الدار أحد، وما بها ديار، وأصله ديوار فقلبت الواو، ياء ثم شددت أدغمت الياء في الياء[4] ثم قال عز وجل: ﴿**إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ**﴾ يعني: إنك إن تتركهم ولم تهلكهم يدعوا الموحدين إلى الكفر ﴿**وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً**﴾ يعني: يكون منهم الأولاد يكفرون، ويفجرون بعد البلوغ، ويقال: يعني ولا يلدوا إلا أن يكونوا فجاراً كفاراً، وهذا كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من وعظ[5] بغيره ثم قال عز وجل: ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً**﴾ يعني: سفينتي وديني وقال الكلبي، ولمن دخل

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٢٦.

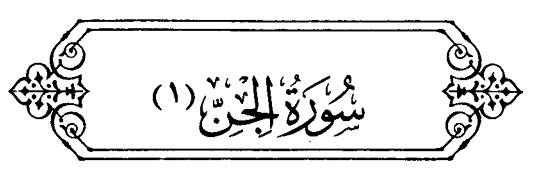
(٢) سقط في ظ

(٣) المصدر السابق.

(٤) سقط في ظ.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ١٩٤/٣ والخطيب في التاريخ ٣٥٠/٥ وذكره في كشف الخفا ٥٤٨/١ وقال رواه مسلم عن ابن مسعود وكذا العسكري في الأمثال والقضاعي عن ابن مسعود مرفوعاً وأخرجه البيهقي في المدخل والبزار في مسنده عن أبي هريرة مرفوعاً، لكن بلفظ السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه، وسنده صحيح، وأخرجه الطبراني في الصغير مقتصراً على السعيد من سعد في بطن أمه، وروي من وجهين آخرين فيهما ضعيفان، ولذا قال ابن الجوزي في أمثاله إنه لا يثبت كذلك مرفوعاً، لكن فيه أن الحافظ ابن حجر قال إنه صحيح، وسبقه لذلك شيخه العراقي هذا وفي الدر للسيوطي ما نصه السعيد من وعظ بغيره، ورواه الرامهرمزي في الأمثال من حديث زيد بن خالد وعقبة بن عامر، قال ابن الجوزي لا يثبت، قال حديث عقبة طويل جداً، أخرجه الديلمي في مسنده، وقد ورد هذا اللفظ عن ابن مسعود موقوفاً أخرجه البيهقي في المدخل انتهى، وقال في اللآلىء قال أبو الفرج بن الجوزي في أمثاله رويناه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يثبت. كشف الخفا ٥٤٨/١.

بيتي مؤمناً يعني: مسجدي ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾ يعني: لا تزد الكافرين إلا هلاكاً كقوله تبرناهم تتبيراً وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه كان إذا قرأ القرآن في الليل فمر بآية فيقول لي يا عكرمة ذكرني عند هذه الآية غداً فقرأ ذات ليلة هذه الآية فقال يا عكرمة ذكرني غداً فذكرته ذلك فقال إن نوحاً دعا بهلاك الكافرين، ودعا للمؤمنين بالمغفرة وقد استجيب دعاؤه في المؤمنين فيغفر الله تعالى للمؤمنين والمؤمنات بدعائه وبهلاك الكافرين فأهلكوا، وروي عن بعض أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال نجاة المؤمنين في ثلاثة أشياء بدعاء نوح عليه السلام، وبدعاء إسحاق عليه السلام وبشفاعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعني: للمؤمنين والله أعلم.



سورة الجن (١)

وهي ثمان وعشرون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿**قُلْ أُوْحِيَ إِلَيّ**﴾ يعني: قل يا محمد أوحى الله إلي وأخبرني الله تعالى في القرآن ﴿**أَنَّه اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ**﴾ وهم تسعة من أهل نصيبين من أهل اليمن من أشرافهم والنفر ما بين الثلاثة إلى العشرة، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال انطلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين السماء أي بين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فقالوا ما هذا إلا لشيء حدث فضربوا مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء فوجدوا النفر الذين خرجوا نحو تهامة ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنخلة وهو يصلي مع أصحابه صلاة الفجر فاستمعوا منه فقالوا هذا والله الذي حال بيننا وبين خبر السماء فرجعوا إلى قومهم ﴿**فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ**﴾[٢] فأنزل الله تعالى (قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن) يعني: طائفة وجماعة من الجن فقالوا إنا سمعنا يعني: قالوا بعدما رجعوا إلى قومهم إنا سمعنا قرآناً عجباً يعني عزيزاً شريفاً كريماً، ويقال عزيزاً لا يوجد مثله، يهدي إلى الرشد يعني: يدعو إلى الهدى وهو الإسلام ويقال إلى الصواب والتوحيد والأمر والنهي، ويقال يدل على الحق ﴿**فَآمَنَّا بِهِ**﴾ يعني: صدقنا بالقرآن، ويقال آمنا بالله تعالى. ﴿**وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً**﴾ يعني: إبليس يعني: لن نشرك بعبادته أحداً من خلقه ثم قال عز وجل: ﴿**وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا**﴾ أي: ارتفع عظمة ربنا ويقال ارتفع ذكره، ويقال ارتفع ملكه

---

(١) من أغراض هذه السورة إثبات كرامة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن دعوته بلغت إلى جنس الجن وإفهامهم فهمَ معانٍ من القرآن الذي استمعوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفهم ما يدعو إليه من التوحيد والهدى وعلمهم بعظمة الله وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد. وإبطال عبادة ما يعبد من الجن. وإبطال الكهانة وبلوغ علم الغيب إلى غير الرسل الذين يطلعهم الله على ما يشاء. وإثبات أن لله خلقا يدعون الجن وأنهم أصناف منهم الصالحون ومنهم دون ذلك بمراتب وتضليل الذين يتقولون على الله ما لم يقله، والذين يعبدون الجن، والذين ينكرون البعث، وأن الجن لا يفلتون من سلطان الله تعالى.

وتعجبهم من الإصابة بهجوم الشهب المانعة من استراق السمع، وفي المراد من هذا المنع والتخلص من ذلك إلى ما أوحى الله إلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في شأن القحط الذي أصاب المشركين لشركهم ولمنعهم مساجد الله وإنذارهم بأنهم سيندمون على تألبهم على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومحاولاتهم منه العدول عن الطعن في دينهم. التحرير ٢٩/٢١٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٧٠ وعزاه لأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن المنذر والحاكم والطبراني وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي معاً في الدلائل.

وسلطانه ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً﴾ يعني: لم يتخذ زوجة ولا ولداً كما زعم الكفار، واتفق القراء في قوله ـ أنه استمع نفر على نصب الألف لأن معناه قل أوحي إلي بأنه استمع واتفقوا في قوله إنا سمعنا على الكسر لأنه على معنى الابتداء واختلفوا فيما سوى ذلك ـ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر كلها بالنصب بناء على قوله (أنه استمع) إلا في حرفين ـ أحدهما ـ فإن له نهار جهنم بالكسر ـ والأخرى قوله ـ فإنه يسلك من بين يديه بالكسر على معنى الابتداء، وقرأ أبو عمرو وابن كثير كلها بالكسر[1] إلا في أربعة أحرف (قل أوحي إلى أنه استمع)، (وأن لو استقاموا) (وأن المساجد)، (وأنه لما قام عبد الله يدعوه)، قرأ عاصم في رواية أبي بكر ونافع في إحدى الروايتين هكذا إلا في قوله وأنه لما قام عبد الله وإنما اختاروا الكسر لهذه الأحرف بناء على قوله إنا سمعنا، وقال أبو عبيد: ما كان من قول الجن فهو كسر ومعناه وقالوا إنه تعالى، وقالوا أنه كان يقول وما كان محمولاً على قوله أوحى فهو نصب على معنى أوحي إلي أنه ثم قال ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً﴾ يعني: جاهلنا يعني إبليس لعنه الله، ويقال وإنه كان يقول سفيهنا يعني كفرة الجن على الله شططاً يعني كذباً وجوراً من المقال.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وأَنَّا ظَنَنَّا﴾ يعني: حسبنا ﴿أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ يعني: نتوهم أن أحداً لا يكذب على الله وإلى ها هنا حكاية كلام الجن، يقول الله تعالى ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ﴾ يعني: في الجاهلية ﴿يَعوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنّ﴾ وذلك أن الرجل إذا نزل في فضاء من الأرض كان يقول أعوذ بسيد هذا الوادي فيكون في أمانهم تلك الليلة ﴿فَزَادُوهُمْ رَهقاً﴾ يعني: زادوا للجن عظمة وتكبروا ويقولن بلغ من سُؤْدُدنا أن الجن والأنس يطلبون منا الأمان ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ يعني: كفار الجن حسبوا كما حسبتم يا أهل مكة ﴿أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً﴾ يعني: بعد الموت، يعني: إنهم كانوا غير مؤمنين كما أنكم لا تؤمنون، ويقال إنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً يعني رسولاً فقد أرسل محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم رجع إلى كلام الجن فقال

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٢٧.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ يعني: صعدنا وأتينا السماء لاستراق السمع ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً﴾ يعني: حفاظاً أقوياء من الملائكة ﴿وَشُهُباً﴾ يعني: رُمينا نجماً متوقداً ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ يعني: كنا نقعد فيما مضى للاستماع من الملائكة ما يقولون فيما بينهم من الكوائن ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ يعني: نجماً مضيئاً والرصد الذي أرصد للرجم يعني: النجم، وروى عبد الرزاق عن معمر قال قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية قال نعم قلت أفرأيت قوله (فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً) قال غلظ وشدد أمرها حين بُعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال الجن بعضهم لبعض ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ﴾ يعني: يبعثه فلم يؤمنوا فيهلكوا ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ يعني: خيراً وصواباً فيؤمنوا ويهتدوا ويقال لا ندري أخيراً أريد بأهل الأرض أو الشر حين حرست السماء ورُمينا بالنجوم وَمُنعنا السمع، ويقال: أريد عذاباً بمن في الأرض بإرسال الرسول بالتكذيب له أو أراد بهم ربهم خيراً ببيان الرسول لهم هدى وبياناً ثم قال عز وجل: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ يعني: الموحدين والمسلمين ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ يعني: ليسوا بموحدين ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾ يعني: فينا أهواء مختلفة وملل شتى، وقال القتبي يعني: فرقاً مختلفة وكل فرقة قدة مثل القطعة في التقدير والطرائق جمع الطريق قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ يعني: علمنا وأيقنا ﴿أَن لَن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: لا يفوت أحد من الله تعالى: ﴿وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً﴾ لا يقدر الهرب منه قال الله عز وجل: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى﴾ يعني: القرآن يقرؤه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ يعني: صدقنا بالقرآن، ويقال بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ويقال صدقنا بالله تعالى ﴿فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ﴾ قال بعضهم هذا من كلام الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمن يصدق بوحدانية الله تعالى ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْساً﴾ يعني: نقصاناً من ثواب عمله ﴿وَلَا رَهَقاً﴾ يعني: ذهاب عمله وهذا كقوله تعالى (فلا يخاف ظلماً ولا هضماً)، ويقال هذا كلام الجن بعضهم لبعض فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً والرهق الظلم أن يجعل ثواب عمله لغيره والبخس والنقصان من ثواب عمله، قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ يعني: المصدقين بوحدانية الله تعالى: ﴿وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ يعني: العادلين عن طريق الهدى ويقال القاسطون يعني الجائرين يقال قسط الرجل إذا جار وأقسط إذا عدل[1] كقوله تعالى: (إن الله يحب المقسطين) ثم قال ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ يعني: أقر بوحدانية الله تعالى وأخلص بالتوحيد له ﴿فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً﴾ يعني: نوراً، وتمنوا وقصدوا ثواباً ثم قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾ يعني: العادلين عن الطريق الجائرين ﴿فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ يعني: وقوداً، قال الله تعالى ﴿وأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ قال مقاتل: لو استقاموا على طريقة الهدى يعني أهل مكة ﴿لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾ يعني: كثيراً من السماء كقوله (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) ثم قال عز وجل: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ يعني: لنبتليهم به كقوله (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) الآية، وقال قتادة (وأن لو استقاموا على الطريقة) يعني: آمنوا لوسّع الله عليهم[1] الرزق، وقال القتبي هذا مثل ضربه الله تعالى للزيادة في أموالهم ومواشيهم كقوله (ولولا أن يكون الناس) ثم قال: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ يعني: توحيد ربه ويقال: يكفر بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾ يعني يكلفه الصعود على جبل أملس، وقال مقاتل (عذاباً صعداً) أي شدة العذاب وقال القتبي: يعني: شاقاً وقال قتادة صعوداً من عذاب الله تعالى لا راحة فيه[2].

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٧٤ وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٧٤ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.

وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

ثم قال عز وجل: **﴿وَأَنَّ المَسَاجِدَ لله﴾** قال الحسن يعني الصلاة لله تعالى، وقال قتادة: كانت اليهود والنصارى يدخلون كنائسهم ويشركون بالله تعالى فأمر الله تعالى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يخلص الدعوة له إذا دخل[1] المسجد وقال القتبي: قوله (وأن المساجد لله) يعني: يعني السجود لله ويقال: هي المساجد بعينها يعني: بنيت المساجد ليعبدوا الله تعالى فيها **﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ الله أَحَداً﴾** يعني: لا تعبدوا أحداً غير الله تعالى، قرأ حمزة والكسائي وعاصم (يسلكه) بالياء والباقون بالنون[2] وكلاهما يرجع إلى معنى واحد يقال سلكت الخيط في الإبرة وأسلكته إذا أدخلته قوله عز وجل: **﴿وأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله﴾** يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما قام إلى الصلاة ببطن نخلة (يدعوه) يعني: يصلي لله تعالى ويقرأ كتابه **﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾** يعني: يركب بعضهم بعضاً ويقع بعضهم على بعض ثم قال عز وجل: **﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي﴾** قرأ حمزة وعاصم قل إنما أدعو ربي على معنى الأمر يعني: قل يا محمد إنما أدعو ربي يعني أعبده **﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً﴾**، قرأ الباقون على معنى الخبر عنهم قرأ ابن عامر في رواية هشام عليه لبداً بضم اللام والباقون بكسرها ومعناهما واحد وقال القتبي يكونون عليه لبداً[3] أي يتلبدون به رغبة في استماع القرآن، يقال لبدت به أي لصقت به ومعناه كادوا أن يلصقوا به قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَراً وَلَا رَشَداً﴾** يعني: لا أقدر لكم خذلاناً ولا هداية.

قوله تعالى **﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَداً﴾** يعني لن يمنعني من عذاب الله أحد إن عصيته **﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾** يعني ملجأ ولا مفراً **﴿إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾** يعني فذلك الذي يجيرني من عذاب الله. ويقال في الآية تقديم ومعناه قل لا أملك لكم ضراً إلا أن أبلغكم رسالات ربي يعني ليس بيدي شيء من الضر والنفع والهداية إلا بتبليغ الرسالة **﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾** في التوحيد ولم يؤمن به، **﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾** أي مقيمين في النار أبداً يعني دائماً. وقد تم الكلام ثم قال عز وجل **﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾** من العذاب يعني لما رأوا العذاب، ويقال معناه أمهلهم حتى إذا رأوا ما يوعدون في الدنيا وفي الآخرة **﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ أَضْعَفُ نَاصِراً﴾** يعني مانعاً من العذاب **﴿وَأَقَلُّ عَدَداً﴾** يعني رجالاً فقالوا متى هذا العذاب الذي تعدنا يا محمد فنزل

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٧٤ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

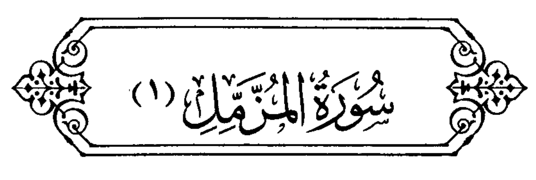
(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٦٦.

(٣) انظر حجة القراءات ٧٢٩.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ يعني ما أدري أقريب ما توعدون من العذاب ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً﴾ يعني أجلاً ينتهي إليه قوله تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ يعني هو عالم الغيب ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ يعني هو الذي يعلم وقت نزول العذاب ولا يطلع على غيبه أحداً من خلقه قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ يعني إلا من اختار لرسالته فإنه يطلعه على ما يشاء من الغيب ليكون دلالة لنبوته ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ يعني من الملائكة بين يدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن خلفه ليحفظوه من الشياطين ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يعني ليعلموا الرسول أن الذي أنزل إليه من رسالات الله وذلك أن الملائكة لو لم يرصدوهم لما يستمعوا حين يقرأ جبريل ثم يفشون ذلك قبل أن يخبرهم الرسول فلا يكون بينهم وبين الأنبياء فرق ولا يكون للأنبياء دلالة ثم لا يقبل قولهم. وروى أسباط عن السدي في قوله إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً إذا بعث إليه تعالى نبياً جعل معه حفظة من الملائكة فإذا جاء الوحي من الله تعالى قالت الملائكة هذا من الله فإذا جاءه الشيطان قالت الحفظة هذا من الشيطان ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم يعني ليعلم الجن أن الرسل قد أبلغوا الرسالة لأنهم تمازحوا من استراق السمع وقال سعيد بن جبير لم يجيء جبريل قط بالقرآن إلا ومعه أربعة من الحفظة[1] ثم قال عز وجل ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ يعني الله تعالى عالم بما عند الأنبياء ويقال عالم بهم ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ يعني عدد الملائكة وعلم نزول العذاب ووقته وغير ذلك والله أعلم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٧٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في العظمة.



وهي عشرون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾

قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ**﴾ يعني الملتف في ثيابه وأصله في اللغة[٢] المتزمل وهو الذي يتزمل في الثياب وكل من التف بثوبه فهو متزمل وقد تزمل فأدغمت التاء في الزاء وشددت الزاء فقيل مزمل يعني النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿**قُمِ اللَّيْلَ**﴾[١] يعني قم الليل للصلاة ﴿**إِلَّا قَلِيلًا**﴾ من الليل ﴿**نِّصْفَهُ**﴾ يعني قم نصفه فاكتفى بذكر

---

(١) اشتملت هذه السورة على الأمر بقيام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ غالب الليل والثناء على طائفة من المؤمنين حملوا أنفسهم على قيام الليل. وعلى تثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتحمل إبلاغ الوحي. والأمر بإدامة إقامة الصلاة وأداء الزكاة وإعطاء الصدقات. وأمره بالتمحض للقيام بما أمره الله من التبليغ وبأن يتوكل عليه. وأمره بالإعراض عن تكذيب المشركين. وتكفل الله له بالنصر عليهم وأن جزاءهم بيد الله. والوعيد لهم بعذاب الآخرة. ووعظهم مما حل بقوم فرعون لما كذبوا رسول الله إليهم. وذكر يوم القيامة ووصف أهواله.

ونسخ قيام معظم الليل بالاكتفاء بقيام بعضه وعياً للأعذار الملازمة. والوعد بالجزاء العظيم على أفعال الخيرات. والمبادرة بالتوبة وأدمج في ذلك أدب قراءة القرآن وتدبره. وأن أعمال النهار لا يغني عنها قيام الليل. وفي هذه السورة مواضع عويصة وأساليب غامضة فعليك بتدبرها. التحرير ٢٩/٢٥٥.

(٢) انظر لسان العرب ٣/١٨٦٤.

(٣) اختلف العلماء في الناسخ للأمر بقيام الليل، فعن ابن عباس وعائشة أن الناسخ للأمر بقيام الليل قوله تعالى: ﴿**إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل**﴾ إلى آخر السورة. وقيل قوله تعالى: ﴿**علم أن لن تحصوه**﴾ وعن ابن عباس أيضاً: هو منسوخ بقوله تعالى: ﴿**علم أن سيكون منكم مرضى**﴾ وعن عائشة أيضاً والشافعي ومقاتل وابن كيسان: هو منسوخ بالصلوات الخمس، وقيل الناسخ لذلك قوله تعالى ﴿**فاقرؤا ما تيسر منه**﴾ قال أبو عبد الرحمن السلمي لما نزلت: ﴿**يا أيها المزمل**﴾ قاموا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم ثم نزل قوله تعالى ما تيسر منه قال بعض العلماء: هو فرض نُسخ به فرض كان على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة لفضله كما قال تعالى: ﴿**ومن الليل فتهجد به نافلة لك**﴾.

قلت: القول الأول يعم جميع هذه الأقوال. وقد قال تعالى: ﴿**وأقيموا الصلاة**﴾ فدخل فيها قول من قال إن الناسخ الصلوات الخمس. وقد ذهب الحسن وابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو على قدر حلب شاة. وعن الحسن أيضاً أنه قال: في هذه الآية: الحمد لله تطوع بعد الفريضة وهو الصحيح إن شاء الله تعالى، لما جاء في قيامه من الترغيب والفضل في القرآن والسنة. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أجعل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حصيراً يصلي عليه من الليل، فتسامع الناس به، فلما رأى جماعتهم كره ذلك وخشي أن يكتب عليهم قيام الليل، فدخل البيت كالمغضب، فجعلوا يتنحنحون ويتفلون فخرج إليهم فقال: (أيها الناس اكفلوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل من الثواب، حتى تملوا من العمل، وإن خير العمل أدومه وإن قل) فنزلت: ﴿**يا أيها المزمل**﴾ فكتب عليهم، فأنزل بمنزلة الفريضة حتى إن كان أحدهم ليربط الحبل فيتعلق به، =

الفعل الأول من الثاني لأنه دليل عليه ﴿أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴾ يعني أو انقص من النصف قليلاً ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ يعني زد على النصف يعني ما بين الثلث إلى الثلثين ثم قال ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ يعني توسل فيه وقال الحسن بينه إذا قرأته فلما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فنزلت الرخصة[١] في آخر السورة، وقال مقاتل هذا قبل أن يفرض الصلوات الخمس، وقال الضحاك (ورتل القرآن ترتيلاً) قال اقرأه حرفاً حرفاً وقال مجاهد أحب الناس إلى الله تعالى في القراءة أعقلهم عنه قوله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ يعني سننزل عليك القرآن بالأمر والنهي يعني يثقل لما فيه من الأمر والنهي والحدود وكان هذا في أول الأمر ثم سهل الله تعالى الأمر في قيام الليل، وقال قتادة في قوله (إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً) قال يثقل الله فرائضه وحدوده[٢]. ويقال يعني قيام الليل ثقيل على المجرمين، ويقال ثقيل على من خالفه، ويقال ثقيل في الميزان خفيف على اللسان، ويقال نزوله ثقيل كما قال «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل» الآية وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت حرانها[٣] وما تستطيع أن تتحرك[٤] حتى يسري[٥] عنه أي يذهب عنه ثم قال ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً﴾ يعني ساعات الليل أشد موافقة للقراءة وأسمع [٦]، ويقال هي أشد نشاطاً من النهار إذا كان الرجل محتسباً، ويقال هي أوفى لقلوبهم ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ وأبين وأصوب وأثبت قراءة، وقال القتبي ناشئة الليل يعني ساعاته وهي مأخوذة من نشأت أي ابتداء شيئاً بعد شيء فكأنه قال إن ساعات الليل الناشئة فاكتفى بالوصف من الاسم قوله تعالى أشد وطئاً يعني أثقل على المصلي من ساعات النهار فأخبر أن الثواب على قدر الشدة وأقوم قيلاً يعني أخلص للقول وأسمع له لأن الليل تهدأ فيه الأصوات وتنقطع فيه الحركات قرأ أبو عمرو وابن عامر أشد وطأ بكسر الواو ومد الألف والباقون بنصب الواو بغير مد فمن [٧] قرأ بالكسر يعني أشد وطأ أي موافقة لقلة السمع يعني أن القرآن في الليل يتواطأ فيه قلب المصلي ولسانه وسمعه على التفهم يعني أبلغ في القيام وأبين في القول

= فمكثوا ثمانية أشهر، فرحمهم الله وأنزل: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل﴾. فردهم الله إلى الفريضة، ووضع عنهم قيام الليل إلا ما تطوعوا به. انظر تفسير القرطبي ١٩/٢٥.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٧٧ وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٧٧ ـ ٢٧٨ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن نصر.

(٣) حَرُونٌ وهي التي إذا اسْتُدِرَّ جَرْيها وَقَفَتْ وإنما ذلك في ذوات الحوافر خاصة. انظر لسان العرب ٢/٨٥١.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٧٨ وعزاه لأحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن نصر والحاكم وصححه.

(٥) في أ [ويذهب عنه].

(٦) سقط في ظ.

(٧) من قرأ بكسر الواو فهو مصدر فاعلت مفاعلة وفعالا تقول واطأت فلانة على كذا مواطاة ووطاً أراد ـ والله أعلم ـ أن القراءة في الليل يواطىء فيها قلب المصلي لسانه وسمعه على التفهم والأداء والاستماع أكثر مما يتوطأ عليه بالنهار، لأن الليل تنقطع فيه الأشغال وتهدأ فيه الأصوات والحركات عن ابن عباس: «وطأ» قال: (يواطىء السمع القلب) وعن يونس (أشد وطاء) قال: (ملائمة وموافقة، ومن ذلك: «ليواطئوا» أي: ليوافقوا).

ومن قرأ بالفتح بمعنى أثقل على المصلي من ساعات النهار وهو من قولهم (اشتدت على القوم وطأة سلطانهم) أي: ثقل عليهم ما يلزمهم ويأخذه منهم. وفي الحديث: (اللهم اشدد وطأتك على مضر) قال الزجاج: (ويجوز أن يكون ﴿أشد وطأ﴾: أغلظ وأشد على الإنسان من القيام بالنهار، لأن الليل جعل للنوم والسكون) وقيل: «أشد وطأ» أي: أبلغ في الثواب لأن كل مجتهد ثوابه على قدر اجتهاده. قال آخرون منهم الفراء: ﴿هي أشد وطئاً﴾ أي: هي أثبت قياماً. قال قتادة: أشد وطأ أي: أثبت في الخير وأثبت للقلب والحفظ. حجة القراءات ٧٣٠ ـ ٧٣١.

ويقال أغلظ على اللسان. قوله تعالى ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ يعني فراغاً طويلاً بقضاء حوائجك فيه ففرغ نفسك لصلاة الليل، وقال القتبي سبحاً أي تصرفاً إقبالاً وإدباراً بحوائجك وأشغالك قوله عز وجل ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ يعني اذكر توحيد ربك ويقال فاذكر ربك. ويقال صل لربك ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ يعني أخلص إليه إخلاصاً في دعائك بعبادتك[1] وهو قول مجاهد وقتادة ويقال وتبتل إليه تبتيلاً يعني انقطع إليه وأصل التبتل القطع قيل لمريم العذراء البتول لأنها انقطعت إلى الله تعالى في العبادة.

رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

ثم قال عز وجل ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ قرأ حمزة وابن عامر والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر رب المشرق بالكسر والباقون رب بالضم[2] فمن قرأ بالكسر وتبعه قوله وأذكر اسم ربك رب المشرق والمغرب ومن قرأ بالضم فهو على الابتداء ويقال معناه هو رب المشرق والمغرب. ثم قال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقد ذكرناه ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ يعني ولياً وحافظاً وناصراً وكفيلاً ثم قال عز وجل ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ يعني على ما يقولون من التكذيب والإذاء ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾ يعني اعتزلهم اعتزالاً حصناً بلا جزع ولا فحش ثم قال ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ هذا كلام على ما جرت به عادات الناس لأن الله تعالى لا يحول بينه وبين إرادته أحد ولكن معناه فوض أمورهم إليَّ يعني أمور المكذبين ﴿أُوْلِي النَّعْمَةِ﴾ يعني ذا المال والغنى ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ يعني أجلهم يسيراً لأن الدنيا كلها قليل يعني إلى قوم القيامة ثم بين ما لهم من العقوبة يوم القيامة فقال عز وجل ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً﴾ يعني قيوداً في الآخرة، ويقال عقوبة من ألوان العذاب ﴿وَجَحِيماً﴾ ما عظم من النار ﴿وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً﴾ يعني ذا شوك مستمسك في الحلق لا يدخل ولا يخرج فيبقى في الحلق ومع ذلك لهم عذاب أليم قول الله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ﴾ يوم تتحرك وتتزلزل صار اليوم منصوباً لنزع الخافض يعني هذه العقوبة في يوم ترجف الأرض ﴿وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾ يعني صارت الجبال رملاً سائلاً وهو كقوله فكانت هباءً منبثاً ثم قال ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ﴾ يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشهد عليكم بتبليغ الرسالة ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ يعني موسى بن عمران ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ يعني كذبه ولم يقبل قوله ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾ يعني عاقبناه عقوبة شديدة وهو الغرق فهذا تهديد لهم يعني إنكم إن كذبتموه فهو قادر على

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٧٨ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن نصر وابن جرير وابن المنذر.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٦٩.

عقوبتكم قوله عز وجل ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ﴾ يعني توجدون في الآخرة إن كفرتم في الدنيا، ويقال فيه تقديم ومعناه إن كفرتم في الدنيا كيف تحذرون وتنجون. ﴿يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً﴾ يعني يوم القيامة من هيبته يشيب الصبيان وهذا على وجه المثل لأن يوم القيامة لا يكون فيه ولدان ولكن معناه أن هيبة ذلك اليوم بحال لو كان هناك صبي يشيب رأسه من الهيبة ويقال هذا وقت الفزع قبل أن ينفخ في الصور نفخة الصعق ثم قال عز وجل ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ يعني انشقت السماء من هيبة الرحمن ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ يعني كائناً في البعث ثم قال ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ يعني هذه الصورة موعظة ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ يعني من أراد أن يؤمن ويتخذ بذلك التوحيد إلى ربه مرجعاً فليفعل وقال أهل اللغة في قوله السماء منفطر به ولم يقل منفطرة به فالتذكير على وجهين: أحدهما: أنه انصرف إلى المعنى ومعنى السماء السقف كقوله وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً، والثاني: أن معناه السماء ذات الانفطار كما يقال امرأة مرضع أي ذات رضاع على وجه النسب. ويقال قوله السماء منفطر به يعني فيه شيء في يوم القيامة، ويقال يعني بالله تعالى يعني من هيبته قوله تعالى إن هذه تذكرة يعني إن هذه الآيات التي ذكرت موعظة بليغة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً يعني من شاء أن يرغب فليرغب فقد أُمكن له لأنه أظهر الحجج والدلائل.

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

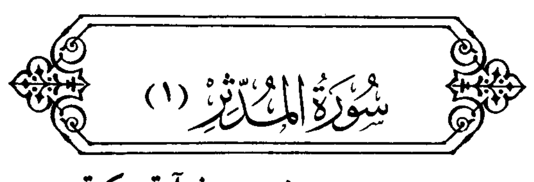
ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ قرأ حمزة الكسائي وابن كثير وعاصم ونصفه وثلثه كلاهما بالنصب والباقون بالكسر[1] فمن قرأ بالنصب فهو على تفسير الأدنى كما قال أدنى من ثلثي الليل وكان نصفه وثلثه تفسير لذلك الأدنى ومن قرأ بالكسر فمعناه أدنى من نصفه وثلثه وقال الحسن لما نزل قوله قم الليل إلا قليلاً فكان قيام الليل فريضة فقام بها المؤمنون حولاً فأجهدهم ذلك وما كلهم قام بها فأنزل الله تعالى رخصة (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى) إلى قوله (علم أن لن تحصوه) فصار تطوعاً ولا بد من قيام الليل[2]. فذلك قوله (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه) ﴿وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ يعني وجماعة من المؤمنين معك تقومون نصف الليل وثلثه ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يعني يعلم ساعات الليل والنهار ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ يعني أن لن تطيعوه ولم تقدروا أن تحفظوا ما فرض الله عليكم على الدوام ويقال معناه لن تطيقوا حفظ ساعات الليل ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني تجاوز عنكم ورفع عنكم وجوب القيام ﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ في صلاة الليل ويقال فاقرؤوا ما تيسر من القرآن في جميع الصلوات ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُم مَّرْضَى﴾ علم الله تعالى أن منكم مرضى لا يقدرون على قيام الليل ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ﴾ يعني يسافرون في الأرض ﴿يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾

(١) انظر حجة القراءات ٧٣١، إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٦٩.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٠ وعزاه لعبد بن حميد.

يعني في طلب المعيشة يطلبون الرزق من الله تعالى وفي الآية دليل أن الكسب الحلال بمنزلة الجهاد لأنه جمع مع الجهاد في سبيل الله، وروى إبراهيم عن علقمة قال ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما من جالب يجلب طعاماً من بلد إلى بلد فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله تعالى منزلة الشهيد[1] ثم قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ يعني من القرآن ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني الصلوات الخمس ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ يعني الزكاة المفروضة ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ يعني تصدقوا من أموالكم بنية خالصة من المال الحلال ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ يعني ما تعملون من عمل من الأعمال الصالحة يعني تتصدقون بنية خالصة ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني تجدوا ثوابه في الآخرة. ﴿هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾ يعني الصدقة خير من الإمساك وأعظم ثواباً من معاملتكم وتجارتكم في الدنيا، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه اتخذ له حيساً ـ يعني: تمراً بلبن فجاءه مسكين فأخذه، ودفعه إليه فقال بعضهم ما يدري هذا المسكين ما هذا فقال عمر لكن رب المسكين يدري ما هو فكأنه تأول قوله تعالى (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً) ثم قال عز وجل ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ يعني اطلبوا المغفرة لذنوبكم بالرجوع إلى الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعني غفوراً لمن تاب رحيماً بعد التوبة والله أعلم بالصواب.

---

(١) ذكر العراقي في تخريجه على الإحياء ٢/٧٣ وعزاه لابن مردويه بسند ضعيف من حديث ابن مسعود.



سُورَةُ المُدَّثِّرِ (١)

وهي ست وخمسون آية مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد تدثر بثوبه وأصله المتدثر بثيابه إذا نام فأدغمت التاء في الدال وشددت وروى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حديثه فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فخشيت فرجعت إلى أهلي فقلت زملوني زملوني[٢] فدثروني فنزل يا أيها المدثر ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ يعني فخوف قومك وادعهم إلى التوحيد ويقال قم فأنذر يعني قم فصلِّ لله ويقال قم فأنذر يعني خوفهم بالعذاب إن لم يوحدوا يعني ادعهم من الكفر إلى الإيمان ثم قال عز وجل ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ يعني فعظمه عما يقولون فيه عبدة الأوثان. ويقال فكبر يعني فكبر للصلاة ثم قال ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ يعني طهر قلبك بالتوبة عن الذنوب والمعاصي[٣] وهذا قول قتادة وقال مقاتل يعني قلبك فطهر بالتوبة وكانت العرب تقول للرجل إذا أذنب دنس الثياب وقال الفراء يعني ثيابك فقصر. وقال الزجاج لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسة وإن كان طويلاً لا يؤمن أن يصيبه النجاسة ويقال يعني لا تقصر فتكون غادراً دنس الثياب وقال مجاهد وثيابك فطهر يعني نفسك فطهر[٤] ويقال عملك فأخلص ويقال ظنك فحسن ثم قال ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ يعني المأثم فاترك ويقال الرجز فاهجر يعني ارفض عبادة الأوثان قرأ عاصم في رواية حفص والرجز بضم الزاء والباقون بكسر الزاء[٥] ومعناهما واحد وهم الأوثان يعني فارفض عبادة الأوثان ويقال

---

(١) جاء في هذه السورة من الأغراض تكريم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والأمر بإبلاغ دعوة الرسالة. وإعلان وحدانية الله بالإلهية. والأمر بالتطهير الحسي والمعنوي. ونبذ الأصنام. والإكثار من الصدقات. والأمر بالصبر. وإنذار المشركين بهول البعث. وتهديد من تصدى للطعن في القرآن وزعم أنه قول البشر وكفر الطاعن نعمة الله عليه فأقدم على الطعن في آياته مع علمه بأنها حق. ووصف أهوال جهنم. والرد على المشركين الذين استخفوا بها وزعموا قلة عدد حفظتها. وتحدي أهل الكتاب بأنهم جهلوا عدد حفظتها. وتأييسهم من التخلص من العذاب. وتمثيل ضلالهم في الدنيا. ومقابلة حالهم بحال المؤمنين أهل الصلاة والزكاة والتصديق بيوم الجزاء. التحرير ٢٩/٢٩٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٠ ـ ٢٨١ وعزاه للطيالسي وعبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن الأنباري في المصاحف.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨١ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨١ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) انظر حجة القراءات ٧٣٣.

الرجز العذاب كقوله تعالى رجزاً من السماء ومعناه كل شيء يحرك إلى عذاب الله تعالى فاتركه ثم قال عز وجل ﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ يعني لا تعط شيئاً قليلاً تطلب به أكثر وأفضل في الدنيا وقال الحسن ولا تمنن تستكثر يعني ولا تمنن بعملك على ربك تستكثره وقال مجاهد لا تعط مالك رجاء فضل من الثواب في الدنيا وقال الضحاك لا تعط ولتعطي أكثر[١] منه قوله تعالى ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ يعني اصبر على أمر ربك قال إبراهيم النخعي اصبر لعظمة ربك وقال مقاتل ولربك فاصبر يعني يعزي نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصبر على أذاهم ويقال فاصبر نفسك في عبادة ربك ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ يعني اصبر فعن قريب ينفخ في الصور. ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ يعني يوم شديداً على الكافرين غير[٢] يسير يعني غير هين وفي الآية دليل أن ذلك اليوم يكون على المؤمنين هيناً وهذا كقوله تعالى (وكان يوماً على الكافرين عسيراً) لأن الكفار يقطع رجاؤهم في جميع الوجوه.

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾

ثم قال ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ يعني اترك هذا الذي خلقته وحيداً وفوض أمره إليَّ وهو الوليد بن المغيرة خلقه الله تعالى وحيداً بغير مال ولا ولد ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدوداً﴾ يعني ورزقته مالاً كثيراً قال مجاهد كان له مائة ألف دينار وكان بنـوه[٣] عشرة وقال بعضهم كان ماله أربعة آلاف درهم ثم قال عز وجل ﴿وبنين شهوداً﴾ يعني حضوراً لا يغيبون عنه في التجارة ولا غيرهم وقال بعضهم ذرني ومن خلقت وحيداً يعني إنه لم يكن من قريش وكان ملصقاً بهم لأنه ذكر أن أباه المغيرة تبناه بعد ما أتت ثمانية أشهر ولم يكن منه كما قال الله تعالى (عتل بعد ذلك زنيم) (وجعلت له مالاً ممدوداً) يعني غير منقطع عنه وبنين شهوداً لا يغيبون عنه ولا يحتاجون إلى التصرف وكان له عشرة من البنين وهذا قول الكلبي وغيره وقال مقاتل سبع بنين ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً﴾ يعني بسطت له في المال والخير بسطاً ويقال أمهلت له إمهالاً ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ يعني يطمع أن أزيد ماله وولده. وذلك أنه تفاخر على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال لي مالاً ممدوداً ولي عشرة من البنين فلا يزال يزداد مالي وبني فنزل ثم يطمع أن أزيد يعني أن أزيد وهو يعصيني ﴿كَلَّا﴾ يعني وهو رد عليه يعني لا أزيد فما أزداد ماله بعد ذلك ولا ولده ولكن أخذ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٢ وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) سقط في أ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٢ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

في النقصان فهلك عامة ماله وولده قوله تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً﴾ يعني مكذباً معرضاً عنها معانداً ثم قال عز وجل ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾ يعني يكلف في النار صعود جبل من صخرة ملساء في الباب الخامس تسمى سقر فإذا بلغ رأس العقبة دخل دخان في حلقة فيخرج من جوفه ما كان في جوفه من الأمعاء فإذا سقط في أسفل العقبة سقي من الحميم فإذا بلغ أعلاه انحط منه إلى أسفله من مسيرة سبعين سنة وقال مجاهد (سأرهقه صعوداً) يعني مشقة من العذاب[1] وقال الزجاج سأحمله على مشقة من العذاب ويقال سأكلفه الصعود على عقبة شاقة والصعود والكؤود بمعنى واحد ثم ذكر خبث أفعاله الذي يستوجب به العقوبة فقال ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ يعني إنه فكر في أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقدر في أمره وقال ساحر يقول الله عز وجل ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ يعني فلعن كقوله ـ قتل الخراصون. ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ وذلك حين اجتمعوا في دار الندوة ليدبروا أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا هذه أيام الموسم والناس مجتمعون وقد فشا قول هذا الرجل في الناس وهم سائلون عنه فماذا تجيبون وتردون عليهم فقالوا نقول إنه مجنون وقال بعضهم إنهم يأتونه ويكلمونه فيجدونه فصيحاً عاقلاً فيكذبونكم فقالوا نقول شاعر قال بعضهم هم العرب وقد رأوا الشعراء وقوله لا يشبه الشعر فيكذبونكم قالوا نقول كاهن قال بعضهم إنهم لقوا الكهان وإذا سمعوا قوله وهو يستثني في كلامه المستقبل فيكذبونكم ففكر الوليد بن المغيرة ثم أدبر عنهم ثم رجع إليهم وقال فكرت في أمره فإذا هو ساحر يفرق بين المرء وزوجه وأقربائه فاجتمع رأيهم على أن يقولوا ساحر فقتل كيف قدر يعني كيف قدر بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسحر ثم قتل يعني لعن مرة أخرى أي اللعنة على أثر اللعنة كيف قدر هذا التقدير الذي قال للكفرة إنه ساحر ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ يعني ثم نظر في أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ يعني عبس وجهه أي كلح وتغير لون وجهه وقال الزجاج ثم عبس وجهه ﴿وَبَسَرَ﴾ أي نظر بكراهة شديدة ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ يعني أعرض عن الإيمان ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ يعني تكبر عن الإيمان ثم قال ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ يعني تأثره من صاحب اليمامة يعني يرويه عن مسيلمة الكذاب ويقال معناه ما هذا الذي يقول إلا سحر يرويه عن جابر ويسار ويقال عن أهل بابل ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ يعني ما هذا القرآن إلا قول الآدمي قال الله تعالى ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ يعني سأدخله سقر قال مقاتل يعني الباب الخامس وقال الكلبي هو اسم من أسماء النار ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ تعظيماً لأمرها ثم بين قال ﴿لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ﴾ يعني لا تبقي لحماً إلا أكلته ولا تذرهم إذا أعيدوا فيها خلقاً جديداً، ويقال لا تبقي ولا تذر يعني لا تميت ولا تحيي، ويقال لا تبقى اللحم ولا العظم ولا الجلد إلا أحرقته ولا تذر لحماً ولا عظماً ولا جلداً أي تدعه محرقاً بل تجده خلقاً جديداً ثم قال عز وجل ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ يعني حراقة للأجساد شواهة للوجوه نزاعة للأعضاء وأصله في اللغة التسويد ويقال لاحته الشمس إذا غيرته وذلك أن الشيء إذا كان فيه دسومة فإذا أحرق أسود ثم قال ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ يعني على النار تسعة عشر من الملائكة مسلطون من رؤساء الخزنة وأما الزبانية فلا يحصى عددهم كما قال في سياق الآية وما يعلم جنود ربك إلا هو. وإنما أراد تسعة عشر ملكاً ومعهم ثمانية عشر أعينهم كالبرق الخاطف ويخرج لهب النار من أفواههم فنزعت عنهم الرأفة غضاب على أهلها يدفع أحدهم سبعين ألفاً فلما نزلت هذه الآية قال الوليد بن المغيرة لعنه الله أنا أكفيكم خمسة وكل ابن لي يكفي واحداً منهم وسائر أهل مكة يكفي أربعة منهم وقال رجل من المشركين وكان له قوة وأنا أكفيكموهم وحدي أدفع عشرة بمنكبي هذا وتسعة بمنكبي الأيسر فألقيهم في النار حتى يحترقوا وتجوزون حتى تدخلون الجنة فنزلت هذه الآية ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً﴾ يعني ما سلطنا أعوان النار إلا ملائكة زبانية غلاظ شداد لا يغلبهم أحد ﴿وَمَا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٣ وعزاه لعبد بن حميد.

جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ يعني ما ذكرنا قلة عددهم وهم تسعة عشر **﴿إلا فتنة للذين كفروا﴾** يعني بلية لهم **﴿لِيَسْتَيْقِنَ الذين أوتوا الكتاب﴾** وذلك أن أهل[1] الكتاب وجدوا في كتابهم أن مالكاً رئيسهم وثمانية عشر من الرؤساء فبين لهم أنما يقوله النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقوله بالوحي **﴿وَيَزْدَادَ الذين آمنوا إيماناً﴾** يعني تصديقاً وعلماً **﴿ولا يَرْتَابَ الذين أوتوا الكتابَ﴾** يعني: يعلموا أنه حق وعدتهم كذلك **﴿والمؤمنون﴾** أيضاً لا يشكون في ذلك **﴿وليقولَ الذين في قلوبِهِمْ مَرَضٌ﴾** يعني: المنافقين **﴿والكافِرُونَ﴾** يعني: المشركين **﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾** يعني بذكر خزنة جهنم تسعة عشر يقول الله تعالى: **﴿كذلِكَ يُضِلُّ الله مَنْ يشاءُ﴾** يعني يخذله ولا يؤمن به أمناً له **﴿ويهدي من يشاء﴾** يعني يوفقه لذلك **﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾** يعني من يعلم قوة جنود ربك وكثرتها إلا هو يعني الله تعالى ويقال وما يعلم يعني لا يعلم عدد جموع ربك إلا الله تعالى **﴿وَمَا هِيَ إلاّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾** يعني الدلائل والحجج في القرآن ويقال ما هي يعني القرآن ويقال وما هي يعني سقر إلا ذكرى للبشر يعني عظه للخلق ثم أقسم الله تعالى لأجل سقر.

كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

فقال **﴿كلا﴾** رداً عليهم **﴿والقمر﴾** يعني وخالق القمر **﴿والليل إذ أدبَرَ﴾** يعني ذهب أقسم بخالق الليل **﴿والصبح إذا أسْفَرَ﴾** أقسم بخالق الصبح **﴿إنها لإحدى الكُبَرِ﴾** يعني سقر إحدى الكبر العظام وباب من أبواب النار قرأ نافع وحمزة وعاصم في رواية حفص والليل إذ بغير ألف أدبر بالألف والباقون إذا بالألف دبر بغير ألف[2] وهما لغتان ومعناهما واحد دبر وأدبر ويقال دبر النهار وأدبر ودبر الليل وأدبر وقال مجاهد سألت ابن عباس عن قوله والليل إذا أدبر فسكت حتى إذا كان آخر الليل قال يا مجاهد هذا حين[3] دبر الليل ويقال. الليل إذا أدبر يعني إذا جاء بعد النهار والصبح. إذا أسفر يعني استضاء بأنها أي سقر لإحدى الكبر يعني أن سقر لأعظم درجات في النار **﴿نَذِيراً لِلْبَشَرِ﴾** يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ نذيراً للخلق وإنما صار نعتاً لأنه معناه تم نذيراً للبشر، ويقال إن العذاب الذي ذكر نذيراً للبشر قوله تعالى **﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾** يعني يتقدم في الخير أو يتأخر إلى المعصية فبينا

---

(١) في أ [أهل مكة].

(٢) حجة من قرأ بغير ألف قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أقبل الليل من ها هنا وأدبر النهار من ها هنا فقد أفطر الصائم. انظر حجة القراءات ٧٣٣.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٥ وعزاه لمسدد في مسنده وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

لكم فهذا وعيد لكم لمن شاء منكم أن يتقدم إلى الطاعة أو يتأخر إلى المعصية كقوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ويقال معناه لمن شاء منكم أن يتقدم إلى التوبة فليوحد أو يتأخر عن التوبة فليقم على الكفر يعني نذيراً لمن شاء. ثم قال ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ يعني كل كافر مرتهن بعمله ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ يعني لكن أصحاب اليمين فإنهم ليسوا مرتهنين بعملهم يعني الذين أعطوا كتابهم بأيمانهم ويقال هم الذين عن يمين العرش، ويقال كل نفس بما كسبت رهينة عند المحاسبة إلا أصحاب اليمين قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه هم أطفال المسلمين[١] يعني ليس عليهم حساب لأنهم لم يعملوا شيئاً ثم قال ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يعني إنهم في بساتين يتسألون ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني يرون أهل النار يسألونهم ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ يعني ما الذي أدخلكم في سقر فأجابهم أهل النار ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ يعني لم نك نقر بالصلاة ولم نؤدها ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ يعني كنا لا نقر بالفرائض والزكاة ولا نؤديها. ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ يعني كنا نستهزيء بالمسلمين ونخوض بالباطل ونرد الحق مع المبطلين المستهزئين ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ يعني بيوم الحساب ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ يعني الموت والقيامة قوله تعالى ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ يعني لا يسألهم شفاعة الأنبياء وشفاعة الملائكة ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ فما للمشركين يعرضون عن القرآن والتوحيد ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ يشبههم بالحمر الوحشية المذعورة حين فروا من القرآن وكذبوا به قرأ نافع وابن عامر مستنفرة بنصب الفاء والباقون بالكسر[٢] فمن قرأ بالنصب فمعناه منفرة فإن الصائد نفرها ومن قرأ بالكسر ومعناه نافرة ويقال نفر واستنفر بمعنى واحد ثم قال ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ فقال أبو هريرة رضي الله عنه[٣] يعني الأسد وقال سعيد بن جبير رضي الله عنهم القناص يعني الصيادين وقال قتادة القسورة النبل[٤] يعني الرمي بالسهام وهو حس الناس وأصواتهم ثم قال عز وجل ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا إن الرجل من بني إسرائيل إذا أذنب ذنباً يصبح وذنبه وكفارته مكتوب عند رأسه فهل ترينا مثل ذلك إن كنت رسولاً فنزل بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة يعني صحفاً مكتوب فيها جرمه وتوبته ويقال نزلت في شأن عبد الله بن أمية المخزومي حين قال لن نؤمن حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قال الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ يعني هذا لا يكون لهم أبداً ثم ابتداء فقال ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ يعني البعث يعني لكن لا يخافون عذاب الآخرة ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ يعني حقاً إن القرآن عظة للخلق ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ يعني من شاء أن يتعظ به فليتعظ ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ﴾ يعني إلا أن يشاء ﴿اللَّهُ﴾ لهم، ويقال إلا أن يشاء الله منهم قرأ نافع وما تذكرون بالتاء على معنى المخاطبة والباقون بالياء على معنى الخبر عنهم ثم قال عز وجل ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ يعني هو أهل أن يتقى ولا يشرك به ويوحد ولا يعصى وأهل المغفرة يعني هو أهل أن يغفر لمن أطاعه ولا يشرك ويقال هو أهل أن يتقى وأهل المغفرة لمن اتقى والله الموفق.

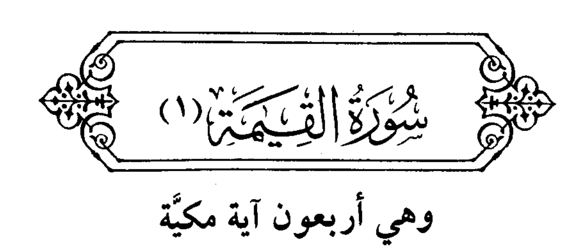
---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٥ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٧٢.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٦ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.



سورة القيامة(١)

وهي أربعون آية مكيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أجمع أهل التفسير أن معناه أقسم واختلفوا في تفسير لا قال بعضهم والكلام زيادة للزينة، ويجري في كلام العرب زيادة لا كما في أية أخرى قال (ما منعك أن لا تسجد) يعني: أن تسجد وقال بعضهم لا رد لكلامهم حيث أنكروا البعث فقال ليس الأمر كما ذكر ثم قال أقسم بيوم القيامة ويقال معناه أقسم برب يوم القيامة إنها كائنة ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ يعني: أقسم بخالق النفس اللوامة وهي نفس ابن آدم يلوم نفسه كما روي عن ابن عباس وعن عمر رضي الله عنهم ما من نفس برة وفاجرة إلا تلوم نفسها إن كانت محسنة تقول يا ليتني زدت إحساناً وإن كانت سيئة تقول يا ليتني تركت، ولم يذكر جواب القسم لأن في الكلام دليلاً عليه وهو قوله بلى قادرين ومعناه ولا أقسم بالنفس اللوامة لتبعثن بعد الموت ثم قال عز وجل: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ﴾ يعني: أيظن الكافر ﴿أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ يعني: أن لن يبعث الله بعد الموت نزلت في أبي بن خلف ويقال في عدي بن الربيعة لإنكار البعث بعد الموت يقول الله تعالى ﴿بَلَى قَادِرِينَ﴾ يعني: إن الله تعالى قادر ﴿عَلَى أن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ يعني: يجعل أصابعه ملتزقة وألحق الراحة بالأنامل(٢) وهذا قول ابن عباس: وقال القتبي: فكأنه يقول أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه في الآخرة بلى قادرين على أن نسوي بنانه يعني: أن نجمع ما صغر منه ونؤلف بينه أي نعيد السلاميات على صغرها ومن قدر على جمع هذا فهو على جمع كبار العظام أقدر وقال مجاهد على أن نسوي خفه كخف البعير لا يعمل به شيئاً(٣)، وقال سعيد بن جبير يعني كخف البعير أو كحافر الدابة والحمر لأنه ليس من دابة إلا وهي تأكل بفمها غير الإنسان قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ يعني: يقدم ذنوبه ويؤخر توبته ويقول سوف أتوب ولا يترك الذنوب(٤) وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه وقال عكرمة ليفجر أمامه يعني يريد الذنوب في المستقبل، وقال القتبي: بل يريد الإنسان ليفجر أمامه فقد كثرت فيه التفاسير، وقال سعيد بن جبير سوف أتوب وقال الكلبي يكثر الذنوب ويؤخر التوبة وقال آخرون: يتمنى الخطيئة، وفيه قول آخر على طريق الإنكار

---

(١) اشتملت هذه السورة على إثبات البعث. والتذكير بيوم القيامة وذكر أشراطه. وإثبات الجزاء في الأعمال التي عملها الناس في الدنيا. واختلاف أحوال أهل السعادة وأهل الشقاء، وتكريم أهل السعادة. والتذكير بالموت وأنه أول مراحل الآخرة. والزجر على إيثار منافع الحياة العاجلة على ما أعد لأهل الخير من نعيم الآخرة. التحرير ٢٩/٣٣٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٧ وعزاه لسعيد بن منصور.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٧ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٨ وعزاه لابن أبي الدنيا في ذم الأمل والبيهقي في شعب الإيمان.

بأن يكون الفجور بمعنى التكذيب بيوم القيامة ومن كذب بالحق فقد فجر، وأصل الفجور الميل فقيل للكاذب والمكذب والفاسق فاجر لأنه مال عن الحق.

يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: **﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾** يعني: يسأل متى يوم القيامة تكذيباً بالبعث فكأنه قال: بل يريد الإنسان أن يكذب بيوم القيامة وهو أمامه وهو يسأل متى يكون فبين الله تعالى في أي يوم يكون فقال: **﴿فإذا برق البصر﴾** يعني: شخص البصر وتحير قرأ نافع فإذا برق البصر بنصب الراء والباقون بالكسر(١) فمن قرأ بالنصب فهو من برق يبرق بريقاً ومعناه شخص فلا يطرق من شدة الفزع ومن قرأ بالكسر يعني فزع وتحير وأصله أن الرجل إذا رأى البرق تحير وإذا رأى من أعاجيب يوم القيامة تحير ودهش **﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾** يعني: ذهب ضوؤه **﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾** يعني: كالثورين المقرنين ويقال برق البصر وخسف القمر قال كوكب العين ذهب ضوؤه وروى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال يجعلان في نور الحجاب ويقال جمع الشمس والقمر يعني: سوى بينهما في ذهاب نورهما وإنما قال وجمع الشمس والقمر ولم يقل وجمعت لأن المؤنث والمذكر إذا اجتمعا فالغلبة للمذكر **﴿يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾** يقول أين الملجأ من النار قرىء في الشاذ أين المفر بالكسر للفاء على معنى: اين مكان الفرار وقراءة العامة بالنصب يعني أين الفرار ثم قال: **﴿كلا لا وَزَرَ﴾** يعني: حقاً لا جبل يلجئون إليه فيمنعهم من النار ولا شجر يواريهم والوزر في كلام العرب الجبل الذي يلتجىء إليه والوزر والستر هنا الشيء الذي يستترون به وقال عكرمة ولا وزر يعني منعه وقال الضحاك يعني: لا حصن لهم يوم القيامة ثم قال عز وجل: **﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾** يعني: المرجع **﴿يَنْبَؤُ الإنسانُ يومئذٍ بما قَدَّمَ وأَخَّرَ﴾** يعني: يسأل ويبين له ويجازى بما قدم من الأعمال وأخر من سنة صالحة أو سيئة قوله عز وجل: **﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾** يعني: جوارح العبد شاهدة عليه ومعناه على الإنسان من نفسه شاهد يشهد عليه كل عضو بما فعل ويقال يعني جوارح العبد شاهدة عليه ومعناه رقيب بعضها على بعض والبصيرة أدخلت فيها الهاء للمبالغة كما يقال: رجل علامة وقال الحسن: على نفسه بصيرة يعني: بعيوب غيره الجاهل بعيوب نفسه **﴿وَلَو أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾** يعني: ولو تكلم بعذر لم يقبل منه ويقال ولو أرخى ستوره يعني: أنه شاهد على نفسه وإن أذنب في الستور قوله تعالى: **﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾** يعني: لا تعجل بقراءة القرآن من قبل أن يفرغ جبريل عليه السلام من قراءته وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان

(١) انظر حجة القراءات ٧٣٦، إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٥٧٤.

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا نزل عليه القرآن تعجل به للحفظ فنزل (لا تحرك[١] به لسانك) ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جمعَهُ﴾ يَعني: حفظه في قلبك ﴿وقُرْآنَهُ﴾ يعني: يقرأ عليك جبريل حتى تحفظه ﴿فإذا قرأناه فاتبعْ قرآنَهُ﴾ يعني: إذا قرأ عليك جبريل فاقرأ أنت بعد قراءته وفراغه وقال محمد بن كعب فاتبع قراءته يعني: فاتبع حلاله وحرامه وقال الأخفش إن علينا جمعه يعني: تأليفه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه يعني: تأليفه ﴿ثم إنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ﴾ يعني: بيان أحكامه وحدوده، ويقال علينا بيانه يعني شرحه ويقال بيان فرائضه كما بين على لسان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم نزل بعد هذه الأحكام قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ﴾ يعني: تحبون العمل للدنيا ﴿وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ يعني: تتركون العمل للآخرة قرأ ابن كثير وأبو عمرو بل يحبون بالياء على معنى الخبر عنهم والباقون بالتاء على ـ معنى المخاطبة ثم بين حال ذلك اليوم فقال ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ أي حسنة مشرقة مضيئة كما قال في آية أخرى (تعرف في وجوههم نضرة النعيم) ﴿وإلى ربِّها ناظِرَةٌ﴾ يعني: ناظرين يومئذ إلى الله تبارك وتعالى وقال مجاهد إلى ربها ناظرة يعني تنتظر الثواب من ربها وهذا القول لا يصح لأنه مقيد بالوجوه موصول بإلى ومثل هذا لا يستعمل في الانتظار ثم قال عز وجل: ﴿وَوُجُوهٌ يومئذ بَاسِرَةٌ﴾ يعني: عابسة ويقال كريهة ويقال كاسفة ومسودة ﴿تَظُنُّ أَنْ يَفْعَل بِهَا فَاقِرةٌ﴾ يعني: تعلم أنه قد نزل بها العذاب والشدة يعني تعلم هذه الأنفس ويقال الفاقرة الداهية ويقال قد أيقنت أن العذاب نازل بها ثم قال عز وجل: ﴿كَلَّا إذا بَلَغَتِ التَرَاقِيَ﴾ يعني: حقاً إذا بلغت النفس إلى الحلقوم يعني: خروج الروح ﴿وقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ يعني: يقول من حضر عند الموت هل من طبيب حاذق يداويه ويقال من راق يعني: من يشفي من هذا الحال ويقال من راق يعني: من يقدر أن يرقي من الموت يعني: لا يقدر أحد أن يرقي من الموت والعرب تقول من الرقية رقى يرقي رقيةً ومن الرقيّ وهو الصعود رقي يرقى رقياً فهو راق منهما ﴿وظَنَّ أَنَّهُ الفَراقُ﴾ يعني: استيقن أنه ميت وأنه يفارق الروح من الجسد ويقال: وقيل من راق أن الملائكة الذين حضروا لقبض روحه يقول بعضهم لبعض من راق يعني من يصعد منا بروحه إلى السماء فأيقن عند ذلك أنه الفراق ﴿والْتَفتِ السَّاقُ بالسَّاقِ إلى ربكَ يومئذٍ المَسَاقُ﴾ قال ابن عباس يعني: التفت شدتان أخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من الآخرة[٢] وروى وكيع عن بشير بن المهاجر قال سمعت الحسن يقول والتفت الساق بالساق قال هما ساقان إذا التفتا في الكفن[٣] إلى ربك يومئذ المساق يعني: يساق العبد إلى ربه.

فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾ وهو أبو جهل بن هشام يعني: لم يصدق بتوحيد الله تعالى وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يصل لله تعالى ويقال ولا صلى يعني: ولا أسلم فسمي المسلم مصلياً ﴿ولكِنْ كَذَّبَ وتولَّى﴾ يعني: كذب بالتوحيد وتولى يعني: أعرض عن الإيمان ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إلى أهلِهِ يَتمطَّى﴾ قال

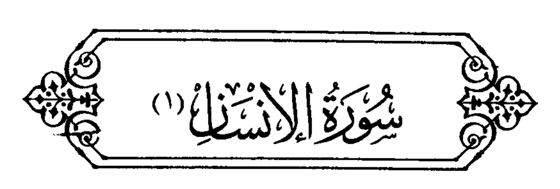
(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٩ وعزاه لابن المنذر وابن مردويه.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٩٥ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٩٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

القتبي: يعني: وأصله في اللغة يتمطط فقلبت الطاء ياء فصار يتمطى يعني: ذهب إلى أهله يتمطى يعني: ويتبختر في مشيته ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ وهذا وعيد على أثر وعيد يعني: احذر يا أبا جهل ومعنى أولى لك أي قرب لك يا أبا جهل وقال سعيد بن جبير قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي جهل أولى لك فأولى. ﴿ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ ثم نزل به القرآن وقال الزجاج معناه أولى لك يعني وجب لك المكروه يا أبا جهل والعرب تقول أولى بفلان إذا وعد له مكروهاً وقال القتبي أولى لك تهديد ووعيد كما قال فأولى لهم ثم ابتدأ فقال ـ (طاعة وقول معروف) ثم قال: ﴿أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ ـ يعني: أن يترك مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مَنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾ يعني: أليس قد خلق من ماء مهين قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم من منى يمنى بالهاء والباقون بالتاء[1] على معنى التأنيث لأن النطفة مؤنثة ومن قرأ بالياء انصرف إلى المعنى وهو الماء ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ يعني: صارت بعد النطفة علقة ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ يعني: جمع خلقه في بطن أمه مستوياً معتدل القامة ﴿فَجَعَلَ مِنْه﴾ يعني: خلق من المني ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾ يعني: لونين من الخلق ﴿الذَّكَرَ والأنثى أَلَيْس ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التقرير يعني أن هذا الذي يفعل مثل هذا هو قادر على أن يحيي الموتى وذكر عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى قال سبحانك اللهم بلى[2] قادر والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٣٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٩٦ وعزاه لابن أبي حاتم وابن المنذر.



سورة الإنسان(١)

وهي إحدى وثلاثون آية مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى: **﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ﴾** يعني: قد أتى على أدم **﴿حين من الدهر﴾** يعني: أربعين سنة **﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾** يعني: لم يدر ما اسمه ولا ما يراد به إلا الله تعالى وذلك أن الله تعالى لما أراد أن يخلق آدم أمر

---

(١) اختلف فيها فقيل هي مكية وقيل مدنية وقيل بعضها مكي وبعضها مدني فعن ابن عباس وابن أبي طلحة وقتادة ومقاتل: هي مكية، وهو قول ابن مسعود لأنه كذلك رتبها في مصحفه فيما رواه أبو داود كما سيأتي قريباً. وعلى هذا اقتصر معظم التفاسير ونسبه الخفاجي إلى الجمهور.

وروى مجاهد عن ابن عباس: أنها مدنية، وهو قول جابر بن زيد وحكي عن قتادة أيضاً وقال الحسن وعكرمة والكلبي: هي مدنية إلا قوله «ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً» إلى آخرها، أو قوله «فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم» الخ. ولم يذكر هؤلاء أن تلك الآيات من أية سورة كانت تعد في مكة إلى أن نزلت سورة الإنسان بالمدينة وهذا غريب ولم يعينوا أنه في أية سورة كان مقرؤاً.

والأصح أنها مكية فإن أسلوبها ومعانيها جارية على سَنن السور المكية ولا أحسب الباعث على عدها في المدني إلا ما روي من أن آية **﴿يطعمون الطعام على حبه﴾** نزلت في إطعام علي بن أبي طالب في المدينة مسكيناً ليلة ويتيماً أخرى، وأسيراً أخرى، ولم يكن للمسلمين أسرى بمكة حملاً للفظ أسير على معنى أسير الحرب، أو ما روي أنه نزل في أبي الدحداح وهو أنصاري، وكثيراً ما حملوا نزول الآية على مُثل تنطبق عليها معانيها فعبروا عنها بأسباب نزول.

وأغراضها:

التذكير بأن لكل إنسان كون بعد أن لم يكن فكيف يقضي باستحالة إعادة تكوينه بعد عدمه.

وإثبات أن الإنسان محقوق بإفراد الله بالعبادة شكراً لخالقه ومحذر من الإشراك به.

جبريل عليه السلام أن يجمع التراب فلم يقدر ثم أمر إسرافيل فلم يقدر ثم أمر عزرائيل عليهم السلام فجمع التراب من وجه الأرض فصار التراب طيناً ثم صار صلصالاً وكان على حاله أربعين سنة قبل أن ينفخ فيه الروح، وروى معمر عن قتادة قال كان آدم آخر ما خلق من الخلق خلق كل شيء قبل آدم[1] ثم قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ يعني: مختلطاً ماء الرجل وماء المرأة لا يكون الولد إلا منهما جميعاً ماء الرجل أبيض ثخين، وماء المرأة أصفر رقيق، «نبتليه» يعني لكي نبتليه بالخير والشر ﴿فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ يعني: جعلنا له سمعاً يسمع به الهدى وبصراً يبصر به الهدى، وقال مقاتل في الآية تقديم يعني جعلناه سميعاً بصيراً يعني جعلنا له سمعاً لنبتليه يعني: لنختبره قوله عز وجل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيلَ﴾ يعني: بينا له وعرفناه طريق الخير وطريق الكفر ويقال سبيل السعادة والشقاوة ﴿إما شاكراً وإما كفوراً﴾ يعني: إما أن يكون موحداً وإما أن يكون جاحداً لوحدانية الله تعالى ويقال إما شاكراً لنعمه وإما كفوراً لنعمه، ثم بين ما أعد للكافرين فقال: ﴿إنا أعتدنا للكافرين﴾ يعني: في الآخرة ﴿سَلاَسِلاَ وأغلالاً﴾ يعني: هيئنا لهم أغلالاً تغل بها أيمانهم إلى أعناقهم ﴿وسعيراً﴾ يعني: وقوداً ثم بين ما أعد للشاكرين فقال ﴿إنَّ الأبرارَ﴾ يعني: الصادقين في إيمانهم ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ يعني: من خمر ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كافوراً﴾ يعني: على برد الكافور وريح المسك وطعم الزنجبيل ليس ككافور الدنيا ولا كمسكها ولكنه وصف بها حتى يهتدي به القلوب أو يقال الكافور اسم عين في الجنة يمزج بها الخمر ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ﴾ يعني: عين الكافور يشرب بها أولياء الله تعالى في الجنة ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾ يعني: يمزجونها تمزيجاً وقال ابن عباس يفجرونها تفجيراً في قصورهم وديارهم وذلك أن عين الكافور يشرب بها المقربون صرفاً غير ممزوج ولغيرهم ممزوجاً ويقال يفجرونها تفجيراً يعني يفجرون تلك العين في الجنة كيف أحبوا كما يفجر الرجل النهر الذي يكون له في الدنيا هاهنا وهاهنا حيث شاء ثم بين أفعالهم في الدنيا فقال ﴿يُوفُونَ بالنَّذْرِ﴾ يعني: يتمون الفرائض ويقال: أوفوا بالنذر ﴿وَيَخَافُونَ يَوْماً﴾ وهو يوم القيامة ﴿كان شره مستطيراً﴾ يعني: عذابه فاشياً ظاهراً وهو أن السموات قد انشقت وتناثرت الكواكب وفزعت الملائكة وفارت المياه ثم قال عز وجل: ﴿ويطعمونَ الطعامَ على حُبِّهِ﴾ يعني: على قلته وشهوته وحاجته ﴿مسكيناً﴾ وهو الطائف بالأبواب ﴿ويتيماً وأسيراً﴾ يعني: من أسر من دار الشرك ويقال أهل اليمن وذكر أن الآية نزلت في شأن علي بن أبي طالب وفاطمة رضي الله عنهما وكانا صائمين فجاءهما سائل وكان عندهما قوت يومهما فأعطيا السائل بعض ذلك الطعام ثم جاءهما يتيم فأعطياه من ذلك الطعام ثم جاءهما أسير فأعطياه الباقي[2] فمدحهما الله تعالى لذلك، ويقال: نزلت في شأن رجل من الأنصار ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾ يعني: ينوون بأدائهم ويضمرون في قلوبهم وجه الله تعالى ويقولون ﴿لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾ يعني: لا نريد منكم مكافأة في الدنيا ولا ثواب في الآخرة ﴿إنانَخافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عبوساً قَمْطَرِيراً﴾ يعني:

= وإثبات الجزاء على الحالين مع شيء من صوف ذلك الجزاء بحالته والإطناب في وصف جزاء الشاكرين.

وأدمج في خلال ذلك الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد ونعمة الإدراك والامتنان بما أعطيه الإنسان من التمييز بين الخير والشر وإرشاده إلى الخير بواسطة الرسل فمن الناس من شكر نعمة الله ومنهم من كفرها فعبد غيره.

وتثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على القيام بأعباء الرسالة والصبر على ما يلحقه في ذلك والتحذير من أن يلين للكافرين والإشارة إلى أن الاصطفاء للرسالة نعمة عظيمة يستحق الله الشكر عليها بالاضطلاع بها اصطفاه به بالإقبال على عبادته.

والأمر بالإقبال على ذكر الله والصلاة في أوقات من النهار.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٩٧ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر. وانظر تفسير القرطبي ١٩/٧٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٩٩ وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس.

العبوس الذي تعبس فيه الوجوه من هول ذلك اليوم والقنطرير الشديد العبوس، ويقال عبوساً أي يوم يعبس فيه الوجوه فجعل عبوساً من صفة اليوم كما قال «في يوم عاصف» أراد عاصف الريح والقمطرير الشديد يعني: ينقبض الجبين وما بين الأعين من شدة الأهوال، ويقال قمطريراً نعت اليوم، ويقال يوم قمطرير إذا كان شديداً يعني يوماً شديداً صعباً ثم قال عز وجل: **﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾** يعني: دفع الله عنهم عذاب ذلك اليوم **﴿وَلَقَاهُمْ﴾** يعني: أعطاهم **﴿نَضْرَةً﴾** حسن الوجوه **﴿وَسُرُوراً﴾** يعني: فرحا في قلوبهم قوله تعالى: **﴿وجزاهُمْ بِمَا صَبِرُوا﴾** يعني: أعطاهم الثواب بما صبروا في الدنيا **﴿جنةً وحريراً﴾** يعني: لباسهم فيها حرير ويقال بما صبروا على الطاعات ويقال على المصائب وقوله عز وجل: **﴿متَّكئين فِيهَا﴾** يعني: ناعمين في الجنة **﴿على الأَرائِكِ﴾** يعني: على السرر وفي الجمال واحدها أريكة **﴿لاَ يَرَوْنَ فيها شَمْساً﴾** يعني: لا يصيبهم فيها حر الشمس **﴿وَلاَ زَمْهَرِيراً﴾** يعني: ولا برد الشتاء ثم قال عز وجل **﴿ودانيةً عليهِمْ ظِلاَلُها﴾** يعني: قريبة عليهم ظلال الشجر **﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفَها تَذْليلاً﴾** يعني: قربت ثمارها، ويقال: سخرت قطوفها يعني: مجنى ثمرها تذليلاً يعني قريباً ينالها القاعد والقائم، وروى بن أبي نجيح عن مجاهد قال أرض الجنة من فضة وترابها مسك وأصول شجرها ذهب وفضة وأغصانها لؤلؤ وزبرجد والورق والثمر تحت ذلك فمن أكل قائماً لم يؤذه ومن أكل جالساً لم يؤذه ومن أكل مضطجعاً لم يؤذه ثم قرأ **وذللت قطوفها** تذليلاً [1] وقال أهل اللغة[2] ذللت أي أدنيت منهم من قولك حائط ذليل إذا كان قصير السمك والقطوف والثمرة واحدها قطف وهو نحو قوله تعالى **(قطوفها دانية)**.

وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

ثم قال عز وجل **﴿وَيُطَافُ عليهم بَانيةً مِنْ فِضَّةٍ وأَكْوابٍ﴾** وهي كيزان مدققة الرأس لا عرى لها **﴿كانت قواريرا من فضة﴾** يعني في صفاء القارورة وبياض الفضة، وروي عن عكرمة عن ابن عباس قال لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم تر الماء من ورائه ولكن قوارير الجنة من فضة في صفاء

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠٠ وعزاه لابن أبي شيبة وسعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي عن مجاهد.

(٢) الصحاح ٤/ ١٧٠٢.

القوارير[١] كبياض الفضة قرأ نافع وعاصم والكسائي سلاسلاً وقواريراً كلهن بإثبات الألف والتنوين، وقرأ حمزة بإسقاط الألف كلها[٢] وكان أبو عمرو يثبت الألف في الأولى من قوارير ولا يثبتها في الثانية، قال أبو عبيد رأيت في مصحف عثمان رضي الله عنه الذي قال له مصحف الإمام قوارير بالألف والثانية كان بالألف فحكت ورأيت أثرها بيناً هناك، وأما السلاسل فرأيتها قد رست وقال بعض أهل اللغة الأجود في العربية أن لا ينصر فيه سلاسل وقوارير لأن كل جمع يأتي بعد ألفه حرفان أو ثلاثة أوسطها ساكن فإنه لا ينصرف فأما من صرفه ونون فإنه رده إلى الأصل في الازدواج إذا وقعت الألف بغير تنوين ثم قال ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾ يعني على قدر كف الخدم، ويقال على قدر كف المخدوم ولا يحجز، ويقال على قدر ما يحتاجون إليه ويريدونه ويقال على مقدار الذي لا يزيد ولا ينقص ليكون الري لشربهم ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كأساً﴾ يعني خمراً وشراباً ﴿كَانَ مِزَاجُها﴾ يعني خلطها ﴿زنجبيلاً عَيْناً فيها تُسَمَّى سلسبيلاً﴾ وقال القتبي والزنجبيل اسم العين وكذلك السلسبيل، ويقال إن السلسبيل اللبن والزنجبيل طعمه، والعرب تضرب به المثل وقال مقاتل: إنما سمي السلسبيل لأنها تسيل عليهم في الطريق وفي منازلهم وقال أبو صالح بلغني أن السلسبيل شديد الجرية وقال بعضهم معناه كان مزاجها زنجبيلاً عيناً فيها تسمى سلسبيلاً يعني عيناً تسمى الزنجبيل وتم الكلام، ثم قال سلسبيلاً يعني سل الله تعالى السبيل إليها قوله تعالى ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ يعني لا يكبرون ويكونون على سن واحدة ﴿إِذَا رَأَيتهم حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾ قال قتادة كثرتهم وحسنهم كاللؤلؤ[٣] المنثور ﴿وإذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نعيماً﴾ يعني إذا رأيت هناك ما في الجنة رأيت نعيماً ﴿وملكاً كبيراً﴾ يعني على رؤسهم التيجان كما يكون على رأس ملك من الملوك ويقال «وملكاً كبيراً» يعني لا يدخل رسول رب العزة إلا بإذنهم ثم قال عز وجل ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٍ﴾ يعني على ظهورهم ثياب سندس قرأ نافع وحمزة بجزم الياء وكسر الهاء وبالباقون بنصب الياء وضم الهاء[٤] فمن قرأ بالجزم فمعناه الذي يعلوهم وهو اسم فاعل من علا يعلو ومن قرأ بالنصب نصبه على الظرف كما قال فوقَهم ثياب، وروي عن ابن مسعود: أنه قرأ عاليتهم ثياب يعني الوجه الأعلى ثم قال ثياب سندس خضر بالكسر ﴿واستبرق﴾ قرأ نافع وعاصم في رواية حفص خضر واستبرق كلاهما بالضم والباقون كلاهما بالكسر[٥] فمن قرأ بالضم لأنه نعت الثياب يعني ثياباً خضراً ومن قرأ بالكسر فهو نعت للسندس ومن قرأ واستبرق بالضم فهو نسق على الثياب ومعناه عليهم سندس واستبرق ومن قرأ بالكسر يكون عليهم ثياب من هذين النوعين ثم قال عز وجل ﴿وَحُلّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ وهو جمع السوار ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً﴾ يعني الذي سقاهم خدمهم، ويقال الذين يشربون من قبل أن يدخلوا الجنة ثم قال ﴿إن هذا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ يعني الذي وصف لكم في الجنة ثواباً لأعمالكم ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ يعني عملكم مقبولاً يعني يبشرون بهذا إذا أرادوا أن يدخلوا الجنة ثم قال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ يعني أنزلنا عليك القرآن تنزيلاً يعني إنزالاً فالمصدر للتأكيد ثم قال عز وجل ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يعني استقم على أمر الله تعالى ونهيه ويقال اصبر على أذى الكفار، وقال: على تبليغ الرسالة ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ آثماً يعني فاجراً وهو الوليد بن المغيرة أو

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٠٠ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور والبيهقي في البعث.

(٢) انظر حجة القراءات ٧٣٨.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٠١ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة.

(٤) انظر حجة القراءات ٧٣٩.

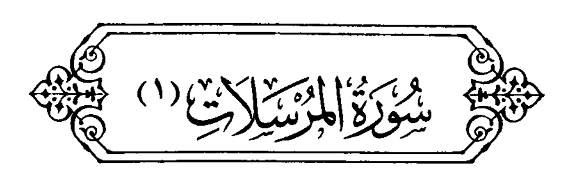
(٥) المصدر السابق.

كفوراً يعني ولا كفوراً وهو عتبة بن ربيعة قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن فعلت هذا لأجل المال فارجع حتى أدفع إليك من المال ما تصير به أكثر مالاً من أهل مكة[1] فنزلت هذه الآية ولا تطع منهم أثماً ولا كفوراً ثم قال عز وجل ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ**﴾ يعني صلِ باسم ربك ﴿**بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ يعني بكرة وعشياً يعني صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ**﴾ يعني فصَلِّ لله المغرب والعشاء ﴿**وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً**﴾ يعني بعد المكتوبة فهذا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة، ويقال له ولأصحابه وهذا أمر استحباب لا أمر وجوب ثم قال عز وجل ﴿**إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ**﴾ يعني يختارون الدنيا ﴿**وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ**﴾ يعني يتركون العمل لما هو أمامهم ﴿**يَوْماً ثَقِيلاً**﴾ يعني ليوم ثقيل وقال مجاهد وراءهم يعني خلفهم. قوله تعالى ﴿**نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ**﴾ يعني قوينا خلقهم ليطيعوني فلم يطيعوني، ويقال شددنا مفاصلهم بالعصب والعروق والجلد لكي لا ينقطع المفاصل وقت تحريكها، ويقال شددنا أسرهم أي قبلهم ودبرهم لكي لا يسيل البول والغائط إلا عند الحاجة ﴿**وَإِذَا شِئْنَا**﴾ يعني إذا أردنا ﴿**بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً**﴾ يعني أي نخلق خلقاً أمثل منهم وأطوع لله ﴿**إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ**﴾ يعني هذه السورة عظة لكم ويقال هذه الآيات ﴿**فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً**﴾ يعني فمن شاء أن يتعظ فليتعظ فقد بينا له الطريق ثم قال عز وجل ﴿**وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ يعني إلا أن يشاء لكم فيوفقكم يعني إن جاهدتم فيوفقكم كقوله «والذين جاهدوا فينا لنهديهم» الآية قرأ ابن كثير وأبو عمرو «وما يشاؤون» بالياء على معنى الخبر عنهم والباقون بالتاء[2] على معنى المخاطبة ثم قال عز وجل ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً**﴾ يعني كان عليماً قبل خلقكم من يتخذ السبيل ولم يشرك ويوحد «حكيماً» حكم بالبداية لمن كان أهلاً لذلك قوله تعالى ﴿**يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ**﴾ يعني يكرم بالإسلام من كان أهلاً لذلك ويقال يدخل من يشاء في رحمته يعني في نعمته وهي الجنة في رحمته وفضله ﴿**وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً**﴾ يعني يدخل الظالمين في عذاب أليم ويقال يعذب الظالمين وقرىء في الشاذ والظالمون وقراءة العامة والظالمين بالنصب ومعناه ويعذب الظالمين ويكون لهم عذاباً أليماً تفسيراً لهذا المضمر والله أعلم.

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٩/١٥٠.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٧٩.



وهي خمسون آية مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً﴾ قال الكلبي ومقاتل يعني الملائكة أرسلوا بالمعروف، ويقال كثرتها لها عرف كعرف الفرس، وقال أهل اللغة: ويحتمل وجهين، أحدهما أنها متتابعة بعضها في إثر بعض، وهو مشتق من عرف الفرس، ووجه أخر، أنه يرسل بالعرف أي بالمعروف وروى سفيان عن سلمة بن[2] كهيل عن مسلم البطين عن أبي عبيدة الساعدي قال سألت عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما عن قوله (والمرسلات عرفاً) قال الريح ﴿فالعاصِفَاتِ عَصْفاً﴾ قال الريح ﴿والنَاشِرَاتِ نُشْراً﴾ قال الريح ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً﴾ قال حسبك معناه والمرسلات عرفاً يعني أرسل الرياح متتابعة كعرف الفرس فالعاصفات عصفاً يعني الريح الشديدة التي تدر التراب بالبراري وسمي ريح عاصف، والناشرات نشراً يعني الريح التي تنشر السحاب ويقال الناشرات نشراً يعني البعث يوم القيامة ويقال الملائكة الذين ينشرون من الكتاب «فالفارقات فرقاً» يعني القرآن فرق بين الحق والباطل ويقال هو القبر فرق بين الدنيا والآخرة، ويقال آيات القرآن التي فيها بيان عقوبة الكفار ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً﴾ يعني فالمنزلات وحياً وهم الملائكة ﴿عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾ يعني أنزل الوحي عذراً من الله تعالى من الظلم أو نذراً لخلقه من عذابه، قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص بضم العين وجزم الذال أو نذراً بضم النون وجزم[3] الذال والباقون بضم الحرفين في كليهما فمعناهما إنذار وهو جمع نذر يعني لإنذار ومن قرأ بالجزم فمعناه كذلك وهو للتخفيف وإنما نصب عـذراً أو نذراً لأنهما مفعولا لهما فمعناه فالملقيات ذكراً للإعذار والإنذار ثم قال عز وجل ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ وهو جواب قسم أقسم الله تعالى بهذه الأشياء إن ما توعدون من أمر الساعة والبعث لواقع يعني لكائن ولنازل

(١) أعراض هذه السورة تتمثل فيما اشتملت عليه من الاستدلال على وقوع البعث عقب فناء الدنيا ووصف بعض أشراط ذلك. والاستدلال على إمكان إعادة الخلق بما سبق من خلق الإنسان وخلق الأرض. ووعيد منكريه بعذاب الآخرة ووصف أهواله. والتعريض بعذاب لهم في الدنيا كما استؤصلت أمم مكذبة من قبل. ومقابلة ذلك بجزاء الكرامة للمؤمنين. وإعادة الدعوة إلى الإسلام والتصديق بالقرآن لظهور دلائله. التحرير ٢٩/ ٤١٩.

(٢) سلمة بن كهيل الحضرمي، أبو يحيى الكوفي ثقة. التقريب ١/ ٣١٨.

(٢) انظر حجة القراءات ٧٤٢.

ثم قال عز وجل ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ يعني الموعد الذي يوعدون في اليوم الذي فيه طمست النجوم يعني ذهب ضوؤها ﴿وإِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ﴾ يعني انشقت من خوف الرحمن ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ يعني قلعت من أصولها حتى سويت بالأرض ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ يعني جمعت وروى منصور عن إبراهيم وإذا الرسل اقتت قال وعدت[١] وقال مجاهد أي[٢] أجلت قرأ أبو عمرو وقتت بغير همزة[٣] والقرب تقول صلى القوم إحداناً ووحداناً ومعناهما واحد يعني يجعل لها وقتاً واحداً وقيل جمعت لوقتها ثم قال ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ على وجه التعظيم يعني لأي يوم أجلت الرسل ليشهدوا على قومهم ثم بين فقال ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ يعني أجلها ليوم الفصل وهو يوم القضاء، ويقال يوم الفصل يعني يوم يفصل بين الحبيب والحبيبة وبين الرجل وأمه وأبيه وأخيه ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ يعني ما تدري أي يوم القضاء تعظيماً لذلك اليوم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني الشدة من العذاب في ذلك اليوم للذين أنكروا وجحدوا بيوم القيامة.

أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾

ثم قال عز وجل ﴿آلَمْ نُهْلِك الْأَوَّلِينَ﴾ يعني ألم يهلك الله تعالى من كان قبلهم بتكذيبهم لأنبيائهم ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُم الآخِرِينَ﴾ يعني نهلك الآخرين يعني إن كذبوا رسلهم ﴿كَذَلِكَ نَفعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ يعني هكذا يفعل الله بالكفار ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني الذين كذبوا رسلهم ثم قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُمْ مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ يعني من نطفة وهو ماء ضعيف ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ يعني في رحم الأم ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ يعني إلى وقت معروف وهو وقت الخروج من البطن ﴿فَقَدَرْنَا﴾ يعني فخلقنا ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ يعني نعم الخالق وهو أحسن الخالقين قرأ نافع والكسائي فقدرنا بتشديد الدال المهملة والباقون بالتخفيف[٤] ومعناهما واحد، يقال: قدرت كذا وكذا وقد يعني خلقه في بطن الأم نطفة ثم علقة ثم مضغة يعني قدرنا خلقه قصيراً وطويلاً فنعم القادرون يعني فنعم ما قدر الله تعالى خلقهم ثم أخبرهم بصنعه ليعتبروا فيؤمنوا بالبعث وعرفوا الخلق الأول فقال ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لَلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٠٣ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم النخعي.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٠٣ وعزاه لعبد بن حميد عن مجاهد.

(٣) المصدر السابق.

(٤) وحجتهم قوله ﴿فنعم القادرون﴾ ولم يقل المقدرون. فأجروا على لفظ ما جاوره إذ لم يقم على التفريق بين اللفظين. وكان المعنى فيه: فملكنا فنعم الملكون، فكان لفظ يشاكل بعضه بعضاً في اللفظ والمعنى. ومن شدّد فإنه أحب أن يجري على معنيين كل واحد منها بخلاف الآخر، وذلك ﴿فقدرنا﴾ مرة بعد مرة لأنه ذكر الخلق فقال: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلنا في قرار مكين. إلى قدر معلوم﴾ فذلك منه فعل متردد، فشدّد إرادة تردد الفعل على سنن العربية. وقد أوضح هذا المعنى في تقرير خلق الإنسان بما أجمعوا فيه على التشديد وهو قوله «من نطفة خلقه فقدّره» فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. حجة القراءات ٧٤٣.

الشدة من العذاب لمن رأى الخلق الأول فأنكر الخلق الثاني ويقال فنعم القادرون يعني نعم المقدرون، ويقال نعم المالكون. ثم قال عز وجل ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً﴾ يعني أوعية للخلق ويقال موضع القرار، ويقال بيوتاً ومنزلاً ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً﴾ يعني ظهرها منازل الأحياء وبطنها منازل الأموات، وقال الأخفش يعني أوعية للأحياء والأموات، وقال الشعبي بطنها لأمواتكم وظهرها لأحياءكم ويقال يعني نظمكم فيها والكفت الضم ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ يعني الجبال الثقال ﴿شَامِخَاتٍ﴾ يعني عاليات طوالاً ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً﴾ يعني ماءً عذباً من السماء ومن الأرض ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني ويل لمن عاين هذه الأشياء وأنكر وحدانية الله تعالى والبعث ثم قال عز وجل ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ يعني يوم الفصل يقال لهؤلاء الذين أنكروا البعث انطلقوا إلى ما كنتم تكذبون يعني انطلقوا إلى العذاب ثم قال عز وجل ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ وذلك أنه يخرج عنق من النار فيحيط الكفار مثل السرادق ثم يخرج من دخان جهنم ظل أسود فيفرق فيهم ثلاث فرق رؤوسهم فإذا فرغ من عرضهم قيل لهم انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ينفعهم ولا يغني من اللهب يعني السرادق من لهب النار. وقال القتبي: وذلك أن الشمس تدنو من رؤوسهم يعني رؤوس الخلق أجمع، وليس عليهم يومئذ لباس ولا لهم أكنان ينجي الله تعالى برحمته من يشاء إلى ظل من ظله ثم قال للمكذبين انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون من عذاب الله وعقابه انطلقوا إلى ظل أي دخان من نار جهنم قد يسطع ثم افترق ثلاث فرق فيكونون فيه إلى أن يفرغ من الحساب كما يكون أولياته في ظله ثم يؤمر لكل فريق إلى مستقره الجنة أو إلى النار ثم وصف الظل فقال لا ظليل يعني لا يظلكم من حر هذا اليوم بل يزيدكم من لهب النار إلى ما هو أشد عليكم من حر الشمس ولا يغني من اللهب وهذا مثل قوله وظل من يحموم وهو الدخان وهو سرادق أهل النار كما ذكر المفسرون.

إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

ثم قال عز وجل ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ يعني النار ترمي بشرر القصر قال الكلبي يعني يشبه القصر وهو القصور الأعاريب التي على الماء واحدها عربة وهي الأرحية التي تكون على الماء تطحن الحنطة وقال مقاتل القصور أصول الشجر العظام وقال مقاتل إنها ترمي بشرر كالقصر أراد القصور من قصور أحياء العرب وقرأ بعضهم كالقصر بنصب الصاد شبه بأعناق[1] النخل ثم شبه في لونه بالجمالات الصفر فقال: ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ وهو أسود والعرب تسمي السود من الإبل الصفرُ لأنه يشوبه صفرة كما قال الأعشى:

---

(١) وهي قراءة ابن عباس ومجاهد وحميد والسلمي. انظر تفسير القرطبي ١٩/١٠٦.

تِـلْكَ خَيْـلِي وَتِـلْكَ مِـنـهـا رِكَـابِـي هُـنَّ صُـفْـرٌ أَوْلَادُهـا كَـالـزَّبِـيـبِ[1]

يعني أسود، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص «جمالة صفر» وهي جمع جمل يقال جمل وجمال وجمالة وقرأ الباقون جمالات[2] وهو جمع الجمع وقال ابن عباس رضي الله عنه جمالات حيال السفينة يجمع بعضها إلى بعض حتى يكون مثل أوساط الرجال ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني: ويل لمن جحد هذا اليوم بعدما سمعه ثم قال عز وجل ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ﴾ يعني: لا يتكلمون وهذا في بعض أحوال يوم القيامة ومواضعها ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ يعني: لا يؤذن لهم في الكلام يعني الكفار ليعتذروا ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني: ويل لمن جحد يوم القيامة وهو يقدر على الكلام في هذا اليوم يعني: كان في الدنيا يقدر على المعذرة فتركها ثم قال عز وجل ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ يعني: يوم القضاء ويقال يوم الفصل يعني بين أهل الجنة وبين أهل النار ﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ يعني: جمعناكم يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم مع من مضى قبلكم ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونَ﴾ يعني: إن كان لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني: ويل لمن أنكر قدرة الله والبعث والجمع يوم القيامة ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني: إن الذين يتقون الشرك والفواحش.

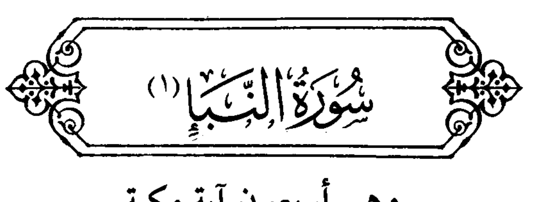
قال الكلبي في ظلال الأشجار وقال مقاتل يعني في الجنان والقصور يعني قصور الجنة وعيون يعني أنهار جارية ﴿وَفَوَاكِهَ﴾ يعني وألوان الفواكه ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ يعني يتمنون ويقال لهم ﴿كُلُوا﴾ يعني من الطعام ﴿وَاشْرَبُوا﴾ من الشراب ﴿هَنِيئاً﴾ يعني سائغاً مريئاً لا يؤذيهم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني ثواباً لكم بما عملتم في الدنيا ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني هكذا يثيب الله الموحدين المحسنين المؤمنين في أعمالهم وأفعالهم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني ويل لمن أنكر هذا الثواب ثم قال للمجرمين عز وجل ﴿كُلُوا وتمتعوا قَلِيلاً﴾ يعني كلوا في الدنيا كما تأكل البهائم وعيشوا مدة قليلة إلى منتهى آجالكم ﴿إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ يعني مشركين، وهذا وعيد وتهديد ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني لمن رضي بالدنيا ولا يقر بالبعث ثم قال عز وجل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ يعني اخضعوا لله تعالى بالتوحيد لا يخضعون، ويقال وإذا قيل لهم صلوا وأقروا بالصلاة لا يركعون يعني لا يقرون بها ولا يصلون

يعني ويل طويل لمن لا يقر بالصلاة ولا يؤديها وقال مقاتل نزلت في ثقيف قالوا أنحني في الصلاة لأنه مذلة علينا ثم قال عز وجل ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني إن لم يصدقوا به فبأي كلام يصدقون يعني إن لم يصدقوا بالقرآن ولم يقروا به فبأي حديث يصدقون يعني هذا الكلام لا باطل فيه يعني لا حديث أصدق منه ولا دعوة أبلغ من دعوى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والله أعلم بالصواب.

---

(١) البيت للأعشى كما ذكر المصنف انظر ديوانه ص ٣٧١ وكذا نسبه له صاحب اللسان ٤/٢٤٥٨.

(٢) انظر حجة القراءات ٧٤٤.



سورة النبإ(١)

وهي أربعون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى ﴿**عَمَّ يتسَاءَلُونَ**﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما بعث جعلوا يتساءلون فيما بينهم ويقولون ما الذي جاء به هذا الرجل فنزل عم يتساءلون يعني عماذا يتساءلون ثم قال ﴿**عَنِ النَّبَأ الْعَظِيم**﴾ يعني **يتساءلون عن الخبر العظيم وهو القرآن كقوله ـ «قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون»** ويقال معناه عن ماذا يتحدثون وعن أي شيء يتحدثون ثم قال عن النبأ **العظيم يعني** خبراً عظيماً وقال الزجاج أصله عما يتساءلون ثم بين فقال عن النبأ العظيم يعني عن أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقيل عن القرآن وقيل عن النبأ العظيم يعني عن البعث والدليل قوله تعالى «إن يوم الفصل كان ميقاتاً» ثم بين لهم الأمر الذي كانوا يتساءلون وهو البعث ثم قال عز وجل ﴿**الذي هم فيه مختلفون**﴾ يعني مصدقاً ومكذباً يعني بالبعث بعضهم مصدق وبعضهم مكذب، ويقال بالقرآن ويقال بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال الله تعالى ﴿**كلا سيعلمون**﴾ يعني سيعرفون ﴿**ثم كلا سيعلمون**﴾ يعني سيعرفون ذلك الوعيد على أثر الوعيد يعني سيعلمون عند الموت وفي الآخرة ويتبين لهم بالمعاينة قرأ ابن عامر ستعلمون بالتاء على وجه المخاطبة وقرأ الباقون بالياء على معنى الخبر عنهم.

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾

---

(١) اشتملت هذه السورة على وصف خوض المشركين في شأن القرآن وما جاء به مما يخالف معتقداتهم، ومن ذلك إثبات البعث، وسؤال بعضهم بعضاً عن الرأي في وقوعه مستهزئين بالأخبار عن وقوعه. وتهديدهم على استهزائهم.
وفيها إقامة الحجة على إمكان البعث بخلق المخلوقات التي هي أعظم من خلق الإنسان بعد موته وبالخلق الأول للإنسان وأحواله.
ووصف الأهوال الحاصلة عند البعث من عذاب الطاغين مع مقابلة ذلك بوصف نعيم المؤمنين.
وصفة يوم الحشر إنذاراً للذين جحدوا به والإيماء إلى أنهم يعاقبون بعذاب قريب قبل عذاب يوم البعث.
وأدمج في ذلك أن علم الله تعالى محيط بكل شيء ومن جملة الأشياء أعمال الناس. التحرير ٦/٣٠.

ثم ذكر صنعه ليستدلوا بصنعه على توحيده فقال تعالى ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾ يعني فراشاً ومقاماً ويقال موضع القرار، ويقال: معناه ذللنا لهم الأرض ليسكنوها ويسيروا فيها ﴿والجبال أوتاداً﴾ يعني أوتدها وأثبتها ثم قال ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً﴾ يعني أصنافاً وأضداداً ذكراً وأنثى، ويقال ألواناً بيضاً وسوداً وحمراً ﴿وجعلنا نومكم سُبَاتاً﴾ يعني راحة لأبدانكم وأصله التمدد فلذلك سمي السبت لأنه قيل لبني إسرائيل استريحوا فيه. ويقال سباتاً يعني سكوناً وانقطاعاً عن الحركات ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ يعني سكوناً يسكنون فيه ويقال ستراً يستر كل شيء ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾ يعني مطلباً للمعيشة ﴿وبنينا فوقكم سبعاً شداداً﴾ يعني سبع سموات غلاظاً كل سماء مسيرة خمسمائة عام ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾ يعني وقاداً مضيئة ﴿وأنزلنا من المعصرات﴾ يعني من السحاب سمي معصرات لأنها تعصر الماء ويقال المعصرات هي الرياح يعني ذوات الأعاصير كقوله إعصاراً فيه نار ثم قال عز وجل ﴿ماء ثجاجاً﴾ يعني سيالاً، ويقال منصباً كثيراً ﴿لِنُخرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً﴾ يعني بالماء حبوباً كثيرة للناس ونباتاً للدواب من العشب والكلأ ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً﴾ يعني شجرها ملتفاً بعضها في بعض فأعلم الله تعالى قدرته أنه قادر على البعث فقال ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً﴾ يعني يوم القيامة ميقاتاً وميعاداً للأولين والآخرين ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾ يعني جماعة جماعة. وروي في بعض الأخبار عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال يبعث الله تعالى الناس صوراً مختلفة بعضهم على صورة الخنزير وبعضهم على صورة القردة وبعضهم وجوههم كالقمر ليلة البدر[1] ثم قال عز وجل ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ يعني أبواب السماء ﴿فَكَانَتْ أَبْوَاباً﴾ يعني صارت طرقاً قرأ حمزة والكسائي وعاصم وفتحت بالتخفيف والباقون بالتشديد[2] وهو لتكثير الفعل والتخفيف بفتح مرة واحدة ثم قال عز وجل ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ يعني قلعت من أماكنها ﴿فَكَانَتْ سَرَاباً﴾ يعني فصارت كالسراب تسير في الهواء كالسراب في الدنيا ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾ أي رصداً لكل كافر ويقال سجناً ومحبساً ﴿لِلطَّاغِينَ مَئَاباً﴾ أي للكافرين مرجعاً يرجعون إليها ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ يعني ماكثين فيها أبداً دائماً والأحقاب وأحدها حقب والحقب ثمانون سنة واثنا عشر شهراً وكل شهر ثلاثون يوماً وكل يوم منها مقدار ألف سنة مما تعدون بأهل الدنيا فهذا حقب واحد، والأحقاب هو التأبيد كلما مضى حقب دخل حقب آخر، وإنما ذكر أحقاباً لأن ذلك كان أبعد شيء عندهم فذكر وتكلم بما تذهب إليه أوهامهم ويعرفونه وهو كناية عن التأبيد أي يمكثون فيها أبداً قرأ حمزة لبثين بغير ألف والباقون لابثين بالألف[3] ومعناهما واحد.

لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا

---

(١) انظر الدر المنثور ٦/٣٠٧.

(٢) حجتهم قوله «فكانت أبواباً» والتشديد للتكثير ويقوى هذا قوله «مفتحة لهم الأبواب» بالتشديد ومن قرأ بالتخفيف قال: التخفيف يكون للقليل والكثير. انظر حجة القراءات ٧٤٥.

(٣) المصدر السابق.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٧﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٨﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾﴾

ثم قال عز وجل ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً﴾ يعني لا يكون فيها برد يمنعهم من حرها وقال القتبي: البرد النوم، وقال الزجاج: يجوز أن يكون البرد نوماً، ويجوز أن يكون معناه لا يذوقون فيها برد ريح ولا ظل ﴿وَلَا شَرَاباً﴾ يعني شراباً ينفعهم ﴿إِلَّا حَمِيماً﴾ يعني ماءً حاراً قد انتهى حره ﴿وَغَسَّاقاً﴾ يعني زمهريراً، وقال الزجاج: الغساق ما يغسق من جلودهم أي ما يسيل وقد قيل الشديد البرد قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص وغساقاً بالتشديد والباقون بالتخفيف، ومعناهما واحد ثم قال ﴿جَزَاء وِفَاقاً﴾ يعني العقوبة موافقة لأعمالهم لأن أعظم الذنوب الشرك نعوذ بالله وأعظم العذاب النار ووافق الجزاء العمل ثم قال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً﴾ يعني لا يخافون البعث بعد الموت، ويقال: كانوا لا يرجون ثواب الآخرة أنهم كانوا ينكرون البعث قوله تعالى ﴿وكذبوا بآيتنا كِذَاباً﴾ يعني جحدوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن كذاباً يعني تكذيباً وجحوداً ثم قال ﴿وَكلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كتاباً﴾ يعني أثبتناه في اللوح المحفوظ ﴿فذوقوا﴾ يعني يقال لهم فذوقوا العذاب ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إلا عَذَاباً﴾ ثم بين حال المؤمنين فقال عز وجل ﴿إن للمتقين مفازاً﴾ يعني نجاة من النار إلى الجنة ويقال المفاز بمعنى الفوز يعني موضع النجاة ﴿حدائق وأعناباً﴾ يعني لهم حدائق في الجنة والحدائق ما أحيط بالجدار وفيه من النخيل والثمار وأعناباً يعني كروما ﴿وكواعب أتراباً﴾ والكواعب الجواري مفلكات الثديين أتراباً مستويات في الميلاد والسن وقال أهل اللغة الكواعب النساء قد كعب ثديهن[١] ﴿وكأساً دهاقاً﴾ كل إناء فيه شراب فهو كأس فإذا لم يكن فيه شراب فليس بكأس كما يقال للمائدة إذا كان عليها طعام مائدة وإذا لم يكن فيها طعام خوان يقال دهاقاً يعني سائغاً وقال الكلبي: وكأساً دهاقاً يعني: إناء فيه خمر ملآن متتابعاً[٢] وهذا قول عطية وسعيد والعباس بن عبد المطلب رضي الله عنهم ومجاهد وإبراهيم النخعي ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ يعني حلفاً وباطلاً ويقال ولا يسمعون في مشربها فحشاً خبثاً ﴿ولا كذاباً﴾ يعني تكذيباً في شربها يعني لا يكذبون فيها قرأ الكسائي كذاباً بالتخفيف يعني لا يكذب بعضهم بعضاً وقرأ الباقون بالتشديد[٣] فهو من التكذيب ثم قال ﴿جزاءً مِنْ ربك﴾ يعني ثواباً من ربك ﴿عطاءً حِساباً﴾ يعني كثيراً وقال مجاهد عطاء من الله حساباً بما[٤] عملوا وقال أهل اللغة حساباً أي كثيراً كما يقال أعطينا فلاناً عطاء حساباً أي كثيراً وأصله أن يعطيه حتى يقول حسبي، وقال الزجاج حساباً أي ما يكفيهم يعني فيه ما يشتهون ثم قال ﴿رَبِّ السموات والأرضِ﴾ يعني خالق السموات والأرض قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو رب السموات والأرض بضم الباء والباقون بالكسر[٥] فمن قرأ بالضم فمعناه هو رب السموات والأرض ومن قرأ بالكسر فهو على معنى الصفة أي: جزاءاً من ربك رب السموات والأرض ﴿وما بينهما الرحمنِ﴾ يعني الرحمن هو رب السموات والأرض ﴿لا

---

(١) انظر لسان العرب ٣٨٨٨/٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٠٩/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد.

(٣) انظر حجة القراءات ٧٤٦.

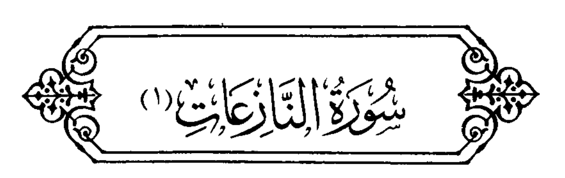
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٠٩/٦ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٥) انظر حجة القراءات ٧٤٦.

يملكون منه خطاباً﴾ يعني لا يملكون الكلام بالشفاعة إلا بإذنه **﴿يَوْمَ يقومُ الروحُ﴾** قال الضحاك هو جبريل وقال قتادة عن ابن عباس وخلق على صورة بني آدم، ويقال هو خلق واحد يقوم صفاً واحداً **﴿والملائكةُ صفّاً﴾** يعني صفوفاً، ويقال: الروح لا يعلمه إلا الله. كما قال قل الروح من أمر ربي، ثم قال عز وجل **﴿لا يتكلمون إلا مَنْ أَذِنَ له الرَّحْمَنُ﴾** يعني لا يتكلمون بالشفاعة إلا من أذن له الرحمن بالشفاعة **﴿وَقَالَ صَوَاباً﴾** يعني لا إله إلا الله يعني من كان معه من التوحيد وهو من أهل الشفاعة ثم قال عز وجل **﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾** يعني القيامة كائنة **﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ﴾** يعني من شاء وجد واتخذ بذلك التوحيد **﴿إِلَى رَبِّه مَـآباً﴾** يعني مرجعاً ويقال من شاء اتخذ بالطاعة إلى ربه مرجعاً ثم خوفهم فقال **﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً﴾** يعني خوفناكم بعذاب قريب وهو يوم القيامة ثم خوف المؤمنين ووصف ذلك اليوم **﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾** يعني ما عملـوا من الخيـر والشـر يعني يـنظر المؤمن إلى عمله وينظر الكافر إلى عمله **﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾** يعني لو كنت بهما منها فأكون تراباً أستوي بالأرض وذلك أن الله تعالى يقول للسباع والبهائم كوني تراباً فعند ذلك يتمنى الكافر يا ليتني كنت تراباً، وروى عبد الله بن عمر عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال إن الله يحشر البهائم والدواب والناس ثم يقتص لبعضهم من بعض حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء ثم إن الله تعالى يقول لها كوني تراباً فيراها الكافر ويتمنى أن يكون مثلها تراباً، ويقول: يا ليتني كنت تراباً[1] يعني يا ليتني لم أبعث كقوله (يا ليتني لم أوت كتابيه) إلى قوله «يا ليتها كانت القاضية» والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٠ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث والنشور.


سورة النازعات(١)

وآياتها ست وأربعون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى ﴿والنازعاتِ غَرْقاً﴾ قال مقاتل يعني ملك الموت ينزع روح الكافر من صدره كما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف فيخرج نفسه من حلقه منها العروق كالغريق في الماء ﴿والناشطاتِ نَشْطاً﴾ ملك الموت ينشط روح الكافر من قدمه إلى حلقه وقال الكلبي: (والنازعات) يعني ملك الموت وأعوانه غرقاً كرهاً يقال: غرقت نفسه في صدره وذلك أنه ليس من كافر يحضره الموت إلا عرضت عليه جهنم فيراها قبل أن يخرج نفسه فيرى فيها أقواماً مرة ينغمسون ومرة يرتفعون فعند ذلك تغرق روحه في جسده (والناشطات نشطاً) يعني الملائكة الذين يقبضون أرواح المؤمنين بالتيسير وذلك أنه ما من مؤمن يحضره الموت إلا ويرى منزلته في الجنة ويرى فيها أقواماً من أهل معرفته وهم يدعون إلى أنفسهم فعند ذلك ينشط إلى الخروج ويقال: النازعات الملائكة تنزع النفس أغراقاً كما يغرق النازع في القوس والناشطات الملائكة تقبض نفس المؤمن كما ينشط العقال وقال عطاء والنازعات غرقاً يعني ألقى والناشطات نشطاً يعني الأوهاق ثم قال ﴿والسابِحَاتِ سَبْحاً﴾ يعني الملائكة الذين يقبضون أرواح

(١) اشتملت هذه السورة على إثبات البعث والجزاء، وإبطال إحالة المشركين وقوعه. وتهويل يومه وما يعتري الناس حينئذ من الوهل.
وإبطال قول المشركين بتعذر الإحياء بعد انعدام الأجساد.

وعرض بأن نكرانهم إياه منبعث عن طغيانهم فكان الطغيان صاداً لهم عن الإصغاء إلى الإنذار بالجزاء فأصبحوا آمنين في أنفسهم غير مترقبين حياة بعد هذه الحياة الدنيا بأن جعل مثل طغيانهم كطغيان فرعون وإعراضه عن دعوة موسى عليه السلام وأن لهم في ذلك عبرة، وتسلية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وانعطف الكلام إلى الاستدلال على إمكان البعث بأن خلق العوالم وتدبير نظامه أعظم من إعادة الخلق.
وأدمج في ذلك إلفات إلى ما في خلق السماوات والأرض من دلائل على عظيم قدرة الله تعالى.
وأدمج فيها امتنان في خلق هذا العالم من فوائد يجتنونها وأنه إذا حل عالم الآخرة وانقرض عالم الدنيا جاء الجزاء على الأعمال بالعقاب والثواب.

وكشف عن شبهتهم في إحالة البعث باستبطائهم إياه وجعلهم ذلك أمارة على انتفائه فلذلك يسألون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن تعيين وقت الساعة سؤال تعنت، وأن شأن الرسول أن يذكرهم بها وليس شأنه تعيين إبانها، وأنها يوشك أن تحل فيعلمونها عياناً وكأنهم مع طول الزمن لم يلبثوا إلا جزءاً من النهار. التحرير ٣٠/٥٩ ـ ٦٠.

الصالحين يسلونها سلاً رقيقاً ويتركونها حتى تستريح رويداً، ويقال: والسابحات سبحاً يعني السفن تجري في الماء ويقال والسابحات سبحاً يعني الملائكة جعل نزولها في السماء كالسباحة ويقال والسابحات سبحاً يعني النجوم الدوارة كما قال وكل في فلك يسبحون ثم قال ﴿فالسابقاتِ سَبْقاً﴾ يعني الملائكة الذين يسبقون إلى الخير والدعاء ويقال فالسابقات سبقاً بالخير يعني أرواح المؤمنين يعرج بها إلى السماء سراعاً يفتح لها أبواب السماء ويقال فالسابقات سبقاً يعني خيول الغزاة ﴿فالمدبِّراتِ أمراً﴾ يعني الملائكة الذين جعل إليهم تدبير الخلق وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام أما جبريل فعلى الوحي وإنزال الرحمة والعذاب على الخلائق بأمر الله وأما ميكائيل فعلى الأمطار والنبات يقسم على البلاد والعباد بإذن الله. وأما عزرائيل وهو ملك الموت فعلى قبض الأرواح عند انقضاء أجلهم بإذن الله تعالى وأما إسرافيل فعلى النفح في الصور متى أمره الله تعالى. فهذا كله قسم وجواب القسم مضمر فكأنه أقسم بهذه الأشياء أنهم يبعثون يوم القيامة لأن في الكلام دليلاً عليه وهو قوله ﴿يَوْمَ تَرْجُفَ الراجِفَةَ﴾ يعني لتبعثن يوم القيامة في يوم ترجف الراجفة يعني الصيحة الأولى ﴿تَتْبَعُهَا الـرَّادِفَةُ﴾ يعني الصيحة الثانية يعني النفخة الأولى للصعق، والنفخة الأخرى للبعث وروي عن يزيد بن ربيعة[١] عن الحسن في قوله يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قال هما النفختان فأما الأولى فيميت الأحياء وأما الثانية فتحيي الموتى ثم تلا ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون[٢]، وأصل الرجفة[٣] الحركة يعني تزلزلت الأرض زلزلة شديدة عند النفخة الأولى والرادفة كل شيء تجيء بعد شيء فهو يردفه ثم قال ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ يعني خائفة خاشعة من هول ذلك اليوم ويقال يعني ذليلة ويقال زائلة عن مكانها ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ يعني أبصار الخلائق ذليلة، ويقال أبصار القلوب خاشعة ثم ذكر قول الكفار وإنكارهم البعث فقال ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ تعجباً منهم وفي الآية تقديم ومعناه أئنا لمردودون في الحياة بعد الموت، ويقال: أئنا لمردودون في الحافرة أي إلى أول أمرنا يقال رجع فلان في حافرته وعلى حافرته أي رجع من حيث جاء ثم قال ﴿ائذا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً﴾ يعني بعد ما كنا عظاماً بالية، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر إذا كنا عظاماً ناخرة بالألف والباقون بغير ألف[٤] قال بعضهم معناهما واحد هما لغتان وقال بعضهم الناخرة التي أكلت أطرافها وبقيت أوساطها والنخرة التي قد فسدت كلها وقال مجاهد عظاماً نخرة أو مرفوتة[٥] كما قال في قوله عظاماً ورفاتاً ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ يعني إن كانوا كما يقولون فنحن بخسران قوله تعالى ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ يعني يبعثهم صيحة واحدة وهو نفخ إسرافيل في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ يعني على وجه الأرض يعني هم قيام على ظهر الأرض، ويقال سميت الأرض ساهرة لقيام الخلق وسهرهم عليها.

---

(١) يزيد بن ربيعة الرحبي الدمشقي قال البخاري أحاديثه مناكير. انظر ميزان الاعتدال ٤/٤٢٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١١ وعزاه لعبد بن حميد عن الحسن.

(٣) انظر لسان العرب ٣/٢٥٩٥.

(٤) حجة من قرأ بالألف أن رؤوس الآيات بالألف نحو: (الحافرة، والرادفة، والراجفة والساحرة)، فالألف أشبه بمجيء التنزيل وبرؤوس الآيات.

وحجة من قرأ بغير ألف أن ما كان منتظراً لم يكن فهو بالألف، وما كان وقع فهو بغير ألف. قال اليزيدي: (يقال عظم نخر وناخر غدا) فدل على أنهم قالوا: إذا كنا بعد موتنا عظاماً نخرة: قد نخرت. وقال أبو عمرو: نخرة وناخرة واحد. وكذا قال الفراء مثل: الطامع والطمع. حجة القراءات ٧٤٨.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١١ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾

ثم وعظهم بما أصاب فرعون في النكال في الدنيا فقال ﴿هَلْ آتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ يعني قد أتاك خبر موسى ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّس﴾ يعني بالوادي المطهر ﴿طُوًى﴾ اسم الوادي ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ يعني علا وتكبر وكفر فقال الله تعالى ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ يعني ألم يأن لك أن تسلم، ويقال: معناه هل ترغب في توحيد ربك وتشهد أن لا إله إلا الله، وتزكي نفسك من الكفر والشرك قرأ ابن كثير ونافع إلى أن تزكي بتشديد الزاء لأن أصله تتزكى وأدغمت التاء في الزاء وشددت والباقون بالتخفيف[٢]، لأنه حذف إحدى التائين وتركت مخففة ثم قال ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ يعني أدعوك إلى توحيد ربك فتخشى يعني تخاف عذابه فتسلم ﴿فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى﴾ يعني العصا واليد وسائر الآيات ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ يعني كذب الآيات ولم يقبل قول موسى عليه السلام ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى﴾ يعني أدبر عن التوحيد وسعى في هلاك موسى ﴿فَحَشَرَ﴾ يعني فجمع أهل المدينة ﴿فَنَادَى﴾ يعني فخاطب ﴿فَقَالَ﴾ لهم اعبدوا أصنامكم التي كنتم تعبدون فإن هؤلاء أربابكم الصغار ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾ يعني فعاقبه بعقوبة الدنيا والآخرة وهي الغرق وعقوبة الآخرة وهي النار، ويقال الآخرة، والأولى يعني العقوبة بالكلمة الأولى والكلمة الأخرى فأما الأولى قوله «ما علمت لكم من إله غيري» والأخرى قوله «وأنا ربكم الأعلى» وكان بين الكلمتين أربعون سنة، ويقال: قوله «وأنا ربكم الأعلى» كان في الابتداء حيث أمرهم بعبادة الأصنام ثم نهاهم عن ذلك وأمرهم بأن لا يعبدوا غيره، وقال: «ما علمت لكم من إله غيري» ثم قال ﴿إِنَّ في ذلك﴾ يعني في هلاك فرعون وقومه ﴿لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ يعني لعظة لمن يريد أن يعتبر ويسلم.

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

ثم وعظ أهل مكة فقال ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ﴾ يعني أبعثكم بعد الموت أشد أم خلق السماء في المشاهدة عند الناس خلق السماء أشد فالذي هو قادر على خلق السماء قادر على البعث ثم قال ﴿بَنَاهَا﴾ يعني خلق

---

(١) المصدر السابق.

السماء مرتفعة ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي سقفها بغير عمد ﴿فَسَوَّاهَا﴾ يعني سوى خلقها، ويقال خلقها مستوية بلا صدع ولا شق ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ يعني أظلم ليلها ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ يعني أنوار ضحاها وشمسها ونهارها فإنها راجعة إلى السماء ثم قال عز وجل ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ يعني بعد خلق الأرض السماء وبسط الأرض ومدها ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ يعني من الأرض ماءها يعني عيونها للناس ﴿وَمَرْعَاهَا﴾ للدواب والأنعام، قال القتبي: هذا من جوامع الكلم حيث ذكر شيئين على جميع ما يخرج من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنعام من العنب والشجر والحب والتمر والملح والنار لأن النار من العيدان والملح من الماء ثم قال عز وجل ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ يعني أوتدها وأثبتها ﴿مَتَاعاً لَكُمْ﴾ يعني منفعة لكم ﴿وَلأَنْعَامِكُمْ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ يعني الصيحة العظمى وإنما سميت الطامة لأنها طمت وعلت فوق كل شيء ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ يعني يعلم بكل شيء عمله في الدنيا، ويقال: يوم ينظر الإنسان في كتابه بما عمل من الخير والشر ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾ يعني أظهرت الجحيم ﴿لِمَنْ يَرَى﴾ يعني لمن وجب له ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ يعني كفر وعلا وتكبر ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يعني اختار ما في الدنيا على الآخرة، ويقال: اختار العمل للدنيا على الآخرة ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ يعني مأوى من كان هكذا ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ يعني خاف المقام بين يدي ربه ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ يعني منع نفسه عن معاصي الله تعالى وعمل بخلاف ما تهوى في الحرام ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ يعني مأوى من كان هكذا، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أخوف ما أخاف عليكم اثنان طول الأمل واتباع الهوى فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

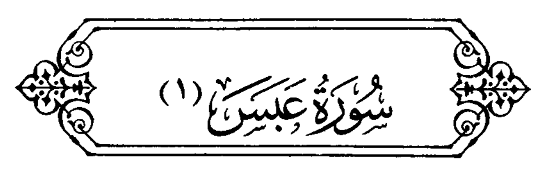
قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ يعني يسألونك عن قيام الساعة ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي وقت قيامها وأصله أي أوان ظهورها ووقتها، قال الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ يعني دع ما أنت وذاك دع ذلك إلى الله ثم قال ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ يعني عند ربك علم. [قيامها، وروى سفيان عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت لم يزل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسأل عن الساعة حتى نزل «فيم أنت من ذكراها إلى ربك»][1] منتهاها يعني عند ربك علم قيامها وانتهى عند ذلك[2] ثم قال عز وجل ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ يعني أنت مخوف بالقرآن من يخاف قيام الساعة وليس عليك أن تعرف متى وقتها ثم قال عز وجل ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ يعني قيام الساعة ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ يعني كأنهم لبثوا في قبورهم مقدار عشية، وهو قدر آخر النهار أو ضحاها وهو قدر أول النهار ويقال كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا مقدار العشية أو مقدار الضحى قرأ[3] أبو عمرو في إحدى الروايتين إنما أنت منذر بالتنوين والباقون بغير تنوين فمن قرأ بالتنوين جعل من في موضع النصب يعني منذر الذي يخشاها ومن قرأ بغير تنوين جعل من في موضع خفض بالإضافة. والله الموفق بمنه وكرمه وصلى الله على سيدنا محمد.

---

(١) سقط في أ.

(٢) انظر أسباب النزول للسيوطي ١٧٨.

(٣) انظر إتحاف فضلاء البشر ٤/٥٨٧.



وهي اثنتان وأربعون آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ أي كلح وأعرض بوجهه يعني النبي - صلى الله عليه وسلم - وروى هشام بن عروة قال كان النبي - صلى الله عليه وسلم - جالساً ومعه عتبة بن ربيعة في ناس من وجوه قريش وهو يحدثهم بحديث فجاء ابن أم مكتوم على تلك الحال فسأله عن بعض ما ينفع به فكره النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يقطع كلامه وقال في رواية مقاتل كان اسم ابن أم مكتوم عمر بن قيس، وقال في رواية الكلبي كان اسمه عبد الله بن شريح فقال يا رسول الله علمني مما علمك الله تعالى فأعرض عنه شغلاً بأولئك القوم لحرصه على إسلامهم[٢] فنزل (عبس وتولى) وهو بلفظ المغايبة تعظيماً للنبي - صلى الله عليه وسلم - عبس محمد - صلى الله عليه وسلم - وجهه وتولى يعني وأعرض ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ يعني إن جاءه الأعمى ويقال حين جاءه الأعمى وهو ابن أم مكتوم ثم قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ يعني وما يدريك يا محمد لعله يصلي أو يفلح فيعمل خيراً فيتعظ بالقرآن ويقال يعني يزداد خيراً ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ يعني يتعظ بالقرآن ﴿فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ يعني العظة ثم قال ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ يعني استغنى بنفسه عن ثواب الله، ويقال استغنى بماله ونفسه عن دينك وعظمتك ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ يعني تقبل بوجهك عليه،

---

(١) وقد اشتملت هذه السورة على تعليم الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - الموازنة بين مراتب المصالح ووجوب الاستقراء لخفياتها كيلا يفوت الاهتمام بالمهم منها في بادىء الرأي مهماً آخر مساوياً في الأهمية أو أرجح. ولذلك يقول علماء أصول الفقه أن على المجتهد أن يبحث عن معارض الدليل الذي لاح له. والإشارة إلى اختلاف الحال بين المشركين المعرضين عن هدي الإسلام وبين المسلمين المقبلين على تتبع مواقعه. وقرن ذلك بالتذكير بإكرام المؤمنين وسمو درجتهم عند الله تعالى. والثناء على القرآن وتعليمه لمن رغب في علمه. وانتقل من ذلك إلى وصف شدة الكفر من صناديد قريش بمكابرة الدعوة التي شغلت النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الالتفات إلى رغبة ابن أم مكتوم. والاستدلال على إثبات البعث وهو مما كان يدعوهم إليه حين حضور ابن أم مكتوم وذلك كان من أعظم ما عنى به القرآن من حيث إن إنكار البعث هو الأصل الأصيل في تصميم المشركين على وجوب الإعراض عن دعوة القرآن توهماً منهم بأنه يدعو إلى المحال، فاستدل عليهم بالخلق الذي خلقه الإنسان، واستدل بعده بإخراج النبات والأشجار من أرض ميتة. وأعقب الاستدلال بالإنذار بحلول الساعة والتحذير من أهوالها وبما يعقبها من ثواب المتقين وعقاب الجاحدين. والتذكير بنعمة الله على المنكرين عسى أن يشكروه. والتنويه بضعفاء المؤمنين وعلو قدرهم ووقوع الخير من نفوسهم والخشية، وأنهم أعظم عند الله من أصحاب الغنى الذين فقدوا طهارة النفس، وأنهم أحرياء بالتحقير والذم وأنهم أصحاب الكفر والفجور. التحرير ٣٠/١٠٢.

(٢) أسباب النزول ٢٤٢.

ويقال تصدى يعني تعرض، يقال: فلان تصدى لفلان إذا تعرض له ليراه. قرأ عاصم أو يذكر تنفعه الذكرى بنصب العين، جعله جواباً لعله يتذكر فتنفعه الذكرى، وقرأ الباقون بالضم[١] جعلوه جواباً للفعل، قرأ نافع وابن كثير تصدى بتشديد الصاد لأن الأصل تتصدى فأدغمت وشددت والباقون بحذف التاء للتخفيف[٢] فهذا كقوله (فقل هل لك إلى أن تزكى) ثم قال ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾ يعني أي شيء عليك إن لم يوجد عتبة وأصحابه ويقال: لا يضرك إن لم يؤمن ولم يصلح ثم قال عز وجل ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ يعني يسرع إلى الخير ويعمل به وهو ابن أم مكتوم، ويقال يعني يمشي برجليه ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ ربه ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ يعني تشتغل وتتلاهى وتتغافل وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكرم ابن أم مكتوم بعد نزول[٣] هذه الآية قوله تعالى ﴿كَلَّا﴾ يعني لا تفعل ولا تقبل على من استغنى عن الله تعالى بنفسه وتعرض عمن يخشى الله تعالى ثم قال ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾[٤] يعني هذه الموعظة

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٤٩، إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٨٨.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) أنظر أسباب النزول للواحدي ٣٣٢.

(٤) قال ابن عاشور في المصدر السابق والعبرة من هذه الآيات أن الله تعالى زاد نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ علماً عظيماً من الحكمة النبوية، ورفع درجة علمه إلى أسمى ما تبلغ إليه عقول الحكماء رعاة الأمم، فنبه إلى أن في معظم الأحوال أو جميعها نواحي صلاح ونفع قد تخفى لقلة أطرادها، ولا ينبغي ترك استقرائها عند الاشتغال بغيرها ولو ظنه الأهم، وأن ليس الإصلاح بسلوك طريقة واحدة للتدبير بأخذ قواعد كلية منضبطة تشبه قواعد العلوم يطبقها في الحوادث ويغضي عما يعارضها بأن يسرع إلى ترجيح القوي على الضعيف مما فيه صفة الصلاح، بل شأن مقوم الأخلاق أن يكون بمثابة الطبيب بالنسبة إلى الطبائع والأمزجة فلا يجعل لجميع الأمزجة علاجاً واحداً بل الأمر يختلف باختلاف الناس. وهذا غور عميق يفاض إليه من ساحل القاعدة الأصولية في باب الاجتهاد القائلة أن المجتهد إذا لاح له دليل «يبحث عن المعارض» والقاعدة القائلة «إن لله تعالى حكماً قبل الاجتهاد نصب عليه أمارة وكلف المجتهد بإصابته فإن أصابه فله أجران وإن أخطأه فله أجر واحد». فإذا كان ذلك مقام المجتهدين من أهل العلم لأنه مستطاعهم فإن غوره هو اللائق بمرتبة أفضل الرسل ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما لم يرد له فيه وحي، فبحثه عن الحكم أوسع مدى من مدى أبحاث عموم المجتهدين، وتنقيبه على المعارض أعمق غوراً من تناوشهم لئلا يفوت سيد المجتهدين ما فيه من صلاح ولو ضعيفاً، ما لم يكن إعماله يبطل ما في غيره من صلاح أقوى لأن اجتهاد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مواضع اجتهاده قائم مقام الوحي فيما لم يوح إليه فيه.

فالتزكية الحق هي المِحور الذي يدور عليه حال ابن أم مكتوم وحال المشرك من حيث إنها مرغوبة للأول ومزهود فيها من الثاني، وهي مرمى اجتهاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتحصيلها للثاني والأمن على قرارها للأول بإقباله على الذي يتجافى عن دعوته وإعراضه عن الذي يعلم من حاله أنه متزكٍّ بالإيمان. وفي حاليهما حالان آخران سرهما من أسرار الحكمة التي لقنها الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يخفى في عتاد نظر النظار فأنبأه الله به ليزيل عنه ستار ظاهر حاليهما فإن ظاهر حاليهما قاض بصرف الاهتمام إلى أحدهما وهو المشرك لدعوته إلى الإيمان حين لاح من لين نفسه لسماع القرآن ما أطمع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه قد اقترب من الإيمان فمحّض توجيه كلامه إليه لأن هدى الناس إلى الإيمان أعظم غرض بعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأجله، فالاشتغال به يبدو أهم وأرجح من الاشتغال بمن هو مؤمن خالص، وذلك ما فعله النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

غير أن وراء ذلك الظاهر حالاً آخر كامناً علمه الله تعالى العالم بالخفيات ولم يوح لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ التنقيب عليه وهو حال مؤمن هو مظنة الازدياد من الخير، وحال كافر مصمم على الكفر تؤذن سوابقه بعناده وأنه لا يفيد فيه البرهان شيئاً. وأن عميق التوسم في كلا الحالين قد يكشف للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإعانة الله رجحان حال المؤمن المزداد من الرشد والهدى على حال الكافر الذي لا يغر ما أظهره من اللين مصانعة أو حياء من المكابرة، فإن كان في إيمان الكافر نفع عظيم عام للأمة بزيادة عددها ونفع خاص لذاته. وفي ازدياد المؤمن من وسائل الخير وتزكية النفس نفع خاص له والرسول راع لآحاد الأمة ولمجموعها، فهو مخاطب بالحفاظ على مصالح المجموع ومصالح الآحاد بحيث لا يدحض مصالح الآحاد لأجل مصالح المجموع إلا إذا تعذر=

تذكرة ويقال هذه السورة تذكرة يعني موعظة ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ يعني ذكر المواعظ وذكره يلفظ التذكير ولم يقل ذكرها لأنه ينصرف إلى المعنى لأن الموعظة إنما هي بالقرآن يعني فمن شاء أن يتعظ بالقرآن فليتعظ ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ يعني أن هذا القرآن في صحف مكرمة يعني مطهرة مبجلة معظمة وهو اللوح المحفوظ ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ يعني مرتفعة ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ يعني منزهة عن التناقض والكذب والعيب ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ يعني الكتبة الذين يكتبون في اللوح المحفوظ، ثم أثنى على الكتبة فقال ﴿كِرَامٍ﴾ على الله ﴿بَرَرَةٍ﴾ أي مطيعين لله تعالى، ويقال بررة من الذنوب، وقال القتبي السفرة الكتبة وأحدهما سافر وإنما يقال للكاتب سافر لأنه يبين الشيء ويوضحه ويقال أسفر الصبح إذا أضاء البررة جمع بار مثل كفرة وكافر.

﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

ثم قال تعالى ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ يعني لعن الكافر بالله تعالى يعني عتبة وأصحابه ومن كان مثل حاله إلى يوم القيامة ما أكفره يعني ما الذي أكفره وهذا قول مقاتل، وقال الكلبي يعني أي شيء أكفره قال نزلت في عتبه حيث قال: إني كفرت بالنجم إذا هوى، ويقال: ما أكفره يعني ما أشده في كفره ثم قال ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ يعني هل يعلم من أي شيء خلقه الله تعالى ويقال أفلا يعتبر من أي شيء خلقه ثم أعلمه ليعتبر في خلقه فقال ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ يعني خلقه في بطن أمه طوراً بعد طور ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ يعني يسره للخروج من بطن أمه ويقال يسره طريق الخير والشر، وقال مجاهد هو مثل قوله «إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً» ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ يعني جعل له قبراً يوارى فيه، ويقال: أمر به ليعتبر، ويقال فأقبره أي جعله ممن يقبر ولم يجعله ممن يلقى على وجه الأرض كالبهائم ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ يعني يبعثه في القبر إذا جاء وقته ثم قال ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِي مَا أَمَرَهُ﴾ يعني لم يؤد ما أمره من التوحيد وما هنا صلة كقوله «فبما رحمه من الله» وقال مجاهد «لما يقضي ما أمره» يعني لا يقضي أحداً

= الجمع بين الصالح العام والصالح الخاص، بيد أن الكافر صاحب هذه القضية تنبىء دخيلته بضعف الرجاء في إيمانه لو أطيل التوسم في حاله، وبذلك تعطل الانتفاع بها عموماً وخصوصاً وتمحض أن لتزكية المؤمن صاحب القضية نفعاً لخاصة نفسه ولا يخلو من عود تزكية بفائدة على الأمة بازياد الكاملين من أفرادها. وقد حصل من هذا إشعار من الله لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، بأن الاهتداء صنوف عديدة وله مراتب سامية، وليس الاهتداء مقتصراً على حصول الإيمان مراتب وميادين لسبق همم النفوس لا يغفل عن تعهدها بالتثبيت والرعي والإثمار، وذلك التعهد إعانة على تحصيل زيادة الإيمان. وتلك سرائر لا يعلم حقها وفروقها إلا الله تعالى. فعلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو خليفة الله في خلقه أن يتوخاها بقدر المستطاع، فما أوحى الله إليه في شأنه اتبع ما يوحى إليه وما لم ينزل عليه وحي في شأنه فعليه أن يصرف اجتهاده كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول﴾. فكان ذلك موقع هذه الوصية المفرغة في قالب المعاتبة للتنبيه إلى الاكتراث بتتبع تلك المراتب وغرس الإرشاد فيها على ما يرجى من طيب تربتها ليخرج منها نبات نافع للخاص وللعامة. انظر التحرير ٣٠/١٠٩ ـ ١١٠ ـ ١١١.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد.

أبداً كما افترض(١) عليه ثم أمرهم بأن يعتبروا بخلقه فقال ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ يعني إلى رزقه ومن أي شيء يرزقه وليعتبروا به ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً﴾ يعني المطر قرأ أهل الكوفة أنا صببنا بنصب الألف والباقون بالكسر(٢)، فمن قرأ بالنصب جعله بدلاً عن الطعام يعني فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً ومن قرأ بالكسر فهو على الاستئناف أنا صببنا الماء صباً يعني المطر على الأرض المطر بعد المطر ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً﴾ يعني شققناها بالنبات والشجر ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ يعني في الأرض ومعناه أخرجنا من الأرض ﴿حَبًّا﴾ يعني الحبوب كلها ﴿وَعِنَباً﴾ يعني الكروم ﴿وَقَضْباً﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما القضبة وهو القت الرطب(٣) وقال القتبي القضب القت سمي قضباً لأنه يقضب مرة بعد مرة أي يقطع وكذلك القصيل (لأنه يفصل أي يقطع ويقال: وقضبنا يعني جميع ما يقضب مثل القت والكرات وسائر البقول التي تقطع فينبت من أصله ﴿وَزَيْتُوناً﴾(٤) وهي شجرة الزيتون ﴿وَنَخْلاً﴾ يعني النخيل ﴿وَحَدَائِقَ غُلْباً﴾ قال عكرمة غلاظ الرقاب(٥) ألا ترى أن الرجل إذا كان غليظ الرقبة يقال أغلب والحدائق واحدها حديقة غلباً أي نخلاً غلاظاً طوالاً، ويقال: حدائق غلباً يعني حيطان النخيل والشجر، وقال الكلبي كل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقه وما لم يحط به فليس بحديقه، ويقال الشجر الملتف بعضه في بعض.

ثم قال عز وجل ﴿وَفَاكِهَةً﴾ ويعني الثمر كلها وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال خلقتم من سبع ورزقتم من سبع فاسجدوا لله على(٦) سبع، وإنما أراد بقوله خلقتم من سبع يعني من نطفة ثم من علقه، الآية والرزق من سبع وهو قوله «فأنبتنا فيها حباً وعنباً» إلى قوله «وفاكهة وأباً» ثم قال ﴿وَأَبّاً﴾ يعني العنب وقال مجاهد ما يأكل الدواب والأنعام وقال الضحاك هو التبن(٧) ﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ يعني الحبوب والفواكه منفعة لكم والكلأ والعشب منفعة لكم ولأنعامكم.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾

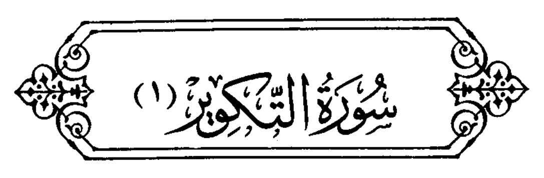
ثم ذكر يوم القيامة فقال ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ يعني: الصيحة تصخ الأسماع أي تصمها فلا يسمع إلا ما يدعا به ويقال الصاخة إسم من أسماء يوم القيامة وكذلك الطامة والقارعة والحاقة ثم وصف ذلك اليوم فقال ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ وفراره أنه يعرض عنه بنفسه وقال شهر بن حوشب يوم يفر المرء من أخيه يعني: هو

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٦ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر.
(٢) انظر حجة القراءات ٧٥٠.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٦ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٤) في أ [أي يقطع] ويقال قضباً يعني جميع ما يقضب مثل القت والكرات وسائر البقول.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.
(٦) انظر تفسير القرطبي ١٩/١٤٥.
(٧) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٧ وعزاه لعبد بن حميد.

هابيل يفر من أخيه قابيل ﴿وأُمِّه وأَبِيهِ﴾ يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أمه وأبيه وإبـراهيم من أبيه ﴿وصاحبته﴾ يعني: لوط عليه السلام من امرأته ﴿وبَنِيهِ﴾ يعني: نوح عليه السلام من ابنه، ويقال هذا في بعض أحوال يوم القيامة أن كل واحد منهم يشتغل بنفسه يعني: فلا ينظر المرء إلى أخيه وإلى أبيه وإلى ابنه ثم قال تعالى ﴿لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ يعني؛ لكل إنسان شغـل يشغله عن هؤلاء، وروي في الخبر أن عائشة رضي الله عنها قالت يا رسول الله كيف يحشر الناس قال حفاة عراة فقالت عائشة رضي الله عنها واسوأتاه النساء مع الرجال حفاة عراة فقرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الآية لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه[1] يعني: لكل واحد منهم عمل يشغله بنفسه عن غيره ثم قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾ يعني: من الوجوه ما يكون في ذلك اليوم مشرقة مضيئة ﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ يعني: مفرحة بالثواب وهم المؤمنون المطيعون ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ يعني: من الوجوه ما يعلوها السواد كالدخان وأصل الغبرة يعني الغبار ثم قال عز وجل: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ يعني: تلحقها قترة يعني يغشاها الكسوف والسواد ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ يعني: أن أهل هذه الصفة هم الكفرة بالله تعالى الكذبة على الله تعالى ويقال ترهقها قترة يعني المذلة والكآبة والفجرة يعني: الظلمة. والله الموفق بمنه وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٧ وعزاه للحاكم وصححه وابن مردويه عن عائشة.



سورة التكوير (١)

وهي تسع وعشرون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿إذا الشَمْسُ كُوِّرَتْ﴾ قال أبو الليث رحمه الله حدثنا الحاكم أبو الفضل قال حدثنا محمد بن أحمد الكاتب المروزي حدثنا محمد بن حموية النيسابوري قال حدثنا إبراهيم بن موسى قال حدثنا هشام(٢) عن عبد الله عن يحيى بن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال «من أحب أن ينظر إليَّ يوم القيامة فليقرأ إذا(٣) الشمس كورت» وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: **(إذا الشمس كورت)** يعني: ذهب(٤) ضوؤها وكذلك قال الضحاك وعكرمة يعني: اضمحلت(٥) وذهبت ويقال تكور كما تكور العمامة يعني: **جُمع ضوؤها ولُفَّ كما تُلف العمامة قوله تعالى ﴿وإذا النجومُ انكَدَرَتْ﴾** يعني: **تناثرت وتساقطت ﴿وإذا الجبال سيرت﴾** يعني: قُلعت عن الأرض وسُيِّرت في الهواء **كقوله (يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة)** يعني: خالية ليس عليها شيء من الماء والشجر وغيرها ثم قال **﴿وإذا العشارُ عُطِّلَتْ﴾** يعني: النوق الحوامل عطّلها أربابها اشتغالاً بأنفسهم وواحدها: عشراء وهي الناقة التي أتت على حملها عشرة أشهر وهي في الحمل فلا يعطلها أهلها إلا في يوم القيامة وهذا على وجه المثل لأن في يوم القيامة لا يكون ناقة عشراء، ولكن أراد به المثل يعني: أن هول يوم القيامة بحال لو كان عند الرجل عشراء يعطلها واشتغل بنفسه ثم قال **﴿وإذا الوحوشُ حُشِرَتْ﴾** يعني جُمِعَتْ **﴿وإذا البحار سُجِّرت﴾** يعني: ضجرت بعضها إلى بعض فصارت بحراً واحداً فملئت وكثر ماؤها كقوله **(والبحر المسجور)** يعني: الممتلىء ويقال سجرت أي أحميت بالكواكب إذا تساقطت وفيها قال ابن عباس إذا كان

---

(١) اشتملت هذه السورة على تحقيق الجزاء صحيحاً. وعلى إثبات البعث وابتدىء بوصف الأهوال التي تتقدمه وانتقل إلى وصف أهوال تقع عقبه. وعلى التنويه بشأن القرآن الذي كذبوا به لأنه وعدهم بالبعث زيادة لتحقيق وقوع البعث إذا رموا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالجنون والقرآن بأنه يأتيه به شيطان. التحرير ٣٠/١٣٩ ـ ١٤٠.

(٢) هشام بن إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن كنانة أبو عبد الرحمن المدني مقبول. التقريب ٢/٣١٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٨ وعزاه لأحمد والترمذي وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٨ وعزاه لابن جريرلابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٨ وعزاه لعبد بن حميد.

يوم القيامة كوَّر الله تعالى الشمس والقمر والنجوم في البحر ثم بعث الله تعالى ريحاً دبوراً فنتفخها فتصير[١] ناراً وهو قوله (وإذا البحار سجرت) أي أحميت. وقال قتادة: سجرت أي غار ماؤها[٢]، وقال الزجاج وقد قيل إنه جعل مياهها ناراً يعذب بها الكفار فهذه الأشياء الست التي ذكرها قبل النفخة الأخيرة والتي ذكرها بعدها تكون بعد النفخة الأخيرة وهو قوله ﴿وإذا النفوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال الكلبي ومقاتل يعني: نفوس المؤمنين قرنت بالحور العين ونفوس الكفار بالشياطين. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله (وإذا النفوس زوجت) قال الفاجر مع الفاجر والصالح مع الصالح[٣] وقال أبو العالية الرياحي قرنت الأجساد[٤] بالأرواح وقال القتبي الزوج القرين كقوله (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) يعني قرناءهم ثم قال «وإذا النفوس زوجت» أي قرنت نفوس الكفار بعضها ببعض والعرب تقول زوجت إبلي إذا قرنت بعضها ببعض ويقال وإذا النفوس زوجت يعني الابرار مع الأبرار في زمرة والأشرار مع الأشرار في زمرة ثم قال ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾. وكان العرب إذا ولد لأحدهم ابنة دفنها حية وهي الموءودة فتسأل يوم القيامة بأي ذنب قتلك أبوك وإنما يكون السؤال على وجه التوبيخ لقائلها يوم القيامة لأن جوابها قتلت بغير ذنب وهو مثل قوله تعالى «يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس» وإنما سؤاله وجوابه تبكيت على من ادعى هذا عليه وقال عكرمة الموءودة المدفونة، كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت فكانت أوان ولادتها حفرت حفرة فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة وإن ولدت غلاماً حبسته وقرىء في الشاذ «وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت» يعني: المقتولة سئلت لأبويها بأي ذنب قتلتماني ولا ذنب لي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ يعني؛ تطايرت الصحف وهي الكتب التي فيها أعمال بني آدم، قرأ ابن كثير وأبو عمرو سجرت وسعرت مخففتين، ونشرت مشددة وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم سجرت وسعرت مشددتين ونشرت مخففة وقرأ حمزة والكسائي سجرت ونشرت مخففتين وسعرت مشددة[٥] فمن شددها فلتكثير ومن خففها فعلى غير التكثير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ يعني: نزعت من أماكنها كما يكشف الغطاء عن الشيء يعني: كشفت عما فيها ثم قال عز وجل ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ يعني: للكافرين ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ يعني: قربت للمتقين فجواب هذه الأشياء قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ يعني؛ عند ذلك تعلم كل نفس ما عملت من خير أو شر وهذا كقوله تعالى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً) الآية.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ يعني: الذي خنس بالنهار وظهر بالليل، ويقال الخنس النجوم التي تخنس بالنهار وتظهر بالليل ﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ الجوار التي تجري والكنس التي ترتفع وتغيب، وقال أهل التفسير

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٨ وعزاه لابن أبي الدنيا في الأهوال وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في العظمة.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٨ وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٩ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وسعيد بن منصور والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه البيهقي في البعث وأبي نعيم في الحلية.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٩ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر.

(٥) انظر حجة القراءات ٧٥١.

الخنس يعني خمسة من الكواكب فهران، وزحل، ومشتري، وعطارد، وزهرة التي تخنس بالنهار وتظهر بالليل، الجواري لأنهن تجري بالليل في السماء (الكنس) يعني: تستتر كما تكنس الظباء وقال أهل اللغة[1] الخنس واحدها خانس كراكع وركَّع وقال بعضهم الخنس أرادها هنا الوحوش والظباء وظباء الوحوش والجواري الكنس التي تدخل الكنائس وهذا غصن من أغصان الشجر ويكون معناه: أقسم برب هذه الأشياء وروى عكرمة عن ابن عباس: (الخنس) المعز (والكنس) الظباء ألم ترى إذا كانت في الظل كيف تكنس بأعناقها ومدت ببصرها؟ وروى الأعمش عن إبراهيم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال (الجوار الكنس) هي بقر الوحش[2] وقال علي بن أبي طالب: هي النجوم، وقال القتبي هي النجوم الخمسة الكبار لأنها تخنس أي ترجع في مجراها وتكنس أي تستتر كما تكنس الظباء ثم قال عز وجل **﴿والليلِ إذا عَسْعَسَ﴾** يعني: إذا أدبر وقال الزجاج (عسعس) إذا أقبل (وعسعس) إذا أدبر والمعنيان يرجع إلى شيء واحد وهذا ابتداء الظلام في أوله وإدباره في آخره وقال مجاهد (إذا عسعس) أي إذا أظلم ثم قال عز وجل: **﴿والصبح إذا تنفس﴾** يعني: إذا استضاء وارتفع، ويقال إذا امتد حتى يصير النهار بيناً، فأقسم بهذه الأشياء، ويقال يخالف هذه الأشياء **﴿إنه﴾** يعني: القرآن **﴿لقولُ رسولٍ كريمٍ﴾** على ربه يقرأ على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو جبريل عليه السلام ثم أثنى على جبريل وبيَّن فضله فقال **﴿ذي قوة﴾** يعني: ذا شدة ويقال أعطاه الله تعالى القوة ومن قوته أنه قلع مدائن قوم لوط بجناحه ثم قال عز وجل: **﴿عند ذي العرش مكين﴾** يعني: عند رب العرش له منزلة **﴿مطاع﴾** يعني: يطيعه أهل السماوات **﴿ثَمَّ أمينٍ﴾** فيما استودعه الله من الرسالات ويقال (مطاع) يعني: طاعته على أهل السموات واجبه كطاعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أهل الأرض (أمين) على الرسالة والوحي، ويقال (أمين) في السماء كما أن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمين في الأرض ثم قال عز وجل: **﴿وما صاحبكم﴾** الذي يدعوكم إلى التوحيد لله تعالى **﴿بمجنون ولقد رءاه﴾** يعني: رأى محمدٌ ـ صلى الله عليه وسلم ـ جبريل عليه السلام **﴿بالأفق المبين﴾** عند مطلع الشمس ثم قال **﴿وما هو على الغيب بضنين﴾** أي ليس فيما يوحَى إليه من القرآن ببخيل وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه بظنين بظاء وهكذا قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (بظنين) يعني: بمتَّهم أنه يزيد فيه أو ينقص والباقون بالضاد[3] يعني: البخيل ثم قال **﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾** يعني: القرآن ليس بمنزلة قول الكهان.

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

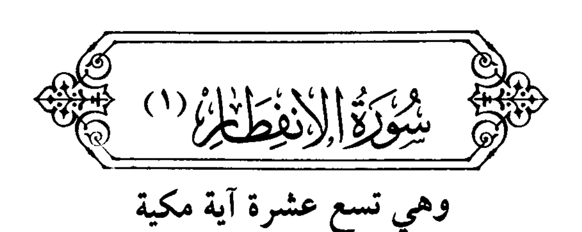
قوله عز وجل: **﴿فأين تذهبون﴾** يعني: تذهبون عن طاعتي وكتابي ويقال (أنى تذهبون) يعني: تعدلون عن أمري وقال الزجاج معناه فبأي طريق تسلكون ابين من هذه الطريقة التي بينت لكم **﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾** يعني: ما هذا القرآن إلا عظة للجن والإنس. قوله تعالى: **﴿لِمَنْ شَاءَ منكم أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾** يعني: لمن شاء أن يستقيم على التوحيد فليستقم **﴿وَمَا تَشَاؤونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾** فأعلمهم أن المشيئة والتوفيق والخذلان إليه وأن الأمور كلها بمشيئة الله تبارك وتعالى وإرادته والله الموفق وصلى الله على سيدنا محمد.

---

(١) انظر لسان العرب ٢/١٢٧٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٢٠ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور والفريابي وابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه.

(٣) انظر حجة القراءات ٧٥٢.



وهي تسع عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ يعني: انفجرت لهيبة الرب تبارك وتعالى ويقال انفجرت لنزول الملائكة لقوله تعالى: «ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً» ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ يعني: تساقطت ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ يعني: فتحت بعضها في بعض وصارت بحراً واحداً ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ يعني: بعثرت وأخرج ما فيها، ويقال بعثرت المتاع وبعثرته إذا جعلت أسفله أعلاه ثم قال عز وجل: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ يعني: ما عملت من خير وشر يعني ما عملت من سنة صالحة أو سيئة، وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «أيما داع دعا إلى الهدى فاتبع فله أجر من اتبعه إلا أنه لا ينقص من أجورهم شيئاً وأيما داع دعا إلى الضلالة فاتبع فله أجر من اتبعه إلا أنه لا ينقص من أوزارهم شيئاً»[٢] ويقال ما قدمت أي ما عملت وما أخرت يعني: أضاعت العمل فلم تعمل.

يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾

ثم قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ﴾ يعني: يا أيها الكافر ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم﴾ يعني: لم يعجل بالعقوبة، وقال مقاتل نزلت في كلدة بن أسيد حيث ضرب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوسه فلم يعاقبه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (فبلغ ذلك حمزة فأسلم حمية لذلك ثم أراد أن يعود كلدة لضرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله تعالى هذه الآية فأسلم حمزة يومئذ)[٣].

ويقال نزلت في جميع الكفار ما غرك يعني: ما خدعك حين كفرت بربك الكريم المتجاوز لمن تاب ﴿الَّذِي

---

(١) قد اشتملت هذه السورة على: إثبات البعث، وذكر أهوال تتقدمه. وإيقاظ المشركين للنظر في الأمور التي صرفتهم عن الاعتراف بتوحيد الله تعالى وعن النظر في دلائل وقوع البعث والجزاء. والإعلام بأن الأعمال محصاة. وبيان جزاء الأعمال خيرها وشرها. وإنذار الناس بأن لا يحسبوا شيئاً ينجيهم من جزاء الله إياهم على سيء أعمالهم. التحرير ٣٠/١٦٩ ـ ١٧٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه ١/٧٥ (٢٠٥) وقال البوصيري في الزوائد إسناده ضعيف. والطبري في التفسير ١٤/٦٦ السيوطي في الدر المنثور ٤/١١٧، ٥/٤٢.

(٣) سقط في ظ.

خلقك﴾ من النطفة **﴿فَسَوَّاكَ﴾** يعني: فسوى خلقك **﴿فَعَدَلَكَ﴾** يعني: خلقك معتدل القامة **﴿في أيّ صورة ما شاء ركّبك﴾** يعني: شبهك بأي صورة شاء إن شاء بالوالد وإن شاء بالوالدة قرأ عاصم والكسائي وحمزة فعدلك بالتخفيف[1] والباقون بالتشديد فمن قرأ بالتخفيف جعل في المعنى إلى فكأنه قال فعدلك إلى أي صورة شاء أن يركبك يعني صرفك إلى ما شاء من الصور من الحسن والقبح ومن قرأ بالتشديد فمعناه قومك ويكون ما صلة وقد تم الكلام عند قوله فعدلك ثم ابتدأ فقال في أي صورة شاء ركبك، ويقال في ما معنى الشرط والجزاء والمعنى أي صورة ما شاء أن يركبك فيها ركبك ويكون شاء بمعنى يشاء ثم قال عز وجل: **﴿كلّا﴾** يعني: لا يؤمن هذا الإنسان بما ذكره من أمره وصورته **﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾** يعني: تكذبون بأنكم مبعوثون يوم القيامة ثم أعلم الله تعالى أن أعمالكم محفوظة عليهم فقال **﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾** من الملائكة يحفظون أعمالكم **﴿كِراماً كَاتِبِينَ﴾** يعني: كراماً على الله تعالى كاتبين يعني يكتبون أعمال بني آدم عليه السلام **﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾** من الخير والشر، وروى مجاهد عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى الحالتين الجنابة[2] والغائط.

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

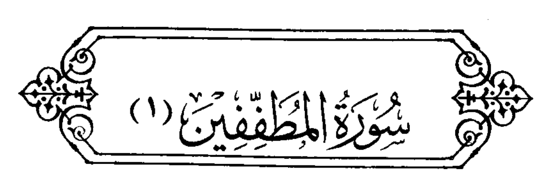
ثم قال تعالى: **﴿إِنَّ الأَبْرَارَ﴾** يعني: المؤمنين المصدقين في أيمانهم **﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾** يعني: في الجنة وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورضي الله تعالى عنهم ومن كان مثل حالهم **﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾** يعني: الكفار **﴿لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾** يعني: يدخلون فيها يوم القيامة **﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾** يعني: لا يخرجون منها أبداً **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾** تعظيماً لذلك اليوم **﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾** يعني: كيف تعلم حقيقة ذلك اليوم ولم تعاينه **﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً﴾** يعني: لا تنفع نفس مؤمنة لنفس كافرة شيئاً بالشفاعة قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بالضم والباقون بالنصب[3] فمن قرأ بالضم معناه يوم لا تملك ومن قرأ بالنصب فلنزع الخافض يعني في يوم ثم قال **﴿وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾** يعني: الحكم والقضاء لله تعالى وهو يوم القيامة.

---

(١) قال الفراء: وجهه ـ والله أعلم ـ فصرفك إلى أي صورة شاء، إما حسن أو قبيح أو طويل أو قصير. وعن أبي نجيح قال: (في صورة أب أو في صورة عم). وليست (في) من صلة «عدلك» لأنك لا تقول: (عدلتك في كذا) إنما تقول: (عدلتك إلى كذا) أي: صرفتك إليه وإنما هي متعلقة بـ«ركبك» كأن المعنى: (في أي صورة شاء أن يركبك). وقال آخرون: (فعدلك: فسوّى خلقك) قال محمد بن يزيد (المبرد): فعدلك أي: قصد بك إلى الصورة المستوية ومنه العدل الذي هو الإنصاف، أي: هو قصد إلى الإستواء. فقولك: (عدل الله فلاناً) أي: سوى خلقه. فإن قيل: فأين الباء التي تصحب القصد حتى يصح ما تقول؟ قلت: إن العرب قد تحذف حروف الجر قال الله عز وجل: **﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم﴾** فحذف اللامين، فكذلك «فعدلك» بمعنى فعدل بك. حجة القراءات ٧٥٢ ـ ٧٥٣.

(٢) ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ١/٤٥ وقال: هذا مرسل من هذا الوجه وقد وصله البزّار في مسنده من طريق جعفر بن سليمان.

(٣) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٩٥.



سورة المطففين (١)

مختلف فيها وهي ست وثلاثون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ يعني: الشدة من العذاب للذين ينقصون المكيال والميزان وإنما سمي الذي يخون في المكيال والميزان مطففاً لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء الخفيف الطفيف ثم بين أمرهم فقال ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ يعني: استوفوا من الناس لأنفسهم وعلى بمعنى عن بمعنى إذا اكتالوا عن الناس يستوفون يتمون الكيل والوزن ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ يعني: إذا باعوا من غيرهم ينقصون الكيل ﴿أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ يعني: ينقصون الكيل وقال بعضهم كالوهم حرفان يعني: كالوا ثم قال: هم وكذلك وزنوا ثم قال هم يخسرون وذكر عن حمزة الزيات أنه قال هكذا ومعناه هم إذا كالوا أو وزنوا ينقصون وكان الكسائي يجعلها حرفاً واحداً كالوهم أي كالوا لهم وكذلك وزنوا لهم وقال أبو عبيدة وهذه هي القراءة لأنهم كتبوها في المصاحف بغير ألف ولو كان مقطوعاً لكتبوا كالواهم بالألف ثم قال عز وجل: ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ يعني: ألا يعلم المطفف وألا يستيقن بالبعث قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَنَّهُم مَبْعُوثُونَ﴾ يعني: يبعثون بعد الموت ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: يوم القيامة هولها شديد ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: في يوم يقوم الخلائق بين يدي الله تعالى وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال يقوم الناس لرب العالمين مقدار نصف يوم يعني خمسمائة عام وذلك المقام على المؤمنين كتولي الشمس[٢] وروى نافع عن ابن عمر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال يقوم أحدكم ورشحوا إلى أنصاف أذنيه[٣] وقال ابن مسعود إن الكافر ليلجم بعرقه حتى يقول أرحني ولو إلى النار ثم قال

---

(١) اشتملت على التحذير من التطفيف في الكيل والوزن وتفظيعه بأنه تحيل على أكل مال الناس في حال المعاملة أخذاً وإعطاء. وأن ذلك مما سيحاسبون عليه يوم القيامة. وتهويل ذلك اليوم بأنه وقوف عند ربهم ليفصل بينهم وليجازيهم على أعمالهم وأن الأعمال محصاة عند الله. ووعيد الذين يكذبون بيوم الجزاء والذين يكذبون بأن القرآن منزل من عند الله. وقوبل حالهم بضده في حال الأبرار أهل الإيمان، ورفع درجاتهم وإعلان كرامتهم بين الملائكة والمقربين وذكر صور من نعيمهم. وانتقل من ذلك إلى وصف حال الفريقين في هذا العالم الزائل إذ كان المشركون يسخرون من المؤمنين ويلمزونهم ويستضعفونهم وكيف انقلب الحال في العالم الأبدي. التحرير ٣٠/١٨٨، ١٨٩.

(٢) ذكره في مجمع الزوائد ١٠/٢٣٧ وعزاه لابن يعلى وقال رجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير (٤٦٥٤). ومسلم ٤/٢١٩٥ كتاب صفة الجنة (٢٨٦٢).

﴿كَلَّا﴾ يعني: لا يستيقنون البعث ثم استأنف، فقال ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ ويقال: هذا موصول بكلا إن كتاب يعني حقاً إن كتاب الفجار ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ يعني: أعمال الكفار لفي سجين قال مقاتل وقتادة السجين الأرض السفلى، وقال الزجاج السجين فعيل من السجن والمعنى كتابهم في حبس جعل ذلك دليلاً على خساسة منزلتهم وقال مجاهد سجين صخرة تحت الأرض السفلى فيجعل كتاب الفجار(١) تحتها، وقال عكرمة «لفي سجين» أي لفي خسارة(٢) وقال الكلبي: السجين الصخرة التي عليها الأرضون وهي مسجونة فيها أعمال الكفار وأزواجهم فلا تفتح لهم أبواب السماء ثم قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ ثم أخبر فقال ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ يعني: مكتوباً ويقال مكتوب مختوم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: شدة العذاب ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني: شدة العذاب للمكذبين.

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

ثم بين فقال عز وجل ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ يعني: يجحدون بالبعث ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ﴾ يعني: بيوم القيامة ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ يعني: كل معتد بالظلم آثم عاص لربه ويقال كل مقيد للخلق أثيم يعني فاجر وهو الوليد بن المغيرة وأصحابه ومن كان في مثل حالهم ثم قال: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني: أحاديث الأولين وكذبهم ثم قال ﴿كَلَّا﴾ يعني: لا يؤمن ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: ختم، ويقال غطى على قلوبهم ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني: ما عملوا من أعمالهم الخبيثة، وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال إذا أذنب العبد ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه فإذا تاب صقل قلبه وإن زاد زادت(٣) وذلك قوله «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون»، وقال قتادة الذنب على الذنب حتى مات القلب(٤) (أسود) ويقال غلف على قلوبهم ويقال غطا على قلوبهم وقال أهل اللغة(٥) الرين هو الصدأ والصدأ هو اسم البعد كما قال ويصدهم عن سبيل الله يغشى على القلب ثم قال: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ يعني: لا يرونه يوم القيامة ويقال عن رحمته لممنوعون ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ﴾ يعني: دخلوا النار ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ يعني: يقول لهم الخزنة ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ يعني: تجحدون، وقلتم إنه غير كائن ثم قال عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ يعني: حقاً إن كتاب المصدقين لفي عليين وهو فوق السماء السابعة، فرفع كتابهم على قدر مرتبتهم ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ ثم وصفه فقال ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ يعني: مكتوباً مختوماً في عليين ﴿يَشْهَدُهُ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٢٥ وعزاه لأبي الشيخ في العظمة والمحاملي في أماليه عن مجاهد.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٢٥ وعزاه لابن المنذر عن عكرمة.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٢٥ وعزاه لأحمد وعبد بن حميد والحاكم والترمذي وصححاه والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن حبان وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وهو عند الترمذي في (٣٣٣٤).
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٢٦ وعزاه لعبد بن حميد عن قتادة.
(٥) انظر لسان العرب ١٧٩٦/٣.

﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ يعني: يشهد على ذلك الكتاب سبعة أملاك من مقربي أهل كل سماء وقال بعضهم الكتاب أراد به الروح والأعمال يعني: يرفع روحه وأعماله إلى عليين.

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ يعني: المؤمنين الصالحين لفي نعيم في الجنة على الأرائك ينظرون يعني على سرر في الحجال ينظرون إلى أهل النار، ويقال ينظرون إلى عدوهم حين يعذبون ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ يعني: أثر النعمة وسرورهم في وجوههم ظاهر ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ﴾ يعني: يسقون خمراً بيضاء، وقال الزجاج الرحيق الشراب الذي لا غش فيه، قال القتبي الرحيق الخمر العتيقة، ثم قال ﴿مَخْتُومٍ خِتَامُه مِسْكٌ﴾ يعني: إذا شرب منه رجل وجد عند فراغه من الشراب ريح المسك قرأ الكسائي مسك، وروي عن الضحاك أنه قرأ مثله والباقون ختامه مسك[1] ومعناهما واحد، والخاتم اسم والختام مصدر يعني يجد شاربه ريح المسك حين ينزع الإناء من فيه ثم قال عز وجل: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَس الْمُتَنَافِسُونَ﴾ يعني: بمثل هذا الثواب فليتبادر المتبادرون، ويقال فليتحاسد المتحاسدون ويقال فليواظب المواظبون وليجتهد المجتهدون وهذا كما قال لمثل هذا فليعمل العاملون ثم قال ﴿وَمِزَاجُه مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ يعني: مزاج الخمر من ماء اسمه تسنيم وهو من أشرف الشراب في الجنة وإنما سمي تسنيماً لأنه يتسنم عليهم فينصب عليهم انصباباً، وقال عكرمة ألم تسمع إلى قول الرجل يقول إني لفي السنام من قومه فهو في السنام من[2] الشراب، وقال القتبي أصله من سنام البعير يعني المرتفع ثم وصفه فقال عز وجل: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ يعني: التسنيم عيناً يشرب بها المقربون صرفاً ويمزج لأصحاب اليمين ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَموا﴾ يعني: أشركوا ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ يعني: من ضعفاء المؤمنين يضحكون ويسخرون ويستهزؤون بهم ﴿وَإِذَا مَرّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ يعني: يطعنون ويغتابون وذلك أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مر بنفر من المنافقين ومعه نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون، ويقال حكاية عن كفار مكة أنهم كانوا يضحكون من ضعفاء المسلمين وإذا مروا بهم وهم جلوس

(١) حجتهم أن المعنى في ذلك: (آخره مسك) كأنه إذا شرب أحدهم الكأس وجد آخر شرابه مسكاً. وختام كل شيء (آخره) أي: آخر ما يجدونه رائحة المسك. وهو مصدر (ختمه يختمه ختماً وختاماً).

وحجة الكسائي: أن الخاتم: الاسم، وهو الذي يختم به الكأس بدلالة قوله: (قبلها) ﴿يسقون من رحيق مختوم﴾ ثم أخبر عن كيفيته فقال: مختوم بخاتم من مسك. وقال قوم: خاتمه أي آخره، كما كان من قرأ: «خاتم النبيين» بالفتح كان معناه: آخرهم.

وكان علقمة يقول: «خاتمة» وقال: أما رأيت المرأة تأتي العطار وتشتري منه العطر فتقول: (اجعل لي خاتَمه مسكاً). قال الفراء: الخاتم والختام متقاربان في المعنى إلا أن الخاتم الاسم والختام المصدر. حجة القراءات ٧٥٤ ـ ٧٥٥.

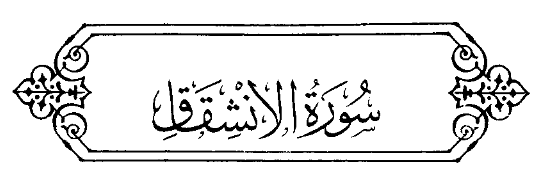
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٢٨/٦ وعزاه لعبد بن حميد.

يتغامزون يعني يتطاعنون بينهم ويقولون هؤلاء الكسالى ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فكهِينَ﴾ يعني: رجعوا معجبين بما هم فيه ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ يعني: رأوا المؤمنين ﴿قَالُوا إِنْ هَؤُلاءِ لِضَالّونَ﴾ يعني: تركوا طريقهم ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ يعني: يعني ما أرسل هؤلاء حافظين على أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - ليحفظوا عليهم أعمالهم، قال مقاتل: هذا كله في المنافقين يعني ما وكل المنافقون بالمؤمنين يحفظون عليهم أعمالهم، قرأ عاصم [في رواية حفص] انقلبوا فكهين بغير ألف وفي رواية حفص والباقون بالألف ومعناهما واحد وقال بعضهم فاكهين[1] ناعمين فكهين فرحين.

فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

ثم قال عز وجل: ﴿فَالْيَوْمَ الذين آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ يعني: في الجنة يضحكون على أهل النار وهم على سرر في الحجال وأعدائهم في النار ﴿عَلَى الأَرائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ إلى أعدائهم يعذبون في النار ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ﴾ يعني: جوزوا، ويقال هل جوزي الكفار وعوقبوا إلا ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يعني: إلا بما عملوا في الدنيا من الاستهزاء، وقال مقاتل يعني: قد جوزي الكفار بأعمالهم الخبيثة جزاءً شراً والله الموفق.

(١) المصدر السابق وإتحاف فضلاء البشر ٢/٥٩٧.



سورة الانشقاق

وهي خمس وعشرون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ**﴾ يعني: انفرجت لهيبة الرب عز وجل، ويقال انشقت لنزول الملائكة وما شاء من أمره ﴿**وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقّت**﴾ يعني: أطاعت السماء لربها بالسمع والطاعة وحقت يعني: وحق لها أن تطيع لربها الذي خلقها ﴿**وَإِذَا الأَرْض مُدَّتْ**﴾ أي بسطت ومدت الأديم ليس فيها جبل ولا شجر حتى يتسع فيها جميع الخلائق، وروى علي بن الحسن عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «إذا كان يوم القيامة مد الله تعالى الأرض مد الأديم حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه لكثرة الخلائق فيها»[1] ﴿**وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ**﴾ يعني: ألقت الأرض ما فيها من الكنوز والأموات وتخلت عنها ﴿**وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا**﴾ يعني: أجابت الأرض لربها بالطاعة وأدت إليه ما مستودعها من الكنوز والموتى ﴿**وَحُقَّتْ**﴾ يعني: وحق للأرض أن تطيع ربها الذي خلقها.

يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾

ثم قال عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ**﴾ قال مقاتل يعني: الأسود بن عبد الأسد ويقال: أبي بن خلف، ويقال: في جميع الكفار يعني: أيها الكافر إنك كادح يعني: ساع بعملك ﴿**إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً**﴾ يعني: سعياً، ويقال معناه إنك عامل لربك عملاً ﴿**فَمُلاَقِيهِ**﴾ في عملك ما كان من خير أو شر فالأول قول مقاتل، والثاني قول الكلبي وقال الزجاج الكدح في اللغة[2] السعي في العمل وجاء في التفسير إنك عامل عملاً فملاقيه أي ملاق ربك. قيل فملاقي عملك ثم قال عز وجل: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ**﴾ يعني: المؤمن ﴿**فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً**﴾ يعني: حساباً هيناً ﴿**وَيَنْقَلِبُ**﴾ أي: يرجع ﴿**إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً**﴾ الذي أعد الله له في الجنة سروراً به، وروى ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «من نوقش في الحساب يوم القيامة عذب». فقلت أليس يقول الله تعالى فسوف يحاسب حساباً يسيراً يعني: هيناً قال ليس ذلك في الحساب انما ذلك

---

(١) انظر تفسير الطبري ٣٠/١١٣.

(٢) انظر لسان العرب ٥/٣٨٣٣.

العرض ولكن من نوقش للحساب يوم القيامة عذب[١]، ويقال حساباً يسيراً لأنه غفرت ذنوبه ولا يحاسب بها ويرجع من الجنة مستبشراً ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ يعني: الكافر يخرج يده اليسرى من وراء ظهره يعطى كتابه بها ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً﴾ يعني: بالويل والثبور على نفسه ﴿وَيَصْلَى سَعِيراً﴾ يعني: يدخل في الآخرة ناراً وقوداً قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويصلى سعيراً بنصب الياء وجزم الصاد مع التخفيف والباقون، ويصلى بضم الياء ونصب الصاد مع التشديد فمن[٢] قرأ يصلى بالتخفيف فمعناه أنه يقاسي حر السعير وعذابه، يقال صليت النار إذا قاسيت عذابها وحرها ومن قرأ بالتشديد فمعناه أنه يكثر عذابه في النار حتى يقاصي حرها ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ يعني: في الدنيا مسروراً بما أعطي في الدنيا فلم يعمل للآخرة.

إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾

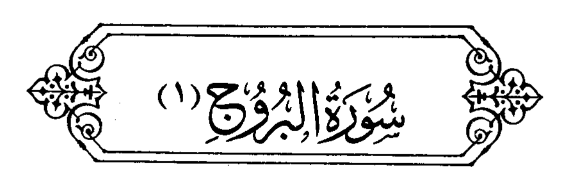
قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ قال مقاتل ظن أن لن يرجع إلى الله تعالى في الآخرة وهي لغة الحبشة، وقال قتادة يعني ظن أن لن يبعثه الله تعالى[٣]. وقال عكرمة ألم تسمع إلى قول الحبشي إذا قيل له حر يعني أرجع إلى[٤] أهلك. ثم قال ﴿بَلَى﴾ يعني: ليرجعنّ إلى ربه في الآخرة ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾ يعني كان عالماً به من يوم خلقه إلى يوم بعثه قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ يعني: أقسم بالشفق والشفق الحمرة والبياض الذي بعد غروب الشمس وهذا التفسير يوافق قول أبي حنيفة رحمه الله، وروي عن مجاهد أنه قال: الشفق هو ضوء النهار، وروي عنه أنه قال الشفق النهار كله، وروي عن ابن عمر أنه قال: الشفق[٥] الحمرة وهذا يوافق قول أبي يوسف ومحمد رحمهما الله ثم قال ﴿واللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ يعني: ساق وجمع وضم، وقال القتبي أي حمل وجمع منه الوسق وهو الحمل، وقال الزجاج أي ضم وجمع، وقال مقاتل: «والليل وما وسق» يعني: ما يساق معه من الظلمة والكواكب. وقال الكلبي يعني: ما دخل فيه ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ يعني: إذا استوى وتم إلى ثلاثة عشرة ليلة ويقال إذا اتسق يعني: تم وتكامل ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي لتركبن بنصب التاء والباقون بالضم فمن[٦] قرأ بالنصب فمعناه لتركبن يا محمد من سماء إلى سماء، ومن قرأ بالضم فالخطاب لأمته أجمعين يعني لتركبن حالاً بعد حال حتى يصيروا إلى الله تعالى من إحياء وإماتة وبعث، ويقال: يعني مرة نطفة ومرة علقة، ويقال حالاً بعد حال، مرة تعرفون ومرة لا تعرفون يعني يوم القيامة، ويقال يعني السماء لتحولن حالاً بعد حال، مرة تتشقق بالغمام ومرة تكون كالدهان. قرأ بعضهم ليركبن بالياء يعني: ليركبن هذا المكذب طبقاً عن طبق يعني: حالاً بعد حال يعني: الموت ثم الحياة.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٢٩ وعزاه لأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن المنذر وابن مردويه هو عند البخاري (١٠٣) والترمذي (٣٣٣٧).
(٢) انظر حجة القراءات ٧٥٥.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٣٠ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٣٠ وعزاه لعبد بن حميد.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٣٠ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن المنذر وعبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عمر.
(٦) انظر حجة القراءات ٧٥٥.

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾

ثم قال عز وجل: **﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** يعني: كفـار مكة لا يصدقون بالقرآن **﴿وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾** يعني: لا يخضعون لله تعالى ولا يوحدونه، ويقال ولا يستسلمون لربهم ولا يسلمون ولا يطيعون ويقال لا يصلون لله تعالى قوله تعالى: **﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾** يعني: يجحدون بالقرآن والبعث أنه لا يكون، وقال مقاتل نزلت في بني عمرو بن عمير وكانوا أربعة فأسلم اثنان منهم، ويقال: هذا في جميع الكفار ثم قال عز وجل: **﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾** يعني: يكتمون في صدورهم من الكذب والجحود، ويقال مما يجمعون في قلوبهم من الخيانةَ ويقال معناه والله أعلم بما يقولون ويخفون **﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** يعني: شديداً دائماً، وقال مقاتل ثم استثنى الاثنين اللذين أسلما فقال **﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** يقال هذا الاستثناء لجميع المؤمنين يعني: الذين صـدقوا بتوحيد الله تعالى **﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** يعني: أدوا الفرائض والسنن **﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾** يعني غير منقوص ويقال غير مقطوع، ويقال لهم أجر لا يمن عليهم ومعنى قوله (فبشرهم بعذاب أليم) يعني اجعل مكـان البشارة للمؤمنين بالرحمة والجنة للكفار بالعذاب الأليم على وجه التعبير لأن ذلك لا يكون بشارة في الحقيقة. والله الموفق بمنه وكرمه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.



سورة البروج (١)

وهي اثنتان وعشرون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿والسَّماءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ يعني: ذات النجوم والكواكب ويقال ذات القصور وقال عطية العوفي كان القصور في السماء على أبوابه قال قتادة البروج النجوم[٢] وكذلك قال مجاهد أقسم الله تعالى بالسماء ذات البروج وجواب القسم قوله تعالى «إن بطش ربك لشديد» ثم قال: ﴿والْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ يعني: يوم القيامة، قال مقاتل اليوم الموعود الذي وعدهم أن يصيرهم إليه وقال الكلبي وعد أهل السماء وأهل الأرض أن يصيروا إلى ذلك اليوم ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ ذكر مقاتل عن علي رضي الله عنه قال: الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم النحر يوم[٣] الحج الأكبر وروي عن ابن عباس أنه قال الشاهد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كقوله تعالى: «وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيداً» والمشهود يوم القيامة كقوله تعالى (وذلك[٤] يوم مشهود) وروى جويبر عن الضحاك مثله وروى أبو صالح عن ابن عباس قال الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة وروى سعيد بن المسيب عن رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال سيد الأيام يوم الجمعة وهو شاهد ومشهود[٥] يوم عرفة وروى جابر بن عبد الله قال الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة وروى مجاهد عن ابن عباس قال الشاهد ابن آدم والمشهود يوم القيامة وقال عكرمة مثله وقال بعضهم الشاهد آدم والمشهود ذريته ثم قال عز وجل: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ يعني: لعن أصحاب الأخدود ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ يعني: يصيرون إلى النار ذات الوقود في الآخرة وقال الكلبي النار ارتفعت فوقهم أربعين ذراعاً فوقعت عليهم وأحرقتهم وقتلتهم وذلك قوله قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود قال حدثنا أبو جعفر حدثنا

---

(١) ابتدأت أغراض هذه السورة بضرب المثل للذين فتنوا المسلمين بمكة بأنهم مثل قوم فتنوا فريقاً ممن آمن بالله فجعلوا أخدوداً من نار لتعذيبهم ليكون المثل تثبيتاً للمسلمين وتصبيراً لهم على أذى المشركين وتذكيرهم بما جرى على سلفهم في الإيمان من شدة التعذيب الذي لم ينلهم مثله ولم يصدهم ذلك عن دينهم. وإشعار المسلمين بأن قوة الله عظيمة فسيلقى المشركون جزاء صنيعهم ويلقى المسلمون النعيم الأبدي والنصر. وضرب المثل بقوم فرعون وبثمود وكيف كانت عاقبة أمرهم ما كذبوا الرسل، فحصلت العبرة للمشركين في فتنهم المسلمين وفي تكذيبهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتنويه بشأن القرآن. التحرير ٣٠/٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٣١ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٣٢ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وعبد حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٣٢ وعزاه لابن جرير.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٢/٢٧٢ والدارمي ١/٣٠٧ (١٥٨٠) وذكر ابن كثير في التفسير ٨/٣٨٥ وقال: هذا مرسل من مراسيل سعيد بن المسيب.

علي بن أحمد قال ثنا محمد بن الفضل ثنا موسى بن[١] إسماعيل ثنا حماد بن سلمة ثنا[٢] عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال ذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحاب الأخدود فقال كان ملكاً من الملوك كان له ساحر فكبر الساحر فقال للملك إني قد كبرت فلو نظرت غلاماً في أهلك فطناً كيساً فعلمته على هذا فنظر إلى غلام من أهله كيس فطن فأمره أن يأتيه ويلزمه وكان بين منزل الغلام ومنزل الساحر راهب فقال الغلام لو دخلت على هذا الراهب وسمعت من كلامه فدخل عليه فأعجبه قوله وكان أهله إذا بعثوه إلى الساحر دخل الغلام على الراهب واحتبس عنده فإذا أتى الساحر ضربه وقال ما حبسك فإذا رجع من عند الساحر إلى أهله دخل على الراهب فاحتبس عنده. فإذا أتى أهله ضربوه وقالوا ما حبسك فشكى ذلك إلى الراهب فقال له الراهب إذا قالوا لك ما حبسك فقل حبسني الساحر وإذا قال لك الساحر ما حبسك فقل حبسني أهلي فبينما هو ذات يوم يريد الساحر إذا هو بدابة هائلة يعني كبيرة قد قطعت الطريق على الناس فقال اليوم يتبين لي أمر الراهب فأخذ حجراً ودنا من الدابة فقال اللهم إن كان أمر الراهب حقاً فاقتل هذه الدابة ورماها بالحجر فأصاب مقتلها فقتلها فقال الناس إن هذا الغلام قتل هذه الدابة واشتهر أمره فأتى الراهب فأخبره فقال يا بني أنت خير مني فلعلك أن تبتلى لا تدلن عليَّ فبلغ أمر الغلام أنه كان يبرىء الأكمه والأبرص ويداوي من الأرض فعمي جليس الملك فذكر له الغلام فأتاه فقال يا بني قد بلغ من سحرك أنك تبرىء الأكمه والأبرص فقال الغلام ما أنا بساحر ولا أشفي أحداً ولا يشفي إلا ربي فقال له الرجل «هذا الملك ربك قال لا ولكن ربي ورب الملك الله تعالى فإن آمنت بالله تعالى به دعوت الله تعالى فشفاك فأسلم فدعا الله تعالى فبرىء فأتى الملك فقال له الملك أليس يا فلان قد ذهب بصرك فقال بلى ولكن رده علي ربي فقال أنا قال لا ولكن ربي وربك الله قال أولئك رب غيري قال نعم وربك وربي الله تعالى. فلم يزل به حتى أخبره بأمر الغلام فأرسل إلى الغلام فجاءه فقال يا بني قد بلغ من سحرك أنك تشفي من كذا وكذا فقال ما أنا بساحر ولا أشفي أحداً وما يشفي إلا ربي فقال أنا قال لا ولكن ربي وربك الله تعالى فلم يزل به حتى دل على الراهب فدعي الراهب فأتى به فأراد أن يرجع من دينه فأبى وأمر بمنشار فوضع في مفرق رأسه فشق به حتى سقط شقاه ثم دعا بجليسه وأراد أن يرجع عن دينه فأبى فأمر بمنشار فشق حتى سقط شقاه فأمر الغلام أن يفعل ذلك بمكانه فقال إحملوه في سفينة فانطلقوا به حتى إذا لججتم به فغرقوه فانطلقوا به حتى لجوا به فلما أرادوا به ذلك فقال اللهم اكفينهم بما شئت فانكبت بهم السفينة فغرقوا فجاء الغلام حتى قام بين يدي الملك فأخبره بالذي كان فقال انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا فإذا كنتم في ذروة الجبل دهدهه[٣] عنه فانطلقوا به حتى إذا كانوا بذلك المكان فقال اللهم اكفينهم بما شئت فتدهدهوا عن الجبل يميناً وشمالاً فجاء حتى قام بين يدي الملك فأخبره بالذي كان وقال إن تجمع الملك إنك لا تقدر على قتلي حتى تفعل بي ما آمرك به فقال وما هو قال تجمع أهل مملكتك في صعيد واحد ثم تصلبني وتأخذ سهماً من كتابي فترميني به وتقول بسم الله رب هذا الغلام فأصاب صدغه فوضع يده على صدغه فمات فقال الناس آمنا برب هذا الغلام فقيل للملك وقعت فيما كنت تجاوز وقد أسلم الناس فقال خذوا يا قوم الطريق وخذوا فيها أخدوداً وألقوا فيها النار (فمن رجع)[٤] عن دينه وإلا فألقوه فيها ففعلوا فجعل الناس يجيئون ويلقون أنفسهم في

---

(١) موسى بن إسماعيل أبو سلمة المنقري التبوذكي البصري الحافظ الحجة أحد الأعلام. انظر ميزان الاعتدال ٤/٢٠٠.

(٢) ثابت بن موسى بن عبد الرحمن أبو يزيد الكوفي الضرير العابد ضعيف الحديث. التقريب ١/١١٧.

(٣) قال ابن سيده: دهده الشيء فتدهده حدره من علو إلى سفل تدحرجاً، ودهدهه: قلب بعضه على بعض. انظر لسان العرب ٢/١٤٣٨.

(٤) سقط في أ.

الأخدود حتى كان آخرهم امرأة ومعها صبي لها رضيع تحمله فلما دنت من النار وجدت حرها فولت فقال لها الصبي يا أماه امضي فإنك على الحق فرجعت وألقت نفسها في النار فذلك قوله عز وجل قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود[1] وروي في خبر آخر أن الملك كان على دين اليهودية يقال له ذو نواس واسمه زرعة ملك حمير وما حولها فكان هناك قوم دخلوا في دين عيسى عليه السلام فحفر لهم أخدوداً فأوقد فيها النار وألقاهم في الأخدود فحرقهم وحرق كتبهم ويقال كان الذين على دين عيسى عليه السلام بأرض نجران فسار إليهم من أرض حمير حتى أحرقهم وأحرق كتبهم فأقبل منهم رجل فوجد مصحفاً فيها وإنجيلاً محترقاً بعضه فخرج به حتى أتى به ملك الحبشة فقال له إن أهل دينك قد أوقدت لهم النار فحرقوا بها وحرق كتبهم فأراه الذي جاء به ففزع الملك لذلك وبعث إلى صاحب الروم وكتب إليه يستمده بنجارين يعملون له السفن فبعث إليه صاحب الروم من يعمل له السفن فحمل فيها الناس فخرج به فخرجوا ما بين ساحل عدن إلى ساحل جازان وخرج إليهم أهل اليمن فلقوهم بتهامة واقتتلوا فلم ير ملك حمير له بهم طاقة وتخوف أن يأخذوه فضرب فرسه حتى وقع في البحر فمات فيه فاستولى أهل الحبشة على ملك حمير وما حوله وبقى الملك لهم إلى وقت الإسلام، وروي في الخبر أن الغلام الذي قتله الملك دفن فوجد ذلك الغلام في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه واضعاً يده على صدغه كما كان وضعها حين قتل وكلما أخذ يده سال منه الدم وإذا أرسل يده انقطع الدم فكتبوا إلى عمر بن الخطاب بذلك فكتب إليهم أن ذلك الغلام صاحب الأخدود فاتركوه على حاله حتى يبعثه الله تعالى يوم القيامة على حاله وذلك قوله تعالى (قتل أصحاب الأخدود) يعني: لعن أصحاب الأخدود وهم الذين خدوا أخدود النار ذات الوقود يعني الأخدود ذات النار الوقود ويقال قتل أصحاب الأخدود يعني: أهل الحبشة قتلوا أصحاب الأخدود أصحاب النار ذات الوقود.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

قوله عز وجل ﴿**إِذْ هُمْ عَلَيْهَا**﴾ يعني: القوم عند النار حضور قال سفيان إذ هم عليها على السرر ﴿**قُعُودٌ**﴾ عند النار ﴿**وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بالمؤمنينَ شُهُودٌ**﴾ يعني أن خدامهم وأعوانهم يفعلون بالمؤمنين ذلك وهم هناك شهود يعني حضوراً، ويقال يفعلون بالمؤمنين ذلك وهم شهود يعني: يشهدون بأن المؤمنين في ضلال تركوا عبادة آلهتهم ويقال على ما يفعلون بالمؤمنين شهود[2] يشهدون على أنفسهم يوم القيامة ﴿**وما نَقَمُوا مِنْهُمْ**﴾ يعني: وما طعنوا فيهم ﴿**إلا أنْ يُؤمنوا باللهِ**﴾ يعني: سوى أنهم صدقوا بتوحيد الله تعالى﴿ **العزيز** ﴾ في ملكه ﴿**الحميد**﴾ في فعاله، ويقال وما نقموا منهم يعني وما أنكروا عليهم إلا أن يؤمنوا بالله يعني إلا إيمانهم بالله ﴿**الذي له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ واللهُ على كُلِّ شيءٍ شهيدٌ**﴾ ثم بين ما أعد الله لأولئك الكفار فقال عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا**﴾ يعني: عذبوا وأحرقوا ﴿**الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ يعني في الدنيا ﴿**ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا**﴾ يعن: لم يرجعوا عن دينهم ولم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٣٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن مردويه.

(٢) سقط في ظ.

يتوبوا إلى الله تعالى ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ يعني: العذاب الشديد وقال الزجاج المعنى والله أعلم لهم عذاب بكفرهم ولهم عذاب بما حرقوا المؤمنين قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ جزاءاً لهم.

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ يعني: عذاب ربك لشديد وهذا قول مقاتل وقال الكلبي إن أخذ ربك لشديد ومعناهما واحد، ويقال العقوبة الشديدة وهذا موضع هذا القسم ثم قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ يعني: يبدأ الخلق في الدنيا ويعيد في الآخرة من التراب يعني: يبعثهم بعد الموت ﴿وَهُوَ الغفورُ الودُودُ﴾ يعني: الغفور لذنوب المؤمنين ويقال الغفور للذنوب الودود يعني: المحب للتائبين، ويقال المحب لأوليائه ويقال الودود يعني الكريم ثم قال ﴿ذُو العَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ يعني: رب السرير الشريف، قرأ حمزة والكسائي بكسر الدال وقرأ الباقون بالضم فمن[1] قرأ بالخفض جعله نعتاً للعرش ومن قرأ بالضم جعله صفة ذو يعني: (ذو العرش) وهو (المجيد) الشريف والمجيد الكريم. ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ يعني: يحيي ويميت، ويعز ويذل ثم قال عز وجل: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ يعني: قد أتاك حديثهم ثم فسر الجنود فقال ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ يعني: قوم موسى وقوم صالح أهلكهم الله تعالى في الدنيا وهذا وعيد لكفار هذه الأمة ليعتبروا بهم ويوحدوه ثم قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ يعني: إن الذين لا يعتبرون ويكذبون الرسل والقرآن ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ يعني: أصبر يا محمد على تكذيبهم فإن الله عالم بهم وقال الزجاج في قوله والله من ورائهم محيط يعني لا يعجزه منهم أحد قدرته مشتملة عليهم ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ يعني: إنهم وإن كذبوا لا يعرفون حقه لا يقرون به وهو قرآن شريف أشرف من كل كتاب أو يقال شريف لأنه كلام رب العزة ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ يعني: مكتوباً في اللوح الذي هو محفوظ عند الله من الشياطين وهو عن يمين العرش من درة بيضاء ويقال من ياقوته حمراء قرأ نافع محفوظ بالضم والباقون بالكسر[2] فمن قرأ بالضم جعله نعتاً للقرآن، ومعناه قرآن مجيد محفوظ من الشياطين في اللوح ومن قرأ بالكسر فهو نعت اللوح. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم أنه قال إن الله تعالى جعل لوحاً من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء ينظر الله تعالى فيه في كل يوم ثلاثمائة وستين مرة ويحيي ويميت ويعز ويذل[3] ويفعل ما يشاء وروي عن إبراهيم[4] بن الحكم عن أبيه قال حدثني فرقد في قوله تعالى: «بل هو قرآن مجيد فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» قال هو صدر المؤمنين، وقال قتادة في اللوح المحفوظ عند الله تعالى. والله الموفق بمنه وكرمه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

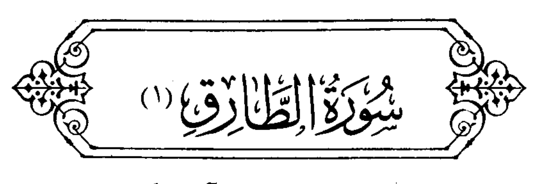
---

(١) انظر حجة القراءات ٧٥٧، إتحاف فضلاء البشر ٢/٦٠١.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٣٥ وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس.

(٤) إبراهيم بن الحكم بين أبان ضعيف. التقريب ١/٣٤.



وهي سبع عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿**والسماء والطارق**﴾ قال سعيد بن جبير سألت ابن عباس رضي الله عنهم عن قوله (والسماء والطارق) فقال ﴿**وما أدراكَ ما الطارقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ**﴾ وسكت فقلت له مالك فقال والله ما أعلم منها إلا ما أعلم ربي يعني تفسير الآية ما ذكر في هذه الآية وهو قوله والنجم الثاقب يعني هو الطارق وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أخرى والسماء والطارق قال الطارق الكواكب التي تطرق في الليل وتخفى في النهار وما أدراك ما الطارق على وجه التعجب والتعظيم ثم بين فقال النجم الثاقب يعني هو النجم المضيء وقال مجاهد الثاقب الذي[١] يتوهج وقال الحسن البصري الثاقب هو النجم حين يرسل على الشياطين فيثقبه يعني فيحرقه وقال قتادة النجم الثاقب يعني: يطرق بالليل ويخنس بالنهار فأقسم الله تعالى بالسماء ونجومها ويقال بخالق السماء ونجومها ﴿**إِنْ كُلُ نفس لما عليها حافظ**﴾ وهذا جواب القسم يعني ما من نفس إلاّ عليها حافظ من الملائكة يحفظ قولها وفعلها. قرأ عاصم وحمزة وابن عامر أن كل نفس لما عليها بتشديد الميم والباقون لما عليها بالتخفيف[٣] فمن قرأ بالتشديد فمعناه ما من نفس إلا وعليها حافظ فيكون لما بمعنى إلا، ومن قرأ بالتخفيف جعل ما مؤكدة ومعناه كل نفس عليها حافظ.

فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

ثم قال ﴿**فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ**﴾ يعني: فليعتبر الإنسان من ماذا خلق قال بعضهم نزلت في شأن أبي طالب، ويقال نزلت في جميع من أنكر البعث ثم بين أول خلقهم ليعتبروا فقال ﴿**خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ**﴾ يعني: من ماء مهراق في رحم الأم ويقال دافق بمعنى مدفوق كقوله «فهو في عيشة راضية» أي مرضية ثم قال ﴿**يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ**

---

(١) اشتملت هذه السورة على إثبات إحصاء الأعمال والجزاء على الأعمال. وإثبات إمكان البعث بنقض ما أحاله المشركون ببيان إمكان إعادة الأجسام. وأدمج في ذلك التذكير بدقيق صنع الله وحكمته في خلق الإنسان. والتنويه بشأن القرآن. وصدق ما ذكر فيه من البعث لأن إخبار القرآن به لما استبعدوه وموهوا على الناس بأن ما فيه غير صدق، وتهديد المشركين الذين ناوءوا المسلمين. وتثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووعده بأن الله منتصر له غير بعيد. التحرير ٣٠/٢٥٧ ـ ٢٥٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٣٦ وعزاه لعبد بن حميد عن مجاهد.

(٣) انظر حجة القراءات ٧٥٨.

الصلب والترائب﴾[1] يعني: خلق من مائين من ماء الأب يخرج من بين الصلب ومن ماء الأم يخرج من الترائب والترائب موضع القلادة كما قال امرؤ القيس:

مهفهفة[2] بيضاء غير مغاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل[3]

ثم قال **﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾** يعني: على بعثه وإعادته بعد الموت لقادر، ويقال على رجعه إلى صلب الآباء وترائب الأمهات لقادر والتفسير الأول أصح لأنه قال **﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾** يعني: تظهر الضماير ويقال يختبر السرائر **﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾** يعني: ليس له قوة يدفع العذاب عن نفسه ولا مانع يمنع العذاب عنه.

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

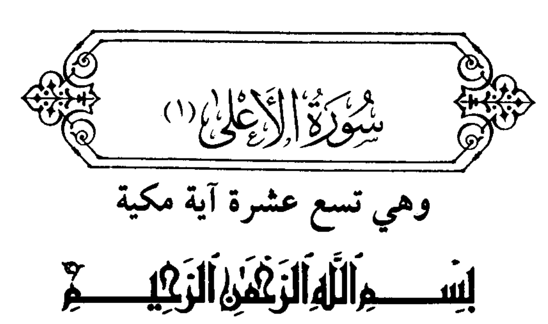
وقوله: **﴿والسماءِ ذاتِ الرَّجْعِ﴾** فهو قسم أقسم الله تعالى بخالق السماء ذات الرجع يعني يرجع السحاب بالمطر بعد المطر والسحابة بعد السحابة **﴿والأرضِ ذاتِ الصَّدْعِ﴾** يعني: يتصدع فيخرج ما بالنبات والثمار فيجعلها قوتاً لبني آدم عليه السلام ويقال ذات الصدع يعني: ذات الأودية وهو قول مجاهد وقال قتادة يعني ذات النبات **﴿إنه لِقَوْلٌ فَصْلٌ﴾** يعني: القرآن قول حق وجد **﴿وَمَا هُوَ بِالهَزْلِ﴾** يعني: باللعب ويقال لم ينزل بالباطل قوله تعالى: **﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُوْنَ كَيْداً﴾** يعني: يمكرون مكراً وهم أهل مكة في دار الندوة ويقال يكيدون كيداً يعني يصنعون أمراً وهو الشرك والمعصية **﴿وأَكِيدُ كَيْداً﴾** يعني: أصنع لهم أمراً، وهو القتل في الدنيا والعذاب في الآخرة قوله تعالى: **﴿فمهل الكافرين﴾** يعني: أجل الكافرين ويقال خل عنهم **﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾** يعني: أجلهم قليلاً أي إلى وقت الموت ويقال إنهم يكيدون كيداً بمعنى: الخراصون الذين يحبسون في كل طريق يعني: يصدون الناس عن دينه يعني يحبسون الناس في كل طريق يصدون الناس عن دينه وروى عبد الرزاق عن أبي وائل عن همام مولى عثمان قال لما كتبوا المصحف شكوا في ثلاث آيات فكتبوها في كتف شاة وأرسلوها إلى أبي بن كعب وزيد بن ثابت فدخلت عليهما فناولتهما أبياً فقرأها فكان فيها لا تبديل لخلق الله وكان فيها لم يتسن فكتب لم يتسنه وكان فيها فأمهل الكافرين فمحى الألف وكتب فمهل الكافرين ونظر فيها زيد بن ثابت فانطلقت بها اليهم فناولتها زيد بن ثابت إليهم فأثبتوها في المصحف أمهلهم رويداً يعني: أجلهم قليلاً فإن أجل الدنيا كلها قليل.

---

(١) الترائب هي عظام الصدر مما يلي الترقوتين وموضع القلادة. انظر المعجم الوسيط ١/٨٣.

(٢) امرأة مهفهفة أي ضامرة البطن. لسان العرب ٦/٤٦٧٧.

(٣) قال ابن منظور: السجنجل: المرآة، والسجنجل أيضاً قطع الفضة وسبائكها، ويقال هو الذهب ويقال: الزعفران. انظر لسان العرب ٣/١٩٤٦.



وهي تسع عشرة آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال الكلبي: يعني صلِّ بأمر ربك، ويقال سبح هو من التنزيه والبراءة يعني نَزِّه ربك، والاسم صلة، ويقال: (سبح اسم ربك الأعلى) يعني: قل سبحان ربي الأعلى[1] كما روي في الخبر أنه قيل: يا رسول الله ما نقول في ركوعنا فنزل «سبح اسم ربك الأعلى» بمعنى العالي (كقوله أكبر بمعنى الكبير والعلو هو القهر والغلبة يعني أمره نافذ على خلقه فلما نزل (فسبح باسم ربك العظيم)[2] فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «اجعلوها في ركوعكم» فقالوا فما نقول في سجودنا؟ فنزل «سبح اسم ربك الأعلى» قال عليه السلام: اجعلوها في سجودكم[3]، ويقال «سبح اسم ربك» يعني اذكر توحيد ربك الأعلى، ويقال كان بدء قوله

---

(١) التسبيح هو التنزيه عن النقائص وهو من الأسماء التي لا تضاف لغير اسم الله تعالى وكذلك الأفعال المشتقة منه لا ترفع ولا تنصب على المفعولية إلا ما هو اسم لله، وكذلك أسماء المصدر منه نحو: سبحان الله. وهو من المعاني الدينية، فالأشبه أنه منقول إلى العربية من العبرانية وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ في سورة البقرة.

وإذا عُدِّي فعل الأمر بالتسبيح هنا إلى اسم فقد تعين أن المأمور به قول دال على تنزيه الله بطريقة إجراء الأخبار الطيبة أو التوصيف بالأوصاف المقدسة لإثباتها إلى ما يدل على ذاته تعالى من الأسماء والمعاني، ولما كان أقوالاً كانت متعلقة باسم الله باعتبار دلالته على الذات، فالمأمور به إجراء الأخبار الشريفة والصفات الرفيعة على الأسماء الدالة على الله تعالى، من أعلام وصفات ونحوها، وذلك آيل إلى تنزيه المسمى بتلك الأسماء. ولهذا يكثر في القرآن إناطة التسبيح بلفظ اسم الله نحو قوله: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ فتسبيح اسم الله النطق بتنزيهه في الخُوَيصَّة وبين الناس بذكر يليق بجلاله من العقائد والأعمال كالسجود والحمد. ويشمل ذلك استحضار الناطق بألفاظ التسبيح معاني تلك الألفاظ إذ المقصود من الكلام معناه. وبتظاهر النطق مع استحضار المعنى يتقرر المعنى على ذهن المتكلم ويتجدد ما في نفسه من تعظيم الله تعالى. وأما تفكر العبد في عظمة الله تعالى وترديد تنزيهه في ذهنه فهو تسبيح لذات الله ومسمى اسمه ولا يسمى تسبيح اسم الله، لأن ذلك لا يجري على لفظ من أسماء الله تعالى، فهذا تسبيح ذات الله وليس تسبيحاً لاسمه. وهذا ملاك التفرقة بين تعلق لفظ التسبيح بلفظ اسم الله نحو ﴿سبح اسم ربك﴾ وبين تعلقه بدون اسم نحو ﴿ومن الليل فاسجد له وسبحه﴾ ونحو ﴿ويسبحونه وله يسجدون﴾فإذا قلنا ﴿الله أحد﴾ أو قلنا: ﴿هو الله الذي لا إله إلاَّ هو الملك القدوس السلام﴾ إلى آخر السورة كان ذلك تسبيحاً لإسمه تعالى وإذا نفينا الإلهية عن الأصنام لأنها لا تخلق كما في قوله تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾كان ذلك تسبيحاً لذات الله لا لاسمه لأن اسمه لم يجر عليه في هذا الكلام إخبار ولا توصيف. فهذا مناط الفرق بين استعمال ﴿سبح اسم ربك﴾ واستعمال ﴿وسبحه﴾ ومآل الإطلاقين في المعنى واحد لأن كلا الإطلاقين مراد به الإرشاد إلى معرفة أن الله منزه عن النقائص. التحرير ٣٠/٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٢) سقط في ظ.

(٣) أخرجه أبو داود ١/٥٤٢ كتاب الصلاة (٨٦٩) وابن ماجه ١/٢٨٦ كتاب إقامة الصلاة (٨٨٧) وأحمد في المسند ٤/١٥٥ والحاكم في المستدرك ٢/٤٧٧.

«سبحان ربي الأعلى» أي ميكائيل خطر على باله عظمة الرب جلا وعلا سلطانه فقال: يا رب أعطني قوة حتى أنظر إلى عظمتك وسلطانك، فأعطاه قوة أهل السموات فطار خمسة آلاف سنة فنظر فإذا الحجاب على حاله واحترق جناحه من نور العرش ثم سأل القوة فأعطاه القوة ضعف ذلك فجعل يطير ويرتفع عشرة آلاف سنة حتى احترق جناحه وصار في آخره كالفرخ ورأى الحجاب والعرش على حاله فخر ساجداً وقال «سبحان ربي الأعلى» يعني: تعالى من أن يكون محسوساً معقولاً ثم سأل ربه أن يعيده إلى مكانه إلى حاله الأولى ثم قال عز وجل: ﴿**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى**﴾ يعني: الذي خلق كل ذي روح، وجميع خلقه، ويقال سبح الله تعالى الذي خلقك فسوى خلقك يعني: اليدين والرجلين والعينين ولم يخلقك زمناً ولا مكفوفاً، كما قال وصوَّركم فأحسن صوركم قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**﴾ يعني: قدر لكل شيء شكله، يعني لكل ذكر وأنثى من شكله وهداه للأكل والشرب والجماع، ويقال الذي قدر فهدى يعني فهداه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ويقال الذي قدر فهدى سبح الله الذي خلقك وقدر آجالك وأرزاقك وأعمالك وهداك إلى المعرفة والإسلام والأكل والشرب فصلّ يابن آدم وسبح لهذا المنعم المكرم السيد الذي هو الأحد الصمد، «هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم» ثم قال عز وجل: ﴿**وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى**﴾ يعني: أنبت الكلأ ويقال هو العشب والحشيش وألقت وما أشبه، قرأ الكسائي «والذي قدر» بالتخفيف، والباقون بالتشديد[1] ومعناها واحد يقال قدره الأمر وقدرته قوله تعالى: ﴿**فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى**﴾[2] يعني: جعل المرعى يابساً بعد خضرته، وقال القتبي: غثاء يعني يابساً، أحوى يعني أسود من قدمه واحتراقه.

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾

ثم قال عز وجل: ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى**﴾ يعني: سنعلمك القرآن وينزل عليك فلا تنسى إلا ما شاء الله، يعني قد شاء الله أن لا تنسى القرآن فلم ينس القرآن بعد نزول هذه الآية. وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأخذ في قراءته قبل أن يفرغ جبريل عليه السلام مخافة أن ينساه ويقال «سنقرئك فلا تنسى» يعني: سنحفظ عليك حتى لا تنسى شيئاً، ويقال إن جبريل عليه السلام كان ينزل عليه في كل زمان ويقرأ عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويبين له ما نسخ فذلك قوله ﴿**إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ**﴾ يعني: إلا ما شاء الله أن يرفعه وينسخه ويذهب من قلبك ثم قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى**﴾ يعني: يعلم العلانية والسر، ويقال ما يجهر به الإمام في الفجر والمغرب والعشاء والجمعة وما يخفى يعني: في الظهر والعصر والسنن، ويقال «يعلم» ما يظهر من أفعال العباد وأقوالهم «وما يخفى» من أقوالهم وأفعالهم، ويقال «يعلم» ما عمل العباد «وما يخفى» يعني ما لم يعملوه وهم عاملوه ثم قال عز وجل: ﴿**وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى**﴾ يعني: سنهوّن عليك حفظ القرآن وتبليغ الرسالة، ويقال يعني: نعينك على الطاعة، قوله تعالى: ﴿**فَذَكِّرْ**﴾ يعني: فعِظْ بالقرآن الناس ﴿**إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى**﴾ يعني: إن نفعتهم العظة ومعناه ما نفعت العظة بالقرآن إلا لمن يخشى ويقال إن نفعت الذكرى يعني إن قولك ودعوتك تنفع لكل قلب عاقل ويقال (سنيسرك لليسرى) يعني: نهون عليك عمل أهل الجنة ثم قال: ﴿**سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى**﴾

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٥٨.

(٢) قال الفراء في قوله تعالى: ﴿**والذي أخرج المرعى فجعله غُثاء أحوى**﴾ قال: إذا صار النبت يبيساً فهو غثاء، والأحوى الذي قد اسود من القدم والعتق. انظر لسان العرب ٢/١٠٦٢.

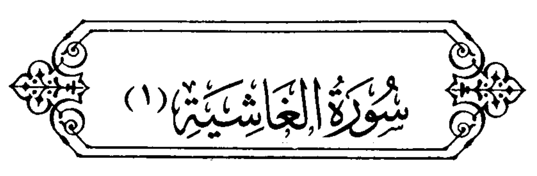
يعني: يتعظ بالقرآن من يخشى الله تعالى ويسلم ويقال معناه سيتعظ ويؤمن ويعمل صالحاً من يخشى قلبه من عذاب الله تعالى ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ يعني: يتباعد عنها يعني عن عظتك ﴿الْأَشْقَى﴾ يعني: الشقي الذي وجب في علم الله تعالى أنه يدخل النار مثل الوليد وأبي جهل ومن كان مثل حالهما ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ يعني: يدخل يوم القيامة النار الكبرى يعني: النار العظمى لأن نار الدنيا هي النار الصغرى ونار الآخرة هي النار الكبرى، وروى يونس عن الحسن عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم وقد غمست في النار مرتين ليُدنى منها ويُنتفع بها ولولا ذلك ما دنوتم منها»(١) ويقال إنها تستجير أن ترد إلى جهنم يعني تتعوذ منها وقال بعض الحكماء: علامة الشقاوة تسع أشياء كثرة الأكل، والشرب، والنوم، والاصرار على الذنب، والغيبة، وقساوة القلب، وكثرة الذنوب، ونسيان الموت، والوقوف بين يدي الملك عز وجل، وهذا هو الشقي الذي يدخل النار الكبرى ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ يعني: لا يموت في النار حتى يستريح من عذابها ولا يحيا حياة تنفعه، وقال القتبي معناه: هو العذاب بحال من يموت ولا يموت.

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

ثم قال عز وجل ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ يعني فاز ونجا من هذا العذاب وسعد بالجنة من تزكى يعني وحّد الله تعالى وزكى نفسه بالتوحيد ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ يعني توحيد ربه ﴿فَصَلَّى﴾ مع الإمام الصلوات الخمس، [ويقال (قد أفلح من تزكى) يعني أدى زكاة الفطر (وذكر اسم ربه فصلى) مع الإمام صلاة العيد] ويقال (قد أفلح من تزكى) يعني أدى زكاة المال، يعني نجا من خصومة الفقراء يوم القيامة (وذكر اسم ربه فصلى) يعني كبّر وصلى لله تعالى، ويقال (من تزكى) يعني تاب من الذنوب (وذكر اسم ربه) يعني إذا سمع الآذان خرج إلى الصلاة ثم ذم تارك الجماعة لأجل الاشتغال بالدنيا فقال ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يعني تختارون عمل الدنيا على عمل الآخرة، قرأ أبو عمرو (بل يؤثرون) بالياء على معنى الخبر عنهم والباقون بالتاء على معنى المخاطبة ثم قال عز وجل ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ يعني عمل الآخرة خير وأبقى من اشتغال الدنيا وزينتها، ويقال معناه يختارون عيش الدنيا الفانية على عيش الآخرة الباقية وإن عيش الآخرة خير وأبقى لأن في عيش الدنيا عيوباً كثيرة خوف المرض والموت والفقر والذل والهوان والزوال والحبس والمنع وما أشبه ذلك وليس في عيش الآخرة شيء من هذه العيوب، لأجل هذا قيل خير من الدنيا قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ يعني الذي ذكر في هذه السورة كان في الصحف الأولى يعني في الكتب الأولى ثم فسره فقال ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ ويقال الذي ذكر في آخر السورة أربع آيات لفي كتب الأولين وكل كتاب مكتوب يسمى الصحف يعني في قوله قد أفلح من تزكى الخ الآية.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣١٨)، وأحمد في المسند ٢/٢٤٤، والدارمي ٢/٣٤٠.



سورة الغاشية(١)

وهي ست وعشرون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ هل استفهام واستفهم الله تعالى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يكن أتاه بعد فكأنه قال لا يأتيك خبره ثم أخبره، ويقال معناه قد أتاك حديث الغاشية، والغاشية اسم من أسماء يوم القيامة، وإنما سميت غاشية لأنها تغشى الخلق كلهم كما يقال يوماً كان شره مستطيراً، ويقال الغاشية النار، وإنما سميت غاشية لأنها تغشي وجوه الكفار كما قال (وتغشى وجوههم النار) أو كقوله (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم)، ويقال الغاشية دخان النار يخرج من النار يوم القيامة عنق من النار فيحيط بالكفار مثل السرادق ويجيء دخانها فيغشى الخلائق حتى لا يرى بعضهم بعضاً إلا من جعل الله تعالى له نوراً بصالح عمله في الدنيا كقوله (كالقصر كأنه جمالة صفر) وكقوله (وظل من يحموم) ويقال تغشى الغاشية الصراط المنافقين كقوله (انظرونا نقتبس من نوركم) الآية ثم وصف ذلك اليوم وقال﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ يعني من الوجوه وجوه يومئذ خائفة ذليلة في العذاب وهي وجوه الكفار ثم قال ﴿عَامِلَةٌ﴾ يعني تُجَرُّ على وجوهها في النار ﴿نَاصِبَةٌ﴾يعني من تعب وعذاب في النار ويقال(عاملة ناصبة) يعني تكلف الصعود على عتبة ملساء من النار فيرتقيها في عناء ومشقة فإذا ارتقى إلى ذروتها هبط منها إلى أسفلها. ويقال نزلت في رهبان النصارى عاملة في الدنيا ناصبة في العبادة أشقياء في الدنيا والآخرة ويقال (عاملة) في الدنيا بالمعاصي والذنوب (ناصبة) في الآخرة بالعذاب ﴿تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً﴾ يعني تدخل

---

(١) اشتملت هذه السورة على تهويل يوم القيامة وما فيه من عقاب قوم مشوهة حالتهم ومن ثواب قوم ناعمة حالتهم وعلى وجه الإجماع المرهب والمرغب. والإيماء إلى ما يبين ذلك الإجمال كله بالإنكار على قوم لم يهتدوا بدلالة مخلوقات من خلق الله وهي نصب أعينهم على تفرده بالإلهية فيعلم السامعون أن الفريق المهدد هم المشركون. وعلى إمكان إعادته بعض مخلوقاته خلقاً جديداً بعد الموت يوم البعث. وتثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الدعوة إلى الإسلام وأن لا يعبأ بإعراضهم. وأن وراءهم البعث فهم راجعون إلى الله فهو مجازيهم على كفرهم وإعراضهم. التحرير ٣٠/٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٢) حجة من قرأ بضم التاء ذكرها اليزيدي فقال: كقوله (بعدها): «تسقى من عين آنية» فجعل اليزيدي «تصلى» بلفظ ما بعده إذ أتى في سياقه ليأتلف الكلام على نظام. وحجة الباقين أن (الصلى) مسند إليهم في كثير من القرآن مثل ﴿يصلونها يوم الدين﴾ وقوله: ﴿يصلى النار الكبرى﴾ و ﴿سيصلى ناراً﴾ فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. حجة القراءات ٧٥٩.

ناراً حارة قد أوقدت ثلاثة آلاف سنة حتى اسودّت فهي سوداء مظلمة قوله تعالى: ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾أي من عين حارة قد انتهى حرُّها ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ﴾ وهذا في بضع دركها ﴿إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر بضم التاء (تُصلى ناراً) وقرأ الباقون بالنصب فمن[١] قرأ بالضم لمعنى المفعول الذي لم يسم فاعله ونصب ناراً على أنه مفعول ثان، ومن قرأ بالنصب جعل الفعل الذي يدخل النار وهو كناية عن الوجوه ولهذا ذكره بلفظ التأنيث ثم قال ليس لهم طعام إلا من ضريع والضريع نبات بين طريق مكة واليمن فإذا أكل الكفار منه بقي في حلقهم (ليس لهم طعام إلا من ضريع) يعني غير الضريع ﴿لَا يُسْمِنُ﴾ يعني لا يشبع الضريع ﴿وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ يعني ولا ينفع (من جوع)[٢] وهذا الجزاء للذي يتعب نفسه للعمل في الدنيا والمعاصي وما لا يحتاج إليه ثم وصف مكان الذي يعمل لله تعالى ويترك عمل المعصية ويؤدي ما أمر الله تعالى ويترك ما نهي عنه فقال ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ يعني من الوجوه ما تكون ناعمة يعني في نعمة وكرامة وهي وجوه المؤمنين والتائبين والصالحين، ويقال وجوه يومئذ ناعمة يعني مشرقة مضيئة مثل القمر ليلة البدر ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ يعني لثواب عملها راضية ويقال لثواب سعيه الذي عمل في الدنيا من الخير يعني رأى ثوابه في الجنة (راضية مرضية) رضي الله عنه بعمله في الدنيا ورضي العبد من الله تعالى في الآخرة من الثواب ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ يعني ذلك الثواب في جنة عالية مرتفعة في الدرجات العلى، وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «إن المتحابين لله تعالى في غرفة ينظر إليهم أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى كواكب السماء»[٣] ثم قال عز وجل ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ يعني لا يكون في الجنة لغو ولا باطل وليس فيها غل ولا غش، قرأ نافع لا تُسمع بضم تاء التأنيث لأن اللاغية مؤنثة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو لا يسمع بضم الياء على معنى فعل ما لم يسم فاعله وإنما ذكر بلفظ التذكير لأنه انصرف إلى المعنى يعني إلى اللغو، وروي عن ابن كثير ونافع في إحدى الروايتين بنصب التاء[٤] يعني لا تسمع في الجنة أيها الداخل كلمة لغو لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى ثم قال ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ يعني في الجنة عين جارية ماؤها أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل فمن شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً ويذهب من قلبه الغل والغش والحسد والغداوة والبغضاء ثم قال ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ يعني مرتفعة ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ يعني الكيزان التي لا عرى لها مدورة الرأس ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ يعني فيها وسائد قد صف بعضها إلى بعض على الطنافس

وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

---

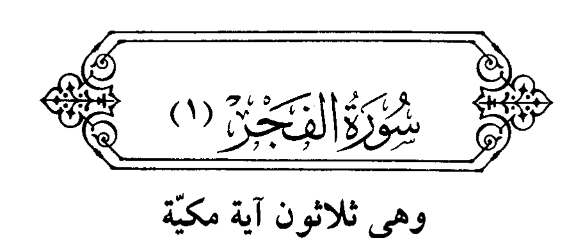
(١) سقط في أ.

(٢) سقط في ظ.

(٣) أخرجه بنحوه أحمد في المسند ٣/٨٧، وذكره الهيثمي بنحوه في مجمع الزوائد ١٠/٤٢٥. وعزاه لأحمد وقال ورجاله رجال الصحيح.

(٤) انظر حجة القراءات ٧٦٠.

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ قال القتبي الزرابي الطنافس ويقال البُسُط واحدها زربي ثم قال عز وجل (مبثوثة) أي كثيرة متفرقة أو مبسوطة والنمارق الوسايد واحداها نمرقة والمؤمن جالس فوق هذا كله وعلى رأسه نور وضاء كأنهن الياقوت والمرجان جزاءً بما كانوا يعملون، فإن شك شاك فيها فتعجب وقال كيف هذا وهو غائب عنا فقل انظر إلى صنعة الرب تبارك وتعالى في الدنيا وهو قوله ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ يعني خَلَق من قطرة ماء خلقاً عظيماً يُحْمَل عليها وإنما خص ذكر الإبل لأن الإبل كانت أقرب الأشياء إلى العرب ثم قال عز وجل ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ﴾ يعني أفلا ينظرون إلى السماء ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ بلا عمد تحتها وحبست في الهواء بقدرة الرب سبحانه وتعالى؟ ثم قال ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ﴾ يعني أفلا ينظرون إلى الجبال ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ على ظهر الأرض أوتاداً لها وليس جبل من الجبال إلا وله عرق من قاف وملك موكل بجبل فإذا أراد الله تعالى بأهل أرض شيئاً أوحى الله تعالى إلى الملك الموكل بذلك الجبل فيحرك تلك العروق فيتزلزل ثم قال ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ يعني بسطت على ظهر الماء ثم قال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ يعني فذكر يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخوفهم بالعذاب في الآخرة، إنما أنت مذكر يعني مخوفاً بالقرآن ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ يعني بمسلط تجبرهم على الإسلام وهذا قبل أن يؤمر بالقتال، وقال مقاتل في الآية تقديم يعني فذكر ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى﴾ يعني أعرض عن الإيمان ﴿وَكَفَرَ﴾ بالله تعالى ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ فيدخله النار وهو العذاب الأكبر الدائم وهو عذاب النار، حرها شديد، ومقرها بعيد، ومقامها حديد قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ يعني إن إلينا مرجعهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ يعني إن مرجعهم إلينا بعد الموت (ثم إن علينا حسابهم) يعني يحاسبون بكل صغيرة وكبيرة وقليل وكثير كما قال (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) ويقال إن علينا حسابهم يعني جزاءهم بأعمالهم يعني ثوابهم بما عملوا والله أعلم بالصواب.



وهي ثلاثون آية مكيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ هو قسم وجوابه (إن ربك لبالمرصاد) أقسم الله تعالى بالفجر يعني الصبح، والفجر فجران المستطيل وهو من الليل والفجر المعترض وهو من النهار، ويقال أراد به أول يوم من المحرم ثم قال عز وجل: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ يعني: عشر ذي الحجة ويقال إنها الأيام العشر التي صام فيها موسى عليه السلام وهي قوله: (وأتممناها بعشر) ويقال هي أيام عاشوراء، ثم قال عز وجل: ﴿والشَّفْعِ والْوَتْرِ﴾ قال قتادة الخلق كله شفع ووتر فأقسم الله تعالى بالخلق، وروى الحارث عن علي رضي الله عنه أنه قال (الشفع) آدم وحواء (والوتر) الله سبحانه وتعالى قال ابن عباس الوتر آدم فتشفع بزوجته حواء، وقال عطاء: (الشفع) الناس (والوتر) الله سبحانه وتعالى وقال الحسن الشفع هو الخلق، والذكر والأنثى، والوتر الله تعالى[٢] ويقال أقسم بالصلوات والصلوات منها ما هو شفع وهو الفجر والظهر والعصر والعشاء ومنها ما هو وتر وهو الوتر في المغرب ويقال إنما هو الأعداد كلها شفع ووتر وعن ابن عباس الشفع أيام الذبح والوتر يوم عرفة.

﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾

قال عز وجل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ قال الكلبي: يعني ليلة المزدلفة يسير الخلق إلى المزدلفة وقال القتبي: والليل إذا يسر يعني يسرى فيه كقوله ليل نائم أي يُنام فيه وقال الزجاج أصله تسري يسري إلا أن الياء قد حذفت منه وهي القراءة المشهورة بغير ياء يقرأ بالياء قرأ حمزة والكسائي والشفع والوتر بكسر الواو والباقون

---

(١) اشتملت هذه السورة من الأغراض ضرب المثل لمشركي أهل مكة في إعراضهم عن قبول رسالة ربهم بمثل عاد وثمود وقوم فرعون. وإنذارهم بعذاب الآخرة. وتثبيت النبي - صلى الله عليه وسلم - مع وعده باضمحلال أعدائه. وإبطال غرور المشركين من أهل مكة إذ يحسبون أن ما هم فيه من النعيم علامة على أن الله أكرمهم وأن ما فيه المؤمنون من الخصاصة علامة على أن الله أهانهم. وأنهم أضاعوا شكر الله على النعمة فلم يواسوا ببعضها الضعفاء وما زادتهم إلا حرصاً على التكثر منها. وأنهم يندمون يوم القيامة على أنهم لم يقدموا لأنفسهم من الأعمال ما ينتفعون به يوم لا ينفع نفساً مالها ولا ينفعها إلا إيمانها وتصديقها بوعد ربها. وذلك ينفع المؤمنين بمصيرهم إلى الجنة. التحرير ٣٠/٣١١ - ٣١٢.

(٢) سقط في أ.

بالنصب[١] وهما لغتان يقال للفرد وَتْرٌ ووِتْر وقرأ ابن كثير «يسر» بالياء في حالة الوصل والقطع وقرأ نافع بالياء إذا وصل وقرأ الباقون بغير ياء في الوصل[٢] والقطع لأن الكسرة تدل عليه ثم قال عز وجل: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ يعني: أن هذا الذي ذكرناه قسماً لذي لب من الناس ويقال إن في ذلك قسم صدق لذي عقل ولب ورشد، والحجر: اللب ثم قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ يعني: ألم تعلم؟ ويقال ألم تخبر؟ واللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التقرير يعني: فذلك خبر عاد ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ يعني: عاقبة قوم عاد وقال بعضهم هما عادان، أحدهما عاد وإرم والآخر هم قوم هود وقال بعضهم كلاهما واحد ويقال إرم اسم للجنة التي بناها فمات قبل أن يدخلها وذكر فيها حكاية طويلة عن وهب بن منبه ثم قال (ذات العماد) يعني الفساطيط والعمود عمود الفسطاط ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ يعني: في القوة والطول ويقال (ذات العماد) يعني: ذات القوة ويقال ذات العماد يعني: دائم الملك طويل العمر ويقال ذات العماد أي ذات البناء الرفيع وروى أسباط عن السدي قال عاد ابن إرم فنسبهم إلى أبيهم الأكبر[٣] كقولك بكر بن وائل ويقال لا ينصرف إرم لأنه اسم قبيلة وقال مقاتل ذات العماد يعني طولها اثنا عشر ذراعاً التي لم يخلق مثلها في البلاد في الطول والقوة وإرم اسم أب قبيلة ينسب إليهم وهو إرم بن سمك بن نسمك بن سام بن نوح عليه السلام وقال الكلبي ذات العماد يعني كانوا أهل ذات عمود وماشية فإذا هاج العمود يعني يبس العشب رجعوا إلى منازلهم ويقال عاد وإرم شيء واحد، ثم قال عز وجل: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ وهم قوم صالح نقبوا الجبل وفعلوا أحجاراً لا يطيق مائتا رجل بالوادي وقال الكلبي هو واد القرى ثم قال عز وجل: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ يعني: قواد الكفرة الفجرة الذين خلقهم الله تعالى أوتاداً في مملكته ليكفوا عنه عدوه ويقال إن له بيتاً أوتد فيه أوتاداً فإذا عذب أحد طرحه فيها ويقال سمي بذي الأوتاد لأنه كان إذا غضب على أحد وثقه بأربعة أوتاد ويقال: الأوتاد وهي الصلب إذا غضب على أحد صلبه كقوله لأصلبنكم ويقال ذو الأوتاد يعني ذا الملك الثابت ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ يعني: عاداً وثمود وفرعون عصوا في البلاد ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ يعني: أكثروا في الأرض المعاصي ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾ يعني: أرسل عليهم ربك ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ يعني: شديد العذاب حتى أهلكهم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ يعني: مرّ الخلق عليه ويقال: (إن ربك لبالمرصاد) يعني ملائكة ربك على الصراط يعني يرصدون العباد على جسر جهنم في سبع مواضع وقال ابن عباس رضي الله عنهما «يحاسب العبد في أولها بالإيمان فإن سلم إيمانه من النفاق والرياء نجا وإلا تردَّى في النار وفي الثاني يحاسب على الصلاة فإن أتم ركوعها وسجودها في مواقيتها نجا وإلا تردّى في النار والثالث يحاسب على الزكاة فإن أداها بشروطها نجا وإلا تردى في النار وفي الرابع يحاسب بصوم رمضان فإن صامه بحدوده وحقوقه نجا وإلا تردى في النار، وفي الخامس في الحج والعمرة وفي السادس بالوضوء والخامس في الحج والعمرة وفي السادس بالوضوء والغسل من الجنابة وفي السابع بر الوالدين وصلة الأرحام ومظالم العباد فإن أداها نجا وإلا تردى في النار.

فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٦١، إتحاف فضلاء البشر ٢/٦٠٨.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٤٧ وعزاه لابن المنذر.

وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾

ثم قال عز وجل: ﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ﴾ قال الكلبي ومقاتل نزلت في «أمية بن خلف» ويقال في أبي بن خلف إذا ما ابتلاه يعني اختبره ربه ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ يعني: ورزقه ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ يعني أعطاه النعمة ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ يعني: اجتباني وفضلني وأنا أهل لذلك ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ﴾ بالفقر ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر في إحدى الروايتين «فقدّر» بالتشديد والباقون بالتخفيف ومعناهما واحد أي فقتر عليه رزقه وأصابه الجوع والأمراض ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ يعني: طردني وعاقبني شكاية لربه قال الله تعالى ﴿كَلَّا﴾ أي حقاً يعني: ليس إهانتي وإكرامي في نزع المال والولد والفقر والمرض ولكن إهانتي في نزع المعرفة وإكرامي بتوفيق المعرفة والطاعة وقال قتادة لم يكن الغنى من كرامة ولم يكن الفقر من الذل. ولكن الكرامة مني بتوفيق الإسلام والهوان مني بالخذلان عنه إنما المكرم من أكرم بطاعتي والمهان من أهين بمعصيتي ثم قال ﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ يعني: لا تعطون حق اليتيم وكان في حجر أمية بن خلف يتيم لا يؤدي حقه فنزلت الآية بسببه فصار فيها عظة لجميع الناس قرأ أبو عمرو وابن عامر في إحدى الروايتين فقدر بالتشديد والباقون بالتخفيف[1] ومعناهما واحد ثم قال عز وجل: ﴿ولا تحضون على طعام المسكين﴾ يعني: لا يحثون أنفسهم ولا غيرهم على طعام المسكين ويقال لا تحاضون على إطعام المسكين ويقال لا يحض بعضهم بعضاً قرأ حمزة والكسائي وعاصم ولا تحاضون بالألف يعني: لا يحث بعضهم بعضاً وقرأ أبو عمرو ولا يحضون بالياء يعني: لا يحثون والباقون لا تحضون بالتاء على المخاطبة[2] ثم قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ يعني: الميراث ﴿أَكْلاً لَمّاً﴾ يعني: شديداً كقولك لممت الشيء إذا جمعته ومعناه يأكلون مال اليتيم أكلًا شديداً سريعاً ﴿وَتُحِبُّونَ المَالَ﴾ يعني كثرة المال وجمع المال ﴿حُباً جَمّاً﴾ يعني: شديداً ويقال كثيراً قرأ أبو عمرو ويكرمون ويأكلون ويحبون كلها بالياء على معنى الخبر عنهم والباقون بالتاء[3] على معنى الخطاب لهم ثم قال عز وجل ﴿كَلَّا﴾ يعني: حقاً ﴿إذا دُكَّتِ الأَرضُ دكاً دكاً﴾ يعني: زلزلزت الأرض زلزالها والتكرار للتأكيد ثم قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ﴾ قال بعضهم هذا من المكتوم الذي لا يفسر وقال أهل السنة وجاء ربك بلا كيف وقال بعضهم معناه وجاء أمر ربك بالحساب والملك ﴿صَفّاً صَفّاً﴾ يعني: صفوفاً كصفوف الملائكة وأهل الدنيا في الصلاة.

وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ تحضر وتدنو من الكفار وروي عن عبد الرحمن بن حاطب قال كنا

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٦٢.

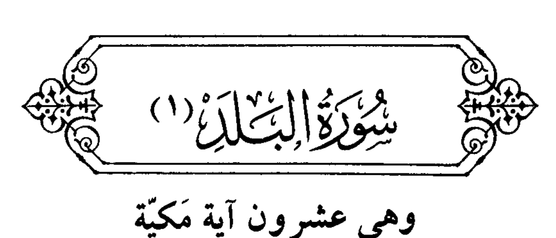
(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق.

جلوساً عند كعب يذكّرنا فجاء عمر رضي الله عنه فجلس ناحيته وقال ويحك يا كعب خوّفنا فقال كعب إن جهنم لتقرب يوم القيامة لها زفير وشهيق حتى إذا قربت ودنت زفرت زفرة لا يبقى نبي ولا صديق إلا وهو يخر ساقطاً على ركْبتيه فيقول اللهم لا أسألك اليوم إلا نفسي ولو كان لك يا ابن الخطاب عمل سبعين نبياً لظننت أن لا تنجو فقال عمر رضي الله عنه والله إن الأمر لشديد ثم قال ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنْسَانُ﴾ يعني: يتعظ الكافر ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِكْرَى﴾ يعني: من تنفعه العظة ويقال يومئذ يتذكر الإنسان يعني يظهر الإنسان التوبة يعني: أين له التوبة يعني كيف تنفعه التوبة يومئذ ﴿يقول يا ليتني قدمت لحياتي﴾ يعني: يا ليتني عملت في حياتي الفانية لحياتي الباقية ثم قال عز وجل: ﴿فيومئذ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ولا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ قرأ الكسائي لا يعذب بنصب الذال ولا يوثق بنصب التاء والباقون[1] كلاهما بالكسر فمن قرأ بالنصب فمعناه ولا يعذب عذاب هذا الصنف من الكفار أحد وكذلك لا يوثق وثاقه أحد ومن قرأ بالكسر معناه لا يتولى يوم القيامة عذاب الله أحد الملك يومئذ لله وحده والأمر بيده ويقال معناه لا يقدر أحد من الخلق أن يعذب كعذاب الله تعالى ولا يوثق في الغل والصفد كوثاق الله. ثم قال عز وجل: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطَمئِنَةُ﴾ التي اطمأنت بلقاء الله عز وجل ويقال المطمئنة يعني: الراضية بثواب الله تعالى القانعة بعطاء الله الشاكرة لنعمائه تعالى يقال لها عند الفراق من الدنيا ﴿ارْجِعِي الَى رَبِّكِ﴾ يعني: ارجعي إلى ثواب ربك إلى ما أعد الله لك في الجنة ويقال له يوم القيامة ﴿رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ يعني: مع عبادي الصالحين في الجنة ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ يعني: ادخلي الجنة بلا حساب ويقال هذا الخطاب لأهل الدنيا يعني أيتها النفس المطمئنة في الدنيا التي أمنت من عذاب الله ارجعي إلى ربك راضية مرضية يعني: فادخلي في عبادي يعني: ادخلي في عبادي وفي طاعتي وادخلي جنتي ويقال معناه تقول الملائكة يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ما أعد الله لك راضية (فادخلي في عبادي) على محض التقديم يعني يا أيتها النفس المطمئنة الراضية بما أعطيت من الثواب مرضية بما عملت وادخلي جنتي مع عبادي والله تعالى أعلم.

---

(١) إتحاف فضلاء البشر ٢/٦٠٩.



وهي عشرون آية مَكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤

قوله تعالى: ﴿**لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾ يعني: أقسم بهذا البلد ولا صلة في الكلام ومعناه أقسم برب هذا البلد الذي ولد فيه يعني مكة ﴿**وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾ يحلها يوم فتح مكة معناه فسيحل لك هذا البلد يعني: القتال فيه ساعة من النهار ولم يحل لك أكثر من ذلك وروى[٢] عبد الملك عن عطاء في قوله (وأنت حل بهذا البلد) وقال إن الله تعالى حرم مكة فجعلها حراماً يوم خلق السموات والأرض وهي حرام إلى أن تقوم الساعة ولم تحل إلا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ساعة من[٣] النهار وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه دخل بالبيت يوم الفتح ووضع يده على باب الكعبة فقال لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام لي بحرام الله تعالى إلى يوم القيامة لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي ولم تحل لي إلا ساعة[٤] من نهار ثم قال عز وجل: ﴿**وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ**﴾ ووالد يعني: آدم وما ولد يعني ذريته ويقال كل والد وكل مولود وقال عكرمة ووالد الذي يلد وما يلد التي لم تلد من النساء والرجال[٥] ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾ يعني: معتدل الخلق والقامة فأقسم بمكة وبآدم وذريته. (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ) منتصباً قائماً على رجلين)[٦] وقال مقاتل نزلت الآية في حارث بن عامر بن نوفل وروى مقسم عن ابن عباس في قوله «لقد خلقنا الإنسان (في كبد)» قال خلق كل شيء يمشي على أربع إلا الإنسان فإنه خلق[٧] منتصباً وهذا كقوله (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم) ويقال (لقد خلقنا الإنسان في كبد) يعني: في مشقة وتعب، وروي عن ابن رفاعة عن سعيد بن الحسن عن الحسن البصري في قوله «لقد خلقنا الإنسان في كبد» قال سعيد يكابد مضايق الدنيا وشدائد

---

(١) اشتملت هذه السورة على التنويه بمكة وبمقام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بها. وبركته فيها وعلى أهلها والتنويه بأسلاف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من سكانها الذين كانوا من الأنبياء مثل إبراهيم وإسماعيل، أومن أتباع الحنيفية مثل عدنان ومضر كما سيأتي، والتخلص من ذم سيرة أهل الشرك. وإنكارهم البعث. وما كانوا عليه من التفاخر المبالغ فيه، وما أهملوه من شكر النعمة على الحواس، ونعمة النطق، ونعمة الفكر، ونعمة الإرشاد فلم يشكروا ذلك بالبذل في سبل الخير وما فرطوا فيه من خصال الإيمان وأخلاقه. التحرير ٣٠/٣٤٥ ـ ٣٤٦.

(٢) عبد الملك بن إبراهيم الجدي صدوق مات سنة أربع أو خمس ومائتين. التقريب ١/٥١٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٥٢ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ١/٢٥٩، ٣١٦.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٥٢ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) سقط في ظ.

(٧) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٥٢ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم.

الآخرة، وقال الحسن لم يخلق الله تعالى خليقة يكابد مكابدة ما يكابد[1] ابن آدم، وروي عن عطاء عن ابن عباس يقول خلق في شدة يعني مولده ونبات أسنانه وغير ذلك ويقال معناه ولقد خلقنا الإنسان في كبد وهي المضغة مثل الكبد دما غليظاً ثم يصير مضغة.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾

وقال عز وجل ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ يعني أيحسب الكافر أن لن يقدر عليه الله تعالى يعني على أخذه وعقوبته ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً﴾ يعني أبا جهل بن هشام يقول أنفقت][2] مالاً كثيراً في عداوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم ينفعني ذلك وهو أنه ضمن مالاً لمن يقتل محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال: أنفق مالاً يوم بدر ثم قال عز وجل ﴿أَيَحْسَبُ﴾ يعني أيظن ﴿أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ يعني: إن لم ير الله تعالى صنيعه فلا يعاقبه بما فعل. ثم ذكر ما أنعم عليه ليعتبر به ويوحده فقال ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ يعني: ألم نخلق له عينين يبصر بهما ﴿وَلِسَاناً﴾ ينطق به ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ فيضمهما ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ قال الثعلبي ومقاتل يعني عرّفناه طريق الخير والشر، وقال قتادة يعني طريق الهدى والضلالة وهكذا قال ابن مسعود رضي الله عنه ويقال (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) يعني هديناه في الصغر لأحد الثديين يعني خلق له شفتين ليأخذ بهما ثدي أمه ويقال بينا له طريقين طريق الدنيا وطريق الآخرة وقال مجاهد يعني طريق السعادة وطريق الشقاوة[3] ويقال الطاعة والمعصية ويقال طريق الصواب وطريق الخطأ ومعناه ألم نجعل له ما يستدل به على أن الله تعالى قادر على أن يبعثه ويحصى عليه ما عمله.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾

ثم قال عز وجل ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ يعني: فلا هو اقتحم العقبة ويقال فلم يقتحم العقبة ويقال معناه فهل تجاوز العقبة الذي يزعم أنه أنفق مالاً كثيراً في عداوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما أراد بالعقبة الصراط كما روي عن أبي ذر الغفاري أنه قال إن بين أيدينا عقبة كؤود لا ينجو منها الأ كل مخف وكما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه بكى حين حضرته الوفاة قيل له وما يبكيك قال بُعْدَ المفازة وقلة الزاد وضعف النفس وعقبة كؤد والهبوط منها إلى الجنة أو إلى النار ثم قال عز وجل ﴿وَمَا أَدْرَاكَ ما الْعَقَبَةُ﴾ يعني ما أدراك بماذا يكون مجاوزة الصراط. ثم قال ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ يعني: اقتحام العقبة هو فك الرقبة يعني إنما يجاوز الصراط ﴿أَو إِطْعَامٌ في يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ يعني يجاوز الصراط بإحكام في يوم ذي مجاعة قرأ أبو عمرو وابن كثير والكسائي (فك رقبة) بنصب الكاف والهاء

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٥٣ وعزاه لابن المبارك.

(٢) في أ [أنفقت].

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٥٣ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر.

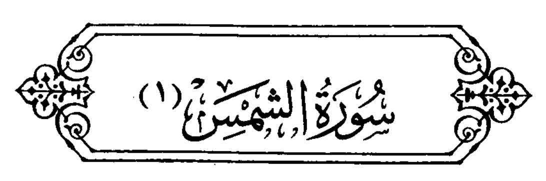
(وأطعم) بنصب الهمزة بغير الألف والباقون (فك رقبة) بضم الكاف وكسر الهاء أو إطعام بكسر الهمزة[١] وإثبات الألف فمن قرأ بالنصب فهو محمول على المعنى معناه فلا فَكَّ رقبةً ولا أطعمَ في يوم ذي مسغبة فكيف يجاوز العقبة ومن قرأ بالضم فمعناه اقتحامُ العقبة فكُّ رقبة، يعني مجاوزة العقبة بعتق رقبة وبإطعام في يوم ذي مسغبة أي مجاعة ثم بين لهم لمن يُطْعَم الطعام فقال ﴿يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ يعني يتيماً بينك وبينه قرابة ﴿أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ يعني مسكيناً لا شيء له لاصق في التراب من الجهد فهذا الإحسان مجاوزة العقبة ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني من صنع هذا الإحسان يكون مؤمناً لأنه لا يتقبل عملاً من الأعمال بغير إيمان ويقال معناه ثم يثيب على إيمانه ثم قال ﴿وَتَوَاصَوا بِالصَّبْرِ﴾ يعني تحاشوا أنفسهم بالصبر وتحاشوا بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله تعالى وبالصبر على المكروهات لأنه روي في الخبر أن الجنة حفت بالكاره ثم قال تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالمَرْحَمَةِ﴾ يعني تحاشوا بالتراحم بعضهم على بعض يعني بالمرحمة على أنفسهم على غيرهم وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال من يرحم الناس يرحمه الله تعالى ثم قال ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ (يعني أهل التراحم والتواصل هم أصحاب الميمنة)[٢] الذين يُعْطَوْن كتابهم بأيمانهم. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا﴾ يعني: بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن ويقال كفروا بدلائل الله تعالى ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ﴾ يعني: يعطون كتابهم بشمالهم ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٍ﴾ يعني: أُدْخِلُوا في النار وأُطْبِقَت عليهم لا يخرج منها غم ولا يدخل فيها روح آخر الأبد قرأ أبو عمرو وعاصم في رواية حفص وحمزة عليهم نار موصدة بالهمزة والباقون بغير همزة[٣] وهما لغتان يقال: أصدت وأوصدت الباب وأوصدته إذا أطبقته. والله أعلم.

---

(١) قال بعض أهل النحو من قال «فك رقبة» مضافاً، «أو إطعام» المعنى فيه: ما أدراك ما اقتحام العقبة؟ لا بد من تقدير هذا المحذوف، لأنه لا يخلو من أن تقدر حذف المضاف أو لا تقدره، فإن لم تقدره وتركت الكلام على ظاهره كان المعنى (العقبة: فك رقبة)، ولا تكون العقبة: الفك لأنه عين والفك حدث والخبر ينبغي أن يكون المبتدأ في المعنى فإذا لم يستقم كان المضاف مراداً، فيكون المعنى: (اقتحام العقبة: فك رقبة أو إطعام) أي اقتحامها أحد هذين. ومن قال «فك رقبة» أو «أطعم» فإنه يجوز أن يكون ما ذكر من الفعل تفسيراً لاقتحام العقبة. فإن قيل: إن هذا الضرب لم يفسر بالفعل وإنما فسر بالإبتداء والخبر نحو قوله: ﴿نار الله الموقدة﴾ وقوله: «نار حامية» قيل: إنه يمكن أن يكون قوله: ﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ تفسيراً لقوله: ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ ويكون تفسيراً على المعنى. وقد جاء «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم» وفسر المثل بقوله ﴿خلقه من تراب﴾ فكذلك قوله ﴿فك رقبة أو إطعام﴾ تفسيراً على المعنى.

(٢) سقط في أ.

(٣) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٦١١.



سُورَةُ الشَّمْسِ(١)

وهي خمس عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾

قوله تعالى ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا**﴾ أقسم الله تعالى بالشمس وضوئها وحرها ويقال بخالق الشمس وضحاها يعني: ارتفاع النهار ويقال: حر الشمس يسمى ضحى قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وضحها بالتفخيم وكذلك تلاها إلى آخر السورة وقرأ حمزة والكسائي كلها بالإمالة وقرأ نافع وأبو عمرو بين ذلك(٢) ثم قال عز وجل ﴿**والقمرِ إذا تلاها**﴾ يعني يتبع الشمس والهاء كناية عن الشمس وقال قتادة والشمس هو النهار والقمر إذا تلاها قال يتلوها صبيحة الهلال وإذا سقطت الشمس رأيت الهلال عند سقوطها ثم قال عز وجل: ﴿**والنَّهارِ إذا جَلَّاهَا**﴾ يعني إذا أضاء واستنار فقال القتبي هذا من الاختصار والنهار إذا جلاها ويعني والأرض أو الدنيا يعني النهار إذا أضاء الدنيا وقال الكلبي معناه إذا جلى النهار ظلمة الليل ثم قال عز وجل ﴿**والليل إذا يَغْشَاهَا**﴾ يعني غطى ضوء النهار ويقال والليل إذا يغشاها يعني غطى الأرض وسترها ثم قال ﴿**والسماء وما بناها**﴾ يعني خلقها ويقال والسماء وما بناها يعني الله تعالى بناها فأقسم بنفسه ويقال ما للصلة ومعناه: والسماء وبنائها ثم قال عز وجل ﴿**والأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا**﴾ يعني والذي بسطها على الماء من تحت الكعبة ثم قال ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا**﴾ يعني ونفس والذي سوى خلقها ويقال ونفس وما خلقها ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ يعني: ألهمها الطاعة والمعصية ويقال عرفها وبين لها ما تأتي وما تذر ثم قال عز وجل ﴿**قد أفلح من زكاها**﴾ يعني: أصلحها الله وعرفها وهذا جواب القسم لقد أفلح ولكن اللام حذفت لثقلها لأن الكلام طال ثم قال ﴿**وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾ يعني: خسر من أغفلها وأغواها وخذلها وأضلها وقال القتبي معناه قد أفلح من زكى نفسه أي أنماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة وقد خاب من دساها يعني نقصها وأخفاها بترك عمل البر وبركوب عمل المعاصي وأصله دسس فجعل مكان إحدى السينين ياء كما يقال قصيت أظفاري وأصله قصصت قال وأصل هذا أن أجواد العرب كانوا ينزلون في أرفع المواضع ويوقدون من النار للطارقين لتكون أنفسهم أشهر واللئام ينزلون الأطراف والأهضام لتخفي أماكنهم على الطارقين فأخفوا

---

(١) اشتملت هذه السورة على تهديد المشركين بأنهم يوشك أن يصيبهم عذاب بإشراكهم وتكذيبهم برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما أصاب ثمود بإشراكهم وعتوهم على رسول الله إليهم الذي دعاهم إلى التوحيد. وقُدّم لذلك تأكيد الخبر بالقسم بأشياء معظمة وذكر من أحوالها ما هو دليل على بديع صنع الله تعالى الذي لا يشاركه فيه غيره فهو دليل على أن المنفرد بالإلهية والذي لا يستحق غيره الإلهية، وخاصة أحوال النفوس ومراتبها في مسالك الهدى والضلال والسعادة والشقاء. التحرير ٣٠/٣٦٥ ـ ٣٦٦.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٦١٢.

أنفسهم والبار أيضاً أظهر نفسه بأعمال البر والفاجر دساها ويقال: إن الله تعالى يطلب من عباده المؤمنين يوم القيامة ستة أشياء: بمكان النعمة الشكر وبمكان الشدة الصبر وبمكان الصحة العمل بالطاعة وبمكان الذنوب التوبة وبمكان العمل الإخلاص فمن يجييء بهذه الأشياء فقد أفلح ونما ومن لم يجييء بهذه الأشياء فقد خسر وغبن.

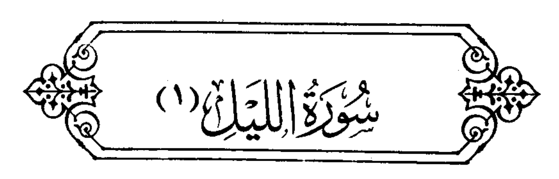
كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

ثم قال عز وجل ﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا**﴾ يعني بطغيانهم حملهم على ذلك التكذيب ﴿**إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا**﴾ يعني: إذا قام أشقى ثمود وكلهم أشقياء في علم الله تعالى وأشقاهم عاقر الناقة وهو قدار بن سالف ومصدع بن دهر ﴿**فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ**﴾ صلى الله عليه وسلم ـ يعني صالحاً ﴿**نَاقَةَ اللهِ**﴾ يعني احذروا ناقة الله ﴿**وَسُقْيَاهَا**﴾ يعني لا تأخذوا سقياها ومعناه ولا تعقروا ناقة الله وذروا شربها وقد ذكرناه في سورة الأعراف. ﴿**فَكَذَّبُوهُ**﴾ يعني صالحاً بالعذاب ﴿**فَعَقَرُوهَا**﴾ يعني فعقروا الناقة ويقال في الآية تقديم فعقروها فخّوفهم صالح عليه السلام بالعذاب فكذبوه ثم قال عز وجل ﴿**فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ**﴾ يعني أنزل عليهم ربهم عقوبة ﴿**بِذَنْبِهِمْ**﴾ والدَّمْدَمة المبالغة في العقوبة والنكال، ثم قال ﴿**فَسَوَّاهَا**﴾ يعني: فسواها في الهلاك يعني الصغير والكبير ﴿**وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا**﴾ قرأ نافع وابن عامر فلا يخاف بالفاء، والباقون بالواو[1] فمن قرأ بالفاء وصل الذي بعدها بالذي قبلها وهو قوله فدمدم عليهم ربهم يعني أطبق عليهم العذاب بذنبهم فسواها يعني فسوى الأرض عليهم ولا يخاف عقبى هلكهم ولا يقدر أن يرجعوا إلى السلامة ومن قرأ بالواو فمعناه التقديم والتأخير يعني الذي عقرها وهو لا يخاف عقبى عقرها ويقال إن الله تعالى أهلكهم ولم يخف ثأرها وعاقبتها على غير وجه التقديم، وروى الضحاك عن علي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال لعلي رضي الله عنه «أتدري من أشقى الأولين قلت الله ورسوله أعلم قال: عاقر الناقة فقال أتدري من أشقى الآخرين قلت الله ورسوله أعلم قال[2]: قاتلك» والله أعلم.

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٦٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور بنحوه ٦/٣٥٧ عن عمار بن ياسر وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه والبغوي وأبي نعيم في الدلائل.



سورة الليل(١)

وهي إحدى وعشرون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ⑥ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ⑦ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ⑨ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ⑩ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ⑪﴾

قوله تعالى: ﴿والليل إذا يغشى﴾ أقسم الله تعالى بالليل إذا غشيت ظلمته ضوء النهار ويقال: أقسم بخالق الليل إذا يغشي يعني يغشى الليل ضوء النهار ﴿والنهار إذا تجلى﴾ يعني أقسم بالنهار إذا استنار وتجلى عن الظلمة ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ يعني والذي خلق الذكر والأنثى يعني آدم وحواء وقال القتبي: ما ومن أصلهما واحد وجعل من للناس وما لغير الناس ويقال من مَرّ بك من الناس وما مَرّ بك من الإبل وقال أبو عبيد: وما خلق أي وما خلق وكذلك قوله (والسماء وما بناها ونفس وما سواها) و «ما» في هذه المواضع بمعنى «من».

وقال أبو عبيد: وما بمعنى من وبمعنى الذي وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ والنهار إذا تجلى والذكر والأنثى وروى الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال قدمنا الشام فأتانا أبو الدرداء فقال أفيكم أحد يقرأ على قراءة عبد الله بن مسعود فأشاروا إلي فقلت نعم أنا فقال كيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية قلت سمعته يقرأ (والذكر والأنثى): قال: أنا هكذا والله سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقرأها وهؤلاء يريدونني على أن أقرأها كلا(٢) أنا معهم ثم قال عز وجل ﴿إن سعيكم لشتى﴾ فهذا موضع جواب القسم - أقسم الله تعالى بخالق هذه الأشياء إن سعيكم لشتى يعني أديانكم ومذاهبكم مختلفة يعني عملكم مختلف عامل للجنة وعامل للنار وقال أبو الليث رحمه الله حدثنا أبو جعفر حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن سهل القاضي قال أخبرنا حدثنا أحمد بن جرير قال حدثنا أبو عبد الرحمن راشد بن إسماعيل عن منصور بن مزاحم عن يونس بن إسحاق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه اشترى بلالاً من أمية بن خلف وأبي بن خلف ببروة وعشرة أواق من فضة فأعتقه لله تعالى فأنزل الله تعالى (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى) يعني سعي أبي بكر وأمية بن خلف ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى﴾ يعني بلا إله إلا الله يعني أبا بكر ﴿فسنيسره لليسرى﴾ يعني الجنة ﴿وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى﴾ يعني بلا إله إلا

---

(١) حوت على بيان شرف المؤمنين وفضائل أعمالهم ومذمة المشركين ومساويهم وجزاء كلٍّ. وأن الله يهدي الناس إلى الخير فهو يجزي المهتدين بخير الحياتين والضالين بعكس ذلك وأنه أرسل رسوله - صلى الله عليه وسلم - للتذكير بالله وما عنده فينتفع من يخشى فيفلح ويصدف عن الذكرى من كان شقياً فيكون جزاؤه النار الكبرى وهؤلاء هم الذين صدهم عن التذكر إيثار حب ما هم فيه في هذه الحياة. وأدمج في ذلك الإشارة إلى دلائل قدرة الله تعالى وبديع صنعه. التحرير ٣٠/٣٧٧ - ٣٧٨.

(٢) انظر تفسير الطبري ٣٠/٢١٧.

الله ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ يعني أمية وأبي ابني خلف إذا ماتا. ويقال لنزول هذه الآية سبب آخر.

كان رجل من الكفار له نخلة في دار، وشعبها في دار رجل آخر من المسلمين وكان إذا سقطت ثمرة في دار المسلم نادى الكافر: حرام حرام وكان المسلم يأخذ الثمرة فيرمي بها في دار الكافر لئلا يأكل ذلك صبيانه فسقطت يوماً ثمرة فأخذها ابن صغير للمسلم فجعلها في فيه فدخل الكافر فأخرج الثمرة من فيه وأبكى الصبي فشكى المسلم إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدعا المشرك فقال أتبيع نخلتك ليعطيك الله أفضل منها في الجنة فقال لا أبيع العاجل بالآجل فسمع رجل من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاشترى النخلة من الكافر وتصدق بها على المسلم[1] فنزلت (فأما من أعطى واتقى) يعني أعطى من ماله حق الله تعالى وأتقى الشرك وسخط الله تعالى وصدق بالحسنى يعني بثواب الله في الجنة (فسنيسره) يعني سنعينه ونوفقه (لليسرى) يعني لعمل أهل الجنة (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ)، بالصدقة (واسْتَغْنَى) يعني رأى نفسه مستغنياً عن ثواب الله وعن جنته (وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى) يعني بالثواب وهو الجنة (فَسَنُيَسِّرُه لِلْعَسْرى) يعني نخذله ولا نوفقه للطاعة فسنيسر عليه طريق المعصية (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى) ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ يعني ما ينفعه ماله إذا مات وتركه في الدنيا وهو يرد إلى النار.

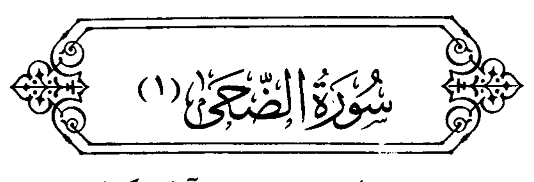
إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ يعني علينا بيان الهدى ويقال علينا التوفيق للهدى من كان أهلاً لذلك ﴿وَإِنَّ لَنَا لِلآخِرَةَ وَالأُولَى﴾ يعني الدنيا والآخرة لله تعالى يعطي منها من يشاء ويقال معناه إلى الله تعالى ثواب الدنيا والآخرة ويقال وإن لنا للآخرة والأولى يعني لله تعالى نفاذ الأمر في الدنيا والآخرة يعطي في الدنيا المغفرة والتوفيق للطاعة وفي الآخرة الحسنة والثواب ثم قال: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى﴾ يعني خوفتكم بالقرآن ناراً تلظى يعني تتقل على أهلها وتغيظ على أهلها وتزفر عليهم قوله عز وجل ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ يعني لا يدخل في النار ﴿إِلَّا الأَشْقَى﴾ يعني الذي ختم له بالشقاوة ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ يعني كذب بالتوحيد وتولى عن الإيمان وعن طاعة الله تعالى وأخذ في طاعة الشيطان ثم قال ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى﴾ يعني يباعد عنها الأتقى يعني المتقي الذي يتقي الشرك وهو ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ يعني يعطي من ماله حق الله تعالى يتزكى يعني يريد به وجه الله تعالى ثم قال ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ يعني لا يفعل ذلك مجازاة لأحد ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾ ولكن يفعل ذلك وجه ربه الأعلى يفعل ذلك طلب رضاء الله تعالى الأعلى يعني الله العلي الكبير الرفيع فوق خلقه بالقهر والغلبة ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ يعني سوف يعطي الله من الثواب حتى يرضى بذلك.

وقال مقاتل مر أبو بكر على بلال وسيده أمية بن خلف يعذبه فاشتراه وأعتقه فكره أبو قحافة عتقه فقال لأبي بكر أما علمت أن مولى القوم من أنفسهم فإذا أعتقت فأعتق من له منظرة وقوة فنزل وما لأحد عنده من نعمة تجزى يعني لا يعقل لطلب المجازاة ولكن إنما يعطي ما له ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى بثواب الله تعالى والله أعلم بالصواب.

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٣٥.



وهي إحدى عشرة آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿والضُّحَى﴾ يعني: النهار كله ويقال الضحى ساعة من ساعات النهار ويقال الضحى حر الشمس ﴿واللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ يعني: اسودّ وأظلم ويقال إذا سكن بالناس ويقال (والضحى والليل إذا سجى) يعني: عباده الذين يعبدونه في وقت الضحى وعباده الذين يعبدونه بالليل إذا أظلم ويقال (والضحى) نور الجنة إذا تنور (والليل إذا سجى) يعني: ظلمة النار إذا أظلم ويقال (والضحى) يعني النور الذي في قلوب العارفين كهيئة النهار (والليل إذا سجى) يعني السواد الذي في قلوب الكافرين كهيئة الليل، وأقسم الله تعالى بهذه الأشياء ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ يعني: ما تركك ربك يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ منذ أوحى إليك (وما قلى) يعني: ما أبغضك ربك وذلك أن مشركي قريش أرسلوا إلى يهود المدينة وسألوهم عن أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت لهم اليهود فاسألوه عن أصحاب الكهف وعن قصة ذي القرنين وعن الروح فإن أخبركم بقصة أهل الكهف وعن قصة ذي القرنين ولم يخبركم عن أمر الروح فاعلموا أنه صادق فجاؤوه، وسألوه فقال لهم «ارجعوا غداً حتى أخبركم» ونسي أن يقول إن شاء الله فانقطع عنه جبريل خمسة عشرة يوماً، في رواية الكلبي وفي رواية الضحاك أربعين يوماً فقال المشركون قد ودّعه ربه وأبغضه[٢] فنزل فيهم ذلك وروى أسباط عن السدي قال فأبطأ جبريل عليه السلام على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أربعين ليلة حتى شكى ذلك إلى خديجة فقالت خديجة لعل ربك قد قلاك أو نسيك فأتاه جبريل عليه السلام بهذه الآية[٣] (ما ودعك ربك وما قلى) ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾

---

(١) اشتملت هذه السورة على إبطال قول المشركين إذ زعموا أن ما يأتي من الوحي للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد انقطع عنه. وزاده بشارة أن الآخرة خير له من الأولى على معنيين في الآخرة والأولى. وأنه سيعطيه ربه ما فيه رضاه. وذلك يغيظ المشركين. ثم ذكره الله بما حفه به من ألطافه وعنايته في صباه وفي فتوته وفي وقت اكتهاله وأمره بالشكر على تلك النعم بما يناسبها من نفع لعبيده وثناء على الله بما هو أهله. التحرير ٣٠/٣٩٤.

(٢) انظر تفسير القرطبي ٢٠/٦٣.

(٣) قال الإمام الفخر الرازي في تفسير ٣١/٢١٠ بعد ذكره تلك الرواية: طعن الأصوليون في هذه الرواية، وقالوا إنه لا يليق بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يظن أن الله تعالى ودعه وقلاه بل يعلم أن عزل النبي عن النبوة غير جائز في حكمة الله تعالى، ويعلم أن نزول الوحي يكون بحسب المصلحة وربما كان الصلاح تأخيره وربما كان خلاف ذلك، فثبت أن هذا الكلام غير لائق بالرسول =

يعني: ما أعطاك الله في الآخرة خير لك مما أعطاك في الدنيا ويقال معناه عز الآخرة خير من عز الدنيا لأن عز الدنيا يفنى وعز الآخرة يبقى. قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ يعني يعطيك ثواب طاعتك حتى ترضى و(سوف) من الله تعالى واجب ويقال (ولسوف يعطيك) الحوض والشفاعة (حتى ترضى) ثم ذكر له ما أنعم عليه في الدنيا وفي الآخرة فقال عز وجل: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ يعني: كنت يتيماً فضمك إلى عمك أبي طالب فكفاك المؤنة حين كنت يتيماً (ما ودعك ربك) فكيف ودعك بعد ما أوحى إليك ثم قال عز وجل: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾ يعني: وجدك جاهلاً بالنبوة وبالحكمة وبالكتاب وقراءته والدعوة إلى الإيمان فهداك إلى هذه الأشياء وكقوله (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) ويقال ووجدكَ ضالاً يعني: من بين قوم ضلال فهدى يعني: حفظك من أمرهم وعن أخلاقهم ويقال ووجدك بين قوم ضلال فهداهم بك ثم قال عز وجل: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ يعني: وجدك فقيراً بلا مال فأغناك بمال خديجة ويقال وجدك فقيراً عن القرآن والعلم فأغناك يعني أغنى قلبك وأرضاك بما أعطاك.

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

ثم قال تعالى ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ يعني لا تظلمه وادفع إليه حقه ويقال معناه واذكر يُتْمك وأرحم اليتيم، وقال مجاهد فلا تقهر يعني فلا تقهره وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ (فأما اليتيم فلا تكهر) يعني لا تعبس في وجهه وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: من ضم يتيماً وكان محسناً في نفقته كان له حجاباً من النار يوم القيامة ومن مسح برأسه كان له بكل شعرة حسنة[1]. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ يعني لا تؤذه ولا تزجره ويقال معناه واذكر فقرك ولا تزجر السائل ولا تنهره ورده ببذل يسير وبكلمة طيبة، وفي الآية تنبيه لجميع الخلق لأن كل واحد من الناس كان فقيراً في الأصل فإذا أنعم الله عليه وجب أن يعرف حق الفقراء ثم قال عز وجل ﴿وَأما بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [2] يعني بهذا القرآن فيعلم الناس وفي الآية تنبيه لجميع من

= عليه الصلاة والسلام، ثم إن صح ذلك يحمل على أنه كان مقصوده عليه الصلاة والسلام أن يجربها ليعرف قدر علمها، أو ليعرف الناس قدر علمها، واختلفوا في قدر مدة انقطاع الوحي، فقال ابن جريج اثنا عشر يوماً، وقال الكلبي خمسة عشر يوماً وقال ابن عباس خمسة وعشرون يوماً، وقال السدي ومقاتل أربعون يوماً، واختلفوا في سبب احتباس جبريل عليه السلام، فذكر أكثر المفسرين أن اليهود سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف، فقال: «سأخبركم غداً ولم يقل إن شاء الله» فاحتبس عنه الوحي. تفسير الفخر الرازي ٣١/٢١٠ ـ ٢١١.

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/١٦٤ من حديث عمرو بن مالك القشيري وعزاه لأحمد والطبراني وقال وفيه علي بن زيد وهو حسن الحديث. وهو عند أحمد في المسند ٤/٣٤٤، ٥/٢٩ والطبراني في الكبير ١٩/٣٠٠.

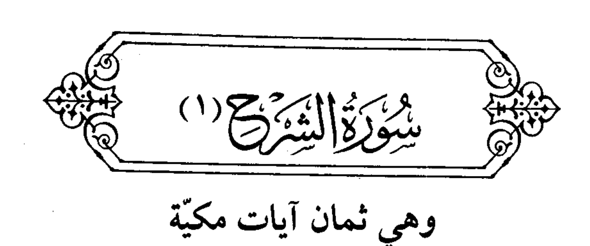
(٢) الخطاب في هذه الآيات للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمقتضى الأمر في المواضع الثلاثة أن تكون خاصة بـه، وأصل الأمر الوجوب، فيعلم أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ واجب عليه ما أمر به، وأما مخاطبة أمته بذلك فتجري على أصل مساواة الأمة لنبيها فيما فرض عليه ما لم يدل دليل على الخصوصية، فأما مساواة الأمة له في منع قهر اليتيم ونهر السائل فدلائله كثيرة مع ما يقتضيه أصل المساواة. وأما مساواة الأمة له في الأمر بالتحدث بنعمة الله فإن نعم الله على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ شتّى منها ما لا مطمع لغيره من الأمة فيه مثل نعمة الرسالة ونعمة القرآن ونحو ذلك من مقتضيات الاصطفاء الأكبر، ونعمة الرب في الآية مجملة. فنعم الله التي أنعم بها على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثيرة منها ما يجب تحديثه به وهو تبليغه الناس أنه رسول من الله وأن الله أوحى إليه وذلك داخل في تبليغ الرسالة وقد كان يعلم الناس الإسلام فيقول لمن يخاطبه أن تشهد أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله ومنها تعريفه الناس ما يجب له من البر والطاعة كقوله لمن قال لـه اعدل يا رسول الله فقال «**أيأمنني الله على وحيه ولا** =

يعلم القرآن أن يحتسب في تعليم غيره ويقال معناه فحدث الناس بما آتاك الله من الكرامة ويقال معناه آجهر بالقرآن في الصلاة وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال:

«إن الله تعالى جميل يحب الجمال ويحب أن يرى أثر النعمة على عبده» يعني[1] يشكر بما أنعم الله تعالى عليه ويحدث به فيظهر على نفسه أثر النعمة (والله أعلم بالصواب).

= تأمنوني» ومنها ما يدخل في التحديث به في واجب الشكر على النعمة فهذا وجوبه على النبي - صلى الله عليه وسلم - خالص من عروض المعارض لأن النبي معصوم من عروض الرياء ولا يظن الناس به ذلك فوجوبه عليه ثابت. وأما الأمة فقد يكون التحديث بالنعمة منهم محفوفاً برياء أو تفاخر. وقد ينكسر له خاطر من هو غير واجد مثل النعمة المتحدث بها. وهذا مجال للنظر في المعارضة بين المقتضى والمانع، وطريقة الجمع بينهما إن أمكن أو الترجيح لأحدهما. وفي تفسير الفخر: سئل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عن الصحابة فأثنى عليهم فقالوا له: فحدثنا عن نفسك فقال: مهلاً فقد نهى النبي عن التزكية فقيل له: أليس الله تعالى يقول: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ فقال: فإني أحدث كنت إذا سُئلتُ أعطيت وإذا سُكِت ابتديت، وبين الجوانح علم جم فاسألوني. فمن العلماء من خص النعمة في قوله: ﴿بنعمة ربك﴾ بنعمة القرآن ونعمة النبوة وقاله مجاهد. ومن العلماء من رأى وجوب التحدث بالنعمة. رواه الطبري عن أبي نضرة. التحرير ٣٠/٤٠٣ - ٤٠٤.

(١) أخرج جزءاً منه مسلم في صحيحه ٢/٩٣ كتاب الإيمان (١٤٧ - ٩١) من حديث عبد الله بن مسعود، وأخرجه أحمد في المسند ٤/١٣٣، ١٣٤، ١٥١ والحاكم في المستدرك ١/٢٦ والطبراني في الكبير ٨/٢٤٠، ٢٩٣.



وهي ثمان آيات مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾

قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾هو معطوف على قوله (ألم يجدك يتيماً فآوى) وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال سألت ربي مسألة ووددت أني لم أسألها قط، فقلت اتخذت إبراهيم خليلاً وكلمت موسى تكليماً فقال الله تعالى ألم يجدك يتيماً فآوى؟ قلت بلى: قال ووجدك ضالاً فهدى؟ قلت بلى! قال ووجدك عائلاً فأغنى؟ قلت بلى! قال ألم نشرح لك صدرك[٢] الآية وروي عن بعض المتقدمين أنه قال: سورة (التوبة والأنفال) بمنزلة سورة واحدة وسورة (ألم نشرح لك والضحى) بمنزلة سورة واحدة وسورة لإيلاف قريش وألم تر كيف فعل ربك) بمنزلة سورة واحدة.

قال (ألم نشرح لك صدرك): يعني ألم نوسع قلبك بالتوحيد والإيمان وهذا قول مقاتل وقال الكلبي أتاه جبريل فشرح صدره حتى أبدى قلبه ثم جاء بدلو من ماء زمزم فغسله وأنقاه مما فيه ثم جاء بطشت من ذهب قد ملىء علماً وإيماناً فوضعه فيه. ويقال الانشراح للعلم حتى علم أنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان مؤمناً من وقت الميثاق فشق صدره على جهة المثل فيعبر به عنه ويقال ألم نشرح لك صدرك يعني ألم نلين قلبك بقبول الوحي وحب الخيرات ويقال معناه ألم نطهر لك قلبك حتى لا يؤذيك الوسواس كسائر الناس؟ ويقال معناه ألم نشرح يعني نوسع لك قلبك بالعلم كقوله (وعلمك مما لم تكن تعلم) ثم قال: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾يعني غفرنا لك ذنبك كقوله (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) ويقال غفرنا لك ذنبك وذلتك بترك الاستثناء ويقال معنى (ووضعنا عنك وزرك) يعني عصمناك من الذنوب. ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ لو لم يعصمك الله لأثقل ظهرك، ويقال معناه أخرجنا من قلبك الأخلاق السيئة وطبائع السوء الذي أنقض ظهرك يعني التي لو لم ننزعها عن قلبك لأثقل عليك حمل النبوة والرسالة ثم قال عز وجل ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾يعني في التأذين والخطب حتى لا أذكر إلا وذكرت معي يعني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كل يوم خمس مرات في الأذان والإقامة.

---

(١) احتوت على ذكر عناية الله تعالى لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلطف الله وإزالة الغم والحرج عنه، وتفسير ما عسر عليه، وتشريف قدره لينفس عنه، فمضمونها شبيه بأنه حجة على مضمون سورة الضحى تثبيتاً له بتذكيره سالف عنايته به وإنارة سبيل الحق وترفيع الدرجة ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته ما كان ليقطع عنه فضله، وكان ذلك بطريقة التقرير بماض يعلمه النبي ـ صلى الله عليه وسلم. التحرير ٤٠٧/٣٠.

(٢) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٣٨.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝٧ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾

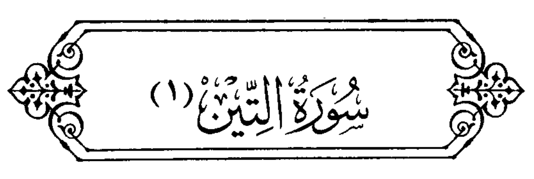
قال تعالى ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ يعني مع الشدة سعة يعني بعد الشدة سعة في الدنيا ويقال بعد شدة الدنيا سعة في الآخرة يعني إذا احتمل المشقة في الدنيا ينال الجنة في الآخرة ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ على وجه التأكيد وروي عن ابن عباس أنه قال لا يغلب العُسْرُ يُسْرَيْنْ وروى مبارك[٢] بن فضالة عن الحسن أنه قال كانوا يقولون لا يغلب عسرٌ واحد يُسْرَين[١] فقال ابن مسعود رضي الله عنه لو كان العسر في جُحر جاء اليسر حتى يدخل عليه لأنه قال تعالى «إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً»، ويقال (إن مع العسر) وهو إخراج أهل مكة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (يسراً) وهو دخوله يوم فتح مكة مع عشرة آلاف رجل في عز وشرف ثم قال عز وجل ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ يعني إذا فرغت من الجهاد فاجتهد في العبادة ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ يعني اطلب المسألة إليه قال قتادة فإذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء[٣] وهكذا قال الضحاك وقال مجاهد (فإذا فرغت) من اشتغال نفسك (فانصب) يعني فَصَلِّ ويقال (فإذا فرغت) من الفرائض (فانصب) في الفضائل فيقال (فإذا فرغت) من الصلاة (فانصب) نفسك للدعاء والمسألة (وإلى ربك فارغب) يعني إلى الله فارغب في الدعاء برفع حوائجك إليه والله أعلم وأحكم بالصواب.

---

(١) مبارك بن فضالة البصري مولى قريش قال ابن ناصر الدين: كان كثير التدليس فتكلم فيه وذكر أبو زرعة وغيره أن المبارك إذا قال حدثنا فهو ثقة مقبول. انظر شذرات الذهب ١/ ٢٥٩.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦٤ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦٥ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.



سورة التين(١)

وهي ثمان آيات مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ وهما مسجدان بالشام ويقال هما جبلان بالشام (التين) جبل بيت المقدس (والزيتون) جبل بدمشق وقال قتادة (التين) الجبل الذي عليه دمشق (والزيتون) الجبل الذي عليه بيت[٢] المقدس ويقال (التين) الذي يؤكل وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال تينكم وزيتونكم هذا، وقال مجاهد: هو الذي يؤكل وهو قول سعيد بن جبير والشعبي ثم قال ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ يعني: الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى صلوات الله على نبينا وعليه ويقال (الطور) اسم الجبل (سينينَ) يعني: ذا شجر ويقال التين معناه علي بن أبي طالب رضي الله عنه والزيتون فاطمة الزهراء بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورضي الله تعالى عنها وطور سينين هما الحسن والحسين سيدا الشهداء في دار الدنيا وهذا لا يصح في اللغة ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ يعني: مكة أمين من أن يهاج فيها من دخل فيها ويقال (الأمين) لجميع الحيوان الذي لا يجري عليه القلم ثم قال: عز وجل ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ يعني: في أحسن صورة لأنه يمشي مستوياً وليس منكوساً وله لسان ذلق ويد وأصابع يقبض بها، قال بعضهم نزلت في شأن الوليد بن المغيرة وقال بعضهم نزلت في كلدة بن أسيد وقال بعضهم هذا عام ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ يعني: رددناه بعد القوة والشباب والحسن إلى الضعف والهرم يعني: يصير كالصبي في الحال الأولى يعني رددناه إلى أرذل العمر ويقال رددناه يعني الفاجر والكافر بعد موته إلى أسفل السافلين في النار.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

ثم قال عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: صدقوا بوحدانية الله تعالى وعملوا

---

(١) احتوت هذه السورة على التنبيه بأن الله خلق الإنسان على الفطرة المستقيمة ليعلموا أن الإسلام هو الفطرة كما قال في الآية الأخرى «فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها» وأن ما يخالف أصوله بالأصالة أو بالتحريف فساد وضلال ومبتغي ما يخالف الإسلام أهل ضلالة. والتعريض بالوعيد للمكذبين بالإسلام. التحرير ٤١٩/٣٠.

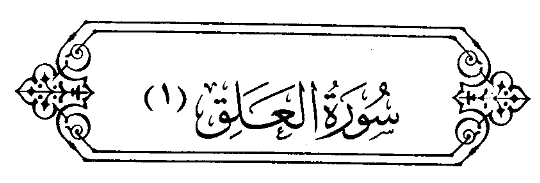
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٦٦/٦ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عساكر.

الصالحات ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يعني: غير منقوص وذلك أن المؤمن إذا عمل في حالة شبابه وقوته وحياته فإذا مرض أو هرم أو مات فإنه يكتب له حسناته كما كان يعمل في حال شبابه وقوته إلى يوم القيامة ويقال (غير ممنون) يعني: غير مقطوع ويقال (غير ممنون) يعني: لا يُمَنُّ عليه وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن المؤمن إذا مات صعد ملكاه إلى السماء فيقولان إن عبدك فلان قد مات فأْذَنْ لنا حتى نعبدك على السماء فيقول الله تعالى إن سماواتي مملوءة بملائكتي ولكن اذهبا إلى قبره فاكتبا له حسناته إلى يوم القيامة[١] ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ يعني: أيها الإنسان ما الذي حملك بعدما خلقك الله تعالى في أحسن تقويم حتى كذبت بيـوم الدين والقضاء ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾ يعني: بأعدل العادلين يعمل بالعدل مع الكفار ومع المؤمنين بالفضل وقال مقاتل فما يكذبك بعد بالدين يعني فما يكذبك أيها الإنسان بعد بيان الصورة الحسنة والشباب والهرم بالحساب لا تغتر في صورتك وشبابك فهو قادر على أن يبعثك ويقال معنى قوله(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) يعني لا يحزن ولا يذهب عقله من كان عالماً عاملاً به. وروي عن ابن عمر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال طوبى لمن طال عمره وحسن عمله[٢] والله أعلم.

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٢٠/٧٩.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٣٣٠ وأحمد في المسند ١٨٨/٤، ١٩٠ وأبو نعيم في الحلية ١١١/٦.



سورة العلق (١)

وهي تسع عشرة آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ يقول اقرأ القرآن بأمر ربك، وهذه أول سورة نزلت من القرآن وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما بلغ أربعين سنة كان يسمع صوتاً يناديه يا محمد ولا يرى شخصه وكان يخشى على نفسه الجنون حتى رأى جبريل ـ عليه السلام ـ يوماً في صورته فغشي عليه فحمل إلى بيت خديجة فقالوا لها تزوجت مجنوناً فلما أفاق أخبر بذلك خديجة فجاءت إلى ورقة بن نوفل وكان يقرأ الإنجيل ويفسره ثم جاءت إلى عداس وكان راهباً فقال لها إن له نبأ وشأناً يظهر أمره فخرج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوماً إلى الوادي فجاء جبريل ـ عليه السلام ـ بهذه السورة وأمره بأن يتوضأ ويصلي ركعتين فلما رجع أعلم بذلك خديجة[٢] وعلمها الصلاة وذلك قوله (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً)، يعني علموهم وأدبوهم، وروى معمر عن الزهري أنه قال أخبرني عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت أول ما بدىء به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الوحي الرؤيا الصالحة الصادقة وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبِّب الخلاءُ إليه يعني العزلة وكان يأتي حراء ويمكث هناك ثم يرجع إلى خديجة فجاءه الملك وهو على حراء فقال له اقرأ فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أنا بقارىء فأخذني فغطني ثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَق اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَم الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَم عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعَلَمْ) فرجع ترجف بوادره وقد أخذته الرّعدة حتى دخل على خديجة فقال زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فذلك قوله (اقرأ باسم ربك) يعني اقرأ بعون الله ووحيه إليك، ويقال معناه (اقرأ باسم ربك) كقوله (واذكر ربك إذا نسيت) يعني اذكر ربك الذي خلق الخلائق. ثم قال عز وجل ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ يعني ابن آدم من دم عبيط وقال في آية أخرى (ألم نخلقكم من ماء مهين)، وقال في آية أخرى

---

(١) اشتملت هذه السورة على تلقين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكلام القرآني وتلاوته إذ كان لا يعرف التلاوة من قبل. والإيماء إلى أن علمه بذلك ميسر لأن الله الذي ألهم البشر العلم بالكتابة قادر على تعليم من يشاء ابتداء. وإيماء إلى أن أمته ستصير إلى معرفة القراءة والكتابة والعلم. وتوجيهه إلى النظر في خلق الله الموجودات وخاصة خلقه الإنسان خلقاً عجيباً مستخرجاً من عقله فذلك مبدأ النظر. وتهديد من كذب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتعرض ليصده عن الصلاة والدعوة إلى الهدى والتقوى. وإعلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الله عالم بأمر من يناوونه وأنه قامعهم وناصر رسوله وتثبيت الرسول على ما جاء من الحق والصلاة والتقرب إلى الله. وأن لا يعبأ بقوة أعدائه لأن قوة الله تقهرهم. التحرير ٣٠/٤٣٤.

(٢) أخرجه البخاري ١/٢٢ كتاب بدء الوحي ومسلم ١/١٣٩ كتاب الإيمان (٢٥٢، ١٦٠).

(خلقناكم من تراب)، وهذه الآيات يصدّق بعضها بعضاً لأن أول الخلق من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة كما بين الجملة في موضع آخر ثم قال عز وجل ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ يعني اقرأ يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وربك يعينك ويفهمك وإن كنت غير قارىء (الأكرم) يعني ربك المتجاوز عن جهل العباد ويقال اقرأ وقد تم الكلام ثم استأنف فقال (وربك الأكرم) يعني الكريم ويقال الأكرم يعني المكرم الذي يكرم من يشاء بالإسلام ثم قال ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ علم الكتابة والخط بالقلم ﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ يعني علم آدم ـ عليه السلام ـ أسماء كل شيء يعني ألهمه ويقال (علم الإنسان) يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ما لم يعلم) يعني القرآن كقوله (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) ويقال علم الإنسان ما لم يعلم يعني علم بني آدم ما لم يعلموا كقوله (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً)

كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾

ثم قال عز وجل ﴿كَلَّا﴾ يعني: حقاً ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ يعني الكافر ليعصي الله ويقال: يرفع منزلة نفسه ﴿أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ يعني: أن رأى نفسه مستغنياً عن الله تعالى مثل أبي جهل وأصحابه، ومثل فرعون حيث ادعى الربوبية قال أبو الليث رحمه الله حدثنا أبو جعفر بن عوف عن الأعمش عن القاسم قال قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، منهومان لا يشبعان: طالب العلم وطالب الدنيا ولا يستويان أما طالب العلم فيزداد رضا الله، وأما طالب الدنيا فيزداد في الطغيان[1] ثم قال (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) ثم قال ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ يعني المرجع إلى الله تعالى يوم القيامة، ويقال معناه: رجوع الخلائق كلهم بعد الموت إلى الله تعالى فيحاسبون ويجازون فريق في الجنة وفريق في السعير قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْداً إِذَا صَلَّى﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا صلى في المسجد رفع صوته بالقراءة فلغطوا ورموه بالحجارة فخفض صوته في الصلاتين الظهر والعصر إذا حضروا وأما صلاة المغرب اشتغلوا بالعشاء وصلاة العشاء ناموا وصلاة الفجر لم يقوموا فرفع في هذا فصار سنة إلى اليوم فنزل «أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى» ويقال إن أبا جهل بن هشام قال: لئن رأيت محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلي لأطأنّ عنقه فنزل (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى)[2] يعني ألم تر أن هذا الكافر ينهى عبد الله عن الصلاة وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن كان على الإسلام ﴿أو أمر بالتقوى﴾ يعني التوحيد ثم قال: ﴿أَرأيت إِنْ كَذَّب وَتَوَلَّى﴾ يعني: (إن كذب) بالتوحيد (وَتَوَلَّى) عن الإسلام. ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ أفعاله فيجازيه وهذا جواب لجميع ما تقدم من قوله: (أرأيت) ويقال في الآية إضمار وهو قوله (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى): يعني بهذا الذي يصنع ويؤذي محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أليس هو على ضلالة أليس هو قد نهى عن الصلاة والخيرات أرأيت إن كان على الهدى يعني أرأيت أيها الناهي إن كان المصلي على الهدى أو أمر بالتقوى يعني بالتوحيد واجتناب المعاصي فينهاه عن ذلك

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٦٩ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) انظر أسباب النزول ٢٤٧.

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

ثم قال ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ يعني: حقاً لئن لم يمتنع أبو جهل عن إيذاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يتب ولم يسلم قبل الموت ﴿لَنَسْفَعاً[1] بِالنَّاصِيَةِ﴾ يعني لنأخذ به بالناصية أخذاً شديداً يعني يؤخذ بنواصيه يوم القيامة ويطوى مع قدميه ويطرح في النار فنزلت الآية في شأن أبي جهل وهي عظة لجميع الناس وتهديد لمن يمنع عن الخير وعن الطاعة ثم قال عز وجل ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ جعل الكاذبة صفة الناصية وإنما أراد صاحب الناصية يعني ناصية كاذبة على الله تعالى خاطئة يعني مشركة وقال مجاهد: الذي يجحد ويأكل رزق الله تعالى ويعبد غيره، ثم قال عز وجل ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ يعني قل يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فليدع أهل مجلسه وأصحابه الكفرة حتى ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ يعني الملائكة هم ملائكة العذاب غلاظ شداد والزبانية أخذ من الزَّبْن وهو الدفع وإنما سمّوا الزبانية لأنهم يدفعون الكفار إلى النار ويقال إنما سموا زبانية لأنهم يعملون بأرجلهم كما يعملون بأيديهم، وروي في الخبر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما قرأ بهذه السورة وبلغ إلى قوله لنسفعاً بالناصية قال أبو جهل أنا أدعو قومي حتى يمنعوا عني ربك قال الله تعالى (فليدع ناديه سندع الزبانية) فلما سمع ذكر الزبانية رجع فزعاً فقيل له خشيت منه قال لا ولكن رأيت عنده فارساً فهددني بالزبانية فلا أدري ما الزبانية ومال إلى الفارس فخشيت أن يأكلني[2]. وروى عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ـ صلَّى الله عليه وسلم ـ هدد أبا جهل فقال لِمَ تهددني؟ فو الله علمتَ أني أكثر أهل الوادي نادياً لئن دعوتُ يعني أهل مجلسي منعوني عن ربك فنزل (فليدع ناديه سندع[3] الزبانية) قال ابن عباس رضي الله عنه لو دعا ناديه أخذته[4] الزبانية ثم قال ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ يعني: حقاً لا تطعه في ترك الصلاة يا محمد ﴿وَاسْجُدْ﴾ يعني: صل لله تبارك وتعالى ﴿وَاقْتَرِبْ﴾ يعني صل واقترب إلى ربك بالأعمال الصالحة، وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال اقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ألا يرى إلى قوله (واسجد[5] واقترب) يعين: اقترب إلى ربك بالسجود واعلم أن السجود أربعة أحرف: السين سرعة المطيعين والجيم جهد العابدين والدال دوام المجتهدين والهاء هداية العارفين ويقال السين سرور العارفين الجيم جمال العابدين والدال دولة المطيعين والهاء هبة الصديقين.

---

(١) قال ابن منظور: سفع بناصيته ورجله يسفع سفعاً: جذب وأخذ وقبض وفي التنزيل: لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة «ناصيته مقدم رأسه، أي لنصهرنها ولنأخذن بها، أي لنقمئنه ولنذلنه، ويقال: لنأخذن بالناصية إلى النار كما قال تعالى: ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ ويقال: معنى لنسفعن لنسود وجهه فكفت الناصية لأنها في مقدم الوجه. قال الأزهري: فأما من قال ﴿لنسفعن بالناصية﴾ أي لنأخذن بها إلى النار فحجته قول الشاعر:

قوم إذا سمعوا الصريخ رأيتهم ... من بين ملجم مهره أو سافع

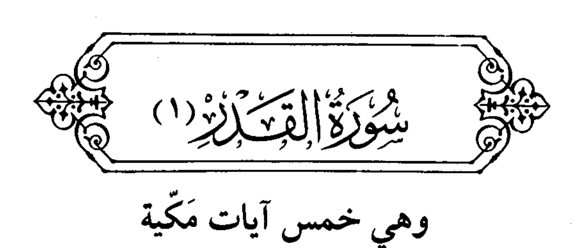
انظر لسان العرب ٢٠٢٨/٣.

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٢٦/٢٠.

(٣) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٣٩.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٦٩/٦ وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه وابن المنذر وابن جرير والطبراني وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٧٠/٦ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر.



وهي خمس آيات مَكّية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

قوله تعالى: **﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾** يعني: أنزلنا القرآن الكريم جملة واحدة إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ في ليلة القدر يعني: في ليلة القضاء وإنما سميت ليلة القدر: لأن الله تعالى يقدر في تلك الليلة ما يكون من السنة القابلة من أمر الموت والأجل والرزق وغيره ويسلمه إلى مدبرات الأمور وهم أربعة من الملائكة إسرافيل وجبريل وميكائيل وملك الموت ـ عليهم السلام ـ وفي آية أخرى (في ليلة مباركة) وإنما سميت ليلة مباركة يعني ليلة القدر لأنه ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة ثم قال عز وجل **﴿وما أدراكَ ما ليلةُ القَدْرِ﴾** تعظيماً لها فقال **﴿لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾** يعني العمل في ليلة القدر خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان جالساً بين أصحابه يحدث بأن رجلاً كان من بني إسرائيل لبس السلاح ألف شهر وصام ولم يضع السلاح حتى مات فعظم ذلك على أصحابه فنزلت (ليلة القدر خير من ألف شهر)[2] يعني العمل فيها وثوابه أفضل من لبس السلاح وصيام ألف شهر ليس فيها ليلة القدر وروي في خبر آخر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال أرى أعمال الناس فكأنه تقاصر أعمار[3] أمته إن لم يبلغوا من العمل مثل الذي بلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله تعالى في الجنة ليلة القدر خيراً من ألف شهر فقيل يا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أي ليلة هي قال: التمسوها في العشر الآواخر من رمضان[4]. ثم قال عز وجل **﴿تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ والرُّوحُ فِيهَا﴾** يعني تتنزل الملائكة من كل سماء ومن سدرة المنتهى وهو مسكن جبريل على وسطها ـ عليه السلام ـ فينزلون إلى الأرض

---

(١) تفضيلها بالخير على ألف شهر. إنما هو بتضعيف فضل ما يحصل فيها من الأعمال الصالحة واستجابة الدعاء ووفرة ثواب الصدقات والبركة للأمة فيها، لأن تفاضل الأيام لا يكون بمقادير أزمنتها ولا بما يحدث فيها من حر أو برد، أو مطر، ولا بطولها أو قصرها، فإن تلك الأحوال غير معتد بها عند الله تعالى ولكن الله يعبأ بما يحصل من الصلاح للناس أفراداً وجماعات وما يعين على الحق والخير ونشر الدين. وقد قال في فضل الناس **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** فكذلك فضل الأزمان إنما يقاس بما يحصل فيها لأنها ظروف للأعمال وليست لها صفات ذاتية يمكن أن تتفاضل بها كتفاضل الناس ففضلها بما أعده الله لها من التفضيل كتفضيل ثلث الليل الأخير للقربات وعدد الألف يظهر أنه مستعمل في وفرة التكثير كقوله «واحد كألف» وعليه جاء قوله تعالى **﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾** التحرير ٣٠/٤٥٩.

(٢) أنظر أسباب النزول للواحدي ٣٣٩.

(٣) سقط في أ.

(٤) أخرجه مسلم ٢/٨٢٣ كتاب الصيام (٢٠٩ ـ ١١٦٥).

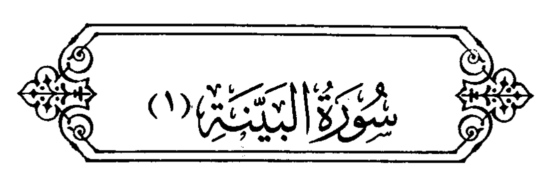
ويدعون الخلق ويؤمنون بدعائهم إلى وقت طلوع الفجر وذلك قوله (تنزل الملائكة والروح فيها) يعني جبريل معهم وذكر في الخبر أن جبريل ـ عليه السلام ـ وقف على سطح الكعبة ونشر جناحيه أحدهما يبلغ المشرق والآخر يبلغ المغرب وقال بعضهم «الروح» خلق يشبه الملائكة وجهه يشبه وجه بني آدم ـ عليه السلام ـ وقال بعضهم هو ما قال الله تعالى (قل الروح من أمر ربي) وقال مجاهد: ما نزل ملك إلا ومعه روح ولهم أيد وأرجل وهم موكلون على الملائكة كما أن الملائكة موكلون على بني آدم ثم قال عز وجل ﴿**بإذن ربهم**﴾ يعني: ينزلون بأمر ربهم ﴿**من كل أمر سلام**﴾ يعني: تلك الليلة من كل أمر سلام يعني من كل آفة سلامة يعني: في هذه الليلة لأمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال: سلام يعني لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها شراً. وقال القتبي: إن (من) توضع موضع (الباء) يعني بكل أمر سلام أي خير ﴿**هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ**﴾ وقال مجاهد: يعني كل أمر سلام وسلام من أن يحدث فيها أذىً أو يستطيع الشيطان أن يعمل فيها[1] ويقال معناه: تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر وقد تم الكلام يعني: ينزلون فيها من كل أمر من الرخصة وكل أمر قدره الله تعالى في تلك الليلة إلى قابل

ثم استأنف فقال: (سلام هي) يعني سلام وبركة وخير كلها (حتى مطلع الفجر) وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ من كل أمر سلام يعني الملائكة يسلمون على كل امرىء، وقرأ الكسائي حتى مطلع الفجر بكسر اللام والباقون بنصب[2] اللام فمن قرأ بالكسر جعله اسماً لوقت الطلوع، ومن قرأ بالنصب جعله مصدراً يعني يطلع طلوعاً والله أعلم بالصواب.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٧١ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان وذكره الترمذي ٥/٤١٤ (٣٣٤٩).

(٢) حجة الكسائي أن (المطلَع) يكون الموضع الذي تطلع فيه ويكون بمعنى المصدر. قال الكسائي من كسر اللام فإنه من طَلَع يطلـع، ومات (يطلِع). قال: وقد مات من لغات العرب كثير. واعلم أن كل ما كان من (فعل يفعِل) بكسر العين فالموضع منه (المفْعِل) والمصدر منه (مفعل) تقول: جلس يجلس مجلَساً، والموضع: المجلِس، وكذلك طلـع يطلِع مطلَعاً، والمطلع: اسم الموضع قال الفراء: من كسر اللام فإنه وضع الاسم موضع المصدر كما تقول: (أكرمتك كرامة وأعطيتك إعطاء) فيجتزأ بالاسم من الموضع. حجة القراءات ٧٦٨.



مختلف فيها وهي ثمان آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ يعني: عبدة الأوثان ﴿مُنْفَكِّينَ﴾ يعني: غير منتهين عن كفرهم وعن قولهم الخبيث ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ يعني: حتى أتاهم البيان فإذا جاءهم البيان فريق منهم انتهوا وأسلموا، وفريق ثبتوا على كفرهم، ويقال لم يزل الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين حتى وجب في الحكمة علينا في هذا الحال إرسال الرسول إليهم، ويقال معناه: لم يكونوا منتهين عن الكفر حتى أتاهم الرسول والكتاب فلما آتاهم الكتاب والرسول تابوا ورجعوا عن كفرهم وهم مؤمنو أهل الكتاب والذين أسلموا من مشركي العرب. وقال قتادة (البينة) أراد به محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وقال القتبي (منفكين) أي زائلين يقال لا أنفك من كذا أي لا أزول قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾ يعني: قرآناً مطهراً من الزيادة والنقصان، ويقال مطهراً من الكذب والتناقض ويقال (صحفاً مطهرة) أي أمور مختلفة ويقال

---

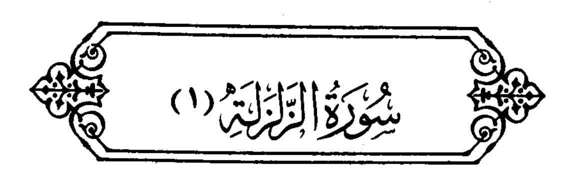
(١) وردت تسمية هذه السورة في كلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «لم يكن الذين كفروا» روى البخاري ومسلم عن أنس ابن مالك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأبي بن كعب «إن الله أمرني أن أقرأ عليك» «لم يكن الذين كفروا» قال: وسماني لك؟ قال: نعم. فبكى فقوله: أن أقرأ عليك «لم يكن الذين كفروا» واضح أنه أراد السورة كلها فسماها بأول جملة فيها، وسميت هذه السورة في معظم كتب التفسير وكتب السنة سورة «لم يكن» بالاقتصار على أول كلمة منها، وهذا الاسم هو المشهور في تونس بين أبناء الكتاتيب. وسميت في أكثر المصاحف «سورة القيمة» وكذلك في بعض التفاسير. وسميت في بعض المصاحف «سورة البينة». وذكر في الإتقان أنها سميت في مصحف أُبيّ «سورة أهل الكتاب»، أي لقوله تعالى **﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾**، وسميت سورة البرية «وسميت» سورة الانفكاك. فهذه ستة أسماء. واختلف في أنها مكية أو مدنية قال ابن عطية: الأشهر أنها مكية وهو قول جمهور المفسرين. وعن ابن الزبير وعطاء بن يسار هي مدنية. وقد اشتملت هذه السورة على توبيخ المشركين وأهل الكتاب على تكذيبهم بالقرآن والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ. والتعجب من تناقض حالهم إذ هم ينتظرون أن تأتيهم البينة فلما أتتهم البينة كفروا بها وتكذيبهم في ادعائهم أن الله يوجب عليه التمسك بالأديان التي هم عليها. ووعيدهم بعذاب الآخرة. والتسجيل عليهم بأنهم شر البرية. والثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات. ووعدهم بالنعيم الأبدي ورضي الله عنهم وإعطائه إياهم ما يرضيهم. وتخلل ذلك تنويه بالقرآن وفضله على غيره باشتماله على ما في الكتب الإلهية التي جاء بها الرسل ـ من قبل وما فيه من فضل وزيادة. التحرير ٣٠/٤٦٧ ـ ٤٦٨.

سمي القرآن صحفاً من كثرة السور ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ يعني: صادقة مستقيمة لا عوج فيها ويقال: كتب قيمة: يعني تدل على الصواب والصلاح ولا تدل على الشرك والمعاصي. ثم قال عز وجل ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني: وما اختلفوا في محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم اليهود والنصارى ﴿إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ يعني: بعدما ظهر لهم الحق فنزل القرآن على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال: ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ يعني: وما أمرهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني: ليوحدوا الله ويقال وما أمروا في جميع الكتب إلا ليعبدوا الله يعني يوحدوا الله ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ مسلمين روي عن بن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: حنفاء يعني: متبعين وقال الضحاك حنفاء: يعني حجاجاً يحجون بيت الله تعالى ثم قال: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني يقرون بالصلاة ويؤدونها في مواقيتها. ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ يعني يقرون بها ويؤدونها. ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ يعني: المستقيم لا عوج فيه: يعني الإقرار بالتوحيد وبالصلاة والزكاة وإنما بلفظ التأنيث (القيمة) لأنه انصرف إلى المعنى والمراد به الملة. يعني: الملة المستقيمة لا عوج فيها يعني هذا الذي يأمرهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبهذا أمروا في جميع الكتب.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ يعني: الذين جحدوا من اليهود والنصارى بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن: ومن مشركي مكة وثبتوا على كفرهم ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني: دائمين فيها ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ يعني: شر الخليقة: قرأ نافع وبن عامر (البريئة) بالهمزة والباقون بغير همزة[1] فمن قرأ بالهمزة: فلأن الهمزة فيها أصل ويقال: برأ الله الخلق ويبرؤهم وهو الخالق الباريء ومن قرأ بغير. همزة فلأنه اختار حذف الهمزة وتخفيفها. ثم مدح المؤمنين ووصف أعمالهم وبين مكانهم في الآخرة حتى يرغبوا إلى جواره فقال. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني صدقوا بالله وأخلصوا بقلوبهم وأفعالهم وهم أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن تابعهم إلى يوم القيامة[2] ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ يعني هم خير الخليقة وقال عبد الله بن عمرو بن العاص:[3] (والله للمؤمن أكرم على الله تعالى من بعض الملائكة الذين عبدوه) وروي عن الحسن أنه سئل عن قوله (أولئك هم خير البرية) أهم خير من الملائكة ؟ قال ويلك أين تعدل الملائكة من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم بين ثوابهم فقال عز وجل ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يعني ثوابهم في الآخرة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يعني أنهار من الخمر والعسل واللبن وماء غير آسن ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ يعني دائمين مقيمين فيها ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بأعمالهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بثوابه الجنة ﴿ذَلِكَ﴾ يعني هذا الثواب الذي ذكر ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ يعني وَحَّدَ ربه في الدنيا واجتنب معاصيه والله أعلم.

(١) انظر حجة القراءات ٧٦٩. (٢) سقط في ظ. (٣) سقط في أ.



مختلف فيها وهي ثمان آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وذلك أن الناس كانوا يرون في بدء الإسلام أن الله تعالى لا يؤاخذ بالصغائر من الذنوب ولا يعاقب إلا في الكبائر حتى نزلت هذه السورة وقال (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وذكر أهوال ذلك اليوم وبين أن القليل في ذلك اليوم يكون كثيراً فقال (إذا زلزلت الأرض زلزالها) يعني تزلزلت الأرض عند قيام الساعة وتحركت واضطربت حتى يتكسر كل شيء عليها، ويقال سئل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قيام الساعة فنزل وبين متى يكون قيام الساعة فقال (إذا زلزلت الأرض زلزالها)[٢] يعني تزلزلت الأرض وتحركت تحركاً وهو كقوله (ويخرجكم إخراجاً) والمصدر للتأكيد قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ يعني أظهرت ما فيها من الكنوز والأموات ﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَالَهَا﴾ يعني يقول الإنسان الكافر مالها يعني للأرض على وجه التعجب ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ يعني تخبر الأرض بكل ما عَمِلَ عليها بنو آدم من خير أو شر، تقول للمؤمنين صلّى عليَّ وحج واعتمر وجاهد فيفرح المؤمن، وتقول للكافر أشرك وسرق وزنا وشرب الخمر فيحزن الكافر فيقول مالها؟ يعني ما للأرض تحدث بما عمل عليها؟ على وجه التقديم والتأخير ومعناه يومئذ تحدث أخبارها (وقال الأنسان مالها) يقول الله تعالى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ يعني أن الأرض تحدث بأن ربك أذن لها في الكلام وألهمها ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾. يعني يرجع الناس متفرقين فريق في الجنة وفريق في السعير فريق مع الحور العين يتمتعون وفريق مع الشياطين يعذبون، فريق على السندس والديباج على الأرائك متكئون، وفريق في النار على وجوههم يُجَرُّونَ، اللهم في الدنيا هكذا كانوا فريقاً حول المساجد والطاعات وفريق في المعاصي والشهوات فذلك قوله (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً) يعني فِرقاً فِرَقاً ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني ثواب أعمالهم وهكذا كما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال ما من أحد يوم القيامة إلا

---

(١) اختلف فيها فقال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعطاء والضحاك هي مكية. وقال قتادة ومقاتل: مدنية ونسب إلى ابن عباس أيضاً. والأصح أنها مكية واقتصر عليه البغوي وابن كثير ومحمد بن الحسن النيسابوري في تفاسيرهم. وذكر القرطبي عن جابر أنها مكية ولعله يعني: جابر بن عبد الله الصحابي لأن المعروف عن جابر بن زيد أنها مدنية فإنها معدودة في نزول السور المدنية فيما روي عن جابر بن زيد. وفيها إثبات البعث وذكر أشراطه وما يعتري الناس عند حدوثها من الفزع. وحضور الناس للحشر وجزائهم على أعمالهم من خير أو شر وهو تحريض على فعل الخير واجتناب الشر. التحرير ٣٠/٤٨٩ ـ ٤٩٠. انظر تفسير القرطبي ٢٠/١٠٠.

(٢) انظر تفسير القرطبي ٢٠/١٥٠.

ويلوم نفسه فإن كان محسناً يقول لِمَ لَمْ ازدَدْ إحساناً وإن كان غير ذلك يقول ألا رغبت عن المعاصي؟ وهذا عند معاينة الثواب والعقاب وقال أبيّ بن كعب الزلزلة لا تخرج إلا من ثلاثة: إما نظر الله تعالى بالهيبة إلى الأرض، وإما لكثرة ذنوب بني آدم، وأما لتحرك الحوت التي عليها الأرضون السبع تأديباً للخلق وتنبيهاً

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

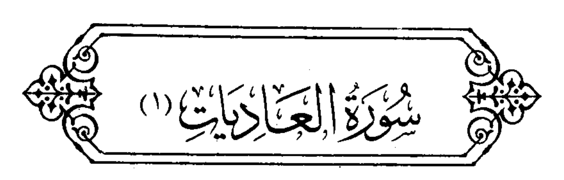
ثم قال عز وجل ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ يعني مقدار ذرة وهو الذي يرى في شعاع الشمس يعني يرى ثوابه في الآخرة ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ يعني يرى جزاؤه في الآخرة، وروى قتادة عن محمد بن كعب القرظي قال (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره الآية قال ما من كافر عمل مثقال ذرة من خير إلا عُجِّلَ له ثواب ذلك في الدنيا في نفسه أو في أهله أو في ماله حتى خرج من الدنيا وليس له عند الله مثقال ذرة من خير[1]. وما من مؤمن عمل مثقال ذرة من شر إلا عجل له عقوبتها في الدنيا في نفسه أو في ماله أو في أهله حتى يخرج من دار الدنيا وليس له عند الله مثقال ذرة من شر وروى معمر عن زيد بن أسلم أن رجلاً جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال علمني مما علمك الله فدفعه إلى رجل يعلمه القرآن فعلمه (إذا زلزلت الأرض) حتى بلغ (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) فقال الرجل حسبي فأخبر بذلك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال دعه فقه الرجل وروى[2] الأجلح عن أبي إسحاق عن امرأته عن عائشة أنها قالت دخلت على عائشة رضي الله عنها أنا وامرأة أبي سفيان فجاء سائل يسألها سلة من عنب فأخذت حبة من عنب فأعطته فنظر بعضنا إلى بعض فقالت إن قدر هذا أثقل من ذرات كثيرة ثم قرأت فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً[3] يره والله أعلم.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٨١ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٨١ ـ ٣٨٢ وعزاه لعبد الرزاق وابن حميد وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٨٢ وعزاه لمالك وابن سعد وعبد بن حميد.



مختلف فيها وهي إحدى عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾ قال مقاتل وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث سرية إلى بني كنانة واستعمل عليهم «المنذر به عمرو» الساعدي فأبطأ عليه خبرهم فاغتم لذلك فنزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ بهذه السورة يخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويعلمه عن حالهم فقال (والعاديات ضبحاً)[٢] يعني أفراس أصحابك يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنهم يسبحون في عدوهم ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾ يعني النار التي تسطع من حوافر الفرس إذا عدت في مكان ذي صخور وأحجار ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ يعني أصحابك يغيرون على العدوّ عند الصبح ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾ يعني يثيرون بحوافرهن التراب إذا عدت الفرس في مكان سهل يهيج التراب والغبار (نقعاً) يعني أطراحاً على الأرض ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ يعني أصحابك أصبحوا في وسط العدو مع الظفر والغنيمة فلا تغتم وقال الكلبي (والعاديات ضبحاً) يعني أنفاس الخيل حين تتنفس إذا اجتهدت وقال ابن مسعود رضي الله عنه (والعاديات ضبحاً) يعني الإبل بعرفات إذا دخل الحجاج مكة، وروى عطاء عن ابن عباس في قوله (والعاديات ضبحاً) قال الخيل وما أصبح دابة قط إلا كلب أو خنزير وهو يلهث كما يلهث الكلب وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه هي الإبل تذهب إلى[٣] وقعة بدر.

وقال أبو صالح تقاولت مع عكرمة في قوله (والعاديات ضبحاً) قال عكرمة قال ابن عباس هي الخيل في القتال فقلت مولاي [يعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه] أعلم من مولاك إنه كان يقول هي الإبل التي تكون بمكة حين تفيض من[٤] عرفات إلى جمع وقال أهل اللغة[٥] الضبح (صوت حلوقها)[٦] إذا عدت والضبح والضبع واحد يقال ضحت الناقة وضبعت إذا عدت في المسير

وهذا قسم أقسم الله تعالى بهذه الأشياء وجوابه قوله تعالى: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) وقال بعضهم

---

(١) قد اختلف في هذه السورة فقال ابن مسعود وجابر بن زيد وعطاء والحسن وعكرمة هي مكية وقال أنس بن مالك وابن عباس وقتادة هي مدنية. انظر التحرير والتنوير ٣٠/٤٩٧. أسباب النزول للواحدي ٣٤١ القرطبي ٢٠/١٠٥.

(٢) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٤١.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٨٣ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه وابن مردويه.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٨٣ وعزاه لعبد بن حميد

(٥) انظر لسان العرب ٤/٢٥٤٦.

(٦) في أ [حلقومها].

(فالموريات قدحاً) معناه فالمنجيات عملاً وهذا مثل ضربه الله تعالى فكما أن الأقداح تنجي الرجل المسلم من برد الشتاء والهلاك وإذا لم يكن معه الزند فيهلك في البرد فكذلك العمل الصالح ينجي العبد يوم القيامة ومن العذاب الهلاك وإذا لم يكن معه عمل صالح يهلك في العذاب ويقال (فالموريات قدحاً) يعني ناراً لأبي حباحب كان رجل في بعض أحياء العرب من أبخل الناس ولم يوقد ناراً حتى ينام كل ذي عين ثم يوقدها فإذا استيقظ أحد أطفأها لكي لا ينتفع بناره أحد بخلاً منه فكذلك الخيل حين اشتدت على الأرض الحصاة فقدحت النار بحوافرها لا ينتفع بها كما لا ينتفع بنار أبي حباحب ثم قال (فالمغيرات صُبْحاً) يعني الخُصَماء، يغيرون على حسنات العبد يوم القيامة بمنزلة ريح عاصف يجيء ويرفع التراب الناقع من حوافر الدواب فذلك قوله تعالى (فأثرن به نقعاً) ويقال هي الإبل ترجع من عرفات إلى مزدلفة ثم يرجعن إلى منى ويذبح هناك ويقسم الخمر ويوجد اللحم كأنهم أغاروها (فأثرن به نقعاً) يعني هيّجن بالوادي غباراً حين يرجعون من مزدلفة إلى منى وقوله تعالى (به) كناية عن الوادي فكأنه يقول (فأثرن به نقعاً) أي غباراً ثم قال (فوسطن به جمعاً) يعني فوقعن بالوادي ويقال بالمكان جمعاً أي اجتمع الحاج بمنى.

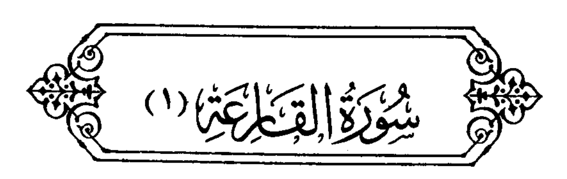
إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

ثم قال ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ فيه جواب القسم أقسم الله تعالى بهذه الأشياء وفيه بين ذكر فضل الغازي وفضل فرس الغازي على تفسير من فسر الآية على الفرس حين أقسم الله تعالى بالتراب الذي يخرج والنار التي تخرج من تحت حوافر فرس الغازي لأنه ليس عمل أفضل من الجهاد في سبيل الله تعالى.

ومن فسر الآية على الإبل ففي الآية بيان فضل الحاج وفضل دواب الحاج حيث أقسم الله تعالى بالتراب الذي يخرج من تحت أخفاف إبل الحاج والنار التي تخرج منها حيث صارت في أرض الحجارة أن الإنسان لربه لكنود يعني لبخيل قال مقاتل نزلت في قرط بن عبد الله وقال معنى «الكنود» بلسان كندة وبني حضرموت هو العاصي سيده، وبلسان بني كنانة البخيل، ويقال هو الوليد بن المغيرة، ويقال هو أبو حباحب ويقال كان ثلاثة نفر في العرب في عصر واحد أحدهم آية في السخاء وهو حاتم الطائي، والثاني آية في البخل وهو أبو حباحب، والثالث آية في الطمع هو أشعب كان طماعاً وكان من طمعه إذا رأى عروساً تزف إلى موضع جعل يكنس باب داره لكي تدخل داره، وكان إذا رأى إنساناً يحك عنقه فيظن أنه ينزع القميص ليدفعه إليه ويقال «الكنود» الذي يمنع وفده ويجمع أهله ويضرب عبده ويأكل وحده ولا يعبأ للنائرة في قومه أي المصيبة، وقال الحسن الكنود الذي يذكر المصائب وينسى[1] النعم ويقال الكنود الذي لا خير فيه ويقال الأرض التي غلب عليها السبخة ولا يخرج منها البذر أرض كنود قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ يعني الله تعالى حفيظ على صنعه عالم به. ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ يعني الإنسان على جمع المال حريص، وقال القتبي: معناه إنه لحب المال لبخيل، والشدة البخل هاهنا، وقال الزجاج

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٨٥ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب.

معناه أنه من أجل حب المال لبخيل وهذا موافق لما قال القتبي، ثم قال عز وجل ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ يعني أفلا يعلم هذا البخيل إذا بعث الناس من قبورهم وعرضوا على الله تعالى بعثر يعني أخرج ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ يعني بين ما في القلوب من الخير والشر ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ يعني عالم بهم وبأعمالهم وبنيَّاتهم، ومن أطاعه في الدنيا ومن عصاه فيها وفي الآية دليل أن الثواب يستوجب على قدر النية ويجري به لأنه قال عز وجل (وحصل ما في الصدور) يعني يحصل له من الثواب بقدر ما كان في قلبه من النية إن نوى بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة يحصل له الثواب على قدره والله أعلم.



مختلف فيها وهي إحدى عشرة آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ يعني القيامة والساعة ما الساعة وهذا من أسماء يوم القيامة مثل الحاقة والطامة والصاخة، وإنما سميت القارعة لأنها تنزع القلوب بالأهوال ويقال سماها قارعة لثلاثة:

لأنها تقرع في أذن العبد بما عمل وسمعه، والثاني تقرع أركان العبد بعضه في بعض، والثالث تقرع القلوب كما تقرع القصار الثوب ثم قال عز وجل ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ تعظيماً لشدتها ثم وصفها فقال ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ يعني كالجراد كالفراش يجول بعضهم في بعض كما قال في آية أخرى (كأنهم جراد منتشر) ويقال شبههم بالفراش لأنهم يلقون أنفسهم في النار كما يلقي الفراش نفسه في النار ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ يعني كالصوف المندوف وهي تمر مَرَّ السحاب ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ يعني رجحت حسناته على سيئاته ويقال ثقلت موازينه بالعمل الصالح بالصلاة والزكاة وغيرها من العبادات ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ يعني في عيش مرضي يعني في الجنة لا موت فيها ولا فقر ولا مرض ولا خوف ولا جنون يعني آمن من كل خوف وفقر ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ يعني رجحت سيئاته على حسناته يعني الكافر ويقال من خفت موازينه يعني لا يكون له عمل صالح ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ يعني مصيره إلى النار، قال قتادة هي أمهم ومأواهم وإنما سميت الهاوية لأن الكافر إذا طرح فيها يهوي على هامته، وإنما سميت أمه لأن مصيره إليها ومسكنه[٢] فيها، ثم وصفها فقال ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ تعظيماً لشدتها، ثم أخبر عنها فقال ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ يعني حارة قد انتهى حرها، وأصله ما هي فأدخلت الهاء للوقف كقوله: اقرؤوا كتابيه وأصله كتابي قرأ حمزة والكسائي وما أدراك ما هي بغير هاء في الوصل وبالهاء عند الوقف وقرأ الباقون بإثباتها في الوصل والوقف والله تعالى أعلم بالصواب.

---

(١) ذكر في هذه السورة إثبات وقوع البعث وما يسبق ذلك من الأهوال وإثبات الجزاء على الأعمال وأن أهل الأعمال الصالحة المعتبرة عند الله في نعيم، وأهل الأعمال السيئة التي لا وزن لها عند الله في مقر الجحيم. انظر التحرير والتنوير ٣٠/٥٠٩.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٨٥ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٣) انظر حجة القراءات ٧٧٠



مختلف فيها وهي ثمان آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ قال الكلبي: نزلت في حَيَّيْن من العرب أحدهما بنو عبد مناف والآخر بنو سهم تفاخرا في الكثرة فكثرتهم بنو عبد مناف فقال بنو سهم إنما البغي والقتال قد أهلكنا فقد أحيانا وأحياكم وأمواتنا وأمواتكم ففعلوا فكثرتهم بنو سهم فنزل (أَلْهَاكُمُ التكاثر) يعني شغلكم وأذهلكم التفاخر ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ يعْني أتيتم وذكرتم وعددتم أهل المقابر يعني حتى يدرككم الموت على تلك الحال وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه (قرأ الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) ثم قال يقول بني آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فَأَفْنَيْتَ أو لبستَ فأبليت أو تصدقت فأمضيت[٢] ويقال معناه أغفلكم التفاخر والتكاثر عن الهاوية والنار الحامية حتى زرتم المقابر يعني عددتم مَنْ في المقابر. ثم قال ﴿كَلَّا﴾ وهو رد على صنيعكم ويقال (كلا) معناه أي لاَ تَدَعون الفخر بالأحساب حتى زرتم المقابر، وقال الزجاج كلا ردع لهم وتنبيه يعني ليس الأمر الذي أن يكون عليه التكاثر والذي ينبغي أن يكونوا عليه طاعة الله تعالى والإيمان بنبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إذا نزل بكم الموت ويقال (كلا سوف تعلمون) إن سئلتم في القبر ثم قال ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بعد الموت حين نزل بكم العذاب لأن الأحساب لا تنفعكم قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ قال بعضهم معناه كلا لا تؤمنون بالوعيد وقد تم الكلام ثم استأنف فقال: ﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ يعني لو تعلمون ما القيامة باليقين لألهاكم عن ذلك ويقال هذا موصول به كلا لو تعلمون يقول حقاً لو علمتم علم اليقين بأن المال والحسب والفخر لا ينفعكم يوم القيامة ما افتخرتم بالمال والعدد والحسب ثم قال عز وجل ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ قرأ ابن عامر والكسائي (لَتُرون) بضم التاء والباقون بالنصب[٣] فمن قرأ بالضم فهو على فعل ما لم يسم فاعله ونصب الجحيم

---

(١) اشتملت على التوبيخ على اللهو عن النظر في دلائل القرآن ودعوة الإسلام بإيثار المال والتكاثر به والتفاخر بالأسلاف وعدم الإقلاع عن ذلك إلى أن يصيروا في القبور كما صار من كان قبلهم وعلى الوعيد على ذلك. وحثهم على التدبير فيما ينجيهم من الجحيم. وأنهم مبعوثون ومسؤولون عن إهمال شكر المنعم العظيم. التحرير ٥١٨/٣٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٧٣/٤ كتاب الزهد(٣ ـ ٢٩٥٨) والترمذي ٤١٦/٥ كتاب التفسير (٣٣٥٤).

(٣) حجتهم إجماع الجميع على فتح التاء في قوله: ﴿ثم لترونها﴾، فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. وأما من قرأ في إحداهما بالضم وفي الأخرى بالفتح فكأنه ذهب إلى: أنت تُرَى فترى

اعلم أن (رأى) فعل يتعدى إلى مفعول واحد تقول: رأيت الهلال، فإذا نقلت الفعل بالهمز زاد مفعولاً آخر، تقول: (أريت زيداً =

على أنه مفعول ثان، ومن قرأ بالنصب فعلى فعل المخاطبة ونصب الجحيم لأنه مفعول به يعني لترون الجحيم يوم القيامة عياناً ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ يعني يدخلونها عياناً لا شك فيه ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ يعني ولتسألن يوم القيامة عن النعيم قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه من أكل خبزاً يابساً وشرب الماء من الفرات فقد أصاب النعيم[1] وقال ابن مسعود رضي الله عنه هو الأمن والصحة[2] وروى حماد بن سلمة عن أبيه عمار بن أبي عمار عن جابر أنه قال جاءنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأطعمناهم رطباً وأسقيناهم الماء فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا من النعيم التي تسألون[3] عنه وروى صالح[4] بن محمد عن محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن بن عباس قال إن أبا بكر سأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أكلة أكلها مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بيت أبي الهثيم بن التيهان من لحم وخبز وشعير وبسر مذنب وماء عذب فقال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نسأل عنه فقال: النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما ذلك للكفار ثم قال ثلاثة لا يسأل الله تعالى عنها العبد يوم القيامة ما يواري عورته، وما يقيم به صلبه، وما يكفه عن الحَرِّ والقُدّ وهو مسؤول بعد ذلك عن كل نعمة. وروى الحسن عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «ما أنعم الله تعالى على العبد من نعمة صغيرة أو كبيرة فيقول عليها الحمد لله إلا أعطاه الله تعالى خيراً[5] مما أخذ». والله أعلم، وعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال من قرأ سورة التكاثر لم يحاسبه الله تعالى بالنعيم الذي أنعم به في الدار الدنيا وأعطي من الأجر كأنما قرأ القرآن[6].

= الهلال)، فإن بنيت هذا الفعل المنقول بالهمز قلت: (ارى زيد الهلال) فيقوم المفعول الأول مقام الفاعل ويبقى الفعل متعدياً إلى مفعول واحد. فكذلك «لترون الجحيم» قام الضمير مقام الفاعل لما بني الفعل للمفعول به (أنت) وانتصب «الجحيم» على أنه مفعول. قال الفراء: إنما ضمت الواو لأن الأصل: (لَتُرْأَيُون) فنقلوا فتحة الهمزة إلى الراء، وحذفوا الهمزة تخفيفاً، ثم استثقلوا الضمة على الياء فحذفوها، فالتقى ساكنان الياء والواو فأسقطوا الياء، ثم التقى ساكنان الواو والنون، فحركوا الواو لالتقاء الساكنين، وحولت إليها تلك الحركة التي كانت في الياء فحركت بها. وقال غيره: إن هذه الواو اسم الفاعلين وإعرابها الرفع، فإذا وجب تحريكها كانت حركة الأصل أولى بها. وقوله: «لترون» وزنها: لَتَعَوُنَّ. حجة القراءات ٧٧١ ـ ٧٧٢.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٨٨ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

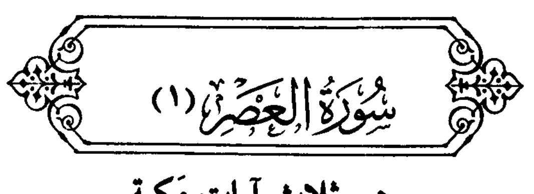
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٨٨ وعزاه لهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٨٨ وعزاه لأحمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٤) صالح بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان مقبول، التقريب ١/٣٦٢.

(٥) ذكره الهيثمي بنحوه في مجمع الزوائد ١٠/٩٨ من حديث أبي أمامة وعزاه للطبراني وقال فيه سويد بن عبد العزيز وهو متروك.

(٦) انظر تفسير أبي السعود ٩/١٩٦.



سُورَةُ العَصْرِ (١)

وهي ثلاث آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه يعني الدهر وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال يعني صلاة العصر وذلك أن أبا بكر لما أسلم قالوا خَسِرْتَ يا أبا بكر حين تركت دين أبيك فقال أبو بكر ليس الخسارة في قبول الحق إنما الخسارة في عبادة الأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنكم فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ بهذه الآية (والعصر)

أقسم الله تعالى بصلاة العصر ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ يعني أن الكافر لفي خسارة وروي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال«إن الإنسان لفي خسر» يعني الناس كلهم[٢] ثم استثنى فقال عز وجل ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم غير منقوصين قال القتبي الخسر النقصان إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غير منقوص كما قال الله تعالى (ثم رددناه أسفلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ، آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)يعني يكتب لهم ثواب عملهم وإن ضعفوا عن العمل، قال الزجاج: إن الإنسان أراد به الناس، والخسران واحد، ومعناه إن الإنسان الكافر والعاملين بغير طاعة الله تعالى لفي خسر وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قرأ والعصر ونوايب الدهر إن الإنسان لفي خسر وإنه لفي لعنة إلى آخر الدهر[٣]، ويقال أقسم الله تعالى بخالق الدهر إن الإنسان لفي خسر يعني أبا جهل والوليد بن المغيرة ومن كان في مثل حالهما، ثم استثنى المؤمنين فقال إلا

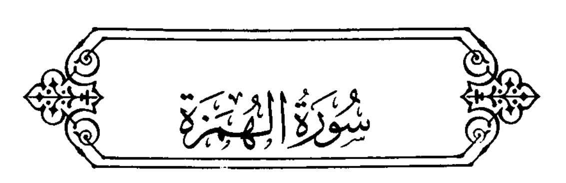
---

(١) اشتملت على إثبات الخسران الشديد لأهل الشرك ومن كان مثلهم من أهل الكفر بالإسلام بعد أن بلغت دعوته، وكذلك من تقلد أعمال الباطل التي حذر الإسلام المسلمين منها وعلى إثبات نجاة وفوز الذين آمنوا وعملوا الصالحات والداعين منهم إلى الحق. وعلى فضيلة الصبر على تزكية النفس ودعوة الحق. وقد كان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اتخذوها شعاراً لهم في ملتقاهم. روى الطبراني بسنده إلى عبيد الله بن عبد الله بن الحصين الأنصاري (من التابعين) أنه قال: «كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يفترقا إلّا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر (أي سلام التفرق وهو سنة أيضاً مثل سلام القدوم). وعن الشافعي: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم. وفي رواية عنه: لو لم ينزل إلى الناس إلّا هي لكفتهم. وقال غيره: إنها شملت جميع علوم القرآن وسيأتي بيانه التحرير ٥٢٨/٥٢٧/٣٠.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٩٢/٦ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٩٢/٦ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف والحاكم عن علي بن أبي طالب.

الذين آمنوا وعملوا الصالحات يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني تحاثوا على القرآن. يعني يُرَغِّبون في الإيمان بالقرآن والأعمال الصالحة ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ يعني تحاثوا على الصبر على عبادة الله تعالى وعلى الشدائد فيرغبون الناس على ذلك ويقال بالصبر على المكاره فإن الجنة حفت بالمكاره والله تعالى أعلم بالصواب.



وهي تسع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

قوله تعالى: ﴿**وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ**﴾ يعني الشدة من العذاب، ويقال (وَيْلٌ) واد في جهنم (لكل همزة لمزة) قال أبو العالية يعني يهمزه في وجهه ويلمزه[1] من خلفه وقال مجاهد الهمزة: اللعان، واللمزة: الذي يأكل لحوم[2] الناس، وقال ابن عباس الهمزة واللمزة الذي يفرق بين الناس بالنميمة[3] والآية نزلت في الأخنس بن شريق، ويقال الذي يسخر من الناس فيشير بعينه وبحاجبيه وبشفتيه إليه، وقال مقاتل نزلت في الوليد بن المغيرة وكان يغتاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويطعن في وجهه، ويقال نزلت في جميع المغتابين ثم قال عز وجل ﴿**الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ**﴾ يعني استعبد بماله الخدم والحيوان (وعدّده) أي حسبه وأحصاه قرأ بن عامر وحمزة والكسائي (الذي جمع مالاً وعدَّده) بالتشديد والباقون بالتخفيف[4]، فمن قرأ بالتشديد فهو للمبالغة كثر الجمع ومن قرأ بالتخفيف فمعناه وجمع مالاً وعدده أي قوماً أعدهم نصاراً قوله عز وجل ﴿**يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ**﴾ يعني يظن أن ماله الذي جمع أخلده في الدنيا ويمنعه من الموت ومن قرأ بالتخفيف فلا يموت حتى يفنى ماله يقول الله تعالى ﴿**كَلَّا**﴾ لا يخلده ماله أبداً وولده ثم استأنف فقال عز وجل ﴿**لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ**﴾ يعني ليطرحن وليقذفن في الحطمة والحطمة إسم من أسماء النار ثم قال: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ**﴾ تعظيماً لشدتها، ثم وصفها فقال ﴿**نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ**﴾ يعني المستعرة تحطم العظام وتأكل اللحم فلهذا سميت الحطمة. ﴿**الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ**﴾ يعني تأكل اللحم حتى تبلغ أفئدتهم وقال القتبي تطلع على الأفئدة أي تشرف على الأفئدة وخص الأفئدة لأن الألم إذا وصل إلى الفؤاد مات صاحبه فأخبر أنهم في حال من يموت وهم لا يموتون كما قال الله تعالى (لا يموت فيها ولا يحيى) ويقال

---

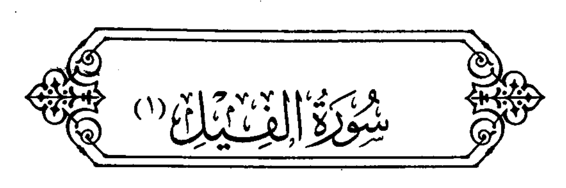
(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٩٢ وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٩٢ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٩٢ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٤) انظر حجة القراءات ٧٧٣.

(تطلع على الأفئدة) يعني تأكل الناس حتى تبلغ الأفئدة فإذا بلغت الأفئدة ابتدأ خلقه ولا تحرق القلب لأن القلب إذا احترق لا يجد الألم فيكون القلب على حاله ثم قال ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ﴾ يعني مطبقة على الكافرين ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ يعني طبقها مشدود إلى العمد، وقال الزجاج: معناه العذاب مطبق عليهم في عمد أي عمد من النار، وقال الضحاك (مؤصدة) أي حائط لا باب فيه، وروي عن الأعمش أنه كان يقرأ (عليهم مؤصدة ممدودة) يعني أطبقت الأبواب ثم شددت بالأوتاد من حديد من نار حتى يرجع إليهم غمها وحرها فلا يفتح لهم باب ولا يدخل عليهم روح ولا يخرج منها غم إلى الأبد قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر (في عُمد ممدودة) بضم العين والميم وقرأ الباقون بالنصب ومعناهما واحد وهو جمع العماد. والله أعلم بالصواب.



سُورَةُ الفِيلِ [1]

وهي خمس آيات مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ**﴾ يعني ألم تخبر بالقرآن، ويقال (ألم تر) يعني ألم يبلغك الخبر، ويقال اللفظ لفظ الإستفهام والمراد به الإخبار، يعني اعلم واعتبر بصنيع ربك ﴿**كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ**﴾ يعني كيف عذب ربك ﴿**بِأَصْحَابِ الْفِيلِ**﴾ وكان بدء أصحاب الفيل ما ذكرناه في سورة البروج أن زرعة قتل المسلمين بالنار فهرب رجل منهم إلى ملك الحبشة وأخبره بذلك فبعث ملك الحبشة جيشاً إلى أرض اليمن فأمَّر عليهم أرياطاً ومعه في جنده أبرهة الأشرم فركب البحر بمن معه حتى أتوا ساحلاً مما يلي أرض اليمن فدخلوها ومع أرياط سبعون ألفاً من الحبشة وهزم جنود زرعة وألقى زرعة نفسه في الماء فهلك وأقام أرياط باليمن سنين في سلطانه ذلك ثم نازعه في أمر الحبشة أبرهة وكان من أصحابه ممن وجّهه معه النجاشي إلى اليمن وخالفه أبرهة وتفرق الجند في أرض اليمن وصار إلى كل واحد منهما طائفة منهم ثم خرجوا للقتال فلما تقارب الناس ودنا بعضهم من بعض أرسل أبرهة إلى أرياط أن لا تصنع شيئاً بأن تلقي الحبشة بعضها في بعض حتى تفنيها فأبرز لي وأبرز لك فأينا أصاب صاحبه انصرف إلى جنده فأرسل إليه أرياط أن قد أنصفت فاخرج فخرج إليه أبرهة وكان رجلاً قصيراً وخرج إليه أرياط وكان رجلاً طويلاً عظيماً في يده حربة وخلف أبرهة عبداً يقال له عنودة وروي عن بعضهم عيودة بالياء فلما دنا أحدهما من صاحبه رفع أرياط الحربة فضرب بها على رأس أبرهة يريد يافوخة فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فخدشت حاجبيه

---

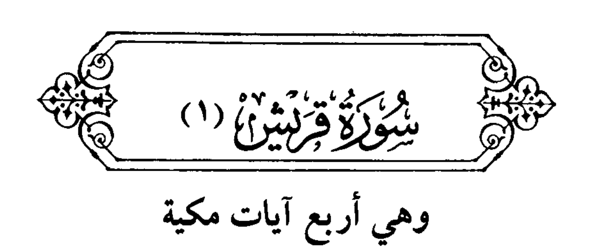
(١) اشتملت هذه السورة على التذكير بأن الكعبة حرم الله وأن الله حماه ممن أرادوا به سوءاً أو أظهر غضبه عليهم فعذبهم لأنهم ظلموا بطمعهم في هدم مسجد إبراهيم وهو عندهم في كتابهم، وذلك ما سماه الله كيداً، وليكون ما حل بهم تذكرة لقريش بأن فاعل ذلك هو رب ذلك البيت وأن لاحظ فيه للأصنام التي نصبوها حوله. وتنبيه قريش أو تذكيرهم بما ظهر من كرامة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند الله إذ أهلك أصحاب الفيل في عام ولادته. ومن وراء ذلك تثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن الله يدفع عنه كيد المشركين فإن الذي دفع كيد من يكيد لبيته لاحق بأن يدفع كيد من يكيد لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودينه ويشعر بهذا قوله ﴿**ألم يجعل كيدهم في تضليل**﴾. ومن وراء ذلك كله التذكير بأن الله غالب على أمره، وأن لا تغر المشركين قوتهم ووفرة عددهم ولا يوهن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تألب قبائلهم عليه فقد أهلك الله من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعاً. ولم يتكرر في القرآن ذكر إهلاك أصحاب الفيل خلافاً لقصص غيرهم من الأمم لوجهين: أحدهما أن إهلاك أصحاب الفيل لم يكن لأجل تكذيب رسول من الله، وثانيهما أن لا يتخذ منه المشركون غروراً بمكانة لهم عند الله كغرورهم بقولهم المحكى في قوله تعالى ﴿**أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر**﴾ الآية وقوله ﴿**وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾. التحرير ٣٠/٥٤٣ ـ ٥٤٤.

وعينه وأنفه وشفتيه فلذلك سمي أبرهة الأشرم. وحمل عيودة على أرياط من خلف أبرهة فقتل أرياط وانصرف جند أرياط إلى أبرهة فاجتمعت عليه الحبشة باليمن وكل ما صنع أبرهة من غير علم النجاشي ملك الحبشة فلما بلغه ذلك غضب غضباً شديداً وقال عدا على أميري فقتله بغير أمري ثم حلف أن لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته، فلما بلغ ذلك أبرهة حلق رأسه وملأ جراباً من تراب أرض اليمن ثم بعث إلى النجاشي وكتب إليه أيها الملك إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك واختلفنا في أمرك وكل طاعة لك إلا أني قد كنت أقوى على أمر الجيش منه وأضبط له، وقد حلقت رأسي حين بلغني قسم الملك وبعثت إليه بجراب من تراب أرضي ليضعه تحت قدميه فيبر قسمه فلما وصل كتاب أبرهة إلى النجاشي رضي عنه وكتب إليه أن أثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري وقال أبرهة لعتودة حين قتل أرياط حكمك يعني أحكم عليّ بما شئت فقال حكمي أن لا تدخل عروس من نساء أهل اليمن على زوجها حتّى أصيبها قبله، قال ذلك لك فأقام أبرهة باليمن وغلامه عنودة يصنع باليمن ما كان أعطاه في حكمه ثم عدل عليه رجل من حمير أو من خَثْعَم فقتله فلما بلغ أبرهة قتله وكان أبرهة رجلاً حليماً ودعا في دينه من النصرانية فقال قد آن لكم يا أهل اليمن أن يكون منكم رجل حازم يأنف مما يأنف منه الرجال إني والله لو علمت حين حكمته أنه يسأل من الذي سأل ما حكمته وأيم الله لا يؤخذ منكم فيه عقل ولا قود. ثم أن أبرهة بنى بصنعاء كنيسة لم يُر مثلها في زمانه في أرض الروم ولا في أرض الشام ثم كتب إلى النجاشي الأكبر ملك الحبشة أني قد بنيت لك كنيسة لم يكن مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب فلما علمت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي خرج رجل من بني كنانة من الحمس حتى قدم اليمن فدخل الكنيسة فنظر فيها ثم خرى فيها فدخلها أبرهة فوجد تلك العذرة فيها فقال: من اجترأ عليّ بهذا؟ فقال له أصحابه: أيها الملك رجل من أهل ذلك البيت الذي يحجه العرب فقال أعليّ اجْتَرَأ بهذا؟ ثم قال بالنصرانية لأهْدِمَنَّ ذلك البيت ولأُخَرِّبنه حتى لا يحجه حاج أبداً، فدعا بالفيل وأذن قومه بالخروج، وروي في رواية أخرى أن فئة من قريش خرجوا إلى أرض النجاشي فأوقدوا ناراً فلما رجعوا تركوا النار في يوم ريح عاصف حتى وقعت النار في الكنيسة فأحرقتها فعزم أبرهة وهو خليفة النجاشي أن يخرج إلى مكة فيهدم الكعبة وينقل أحجارها إلى اليمن فيبني هناك بيتاً ليحج الناس إليه، وروي في رواية أخرى أن رجلاً من أهل مكة خرج إلى اليمن فأخذ جزعة من القصب ذات ليلة وأضرم النار في الكنيسة فأحرقها ثم هرب فبناها أبرهة مرة أخرى فحلف بعيسى ابن مريم بأن يهدم الكعبة لكي يتحول الحج إلي كنيسته فتجهز فخرج معه حتى إذا كان في بعض طريقه بعث رجلاً من بني سليم ليدعو الناس في حج بيته الذي بناه فتلقاه رجل من اليمن بني كنانة فقتله فازداد أبرهة بذلك غضباً وحث على المسير والانطلاق حتى إذا كان بأرض جعم فخرج إليه رجل من أشراف اليمن وملوكهم يقال له ذو يفن فدعا القوم وأحبابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وصده عن بيت الله فقاتله فهرب ذو يفن وأصحابه وأخذوا ذا يفن وأتى به أسيراً فلما أراد قتله قال أيها الملك لا تقتلني: فإنه عسى أن أكون معك خير لك من قتلي فتركه وحبسه عنده في وثاقه ثم مضى على وجهه ذلك حتى إذا كان بأرض خشعم عرض له «فقيل بن حبيب الخشعي» فقاتله فهزمه وأخذ أسيراً فلما أتي به وهم بقتله فقال أيها الملك لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب فتركه وخلى سبيله وخرج به معه يدله على أرض العرب حتى إذا مر بالطائف فخرج إليه مسعود بن مغيث التقى في رجال من ثقيف فقالوا أيها الملك إنما نحن عبيدك ليس عندنا لك خلاف وليس بيتنا هذا الذي تريد يعنون اللات ،والعزى وليست بالتي يحج إليه العرب، وإنما ذلك بيت قريش الذي بمكة فنحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم فبعثوا معه أبارغال فخرج يهديهم الطريق حتى أنزلهم بالمغمس وهي على ستة أميال من مكة فمات أبو رغال هناك فرجمت العرب قبره فهو القبر الذي ترجمه الناس

بالمغمس ثم أن قريشاً لما علموا أن لا طاقة لهم بالقتال مع هؤلاء القوم لم يبق بمكة أحد إلا خرج إلى الشعاب والجبال ولم يبق أحد إلا عبد المطلب على سقايته وشيبه أقام على حجابة البيت فجعل عبد المطلب يأخذ بعضادتي البيت ويقول لاهـم إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك لا يغلبوا بصليبهم فامر ما بدا لك ثم إن أبرهة بعث رجلاً من الحبشة على جمل لـه حتى انتهى إلى مكة وساق إلى أبرهـة أموال قـريش وغيرهـا فأصـاب مائتي بعيـر لعبد المطلب وهو يومئذٍ كبير قريش وسيدها ثم بعثت ابرهة رجلاً من أهل حميـر إلى مكة وقال أرسل إلى سيد هذا البيت وشريفهم ثم قال له إن الملك يقول لك إني لم آت لاحرجكم وإنما جئت لأهدم هذا البيت فإن لم تتعرضوا إلى دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم.

فلما دخل الرسول مكة جاء إلى عبد المطلب وأدى إليه الرسالة فقال له عبد المطلب ما نريد حربه وما لنا بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن «ذي يفن» وكان صديقاً له فجاءه وهو في مجلسه فقال له هل عندك من عناء بما نزل بنا فقال له ذويفن ما عناء رجل أسير بيد ملك ينتظر بأن يقتله عدواً أو مشياً: ألا إن صاحب الفيل صديق لي فأرسل إليه فأوصيه لك وأعظم عليه حقك وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه أنت بما بدا لك فقال: حسبي ففعل ذلك فلما دخل عبد المطلب على الملك وكلمه فـأعجبه كـلامه ثم قـال لترجمـانه قـل له: مـا حاجتـك؟ قال عبد المطلب حاجتي إليك أن ترد إلي مائتي بعير لي فلما قال ذلك قال له أبرهة لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم أني رجوت (يعني كرهت) فيك حيث كلمتني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ قال عبد المطلب: أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه فقال ما كان يمنع مني قال أنت وذلك فرد عليه الإبل فانصرف عبد المطلب إلى قريش وأخبرهم الخبر وأمر بالخروج لمن بقي من أهل مكة إلى الجبال وفي بطون الشعاب ثم إن عبد المطلب أخذ بحلقتي باب الكعبة وقال اللهم إن المـرء يمنع رحله وذكر كلمات في ذلك ثم أرسل حلقتي الباب وانطلق ومن معه إلى الجبال ينتظرون ما يصنع أبرهة بمكة فلما أصبح أبرهـة تهيأ لدخول مكة وهّيأ فيله وجيشه وكان اسم الفيل محموداً وكنيته أبو العباس وكتبه أبو البكشوم فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب الخثعمي حتى جاء إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال ابرك محموداً وارجع راشداً من حيث جئت فإنك والله في بلد الله الحرام ثم أرسل أذنه. فاضطجع فضربه ليقوم فأبى فضربوه ليقوم فأبى وضربوا بالطبرزين فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى مكة فبرك وأرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طير منها ثلاثة أحجار حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمصة والعدسة لا تصيب أحداً منهم إلا هلك فخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي جاؤوا منه ويتساءلون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق فخرج نفيل يشتد حتى صعد الجبل فخرجوا معه يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل فأصيب أبرهة في جسده وخرجوا معه فيسقط من جسده أنملة أنملة كلما سقطت منه أنملة خرجت منه مدة قيح ودم حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ثم مات فملك ابنه يكثوم بن أبرهة ملك اليمن وروي في الخبر أنه أول ما وقعت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام وقال بعضهم كان أمر أصحاب الفيل قبل مولد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بثلاث وعشرين سنة وقال بعضهم كان ذلك في عام مولده ـ عليه السلام ـ وروي عن قبس بن مخرمة أنه قال ولدت أنا ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عام الفيل فنزل قوله (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) يعني كيف عاقب ربك أصحاب الفيل بالحجارة حين أرادوا هدم الكعبة قال تعالى ﴿**ألم يجعل كيدهم في تضليل**﴾ يعني في خسارة ويقال معناه ألم يجعل صنيعهم في أباطيل ﴿**وأرسل عليهم طيراً أبابيل**﴾ يعني متتابعاً بعضها على أثر بعض أرسل عليهم الله طيوراً بيضاً صغاراً

وقال عبيد بن عمير أرسل عليهم طيراً بلقا من البحر كأنها الخطاطيف وروى عطاء عن ابن عباس قال طيراً سوداً جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً ثم قال (ترميهم بحجارة من سجيل) قال سعيد بن جبير الحجارة أمثال الحمصة وروي عن ابن عباس قال رأيت عند أم هانىء من تلك الحجارة مثل بعر الغنم مخططة بحمرة. وروى إسرائيل عن جابر بن أسباط قال طيراً كأنها رجال الهند جاءت من قبل البحر تحمل الحجارة في مناقيرها وأظافيرها أكبرها كمبارك الإبل وأصغرها كرؤوس الإنسان ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنَ سِجِّيلٍ﴾ يعني من طين خلط بالحجارة ويقال طين مطبوخ كما يطبخ الآجُرْ وذكر مقاتل عن عكرمة قال هي طير جاءت من قبل البحر لها رؤوس كرؤوس السباع لم تر قبل يومئذ ولا بعده فجعلت ترميهم بالحجارة فتجدر جلودهم وكان أول يوم رأى فيه الجدري ويقال مكتوب في كل حجر اسم الرجل واسم أبيه ولا يصيب الرجل شيء إلا نفده فيها وقع على رأس رجل إلا خرج من دبره وما وقعت على جانبه إلا خرجت من الجانب الآخر وقال وهب بن منبه حجارة من سجيل قال بالفارسية سنك وكل يعني حجارة وطين وروى موسى بن يشار عن عكرمة حجارة من سجيل قال سنك وكل ثم قال عز وجل ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ يعني كزرع بالٍ فأخبر الله تعالى أنه سلط على الجبابرة أضعف خلقه كما سلط على النمرود بعوضة فأكلت من دماغه أربعين يوماً فمات من ذلك والله أعلم بالصواب.



وهي أربع آيات مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ﴾ قرأ بن عامر (لإلاف قريش) بغير ياء بعد الهمزة والباقون بياء[٢] قبلها همزة ومعناهما واحد وهذا موصول بما قبله يعني أن الله تعالى أهلك أصحاب الفيل لإيلاف قريش يعني لتقر قريش بالحرم ويجاورون البيت فقال عز وجل (فجعلهم كعصف مأكول) (لإيلاف قريش) يعني فعل ذلك ليؤلف قريشاً بهاتين الرحلتين اللتين بهما عيشهم ومقامهم بمكة

وقال أهل اللغة[٣] ألفت موضع كذا أي لزمته وألفنيه الله كما يقال لزمته موضع كذا ألزمنيه الله وكرر لإيلاف على معنى التأكيد كما يقال أعطيتك المال لصيانة وجهك وصيانتك عن جميع الناس، وقال مجاهد لئلاف قريش يعني لنعمتي على قريش[٤]، وقال سعيد بن جبير أذكر نعمتي على قريش ويقال معناه لا يشق عليهم التوحيد كما لا يشق عليهم ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ قال مقاتل وذلك أن قريشاً كانوا تجاراً وكانوا يمتارون في الشتاء من الأردن وفلسطين لأن ساحل البحر كان أدناها فإذا كان الصيف تركوا طريق الشام وأخذوا طريق اليمن فشق ذلك عليهم فقذف الله تعالى في قلوب الحبشة حتى حملوا الطعام في السفن إلى مكة للبيع وجعل أهل مكة يخرجون إليهم على مسيرة ليلة ويشترون فكفاهم الله تعالى مؤونة الشتاء والصيف ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ لأن رب هذا البيت كفاهم مؤونة الخوف والجوع فليألفوا العبادة كما ألفوا رحلة الشتاء والصيف وقال الزجاج كانوا يترحلون في الشتاء إلى الشام وفي الصيف إلى اليمن وهذا موافق لما قال مقاتل، وقال السدي: في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام. وهكذا قال القتبي، وروي عن أبي العالية أنه قال كانوا لا يقيمون بمكة صيفاً ولا شتاء فأمرهم الله تعالى

---

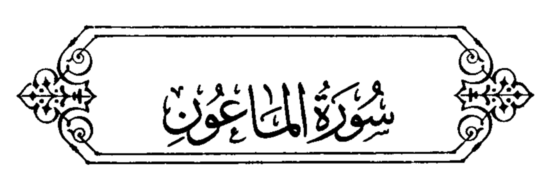
(١) اشتملت هذه السورة على أمر قريش بتوحيد الله تعالى بالربوبية تذكيراً لهم بنعمة أن الله مكن لهم السير في الأرض للتجارة برحلتي الشتاء والصيف لا يخشون عادياً يعدو عليهم. وبأنه أمنهم من المجاعات وأمنهم من المخاوف لما وقر في نفوس العرب من حرمتهم لأنهم سكان الحرم وعمار الكعبة. وبما ألهم الناس من جلب الميرة إليهم من الآفاق المجاورة كبلاد الحبشة. ورد القبائل فلا يغير على بلدهم أحد قال تعالى **﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً أمناً يتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾** فأكسبهم ذلك مهابة في نفوس الناس وعطفاً منهم. التحرير ٣٠/٥٥٤.

(٢) النشر ٢/٤٠٣، حجة القراءات ٧٧٣ ـ ٧٧٤.

(٣) انظر لسان العرب ١/١٠٨.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٩٧ وعزاه للفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

بالمقام عند البيت في العبادة، ويقال معناه قل لهم يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يجتمعوا على الإيمان والتوحيد وعبادة رب هذا البيت كاجتماعهم على رحلة الشتاء والصيف (فليعبدوا رب هذا البيت) يعني سيد وخالق هذا البيت الذي صنع هذا الإحسان إليكم حتى يكرمكم في الآخرة كما أكرمكم في الدنيا ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ يعني أشبعهم بعد الجوع الذي أصابهم حتى جهدوا ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ يعني من خوف الجهد والعدو والغارة، وقال السدي (آمنهم من خوف) يعني من خوف الجذام والله تعالى أعلم بالصواب.



مختلف فيها وهي سبع آيات مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ قرأ الكسائي (أرأيت) بغير ألف وقرأ نافع بالألف بغير همزة والباقون باللألف والهمزة[1] أرأيت وهذه كلها لغات العرب واللغة المعروفة بالألف والهمزة ومعناه ألا ترى يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الكافر الذي يكذب بالدين يعني بيوم القيامة، وقال معناه ما تقول يا محمد في هذا الكافر الذي يكذب بيوم القيامة فكيف يكون حاله يوم القيامة وقال قتادة نزلت في وهب بن عايل وقال جعده بن هبيرة نزلت في العاص بن وائل ويقال هذا تهديد لجميع الكفار ثم قال عز وجل ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ يعني يدفع اليتيم عن حقه ويقال يمنع اليتيم حقه ويظلمه ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ يعني لا يحث على طعام المسكين ويقال لا يطعم المسكين ثم قال عز وجل ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ يعني للمنافقين ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ يعني لاهين عنها حتى يذهب وقتها ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ﴾ الناس بالصلاة ولا يريدون بها وجه الله تعالى حتى إذا رأوا الناس صلوا وإذا لم يروا الناس لم يصلوا قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾قال مقاتل يمنعون الزكاة، «والماعون» بلغة الحبش المال وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال يراؤون بصلاتهم ويمنعون الزكاة[2]، ويقال الماعون يعني المعروف كله الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم. وعن أبي عبيد قال سألت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن الماعون قال: الماعون ما يتعاطاه الناس فيما بينهم مثل الفأس والقدوم والقدر والدلو[3] ونحو ذلك وروى وكيع عن سالم بن عبد الله قال سمعت عكرمة يقول الماعون الفأس والقدوم والقدر والدلو قلت من منع هذا فله الويل قال من راءى بصلاة وسها عنها ومنع هذا فله الويل

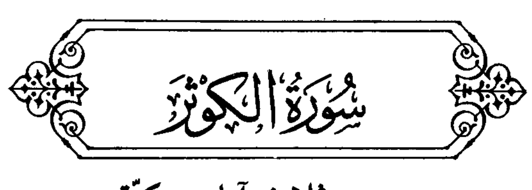
وقال القتبي الماعون الزكاة ويقال الماعون هو الماء والكلأ وروي عن الفراء أنه قال هو المال. والله تعالى أعلم بالصواب.

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٦٣٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٠١ وعزاه للفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في سننه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٠٠ وعزاه لطبراني.



سُورَةُ الكَوْثَرِ

وهي ثلاث آيات مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ يعني الخير الكثير لفضيلة القرآن، ويقال العلم، وقال القتبي أحسبه «فَوْعَلَ» من الكثرة والخير الكثير، وقال مقاتل (إنا أعطيناك الكوثر) أراد به نهراً في الجنة طينه مسك أزفد وَرضراضه اللؤلؤ أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، وروى عطاء بن السائب عن محمد بن[1] زياد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: الكوثر نهر في الجنة حافتاه الذهب ومجراه على الدر والياقوت ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، تربته أطيب من المسك وروي عن أنس عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «بينما أنا أسير في الجنة فإذا بنهر حافتاه من اللؤلؤ المجوف يعني الخيام قلت ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ثم قال[3] عز وجل ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ**﴾ يعني صلّ لله الصلوات الخمس ﴿**وَانْحَرْ**﴾ قال بعضهم: انحر نفسك يعني اجتهد في الطاعة، وقال بعضهم انحر يعني استقبل بنحرك القبلة وقال بعضهم وانحر يعني البدنة يعني اعرف هذه الكرامة من الله تعالى وأطعم، وقال بعضهم صل صلاة العيد يوم العيد وانحر البدنة ثم قال عز وجل ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾ يعني مبغضك وهو «العاص بن وائل السهمي» هو الأبتر يعني الأبتر من الخير وذلك أن العاص بن وائل السهمي كان يقول لأصحابه هذا الأبتر الذي لا عقب له. وبلغ ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاغتم لذلك فنزل[4] إن شانئك هو الأبتر وأنت يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ستذكر معي إذا ذكرت فرفع الله ذكره في كل مواطن ويقال (فصل لربك وانحر) بأن يستوي بين السجدتين حتى يبدي نحره فخاطب بذلك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمراد به جميع الأمة كما قال (يا أيها الرسل) وأراد به هو وأصحابه، وروي عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه في قوله (فصل لربك وانحر) قال يعني ضع اليمين على الشمال في الصلاة (إن شانئك هو الأبتر) في ماله وولده وأهله والبتر: في اللغة الاستئصال والقطع وقال قتادة الأبتر الحقير الرقيق الذليل.

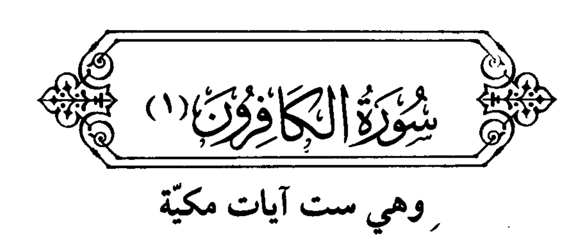
---

(١) محمد بن زياد الجمحي مولاهم أبو الحارث المدني ثقة ثبت ربما أرسل. التقريب ٢/١٦٢.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري ٨/٦٠٣ (٤٩٦٤) والترمذي ٥/٤١٩ كتاب التفسير (٣٣٦١) وابن ماجه ٢/١٤٥٠ كتاب الزهد (٤٣٣٤) وأحمد في المسند ٢/٦٧ ـ ١٥٨.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٠٣ وعزاه للطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه. وهو عند البخاري في ٨/١٤٩ وعند الترمذي (٣٣٦٠) وعند أحمد في ٣/٢٣١.

(٤) أنظر أسباب النزول للواحدي ٣٤٣.



سورة الكافرون(١)

وهي ست آيات مكيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وذلك أن قريشاً قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (إن يَسُرّك بأن نتبعك عاماً ونترك ديننا ونتبع دينك وترجع إلى ديننا عاماً)(٢) فنزلت هذه السورة وقال مقاتل نزلت في المستهزئين وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما قرأ سورة النجم وجرى على لسانه ما جرى فقال أبو جهل أخزاه الله لا يفارقنا إلا على أحد أمرين ندخل معك في بعض ما تعبد وتدخل معنا في بعض ديننا أو نتبرأ من آلهتنا وتتبرأ من إلهك فنزلت هذه(٣) السورة، وقال الكلبي أنهم أتوا العباس فقالوا له لو أن ابن أخيك استلم بعض آلهتنا لصدقناه بما يقول وآمنا به فنزل (قل يا أيها الكافرون)، ويقال إنهم اجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا له إن ابن أخيك يؤذينا ونحن لا نؤذيه بحرمتك فدعاه أبو طالب وذكر ذلك له فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما أدعوهم إلى كلمة واحدة فقال ما هي قال لا إله إلا الله فنفروا عن هذه الكلمة فنزلت (قل يا أيها الكافرون) يعني قل يا محمد لأهل مكة ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ يعني (لا أعبد) بعد هذا (ما تعبدون) أنتم من الأوثان ولا أرجع إلى دينكم ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ يعني لا تعبدون أنتم بعد هذا الرب الذي أعبده أنا حتى ترون ما يستقبلكم غداً وهذا كقوله عز وجل (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْظَالِمِينَ نَاراً) قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ يعني لست أنا في الحال عابداً لأصنامكم وما كنت عابداً لها قبل هذا لأني علمت مضرة عبادتها ﴿وَ لَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾

---

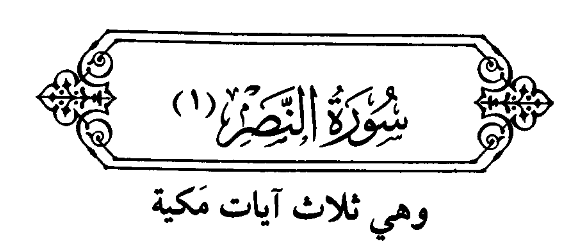
(١) سبب نزولها فيما حكاه الواحدي في أسباب النزول وابن إسحاق في السيرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يطوف بالكعبة فاعترضه الأسود بن المطلب بن أسد، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وكانوا ذوي أسنان في قومهم فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد سنة وتعبد ما نعبد سنة فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله فيهم: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ السورة كلها فغدا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المسجد الحرام وفي الملأ من قريش فقرأها عليهم فيئسوا منه عند ذلك (وإنما عرضوا عليه ذلك لأنهم رأوا حرصه على أن يؤمنوا فطمعوا أن يستنزلوه إلى الاعتراف بإلهية أصنامهم). وعن ابن عباس: فيئسوا منه وآذوه وآذوا أصحابه. وبهذا يعلم الغرض الذي اشتملت عليه وأنه تأييسهم من أن يوافقهم في شيء مما هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكد في الحال والاستقبال وأن دين الإسلام لا يخالط شيئاً من دين الشرك. التحرير ٣٠/٥٨٠.

(٢) سقط في ظ.

(٣) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٤٣.

يعني لستم عابدين في الحال لجهلكم وغفلتكم وقلة عقلكم. ثم قال عز وجل ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني قد أكملت عليكم الحجة فليس علي أن أجبركم على الإسلام فاثبتوا على دينكم حتى تروا ماذا يستقبلكم غداً وأنا أثبت على ديني الذي أكرمني الله تعالى به ولا أرجع إلى دينكم أبداً وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم نسخ بآية القتال، فيها دليل أن الرجل إذا رأى منكراً أو سمع قولاً منكراً فأنكره فلم يقبلوا منه لا يجب عليه أكثر من ذلك وإنما عليه أن يحفظ مذهبه وطريقه ويتركهم على مذهبهم وطريقهم. وقال الحسن سمعت شيخاً يحدث قال بينما أسير مع النبي - صلى الله عليه وسلم - فسمع رجلاً يقرأ (قل يا أيها الكافرون) فقال أما هذا فقد بريء من الشرك وسمع رجلاً يقرأ (قل هو اللّه أحد) فقال أما[1] هذا فقد غفر الله تعالى له والله أعلم.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٠٥ وعزاه لأحمد وابن الضريس والبغوي وحميد بن زوجويه في ترغيبه.



وهي ثلاث آيات مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ وروى عبد الملك بن سليمان قال سمعت سعيد بن جبير يقول كان أناس من المهاجرين قد وجدوا عمر وفي إدنائه ابن عباس رضي الله عنهما دونهم وكان يسأله فقال عمر أما إني سأريكم منه. اليوم ما تعرفون به فضله فسأله عن هذه السورة (إذا جاء نصر اللّه والفَتْحُ) قال بعضهم أمر الله تعالى نبيه محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا رأى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً أن يحمده ويستغفره فقال لابن عباس تكلم، فقال أعلمه الله متى يموت فقال (إذا جاء نصر اللّه والفتح) فهي آيتك من الموت (فسبح بحمد ربك)، قال مقاتل لما نزلت هذه السورة قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أصحابه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فاستبشروا فسمع بذلك ابن عباس فبكى فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يبكيك فقال نعيت نفسك فقال صدقت فعاش بعد هذه السورة[٢] سنتين، وروى أبو عبيد بن عبد الله أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يكثر أن يقول سبحانك ربي وبحمدك اللهم اغفر لي[٣]وقال علي رضي الله عنه لما نزلت هذه السورة مرض النبي ـ عليه السلام ـ فخرج إلى الناس فخطبهم وودعهم ثم دخل المنزل وتوفي بعد أيام[٤]. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (إذا جاء نصر اللّه والفتح) يعني إذا أتاك نصر من الله تعالى على الأعداء من قريش وغيرهم. (والفتح) يعني فتح مكة والطائف وغيرها ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾ يعني جماعة جماعة وقبيلة قبيلة، وكان قبل ذلك يدخلون واحداً واحداً فدخلوا فوجاً فوجاً فإذا رأيت ذلك فاعلم أنك ميت فاستعد للموت بكثرة التسبيح والإستغفار فذلك قوله ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يعني سبحه، ويقال يعني سبح صل لربك ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ يعني مسبحاً وذلك لمن تاب.

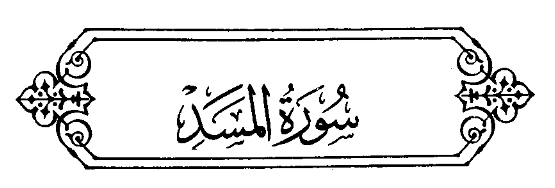
---

(١) الغرض من هذه السورة الوعد بنصر كامل من عند الله أو بفتح مكة، والبشارة بدخول خلائق كثيرة في الإسلام بفتح وبدونه إذ كان نزولها عند منصرف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خيبر كما قال ابن عباس في أحد قوليه. والإيماء إلى أنه حين يقع ذلك فقد اقترب انتقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الآخرة. ووعده بأن الله غفر له مغفرة تامة لا مؤاخذة عليه بعدها في شيء مما يختلج في نفسه الخوف أن يكون منه تقصير يقتضيه تحديد القوة الإنسانية الحد الذي لا يفي بما تطلبه همته الملكية بحيث يكون قد ساوى الحد الملكي الذي وصفه الله تعالى في الملائكة بقوله ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾. التحرير ٣٠/٥٨٩.

(٢) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٤٤.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/٤١٠، ٦/٤٩، الدر المنثور ٦/٤٠٨.

(٤) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٤٤.



وهي خمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ﴾ يعني خسر أبو لهب وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين نزل قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد على الصفا ونادى فاجتمعوا فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرني ربي أن أنذر عشيرتي الأقربين وأدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله فقولوا أشهد لكم بها عند ربي فأنكروا ذلك فقال أبو لهب تباً لك سائر الأيام ألهذا دعوتنا[1]، وروي في خبر آخر أنه اتخذ طعاماً ودعاهم ثم قال أسلموا تسلموا وأطيعوا تهتدوا فقال أبو لهب تبًّا لك سائر الأيام ألهذا دعوتنا[2] فنزلت (تبت يدا أبي لهب) يعني خسرت يدا أبي لهب عن التوحيد ﴿وَتَبَّ﴾ يعني وقد خسر ويقال إنما ذكر اليد وأراد به هو وقال مقاتل تبت يدا أبي لهب وتب يعني خسر نفسه وكان أبو لهب عم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ واسمه «عبد العزى» ولهذا ذكره بالكنية ولم يذكر إسمه لأن اسمه كان منسوباً إلى صنم وقال بعضهم كنيته كان اسمه ثم قال عز وجل ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ﴾ يعني ما نفعه ماله في الآخرة إذ كفر في الدنيا ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يعني ما ينفعه ولده في الآخرة إذا كفر في الدنيا والكسب أراد به الولد لأن ولد الرجل من كسبه ثم قال عز وجل ﴿سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾ يعني يدخل في النار ذات لهب يعني ذات شعل ثم قال عز وجل ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ يعني امرأته تدخل النار معه ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ قرأ عاصم حمالة الحطب بنصب الهاء ويكون على معنى الذم والشين ومعناه أعني حمالة الحطب والباقون بالضم[3] على معنى الإبتداء وحمالة الحطب جعل نعتاً لها فقال (حمالة الحطب) يعني حمالة الخطايا والذنوب. ويقال (حمالة الحطب) يعني تمشي بالنميمة فسمى النميمة حطباً لأنه يلقي بين القوم العداوة والبغضاء وكانت تمشي بالنميمة في عداوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ويقال كانت تحمل الشوك فتطرحه في طريق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه بالليل من بغضها لهم حتى بلغ النبي ـ عليه السلام ـ شدة وعناء فحملت ذات ليلة حزمة شوك لكي تطرحها في طريقهم فوضعتها على جدار وشدتها بحبل من ليف على صدرها فأتاها جبريل ـ عليه السلام ـ ومده خلف الجدار وخنقها حتى ماتت فذلك قوله ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ أي من ليف وقال أكثر أهل التفسير (في جيدها حبل من مسد) يعني في الآخرة في عنقها سلسلة من حديد وتحتها نار وفوقها نار، وروى سعيد بن جبير رضي الله عنه عن أبي بكر الصديق رضي الله

---

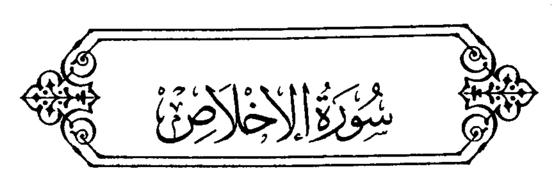
(١) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٤٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر حجة القراءات ٧٧٦، النشر ٢/٤٠٤

عنه قال لما نزلت تبت يدا أبي لهب جاءت امرأة أبي لهب فقال أبو بكر رضي الله عنه لو تنحَّيْتَ يا رسول الله فإنها امرأة بذية فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سَيُحَال بيني وبينها فدخلت فلم تره فقالت لأبي بكر رضي الله عنه هجانا صاحبك فقال والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله قالت إنك لمصدق فاندفعت راجعة فقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله ما رأتك فقال: «لم يزل بيني وبينها ملك يسترني عنها حتى رجعت»[1]. وروى إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي يزيد بن زيد قال لما نزلت هذه السورة قيل لأمرأة أبي لهب أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد هجاك فأتت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو جالس في الخلاء وقالت يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ماذا تهجوني فقال أما والله ما أنا هجوتك ما هجاك إلا الله عز وجل قالت هل رأيتني أحمل الحطب أو رأيت في جيدي حبل من مسد؟ وقال مجاهد (في جيدها حبل من مسد) مثل حديد البكرة، وقال غيره يعني عروة سلسلة من حديد ذرعها سبعون ذراعاً والله أعلم.

(١) ذكره أبو نعيم في دلائل النبوة ١/ ١٦.



مختلف فيها وهي أربع آيات مكيّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وذلك أن قريشاً قالوا له صِفْ لنا ربَّك الذي تعبده وتدعونا إليه ما هو؟ فأنزل الله تعالى (قل هو اللّه أحد) يعني قل يا محمد للكفار إن ربي الذي أعبده (هو اللّه أحد) يعني فرد لا نظير له ولا شبيه له ولا شريك له ولا معين له ثم قال عز وجل ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ يعني الصمد الذي لا يأكل ولا يشرب، وقال السدي وعكرمة ومجاهد (الصمد) الذي لا جوف له، وعن قتادة قال كان إبليس لعنه الله ينظر إلى آدم ـ عليه السلام ـ ودخل في فيه وخرج من دبره يعني حين كان صلصالاً فقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال الصمد الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ويتضرعون إليه عند مسألتهم وقال أبو وايل (الصمد) السيد الذي انتهى سؤدده وكذلك قال سعيد بن جبير وقال الحسن البصري رضي الله عنه (الصمد) الدائم، وقال قتادة (الصمد) الباقي ويقال الكافي وقال محمد بن كعب القرظي (الصمد) الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ويقال (الصمد) التام في سؤدده وروي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال (الصمد) الذي لا يخاف من فوقه ولا يرجو من تحته ويُصْمَد إليه في الحوائج ثم قال عز وجل ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ يعني لم يكن له ولد يرث ملكه. ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ يعني لم يكن له والد يرث عنه ملكه ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ يعني لم يكن له نظير ولا شريك فينازعه في عظمته وملكه وقال مقاتل إن مشركي العرب قالوا إن الملائكة كذا وكذا وقالت اليهود والنصارى في عزير والمسيح ما قالت فكذبهم الله تعالى وأبرأ نفسه مما قالوا فقال (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)، قرأ عاصم في رواية حفص كفواً بغير همزة وقرأ حمزة بسكون الفاء مهموزاً والباقون بضم الفاء مهموزاً بهمزة وكل[1] ذلك يرجع إلى معنى واحد وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال من قرأ (قل هو اللّه أحد) بعد صلاة الفجر إحدى عشرة مرة لم يلحقه ذنب يومئذ ولو اجتهد[2] الشيطان

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال أيعجز أحدكم أن يقرأ القرآن في ليلة؟ فقيل يا رسول الله من يطيق ذلك؟ قال: أن يقرأ قل هو الله أحد ثلاث مرات[3]، وروي عن ابن شهاب عن الزهري رضي الله عنه قال بلغنا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال «من قرأ قل هو الله أحد مرة فكأنما قرأ ثلث القرآن»[4] والله أعلم.

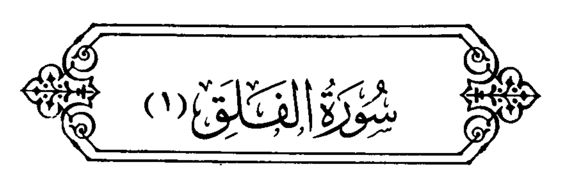
---

(١) انظر حجة القراءات ٧٧٧، النشر ٢/٤٠٤، إتحاف فضلاء البشر ٢/٦٣٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤١٤ وعزاه لابن عساكر عن علي.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤١٤ وعزاه للعقيلي عن رجاء الغنوي.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣/٨، وانظر الدر المنثور ٦/٤١٣.



مختلف فيها وهي خمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ يعني قل يا محمد أعتصم وأستعيذ وأستعين بخالق الخلق والفلق الخلق وإنما سمي الخلق فلقاً لأنهم فُلِقُوا من آبائهم وأمهاتهم ويقال (أعوذ برب الفلق) يعني بخالق الصبح، ويقال فالق الحب والنوى قال الله تعالى (إن اللّه فالق الحب والنوى) وقال (فالق الإصباح) ويقال الفلق واد في جهنم، ويقال جب في النار

وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال الفلق شجرة في جهنم فإن أراد الله أن يعذب الكافر بأشد العذاب يأمره أن يأكل من ثمرها

وروي عن كعب الأحبار أنه دخل في بعض الكنائس التي للروم فقال: أخسر عمل وأضلُّ قوم قد رضيت لكم بالفلق فقيل له ما الفلق يا كعب؟ قال: بئر في النار إذا فتح بابها صاح جميع أهل النار من شدة عذابها

ثم قال عز وجل ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ قال الجن والإنس وقال الكلبي من شر ما خلق يعني من شر ذي شر. ثم قال عز وجل ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ يعني ظلمة الليل إذا دخل سواد الليل في ضوء النهار ويقال (إذا وقب) يعني إذا جاء وأدبر وقال القتبي (الغاسق) الليل والغسق الظلمة ويقال الغاسق القمر إذا انكسف واسودّ (وإذا وقب) يعني إذا دخل في الكسوف

ثم قال تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَفَاثَاتِ فِي العُقَدِ﴾ يعني الساحرات الموخزات المهيجات اللواتي ينفثن في العقد ثم قال عز وجل ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إذا حَسَدَ﴾ يعني كل ذي حسد[٢] أراد به لبيد بن أعصم اليهودي ويقال لبيد بن

(١) الغرض من السورة تعليم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلمات للتعوذ بالله من شر ما يتقي شره من المخلوقات الشريرة، والأوقات التي يكثر فيها حدوث الشر، والأحوال التي يستر أفعال الشر من ورائها لئلا يرمي فاعلوها بتبعاتها، فعلم الله نبيه هذه المعوذة ليتعوذ بها، وقد ثبت أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يتعوذ بهذه السورة وأختها وكان يأمر أصحابه بالتعوذ بهما فكان التعوذ بهما من سنة المسلمين.

(٢) الحسد: إحساس نفساني مركب من استحسان نعمة في الغير مع تمني زوالها عنه لأجل غيره على اختصاص الغير بتلك الحالة أو على مشاركته الحاسد فيها. وقد يطلق اسم الحسد على الغبطة مجازاً. والغبطة تمنى المرء أن يكون له من الخير مثل ما لمن يروق حاله في نظره، وهو محمل الحديث الصحيح «لا حسد إلا في اثنتين» أي لا غبطة، أي لا تحق الغبطة إلا في تينك الخصلتين، وقد بين شهاب الدين القرافي الفرق بين الحسد والغبطة في الفرق الثامن والخمسين والمائتين. فقد يغلب الحسد صبر=

عاصم وروى الأعمش عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم قال سحر النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلٌ من اليهود عقد له عقداً فاشتكى لذلك أياماً فأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال له: إن رجلاً من اليهود سحرك فبعث علياً رضي الله عنه واستخرجها فحلّها فجعل كلما حل عقدة وجد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذلك خفة حتى حلها كلها فقام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأنما نشط من عقال فما ذكر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك لليهود(١)

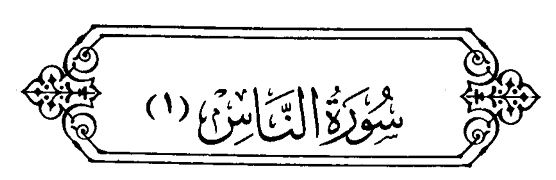
وروي في خبر آخر أن لبيد بن أعصم اتخذ لعبة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخذ من عائشة رضي الله عنهـا فأفحل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجعل في اللعبة أحد عشر عقدة ثم ألقاها في بئر، وألقى فوقها صخرة فاشتكى من ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شكواً شديداً فصارت أعضاؤه مثل العقد فبينما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين النائم واليقظان إذ أتاه ملكان أحدهما جلس عند رأسه والآخر عند قدميه فالذي عند قدميه يقول للذي عند رأسه ما شكواه قال السحر قال من فعل به؟ قال لبيد بن أعصم اليهودي قال فأين صنع السحر قال في بئر كذا قال ماذا رأوه يبعث إلى تلك البئر فنزح ماؤها فإنه انتهى إلى الصخرة فإذا رأها فليقلعها فإن تحتها كؤبة وهي كؤبة قد سقطت عنقها وفيه إحدى عشرة عقدة فيحرق في النار فيبرأ إن شاء الله تعالى فاستيقظ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد فهم ما قالا فبعث عمار بن ياسر وعلياً رضي الله عنهما إلى تلك البئر في رهط من أصحابه فوجدوها كما وصف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم فنزلت هاتان السورتان وهي إحدى عشرة آية فكلما قرأ آية حل منها عقدة حتى انحلت كلها ثم أحرقها بالنار فبرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٢)وروي في بعض الأخبار عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال (قل هو اللّٰه أحد) و(قل أعوذ برب الفلق) و(قل أعوذ برب الناس) ما سأل منها سائل ولا استعاذ مستعيذ بمثلها قط(٣) وهذه الآية دليل أن الرقية جائزة إن كانت بذكر الله تعالى وبكتابه والله أعلم بالصواب.

= الحاسد وأناته فيحمله على إيصال الأذى للمحسود بإتلاف أسباب نعمته أو إهلاكه رأساً. وقد كان الحسد أول أسباب الجنايات في الدنيا إذ حسد أحد ابني آدم أخاه على أن قبل قربانه ولم يقبل قربان الآخر، كما قصه الله تعالى في سورة العقود. وتقييد الاستعاذة من شرة بوقت «إذا حسد» لأنه حينئذ يندفع إلى عمل الشر بالمحسود حين يجيش الحسد في نفسه فتتحرك له الحيل والنوايا لإلحاق الضرر به. التحرير ٣٠/٦٢٩ ـ ٦٣٠.

(١) انظر الدر المنثور ٦/٤١٧.

(٢) انظر الدر المنثور ٦/٤١٧.

(٣) أخرجه بنحوه النسائي ٨/٢٥١ كتاب الاستعاذة (٥٤٣٠).



سُورَةُ النَّاسِ (١)

مختلف فيها وهي ست آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

قوله تعالى: **﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾** يقول أستعيذ بالله وخالق الناس ويقال أستعيذ بالله الذي هو رازق الخلق، ثم قال عز وجل **﴿ملك الناس﴾** يعني خالق الناس ومالكهم وله نفاذ الأمر والملك فيهم، ثم قال عز وجل **﴿إله الناس﴾** يعني خالق الناس ومعطيهم ومانعهم **﴿مِن شَرِّ الوَسْوَاسِ﴾** يعني من شر الوسواس يعني من شر الشيطان، لأني لا أستطيع أن أحفظ نفسي من شره لأنه يجري في نفس الإنسان مجرى الدم ولا يراه بشر والله تعالى قادر على حفظي من شره ومن وسوسته

ثم وصف الشيطان فقال **﴿الخناس﴾** قال مجاهد هو منبسط على قلب الإنسان إذا ذكر الله خنس وانقبض فإذا عقل انبسط على قلبه ويقال له خنوس كخنوس القنفذ **﴿الذي يُوَسْوِسُ في صُدورِ النَّاسِ مِنَ الجِنَّةِ والناسِ﴾** يعني يدخل في صدور الجن كما يدخل في صدور الإنس ويوسوس لهم ويقال (الناس) في هذا الموضع يصلح للجن والإنس فإذا أراد به الجن فمعناه يوسوس في صدور المؤمنين الذين هم جن (يوسوس في صدور الناس) يعني الذين هم من بني آدم ويقال (الناس) معطوف على الوسواس ومعناه (من شر الوسواس) (ومن شر الناس) كما قال في آية أخرى (شياطين الإنس والجن) وقال مقاتل روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال له جبريل ـ عليه السلام ـ ألا أخبرك يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأفضل ما يتعوذ به؟ قلت وما هو؟ قال المعوذتان

وروى علقمة عن عقبة بن عامر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «ما تعوذ المعوذون بمثل المعوذتين»[٢]. وروي عن الحسن البصري في قوله تعالى (من الجنة والناس) قال إن من الناس شياطين فتعوذوا بالله من الشياطين يعني شياطين الجن والإنس، وقال هما شيطانان فأما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس،

(١) اشتملت هذه السورة على إرشاد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن يتعوذ بالله ربه من شر الوسواس الذي يحاول إفساد عمل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإفساد إرشاده الناس ويلقى في نفوس الناس الإعراض عن دعوته. وفي هذا الأمر إيماء إلى أن الله تعالى ميعذة من ذلك فعاصمة في نفسه من تسلط وسوسة الوسواس عليه، ومتمم دعوته حتى تعم في الناس. ويتبع ذلك تعليم المسلمين التعوذ لذلك، فيكون لهم من هذا التعوذ ما هو حظهم من قابلية التعرض إلى الوسواس، ومن السلامة منه بمقدار مراتبهم في الزلفى.

(٢) أخرجه بنحوه النسائي ٨/٢٥٢ كتاب الاستعاذة (٥٤٣٢) والطبراني في الكبير ١٧/٣٤٦.

وأما شيطان الإنس فإنه علانية وروى أبو معاوية عن عثمان[١] بن واقد قال أرسلني أبي إلى محمد بن المنكدر أسأله عن المعوذتين أهما من كتاب الله تعالى قال من لم يزعم أنهما من كتاب الله تعالى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين (والله أعلم وصلَّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وإمام المتقين ورسول رب العالمين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة والمقربيـن وأهل طاعتك أجمعين. ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين وعن التابعين وتابعي التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، حسبنا الله ونعم الوكيل. ووافق الفراغ من كتاب هذا التفسير المبارك لمولانا الإمام العالم العلامة أبي الليث نصر بن إبراهيم السمرقندي رضي الله عنه آمين وأرضاه وجعل الجنة منقلبه ومثواه ونفعنا بعلومه ومدده وأسراره في الدراين آمين في يوم الأحد المبارك مستهل محرم الحرام افتتاح سنة اثنين وتسعين وتسعمائة المباركة. أحسن الله عاقبتها بمحمد وآله)[٢].

---

(١) عثمان بن واقد بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر صدوق ربما وهم. التقريب ٢/١٥.

(٢) سقط في ظ. وهي في (أ)، (ب).

فهرس المحتويات

تفسير سورة فصلت

تفسير سورة الشورى

تفسير سورة الزخرف

تفسير سورة الدخان

تفسير سورة الجاثية

تفسير سورة الأحقاف